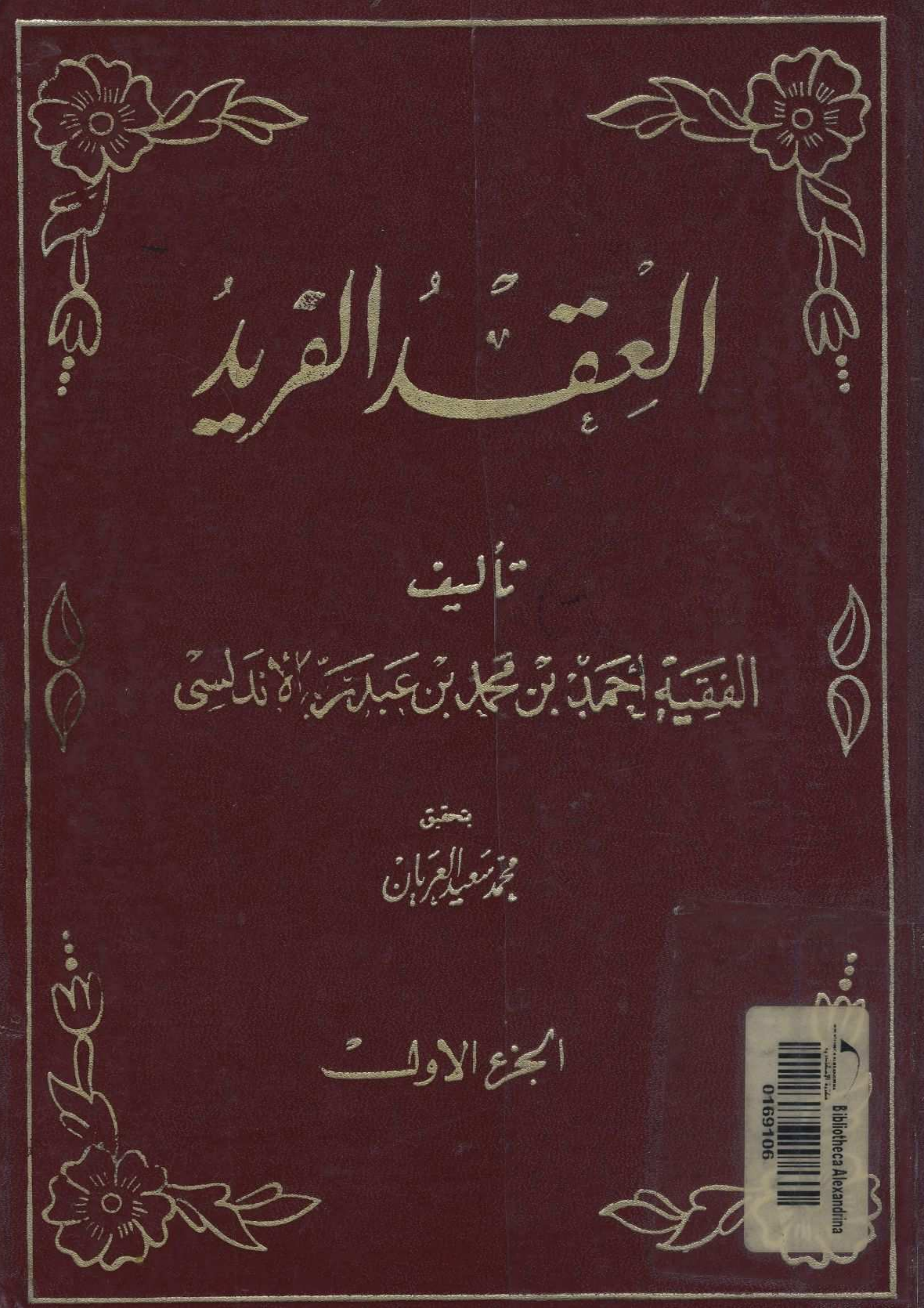


العقد الفريد

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

بتحقيق

محمد سعيد العريان

الجزء الاول

العِقْدُ الفَرِيدُ

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨ هـ

بتحقيق

محمد سعيد العريان

الجزء الأول

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب ومؤلفه

بقلم

محمد سعيد العريان

يُعَدُّ كتاب « العقد » لابن عبد ربه من أقدم ما وصل إلينا من كتب الأخبار والنوادر ؛ لم يسبقه إلى هذا الباب فيما نعرف إلا ثلاثة نفر : الجاحظ صاحب البيان والتبيين : سنة ٢٥٥ هـ ؛ وابن قتيبة صاحب عيون الأخبار : سنة ٢٧٦ هـ ؛ والمبرّد صاحب الكامل : سنة ٢٨٥ هـ .

على أن ابن عبد ربه وإن كان مسبوقا إلى التأليف فى هذا الباب ، قد اجتمع له فى هذا الكتاب مالم يجتمع مثله فى كتاب قبله ولا بعده من كتب هذا الفن ؛ فكان بذلك حقيقا بالمنزلة العليّة التى أحلّه إياها أُدباء العربية ؛ إذ كانَ مصدراً من أهم مصادر التاريخ الأدبى التى يُعوَّل عليها ويُستَند إليها ، بحيث لا يُغنى غَناءه كتاب فى المكتبة العربية ـ على غِناها وما احتشد فيها من تراث أدباء العرب .

والحقُّ أن هذا الكتاب هو موسوعة أدبية عامة ، ويوشك مَن ينظر فيه أن يجزم بأنه لم يغادر شيئا مما يهم الباحث فى « علم العرب » إلا عَرَضَ له ، وأعنى بـ « علم العرب » مجموعةَ المعارف العامة فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع التى تتكوّن منها عناصرُ الثقافة العربية العامة لعهد مؤلّف هذا الكتاب ؛ وعن الفروع التى انشعبت من علم

العرب قريباً من ذلك التاريخ واختصت بالبحث فى «علوم الدين» ثم تميّزت باستقلالها ـ لا يَعْدَم الباحث أن يجد فروعاً من مسائلها قد عرض لها صاحبُ العقد فى أبواب متفرقة من كتابه، لعله لايجد لكثير منها نظائر فى كثير من الكتب الخالصة للبحث فى هذه العلوم.

وثمة فضلٌ آخر يميز صاحب العقد على سابقيه ممن عرضوا لهذا الباب، هو أن ابن عبد ربه أندلسىٌّ من أهل الجزيرة يتحدث عن أدب المشارقة فلا تقصِّر به مغربيَّتُه عن اللحاق والسبق؛ ولعل هذا كان بعضَ دواعى ابن عبد ربه إلى تأليف كتابه؛ إذ كان فى طبعه من المنافسة وحب الغَلَب مايحفزه إلى هذا المضمار، كما سنذكره بعد.

وليس بى من حاجة إلى الحديث عن نهج صاحب العقد فى تأليف كتابه؛ فقد تكفَّل هو بتبيان ذلك فى مقدِّمة الكتاب، ولكن الذى يعنينى أن أذكره هنا، هو أن ذلك النهج الذى سلكه مسبوقاً إليه وسلكه كذلك مَن بعده: كان يستند إلى قاعدة مقرَّرة فى «علم الأدب» كما عرَّفه القدماء؛ انظر إلى ابن خلدون يقول فى مقدمة تاريخه: «هذا العلم ـ يعنى علم الأدب ـ لاموضوع له يُنظَر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرتُه، وهى الإجادة فى فَنَّى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم؛ فيجمعون لذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملَكة، مِن شعرٍ عالى الطبقة، وسجعٍ متساوٍ فى الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة، يستقرى منها الناظرة فى الغالب معظمَ قوانين العربية، مع ذكر بعضٍ من أيام العرب، ليفهم به مايقع فى أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة؛ والمقصود بذلك كله أن لايخفى على الناظر فيه شىء من كلام العرب وأساليبهم ومناحى بلاغتهم إذا تصفَّحه . . . . . . ثم إنهم إذا أرادوا حَدَّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب [illegible] أخبارها، والأخذ من كل علم بِطَرَف»

هذا الحدّ الذى ذكره ابن خلدون فى تعريف علم الأدب ـ [illegible] سنة ٨[illegible]، وعبد [illegible] رفا لكل المشتغلين بالأدب قبل عهد ابن خلدون، [illegible]ة المختار بعد كلام فى [illegible] عبد ربه وبعده: يجمعون من أشعار العرب وأخبار[illegible] بحسنه وتمحو الأ[illegible]

ليكون من ذلك سبيل إلى تحصيل الملَكة ، وإلى الإجادة فى فنّى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ؛ وإذ كان ابن عبد ربه لم يقصد من كتابه إلى أكثر من هذا المعنى ، فقد كان ذلك نَهْجَه فى تصنيف كتابه والحشدِ له والتفنُّنِ فيما ينقل ويختار من أشعار العرب وأخبارها ، ومن أطراف كل علم وطرائفه .

ولقد وُفّق ابن عبد ربه فيما جَمَع لكتابه من فنون الأخبار ، ورعَتْهُ العنايةُ رعايةً هَيَّأتْ لكتابه الخلود والذِّكرا ؛ فإن كثيراً مما اجتمع له فى هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره الأولى فدَرَسَتْ آثارُها وضاعت فيما ضاع من تراث المكتبة العربية وآثارِ الكُتَّاب العرب ، وبقى العقدُ خلَفاً منها لا غَنَاء عنه ولا بديلَ منه ، يرجع إليه الأديبُ والمؤرخ واللغوى والنحوى والعروضى وصاحب الأخبار والقصص ، فيجد كلٌّ طلبتَه وغرضَه ، ولا يستغنى عنه غير هؤلاء من طلاب النوادر والطرف فى باب الطعام والشراب والغناء والنساء والحرب والسياسة والاجتماع ومجالس الأمراء ومحاورات الرؤساء ، وغير ذلك مما لا يستوعبه الحصر ولا يبلغه الإحصاء .

* * *

على أنّ ابن عبد ربه لم ينظر فيما جمع لكتابه من الفنون نَظَرَ المختص ، بحيث يختار ما يختار لكل فرع من فروع المعرفة بعد نقد وتمحيص واختبار فلا يقع منه فى باب من أبواب الفن إلا ما يجتمع عليه صوابُ الرأى عند أهله ، لا ؛ ولكنه نظر إلى جملة ما جمع نَظَرَ الأديبِ الذى يروى النادرة لحلاوة موقعها لا لصحة الرأى فيها ، ويختار الخبر لتمام معناه لا لصواب موقعه عند أهل الرأى والنظر والاختصاص ؛ انظر إليه فيما رَوى من حديث رسول صلى الله عليه وسلم مثلا ، تجد الصحيح والمردود والضعيف والمتواتر والموضوع [illegible] له ما نقلَ من حوادث التاريخ وأخبار الأمم والملوك ، تجد منه ما تَعرِف وما تُنكر ، لم يغادر شيئاً وما تكذّبه البداهة وما يتناقض آخره وأوّله ؛ ولم يكن ابن عبد ربه من الغفلة بحيث [illegible] مجموعةَ المعارف العامة فى الأدب ، جامعُ أخبار ومؤلّف نوادر ، جمع ما جمع وألّف ما ألّف [illegible] الثقافة العربية العامة لعهد مؤلفه يأخذ وما يدع ؛ ذلك كان شأنه وشأن المؤلفين فى هذا

الفن من قبله ومن بعده ، على حدود متعارفة بينهم ورسوم موضوعة . على أن ذلك لا يعنى أن ما جَمع من مثل تلك الأحاديث وهذه الأخبار ليس له مغزاه عند أهل الاختصاص والفن ، ولكنها أشياء للاستدلال لا للدليل ، كما يقول أصحابُ المنطق .

* * *

ذلك هو موجز الرأى فى التعريف بهذا الكتاب وقيمتِه فيما عَرض له من أبواب العلم والأدب ؛ وبقى علينا أن نعرف المصادر التى استند إليها ابن عبد ربه من الكتب والرواة .

يقول ابن عبد ربه فى مقدمته : « وقد ألفت هذا الكتاب ، وتخيّرتُ جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب ، وإنّ مالى فيه هو تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش لدرر كل كتاب ؛ وما سواه فمأخوذٌ من أفواه العلماء ، ومأثورٌ عن الحكماء والأدباء . . . »

وهذا الذى يقوله المؤلف فى وصف كتابه ، يدعونا إلى السؤال : مِن أين اختار ابن عبد ربه مختاراته ؟ وماهى مصادره الأولى ؟ . . . انظر إليه تجده يروى عن الشيبانى ، والمدائنى ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، والعتبى ، والشعبى ، والسجستانى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرد ، والرياشى ، والزيادى ، وابن سلام ، وابن الكلبى ، وغيرهم من علماء المشارقة ؛ وعن الخشنى ، وابن وضاح ، وبقىّ بن مخلد ، من علماء الأندلس ؛ فأىُّ هؤلاء لقى ابنُ عبد ربه فأخذ عنهم شفةً إلى شفة ، وأيهم نَقل إليه من أخباره راويةٌ عن راوية ؟ . .

لم يَعرِض أحدٌ ممن ترجموا لابن عبد ربه ـ للحديث عن رحلةٍ له إلى المشرق ـ إلا فروضاً نظرية استنبطها بعض المتأخرين لدلائل يستند إليها فى كتاب « العقد » ولا نراها تصلح للاستدلال ؛ فلم يبقَ إلا أن صاحب العقد قد رَوَى من أخبار المشارقة ما نُقل إليه حيث هو فى مُقامه من قرطبة ؛ ولم يعبر البحر ولم يركب الصحراء ؛ وقد كان من شيوخ ابن عبد ربه فى الأندلس كما سنذكره بعد : الخشنى ، وبقى بن مخلد ، وابن وضاح ؛ وللأوّلين منهم رحلة إلى المشرق ورواية .

على أن كثيراً من كتب المشارقة وعلومهم كانت ذائعة متداولة لعهد ابن عبد ربه ؛

وكان لها عند العلماء منزلة ومكان ؛ فليس ثمة مايمنع أن يكون ابن عبد ربه قد استعان كثيراً أو قليلا بما كانت تضمُّ المكتبةُ العربية فى قرطبة من آثار المشارقة .

وقد قدَّمنا القولَ فى صدر هذا البحث أنه لم يسبق ابنَ عبد ربه إلى التأليف فى باب الأخبار والنوادر على هذا النحو إلا ثلاثةُ نفر : الجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرّد .

أما الجاحظ والمبرد فقد كان لهما نهج فى التأليف يخالف نهج العقد ، على اتفاقهما فى الموضوع والغرض ؛ فكان انتفاعه بما اطلع عليه من مؤلَّفاتهما فى المادة لا فى الطريقة وأما ابن قتيبة ؛ فان بينه وبين ابن عبد ربه مَشَابِهَ من وجوه ، حَمَلَتْ بعض الباحثين على الزعم بأن صاحب العقد كان فى نهجه وفى تبويبه لاحقاً مقلِّداً ، بل قد غَلَا بعضهم فى الاستنتاج فزعم أن ابن عبد ربه قد سطا على كثير من كتب ابن قتيبة فنقلها نقلا إلى عقده بحالها من غير تغيير كبير ؛ وإنه مما يقوِّى هذا الزعم ، تلك الشهرةُ العظيمة التى كان يحظى بها ابن قتيبة عند أهل الأندلس ، حتى كانوا يتهمون من خَلَتْ مكتبتُه من مؤلَّفاته ، ولكن العقد الفريد على الرغم من ذلك غيرُ عيون الأخبار ، وابنُ عبد ربه غير ابن قتيبة ، ولكل من الرجلين شخصيته المتميِّزة بوضوح من خلال مختاراته ، ولكل منهما مزاجُه وروحه ومذهبه وجوُّه الذى يعيش فيه ويُصدر عنه ؛ فسواء كان هذا الزعم صحيحاً أو مبالغة فى الاستنتاج ، فلن يضير ذلك صاحبَ العقد شيئا ، ولن ينقص شيئا من قدر كتابه ؛ إذ كانت المادة التى اجتمع منها الكتابان ليست مِلكا لأحد الرجلين ، ولا هى أثراً من إنشائه الأدبى الخالص ولكنها تراث مشترك يتوزَّعه أبناء العربية مما خلَّف آباؤهم .

. . . وليس معنى أنه لم يسبق ابن عبد ربه فى بابه إلا هؤلاء النفرُ الثلاثة ، أنه لم يأخذ عن غيرهم ؛ ولكن الذى نعنيه أن انتفاعه بكتب هؤلاء النفر كانت أظهرَ دلالةً على نفسها ، وإلا فقد كانت مكتبة قرطبة لهذا العهد حافلة بطائفة من الكتب لم يجتمع مثلُها فى زمان فى مكان ، فلا بد أن يكون ابن عبد ربه قد استعان منها بالكثير ، إلى جانب ما أخذ من أفواه العلماء المغاربة الذين كانت لهم رحلة إلى المشرق أذاعوا بها علم العربية بين الشرق والغرب

* * *

ويقول الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب فى جامعة القاهرة ، فى بحث نشره للتعريف بصاحب العقد (مجلة الثقافة ـ العـدد ٩٤ ـ ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٠) : إن أمالى أبى على القالى كانت هى النواةَ الأولى التى بذرها أبو على فى بلاد الأندلس من علوم المشرق وعليها تخرج مشهورو الأدباء فى الأندلس ، ومنهم ابن عبد ربه . . . . . .

وظاهر كلام الأستاذ العميد صريح فى أن ابن عبد ربه كان لاحقاً لأبى على القالى ، وأنه من تلاميذه ، وأن كتاب « الأمالى » أسبق من « العقد الفريد » ، وأنه أول ما نُقل إلى المغاربة من علم المشرق . . .

وأرى هذا كله خطأً لا يستند إلى دليل من التاريخ ، فقد كان مَقْدَم أبى على القالى إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهُر (توفى ابن عبد ربه بقرطبة سنة ٣٢٨ ، وكان مقدم أبى على القالى فى إمارة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠) ، وكان تأليف كتابه الأمالى بعد مقدمه بسنين ؛ إذ كان هذا الكتاب هو مجموعَ محاضراته فى جامع قرطبة .

فاذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد ربه قد فرغ من تأليف كتابه « العقد » فى سنة ٣٢٢ على ما رجّحه ، وقدّرنا المدة التى أملى فيها أبو على محاضراته فى جامع الزهراء قبل أن يجمعها فى كتاب ببضع سنين ، كان لنا من ذلك برهان لا يُدْفَع بأن العقد الفريد كان أسبقَ من الأمالى ببضع عشرة سنة ؛ فلا وجه هناك للقول بأن ابن عبد ربه كان من تلاميذ أبى على ، وبأن كتابه على منهاجه .

وأما قوله إن كتاب الأمالى كان النواةَ الأولى من علم المشارقة فى الأندلس ، فينقضه ما كان معروفا قبل ذلك فى الأندلس من كتب القوم ، حتى روى ابن كثير فى تاريخه : أن أهل المغرب كانوا يتهمون من لم يكن فى بيته من مؤلفات ابن قتيبة شىء (توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ ، وكان مولد أبى على سنة ٢٨٨) ، وكان للمغاربة من العناية بتحصيل علم المشرق والتبكير إليه ما دعا المستنصرَ إلى أن يرسل وراء النسخة الأولى من كتاب الأغانى لأبى الفرج فيشتريها بألف دينار . . .

أضف إلى ذلك أن رحلة المغاربة إلى الشرق كانت متصلةً لطلب العلم

القرن الثالث ؛ فلا يمكن مع هذا أن يكون علم أبي عليّ جديدا على أهل الأندلس فى أواسط القرن الرابع ، وأن يكون نواةً وقدوة ومنشِئَ مدرسةٍ يتخرج عليها مثل ابن عبد ربه مؤلف العقد . . . .

* * *

ويتحدث ابن عبد ربه فى مقدمته عن « تأليف الاختيار وحسن الاختصار » فأىّ معنى لما يُذكر من حسن الاختصار ، فى هذا المقام ؟ أتُراه يعنى حسن الاختصار فى المجموع ، أو فى كل خبر على حدته ؟ أعنى : هل كان ابن عبد ربه يروى الخبر بحروفه كما سمعه أو قرأه من غير اختصار فيه وإنما كان يختصر فى جملة ما يروى من الأخبار بحيث لا يُثبت منها إلا ما تدعو الحاجةُ إليه ؟ أو كان يختصر الخبر نفسه فيحذف من حروفه ما يحذف وينقص ما ينقص ذهاباً إلى الاقتصاد فى التعبير عن المعنى الذى ينقله ؟ . . .

أقول : هذا كتاب العقد بين أيدينا ، وقد نظرتُ فيه طويلا ، وعاودت النظر مرات فبدا لى من طول المراجعة أمرٌ لا بد من التنبيه إليه : ذلك أن بعض دواعى ابن عبد ربه فى تبويب كتابه ، كانت تقتضيه أن يثبت الخبر مرات فى أبواب متفرقة ، لصلاحيته للدلالة فى أكثر من موضوعٍ واحد ؛ فإذا أنت حقّقتَ النظر فى هذه الأخبار المكرَّرة فقلَّ أن تجد منها خبراً مرويًّا فى موضعين بحروفه على وجه واحد ، فثمة الحذف والزيادة والإبدال وليس هناك من سبب ـ فيما نرى ـ لهذا الاختلاف فى رواية خبر واحد فى كتاب واحد لمؤلف واحد ، إلا أن يكون المؤلف يملك من حرية التصرف فى رواية هذه الأخبار ما يسمح له أن يرويها بلغته ، ويؤدّيها على الوجه البيانى الذى يراه ؛ فهو يرويها بالحذف والاختصار حيناً ، وبالبسط والزيادة حيناً آخر ؛ . . . فهل كان ذلك بعض ما يعنيه ابن عبد ربه بـ « حسن الاختصار » ؟ . . .

. . . ولقد يكون هذا الخلاف فى رواية خبر واحد نتيجةً لازمةً لاختلاف الرواة المنقول عنهم ، أو نتيجة لازمة لاختلاف الكتب التى ينظر فيها ويقتبس منها ؛ ولكن لا يدله حين يكون راوى الخبر فى الموضعين واحداً ، والكتاب المنقول عنه

واحداً كذلك ؟ . . .

أظن أنه يحق لى بازاء مثل ذلك أن أزعم بأن ابن عبد ربه لم يكن ينظر إلى شروط الرواية تلك النظرةَ المتحرِّجة التى تفرض على مثله فى هذا المقام أن يلزم جانب الحرص فى المحافظة على نَصِّ ما يرويه بحروفه ، وأنه كان يجيز لنفسه أن يتصرف فى رواية بعض الأخبار تصرُّفاً يؤدى بها معناها دون حروفها ؛ وأحسب ذلك يصلح تعليلا لانفراد ابن عبد ربه فى بعض ماورد فى كتابه من نصوص تخالف ما أجمع عليه رواتها فى مختلف كتب الأخبار والنوادر ؛ وأحسبه كذلك سبباً فيما التزمه صاحب العقد ونبَّه إليه فى مقدمته وهو حذف الأسانيد فيما روى من أخباره .

فاذا صح ذلك ، كان العقد إلى جانب ماقدّمنا من التعريف بمزاياه ، مرجعا لغويًّا يمكن الاستناد إليه فى شىء من التطورات اللغوية لبعض معانى العربية بين الشرق والغرب .

صحيح أن بعض هذا الاختلاف فى رواية بعض الأخبار قد يكون مرجعُه رواةَ الكتاب نفسِه وكَتَبَتَه ونُسَّاخه ، ولكن ذلك إذا صحَّ فى قليلها لايصح فى سائرها ؛ وقد نبَّهنا فى هامش هذه الطبعة إلى كثير من أنواع هذا الاختلاف ، فليرجع إليها من شاء للنظر والاستدلال .

* * *

بقى أن نسأل : لماذا قَصَر ابنُ عبد ربه كتابه على (أخبار المشارقة) وهو مَن هو علما وتحصيلا ومعرفة بآداب قومه ، وقُرطبةُ هى ماهى فى ذلك العصر الزاهر فى الأدب والعلم والفن والسياسة ؟ . . .

تعليل ذلك سهل ميسور لمن يعرف تاريخ ذلك العصر فى قرطبة وبغداد حاضرتى البلاد العربية فى الغرب والشرق .

لقد كان فرار عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية فى المشرق ، محاولةً جريئةً لإقامة حكومة المغرب بازاء الحكومة العباسية فى بغداد ؛ ولقد حالفَ التوفيقُ عبدَ الرحمن

كثير مما أراد ، وأقام عرشا لبنى أميـة فى الأندلس يتوارثه بنوه سيدا عن سيد ، كلهم يحرص على النهوض بدولته إلى المنزلة التى يجعلها تناظر بغداد ؛ فمن ذلك كانت المنافسة بين الدولتين فى الشرق والغرب دائبةً لاتنى ، وكانت الوفود لاتفتأ ساعيةً بين الحاضرتين ، فلا يظهر جديدٌ فى بغـداد حتى يكون نَبؤه فى قرطبة ، ولا ينجم نجمٌ فى قرطبة حتى يذيع خبره فى بغـداد ؛ واتخذت المنافسة بين الدولتين مظهراً علميا يبدو أثره فيما كان من اهتمام المغاربة بالرحلة إلى الشرق للتزوّد من معارفه ، وفيما كان من تطلُّع المشارقة إلى الأندلس ليعرفوا كل جديد من خبره وما أحدث علماؤه وأدباؤه فى مختلف فروع المعرفة .

على أن المغاربة مع ما كان فيهم من اعتداد بأنفسهم وعصبية لبلادهم لم يكن منكوراً لديهم أن علم العربية فى المشرق كلّه ، منه نشأ وفيه نَمَا وَرَبا ؛ فكانت إليه أنظارهم ، وإليه حجُّهم وقبلتُهم ، ولا يتمُّ تمامُ العالم منهم ـ عند الرؤساء وعند العامة ـ إلا أن يكون عليه مَشْرِقيًّا .

وكما نشاهد فى مصر لعهدنا مَن يتزيَّد فى الفضل بكثرة ما يروى من علم الأوربيين وما يقصُّ من مشاهداته لديهم ومايروى من أخبارهم ـ كان هنالك فى ذلك العهد . . . . . .

. . . وفى ذلك العهد كان ابن عبد ربه ، وكأنى به وقد رأى المنزلة التى ينزلها علماء المشارقة من نفوس قومه ، والمكانَ المرموق الذى تحتله مؤلفاتُهم وكتُبهم ؛ حتى كان شأن ابن قتيبة وكتبه عندهم ما قدَّمنا ـ كأنى به وقد رأى ذلك ، فدبر أمراً ، وأحكَمَ خُطةً ، واتخذ طريقاً ؛ ثم خرج على الناس بكتابه يقول : ها أنا ذا ، وها هم أُولاء !

وكان علماء الأندلس يرحلون إلى المشرق ، فرحل المشرق إلى الأندلس فى كتابِ ابنِ عبد ربه . . . !

ذلك وجه الرأى فيما أحسب لاقتصار كتاب ابن عبد ربه على أخبار المشارقة إلا قليلا منه ، لا أرى لذلك وجها سواه .

رحل كتاب ابن عبد ربه إلى المشرق تسبقه شهرته ، ووقع فى يد الصاحب بن عباد ... قا ملهوفا يلتمس فيه علمَ مالم يعلم ، فما هو إلا أن نظر فيه حتى طواه وهو يقول

أسفا : « هذه بضاعتنا رُدّتْ إلينا ! » . . . ثم دار الزمان وجدّت الحوادثُ فى آثار العرب فأخذتهم بالسنين ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات ، وتبعثرت المكتبة العربية فَخَلَتْ بعد امتلاء ؛ ولكن علم المشارقة ظلَّ محفوظاً بين دفتى كتاب ابن عبد ربه المغربى الأندلسىّ القرطبى . . . !

هذا ، وقد كان كتاب العقد من بعدُ ، مرجعاً له خطره ومقداره عند كثير من علماء المشارقة ؛ فنقل عنه القلقشندى فى صبح الأعشى ، والنويرى فى نهاية الأرب ، والأبشيهى فى المستطرف ، والبغدادى فى خزانة الأدب ، وابن خلدون فى المقدمة ، وغير هؤلاء كثير حتى قل أن يخلو كتابٌ من كتب النوادر بعدُ إلا كان العقد مرجعَه وخزانة علمه ، ولو أنى ذهبت أستقصى أسامى الكتب التى سطا أصحابها على العقد فاحتملوا من خزائنه ما أغناهم وذهب بصيتهم وشهرتهم كل مذهب ـ لأعيانى البحث وانقطع بى دون الاستقصاء .

* * *

ولكن هذا الكتاب على ما قدمتُ من وصفه ومن خبره واحتفالِ العلماء به ، لم يسلم من عبث الأيام ، وعدا عليه ما عدا على كثير من تراثنا العربى فى الشرق والغرب ؛ فلم يصل إلينا إلا بعد ما تناولته أيدى العابثين بالمسخ والتشويه والحذف والزيادة ، حتى أوشك ـ بما دخل عليه ـ أن يفقد قيمته العلمية عند أهل البحث والنظر .

وكانت أولى طبعاته فى مصر سنة ١٢٩٣ هـ ، ومن هذه الطبعة كلُّ الطبعات التالية ؛ فهى صورة منها بما فيها من الغلط والتحريف والحشو والنقص ؛ ولم يحاول أحد منذ ذلك التاريخ أن ينظر فى هذه الموسوعة العربية نظر العالم المحقق فيخرجها لقراء العربية فى صورة أدنى إلى الكمال ؛ بلى ، قد حاول هذه المحاولةَ غيرُ واحد من أهل التحقيق ثم ارتدوا جميعاً على أعقابهم ، ومن هؤلاء مَن يُعَدُّ رأساً فى الآداب العربية ، منهم الأساتذة الأعلام أصحاب « مختار العقد » : المرحوم محمد الخضرى بك ، وعبد الخالق عمر بك ، وعبد العزيز خليل بك ، وعبد الحكيم محمد . انظر إليهم يقولون فى مقدمة المختار بعد كلام فى وصف العقد « . . . غير أنا رأينا فيه ثلاثة عيوب كادت تذهب بحسنه وتمحو الانتفاع [illegible] ابن استفاد

الناس به : أما الأول فتحريف يكاد المعنى يضيع بسببه فى كثير من مواضعه ، حتى سمعنا من أديب كبير أن إصلاح العقد الفريد مما ليس فى مكنة إنسان ؛ ويُبَيِّنُ لك هذا أن تنظر إلى مثل هذه الجملة : «والفرح فى أهلك» ثم تعلم أنها حُرِّفت عن : والقدح فى الملك» ، وحينئذ يظهر لك صعوبة هذا الإصلاح حقيقة . . . الخ » .

قلت : ولو أن الأمر اقتصر على مثل عبارة « الفرح فى أهلك ، والقدح فى الملك » لكان الأمر أهون مما قدَّروا . . .

وسمعتُ ممن لا أتهم أن المرحوم الأستاذ المرصفى ، شيخ أدباء الجيل ، همَّ مرة أن يقرأ العقد لتلاميذه ثم نكص ، إشفاقاً من مشقة تصحيحه ؛ فاذا كان هذا الخبر صحيحاً ، ولا أحسبه بعيداً من الصحة ، فان فيه الدلالة على مقدار ماعبثت الأيام بأصول هذا الكتاب ، وما يعترض سبيل تصحيحه من أهوال . . .

* * *

قلت : إن فى النسخة التى بين أيدينا اليوم من العقد ما فيها من المسخ والتحريف والنقص والزيادة ؛ أما المسخ والتحريف فحسبي الإشارة إلى نوعهما فيما ذكرت قبلُ من قول أصحاب « مختار العقد » ؛ وأما النقص فان مواضعه ظاهرة فى هذه الطبعة بما زِيد فيها من العبارات والحروف بين العلامتين [ ] ؛ وأما الزيادة فحسب القارئ منها مَثَلٌ واحدٌ أنبه إليه : فقد كانت وفاة ابن عبد ربه مؤلف العقد على التحقيق سنة ٣٢٨ هـ ؛ فمِن أين له أن يترجم فى أخبار الخلفاء وتواريخهم للراضى والمتقى ، والمستكفى ، والمطيع ، وكلهم بعد وفاة ابن عبد ربه ؟

* * *

ذلك هو العقد الفريد كما كان ، وها هو ذا اليوم بين يدى قارئه ؛ لا أزعم أنى بلغتُ به كل ما أردتُ ، ولكنى بذلتُ له كل ما أَطَقت ؛ وحسبي أن أجد بين يدى قراء العربية اليومَ نسخةً من هذه الموسوعة الجامعة أقربَ إلى الكمال والصحة ، لأشعر بالرِّضا إلى مابذلت [illegible] وما أنفقتُ من عافية ؛ ولا أحاول أن أصف عملى بأكثر مما يصف

نفسه ؛ ولى من حُسن تقدير القراء فيما أحسنتُ وواسع مغفرتهم فيما قصّرتُ ما يمنعنى من استجداء الثناء أو تقديم المعاذير ؛ والله حسبى !

* * *

وإذ كان العقد على ماقدّمت من قيمته لكل باحث ، كان لابدّ لتمام نفعه أن يكون له فهارس ترشد إلى أبوابه وتهدى إلى مسالكه ؛ فعُنيتُ بأن أقسّم فهارسه إلى خمسة أنواع :

١ — فهرس الموضوعات ، وقد جعلته ملحقاً بكل جزء من أجزائه .

٢ — فهرس الأعلام ، ويشمل كل ما يضم العقد بين دفتيه من الأسماء والكُنَى ، من غير التفاتٍ إلى مراتبهم العلمية .

٣ — فهرس القوافى .

٤ — فهرس القبائل والبطون والأماكن والبلدان والطوائف .

٥ — فهرس أنصاف الأبيات .

وهذه الفهارس الأربعة الأخيرة ملحقة بالجزء الأخير من الكتاب ، مرتبة على حروف الهجاء .

وأحسب أنه كان يسعنى أن أجعل للأمثال فهرساً سادساً ، لولا أنى رأيتها مجموعة فى كتاب واحد من جواهر العقد ، بحيث لايصعب على القارئ أن يهتدى منها إلى مايريد من غير احتياج إلى فهرس يَهدى إليها .

* * *

وقد ارتضيتُ أن أجعل الكتاب فى ثمان مجلدات ، إذ كان العقد ـ على أنه كتاب العالم والأديب والمؤرخ ـ مما لايستغنى عنه طالب القصص والنوادر ، وملتمِسُ الفكاهات والمُلَح ، ومتتبِّعُ الأخبار والطُّرَف ؛ ومثل هذا الكتاب الذى يُلتَمس للرياضة واللهو ، ينبغى أن يخفَّ محمله ، ليسهل على صاحبه فى السفر والحضر ، وفى الحديقة والمنزل .

* * *

... ويبقى أمر لابد من التنبيه إليه ، ذلك أنى آثرتُ تسمية الكتاب بالإ

الذى يعرفه به أكثر قراء العربية اليوم فى مختلف أقطارها ؛ وهو « العقد الفريد » وإنما سمّاه مؤلِّفه « العقد » فقط ، فاستحدث المتأخرون هذه الصفة « الفريد » . ووُفِّق إلى هذا الرأى المستشرقُ الالمانى بروكلمان (Brockelmann) ، وتابعه بعضُ الباحثين من كتاب العربية ويرجِّح الأستاذ جبرائيل سليمان جبُّور فى كتابه (ابن عبد ربه وعقده) أن زيادة « الفريد » فى اسم الكتاب وقعتْ فيما بين سنتى ٦٥٢ ـ ٨٥٠ هـ ، وقد استند فى رأيه ذلك إلى دلائل حقيقة بالتقدير والنظر ؛ فمن شاء فليرجع إليها ثمة (ص ٢٩ ـ ٣١) فان فى ذكرها هنالك غناء وكفاية .

ترجمة المؤلف

٢٤٦ هـ — ٣٢٨ هـ

أرانى قد ذكرتُ عن الكتاب ما وسِعَنى من غير أن أعرِّف بصاحبه على أنى أحسب القارئَ قد يجد فى بعض ماذكرتُ ماقد يغنيه عما بقى ؛ وفى الكتابِ بعدُ مايدلُّ على صاحبه دلالة لاتحتاج إلى تعريف ؛ وليس ابن عبد ربه مجهولا لقراء العربية بحيث يلزمنى التعريف به ، وليس الحديث عن تاريخه من السهولة بحيث يُغنى فى درْسه صفحاتٌ فى مقدمة كتاب ؛ على أنى مُثبِتٌ هنا بعضَ خبره على إيجاز ، تفادياً من النقص ، وتوسطاً بين المنزلَين .

نسبه :

هو أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربِّه بن حبيب بن حُدَير بن سالم القُرطُبى الأندلسى ، وكان جده سالم مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية .

نشـــأته :

نشأ ابن عبد ربه بقرطبة حاضرة الأندلس لعهد بني مروان ، وكان مولده في العاشر من رمضان سنة ٢٤٦ هـ ، ولم تعرف عنه رحلة إلى غير بلاد الأندلس ، وعاصر من أمراء بني مروان : محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) والمنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥ هـ) ، وعبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ، وعبد الرحمن الناصر بن محمد (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) ومات في إمارته ؛ وله في هؤلاء الأمراء الأربعة مدائح ذكر بعضها في كتابه ؛ ويظهر أنه كان مختصاً بهم محظيًّا لديهم ؛ وله في عبد الرحمن الناصر الأرجوزة الشهيرة التي فصّل فيها مغازيه مرتّبةً على السنين إلى سنة ٣٢٢ ، وقد أوردها في كتاب العسجدة الثانية في أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم (انظر الجزء الخامس) .

ولا يُعرف شيء من تاريخ ابن عبد ربه فيما عدا أنه كان في شبابه لاهيا مولعاً بالغناء ، ولكن ذلك لم يمنعه من التحصيل والدرس ، حتى عُدّ من فقهاء الأندلس ، وله شعر أيام صبوته رجع عنه في أخريات وعارضه بقصائد في الزهد سمّاها «الممحّصات» .

شيوخه :

ويذكر المؤرّخون من شيوخ ابن عبد ربه ثلاثة : بقيّ بن مخلد بن يزيد القرطبي (توفي سنة ٢٧٦ هـ) ، ومحمد بن عبد السلام الخشني القُرطبي (توفي سنة ٢٨٦ هـ) ومحمد بن وضاح وكان للأولين رحلة إلى المشرق ورواية وتصانيف مشهورة .

خُلقه وصفته :

لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً من سيرة ابن عبد ربه تدل على خلقه وصفته ، إلا ماقد من حديث لهوه وصبوته في شبابه ، ثم توبته وزهده من بعد ، ويمكننا أن نستنبط دراسة أدبه أنه كان غيوراً ، ولوعا بالمُنافسة ، معتدًّا بنفسه ، ميّالاً إلى المزاح والن جريئا على البذاء ، يبدو ذلك من ... ومن نقداته وتعقيبه على كثير م أخبار العلماء ، وفي العقد كثير من ذلك .

أماصفته الجسدية فلا نجد مايقرّبها إلى خيالنا إلا قصة أوردها المُقرى عن حديث كان
بين ابن عبد ربه وأبى محمد يحيى القلفاط الشاعر ، يستفاد منها أن ابن عبد ربه كان دميما ،
آدَرَ ، قريبَ الخطو ، يُباعد مابين رجليه ، هُزْأة .

مؤلفاته :

لا يُعرف لابن عبد ربه كتابٌ غير العقد ، وديوانِ شعر مفقود ، وذَكَر صاحبُ
كشف الظنون أن له كتابا آخر سمّاه « اللباب فى معرفة العلم والآداب» .

ولا نعرف على التحقيق متى ألف ابنُ عبد ربه كتاب « العقد » وهو قد عُمِّر اثنتين
وثمانين سنة ، ولكنا نرجّح أنه فرغ من تأليفه قريباً من سنة ٣٢٢ هـ أى قبل موته بست
سنين تقريبا ، يرشدنا إلى ذلك أرجوزته فى مغازى عبد الرحمن الناصر ، وقد فصّل فيها
أخباره ووقائعه إلى ذلك التاريخ ، فلو أن ابن عبد ربه لم يكن قد فرغ من تأليف كتابه فى
سنة ٣٢٢ لوجد مجالا للزيادة فى هذه الأرجوزة حتى يبلغ بها ما يشاء من تاريخ أميره ،
وقد كان فى أعماله بعد هذا التاريخ ما كان حقيقا بالإشادة والتنويه .

وفاته :

وأصيب ابن عبد ربه بالفالج فى آخر سنيه ، وتوفى يوم الأحد لثنى عشرة ليلة بقين
من جمادى الأولى سنة ٣٢٨ هـ ، ودفن يوم الاثنين فى مقبرة بنى العباس بقرطبة .

رحمه الله وأثابه ؟! محمد سعيد العريان

شبرا فى مساء الاثنين (*) { ١١ من شوال سنة ١٣٥٩ هـ
١١ من نوفمبر سنة ١٩٤٠ م }

(*) ...لنا هذه المقدمة للطبعة الأولى فى هذا الت... وقد رأينا أن نبقى عليها فى هـذه الطبعة كما

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن

* قال أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي :

الحمد لله الأوّل بلا ٱبتداء ، الآخرِ بلا ٱنتهاء ، المنفردِ بقُدرته ، المتعالى فى سلطانه ، الذى لا تحويه الجهاتُ ، ولا تنعته الصفات ، ولا تُدركه العيون ، ولا تبلغه الظنون ، البادئ بالإحسان ، العائد بالآمتنان ، الدّالّ على بقائه بفناء خَلقه ، وعلى قدرته بعجز كُلّ شىء سواه ، المغتفر إساءة المذنب بعفوه ، وجهل المسىء بحلمه ، الذى جعل معرفتَه ٱضطراراً ، وعبادتَه اختياراً ، وخلق الخَلق من بين ناطق مُعترف بوحدانيته ، وصامتٍ متخشّع لربوبيته ، لا يَخرج شىء عن قدرته ، ولا يَعزُب عن رؤيته ، الذى قَرن بالفضل رحمته وبالعدل عذابَه ، والناسُ مدينون بين فضله وعذابه[1] آذنون بالزوال ، آخذون فى الآنتقال من دار بلاء إلى دار جزاء.

أحمده على حِلمه بعد عِلمه ، وعلى عفوه بعد قدرته ، فإنه رضِى الحمدَ شكرا[2] لجزيل نعمائه ، وجليل آلائه ، وجعله مفتاحَ رحمته ، وكِفاء نعمته ، وآخر دعوى أهلِ جنته ، بقوله عز وجل : ﴿ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أنِ الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ .

وصلى الله على نبيه الكريم ، الشـافع المقرَّب ، الذى بُعث آخراً واصطُفِى أوّلا ، وجَعلنا من أهل طاعته ، وعُتقاء شفاعته . وبعد :

فإن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أُمة قد تكلموا فى الأدب وتفلسفوا فى العلوم على كل لسان ، ومع كل زمان ، وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايتَه وبذل مجهوده فى اختصار بديع معانى المتقدمين ، وآختيـار جواهرِ ألفاظ السالفين ، وأكثروا فى ذلك حتى آحتاج المختصر منها إلى آختصار ، والمُتخيَّر إلى آختيار ، ثم إنى رأيت

(١) فى بعض الأصول « وعدله »

(٢) فى بعض الأصول « ثمنا »

آخر كل طبقة وواضعى كل حكمة ومؤلفى كل أدب أعذبَ ألفاظاً ، وأسهل بنية ، وأحكم مذهباً ، وأوضح طريقة ، من الأوَّل ، لأنه ناقض[1] متعقِّب ، والأول بادئ متقدم . فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ، ثم يجعل عقله حَكما عادلا قاطعاً ؛ فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع ، طيبة المنبت زكية التربة ، يانعة الثمرة . فمن أخذ بنصيبه منهـا كان على إرثٍ من النبوة ومنهاج من الحكمة ، لا يستوحش صاحبُه ، ولا يضلُّ من تَمسك به . ٥

وقد ألفت هـــذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متخيَّر جواهر الآداب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهرَ الجواهرِ ولُباب اللباب وإنّ ما لى فيه هو تأليف الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرْش لدرر[2] كل كتاب ، وما سواه فمأخوذٌ من أفواه العلماء ، ومأثورٌ عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ، وقد قالوا : اختيار الرجلِ وافدُ عقلِه . ١٠

وقال الشاعر :

قد عرَفناك باختيارك إذ كا * نَ دليلاً على اللبيب اختياره

وقال أفلاطون : عقولُ الناس مُدَوّنة فى أطراف أقلامهم ، وظاهرة فى حُسن اختيارهم . فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعانى وجواهر الحِكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال ، ثم قَرنتُ كل جنس منها إلى جنسه فجعلته باباً على حِدَته ، ليستدلّ الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيرِه من كل باب . وقصدتُ من جملة الأخبار وفنون الآثار إلى أشرفهـا جوهراً ، وأظهرها رونقاً ؛ وألطفها معنى ، وأجزلهـا لفظاً ، وأحسنِها ديباجة ، وأكثرها طلاوة وحلاوة ، آخذاً بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ . ١٥ ٢٠

وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون أحسنَ ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون .

---

(١) فى بعض الأصول « ناكص » .

(٢) فى بعض النسخ « لصدر » ، وفى بعض آخر « لدور » .

وقال ابن سيرين : العلم أكثرُ من أن يُحاطَ به ، فخذوا من كل شيء أحسنَه وفيما بين ذلك سقطاتُ[1] الرأى وزَلَل القول . ولكل عالم هَفوة ولكل صارم نَبوة .

وفى بعض الكتب : انفرد الله تعالى بالكمال ولم يبرأ أحدٌ من النقصان .

وقيل للعتّابى : هل تعلم أحداً لا عيبَ فيه ؟ قال : إنّ الذى لا عيبَ فيه لا يموت أبدا ، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة .

وقال العتّابى : مَن قرض شعراً أو وضع كتاباً فقد استهدف للخصوم واستشرف للألسن ، إلا عند مَن نظر فيه بعين العدل ، وحكم بغير الهوى ، وقليلٌ ما هم .

وحذفت الأسانيدَ من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والإيجاز وهرباً من التثقيل والتطويل ، لأنها أخبار مُمتعة وحِكم ونوادر ، لا ينفعها الإسناد باتصاله ولا يضرها ما حُذِف منها . وقد كان بعضُهم يَحذف إسناد الحديث من سنّة مُتّبَعةٍ وشريعةٍ مفروضة ، فكيف لا يحذفه من نادرة شاردة ومَثَل سائر وخبر مستظرف .

سأل حفصُ بن غياث الأعمشَ عن إسناد حديث . فأخذ بحلقه وأسنده إلى حائط وقال : هذا إسناد .

وحدّث ابن السماك بحديث ، فقيل له : ما إسناده ؟ قال : هو من المرسلات عُرْفا .

وحدّث الحسن البصرى بحديث ، فقيل له : يا أبا سعيد ، عمّن ؟ قال وما تصنع بـ « عمّن » يابن أخى ؟ أما أنت فنالتْك موعظته ، وقامت عليك حجتُه .

وقد نظرت فى بعض الكتب الموضوعة فوجدتُها غير متفرّقة فى فنون الأخبار ، ولا جامعة لجل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب كافيا جامعاً لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامّة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسُّوقة ؛ وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تُجانس الأخبار فى معانيها وتوافقه فى مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعرى ليعلم الناظر فى كتابنا هذا أنّ لمغربنا على قاصيته ،

(١) فى بعض الأصول « سقطة » وفى سائرها « سقط » .

وبَلدِنا على آنقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور . وسميته كتابَ « العقد الفريد » لما فيه من مختلِف جواهر الكلام ، مع دقة المَسلك وحسن النظام .

وجزّأته على خمسة وعشرين كتاباً كل كتاب منها جزآن ، فتلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتابا ، قد آنفرد كل كتاب منها بآسم جوهرة من جواهر العقد.

فأولها كتاب اللؤلؤة في السلطان. ثم كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها . ٥ ثم كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد . ثم كتاب الجمانة في الوفود . ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك . ثم كتاب الياقوتة في العلم والأدب . ثم كتاب الجوهرة في الأمثال . ثم كتاب الزمرّدة في المواعظ والزهد . ثم كتاب الدرة في التعازى والمراثى . ثم كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب . ثم كتاب العسجدة في كلام الأعراب ، ثم كتاب المجنّبة في الأجوبة . ثم كتاب الواسطة في الخطب . ثم كتاب ١٠ المجنّبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة . ثم كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم . ثم كتاب اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة . ثم كتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم . ثم كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشِّعر ومقاطعه ومخارجه . ثم كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعِلل القوافي . ثم كتاب الياقوتة الثانية في عِلْم الألحان وآختلاف ١٥ الناس فيه . ثم كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن . ثم كتاب الجمانة الثانية في المتنبئين والمُمرورين والبخلاء والطفيليين . ثم كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان . ثم كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب . ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في النتف والهدايا والفكاهات والمُلَح .

كتاب اللؤلؤة في السلطان

فرش الكتاب

السلطان زِمام الأمور ، ونظام الحقوق ، وقِوام الحُدود والقطب الذى عليه مدار [الدين و[1]] الدنيـا . وهو حِمَى الله فى بلاده وظِلُّه الممدود على عباده ، به يَمتنع حريمُـهم ، ويَنتصر مظلومهم ، وينقمع ظالمهم ، ويأمن خائفهم .

الحكماء

قالت الحكماء : إمام عادل ، خير من مَطر وابل . وإمام غَشوم ، خير من فِتنة تدوم . ولَمَا يَزَعُ الله بالسلطان أكثر مما يَزَع بالقرآن .

وقال وهب بن مُنَبِّه : فيما أنزل الله على نبيه داودَ عليه السلام : إنى أنا الله مالك الملوك ، قُلوب الملوك بيدى . فمن كان لى على طاعـة جَعلت الملوك عليهم رحمة ، ومن كان لى على مَعصية جعلت الملوك عليهم نقمة .

فحق على من قلّده الله أزِمَّةَ حُكمه ، وملّكه أمورَ خَلْقه ، واختصه بإحسانه ، ومَكّن له فى سلطانه ، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيّته ، والاعتناء بمرافق أهل طاعته ، بحيث وضعه اللهُ من الكرامة ، وأجرَى عليه من أسباب السعادة .

قال الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

النبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : عدلُ ساعةٍ فى حُكومة خيرٌ من عبادةِ ستين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم . كُلكم راعٍ ، وكلُّ راعٍ مسئولٌ عن رعيته .

وقال الشاعر :

فكُلُّكمُ رَاعٍ ونَحْنُ رَعِيَّةٌ ° وكلٌّ يُلاقِى[2] رَبَّهُ فيُحاسِبُهْ

ومن شأن الرعيّة قلة الرضى عن الأئمة ، وتَحَجُّرُ العُـذر عليهم[3] ، وإلزامُ

---

(١) التكملة من نهاية الأرب .

(٢) فى بعض الأصول « سيلقى » .

(٣) أى تضييق العذر عليهم .

اللائمة لهم وربٍ مَلوم ٍ لاذنب له . ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة إذ كان رضى جملتها وموافقةُ جماعتها من المُعجز الذى لا يُدْرَك والمُمتنع الذى لا يُملك .

ولكلٍّ حصتُه من العدل ، ومنزلتُه من الحكم . فمن حقّ الإمام على رعيته أن يقضى عليهم بالأغلب من فعله والأعمّ من حكمه ، ومن حق الرعيّة على إمامها حُسنُ القبول لظاهر طاعتها وإضرابُه صفحاً عن مكاشفتها ، كما قال زياد لما قَدِم ٥ العراق والياً عليها : أيها النـاس ، قد كانت بينى وبينكم إحَن ، فجعلت ذلك دَبْرَ أُذنى وتحت قدمى ، فمن كان مُحسناً فليزددْ فى إحسانه ، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته . إنى لو علمتُ أنّ أحدكم قد قتله السِّل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتِك له سِتراً حتى يُبدى صفحتَه لى .

لابن عمر — وقال عبد الله بن عمر : إذا كانَ الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر ، وإذا ١٠ كان الإمام جائراً فله الوِزْرُ وعليك الصبر .

لكعب الأحبار — وقال كعب الأحبار : مَثل الإسلام والسلطان والناس : مَثل الفُسطاط والعمود والأوتاد . فالفسطاط الإسلام ، والعمود السلطان ، والأوتاد الناس . ولا يصلح بعضها إلا ببعض .

وقال الأفوه الأودِيّ : ١٥

لا يَصْلُح الناسُ فوْضَى لاسَرَاة لهم * ولا سَرَاة إذا جُهَّالهُم سـادُوا
والبَيْتُ لا يُبْتَنَى إلا له عَمَـدٌ * ولا عِمـادَ إذا لم تُرْسَ أَوْتادُ
وإنْ تَجَمَّع أوتادٌ وأعمِـدةٌ * يوماً فقدْ بَلَغُوا الأمْرَ الذى كادُوا

نصيحة السلطان ولزوم طاعته

قال الله تبارك تعالى : ﴿ يأيُّها الذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُول وأُولِى الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ . ٢٠

وقال أبو هُريرة : لما نَزلت هذه الآية أُمرنا بطاعة الأئمة . وطاعتُهم من طاعة الله ، وعصيانُهم من عصيان الله .

للنبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَن فارق الجماعة أو خَلع يداً من طاعة مات مِيتةً جاهليّة .

وقال صلّى الله عليه وسلم : الدينُ النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأُولى الأَمر منكم.

٥ فنُصْح الإمام ولزومُ طاعته فرضٌ واجب وأمرٌ لازم ، ولا يتم إيمانٌ إلاّ به ، ولا يثبت إسلام إلا عليه

مما وصى به العباس ابنه حين قدمه عمر

الشعبي عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال لى أبى : أرى هذا الرجل — يعنى عمر بن الخطاب — يَستفهمك ويقدِّمك على الأَكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . وإنى مُوصيك بخلال أربع : لا تُفْشِيَنَّ له سرًّا ، ولا يُجَرِّبَنَّ

١٠ عليك كذباً ، ولا تَطْوِ عنه نصيحة ، ولا تغتابَنَّ عنده أحدا .

قال الشعبي : فقلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف . قال : إى والله ، ومن عشرة آلاف.

لرجل من الهند ينصح ملكا

وفى كتاب للهند[1] : أنّ رجلاً دخل على بعض ملوكهم فقال : أيها الملك ، إنّ نصيحتك واجبة فى الصغير الحقير والكبير الخطير ، ولولا الثقةُ بفضيلة رأيك ،

١٥ واحتمالِك ما يَشُقُّ[2] موقعُه [من الأسماع والقلوب[3]] فى جَنْب صلاح العامة وتلافى الخاصة ، لكان خُرقاً منى أن أقول ؛ ولكنا إذا رجعنا إلى أنّ بقاءنا موصول ببقائك ، وأنفُسَنا متعلقة بنفسك ، لم نجد بدًّا من أداء الحق إليك وإن أنت لم تسلنى ذلك ، فإنه يقال : مَن كَتم السلطانَ نصيحتَه ، والأَطباء مرضَه ، والإخوانَ بَثّه[4] ، فقد أخلّ بنفسه ؛ وأنا أعلم أنّ كل كلام يكرهه سامعُه لا يتشجّع

٢٠ عليه قائلُه ، إلا أن يثق بعقل المَقُول له ؛ فإنه إذا كان عاقلا احتمل ذلك ؛ لأَنه

(١) يريد « كليلة ودمنة » وهذا ما يعنيه ابن عبد ربه فى أكثر من موضع من العقد .
(٢) فى عيون الأخبار « ما يسوء »
(٣) التكملة من عيون الأخبار
(٤) فى بعض الأصول « نثه » والبث والنث بمعنى . وقيل : النث أن تنشر حديثاً كتمه أولى

ما كان فيه من نَفْع فهو للسامع دون القائل . وإنّك أيها الملك ذو فضيلة فى الرأى وتصرُّفٍ فى العلم ، ويُشجعنى ذلك على أن أخبرك بما تكره ، واثقاً بمعرفتك[1] نصيحتى لك وإيثارى إيّاك على نفسى .

ابن عتبة ينصح الوليد

وقال عمرو بن عُتبة للوليد حين تغيّر الناسُ عليه : يا أمير المؤمنين ، إنه يُنطقنى الأُنسُ بك ، وتُسكتنى الهيبة لك[2] ، وأراك تأمن أشياء أخافها عليك ، أفأسكتُ مُطيعاً أم أقولُ مشفقا ؟ قال : كلٌّ مقبول منك ، ولله فينا عِلمُ غيبٍ نحن صائرون إليه . فقُتل بعد ذلك بأيام .

لابن صفوان فى خالصة السلطان

وقال خالد بن صَفوان : مَن صحب السلطانَ بالصحّة والنصيحة أكثرُ عَدُوًّا ممن صحبه بالغش والخيانة ؛ لأنه يَجتمع على الناصح عدوُّ السلطانِ وصديقُه بالعداوة والحسد ، فصديقُ السلطانِ يُنافسه فى مَرتبته ، وعدوُّه يُبغضه لنصيحته .

ما يصحب به السلطان

لابن المقفع فى خادم السلطان

قال ابن المقفع : ينبغى لمن خَدم السلطان ألا يغترّ به إذا رضى ولا يتغيّر له إذا سَخط ، ولا يَستثقل ما حمَّله ، ولا يُلحِف فى مسألته . وقال أيضاً : لا تكن صُحبتُك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم . فإن كنتَ حافظاً إذا ولّوك ، حَذِرًا إذا قرّبوك ، أميناً إذا آئتمنوك ذليلا إذا صَرَموك ، راضياً إذا أسخطوك ، تعلّمهم وكأنك متعلّم منهم ، وتؤدّبهم وكأنك متأدب بهم ، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر . وإلا فالبعدَ منهم كلَّ البعد ، والحذرَ منهم كل الحذر .

وقال المأمون : الملوك تتحمّل كل شىء إلا ثلاثة أشياء : القَدحَ فى الملك ، وإفشاء السر ، والتعرُّضَ للحَرم .

وقال ابن المقفع : إذا نزلت من السلطان بمنزلة الثقة فلا تلزم الدعاء له فى كل كلمة ؛ فإنّ ذلك يُوجب الوحشةَ ويُلزم الانقباض .

(١) فى بعض الأصول « بمعرفة » .
(٢) العبارة فى عيون الأخبار والوزراء والكتاب للجهشيارى مع خلاف .

وقال الأصمعي : توصلتُ بالمُلَح وأدركتُ بالغريب .

وقال أبو حازم الأعرج لسليمان بن عبد الملك : إنما السلطان سوق ، فما نفق عنده حُمِل إليه .

وصاة أبي سفيان وزوجه لابنهما معاوية حين عمل لعمر

ولما قَدِم معاوية من الشام ، وكان عمر قد استعمله عليها ، دخل على أُمه هند ؛ فقالت له : يابُنيّ ، إنه قلما ولدت حُرة مثلك ، وقد استعملك هذا الرجل ، فاعمل بما وافقه أحببتَ ذلك أم كرهتَه . ثم دخل على أبيه أبي سفيان ؛ فقال له : يا بنيّ ، إنّ هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرفَعَهم سَبْقُهم وقصّر بنا تأخُّرنا ، فصِرنا أتباعاً وصاروا قادة ؛ وقد قلّدوك جسيمًا من أمرهم ؛ فلا تخالفن أمرهم ، فإنك تجرى إلى أمدٍ لم تبلغه ، ولو قد بلغتَه لتنفّست[1] فيه .

قال معاوية : فعجبت من آتفاقهما في المعنى على آختلافهما في اللفظ .

لأبرويز ينصح صاحب بيت ماله

وقال أبَرْويز لصاحب بيت المال : إنى لا أعذرك فى خيانة درهم ، ولا أحمدك على صيانة ألف ألف ؛ لأنك إنما تحقن بذلك دمك وتُقيم أمانتك ، فإنك إن خُنت قليلا خنت كثيرا . واحترس من خصلتين : النُّقصان فيما تأخذ ، والزيادةِ فيما تعطى ؛ وآعلم أنى لم أجعلك على ذخائر الملك وعمارة المملكة والعُدّة[2] على العدوّ ، إلا وأنت عندى آمَنُ من موضعه الذى هو فيه ، وخواتمه التى هى عليه ، فحقّق ظنى باختيارى إياك أُحقق ظنَّك فى رجائك إياى ؛ ولا تتعوّض بخير شرًّا ، ولا برفعة ضَعة ، ولا بسلامة ندامة ، [ولا بأمانة خيانة][3] .

ليزيد بن معاوية ينصح سلما حين ولاه خراسان

ولما ولّى يزيد بن معاوية سَلمَ بن زياد خُراسانَ قال له : إنّ أباك كفى أخاه عظيما ، وقد استكفيتُك صغيرا ؛ فلا تتكلنّ على عُذر منى فقد اتكلتُ على كفاية منك . وإياك منى قبل أن أقول إياى منك ؛ فإن الظن إذا أخلف منى فيك أخلف منك فىّ ؛ وأنت فى أدنَى حظك فاطلُب أقصاه ، وقد أتعبك أبوك فلا تريحن نفسك .

(١) لتنفست فيه : أى استرحت عنده .

(٢) فى الأصول « القوة » وما أثبتناه رواية عيون الأخبار .

(٣) التكملة من عيون الأخبار.

لعمر بن الخطاب ومعاوية حين قدم عليه الشام

قال يزيد : حدّثنى أبى أنّ عمر بن الخطاب لما قَدِم الشام قدم على حِمار ومعه عبدُ الرحمن بن عوف على حمار ، فتلقّاهما معاوية فى موكب ثقيل ، فجاوزَ عمرَ معاوية حتى أُخبر به ، فرجع إليه . فلما قرُب منه نزل إليه ، فأعرض عنه ، فجعل يمشى إلى جنبه راجلاً . فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبتَ الرجل . فأقبل عليه عمر فقال : يامعاوية ، أنت صاحبُ الموكب آنفاً مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ولم ذاك ؟ قال : لأنا فى بلدٍ لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ولا بُدّ لهم مما يُرهبهم من هيبة السلطان ؛ فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتنى عنه انتهيت . فقال : لئن كان الذى تقول حقا فإنه رأىُ أريب ؛ وإن كان باطلا فإنها خُدعة أديب ، وما آمرك به ولا أنهاك عنه . فقال عبد الرحمن بن عوف : لحَسَنٌ ما صَدَر هذا الفتى عما أوردته فيه ! فقال : لِحُسْن موارده جَشَّمناه ما جشّمناه .

الربيع الحارثى فى حضرة ابن الخطاب

وقال الربيع بن زياد الحارثىّ : كنت عاملاً لأبى موسى الأشعرى على البَحْرين . فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بالقُدوم عليه هو وعُمّاله وأن يستخلفوا مَن هو مِن ثقاتهم حتى يرجعوا . فلما قدِمْنا أتيتُ يرفأ[1] ، فقلت : يايرفأ ، ابنُ سبيلٍ مُسترشد ، أخبرنى أىّ الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يَرى فيها عُمّاله ؟ فأومأ إلى الخشونة . فأخذت خُفَّين مطارَقين[2] ، ولبست جُبة صوف ، ولُثت رأسى بعمامة دَكْناء . ثم دخلنا على عمر ، فصفّنا بين يديه وصعّد فينا نظره وصوّب ، فلم تأخذ عينُه أحداً غيرى ، فدعانى ؛ فقال : من أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثى . قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين . قال : فكم تُرزق ؟ قلت : خمسة دراهم فى كل يوم . قال : كثير ! فما تصنع بها ؟ قلت : أتقوّت منها شيئاً وأعود بباقيها على أقارب لى ، فما فَضَل منها فعلى فقراء المسلمين . فقال : لابأس ، ارجع إلى موضعك ؛ فرجعت إلى موضعى من الصف . ثم صعّد فينا وصوّب ،

(١) يرفأ : غلام عمر بن الخطاب .

(٢) مطارقين : قد أطبق نعل على نعل ثم خرزتا .

فلم تقع عينه إلا عليّ ، فدعانى ؛ فقال : كم سِنُوك ؟ فقلت : ثلاث وأربعون سنة . قال : الآن حين استحكمت . ثم دعا بالطعام ، وأصحابى حديثو عهد بلين العيش وقد تجوعت له ، فأُتِىَ بخبز يابس وأكسار بعير[1] ، فجعل أصحابى يعافون ذلك ، وجعلت آكل فأُجيد الأكل . فنظرتُ فإذا به يلحظنى من بينهم ، ثم سبقتْ منى كلمة تمنيت أنى سُخْت فى الأرض ولم ألفِظ بها ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الناس ٥ يحتاجون إلى صلاحك ، فلو عمدتَ إلى طعام هو ألْيَنُ من هذا . فزجرنى وقال : كيف قلتَ ؟ قلت : أقول : لو نظرتَ يا أمير المؤمنين إلى قُرتك من الطحين فيُخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم ، ويُطبخ لك اللحم كذلك ، فتُؤتى بالخبز لينا وباللحم غريضا . فسكَّن من غَربه وقال : هذا قصدتَ ؟ قلت : نعم . قال : ياربيع ، ١٠ إنا لو نشاء لملأنا هذه الرِّحاب من صلائق وسبائك وصِناب ، ولكنى رأيت الله تعالى نَعى على قوم شهواتِهم فقال : ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ ثم أمر أبا موسى أن يُقِرّنى وأن يَستبدل بأصحابى !

ابن عبد ربه يفسر غريب الخبر

قوله « لثتها على رأسى » . يقال : رجل ألوث ، إذا كان شديدا ، وذلك من اللَّوث ؛ ورجل ألوث ، إذا كان أهوج ، مأخوذ من اللُّوثة . يقال : (لثت عمامة ١٥ على رأسى) يقول : أدرتها بعضها على بعض على غير استواء .

وقوله « صلائق » هى شىء يعمل من اللحم ، فمنها ما يطبخ ومنها ما يشوى ، يقال : صلقت اللحم ، إذا طبخته ، وصلقته إذا شويته .

وقوله « غريضا » يقول طريا . يقـــال : لحم غريض ، تراد به الطراوة قال العتابى :

٢٠ إذا ما فاتنى لحم غـــريض ٭ ضربت ذراع بكرى فاشتويتُ

و « سبائك » يريد الحُوّارى من الخبز ، وذلك أنه يُسبك فيؤخذ خالصه ، والعرب تسمى الرقاق : السبائك .

---

(١) فى بعض الأصول « وأكسار بغير إدام » .

و «الصناب» طعام يؤخذ من الزبيب والخردل ، ومنه قيل للفرس : صِنابى إذا كان فى لونه حمرة . قال جرير :

تُكَلِّفُنى مَعايِشَ آلِ زَيْدٍ * ومَنْ لِي بِالْمُرَقَّقِ والصِّنابِ

وقوله : «أكسار بعير» فالكِسْر والفصْل والجزْل : العظم يفصل ما عليه من اللحم . وقوله «نعى على قوم شهواتهم» أى عابهم بها ووبّخهم . ٥

زياد أول من استن ترك السلام على قادم عند السلطان

ومما يُصحب به السلطان : ألا يُسَلَّم على قادم بين يديه ، وإنما استَنّ ذلك زياد ابن أبيه ؛ وذلك أن عبد الله بن عباس قَدِم على معاوية وعنده زياد ؛ فرحّب به معاوية وألطفه وقرّب مجلسَه ولم يكلّمه زياد شيئاً فابتدأه ابن عباس وقال : ما حالك أبا المُغيرة ! كأنك أردتَ أن تُحدث بيننا وبينك هجرا . قال : لا ، ولكنه لا يُسَلَّم على قادم بين يدى أمير المؤمنين . فقال له ابن عباس : ماترك الناسُ التحية بينهم بين يدى أمرائهم . فقال له معاوية : كُفَّ عنه يابن عباس ، فإنك لاتشاء أن تغلِب إلا غَلَبْت . ١٠

ترك أبي مسلم السلام على المنصور بحضرة السفاح

دخل أبو مسلم على أبى العباس وعنده المنصور . فسلم على أبى العباس . فقال له : ياأبامسلم ؛ هذا أبو جعفر ! فقال له : ياأمير المؤمنين . هذا موضع لا يُقضَى فيه إلاحقك !

معاوية وابن العاص بين يدى عمر حين مقدمهما من الشام ومصر

أبو حاتم عن العتبي قال : قَدِم معاوية من الشام ، وعمرُو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب ؛ فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما ، إلى أن اعترض عمرٌو فى حديث معاوية ، فقال له معاوية : أَعَمَلى تَعيب وإلىّ تقصد ؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملى وأُخبره عن عملك ! قال عمرو : فعلمتُ أنه بعملى أبصر منى بعمله ، وأنّ عمر لا يدع أولَ هذا الحديث حتى يصير إلى آخره ؛ فأردت أن أفعلَ شيئاً أشغل به عمر عن ذلك ، فرفعتُ يدى فلطمتُ معاوية . فقال عمر : تالله ما رأيت رجلا أسفهَ منك ! قُم يا معاوية فاقتصّ منه . قال معاوية : إن أبى أمرنى ألاّ أقضى أمراً دونه . فأرسل عمر إلى أبى سفيان . فلما أتاه ألقى له وسادة وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه . ثم قصّ عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية . فقال : لهذا بعثت إلىّ ؟ أخوه وابن عمه ؛ ١٥ ٢٠

وقد أتى غيرَ كبير، وقد وهبتُ ذلك له.

لبعضهم في تلمس الحيلة لنصيحة السلطان

وقالوا: ينبغي لمن صحب السلطان أن لا يكتم عنه نصيحةً وإن آستثقلها، وليكن كلامه له كلامَ رِفق لا كلام خُرق، حتى يُخبره بعيبه من غير أن يُواجهه بذلك ولكن يضرب له الأمثال، ويُخبره بعيب غيره ليعرف عيبَ نفسه.

٥ وقالوا: من تعرّض للسلطان آزدراه، ومن تطامن له تخطّاه. فشبهوا السلطانَ في ذلك بالريح الشديدة التي لا تَضُر بما لانَ وتمايلَ معها من الحشيش والشجر، وما آستهدف لها قصمتْه. قال الشاعر:

إنّ الرّياح إذا ما أعْصَفَتْ قَصَفَتْ ۝ عِيدانَ نَبْعٍ ولا يَعْبأْنَ بالرَّتَمِ[1]

وقالوا إذا زادك السلطان إكراماً فزده إعظاما، وإذا جعلك عبداً فآجعله ربًّا.

لشبيب في مسايرة السلطان

١٠ وقال شبيب بن شيبة: ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي إذا أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج إلى أن يلتفت، ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس.

وزير الهند بين الملك والملكة

وقرأت في كتاب للهند أنه أهدى لملك ثياب وحَلي، فدعا بامرأتين له، وخيّر أحظاهما عنده بين اللباس والحلي. وكان وزيره حاضراً فنظرت المرأة كالمشيرة له، ١٥ فغمزها باللباس تغضينا بعينه، فلحظه الملك. فاختارت الحِلْية لئلا يفطن للغمزة وصار اللباس للأخرى. فأقام الوزير أربعين سنة كاسرا عينه لئلا تَقَرّ في نفس الملك، وليظن أنها عادة وخِلْقة.

اختيار السلطان لأهل عمله

لابن هبيرة يوصي مسلم بن سعيد حين وجهه إلى خراسان

لما وجّه عُمر بن هُبيرة مُسلم بن سعيد إلى خُراسان قال له: أوصيك بثلاثة: ٢٠ حاجبك، فإنه وجهك الذي به تلقى الناس: إن أحسن فأنت المحسن، وإن أساء فأنت المسيء؛ وصاحب شرطتك، فإنه سوطُك وسيفك: حيث وضعتهما فأنت

(١) الرتم: نبت من دق الشجر يشبه لدقته بالرتم، وهي الخيوط.

وضعتَهما ؛ وعُمّال القَدْر[1] قال : وما عمال القدر ؟ قال : أن تختار من كل كورة رجالا لعملك ، فإن أصابوا فهو الذى أردت ، وإن أخطئوا فهم المخطئون وأنت المصيب .

اختيار ابن أرطاة بين إياس والقاسم

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة : أن آجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجَوْشَنىّ[2] فوَلِّ القضاء أنفذهما ؛ فجمع بينهما ، فقال له إياس : أيها الرجل ، سَلْ عنى وعن القاسم فقيهَى البصرة : الحسنَ وابن سيرين — وكان القاسم يأتى الحسنَ وابنَ سيرين وكان إياس لا يأتيهما — فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به . فقال القاسم : لا تسأل عنى ولا عنه ؛ فوالله الذى لا إله إلا هو إنّ إياس بن معاوية أفقهُ منى وأعلم بالقضاء ؛ فإن كنت كاذبا فما ينبغى أن تولينى ، وإن كنتُ صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى . فقال له إياس : إنك جئتَ برجل فوقفته على شفير جهنم فنجّى نفسَه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما يخاف . فقال له عدى : أما إذ فهمتَها فأنت لها . فآستقضاه .

بين عدى وإياس فى القراء

وقال عدى بن أرطاة لإياس بن معاوية : دُلّنى على قوم من القُرّاء أُوَلِّهم . فقال له : القرّاء ضربان : فضرب يعملون للآخرة ولا يعملون لك ، وضرب يعملون للدنيا . فما ظنك بهم إذا أمكنْتَهم منها ؟ ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يَسْتَحْيُون لأحسابهم فوَلِّهم .

أبو قلابة والقضاء

أيوب السِّخْتِيانى ، قال : طُلب أبو قِلَابة لقضاء البصرة ، فهرب إلى الشام فأقام حينا ثم رجع . قال أيوب : فقلت له : لو أنك وَليتَ القضاء وعدلت كان لك أجران . قال : يا أيوب ، إذا وقع السابح فى البحر فكم عسى أن يسبح .

تولية عبد الملك الشعبى على قضاء البصرة

وقال عبد الملك بن مروان لجلسائه : دلّونى على رجل أستعمله . فقال له رَوْح ابن زِنْباع : أدلك يا أمير المؤمنين على رجل إن دعوتموه أجابكم ، وإن تركتموه

---

(١) عمال القدر : ذوو الشرف والحسب . وفى محاضرات الأدباء « عليك بأهل القدر الذين إن عدلوا فذلك ما رجوت فيهم » .

(٢) فى الأصول « الجرشى » ، وهو تصحيف .

لم يأتكم، ليس بالمُلحف طلباً، ولا بالمُمعِن هربا: عامر الشَّعبي؛ فولاه قضاء البصرة.

عمر بن عبد العزيز يسأل أبا مجلز عمن يوليه خراسان

وسأل عمر بن عبد العزيز أبا مِجْلَز[1] عن رجل يولّيه خراسان. فقال له: ما تقول فى فلان؟ قال: مَصنوع له وليس بصاحبها. قال: ففلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، يحسد أخاه وينافس أباه ويحقر مولاه. قال: ففلان؟ قال: يكافئ الأكفاء ويعادى الأعداء ويفعل ما يشاء. قال: ما فى واحد من هؤلاء خير.

عمر ورجل طلب عملا

وأراد عمر بن الخطّاب أن يستعمل رجلا، فبدر الرجل يطلب منه العمل فقال عمر: والله لقد أردتك لذلك، ولكن مَن طلبَ هذا الأمر لم يُعَنْ عليه.

وطلب رجلٌ من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعمله. فقال: إنا لا نستعمل على عملنا من يريده.

وطلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم إلى النبي ولاية. فقال: يا عم، نفسٌ تحييها خير من ولاية لا تحصيها.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لخالد بن الوليد: فِرّ من الشرف يَتْبعك الشرف؛ واحرص على الموت تُوهبْ لك الحياة.

وتقول النصارى: لا يُختار للجَثْلقة[2] إلا زاهداً فيها غيرَ طالب لها.

تولية ابن هبيرة لإياس

وقال إياس بن معاوية: أرسل إلىَّ ابنُ هبيرة فأتيتُه، فساكَتَنى[3] فسكتّ، فلما أطلت قال: هيه. قلت: سل عما بدا لك. قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئا؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئا؟ قلت: أنا بها أعرَف. قال: إنى أريد أن أستعين بك على عملى. قلت: إن فِىَّ خلالا ثلاثاً لا أصلح معها للعمل. قال: ما هى؟ قلت: أنا دَميم كما ترى، وأنا حديد، وأنا عَيِىّ. قال:

(١) فى الأصول «أبا مخلد» والتصويب من الطبرى.

(٢) الجثلقة: رياسة للنصارى دينية.

(٣) كذا فى عيون الأخبار؛ وفى الأصول «فسألنى».

أما دَمامتك فإنى لا أُريد أن أُحاسن الناس بك ، وأما العىّ فإنى أراك تُعرِب عن نفسك ، وأما الحدّة فإن السوط يقوّمك . [قُم قد ولّيتُك][1] قال : فولّانى وأعطانى مائة درهم[2] ، فهى أول مال تموّلته .

وقال الأصمعى : ولِىَ سليمان بن حَبيب المحاربى قضاء دمشق لعبد الملك والوليد وسليمانَ وعمرَ بن عبد العزيز ويزيدَ وهشام . ٥

وأراد عمرُ بن عبد العزيز مكحولاً على القضاء فأبى عليه . قال له : وما يمنعك قال مكحول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَقْضِى بين الناس إلا ذو شرف فى قومه ، وأنا مولى .

تولية ابن الخطاب للمغيرة مكان ابن أبى وقاص على الكوفة

ولما قَدِم رجالُ الكوفة على عمرَ بن الخطاب يشكون سعدَ بن أبى وقّاص ، قال : مَن يَعذِرنى من أهل الكوفة ، إن وليتُ عليهم التقىّ ضعّفوه ، وإن وليت عليهم القوىّ فجّروه ؟ فقال له المغيرة : يا أمير المؤمنين ، إن التقىّ الضعيف له تقواه وعليك ضعفُه ، والقوى الفاجر لك قوّتُه وعليه فجورُه . قال : صدقت ، فأنت القوىُّ الفاجر فاْخرج إليهم . فلم يزل عليهم أيامَ عمرَ وصدراً من أيام عثمان وأيام معاوية ، حتى مات المغيرة[3] . ١٠

حسن السياسة وإقامة المملكة ١٥

للحجاج يصف سيرته للوليد

كتب الوليدُ بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته ، فكتب إليه : إنى أيقظتُ رأيى وأنمتُ هواى ، فأدنيت السيّدَ المُطاع فى قومه ، وولّيت المجرِّبَ[4] الحازمَ فى أمره ، وقلدت الخراجَ الموفِّر لأمانته ، وقَسمت لكل خَصمٍ من نفسى قسماً أُعطيه حظّاً من لطيف عنايتى ونظرى ؛

(١) التكملة من عيون الأخبار . ٢٠
(٢) فى عيون الأخبار « ألفى درهم » .
(٣) الخبر فى شرح نهج البلاغة ، ومحاضرات الأدباء .
(٤) فى عيون الأخبار « الحرب » بفتح فكسر — وهو الشديد الغضب .

وصرفتُ السيفَ إلى النَّطِف[1] المسيء، والثوابَ إلى المحسن البريء؛ فخاف المريبُ صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

لأردشير يوصى ابنه

وقال أردشير لابنه: يا بنى، إنّ المُلْك والعَدل أخَوان لا غِنَى بأحدهما عن صاحبه فالمُلك أُسّ والعدل حارس، وما لم يكن له أُسّ فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع. يا بُنىّ اجعل حديثَك مع أهل المراتب، وعطيّتك لأهل الجهاد، وبِشْرَك لأهل الدين، وسرّك لمن عَنَاه ما عناك من ذوى العقول[2].

الحكماء فى واجب السلطان

وقالت الحكماء: مما يجب على السلطان العدلُ فى ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه، وفى باطن ضميره لإقامة أمر دينه: فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان. ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف، لا يقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما ولا يدور إلا عليهما، مع ترتيب الأمور مراتبها وإنزالها منازلها. وينبغى لمن كان سلطاناً أن يُقيم على نفسه حُجة الرعية. ومن كان رعية أن يقيم على نفسه حجة السلطان. وليكن حكمه على غيره بمثل حكمه على نفسه؛ فإنما يعرف حقوقَ الأشياء من عَرف مبلغ حدودها ومواقعَ أقدارها. ولا يكون أحد سلطانا حتى يكون قبلَ ذلك رعيّة.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلُح له منكم إلا من كان له سيف مَسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب.

لبعض الملوك يصف سياسته

ووصف بعض الملوك سياسته فقال: لم أهزل فى وعد ولا وعيد، ولا أمرٍ ولا نهى ولا عاقبت للغضب. واستكفيت[3]، وأثبتُ على الغَنَاء لا للهوى. وأودعت القلوب هيبة لم يَشُبْها مقت، وودًّا لم تَشُبْه جرأة. وعَممت بالقُوت، ومنعتُ الفضول.

(١) النطف: المتهم المريب.

(٢) انظر عيون الأخبار (١: ١٣٠) ومحاضرات الأدباء (١: ١٠٤) فبين الخبر هنا وهناك خلاف فى بعض الألفاظ.

(٣) استكفيت: وليت الأكفاء

لأعرابي في وصف أمير

وذكر أعرابي أميراً فقال : كان إذا وَلِي لم يُطابق بين جفونه ، وأرسل العيون على عيونه ؛ فهو غائب عنهم شاهد معهم ؛ فالمحسن راج والمسيء خائف .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يصلُح لهذا الأمر إلا اللَّيِّنُ في غير ضَعف ، القويُّ في غير عُنف .

بين الوليد بن عبد الملك وأبيه في السياسة

٥ وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : ياأبت ، ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودَّتها واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع .

لأرسطوطاليس يوصي الإسكندر

وكتب أرسطوطاليس إلى الإسكندر : أَملك الرعية بالإحسان إليها تظفرْ بالمحبة منها ، فإنّ طَلَبَك ذلك منها بإحسانك أدومُ بقاءً منه باعتسافك . واعلم أنك إنما تملك الأبدانَ فاَجمع لها القلوب بالمحبة ؛ واعلم أن الرعية إذا قَدَرت أن تقول قدَرتْ أن تفعل ؛ فاَجهد ألاّ تقولَ تسلم من أن تفعل . ١٠

وقال أردشير لأصحابه : إني إنما أملك الأجساد لا النيّات ، وأحكم بالعدل لا بالرضى ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر .

وكان عمرو بن العاص يقول في معاوية : اتقوا أَدَمَ[1] قريش وابنَ كريمها ، من يضحك في الغَضب ، ولا ينام إلا على الرضى ، ويتناول ما فوقه من تحته[2] .

لمعاوية في سياسته

١٥ وقال معاوية : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سَوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ؛ ولو أنّ بيني وبين الناس شعرةً ما انقطعت . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا مدّوها أرخيتُها ، وإذا أرخوها مددتها .

لعمرو بن العاص في معاوية وسياسته

وقال عمرو بن العاص : رأيتُ معاوية في بعض أيامنا بصفّين خرج في عُدّة لم أره خرج في مثلها ، فوقف في قَلْب عسكره فجعل يَلحظ مَيمنتَه فيرى الخَلَل ، فيبدُر إليه من يَسُدّه . ثم يفعل ذلك بميسرته ، فتُغنيه اللحظة عن الإشارة . فدخله ٢٠ زَهْوٌ مما رأى ، فقال : يابن العاص ، كيف ترى هؤلاء وما هم عليه ؟ فقلت : والله يا أمير المؤمنين لقد رأيتُ من يسوس الناسَ بالدين والدنيا فما رأيت أحداً أُوتي

---

(١) الأدم : الأسوة أو السيد ؛ وفي بعض الأصول « أكرم » .

(٢) يصف حسن تأتيه للأمر وقدرته على الصعاب مع يسر .

له من طاعة رعيّته ما أُوتى لك من هؤلاء . فقال : أفتدرى متى يَفسُد هذا وفى كم ينتقض جميعه ؟ قلت : لا . قال : فى يوم واحد . قال : فأكثرتُ التعجب . قال : إى والله وفى بعض يوم . قلت : وكيف ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إذا كَذَبوا فى الوعد والوعيد ، وأعطوا على الهوى لا على الغَناء : فسدَ جميعُ ما ترى .

لابن عباس يوصى الحسن

٥ وكتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن على إذ ولاه الناس أمْرَهم بعد على رضى الله عنه : أنْ شمِّرْ للحرب ، وجاهد عدوك ، وآشتر من الظَّنين دينه بما لا يَثْلِم دينك ، ووَلِّ أهل البيوتات تستصلحْ به عشائرهم .

للحكماء فى السياسة

وقالت الحكماء : أسْوَسُ الناس لرعيته من قاد أبدانها بقلوبها ، وقلوبَها بخواطرها . وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرهبة .

لأبرويز يوصى ابنه شيرويه

١٠ وقال أبرويز لابنه شِيرَوَيْه : لا توسّعنّ على جُندك سعة يستغنون بها عنك ولا تضيِّقن عليهم ضِيقا يضجون به منك : ولكن أعطهم عطاء قَصْداً ، وآمنعهم منعاً جميلا ، وابسُط لهم فى الرجاء ، ولا تبسط لهم فى العطاء .

بين المنصور وقواده

ونحو هذا قولُ المنصور لبعض قُواده . صَدَق الذى قال : أَجِعْ كلبَك يَتْبَعْك ، وسَمِّنْه يأكلك . فقال له أبو العباس الطُوسىّ : يا أمير المؤمنين ، أما تخشى إن

١٥ أجعته أن يُلوِّح له غيرُك برغيف فيتبعَه ويدعَك .

لأبرويز ينصح ابنه شيرويه

وكتب أبرويز إلى ابنه شِيرويه من الحبس : آعلم أنّ كلمةً منك تَسفك دماء وأخرى تَحقن دماء ، وأنّ سخطكَ سيفٌ مسلول على من سَخِطْتَ عليه ، وأن رضاك بَركةٌ مُستفيضة على مَن رَضِيت عنه ، وأنّ نفاذ أمرك مع ظهور كلامك . فاحترس فى غضبك من قولك أن يُخطئ . ومن لونك أن يتغيّر ، ومن جسدك أن يَخِفَّ ؛ فإن الملوك

٢٠ تُعاقب حَزْماً وتعفو حِلْما . وآعلم أنك تَجِلّ عن الغضب ، وأن مُلكك يصغُر عن رضاك ، فقدِّر لسُخطك من العقاب كما تُقدر لرضاك من الثواب[1]

من خطبة لسعيد ابن سويد

وخطب سعيد بن سُويد بحمص ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناسُ إنّ للإسلام حائطا مَنيعا ، وبابا وثيقاً . فحائط الإسلام الحق وبابه العدل ،

(١) الخبر فى عيون الاخبار على اختلاف وزيادة .

ولا يزال الإسلام مَنيعاً ما اشتدّ السلطان ، وليست شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل .

لابن الحكم في الحاقد على السلطان

وقال عبد الله بن الحكم إنه قد يَضْطغن على السلطان رجلان : رجل أحسن في مُحْسِنِينَ فأُثيبوا وحُرِم ، ورجلٌ أساء في مسيئين فعُوقب وعُفِي عنهم ؛ فينبغي للسلطان أن يحترس منهما . ٥

لأبرويز يوصى ابنه شيرويه

وفي التاج : كتب أبرويز لابنه شِيرويه يُوصيه : ليكن مَن تختاره لولايتك امرءا كان في ضَعة فرفعته ، أو ذا شرف كان مهمَلا فاصطنعته . ولا تجعله امرءا أصبتَه بعقوبة فاتضع لها ، ولا امرءا أطاعك بعد ما أذللته[1] . ولا أحداً ممن يقع بقلبك[2] أن إزالة سُلطانك أحبُّ إليه من ثبوته ؛ وإياك أن تستعمله ضَرَعًا غَمْراً[3] كثيرا إعجابُهُ بنفسه ، قليلاً تجربتُه في غيره . ولا كبيراً مُدْبِرا قد أخذ ١٠ الدهرُ من عقله كما أخذت السنُّ من جسمه .

بسط المعدلة وردّ المظالم

نصاف المأمون أمة من ابنه

الشَّيباني قال : حدّثنا محمد بن زكريا عن عباس بن الفضل الهاشمي عن قحطبة ابن حُميد قال : إني لواقفٌ على رأس المأمون يوما وقد جلس للمظالم ، فكان آخر من تقدم إليه ـ وقد همَّ بالقيام ـ امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة ، ١٥ فوقفت بين يديه فقالت السلامُ عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم ، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمي في حاجتك . فقالت :

يا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدَى لَهُ الرَّشَدُ ۞ ويا إماما به قدْ أَشْرَقَ البَلَدُ
تَشْكو إليكَ عَميدَ القَوْمِ أرْمَلَةٌ ۞ عُدِي عَليها فلَمْ يُتْرَكْ لَها سَبَدُ ٢٠

---

(١) زيادة عن عيون الأخبار ونهاية الأرب .
(٢) في نهاية الأرب وعيون الأخبار « في خلدك » .
(٣) الضرع : الضعيف . والغمر : من لا تجربة له .

وابْتُزَّ مِنى ضِيَاعِى بَعْدَ مَنْعَتِها ٭ ظُلْماً وفُرِّقَ مِنى الأَهْلُ والوَلَدُ .

فأطرق المأمون حينا ، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فى دُونِ ما قُلْتِ زَالَ الصَّبرُ والجَلَدُ ٭ عنّى وأقْرِحَ مِنّى القَلْبُ والكبد

هٰذَا أَذَانُ صَلاةِ العَصْرِ فانْصَرِفى ٭ وأَحْضِرِى الخَصْمَ فى اليَوْمِ الّذِى أَعِدُ

٥ والمَجْلِسُ السَّبْتُ إنْ يُقْضَ الجُلُوسُ لَنَا ٭ نُنْصِفْكِ مِنْهُ وإلّا المَجْلِسُ الأَحَدُ

قال : فلما كان يوم الأحد جلس ، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته . فقال : وعليك السلام ، أين الخصم ؟ فقالت : الواقفُ على رأسك يا أمير المؤمنين . وأومأتْ إلى العباس ابنه . فقال : يا أحمد بن أبى خالد ، خُذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم . فجعل ١٠ كلامُها يعلو كلامَ العباس ، فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله ، إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فاخفضى من صوتك . فقال المأمون : دعها يا أحمد ، فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها إليها ، وظلم العباس بظلمه لها ، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذى ببلدها أن يُوغِر لها ضيعتها[1] ويُحسن معاونتها ، وأمر لها بنفقة[2] .

الحكم على هشام فى خصومة بينه وبين إبراهيم ابن محمد

١٥ العتبى قال : إنى لقاعد عند قاضى هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم بن محمد ابن طلحة وصاحب حَرَسِ هشام ، حتى قعدا بين يديه ، فقال : إن أمير المؤمنين جرّانى[3] فى خُصومة بينه وبين إبراهيم . فقال القاضى : شاهدَيك على الجراية . قال أتُرانى قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل ، وليس بينى وبينه إلا هذه السُّترة ؟ قال : بلى ، ولكنه لا يثبُت الحق لك ولا عليك إلا ببينة . قال : فقام الحرسىّ ٢٠ فدخل إلى هشام فأخبره ، فلم نلبث أن قعقعت الأبواب وخرج الحرسى فقال : هذا أمير المؤمنين . وخرج هشام ، فلما نظر إليه القاضى قام ، فأشار إليه وبسط

(١) الإيغار : إسقاط الخراج .
(٢) انظر نهاية الأرب (٦ : ٢٧٦) .
(٣) جرانى جراية ، بالفتح والكسر : وكلنى .

له مُصلى ، فقعد عليه وإبراهيم بين يديه ، وكنا حيث نسمع بعض كلامهم ويخفى عنا بعضه . قال : فتكلما وأحضرا البيّنة . فقضى القاضى على هشام . فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخُرْق ، فقال : الحمد لله الذى أبان للناس ظلمك . فقال له هشام : لقد هممتُ أن أضربك ضربة ينتثر منها لحمك عن عظمك . قال : أمَا والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن قريبِ القرابة واجبِ الحق . فقال هشام : آسترها علىّ ! قال : لا ستر الله علىّ إذاً ذنبى يوم القيامة إن سترتُها . قال : فإنى مُعطيك عليها مائة ألف . قال إبراهيم : فسترتُها عليه حياته ثمناً لما أخذتُ منه ، وأذعتها بعد مماته تزييناً له .

الحجاج وسليك ابن سلكة

قال : وورد على الحجاج بن يوسف سُليكُ بن سُلَكة[1] فقال : أصلح الله الأمير ، أَرْعِنى سمعَك ، واغضُض عنى بصرك ، واكفُف عنى غربك ؛ فإن سمعتَ خطأً أو زللا فدونك والعقوبة . قال : قل . فقال : عصى عاص من عُرض العشيرة ؛ فحُلِّق على اسمى[2] وهُدِم منزلى ، وحُرِمْتُ عطائى . قال : هيهات ! أوَ ما سمعت قول الشاعر :

جانِيكَ مَنْ يَجْنِى عَلَيْـــكَ وقَدْ ۔ تُعْدِى الصِّحاحَ مَبَـــارِكُ الجُرْبِ
ولَرُبَّ مأخوذٍ بِذَنْبِ عَشِـــيرِهِ ۔ ونَجا المُقَـــارِفُ صاحِبُ الذَّنْبِ

قال : أصلح الله الأمير ، إنى سمعت الله عز وجل قال غير هذا . قال : وما ذاك ؟ قال : قال الله تعالى : ﴿ يا أَيُّها العَزِيزُ إنّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنّا نَرَاكَ مِن المُحْسِنِينَ ۔ قَالَ مَعاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إلاّ مَنْ وجَدْنَا مَتاعَنا عِنْدَهُ إنّا إذًا لَظَالِمُونَ ﴾ . فقال الحجاج : علىّ بيزيد بن أبى مسلم . فمثل بين يديه ، فقال : افكُكْ لهذا عن اسمه ، واصكُكْ له بعطائه ، وآبن له منزلَه ، ومُرْ مناديا ينادى : صدق الله وكذب الشاعر .

(١) لعله فرعون بن عبد الرحمن المعروف بابن سلكة الذى عاصر الحجاج ؛ إذ سليك ابن سلكة جاهلى

(٢) حلق على اسمى ، أى ضرب عليه بحلقة من المداد وذلك إذا أريد حبس العطاء عن صاحبه

وقال معاوية : إنى لأستحي أن أظلم من لايجد علىّ ناصرا إلا الله .

لعمر ابن عبد العزيز يوصى عاملا

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز بعضُ عماله يستأذنه فى تحصين مدينته . فكتب إليه : حَصِّنْها بالعدل ونَقِّ طُرُقَها من الظلم .

للمهدى يوصى ابن أبى الجهم

وقال المهدى للربيع بن أبى الجهم ـ وهو والى أرض فارس : ياربيع ، آثِر الحق ، والزم القصد ، وابسط العدل ، وارفُق بالرعية ، واعلم أن أعدل الناس ٥ من أنصَفَ من نفسه ، وأجْوَرَهم من ظلم الناس لغيره .

بين ابن عامر وابن أصبغ

وقال ابنُ أبى الزناد : عن هشام بن عُروة قال : استعمل ابن عامر عمرو بن أَصبغ علَى الأهواز ، فلما عزله قال له : ماجئتَ به ؟ قال له مامعى إلا مائة درهم وأثواب . قال : كيف ذلك؟ قال : أرسلتنى إلى بلدٍ أهلُه رجلان : رجل مُسلم له ١٠ مالى وعليه ما علىّ ، ورجل له ذمةُ الله ورسوله ، فوالله مادريتُ أين أضع يدى . قال : فأعطاه عشرين ألفاً . وقال جعفر بن يحيى : الخراج عمود الملك ، وما استُغْزِر بمثل العدل ، ولا استُنْزِرَ بمثل الظلم .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الظلمُ ظُلُماتٌ يوْمَ القِيامَةِ » .

صلاح الرعية بصلاح الإمام

١٥ قال الحكماء : الناس تَبَعٌ لإمامهم فى الخير والشر .

وقال أبو حازم الأعرج : الإمام سُوق ، فما نَفَقَ عنده جُلِبَ إليه .

عمر بن الخطاب وتاج كسرى وسواريه

ولما أُتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسِوَارَيْه . قال : إن الذى أدى هذا لأمين . قال له رجل : ياأمير المؤمنين ، أنت أمين الله ، يُؤَدُّون إليك ماأديتَ إلى الله تعالى ، فإن رتعت رتعوا .

٢٠ ومن أمثالهم فى هذا قولهم : إذا صلحت العَيْن صلَحت سواقيها .

الأصمعى قال : يقال : صنفان إذا صلحا صلح الناس : الأمراء والفقهاء .

بين مروان ووكيله

اطلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغُوطة ، فأنكر منها شيئا ، فقال لوكيله : ويحك ! إنى لأظنك تَخونى . قال : أتظن ذلك ولا تستيقنه . قال : وتفعله ؟

قال : نعم والله ، إنى لأخونك ، وإنك لتخون أمير المؤمنين ، وإن أمير المؤمنين ليخون الله ؛ فَلَعَن الله شر الثلاثة .

قولهم فى الملك وجلسائه ووزرائه

للحكماء فى الملك والوزراء

قالت الحكماء : لاينفع الملك إلا بوزرائه وأعوانه ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالمودّة والنصيحة ، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأى والعفاف. ثم ٥ على الملوك بعدُ ألاّ يتركوا مُحسناً ولا مسيئاً مّادون جزاء : فإنهم إذا تركوا ذلك ، تهاون المحسن ، وآجترأ المسىء ، وفسد الأمر ، وبطل العمل .

للأحنف فى فساد البطانة

وقال الأحنف بن قيس : من فسدت بطانتُه كان كمن غَصّ بالماء ، ومن غص بالماء فلا مَساغ له ، ومن خانه ثِقاته فقد أُتِى من مأمنه .

لابن الأحنف

١٠ وقال العباس بن الأحنف :

قلْبِي إلى ما ضَرّنِى داعِى ٭ يُكْثِرُ أحْزَانِى وأَوْجاعِى
كيْفَ احتِرَاسِى مِنْ عَدُوّى إذا ٭ كانَ عَدُوِّى بَيْنَ أضلاعى

وقال آخر :

كنتُ من كُرْبَتِي أفِرُّ إليْهِمْ ٭ فهُمُ كُرْبَتِي فأَيْنَ الفِرار

لعدى بن زيد

١٥ وأول من سبق إلى هذا المعنى عدىّ بن زيد فى قوله للنعمان بن المنذر :

لَوْ بِغَيْرِ المَاءِ حَلْقِى شَرِقٌ ٭ كُنْتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعْتِصارِى[1]

وقال آخر :

إلَى الماءِ يَسْعَى مَنْ يَغَصُّ بِرِيقِهِ ٭ فقُلْ أيْنَ يسعَى مَنْ يَغَصُّ بِماءِ

لابن العاص فى العدل

وقال عمرو بن العاص : لاسُلطان إلا برجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال ٢٠ إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل .

وقالوا : إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواجه .

---

(١) الاعتصار أن يترشف الماء قليلا قليلا .

قالوا : ليس شيء أضر بالسلطان من صاحب يُحسِنُ القول ولا يحسن الفعل ولاخير فى القول إلا مع الفعل ، ولا فى المال إلا مع الجود ، ولا فى الصدق إلا مع الوفاء ، ولا فى الفقه إلا مع الورع ، ولا فى الصدقة إلا مع حُسن النية ، ولا فى الحياة إلا مع الصحة .

٥ قالوا : إن السلطان إذا كان صالحاً ووزراؤه وزراء سَوْء آمتنع خيره من الناس ولم يستطع أحد أن ينتفع منه بمنفعة . وشبهوا ذلك بالماء الصافى يكون فيه التمساح ، فلا يستطيع أحدٌ أن يدخله وإن كان محتاجا إليه .

صفة الإمام العادل

كتاب الحسن البصرى إلى عمر ابن عبد العزيز فى وصف الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولِىَ الخلافة إلى الحسن بن أبى الحسن

١٠ البصرى أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل فكتب إليه الحسن رحمه الله :

آعلم يا أمير المؤمنين أن الله جَعَلَ الإمامَ العادلَ قِوامَ كلّ مائل ، وقَصْدَ كل جائر ، وصلاحَ كل فاسد ، وقُوةَ كل ضعيف ، ونَصَفَةَ كل مظلوم ، ومَفْزَع كل ملهوف . والإمامُ العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق بها ، الذى يرتاد لها أطيبَ المرعى ، ويذودها عن مراتع الهَلَكة ، ويحميها من السباع ، ويكُنُّها من

١٥ أذى الحرّ والقُرّ . والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ، ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، كالأُمّ الشفيقة البرة الرفيقة بولدها ، حملته كُرها ووضعته كرها ، وربّته طفلا ، تَسهر بسهره ، وتسكُن بسكونه ، تُرضعه تارة وتَفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، وصىُّ

٢٠ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربّى صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوارح : تصلح الجوارحُ بصلاحه وتفسد بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده ، يَسْمَعُ كلامَ الله ويُسْمِعُهم ، وينظر إلى الله ويُريهم ، وينقاد إلى الله ويقُودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله عز وجل كعبد آئتمنه سيّده واستحفظه مالَه وعياله ، فبدد

المـال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهلَه وفرّق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجُر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يَقْتَصُّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموتَ وما بعده ، وقلةَ أشياعِك عنده وأنصارِك عليه ؛ فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر . ٥

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه ثَواؤك ، ويفارقك أحِبَّاؤك ، يُسلمونك فى قعره فريداً وحيداً . فتَزَوَّدْ له ما يَصْحَبُك ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾

واذكر يا أمير المؤمنين ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ فالأسرار ظاهرة ، والكتاب ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ . ١٠

فالآن يا أمير المؤمنين ، وأنت فى مَهَل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلّط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقُبون فى مؤمن إلًّا ولا ذِمَّة ، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ معَ أوزارِك ، وتحمل أثقالَكَ وأثقالا مع أثقالك . ولا يَغُرَّنَّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك . ولا تنظرنّ إلى قدرتك[1] اليوم ، ولكن انظر إلى قُدرتك غدا وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوفٌ بين يدَى الله تعالى فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد ﴿ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ . ١٥

إنى يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بِعِظَتى ما بلغه أُولُو النُّهى من قبلى ، فلم آلك شفقةً ونصحاً ، فأنزل كتابى إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يَرجو له فى ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[1] ٢٠

هيبة الإمام فى تواضعه

لابن السماك • قال ابن السماك لعيسى بن موسى : تواضُعُك فى شرفك أكبر من شرفك !

(١) انظر نهاية الأرب (٦ : ٣٧)

لعبد الملك

وقال عبد الملك بن مروان : أفضل الرجال من تواضعَ عن رفعة ، وزَهِد عن قُدرة ، وأنصف عن قُوّة .

النجاشى وقد ولد له ولد

ذَكر عن النجاشى أمير الحبشة أنه أصبح يوماً جالساً على الأرض والتاج على رأسه ، فأَعْظَم ذلك أساقِفتُه ؛ فقال لهم : إنى وجدتُ فيما أنزل الله تعالى على المسيح عليه السلام ، يقول له : إذا أنعمتُ على عبدى نعمةً فتواضع إلىّ أتممتُها عليه ، وإنى وُلِدَ لى الليلةَ غلام ، فتواضعت لذلك شكراً لله تعالى .

لبعض الشعراء فى التواضع

وقال ابن قتيبة : لم يُقلْ بيتٌ أبدعُ من قول الشاعر فى بعض خلفاء بنى أمية :

يُغضِى حياءً ويُغْضَى من مهابتِهِ * فَلاَ يُكلَّمُ إلاَّ حين يَبْتَسِمُ [1]

وأحسن منه عندى قول الآخر :

فَتًى زادهُ عِزُّ المهابَةِ ذِلَّة * فَكلُّ عَزِيزٍ عِنْدهُ مُتَوَاضِع

وقال أبو العتاهية :

يا مَنْ تَشرّف بالدُّنيا وزينتها [2] * ليس التّشرُّف رَفْعَ الطِّينِ بالطينِ

إذا أردت شَرِيفَ النّاس كلِّهم * فانظُرْ إلى مَلِك فى زِىّ مِسْكين

ذَاكَ الّذى عَظُمت والله نِعْمتُه * وذاك يَصْلُحُ للدُّنيا وللدِّين

وقال الحسن ابن هانئ فى هيبة السلطان مع محبة الرعية :

إمامٌ عليه هَيبةٌ ومَحبَّةٌ * ألا بأَبى ذاك الحبيبُ المُحَبَّبُ

وقال آخر فى الهيبة وإن لم تكن فى طريق السلطان :

بنَفْسى من لَوْ مَرّ بَرْدُ بَنانه * على كَبِدِى كانتْ شفاءً أناملُهْ

ومَنْ هابَنى فى كُلِّ شَىْءٍ وهِبْتُهُ * فلَا هو يُعْطِينى ولا أنا سائِلُهْ

ولابن هرمة فى المنصور :

له لحظاتٌ عن حِفافَىْ سريره * إذا كَرّها فيها عقابٌ ونائل

(١) البيت للفرزدق فى زين العابدين على بن الحسين .

(٢) فى الديوان « وطينتها » .

كريمٌ له وجهان وجهٌ لدى الرضى ❊ أسيلٌ ووجه فى الكريهة باسل

فأم الذى آمنتَ آمنــةُ الرَّدى ❊ وأم الذى أوعدت بالثُّكل ثاكل

وليس بمُعطى العفو من غير قدرة ❊ ويعفو إذا ما مكَّنته المقــاتل

وقال آخر فى الهيبة :

أهـاشمُ يافتًى دينٍ ودُنيـــا ❊ ومن هو فى اللُّباب مِن اللُّباب ٥

أهابُك أن أبُوح بذات نفْسى ❊ وتَرْكى لِلعِتـــاب مِنَ العتاب

وقال أشجع بن عمرو فى هيبة السلطان :

منعتْ مهابتُك النُّفوسَ حديثَها ❊ بالشَّىْء تكرهه وإنْ لم تعـلم

ومن الولاةِ مُفَخَّم لا يُتَّقَى ❊ والسَّيْفُ تقطرُ شفرتاهُ منَ الدَّم

وقال أيضا لهرون الرشيد : ١٠

وعلى عـــدُوِّكَ يابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ ❊ رَصَدانِ: ضَوْءُ الصُّبْح والإظْلام

فإذا تَنبَّه رُعْتَـــه ، وإذا غفا ❊ سَلَّتْ عليه سُيوفَك الأحلامُ

وقال الحسن بن هانئ فى الهيبة فأفرط :

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فى القُلُوب مِثالُه ❊ فكأنَّه لَمْ يَخْـــلُ منه مكان

مَا تَنْطَوِى عنه القلوب بفَجرة[1] ❊ إلَّا يُكلمه بهـــا اللَّحظانُ[2] ١٥

حتى الَّذى فى الرِّحْم لم يك صُورَةً ❊ لفُؤَاده من خَوْفه خَفَقَانُ

فجاز هذا البيت فى إفراطه أن الرجل إذا خاف شيئا أو أحبَّه أحبه بسمعه وبصره وشَعره وبَشَره ولحمه ودمه وجميع أعضائه ، فالنُّطَف التى فى الأصلاب داخلة فى هذه الجملة .

قال الشاعر : ٢٠

ألاَ تَرثِى لِمُكْتَئِبٍ ❊ يُحِبُّكَ لَحْمُهُ وَدَمُهْ

---

(١) فى الأصول : « بعجرة » وما أثبتنا من الديوان . والفجرة : المرة من الفجر ، وهو الانبعاث فى المعاصى .

(٢) اللحظان : النظر بمؤخر العين .

وقال المكفوف فى آل محمد :

أُحِبُّكُمُ حُبًّا على اللهِ أجْرُهُ ٭ تَضَمّنه الأحْشاءُ واللحمُ والدمُ

ومثل هذا قول الحسن بن هانئ :

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشركِ حتى إنه ٭ لَتَخافُكَ النُّطَفُ التى لمْ تُخْلَقِ

٥ فإذا خافه أهل الشرك خافته النطف التى فى أصلابهم، على المجاز الذى ذكرناه.

ومجاز آخر : أنّ النطف التى أخذ الله ميثاقها يجوز أن يضاف إليها ما هى لابد فاعلة من قبل أن تفعله ، كما جاء فى الأثر : إن الله عز وجل عَرَضَ على آدم ذريتَه فقال : هؤلاء أهل الجنة وبعملِ أهلِ الجنة يعملون ، وهؤلاء أهلُ النار وبعملِ أهل النار يعملون.

شعر المؤلف فى الهيبة

١٠ وهاأنا أقول فى الهيبة[1] :

يا مَن يُجَرِّد مِنْ بَصيرته ٭ تحت الحوادث صارِمَ العَزْمِ

رُعْت العدُوّ فما مَثَلْتَ له ٭ إلا تَفَزَّعَ منك فى الحُلْمِ

أضْحَى لك التَّدبيرُ مُطَّردا ٭ مثْل اطِّراد الفِعْلِ للإسْمِ

رَفَع الحسودُ إليكَ ناظِرَهُ ٭ فرآكَ مُطَّلِعًا مع النّجمِ

الأخطل فى معاوية

١٥ أبو حاتم سهل بن محمد قال : أنشدنى العتبي للأخطل فى معاوية :

تَسْمو العيونُ إلى إمامٍ عادِلٍ ٭ مُعْطَى المَهابةِ نافِعٍ ضَرّارِ

وترى عليه إذا العيونُ لَمَحْنَهُ ٭ سِيما الحليمِ وهَيْبَةَ الجبّارِ

تم الجزء الأول من كتاب اللؤلؤة فى السلطان بعون الله ومنه . من قسمة خمسة وعشرين قسما من تجزئة المؤلف . يتلوه الجزء الثانى من القسم ، وهو باقى كتاب اللؤلؤة فى السلطان من كتاب العقد .

٢٠ ولله الحمد والمنة . والحمد لله أولا وآخرا وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

(١) فى بعض الأصول « ومن قولنا فى الهيبة ».

حسن السيرة والرفق بالرعية

مما جاء فى الكتاب والسنة فى معنى هذا العنوان

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أوصاه به من الرفق بالرعية : ﴿ ولَوْ كُنتَ فَظًّا غليظَ القلبِ لَآنفضُّوا مِن حوْلِكَ ﴾ .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : مَنْ أُعْطِىَ حظه مِنَ الرفْقِ فقد أُعْطِىَ حظّه مِنَ الخير كله ، ومن حُرِمَ حظه من الرفق فقد حُرِم حظه من الخير كله . ٥

مشورة سالم وابن كعب على عمر بن عبد العزيز حين ولى الخلافة

ولما آستُخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب . فقال لهما : أشيرا علىّ . فقال له سالم : اجعل الناسَ أباً وأخاً وابناً ، فبَرَّ أباك ، وآحفظ أخاك ، وارحم ابنك . وقال محمد بن كعب : أَحِبّ للناس ما تحب لنفسكَ واكره لهم ما تكره لنفسك ، واعلم أنك أولُ خليفة يموت .

بين عمر بن عبد العزيز وابنه فى الرفق

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر : يا أبت ، مالك لا تَنْفُذُ فى الأمور ، فو الله لا أُبالى فى الحق لو غَلَت بى وبك القُدور . قال له عمر : لا تعجل يا بُنى ، فإن الله تعالى ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرّمها فى الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدفعوه وتكونَ فتنة . ١٠

من عمر إلى ابن أرطاة فى الرفق

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدِىّ بن أَرْطَأَة : أما بعد ، فإن أمكنتك القُدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق عليك ، وآعلم أن مالك عند الله مثلُ ما للرعية عندك . ١٥

مما وصى المنصور به ابنه

وقال المنصور لولده عبد الله المهدى : لا تُبْرِم أمرا حتى تفكر فيه ؛ فإن فكرة العاقل مرآته تُريه حسناتِه وسيآته ؛ واعلم أن الخليفة لا يُصلحه إلا التقوى ، والسلطانَ لا تصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل وأَوْلى الناسِ بالعفو أقدرُهم على العقوبة ، وأنْقصَ الناس عقلا من ظَلَمَ مَن هو دونه .

وصية خالد القسرى لبلال

وقال خالدُ بن عبد الله القسرىّ لبلال بن أبى بُردة : لا يَحملنَّك فضلُ المقدرة على شدّة السطوَة ، ولا تطلُب من رعيّتك إلا ما تبذُله لها ؛ فـ (إنّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتقَوْا والذِينَ هُمْ مُحْسِنُون) . ٢٠

وقال أبو عبد الله كاتبُ المهدىّ : ما أحوج ذا القدرة والسلطان إلى

قرين[1] يحجُزه ، وحياء يكفّه ، وعقل يعقله ، وإلى تجربة طويلة ، وعين حفيظة ، وأعراق تسرى إليه ، وأخلاق تُسَهِّل الأمور عليه ؛ وإلى جليس شفيق ، وصاحب رفيق ، وإلى عين تُبصر العواقب ، وقلب يخاف الغِيَر . ومن لم يعرف لؤم[2] الكِبْر لم يَسلم من فَلَتات اللسان ، ولم يتعاظم ذنباً وإن عظم ، ولا ثناء وإن سمج .

٥ وكتب أردشير إلى رعيّته : من أردشير المؤيد ملك الملوك ووارث العظماء ، إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين ، والأساوِرَة الذين هم حفظة البَيْضة ، والكتّاب الذين هم زينة المملكة ، وذوى الحرْث الذين هم عماد البلاد : السلام عليكم ، فإنا بحمد الله إليكم سالمون ؛ فقد وضعنا عن رعيّتنا بفضل رأفتنا بها إتاوتها الموضوعة عليها ، ونحن مع ذلك كاتبون إليكم بوصية فاحفظوها : لاتستشعروا الحِقدَ فيدهمكم العدو ،
١٠ ولا تحتكروا فيشملكم القحط ؛ وتزوّجوا فى الأقارب فإنه أمس للرحم وأثبت للنسب ، ولا تَعُدُّوا هذه الدنيا شيئاً ؛ فإنها لا تُبقِي على أحد ، ولاترفضوها فإن الآخرة لا تُدْرَك إلا بها[3] .

وصية مروان ابن الحكم لعبد العزيز ابنه حين ولاه مصر

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام ٱستعمل عبد العزيز ابنَه على مصر ، وقال له حين ودّعه : أرسل حكيما ولا توصِه . أى بُنَىّ ، انظر إلى
١٥ عُمّالك ، فإن كان لهم عندك حقٌ غُدْوَةً فلا تؤخرهم إلى عشية ، وإن كان لهم عشيةً فلا تؤخرهم إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق . واستشر جلساءك وأهل العلم ؛ فإن لم يَستبِنْ لك فاكتب إلىّ يأتِك رأيى فيه إن شاء الله تعالى . وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخِذْه
٢٠ به عند سَوْرَة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يَسكن غضبُك ثم يكون منك مايكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة ، فإن أولَ مَنْ جَعَل السجنَ كان

---

(١) فى بعض الأصول « دين » .

(٢) فى بعض الأصول « ذم » .

(٣) انظر عيون الأخبار (١ : ٧)

حليما ذا أناة. ثم انظر إلى ذوى الحسب والدين والمروءة فليكونوا أصحابك وجلساءك؛ ثم ارفع[1] منازلهم منك على غيرهم، على غير آسترسال ولا انقباض، أقول هذا وأستخلف الله عليك.

من معاوية إلى زياد فى رجل فر إليه

أبو بكر بن أبى شيبة عن عبد الله بن مجالد عن الشعبى، قال: قال زياد: ما غلبنى أميرُ المؤمنين معاوية فى شىء من السياسة إلا مرة واحدة، استعملت رجلاً فكسر خراجه، فخشى أن أعاقبه ففرّ إليه وآستجار به فأمنه؛ فكتبت إليه: إن هذا أدب سوءٍ منْ قِبلى. فكتب إلىّ: إنه لا ينبغى أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلنْ جميعاً فتمرح الناس فى المعصية، ولا نشتد جميعا فنحمل الناس على المهالك. ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة[2].

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم

للحكماء

قالت الحكماء: أحزم الملوك من قهر جدُّه هزلَه: وغلب رأيُه هواه، وجعل له الفكر صاحبا يُحسِّنُ له العواقب، وأعرب عن ضميره فعلُه، ولم يخدعه رضاه عن سخطه ولا غضبُه عن كيده.

وصية عبد الملك لولى عهده الوليد

وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد وكان ولى عَهْده: يا بُنىّ، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه إلا حرفان: حزمٌ وتوان.

لبعضهم فى اليسير من الزلل

وقالوا: ينبغى للعاقل ألاّ يستصغر شيئاً من الخطأ والزلل، فإنه متى ماآستصغر الصغير يوشك أن يقع فى الكبير؛ فقد رأينا الملك يُؤْتَى من العدوّ المحتقَر، ورأينا الصحة تُؤْتَى من الدواء اليسير، ورأينا الأنهار تتدفق من الجداول الصغار.

فى الذم يكون من الرعية

وقالوا: لا يكون الذم من الرعية لراعيها إلا لأحد ثلاثة: كريمٍ قُصِّر به عن قدره فاحتمل لذلك ضِغْنا، أو لئيم بُلِغَ به ما لا يستحق فأورثه ذلك بطرا، أو رجل مُنِعَ حظَّه من الإنصاف فشكا تفريطا.

(١) فى بعض الأصول «اعرف».
(٢) الخبر فى لباب الآداب.

من كلام للهند في الملوك

وفى كتاب الهند : خير الملوك من أشبه النسر حوله الجِيَف لا من أشبه الجيف حولها النسور .

لملك سلب ملكه

وقيل لملك سُلِب مُلكه : ما الذى سلبك ملكك ؟ قال : دَفْعُ شغلِ اليوم إلى غد ، والتماسُ عُدَّةٍ بتضييع عُدَد ، واستكفاء كلِّ مخدوع عن عقله . والمخدوعُ عن عقله من بلغ قدراً لا يستحقه ، وأُثيبَ ثوابا لا يستوجبه .

لابن أبي طالب في الفرص

وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه : انتهزوا هذه الفرَص فإنها تمرّ مرّ السحاب ، ولا تطلبوا أثراً بعد عَيْن .

شيء عن عمر ولعائشة فيه

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحزمَ الخلفاء ، وكانت عائشة رضى الله عنها إذا ذُكر عُمر تقول : كان والله أحْوَزيّا[1] نسيجَ وَحْده ، قد أعدّ للأمور أقرانها .

للمغيرة فيه

وقال المُغيرة بن شُعبة : ما رأيتُ أحداً هو أحزم من عمر : كان والله له فضل يمنعه أن يَخدع ، وعقل يمنعه أن يُخدع .

لعمر في نفسه

وقال عمر : لست بِخَبّ والخَبُّ لا يَخدعنى .

هو وعامل البحرين

ومرّ عمر ببنيان يُبنى ، بآجر وجَصّ ، فقال : لمن هذا ؟ قيل : لعاملك على البحرين . فقال : أبَتِ الدراهم إلا أن تُخرج أعناقها ، فأرسل إليه فشاطره ماله .

هو وابن أبي وقاص

وكان سعد بن أبي وقاص يقال له المُستجاب ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : اتقوا دعوة سعد . فلما شاطره عمر ماله ، قال له سعد : لقد هممتُ . قال له عمر : بأن تدعو علىّ . قال : نعم . قال إذاً لا تجِدُنى بدعاء ربى شقيا .

ابن أبي وقاص وشاعر هجاه

وهجا رجل من الشعراء سعد بن أبي وقاص يوم القادسية ، فقال :

ألم تَرَ أنّ الله أظهر دينَه ٭ وسَعْدٌ بباب القادسيّة مُعْصِمُ

فأُبنا وقدْ آمَتْ نِساءٌ كثيرةٌ ٭ ونسوةُ سَعْدٍ ليس فيهنّ أَيِّمُ

فقال سعد : اللهم اكفنى يده ولسانه . فقطعت يده وبُكِم لسانه .

عمر وأبو موسى الأشعرى وأبو هريرة والحارث

ولما عَزَلَ عمرُ أبا موسى الأشعرىّ عن البصرة وشاطره ماله وعزل أبا هُريرة عن البحرين وشاطره ماله ، وعزل الحارث بن كعب بن وهب وشاطره ماله ، دعا

(١) الأحوزى : الحسن السياق للأمور وفيه بعض النفار

أبا موسى فقال له : ماجاريتان بلغنى أنهما عندك ، إحداهما تُدْعَى عقيلة والأخرى من بنات الملوك ؟ قال : أما عقيلة فجارية بيني وبين الناس ، وأما التي هي من بنات الملوك فإني أردتُ بها غَلاء الفِداء . قال : فما جَفنتان تعملان عندك ؟ قال : رزق شاةٍ فى كل يوم ، فيُعمل نِصفُها غُدوة ونصفها عشية . قال : فما مِكيالان بلغنى أنهما عندك ؟ قال : أمّا أحدهما فأوفّى أهلى به ودَيْنى ، وأمّا الآخر فيتعامل الناس به . ٥
قال : آدفع لنا عقيلة ، والله إنك لمؤمن لا تغُلّ أو فاجرٌ مُبِلّ[1] ؛ ارجع إلى عملك عاقصاً بقَرْنك مُكْتَسِعاً بذَنَبك[2] ؛ والله إن بلغنى عنك أمرٌ لم أُعِدْك .

ثم دعا أبا هريرة فقال له : هل علمت من حين أنى آستعملتك على البحرين وأنت بلا نعلين ، ثم بلغنى أنك آبتعتَ أفراساً بألف دينار وستمائة دينار ؟ قال : كانت لنا أفراس تناتجت ، وعطايا تلاحقت . قال قد حَسَبتُ لك رزقَك ومؤونتك ١٠ وهذا فضلٌ فأَدِّه . قال : ليس لك ذلك . قال : بلى والله وأُوجِع ظهرَك ! ثم قام إليه بالدِّرّة فضربه حتى أدماه ، ثم قال : إيت بها . قال : احتسبتها عند الله . قال : ذلك لو أخذتَها من حلال وأديتها طائعا ، أجئت من أقصى حَجْر بالبحرين بجُبَى الناس لك لا لله ولا للمسلمين ؟ مارجعت بك أُمَيْمَةُ إلا لِرِعيَةِ الحُمُر . وأميمة أم أبى هريرة . ١٥

وفى حديث أبى هريرة قال : لما عزلنى عمر عن البحرين قال لى : ياعدوّ الله وعدوّ كتابه ، سرقتَ مال الله ؟ قال : فقلت : ما أنا عدوّ الله ولا عدوّ كتابه ، ولكنى عدوّ مَن عاداهما[3] ، وما سرقتُ مال الله . قال : فمن أين آجتمعت لك عشر آلاف ؟ قلت : خيلٌ تناتجت ، وعطايا تلاحقت ، وسهام تتابعت . قال : فقبضها منى ، فلما صليتُ الصبح آستغفرت لأمير المؤمنين . فقال لى بعد ذلك : ٢٠ ألا تعمل ؟ قلت لا . قال : قد عمل من هو خير منك يوسف صلواتُ الله عليه .

---

(١) لا تغل : لا تخون . والمبلّ : الخبيث الداهية ، أو الغالب بحجته .
(٢) القرن : من الشعر . وعقصه : عقده وليه . والاكتساع بالذنب : إدخاله بين الأرجل . أراد بالعبارتين : الذلة والمهانة .
(٣) فى الأصول « عاداك » ، وما أثبتنا رواية عيون الأخبار . ٢٥

قلت : يوسف نبيّ وأنا ابن أميمة ، أخشى أن يُشْتَم عِرضى ، ويُضْرَبَ ظهرى ، ويُنْزَعَ مالى .

قال : ثم دعا عمرُ الحارثَ بن وهب ، فقال : مافِلاصٌ وأعْبُدٌ بِعتَها بمائتى دينار ؟ قال : خرجتُ بنفقةٍ معى فتَجِرْتُ فيها . فقال : أما والله ما بعثناكم لِتتَّجروا فى أموال المسلمين ، أدِّها . فقال : أما والله لا عَمِلتُ عملا بعدها ! قال : آنتظر حتى أستعملك !

بين عمر بن الخطاب وابن العاص.

وكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص . وكان عاملَه على مصر : من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلامٌ عليك ، أما بعد . فإنه بلغنى أنه فَشت لك فاشيةٌ من خَيل وإبل وغنم وبقر وعَبيد ، وعهدى بك قبل ذلك أنْ لا مالَ لك . فاكتب إلىّ من أين أصلُ هذا المال ولا تكتمه .

فكتب إليه : من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فَشا لى ، وأنه يعرفنى قبل ذلك لا مال لى . وإنى أُعلِمُ أمير المؤمنين أنى بأرضٍ السِّعْر فيه رخيص ، وأنى أعالج من الحِرفة والزراعة ما يُعالج أهلَه ، وفى رزق أمير المؤمنين سَعة . والله لو رأيت خيانتَك حلالًا ماخنتك ؛ فأقصِر أيها الرجل ، فإن لنا أحساباً هى خيرٌ من العمل لك ، إن رجعنا إليها عِشْنا بها . ولعمرى إن عندك من لا يَذُم معيشته ولا تُذم له [وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خيرٌ منى [1]] فأنّى كان ذلك ولم يُفتَح قُفلُك ولم نَشرَكْكَ فى عملك ؟

فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنى والله ماأنا من أساطيرك التى تُسطِّر ونَسقك الكلام فى غير مَرجع ، وما يغنى عنك أن تزكّى نفسَك . وقد بعثت إليك محمد ابن مَسلمة فشاطِرْه مالَك ؛ فإنكم أيها الرَّهط الأُمراء جلستم على عيون المال ،

(١) التكملة من شرح نهج البلاغة (١ : ٥٨) .

لم يُعوزكم عُذر ، تجمعون لأبنائكم ، وتمهّدون لأنفسكم . أما إنكم تجمعون العارَ وتورّثون النار . والسلام .

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة صنع له عمرو طعاماً كثيرا . فأبى محمد بن مسلمة أن يأكل منه شيئا . فقال له عمرو : أتحرمون طعامَنا ؟ فقال : لو قَدّمت إلىّ طعامَ الضيف أكلتُه ، ولكنك قدمت إلىّ طعاماً هو تَقْدمة شر . والله لا أشرب عندك ماء . فاكتبْ لى كل شىء هو لك ولا تكتُمْه . فشاطرَه ماله بأجمعه ، حتى بقيت نعلاه ، فأخذ إحداهما وترك الأخرى ! فغضب عمرو بن العاص فقال : يامحمد بن مسلمة ، قَبّح اللهُ زماناً عمرو بنُ العاص لعمرَ بن الخطاب فيه عامل . والله إنى لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حُزمةً من الحطب وعلى ابنه مثلُها ، وما منهما إلا فى نَمِرَةٍ [(١)] لا تبلغ رُسْغَيْهِ ؛ والله ماكان العاص بن وائل يَرضى أن يلبس الديباج مزروراً [(٢)] بالذهب .

قال له محمد : اسكت ، والله إن عمر لخيرٌ منك ، وأما أبوك وأبوه ففى النار ، والله لولا الزمان الذى سبقك به لألفيت مُقْتعد شاة يسرك غَزْرُها [(٣)] ويسوءك بَكْؤُها [(٤)] . فقال عمرو : هى عندك بأمانة الله . فلم يخبر بها عمر

وأبوسفيان فى مال وأدم

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال : بعث معاويةُ إلى عمر بن الخطاب وهو على الشام بمالٍ وأدم ، وكتب إلى أبيه أبى سُفيان أن يدفع ذلك إلى عمر ـ يعنى بالأدم القيد ـ وكتب إلى عمر يقول : إنى وجدت فى حصون الروم جماعة من أسارى المسلمين مقيدين بقيود حديد ـ أنفذت منها هذا ليراه أمير المؤمنين ـ وكانت العرب قبل ذلك تقيد بالقيد . قال جرير : « ...... أو لجدل الأداهم [(٥)]

(١) النمرة : بردة من صوف تلبسها الأعراب .
(٢) مزورا : مزينا .
(٣) غزرها : درها .
(٤) بكؤها : قلة لبنها .
(٥) البيت :

هو القين وابن القين لا قين مثله لبطح المساحى أو لجدل الأداهم

فخرج الرسول حتى قدم على أبي سفيان بالمال والأدم . قال : فذهب أبو سفيان بالأدم والكتاب إلى عمر واحتبس المال لنفسه . فلما قرأ عمر الكتاب ، قال : فأين المال يا أبا سفيان ؟ قال : كان علينا دَين ومَعونة ، ولنا في بيت المال حق ، فإذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتنا به . فقال عمر : اطرحوه في الأدم حتى يأتي بالمال . قال : فأرسل أبو سفيان من أتاه بالمال . فأمر عمر بإطلاقه من الأدم . قال : فلما قدم الرسول على معاوية قال له : رأيتَ أمير المؤمنين أُعجِبَ بالأدم ؟ قال : نعم ، وطَرح فيه أباك . قال : ولِمَ ؟ قال : جاءه بالأدم وحَبَس المال ؛ قال : إي والله ، والخطّاب لو كان لطرحه فيه !

عمر وأبو سفيان في مال حاول إخفاءه

زار أبو سفيان معاوية بالشام ، فلما رجع من عنده دخل على عمر فقال : أجِزْنا أبا سفيان . قال : ما أصَبْنَا شيئاً فنُجيزك به . فأخذ عمر خاتمه فبعث به إلى هند ، وقال للرسول : قل لها : يقول لك أبو سفيان : انظري إلى الخُرْجَيْن اللذين جئتُ بهما فأحضريهما . فما لبث عمر أن أُتِيَ بخرجين فيهما عشرةُ آلاف درهم ، فطرحهما عمر في بيت المال . فلما وليَ عثمان ردّهما عليه . فقال أبو سفيان : ما كنت لآخذ مالاً عابَه عليّ عمر .

عمر وعتبة في مال وجده معه

ولما ولّى عمر بن الخطاب عتبة بن أبي سفيان الطائفَ وصدقاتِها ثم عزله ، تلقّاه في بعض الطريق ، فوجد معه ثلاثين ألفا ، فقال : أنى لك هذا ؟ قال : والله ما هو لك ولا للمسلمين ، ولكنه مال خرجتُ به لضيعةٍ أشتريها . فقال عمر : عاملُنا وجدنا معه مالا ، ما سبيلُه إلا بيت المال . ورفعه ؛ فلما ولِيَ عثمانَ قال لعتبة : هل لك في هذا المال ، فإني لم أر لِأخذ ابن الخطاب فيه وجها ؟ قال : والله إن بنا إليه لحاجة ، ولكن لا تَرُدَّ على من قبلَك فيَرُدَّ عليك مَن بعدك .

عمر وأبو سفيان في رجل دعا بدعاء الجاهلية

القَحْذمي[1] قال ضَرب عمر رجلاً بالدِرّة ، فنادى : يالَقُصيّ ! فقال أبو سفيان : يابن أخي ، لو قبل اليوم تنادى قصيًّا لأتتك منها الغطاريف . فقال له عمر : اسكت لا أبا لك . قال أبو سفيان : ها ، ووضع سبّابته على فيه .

(١) هو الوليد بن هشام القحذمي .

كتاب يزيد إلى مروان يأمره بالبيعة

خليفة بن خياط قال: كتب يزيد بن الوليد المعروف بالناقص - وإنما قيل له الناقص لفرط كماله - إلى مروان بن محمد - وبلغه عنه تلكؤٌ فى بيعته - : أما بعد، فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى. فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام. فأتته بيعته.

أبو غسان وأهل مرو حين منعوا الماء

ولما منع أهلُ مَرو أبا غسان الماء وزجّته إلى الصحارى، كتب إليهم أبو غسان: إلى بنى الأستاه من أهل مرو؛ ليُمسينى الماء أو لتُصَبِّحنكم الخيل. فما أمسى حتى أتاه الماء. فقال: الصدق يُنبئ عنك لا الوعيد. ٥

كتاب ابن طاهر إلى الحسن التغلبى

وكتب عبد الله بن طاهر الخراسانىّ إلى الحسن بن عمر التغلبىّ: أما بعد، فقد بلغنى ما كان مِن قَطع الفَسَقَة الطريق ما بلغ، فلا الطريقَ تَحمِى، ولا اللصوص تَكفِى، ولا الرعيةَ تُرضِى، وتطمع بعد هذا فى الزيادة! إنك لمُنفسح الأمل. وايم الله لتَكفينى مَن قِبَلك أو لأوجِّهن إليك رجالا لاتعرف مُرّةَ من جَهم[1] ولا عَدِىّ من رُهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ١٠

كتاب الحجاج إلى قتيبة فى أمر وكيع

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم واليه بخراسان: أما بعد، فإن وكيعَ بن حسان كان بالبصرة منه ما كان، ثم صار لصا بسِجِستانَ، ثم صار إلى خراسان، فإذا أتاك كتابى هذا: فاهدم بناءه، واحلُلْ لواءه. وكان على شرطة قتيبة فعزله. وولى الضَّبِّىَّ عمَّ مسعود بن الخطاب. ١٥

كتاب الحجاج إلى قوم يفسدون فى الأرض

وبلغ الحجاجَ أن قوما من الأعراب يُفسدون الطريق، فكتب إليهم: أما بعد: فإنكم قد استخفّتكم الفتنة، فلا عن حق تُقاتلون. ولا عن منكر تَنهَوْن، وإنى أَهُم أن تَرِدَ عليكم منى خيلٌ تَنسِف الطارفَ والتالد، وتدَعُ النساءَ أيامَى والأبناء يتامى والديار خرابا! فلما أتاهم كتابه كفّوا عن الطريق. ٢٠

التعرّض للسلطان والردّ عليه

للحكماء

قالت الحكماء: من تعرّض للسلطان أرداه، ومن تطامن له تخطاه. وشبهوه

(١) فى نهاية الأرب «جشم»

فى ذلك بالريح العاصفة التى لا تضر بما لان لها من الشجر ومال معها من الحشيش . وما استهدف لها من الدوح العظام قصفته . قال الشاعر :

إنّ الرياح إذا ما أعصفتْ قصفتْ ٭ عِيدانَ نَبْعٍ ولا يعْبأن بالرَّتَمِ[1]

لحبيب

وقال حبيب بن أوس ، وهو أحسن ما قيل فى السلطان :

٥ هو السَّيْل إن واجهتَه ٱنقدتَ طَوْعَه ٭ وتَقتاده مِن جانبَيه فيَتْبَعُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

هو السَّيف إن لاينْته لان مَتْنُه ٭ وحَدَّاهُ إن خاشنْتَهُ خَشِنان

بين معاوية وأبى الجهم

وقال معاوية لأبى الجهم العدوىّ : أنا أكبر أم أنت ؟ فقال : لقد أكلتُ فى عُرسِ أُمِّك يا أمير المؤمنين . قال : عند أىِّ أزواجها ؟ قال : عند حفص بن المُغيرة . قال : يا أبا الجهم ، إيّاك والسلطان ، فإنه يغضب غضب الصبىّ ويأخذ أخْذَ الأسد .

وأبو الجهم هو القائل فى معاوية :

ونُغضِبه لنَخْبُرَ حالتَيه ٭ فنخبُر منهما كرماً ولِينَا

نَميلُ على جَوانبه كأنّا ٭ نَميلُ إذا نَميل على أبِينا

معاوية وعقبة الأسدى

١٥ وقدم عُقَيبة الأسدى على معاوية ودفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات :

مُعاوِىَ إننا بشر فأسْجِحْ ٭ فلسنا بالجبال ولا الحديدِ

أكلْتُم أرضَنا فجَرَدْتموها ٭ فهل مِن قائمٍ أو من حصيدِ

أتَطْمَع بالخُلود إذا هلكنا ٭ وليس لنا ولا لك من خُلُودِ

فهَبْنا أُمّةً هلكت ضَيَاعًا ٭ يَزِيدُ أميرُها وأبو يزيدِ

٢٠ فدعا به معاوية فقال : ما جرّأك علىّ ؟ قال : نَصَحْتُك إذ غَشوك ؛ وصدقْتك إذ كذَبُوك . فقال : ما أظنك إلا صادقا ، وقضى حوائجه .

ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال : خطب أبو جعفر المنصور ،

(١) سبقت هذه العبارة فى ص ١٣ مع تغيير يسير .

فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، اتقوا الله . فقام إليه رجل من عُرض الناس فقال : أُذكّرك الله الذى ذكّرتنا به يا أمير المؤمنين . فأجابه أبو جعفر بلا فكرة ولا رويّة : سمعا وطاعة لمن ذكَّر بالله ، وأعوذ بالله أن أُذكَّر به وأنساه فتأخذنى العزة بالإثم ﴿لقد ضَللتُ إذاً وما أنا من المهتدين﴾ . وأمّا أنت ، فوالله ما الله أردتَ بها ، ولكن ليقال : قال فعوقبَ فصبر ! وأهوِنْ بها لو كانت ، وأنا أحذّرُكم أيها الناس أختها ؛ فإن الموعظة علينا نزلت ، ومنا أخِذَت . ثم رجع إلى موضعه من الخطبة . ٥

الرشيد ومعترض عليه فى خطبته

وقام رجل إلى هارون الرشيد وهو يخطب بمكة ، فقال : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عندَ الله أن تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُون ﴾ فأمر به فضُرِب مائة سوط ، فكان يئنّ الليل كله ويقول : الموت ! الموت . فأُخبر هارون أنه رجل صالح ، فأرسل إليه فاستحلّه ، فأحلّه . ١٠

الوليد ومعترض عليه فى خطبته

المدائنى قال : جلس الوليد بن عبد الملك على المِنبر يومَ الجمعة حتى اصفرّت الشمس ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوقت لا ينتظرك ، وإنّ الرب لا يَعذِرُك . قال : صدقت ، ومَن قال مثلَ مقالتك فلا ينبغى له أن يقوم مثل مَقامك . من ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضربُ عنقَه ؟

مخاطر بين معاوية وزياد

١٥ الرياشىّ عن الأصمعى قال : خاطر رجل رجلا أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يدَه على كَفَله ويقول : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! ما أشبه عَجيزتَك بعجيزة أُمّك هند ! ففعل ذلك . فلما انفتل معاوية عن صلاته قال :

يابن أخى ، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أمْيَل ؛ خذْ ما جعلوا لك . فأخذه .

ثم خاطر أيضاً أن يقوم إلى زياد وهو فى الخطبة فيقول له : أيها الأمير ، من أبوك ؟ ففعل . فقال له زياد : هذا يُخبرك ـ وأشار إلى صاحب الشُّرْطة ـ فقدمه فضَرَب عُنقَه . فلما بلغ ذلك معاوية قال : ما قتله غيرى ، ولو أدبتُه على الأولى ما عاد إلى الثانية . ٢٠

ابن العاص ومخاطر سأله عن أمه

وخاطر رجلٌ أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو فى الخطبة فيقول : أيها الأمير ، من أمّك ؟ ففعل . فقال له : النابغةُ بنتُ عبد الله ، أصابتها رماحُ العرب فبيعت

بعُكاظ ، فاشتراها عبد الله بن جدْعان للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ؛ فإن كانوا جعلوا لك شيئاً فخذْه .

بين معاوية وخريم

دخل خُريم الناعم على معاوية بن أبي سفيان ، فنظر معاوية إلى ساقيه فقال : أيّ ساقين ! لو أنهما على جارية ! فقال له خريم : في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين ! ٥ قال : واحدة بأخرى والبادئ أظلم .

تحلُّم السلطان

على أهل الدين والفضل إذا اجترءوا عليه

أبو جعفر مع مالك وابن طاوس

زياد عن مالك بن أنس قال : بعث أبو جعفر المنصور إليّ وإلى ابن طاوس ؛ فأتيناه فدخلنا عليه ، فإذا هو جالس على فُرُش قد نُضِّدت ، وبين يديه أنطاع ١٠ قد بُسِطت ، وجلاوزة[1] بأيديهم السيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا أن اجلسا ، فجلسنا . فأطرق عنا طويلا[2] ، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس فقال له : حدِّثني عن أبيك . قال : نعم ، سمعت أبي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجَوْرَ في عدله » . فأمسك ساعة ؛ قال مالك : فضممت ثيابي من ١٥ ثيابه مخافة أن يملأني من دمه . ثم التفت إليه أبو جعفر فقال : عِظني يابن طاوس قال : نعم يا أمير المؤمنين ، [إنّ] الله تعالى يقول ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ◌ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ◌ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ◌ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ◌ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ◌ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ◌ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ◌ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ◌ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ قال مالك : فضممت ٢٠ ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه . فأمسك ساعة حتى اسودّ ما بيننا وبينه ، ثم قال : يابن طاوس ناولني هذه الدواة . فأمسك عنه . ثم قال : ناولني هذه الدواة .

(١) الجلاوزة : الشرطة .
(٢) في بعض الأصول « قليلا »

فأمسك عنه ؛ فقال : ما يمنعك أن تناوِلَنيها ؟ قال : أخشى أن تكتُب بها معصية لله فأكونَ شريكك فيها . فلما سمع ذلك قال : قُوما عنى . قال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغى منذ اليوم .

قال مالك : فما زلتُ أعرفُ لابن طاوس فضلَه .

أبو هريرة ومروان حين أبطأ بالجمعة

أبو بكر بن أبى شيبة قال : قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة ٥ فقال له : أتظلّ عند ابنة فلان تُرَوِّحك بالمَرَاوح وتَسقيك الماء البارد ، وأبناء المهاجرين والأنصار يُصْهَرون من الحرّ ؟ لقد هممت أن أفعل وأفعل ، ثم قال : اسمعوا من أميركم .

بين أبى جعفر وأبى ذئب

فرج بن سلام عن أبى حاتم عن الأصمعى قال : حدّثنى رجل من أهل المدينة كان ينزل بشق بنى زُرَيْق ، قال : سمعت محمد بن إبراهيم يحدّث قال : سمعت ١٠ أبا جعفر بالمدينة وهو ينظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليسوا من قريش ؛ فقالوا لأبى جعفر : اجعل بيننا وبينه ابن أبى ذئب . فقال أبو جعفر لابن أبى ذئب : ما تقول فى بنى فلان ؟ قال : أشرار من أهل بيتِ أشرار . قالوا : اسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد . وكان عامله على المدينة . قال : ما تقول فى الحسن بن زيد ؟ قال : يأخذ بالإحنة ويقضى بالهوى . ١٥ فقال الحسن : يا أمير المؤمنين ، والله لو سألتَه عن نفسك لرماك بداهية أو وصفك بشرّ ، قال : ما تقول فىّ ؟ قال : أعْفِنى . قال : لا بدّ أن تقول . قال : لا تعدلُ فى الرعية ، ولا تقسم بالسوِيّة . قال : فتغير وجهُ أبى جعفر . فقال إبراهيم بن يحيى ابن محمد بن على صاحب الموصل : طَهِّرْنى بدمه يا أمير المؤمنين . قال : اقعد يا بنىّ ، فليس فى دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طَهور . قال : ثم تدارك ابن أبى ذئب الكلامَ فقال : يا أمير المؤمنين ، دعنا مما نحن فيه ؛ بلغنى أنّ لك ابناً صالحاً بالعراق ، يعنى المهدى قال : أما إنك قلت ذلك ، إنه الصوّام القوّام البعيد ما بين الطرفين[1] قال : ثم قام ابنُ أبى ذئب فخرج ، فقال أبو جعفر : أما والله ماهو بمسوّق العقل ، ولقد قال بذات نفسه.

---

(١) بعد الطرفين : كناية عن شرف النسب .

قال الأصمعي : ابن أبي ذئب ، من بني عامر بن لؤى ، من أنفسهم .

المأمون والحارث بن مسكين

قال : ودخل الحارثُ بن مِسكين على المأمون فسأله عن مسألة فقال : أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد ، وذكر قوله فلم يُعجب المأمون . فقال : لقد تَيَّست فيها وتَيَّس مالك . قال الحارثُ بن مسكين : فالسامعُ يا أمير المؤمنين من التَّيْسين أتْيَس ؛ فتغيّر وجه المأمون . وقام الحارثُ بن مسكين فخرج وتندّم ٥ على ما كان من قوله ، فلم يستقرّ في منزله حتى أتاه رسولُ المأمون ، فأيقن بالشر ولبس ثياب أكفانه ؛ ثم أقبل حتى دخل عليه ، فقرّبه المأمونُ من نفسه ، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له : ياهذا ، إن الله قد أمر مَن هو خير منك بإلانة القول لمن هو شرٌّ مني ، فقال لنبيه موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون : ﴿ فقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ قال : يا أمير المؤمنين ، أبوء ١٠ بالذَّنب ، وأستغفرُ الرب . قال : عفا الله عنك ، انصرِف إذا شئتَ .

المنصور وأبو سفيان الثورى

وأرسل أبو جعفر إلى سُفيان الثَّوريّ ، فلما دخل عليه قال : عِظْني أبا عبد الله . قال : وما عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ فأعظَكَ فيما جهِلْتَ ؟ فما وجد له المنصور جوابا .

أبو النضر وعامل للخليفة

ودخل أبو النضر سالم مولى عمر بن عبد الله على عامل للخليفة ، فقال له ١٥ أبا النضر ، إنّا تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها ، ولا نجد بدًّا من إنفاذها ، فما ترى ؟ قال له أبو النضر : قد أتاك كتاب من الله تعالى قبل كتاب الخليفة ؛ فأيُّهما اتبعتَ كنتَ من أهله .

ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عن الشَّعبيّ . أنّ زياداً كتب إلى الحكم بن عمرو الغِفاريّ ، وكان على الصائفة [1] : إن أمير المؤمنين معاوية كتب إليّ يأمرني ٢٠ أن أصطفي له الصفراء والبيضاء ، فلا تَقسم بين الناس ذهباً ولا فضة [واقسم ماسوى ذلك [2]] فكتب إليه : « إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين .

(١) الصائفة : الغزاة في الصيف .
(٢) التكملة من البيان والتبيين .

واللهِ لو أن السموات والأرض كانتا رَتقاً على عبد فاتّقَى اللهَ لجعل له منْها مخرجا »
ثم نادى فى الناس فقسّم فيهم ما اجتمع له من الفىء .

ابن هبيرة والحسن البصرى والشعبي

ومثله قول الحسن حين أرسل إليه ابنُ هبيرة وإلى الشعبي فقال له : ما ترى أبا سعيدٍ فى كُتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعضُ ما فيها ، فإن أنفذتها وافقتُ سخطَ الله ، وإن لم أنفذها خشيت على دمى ؟ فقال له الحسن : هذا عندك الشعبيّ فقيه الحجاز . فسأله فرَقّق له الشعبيّ وقال له : قارب وسدّد ، فإنما أنت عبد مأمور ، ثم التفت ابنُ هبيرة إلى الحسن وقال : ما تقول يا أبا سعيد ؟ فقال الحسن : يابن هُبيرة ، خَفِ الله فى يزيدَ ولا تخف يزيد فى الله . يابن هبيرة ، إن الله مانِعُكَ من يزيد وإن يزيدَ لا يمنعُك من الله . يابن هبيرة ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فانظر ما كتبَ إليك فيه يزيدُ فاعرضه على كتاب الله تعالى ، فما وافق كتابَ الله تعالى فأنفذه ، وما خالف كتابَ الله فلا تُنفذه ؛ فإن الله أولى بك من يزيد ، وكتاب الله أولى بك من كتابه . فضرب ابن هبيرة يده على كتف الحسن وقال : هذا الشيخ صَدَقَنى وربِّ الكعبة . وأمر للحسن بأربعة آلاف ، وللشعبي بألفين ؛ فقال الشعبي : رقّقنا فرقق لنا . فأما الحسن فأرسل إلى المساكين ، فلما اجتمعوا فرّقها ، وأما الشعبي فإنه قبلها وشكر عليها .

معاوية والأحنف فى استخلاف يزيد

ونظير هذا : قولُ الأحنف بن قيس لمعاوية حين شاوره فى استخلاف يزيد . فسكت عنه ، فقال : مالك لا تقول ؟ فقال : إن صدقناك أسخطناك ، وإن كذبناك أسخطنا الله ، فسُخْطُ أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله ! فقال له : صدقت .

كتاب أبى الدرداء إلى معاوية

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية : أما بعد . فإنه مَن يلتمس رضا الله بسُخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومَن التمس رضا الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس .

كتاب عائشة إلى معاوية

وكتبت عائشة رضى الله عنها إلى معاوية : أما بعد فإنه من يعمل بمساخط الله يصرْ حامدُه من الناس ذامًّا له . والسلام .

هشام وناصح نصحه بأربع

أبو الحسن المدائني قال : خرج الزُّهري يوماً من عند هشام بأربع ، قيل له : وما هن ؟ قال : دخل رجل على هشام فقال : يا أمير المؤمنين ، احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاحُ مُلكك واستقامة رعيتك . فقال : هاتهن . فقال : لا تَعِدَنّ عِدَةً لا تثق من نفسك بإنجازها . قال : هذه واحدة فهات الثانية . قال لا يَغُرَّنَّك ٥ المرتقَى وإن كان سهلا إذا كان المُنْحَدَرُ وعْرا . قال : هات الثالثة . قال : واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب . قال : هات الرابعة . قال : واعلم أن الأمور بَغَتَاتٌ فكن على حذر .

قعد معاوية بالكوفة يبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، نطيع أحياكم ولا نتبرأ من موتاكم ! فالتفت ١٠ إلى المغيرة فقال له : هذا رجل فاسْتَوْصِ به خيرا .

عبد الملك والحارث في ابن الزبير

وقال عبد الملك بن مروان للحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة : ما كان يقول الكذّاب في كذا وكذا ؟ - يعني ابن الزبير - ؛ فقال : ما كان كذابا . فقال له يحيى بن الحكم : من أُمك يا حار ؟ قال : هي التي تعلم . قال له عبد الملك : اسكت فهي أنجب من أُمك .

الوليد ابن عبد الملك والزهري

١٥ دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك ، فقال له : ما حديثٌ يحدّثنا به أهل الشام ؟ قال : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال يحدثوننا أن الله إذا آسترعى عبداً رعيةً كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات . قال : باطلٌ يا أمير المؤمنين ، أنبيٌّ خليفةٌ أكرم على الله أم خليفةٌ غيرُ نبيّ ؟ قال بل نبيّ خليفة . قال : فإن الله يقول لنبيه داود : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ٢٠ ولا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبيّ خليفة ؛ فما ظنك بخليفة غير نبيّ ؟ قال : إن الناس ليُغْرُوننا عن ديننا .

بين ابن يسار وعبد الملك

الأصمعي عن إسحاق بن يحيى عن عطاء بن يسار قال : قلت للوليد بن عبد الملك : قال عمر بن الخطاب : « وددتُ أني خرجت من هذا الأمر كفافا لا عليّ ولا لي » .

فقال: كذبت. فقلت: أوَ كُذِّبْتُ! فما أفلتُّ منه إلا بجُرَيْعَةِ الذَّقَن[1]

المشورة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما ندم من استشار، ولا شقى من استخار.

من كلام الله تعالى — وقد أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورة من هو دونه فى الرأى، فقال: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ؛ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾. ٥

عثمان وثقيف لما همت بالارتداد — ولما هَمَّتْ ثقيف بالارتداد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم استشاروا عثمانَ بن أبى العاصى، وكان مطاعا فيهم؛ فقال لهم لا تكونوا آخرَ العرب إسلاما وأولهم ارتداداً؛ فنفعهم الله برأيه.

لبعض الحكماء فيما ينفع ويضر — وسئل بعضُ الحكماء: أيُّ الأمور أشد تأييداً للفتى[2] وأيها أشد إضراراً به؟ فقال: أشدها تأييدا له ثلاثة أشياء: مُشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحُسن التثبُّت. وأشدها إضرارا به ثلاثة أشياء: الاستبداد، والتهاون، والعجلة. ١٠

بين حكيم وحكيم — وأشار حكيم على حكيم برأى فقبله منه. فقال له: لقد قلتَ بما يقول به الناصح الشفيق الذى يخلط حُلوَ كلامه بمرِّه، وسهله بوَعْرِه، ويحرّك الإشفاقُ منه ما هو ساكنٌ من غيره، وقد وعيتُ النصح وقبلتُه؛ إذ كان مصدره من عند مَن لا يُشَكُّ فى مودته وصفاء غيبه ونُصْح حبيبه. ومازلتَ بحمد الله إلى الخير طريقاً واضحا، ومناراً بيِّنا. ١٥

للراسبي فى الرأى الفطير — وكان عبد الله بن وهب الراسبيّ يقول: إياكم والرأيَ الفطيرَ. وكان يستعيذ بالله من الرأى الدَّبَرِيِّ[3] الخمير.

لعلى فى رأى الشيخ — وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: رأيُ الشيخ أحسن من مشهد[4] الغلام. ٢٠

---

(١) مثل يضرب لمن نجا من التلف وقد أشرف.

(٢) فى نهاية الأرب (٦: ٧٠): «للعقل».

(٣) الرأى الدبرى: الذى يسنح بعد فوات الفرصة.

(٤) كذا فى بعض الأصول وعيون الأخبار والذى فى سائر الأصول ونهاية الأرب «جلد»

لابن هبيرة يوصى ابنه

وأوصى ابنُ هُبيرة ولده فقال : لا تكن أول مُشير ، وإياك والهوى والرأى الفطير . ولا تشيرَنّ على مستبد [ولا على وغد ولا على مسكون ولا على لجوج ، وخف الله فى موافقة هوى المستشير](١) ، فإن التماس موافقته لؤم ، والاستماع منه خيانة .

لعامر بن الظرب

٥ وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول : دعوا الرأى يغبّ حتى يختمر ، وإياكم والرأى الفطير . يريد الأناة فى الرأى والتثبّت فيه .

من أمثالهم

ومن أمثالهم فى هذا قولهم : لا رأى لمن لا يُطاع .

للمهلب فى الرأى

وكان المهلّب يقول : إن من البليّة أن يكون الرأى بيد من يملكه دون من يُبصره .

لعبس فى الحزم

١٠ العتبي قال : قيل لرجل من عَبس : ما أكثرَ صوابَكم ؟ قال : نحن ألف رجل وفينا حازمٌ واحد ، فنحن نشاوره ، فكأنّا ألفُ حازم .

لبعض الشعراء

قال الشاعر :

الرأى كالليل مُسودٌّ جوانبُه ... والليل لا يَنْجَلِي إلا بإصباح

فاضْمُمْ مصابيحَ آراء الرجال إلى ... مصباح رأيك تَزْدَدْ ضوء مِصْباح

عبد الله بن عبد الأعلى بعد سخط الخليفة عليه

١٥ العتبي قال : أخبرنى من رأى عبد الله بن عبد الأعلى وهو أول داخلٍ على الخليفة وآخرُ خارج من عنده . قال : ثم رأيته وإنه ليُتَّقَى كما يُتَّقَى البعيرُ الأجربُ ، فقال لى : يا أخا العراق ، اتّهمنا القومُ فى سريرتنا ، ولم يقبلوا منا علانيَتنا ، ومِن ورائهم ووراءنا حكَمٌ عَدْل .

لسبيع فى أهل اليمامة

ومن أحسن ما قيل فيمن أُشير عليه فلم يقبل ، قولُ سُبيع لأهل اليمامة بعد

٢٠ إيقاع خالد بهم : يا بَنِى حَنيفة ، بُعْداً لكم كما بَعِدَتْ عاد وثمود . أما والله لقد أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه ، كأنى أسمع جَرْسَه وأُبصر غَيْبَهُ ، ولكنكم أبيتم النصيحة فاجتنيتم الندامة . وإنى لمّا رأيتكم تتهمون النَّصِيح وتُسَفِّهون الحليم ، استشعرتُ

(١) التكملة من البيان والتبيين .

منكم اليأس وخِفتُ عليكم البلاء . والله ما منعكم الله التوبة ولا أخذكم على غِرّة ، ولقد أمهلكم حتى مَلّ الواعظُ ووهن الموعوظ ، وكنتم كأنما يُعْنَى بما أنتم فيه غيرُكم ، فأصبحتم وفى أيديكم من تكذيبى التصديق ، ومن نصيحتى الندامة ؛ وأصبح فى يدى من هلاككم البكاء ، ومن ذُلّكم الجزع . وأصبح ما فات غيرَ مردود ، وما بقى غيرَ مأمون .

للقطامى

وقال القُطامىّ فى هذا المعنى :

ومَعْصيةُ الشّفيق عليك ممّا * يزيدك مرّة منه استماعا

وخير الأمر ما استقبلتَ منه * وليس بأن تَتَبّعه اتّباعا

كذاك وما رأيت الناسَ إلا * إلى ما جرّ غاويهم سراعا

تراهم يغمزون من استركُّوا * ويجتنبون من صدق المِصَاعا[1]

وكان يقال : لا تستشر معلما ولا حائكا ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء.

وأنشد فى المعلمين :

وكيف يُرجّى العقلُ والرأىعندمن * يروح إلى أنثى ويغدو إلى طفل

وكان يقال : لا تشاور صاحب حاجة يريد قضاءها .

وكان يقال : لارأى لحاقن ولا حازق : وهو الذى ضغطه الخف . ولا لحاقب وهو الذى يجد رِزًّا فى بطنه .

وينشد فى الرأى بعد فوته :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته * حتى إذا فات أمرٌ عاتب القدرا

شعر المؤلف

ومن قولنا فى هذا المعنى :

فلَئِنْ سَمِعتَ نصيحتى وعَصيتها * مَاكُنتُ أولَ ناصِحٍ مَعْصِىّ

لحبيب

وقال حبيب فى بنى تغلب عند إيقاع مالك بن طوق بهم :

لمْ يألُكم مالكٌ صَفحًا ومَغْفِرةً * لوْكانَ يَنْفخ قَيْنُ الحَىّ فى فَحم

(١) المصاع : المقاتلة والمجالدة بالسيف .

حفظ الأسرار

للحكماء
قالت الحكماء : صدرُك أوْسَعُ لسرّك من صدر غيرك .

وقالوا : سرّك من دمك . يعنون أنه ربما كان فى إفشائه سَفْكُ دَمك .

من عبد الملك إلى الحجاج
وكتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف :

٥ ولا تُفْشِ سِرّك إلا إليك ۞ فإنّ لكُل نَصِيحٍ نَصِيحَا
وإنى رَأَيتُ غُـــواةَ الرجا ۞ لِ لا يَترُكونَ أديماً صَحِيحَا

للحكماء
وقالت الحكماء : ماكنتَ كاتِمَه من عَدُوِّكَ فلا تُطلع عليه صديقك .

لعمرو بن العاص
وقال عمرو بن العاص : ما استودعتُ رجلا سرًّا فأفشاه فلُمْتُه ؛ لأنى كنت أضيقَ صدراً منه حين استودعتُه إياه حين أفشاه .

لبعض الشعراء
١٠ وقال الشاعر :

إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه ۞ فصدر الذى يُسْتودع السر أضيق

لبعض الأعراب
قيل لأعرابى : كيف كتمانك للسر ؟ قال : أجحد المُخْبِر وأحلف للمستخبِر .

وقيل لآخر : كيف كتمانك للسر ؟ قال : ماقلبى له إلا قبر .

للمأمون
وقال المـأمون : الملوك تحتمل كل شىء إلا ثلاثة أشياء : القدْح فى الملوك ،

١٥ وإفشاء السر ، والتعرّض للحُرَم .

وقال الوليد بن عُتبة لأبيه : إن أمير المؤمنين أسرّ إلىّ حديثا ، أفلا أُحدثك به ؟ قال لا ، يابنى ، إنه من كتم سره كان الخيار له ، [ومن أفشاه كان الخيار عليه [1]] فلا تكن مملوكا بعد أن كنتَ مالكا .

ملك من ملوك العجم استشار وزيريه
وفى التاج أنّ بعض ملوك العجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : لا ينبغى

٢٠ للملك أن يَستشير منّا أحداً إلا خالياً به ؛ فإنه أَمْوَتُ للسر ، وأحزم للرأى ، وأجدر بالسلامة ، وأعفَى لبعضنا من غائلة بعض ؛ فإن إفشاء السرّ إلى رجل واحدٍ أَوْثَقُ من إفشائه إلى اثنين ، وإفشاءه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ؛ لأن

(١) التكملة من عيون الأخبار .

الواحد رَهنٌ بما أُفشِىَ إليه ، والثانى مطلِقٌ عنه ذلك الرهنَ . والثالث عِلاوة فيه . فإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يُظهره رغبة ورهبة ، وإن كان عند اثنين دخلت على الملك الشبهة ، واتسعت على الرجلين المَعاريض . فإن عاقبهما عاقَبَ اثنين بذنبٍ واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بخيانةِ مجرِم ، وإن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخرِ ولا حُجة معه [1] ٥

لبعض الشعراء

ومن أحسن ماقالت الشعراء فى السر قولُ عمر بن أبى ربيعة :

فقالَتْ وأرْخَتْ جانِبَ السِّتْر : إنما ✽ معى فتَحَدَّثْ غَيْرَ ذِى رِقْبَـةٍ أَهْلِى

فقُلْتُ لها : مابى لهم من تَرَقُّبٍ ✽ ولكِنَّ سِرِّى ليس يَحْمِله مِثْلِى

وقال أبو مِحْجن الثقفى :

لاتسألِى الناسَ عن مالى وكَثْرته ✽ وسائِلى الناسَ عن بَأْسِى وعن خُلُقِى ١٠

قَدْ أَطْعَن الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ عَنْ عُرُضٍ ✽ وأَكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُقِ

وقال الحطيئة يهجو :

أَغِرْبَالًا إذَا اسْتُودِعْت سِرًّا ✽ وكانُونًا على المُتَحدِّثِينَا

الإذن

ليزياد وحاجبه

قال زيادٌ لحاجبه عَجْلان : كيف تأذنُ للناس ؟ قال : على البيوتات ، ثم على الأسنان ، ثم على الآداب . قال : فمن تُؤخّر ؟ قال : مَن لا يَعْبَأُ اللهُ بهم . قال : ومَن هم ؟ قال : الذين يلبَسون كُسوةَ الشتاء فى الصيف وكسوةَ الصيف فى الشتاء . ١٥

لسعيد بن عتبة فى بعده عن الآذن

وكان سعيد بن عُتبة بن حُصَين إذا حضر باب أحدٍ من السلاطين جلس جانباً ؛ فقيل له : إنك لتَتَباعد من الآذِن جُهْدَك ؛ قال : لَأَنْ أُدْعَى من بعيد خيرٌ من أن أُقْصَى من قريب . ثم قال [2] : ٢٠

(١) انظر عيون الأخبار ونهاية الأرب والوزراء والكتاب للجهشيارى .
(٢) الشعر للبعيث بن حريث (انظر الحماسة) .

وإنّ مَسيرى فى البِلاد ومَنْزِلى * هو المنزلُ الأقصى إذا لم أُقرَّبِ
ولست وإن أُدْنِيتُ يوماً ببائعٍ * خَلاقى ولا دينى ابْتِغاءَ التَّحبُّبِ
وقد عــدّهُ قومٌ تجارةَ رابح * ويمنعنى من ذاك دِينى ومَنْصِبى

لبعض الشعراء

وقال آخر :

٥ رأيتُ أناساً يُسرعون تبادراً * إذا فتح البوابُ بابك إصْبَعَا
ونحن جلوسٌ ساكنون رزانةً * وحِلماً إلى أنْ يُفتحَ الباب أجمعا [١]

بين معاوية وابن الأشعث فى الدخول على الملوك

ووقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية ، فأَذِن للأحنف ، ثم أذن لابن الأشعث ، فأسرع فى مِشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله . فلما رآه معاويه غَمّه ذلك وأَحْنَقَه ، فالتفت إليه فقال : والله إنى ما أذنت له قبلك
١٠ وأنا أريد أن تدخل قبله ، وإنا كما نلى أمورَكم نلى آدابكم ، ولا يزيدُ مُتزيِّدٌ فى خطوِه إلا لنقصٍ يجده من نفسه .

وقال همام الرقاشى [٢] :

أبْلِغْ أبا مِسمَعٍ عنى مغلغلة * وفى العتاب حيــاةٌ بين أقوامِ
قدمْت قَبلى رجالا ما يكون لهم * فى الحقّ أنْ يَلِجُوا الأبواب قدامى
١٥ لوْ عُدّ قبر وقبر كنت أقربَهم * قُربى وأبعدَهُمْ مِن مَنزل الذّامِ
حتى جَعلتُ إذا ماحاجةٌ عَرَضتْ * ببابِ قصْرِكَ أدْلُوها بأقوامِ [٣]

لمعاوية فى آذنه

قيل لمعاوية : إن آذِنَك يقدم معارفه فى الإذن على وجوه الناس . قال : وما عليه ؟ إنّ المعرفة لتنفع فى الكلب العقور والجمل الصَّئول ؛ فكيف فى رجل حَسيبٍ ذى كرم ودين ؟

للحكماء فى الوصول إلى المراد

٢٠ وقالت الحكماء : لا يُواظب أحد على باب السلطان فيُلْقِى عن نفسه الأنفة ويحتمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته .

(١) الشعر للحصين بن المنذر (انظر البيان والتبيين) .
(٢) فى نسبة هذه الأبيات خلاف كبير بين ابن قتيبة والجاحظ وصاحب تاج العروس
(٣) أدلوها بأقوام : أستشفع بهم .

وقالوا : من أدمن قَرْع الباب يوشك أن يُفْتَحَ له .

وقال الشاعر[1] :

كم من فتًى قصَّرت فى الرزق خُطوته ⁕ أصبتُه بسهام الرزق قد فَلَجَا

إن الأمور إذا انسدّت مسالكها ⁕ فالصبر يفتق منهـا كل ما ارتتجا

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبةٌ ⁕ إذا استعنت بصـبر أن ترى فرجا ٥

أخْلِقْ بذى الصبْرِ أنْ يحظى بحاجته ⁕ ومُدْمن القَرْع للأبواب أن يَلِجا

بين رجل وروح — ونظر رجل إلى رَوْح بن حاتم واقفاً فى الشمس عند باب المنصور ؛ فقال له : لقد طال وقوفك فى الشمس . فقال : ذلك ليطولَ جلوسى[2] فى الظل .

بين رجل والحسن بن عبد الحميد — ونظر آخر إلى الحسن بن عبد الحميد يُزاحم الناسَ على باب محمد بن سليمان ، فقال : أمثلك يَرضى بهذا ! فقال : ١٠

أُهِينُ لهم نفسى لأُكْرِمها بهم ⁕ ولا يُكرم النَّفسَ الَّذى لا يُهِينُها

من كلام للهند — وفى كتاب للهند : إن السلطان لا يقرب الناس لقرب آبائهم ولا يبعدهم لبُعدهم ، ولكن ينظر ما عند كل رجل منهم ، فيُقرِّب البعيد لنفعه ، ويُبعد القريبَ لضُرِّه . وشَبّهوا ذلك بالجُرَذِ الذى هو فى البيت مجاور ، فمن أجل ضرِّه نُفِى ، والبازى الذى هو وحشىّ ، فمن أجل نفعه اقْتُنِى . ١٥

بين النبى صلى الله عليه وسلم ومستأذن — استأذن رجل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت فقال : أألج ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرُج إلى هذا فَعَلِّمه الاستئذان وقل له يقول : السلام عليكم ، أأدخل ؟

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : الاستئذان ثلاث ، فإن أُذِن لك وإلا فارْجع .

لعلى كرم الله وجهه — وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه . الأولى إذْن ، والثانية مؤامرة ، والثالثة عزمة ، إما أن يأذنوا وإما أن يرجع . ٢٠

---

(١) ينسب هذا الشعر لبشار بن برد ، ولمحمد بن بشير ، على خلاف فى ذلك .

(٢) كذا فى نهاية الأرب وفى الأصل : ليطول وقوفى ، والذى اخترناه أجود

الحجّاب

زياد وحاجبه

قال زياد لحاجبه : ياعجلان ، إنى وليتك حِجَابتى وعزلتك عن أربع : هـذا المنادى إلى الله فى الصلاة والفلاح ، لاتحجبه عنى فلا سُلطان لك عليه ، وطارق الليل لاتحجبْه ، فشر ماجاء به ولو كان خيرا ماجاء به تلك الساعة ؛ ورسول الثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عملَ سنة ، فأَدْخِلْه علىّ وإن كنتُ فى لحافى ، وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينُه فسَد .

أبو سفيان بباب عثمان

ووقف أبو سفيان بباب عثمان بن عفان وقد اشتغل ببعض مصالح المسلمين لحجبه ؛ فقال له رجل وأراد أن يُغْرِيه : ياأبا سفيان ماكنت أرى أن تقف بباب مُضَريّ فيحجُبَك ، فقال أبو سفيان : لاعدِمتُ من قومى من أقف ببابه فيحجبنى .

أبو الدرداء بباب معاوية

استأذن أبو الدرداء على معاوية لحجبه ؛ فقال : من يَغْشَ أبواب الملوك يَقُمْ ويقعد ، ومن يجد باباً مُغلقا يجد إلى جانبه بابا مفتوحا ، إن دَعَا أُجِيبَ وإن سأل أُعْطِى .

للوراق

قال محمود الوراق :

شـاد الملوك قصورهم فتحصنوا * من كل طالب حاجة أو راغب
غالَوْا بأبْواب الحـديد لِعزِّها * وتَنوّقوا فى قُبْح وجه الحَاجِب
فإذا تَلطَّف للدُّخول عليهم * راجٍ تَلقَّوْه بوعـد كاذِبِ
فاطلُب إلى ملك الملوك ولا تكن * بَادِى الضراعَة طالبا مِنْ طالبِ

بين سعيد بن مسلم وأبى هفان فى الحجاب

سعيد بن مسلم ، قال : كنت والياً بإرمينية ، فغبر أبو هفان أياما ببابى . فلما وصل إلىّ مَثَل قائما بين السماطين وقال : والله إنى لأعرف أقواما لو علموا أن سَفّ التراب يُقيم من أوَدِ أصلابهم لجعلوه مُسْكةً لأرماقهم إيثاراً للتنزه عن عيش رقيق الحواشى . أما والله إنى لبعيد الوثبة ، بطىء العطفة . إنه والله لا يثنينى عنك إلا ما يصرفك عنى ، ولأَنْ أكون مُقِلاً مُقرَّباً أحبُّ إلىّ من أن أكون

مُكْثِراً مبعداً ؛ والله ما نسأل عملا لا نضبطه ، ولا مالا إلا ونحن أكْثَرُ منه ؛ وهذا الأمر الذى قد صار إليك وفى يديك قد كان فى يدى غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إنْ خيراً فخير وإن شرا فشر . فتحببْ إلى عباد الله بحسن البِشر ولينِ الجانب وتسهيلِ الحجاب ، فإن حُبّ عِبادِ الله موصولٌ بحب الله ، وبُغضَهم موصولٌ ببغضه ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورقباؤه على من اعْوَجّ عن سبيله . ٥

بين أبى مسهر وابن عبدكان

أبو مسهر قال : أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان فحجبنى ، فكتبت إليه :

إنى أتيتك للتّسليم أمسِ فلم * تأذَنْ عليك لى الأسْتار والحُجُب

وقد علمتَ بأنى لم أردّ ولا * واللهِ ماردّ إلا العِلْمُ والأدبُ

فأجابنى ابن عبدكان ، فقال : ١٠

لو كنت كافأتَ بالحُسنى لقلت كما * قال ابنُ أوْسٍ[1] وفيما قاله أدب

« ليس الحِجابُ بمُقص عنك لى أملا * إنّ السماءَ تُرجَّى حِين تحتَجبُ »

ابن منصور ورجل من خاصته حجب عنه

وقف بباب محمد بن منصور رجلٌ من خاصته فحُجب عنه ؛ فكتب إليه :

علىّ أى باب أطْلب الإذنَ بعدما * حُجبت عَن الباب الذى أنا حاجبُهْ

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن ، فقيل له : تكون لك عودة ، فقال : ١٥

لئنْ عدتُ بعد اليوم إنى لظالمٌ * سأصْرفُ وجهى حَيثُ تُبغى المكارِمُ

متى يَظفر الغادِى إليك بحاجة * ونِصفُك محجوب ونصفك نائم ؟

للعتابى

ونظير هذا المعنى للعتابى حيث يقول :

قدْ أتيْناك للسّلام مرارًا * غيرَ منْ منّا بذاك المزارِ ٢٠

فإذا أنت فى استِتارك باللّيـ * ـلِ على مثل حالنا بالنهارِ

أبودلف ورجل حجب عنه

وقف رجل بباب أبى دُلَف ، فقام به حينا لا يصل إليه ، فتلطّف فى رقعة وأوصلها إليه ،

(١) هو أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائى .

وكتب فيها :

إذا كان الكريمُ له حِجابٌ ٭ فما فضل الكريم على اللئيم ؟

فأجابه :

إذا كان الكريمُ قليلَ مال ٭ ولم يعْــذر تعلّل بالحجاب

٥ وأبوابُ الملوكِ مُحَجبــاتٌ ٭ فلا تَسْتعْظِمن حُجّابَ بابى

وقال حبيب الطائى فى الحجّاب : لحبيب

سأتْرُك هـذا الباب ما دامَ إذنهُ ٭ على ما أرى ، حتى يلين قليــلَا

فما خاب من لم يأته متعمدًا ٭ ولا فاز مَن قدْ نالَ مِنه وصولا

ولا جُعلتْ أرزاقنا بيَــد امرئ ٭ حمى بابَه من أن يُنال دُخُولَا

١٠ إذا لم نجد للإذنِ عنــدك مَوْضعًا ٭ وَجــدنا إلى ترك المجىء سبيلا

وأنشد أبو بكر العطار : لأبى بكر العطار

مالك قد حُلْت عن وَفائكَ واســتبدلْتَ ياعمرُو شيمةً كدِرَهْ

لسْتُم ترجُوْن للحسابِ ولا ٭ يومَ تكونُ السماءُ مُنْفَطِرهْ

قد كان وجهى لديك معرفةً ٭ فاليوم أضحى باباً من النّكِرَهْ

١٥ وقال غيره : لبعض الشعراء

أتيتــكَ للتسليم ؛ لا أننى امرؤٌ ٭ أَرَدْتُ بإتيانِيـكَ أسبابَ نائِلِكْ

فألفيت بوابًا يــابكَ مُغْــرَمًا ٭ بهدمِ الذى وطّدتهُ من فضائِلِكْ

وقد قال قومٌ : حاجبُ المرء عاملٌ ٭ على عرضهِ ؛ فاحذَرْ خيانةَ عاملِكْ

وقال الحسن بن هانئ : للحسن بن هانئ

٢٠ أيهـا الرّاكب المُغِذُّ إلى الفضــلِ ترفقْ فدونَ فضلٍ حِجابُ

ونَعمْ هَبْكَ قد وصلت إلى الفضْــلِ فهل فى يديكَ إلا التّرابُ !

وقال آخر ـ وهو محمود البغدادى : لمحمود البغدادى

حِجابكَ من مَهابَته عسيرٌ ٭ وخيرك فى اليدين غَدا يسيرًا

خرجتُ كما دخلتُ إليكَ إلّا ۞ تُرَابا صارَ فى خُفّى كثيرًا

للعتابى وقال العتابى :

حِجابُك ليس يشبهه حِجابُ ۞ وخيرك دون مَطلبِه السّحابُ
ونومكَ نومُ من ورد المنايا ۞ فليس له إلى الدنيا إيابُ

٥ وقال غيره :

أنا بالباب واقف منذ أصبحـ ۞ ـتُ على السَّرْج مُمسِكا بعنانى
وبعينِ البَوّاب كلُّ الذى بى ۞ ويرانى كأنَّهُ لا يرانِى

وقال غيره :

إذا ما أتيناهُ فى حاجةٍ ۞ رَفعنا الرقاع له بالقَصبْ
لَهُ حاجب دُونهُ حاجب ۞ وحاجبُ حاجبِه مُحتَجِبْ[1] ١٠

بين أبى بشير وبعض كتاب العسكر قال أبو بشير[2] : حجبنى بعض كتاب العسكر ، فكتبت إليه : إن من لم يرفعه الإذن لم يضعه الحجابُ ، وأنا أرفعك عن هذه المنزلة ، وأرغب بك عن هذه الخليقة . وكل من قام فى منزلك ، عظم قدرهُ أو صَغُر . وحاولَ حِجَابَ الخليفة ، أمكَنه ؛ فتأمَّلْ هذه الحال وانظر إليها بعين الفهم ترها فى أقبح صورة وأدنى منزلة . ١٥

لابن عبد ربه وقد قلت فى ذلك :

إذا كنت تأتى المرء تعظم حقّه ۞ ويَجهل منك الحقّ فالهَجر أوسع
وفى النّاس أبدال وفى الهجر راحةٌ ۞ وفى النّاس عمن لا يُواتيك مقنع
وإنّ امْرءًا يَرضى الهوان لِنفسه ۞ حَرىٌّ بجدع الأنف والأنف أشنعُ

٢٠ لبعض الشعراء وقال آخر :

يا أبا مُوسَى وأنْت فتًى ۞ ماجـدٌ حُلْوٌ ضَرَائبُهُ[3]

---

(١) كذا فى نهاية الأرب ، والبيت هناك منسوب للعتابى وفى الأصل : « يحتجب » .
(٢) هو أبو بشير رازم مولى خالد بن عبد الله القسرى ، وفى الأصول « أبو اليسير » وهو تحريف .
(٣) ضرائبه : سجاياه .

كن على منهاج مَعرفَة ٭ إنّ وجه المرء حاجبهُ
فبه تبدو محاسنه ٭ وبه تبدو معايبه

حسين الجمل

وأنشد حُسين الجمل، وبَكَر إلى باب سليمان بن وهب فحجبه الحاجب وأدخل ابن سَعْوة[1] وحَمدَوِيه:

٥ ولَعمرى لَئِنْ حُجبْنا عَن الشَّيْـخ فلا عن وجهٍ هناك وجيهِ
لا ولا عن طعامه التافِهِ النَّزْ ٭ رِ الذى حولهُ لطام بَنيه
بل حُجبنا به عن الخسْف والمسخ وذاكَ التَّبريق والتَّمويهِ
يَجْزِى اللهُ حاجباً لك فظًّا ٭ كل خيْرٍ عنا إذا يَجْزيهِ
فلقد سَرَّنى دخولُ أبى سَعْوَةَ دونى وبعده حَمْدَوِيهِ
١٠ إنَّ ذَنْبى نَذَالة قد تأتّى ٭ مِنْ صَباحى بِقُبحِ تِلك الوُجُوهِ

للبغدادى فى ابن وهب

وقال أحمد بن محمد البغدادى فى الحسن بن وهب الكاتب:

ومُسْتنبِ عن الحسن بن وهب ٭ وعَمَّا فيه مِنْ كرمٍ وخيرِ
أتانى كَىْ أخَبِّره بعلْمى ٭ فقلتُ له سقطتَ على خبيرِ
هوَ الرَّجلُ المهذبُ غير أنى ٭ أراهُ كَثيرَ إرْخاءِ السُّتُورِ
١٥ وأكْثرُ ما يُغنِّيهِ فتاهُ ٭ حُسَيْن حِينَ يَخلو بالسُّرُورِ
«ولولا الرِّيحُ أُسمع أهْلُ حَجْر ٭ صليلَ البيْضِ تُقرع بالذُّكورِ»

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى:

ما بالُ بابكَ محروساً ببوَّاب ٭ يَحْميه مِنْ طارقٍ يأْتى ومُنتابِ
لايحتجب وجهكَ الممقوتُ عَنْ أحد ٭ فالمقتُ يَحْجُبُه من غير حُجَّابِ
٢٠ فاعْزِلْ عن البابِ مَن قد ظلَّ يحجبه ٭ فإنّ وجهكَ طِلَّسْمٌ على البابِ

لحبيب

وقف حبيب الطائى بباب مالك بن طوق فحجب عنه؛ فكتب إليه يقول:

قل لابن طَوْق رَحَى سَعدٍ إذا خَبطت ٭ نَوائبُ الدَّهْر أعلاها وأسْفلها

(١) فى بعض الأصول «شعوة».

أصْبحت حاتمها جُودًا ، وأحْنفها ٭ حِلْماً ، وكيِّسها عِلْماً ، ودَغْفلَها[1]
مالى أرَى القُبةَ البَيضاء مُقْفلة ٭ دُونى وقد طال ما اسْتَفْتَحْتُ مُقْفَلها
أظُنُّها جَنَّــةَ الفِرْدوْس مُعْرِضةً ٭ وليس لى عمــلٌ زَاكٍ فأَدْخُلها

باب الوفاء والغدر

بين مروان وعبد الحميد الكاتب

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال مُلكه : قد احتجتَ إلى أن تصير مع عدوى وتُظهر الغدرَ بى ؛ فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك تدعوهم إلى حسن الظنّ بك ، فإن استطعتَ أن تنفعنى فى حياتى ، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرمتى بعد مماتى . فقال عبد الحميد : إن الذى أمرتَ به أنفعُ الأشياء لك وأقبحها بى ، وما عندى غير الصبر معك حتى يفتح الله عليك أو أُقتل معك . وأنشأ يقول :

أُسِرُّ وفاءً ثم أُظهر غــدرةً ٭ فمن لى بعذرٍ يُوسع الناسَ ظاهرُهْ

عبد الملك بعد قتله ابن سعيد

أبو الحسن المدائنى قال : لما قَتَل عبدُ الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب له أماناً وأشهد شهوداً . قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيره ويُصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر : ما رأيك فى الذى كان منى ؟ قال : أمرٌ قد فات دَرْكه ! قال : لتقولنّ ! قال حَزْمٌ لو قتلتَه وحَييت . قال : أولستُ بحىّ ؟ فقال : ليس بحىّ مَن أوقفَ نفسه موقفاً لا يُوثَق له بعهد ولا بعقْد . قال عبد الملك : كلام لو سَبَقَ سماعُه فِعْلى لأمسكْت .

أبو جعفر وابن هبيرة

المدائنى قال : لما كتب أبو جعفر أمان ابن هبيرة واختلف فيه الشهود أربعين يوما[2] ركب فى رجال معه حتى دخل على المنصور ، فقال : إن دولتكم هذه جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوتها وجنّبوهم مرارتها ، لتسرعَ محبتُكم إلى قلوبهم

---

(١) يعنى : حاتماً الطائى ، والأحنف بن قيس ، والكيس بن أبى الكيس المحدث ـ أو زيد ابن الكيس النمرى النسابة ـ ودغفل بن حنظلة الشيبانى النسابة .

(٢) لما هم أبو جعفر أن يكتب الأمان لابن هبيرة ، مكث يشاور فيه العلماء أربعين يوما حتى رضيه ابن هبيرة (الطبرى) .

ويَعْذُب ذكرُكم على ألسنتهم ، ومازلتُ منتظرا لهـذه الدعوة . فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه ، فنظر إلى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأنّ قلبه . فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه : عجباً من كل من يأمرنى بقتل مثل هـذا ! ثم قتله بعد ذلك غدرًا .

أبو جعفر وسلم فى قتل أبى مسلم

٥ وقال أبو جعفر لسَلْم بن قُتيبة : ما ترى فى قتل أبى مسلم ؟ قال : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، قال : حسبك الله أبا أمية .

قال أبو عمرو بن العلاء : كانت بنو سعد بن تميم أغدرَ العرب ، وكانوا يُسمون الغَدر فى الجاهلية كَيسان ، فقال فيهم الشاعر :

إذا كنتَ فى سَعد وخالُك منهمُ ٭ غريباً ، فلا يَغررْك خالك مِنْ سعْد

١٠ إذا مادعَوْا كَيْسانَ كانت كهولُهم ٭ إلى الغَدر أدْنى من شبابهم المُرْدِ

الولاية والعزل

للنبى صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة ؛ فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة .

لابن شعبة فى فى حب الولاية وكراهيتها

وقال المغيرة بن شعبة : أحب الإمارة لثلاث وأهجرها لثلاث : أُحبها لرفع ١٥ الأولياء ، ووضع الأعداء واسترخاص الأشياء . وأكرهها لروعة البريد ، ومَوْت العزل[1] ، وشماتة العدو .

بين ابن شبرمة وأبيه فى موكب طارق

وقال وَلَدُ ابن شُبرُمة القاضى : كنت جالساً مع أبى قبل أن يلى القضاء . فمرّ به طارقُ بن أبى زياد[2] فى موكب نبيل ، وهو والى البصرة ، فلما رآه أبى تنفس الصعداء وقال :

٢٠ أراها وإنْ كانت تحَبُّ كأنها ٭ سَحائبُ صَيف عنْ قَريب تقَشَّعُ

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها « خوف العزل » .

(٢) فى الأصول : « مولى ابن زياد » وهو خطأ ؛ وقد كان طارق بن أبى زياد عاملا على شرطة الكوفة لخالد القسرى .

ثم قال : اللهم لى دينى ولهم دنياهم : فلما ابتُلى بالقضاء قلت له : يا أبت ، أتذكر يوم طارق ؟ قال : يابنىّ ، إنهم يجدون خلفاً من أبيك ، وإن أباك لا يجد خلفاً منهم : إن أباك حَط فى أهوائهم ، وأكل من حلوائهم !

لابن الحسن فى رجل غيرته الولاية

قيل لعبد الله بن الحسن : إنّ فلاناً غيّرته الولاية . قال : من وَلِىَ ولاية يراها أكبرَ منه تغيّر لها ، ومن ولى ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغيّر لها . ٥

بين عمر والمغيرة حين عزله

ولما عَزل عمرُ بن الخطاب المُغيرة بن شعبةَ عن كتابة أبى موسى ، قال له : أعَنْ عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين ؟ قال : لاعن واحدة منهما ، ولكنى أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة .

دعوة ابن عمر على زياد

وكتب زياد إلى معاوية : قد أخذتُ العراق بيمينى وبقيت شمالى فارغة ـ يُعرّض له بالحجاز ـ فبلغ ذلك عبدَ الله بن عمر ، فرفع يده إلى السماء وقال : ١٠ اللهم اكفنا شِمالَ زياد . فخرجت فى شماله قرحة فقتلته .

بين ابن الخطاب وأبى هريرة

ولقى عمر بن الخطاب أبا هريرة ، فقال له : ألا تعمل ؟ قال : لاأريد العمل . قال : قد طلب العملَ مَن هو خير منك : يوسف عليه الصلاة والسلام ، قال : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ [1] ﴾ .

خالد القسرى وتوليته بلالا

المدائنى قال : كان بلال بن أبى بردة ملازماً لباب خالد بن عبد الله القَسرىّ ، ١٥ فكان لايركب خالد إلا رآه فى موكبه ، فبرم به ، فقال لرجل من الشرط : إيت ذلك الرجلَ صاحبَ العمامة السوداء فقل له : يقول لك الأمير : مالزومُك بابى وموكبى ؟ لا أُولّيك ولايةً أبدا . فأتاه الرسول فأبلغه . فقال له بلال : هل أنت مُبلغ عنى الأمير كما بلّغتنى عنه ؟ قال : نعم . قال : قل له : والله لئن ولّيتنى لاعزلتنى . فأبلغه ذلك . فقال خالد : مالَه قاتَله الله ! إنه ليَعِدُ من نفسه بكفاية . ٢٠ فدعاه فولّاه .

بين عمر وطالب عمل

وأراد عمر بن الخطاب أن يستعمل رجلا ، فبادر الرجل فطلب منه العمل ، فقال له عمر : والله لقد كنتُ أردتُك لذلك ، ولكن مَنْ طلب هذا الأمر لم يُعَنْ عليه .

---

(١) تقدم هذا الخبر على وجه آخر .

بين النبي صلى الله عليه وسلم والعباس

وطلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم من النبي ولاية ، فقال له : ياعم ، نفسٌ تحييها ، خيرٌ من ولاية لا تحصيها .

بين النبي صلى الله عليه وسلم ورجل طلب عملا

وطلب رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عملا ، فقال له : إنا لانستعين على عملنا بمن يريده .

٥ وتقول النصارى : لا نختار للجثلقة إلا زاهداً فيها غير طالب لها .

لزياد في أغبط الناس عيشاً

وقال زياد لأصحابه : من أغْبَطُ النـاس عيشا ؟ قالوا : الأميرُ وأصحابه ! قال : كلا ، إنّ لِأعواد المِنبر لهيبة ، ولِقَرع لجام البريد لفَزْعة ؛ ولـكن أغبط الناس عيشاً رجل له دار يَجرى عليه كِراؤها ، وزوجةٌ قد وافقته فى كَفاف من عيشه ، لايعرفنا ولا نعرفه ؛ فإن عَرفنا وعرفناه أفسدْنا عليه آخرته ودنياه .

بين معاوية والمغيرة حين كبر

١٠ وكتب المُغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف أن يُستبدل به :

أما بعد ، فقد كبرتْ سنّى ، ورقّ عظمى ، واقترب أجلى ، وسفَّهنى سفهاء قريش ، فرأْىُ أميرِ المؤمنين فى عمله مُوَفَّق .

فكتب إليه معاوية : أمّا ما ذكرتَ من كِبَر سنّك ، فأنت أكلتَ شبابك ؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك ، فإنى لو أستطيع دفعَ المنية لدفعتها عن

١٥ آل أبى سفيان ؛ وأما ماذكرت من سفهاء قريش ، فحلماؤها أحلُّوك ذلك المحل ؛ وأما ماذكرت من العمل ، فـ « ضَحِّ رُوَيْدًا يُدْرِكِ الْهَيْجَا حَمَل [1] » وهذا مثل ، وقد وقع تفسيره فى كتاب الأمثال .

فلما انتهى الكتابُ إلى المُغيرة كتب إليه يستأذنه فى القدوم عليه ، فأَذن له فخرج وخرجنا معه ، فلما دخل عليه قال له : يامُغيرة ، كَبِرت سنُّك ورقّ عظمك

٢٠ ولم يبق منك شىء ، ولا أرانى إلا مستبدلا بك . قال المحدِّث عنه : فانصرف إلينا ونحن نرى الكآبة فى وجهه ، فأخبرَنا بمـا كان من أمره . قلنا له : فما تُريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذلك . فأتى معاويةَ فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنّ

(١) حمل : هو حمل بن بدر من فرسان العرب ؛ والمثل فى النهى عن العجلة . والأصل فيه النهى عن العجلة فى الذبح ، ثم استعمل فى النهى عن العجلة عامة .

الأنفس ليُغْدَى عليها ويُراح ، ولستَ فى زمن أبى بكر ولا عمر ، فلو نصبتَ لنا عَلَماً من بعدك نصير إليه ! فإنى قد كنت دعوتُ أهل العراق إلى بيعة يزيد . فقال : يا أبا محمد ، آنصرف إلى عملك ورُمْ هذا الأمر لابن أخيك . فأقبلنا نَرْكُض على النُّجب ، فالتفت فقال : والله لقد وضعتُ رجلَه فى ركاب طويل أُلْقِى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ٥

باب من أحكام القضاة

لعمر بن عبد العزيز

قال عمرُ بن عبد العزيز : إذا كان فى القاضى خمسُ خصال فقد كَمُل : عِلْمٌ بما كان قبله ، ونزاهةٌ عن الطمع ، وحِلْمٌ عن الخَصم ، واقتداءٌ بالأئمة ، ومشاورةُ أهل العلم والرأى .

١٠ وقال عمر بن عبد العزيز : إذا أتاك الخصم وقد فُقِئت عينه ، فلا تحكم له حتى يأتىَ خصمُه ؛ فلعله قد فُقِئت عيناه جميعاً .

كتاب عمر بن الخطاب إلى معاوية فى القضاء

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية فى القضاء كتاباً يقول فيه : إذا تقدّم إليك الخصمان فعليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة ، وإدناءِ الضعيف حتى يشتدّ قلبُه وينبسطَ لسانه ؛ وتَعاهَدِ الغريب ! فإنك إن لم تتعاهده سقط حقُّه ورجع إلى أهله ؛ وإنما ضيّع حقَّه من لم يَرْفُق به : وآسِ بين الناس فى لحظك وطرفك ، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء . ١٥

العُتبى قال : تنازع إبراهيمُ بن المهدىّ هو وبُختَيْشوع الطبيب بين يدى أحمد ابن أبى دُواد القاضى فى مجلس الحُكْم فى عَقار بناحية السَّواد ؛ فزَرَى عليه ابن المهدى وأغلظ له بين يدى أحمد بن أبى دُواد ، فأحفظه ذلك ، فقال : يا إبراهيم ، إذا نازعت أحداً فى مجلس الحكم فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ، ولا أشرت إليه بيدٍ ، ٢٠ وليكن قصدك أَمَماً ، وطريقُك نهجاً ، وريحُك ساكنة ؛ ووفِّ مجالس الحكومة حقوقها مع التوقير والتعظيم والتوجيه إلى الواجب ؛ فإن ذلك أَشْبَهُ بك ، وأشكل لمذهبك فى مَحْتِدك وعِظَم خَطرك ؛ ولا تعجل ؛ فرُبَّ عَجَلةٍ تَهَبُ رَيْثاً . والله

يعصمك من الزلل، وخَطَلِ القولِ والعمل، ويُتِم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل، إن ربك حكيم عليم. قال إبراهيم: أصلحك الله، أمرتَ بسَدادٍ، وحَضضْتَ على رشاد. ولستُ بعائدٍ إلى ما يثلم مروءتى عندك، ويُسقطنى من عينك، ويُخرجنى عن مقدار الواجب إلى الاعتذار؛ فها أنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذارَ مُقرٍّ بذنبه، باخعٍ بجُرْمه، فإنّ الغضب لا يزال يستفزنى بمواده فيردّنى مثلُك بحلمه؛ وتلك عادةُ اللهِ عندنا منك، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد وهبتُ حقى من هذا العَقار لبُخْتيشوع! فليت ذلك يقوم بأرْشِ[1] الجناية؛ ولن يَتْلَفَ مالٌ أفاد موعظة، وبالله التوفيق[2].

كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعرى فى القضاء

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى، رواها ابن عُيينة: أما بعد فإنّ القضاء فريضةٌ مُحكمة، وسُنّة متّبعة؛ فافهم إذا أُدلى إليك الخصم؛ فإنه لا ينفع تكلّمٌ بحق لا نفاذ له، آسِ بين الناس فى مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ولا يخاف ضعيفٌ من جَوْرك. البينةُ على من آدّعى واليمينُ على من أنكر والصلح جائز بين المُسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حَرّمَ حلالا. ولا يمنعْك قضاءٌ قضيت به بالأمس ثم راجعتَ فيه نفسك وهُدِيتَ فيه لرشدك أن ترجع عنه؛ فإن الحق قديم والرجوع إليه خير من التمادى على الباطل. الفَهْمَ الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. واعرفِ الأمثال والأشباه، وقِسِ الأمورَ عند ذلك ثم اعمد إلى أحبّها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق؛ واجعل للمدعى أمداً ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذتَ له بحقه وإلا وجّهت عليه القضاء؛ فإن ذلك أجلى للعَمَى وأبْلَغُ فى العُذر. والمسلمون عُدول بعضهم على بعض، إلا مجلوداً فى حَدّ، أو مُجَرَّباً عليه شهادةُ زور، أو ظنيناً فى وَلاء أو قَرابة أو نَسب؛ فإنّ الله تَولّى منكم السرائر، ودَرَأ عنكم بالبينات والأيمان؛ ثم إياك والتأذّىَ بالناس والتنكر للخصوم فى

(١) الأرش: الدية.
(٢) انظر زهر الآداب للحصرى (١ : ٢٣٢).

مواطن الحقوق التي يُوجب اللهُ بها الأجر ويُحسن بها الذخر ، فإنه من تَخلُصُ نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين النـاس ، ومن تَزيَّنَ للناس بما يعلم اللهُ خِلافَه منه هَتَك اللهُ[1] ستره .

وله أيضاً يوصيه

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنـه إلى أبي موسى الأشعرى : أما بعد ؛ فإنّ للناس نُفرةً عن سلطانهم ؛ فاحذر أن تدركنى وإيّاك عَمياء مجهولة ، وضغائنُ محمولة ، وأهواء مُتَّبعة ، ودُنيا مُؤْثَرة . أقم الحدود واجلس للظالم ولو ساعة من النهار، وأخِف الفُسَّاق واجعلهم يداً يداً ورِجْلا رِجْلا ، وإذا كانت بين القبائل نائرة فنادوا يا لَفُلان ! فإنمـا تلك نجوى من الشيطان ، فاضْرِبْهم بالسيف حتى يَفيئوا إلى أمر الله وتـكونَ دَعواُهم إلى الله والإسلام وَاستدِم النعمةَ بالشكر ، والطاعة بالتألُّف ، والمقدرةَ بالعفو والنُّصرةَ بالتواضع والمحبـةِ للناس . وبلغنى أن ضَبَّةَ تنادى : يا لَضَبّة . والله ما علمتُ أن ضبة ساق الله بهـا خيراً قط ولا صرف بها شرّا . فإذا جاءك كتابى هذا فأنهكهم عقوبة حتى يَفْرَقُوا إن لم يفقهوا ، وألصق بغَيلان بن خَرشة مَن بينهم . وعُدْ مَرْضَى المسلمين ، وٱشهد جنائزهم ، وباشرْ أمورهم ، وافتح بابك لهم ؛ فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلَهم حملا وقد بلـغ أميرَ المؤمنين أنه فَشت لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومَركبك ليس للسلمين مثلُها ؛ فإيّاك ياعبد الله أن تـكون كالبهيمة : هَمُّها فى السِّمَنِ والسِّمَنُ حَتفُها . وٱعلم أنّ العامل إذا زاغ زاغت رعيتُه ، وأشقى الناس من يشقى به الناس . والسلام[2] .

ابن الخطاب وابن العاص والغزو فى البحر

أراد عمر بن الخطاب أن يغزو قوماً فى البحر ، فكتب إليه عمرو بن العاص وهو عامله على مصر : يا أمير المومنين ، إنّ البحر خلق عظيم ، يركبه خلق صغير ، دُودٌ على عود . فقال عمر : لا يسألنى الله عن أحد أحمله فيه .

للشعبي قال : كنت جالساً عند شُريح إذ دخلت عليه ٱمرأة تشتكى زوجها

(١) انظر نهاية الأرب ، وعيون الأخبار ، وجمع الأعشى ، والبيان والتبيين .
(٢) انظر شرح نهج البلاغة والبيان والتبيين (٢ : ١٥٥) .

وهو غائب وتبكي بكاء شديداً ، فقلت : أصلحك الله ، ما أراها إلا مظلومة . قال : وما علمك ؟ قلت : لبكائها . قال : لا تفعل ؛ فإن إخوة يوسف جاءوا أباهم عِشاء يَبْكونَ ، وهم له ظالمون .

الحسن ورجل رد إياس شهادته

وكان الحسن بن أبي الحسن ، لا يرى أن يرد شهادة رجل مسلم إلا أن يجرّحه المشهودُ عليه : فأقبل إليه رجل فقال : يا أبا سعيد ، إنّ إياساً ردّ شهادتى . فقام معه الحسن إليه فقال : يا أبا واثلة ، لِمَ رَددتَ شهادة هذا المسلم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى صلاتَنا واستقبل قِبلتنا فهو المسلم : له مالنا وعليه ماعلينا ؟ فقال : يا أبا سعيد ، إن الله يقول : ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ وهذا لا يُرْضَى .

من عدل شريح القاضي

ودخل الأشعث بن قيس على شُرَيح القاضي في مجلس الحكومة ، فقال : مرحباً وأهلا بشيخنا وسيدنا ، وأجلسه معه . فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث . فقال له شُريح : قُم فاجلس مجلس الخصم وكلِّم صاحبك . قال بل أكلِّمه من مجلسي . فقال له : لتقُومَنّ أو لآمُرَنّ من يُقيمك . فقال له الأشعث : لشدّ ما ارتفعت ؟ قال : فهل رأيتَ ذلك ضَرَّك ؟ قال : لا . قال : فأراك تعرفُ نعمة الله على غيرك وتجهلُها على نفسك .

إياس ورده لشهادة ابن أبي سود

وأقبل وكيع بن أبي سود صاحب خراسان ليشهد عند إياس بشهادة ، فقال : مرحبا وأهلا بأبي مُطَرِّف وأجلسه معه ، ثم قال له ما جاء بك ؟ قال لأشهد لفلان . فقال : مالك وللشهادة ! إنما يَشْهَدُ الموالي والتجار والسُّوقة . قال صدقت ، وانصرف من عنده فقيل له : خدَعَك ، إنه لا يَقبل شهادتَك . قال : لو علمتُ ذلك لعلوتُه بالقضيب .

عدى بن أرطاة وشريح

دخل عديّ بن أرطأة على شريح فقال : أين أنتَ أصلحَك الله ؟ قال : بينك وبين الجدار . قال : إني رجل من أهل الشام . قال : نائي المحلِّ سحيقُ الدار[1] . قال : قد تزوجتُ عندكم . قال : بالرفاء والبنين . قال : ووُلِد لي غلام . قال : لِيَهْنِك الفارس . قال : وأردتُ أن أُرحِّلها . قال : الرجل أحق بأهله . قال : وشرطتُ لها دارها ، قال : الشرطُ أَمْلَك . قال : فاحكم الآن بيننا . قال : قد فعلت . قال : على من قضيتَ ؟ قال : على آبن أمك . قال : بشهادةِ مَنْ ؟ قال : بشهادة آبن

(١) في بعض الأصول « نائي الدار سحيق المزار » .

أختِ خالتِك ؛ يريد إقراره على نفسه .

شريح ورجل يخاصم فى سنور

سفيان الثورى قال : جاء رجل يُخاصم إلى شُريح فى سِنَّوْر ، قال : بينتَك . قال : ما أجد بينة فى سنور وُلِدَتْ عندنا . قال شُريح : فاذهبوا بها إلى أمها فأرسِلوها ، فإن استقرت واستمرت ودرّت فهى سنورك ، وإن هى اقشعرت وازْبأرّتْ[1] فليست بسنورك ٥

سفيان الثورى قال : جاء رجل إلى شُريح فقال : ما تقول فى شاة تأكل الدّبَى[2] ؟ فقال : لبنٌ طيّب وعَلَف مجّان .

لشريح وقد سئل حكما

وقيل لشريح : أيهما أطيب الجوزينق أو اللّازينق ؟ قال : لست أحكم على غائب .

الشعبى فى الفصل بين رجل وامرأته

ودخل رجل على الشّعبى فى مجلس القضاء ومعه امرأة ، وهى من أجمل النساء فاختصما إليه ؛ فأدلت المرأة بحجتها وقربت بينتها . فقال للزوج : هل عندكَ من ١٠ مَدْفَع ؟ فأنشأ يقول :

فتِن الشّعبى لمّا * رَفع الطّرف إليها
فَتَنته بِدلال * وبخطّىْ حاجبيها
قال للجلواذِ قَرّبْها وأحْضِرْ شاهِدَيْها
فقضى جوْراً على الخَصْمِ ولم يَقْضِ عليها ١٥

قال الشعبى : فدخلت على عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلىّ تبسم وقال :

فُتِنَ الشّعْبى لمّا * رَفعَ الطّرْف إليها

ثم قال : ما فعلتَ بقائل هذه الأبيات ؟ قلت : أوجعتُه ضرباً يا أمير المؤمنين ؛ بما انتهك من حُرمتى فى مجلس الحكومة وبما افترى به علىّ ! قال : أحسنت .

تم الجزء الثانى من كتاب اللؤلؤة فى السلطان . ولله المنة ٢٠
يتلوه إن شاء الله تعالى « كتاب الفريدة فى الحروب » وهو الجزء الثالث من قسمة خمسة وعشرين من قسمة المؤلف
والحمد لله أولا وآخرا . وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) ازبأرت : انتفشت وتهيأت للشر .
(٢) الدبى : الجراد ، وقيل صغاره .

كتاب الفريدة

في الحروب ومدار أمرها

فرش كتاب الحروب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه :

قد مضى قولنا فى السلطان وتعظيمه وما على الرعية من لزوم طاعته وإدامة نصيحته ، وما على السلطان من العدل فى رعيته والرفق بأهل مملكته . ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الحروب ومدار أمرها ، وقَوْد الجيوش وتَدبيرها ، وما على المُدبّر لها من أعمال الخدمة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغِرّة ، وإذكاء العيون ، وإفشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من البيات . هذا بعد معرفة أحكامها ، وإحكام معرفته ، وطول تجربته لها ، ولمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش ، وعلمه أن لا دِرْعَ كالصبر ، ولا حِصْن كاليقين . ثم نذكر كرمَ الإقدام[1] ومحمودَ عاقبته ، ولؤمَ الفرار ومذمومَ مَغَبّته ، والله المُعين .

صفة الحروب

الحرب : رحى ، ثِفالُها[2] الصبر ؛ وقُطْبُها المكر ، ومدارها الاجتهاد ، وثِقافُها الأناة[3] ، وزمامها الحذر . ولكل شيء من هذه ثمرة : فثمرة المكر الظفَر ، وثمرة الصبر التأييد ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليُمْن ، وثمرة الحذَر السلامة ؛ ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال والحرب بين الناس سِجال ، والرأى فيها أبلغ من القتال .

قال عمر بن الخطاب لعمرو بن معديكرب : صف لنا الحرب . قال : مُرّةٌ

---

(1) فى بعض الأصول « كرم اليقين » .

(2) الثفال : مايبسط تحت الرحى ليكون عليه الدقيق .

(3) الثقاف : ماتسوّى به الرماح .

المَذاق ، إذا كشفت عن ساق ؛ من صَبر فيها عُرِف ، ومن نكل عنها تَلِف ، ثم أنشأ يقول :

الحرْبُ أوّلَ ما تكون فُتَيّة ٭ تَسْعى بزِينتها لكُلّ جَهولِ
حتى إذا حَمِيتْ وشَبّ ضِرامُها ٭ عادتْ عجوزاً غير ذات خَليل
شَمْطاءَ جَزّتْ رأسها وتنكّرَتْ ٭ مَكْروهةً للشّمّ والتقبيلِ ٥

عنترة الفوارس — وقيل لعنترة الفوارس : صف لنا الحرب . فقال : أولها شكوى ، وأوسطها نجوَى ، وآخرها بلوى .

الكميت — وقال الكميت :

والناسُ في الحرب شتّى وهْي مُقبلة ٭ ويستوون إذا ما أدْبر القُبُلُ
كلٌّ بأَمْسِيّها طَبٌّ مُوَلِّيَــةً ٭ والعالمون بذي غُدْوِيّها قُلُلُ ١٠

لنصر بن سيار — وقال نصر بن سيار صاحب خُراسان يصف الحرب ومبتدأ أمرها :

أرى خَلَلَ الرَّماد ومِيضَ نار ٭ ويُوشك أن يكون له ضِرَامُ
فإنّ النّار بالعُودَيْن تُذْكَى ٭ وإنّ الحربَ أولها الكلامُ

من حكمة لسليمان — وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام : الشر حلوٌ أوله ، مُرٌّ آخره .

العرب — والعرب تقول : الحرب غشوم ؛ لأنها تَنال غيرَ الجاني . ١٥

لحبيب — وقال حبيب :

والحرب تَرْكب رأسَها في مشْهَدٍ ٭ عُدِلَ السّفيهُ به بألْفِ حليمِ
في ســاعةٍ لو أنّ لُقماناً بهــا ٭ وهو الحكيمُ لكانَ غير حكيمِ

لأكثم — وقال أكثمُ بن صيفيّ حكيمُ العرب : لا حلم لمن لا سفيه له .

للأحنف — ونحو هذا قول الأحنفِ بن قيس : ما قَلّ سفهاء قومٍ قَطُّ إلا ذلُّوا . ٢٠

وقال : لأنْ يطيعني سفهاء قومي أَحَبُّ إليّ مِن أن يُطيعني حلماؤهم .

وقال : أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النارَ والعار .

وقال النابغة الجعدى :

للنابغة الجعدى ودعوة النبى صلى الله عليه وسلم له

ولا خيرَ فى حِلْمٍ إذا لم تكن له * بَوادِرُ تَحْمِى صَفْوَه أن يُكَدَّرَا

وأنشد هـذا الشعر للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلمـا آنتهى إلى هـذا البيت . قال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا يَفْضُضِ اللهُ فاك . فعاش ثلاثين ومائة سنة ٥ لم تسقط له ثنيّة .

وقال النابغة الذُّبيانى يصف الحرب :

للنابغة الذبيانى يصف الحرب

تَبدو كواكبه والشمسُ طالِعةٌ * لا النُّورُ نُورٌ ولا الإظلامُ إظلامُ

يريد بقوله : « تبدو كواكبه والشمس طالعة » شدةَ الهول والكرب ، كما تقول العامة : أرَيْتُه النجومَ وسط النهار . قال الفرزدق :

١٠ * أُرِيكَ نجومَ الليلِ والشمسُ حيَّة *

وقال طرفة بن العبد :

* وتريكَ النَّجمَ يَجْرِى بالظُّهر *

وإليه ذهب جرير فى قوله :

والشمسُ طالِعةٌ ليست بِكاسِفَةٍ * تبكى عليك نجومَ الليلِ والقَمَرَا

١٥ يقول : إن الشمس طالعة وليست بكاسفةٍ نجومَ الليـل ، لشدة الغم والكرب الذى فيه الناس .

ومن قولنا فى صفة الحرب :

لابن عبد ربه

ومُغْبَرّ السماء إذا تَجَـلَّى * يُغادِرُ أرْضَه كالأُرْجُوانِ

كأنَّ نهـاره ظَلْماء ليْـلٍ * كَوَاكِبه مِنَ السُّمر اللِّدانِ

٢٠ سَمَوْتُ لهُ سُمُوَّ النَّقْعِ فيـهِ * بِكلِّ مُزَلَّقٍ سَلِبِ السِّنَانِ

وكل مُشطَّب المتنين صافٍ * كلون الملح منصلتٌ يمـانِ

وفى صفة المعترك :

ومُعْـتركٍ تَهُزُّ به المنـايا * ذُكُورَ الهندِ فى أيْدِى ذُكُورِ

لوَامِعُ يُبْصِر الأعْمَى سَناها * ويَعمَى دونها طَرْفُ البَصِيرِ
وخافِقةِ الذَّوائبِ قد أنافتْ * على خَضراءَ ذات شَبًا طَرِيرِ[1]
يُحَوِّم حولَها عِقبانُ مَوْتٍ * تَخطَّفَتِ القُلُوبَ منَ الصُّدُورِ
بيَوْمٍ رَاحَ فى سِرْبالِ ليلٍ * فما عُرِفَ الأصِيلُ من البُكورِ
وعَيْنُ الشمس تَرْنُو فى قَتامٍ * رُنُوَّ البِكْرِ من بين السُّتُورِ ٥
فكَمْ قَصَّرت مِنْ عُمْرٍ طَوِيلٍ * بِهِ ، وأطَلْتَ مِنْ عُمُرٍ قَصِيرِ

العمل فى الحروب

لأكثم بن صيفى

قيل لأكثم بن صَيفىّ : صف لنا العَمل فى الحرب . قال أقِلُّوا الخلاف على أُمرائكم ، فلا جماعةَ لمن اختُلف عليه . واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ؛ فتثبَّتوا ؛ فإن أحزَمَ الفريقين الرَّكين . ورُبَّ عجلةٍ تُعقِبُ رَيْثًا . وادَّرِعوا اللَّيْلَ فإنه أخْفَى للوَيل ، وتحفَّظوا من البيات . ١٠

لشبيب الحرورى فى الليل

وقال شَبيب الحَرورىّ : الليل يكفيك الجبان ونصفَ الشجاع . وكان إذا أمسى يقول لأصحابه : أتاكم المدد .

لعائشة يوم الجمل

وقالت عائشةُ رضى الله تعالى عنها يوم الجمل ، وسمعتْ منازعةَ أصحابها وكثرةَ صياحهم : المُنازعة فى الحرب خَوَر ، والصياحُ فيها فَشَل ، وما بِرأيى خَرَجْتُ مع هؤلاء . ١٥

لعتبة يوم بدر

وقال عُتبة بن ربيعة لأصحابه يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمَا تَرَوْنهم خُرْسًا لا يتكلَّمون ، يتلمَّظُونَ تَلمُّظَ الحيات .

لابن أبى طالب فى العواقب

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : مَن أكثَرَ النظرَ فى العواقب لم يَشجُع .

لابن مقرن عند اللقاء

وقال النعمان بن مُقَرِّن لأصحابه عند لقاء العدو : إنى هازٌّ لكم الراية ، فليُصلح كلُّ رجل منكم من شأنه وليَشُدَّ على نفسه وفرسه ؛ ثم إنى هازُّها لكم الثانية . فلينظر كل رجل منكم موقعَ سهمه وموضعَ عدوِّه ومكان فرصته ؛ ثم إنى هازُّها ٢٠

(١) المراد بالخضراء : القناة . والشبا : جمع شباة ، وهى الحد . والطرير : المحدد .

لكم الثالثة وحامل ، فاحملوا على اسم الله .

لعمر بن الخطاب في ابن مقرن

وللنعمان بن مقرن هـذا ؛ يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ تكاملت [الخيل] وتطلع الصحابة إلى التقدم عليهـا : لأُقلّدنّ أعنَّتَها رجلا يكون غداً لأول أسنَّةٍ يلقاها ، فقلدها النعمان بن مقرن .

لعلى في الفرصة

٥ وقال على رضى الله عنه : انتهزوا الفرصة فإنها تمرّ مرّ السحاب ، ولا تطلبوا أثرا بعد عين .

ولبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء : انتهز الفرصة فإنها خلْسه وثِب عند رأس الأمر ولا تثب عند ذنَبه ؛ وإياك والعجزَ فإنه أذَلُّ مَرْكب ، والشفيعَ المهين فإنه أضعف وسيلة .

لابن مسلم في ابن أبي سود

وخرجتْ خارجةٌ بخراسانَ على قُتيبة بن مسلم فأهمه ذلك ، فقيل له : مايهمُّك ١٠ منهم ؟ وجّه إليهم وكيع بن أبى سُود فإنه يكفيكهم . فقال : لا ، إن وكيعا رجل به كِبْرٌ يحتقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلّت مبالاته بأعدائه فلم يحترس منهم . فيجد عدوُّه غِرَّةً منه .

لبعض الملوك في الحزم

وسئل بعض الملوك عن وثائق الحزم فى القتال فقال : مخاتلة العدو عن الريف وإعداد العيون على الرَّصد ، وإعطاء المُبلِّغين على الصدق ، ومعاقبة المتوصّلين ١٥ بالكذب ، وألّا تخرج هاربا إلى قتال ؛ ولا تُضيّق أمانا على مستأمن ، ولا تشدهنَّك الغنيمة عن المحاذرة[1] .

للعجم في أشد الأمور تدريباً

وفى بعض كتب العجم : إن حكيما سُئل عن أشدّ الأمور تدريباً للجنود وشحذاً لهـا . فقال : تَعوُّدُ القتال ، وكثرةُ الظَّفر ، وأن يكون لهـا موادُّ من ورائها[1] .

بين معاوية وعمرو بن العاص

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : والله ما أدرى يا أمير المؤمنين أشجاع أنت ٢٠ أم جبان ؟ فقال معاوية :

شُجَاعٌ إذا ما أمْكنتْنِى فُرْصَة ٭ وإن لم تَكنْ لى فُرْصَةٌ فَجَبانُ

وقال الأحنف بن قيس : إن رأيت الشر يتركك إن تركته ، فاتركه .

---

(١) انظر عيون الأخبار .

لهدبة العذرى

قال هُدبة العذرى :

ولا أتمنى الشرّ والشرُّ تارِكى ٭ ولكنْ متى أُحْمَلْ على الشرِّ أركَبِ

ولستُ بِمفْراحٍ إذا الدهرُ سَرَّنى ٭ ولا جازِعٍ من صَرْفِهِ المتقلّبِ

الصبر والإقدام فى الحرب

٥ جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب فى آيتين من كتابه فقال تعالى : ﴿ يأيُّها الذين آمَنُوا إذا لقِيتم فِئةً فاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرا لعلّكُمْ تُفلِحُون ٭ وأطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلوا وتذْهَبَ رِيحُكم واْصْبِرُوا إنّ اللهَ معَ الصّابِرِين ﴾ .

للعرب فى الشجاعة

وتقول العرب : الشجاعة وقاية والجبن مَقْتلة . واعتبر من ذلك أن من يُقْتلُ مدبِراً أكثرُ ممن يُقْتل مُقْبلا .

لأبى بكر يوصى خالداً

١٠ ولذلك قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه لخالد بن الوليد : احرص على الموت توهَبْ لك الحياة .

للعرب

والعرب تقول : الشجاع موقّى والجبان مُلَقّى .

لبعض الأعراب

وقال أعرابى : الله مُخْلف ما أتلف الناس . والدهرُ متلف ما جمعوا ، وكم من مُنية عِلّتها طالب الحياة ، وحياةٍ سببها التعرض للموت .

لخالد فى الصبر

١٥ وكان خالد بن الوليد يسير فى الصفوف يُذمّرُ[1] الناس ويقول : يا أهل الإسلام : إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ، وإن مع الصبر النصر .

لأنوشروان

وكتب أنو شروان إلى مرازبته : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ؛ فإنهم أهلُ حُسْنِ الظنّ بالله .

للحكماء

وقالت الحكماء : استقبال الموت خير من استدباره .

لحسان

٢٠ وقال حسان بن ثابت :

ولسْنا على الأعْقابِ تَدْمَى كُلُومُنا ٭ ولكن على أعْقابنا تَقْطُرُ الدِّما[2]

---

(١) يذمرهم : يحضهم على القتال .

(٢) روى هذا البيت فى الحماسة للحصين بن الحمام المرى ، من شعراء الجاهلية .

وقال العلوى فى هذا المعنى :

مُحَرَّمَةٌ أكفالُ خَيلِي على القَنا ٭ ودامِيَــة لَبَّــاتها ونحورُها
حرام على أرماحنا طَعنُ مُدْبِرٍ ٭ وتَنْدَقُّ منها فى الصدورِ صُدورُها

وكانوا يتمادحون بالموت قَعْصاً[1] ويتهاجون بالموت على الفراش ، ويقولون
٥ فيه : مات فلانٌ حَتْفَ أنفِه . وأول من قال ذلك النبىُّ عليه الصلاة والسلام .

لعبد الله بن الزبير فى مقتل أخيه مصعب

وخطب عبد الله بن الزُّبير الناسَ لما بلغه قتلُ مصعب أخيه ، فقال : إن يُقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه ، إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قعصا بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ؛ وإن يُقتل مُعصب فإن فى آل الزبير خلفاً منه .

للسموءل

وقال السموءل بن عادياء :

١٠ وما مات منا سيِّد حتفَ أنفِه ٭ ولا طُلّ منا حيثُ كان قَتيلُ
تَسِيلُ على حدِّ الظُّباتِ نفوسُنا ٭ وليس على غير السُّيُوفِ تَسِيلُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

وإنا لتَسْتَحْلِي المنايا نُفوسُنا ٭ ونَتْرُكُ أُخرى مُرّها فنذوقُها

للشنفرى

وقال الشَّنْفرى :

١٥ فلا تدفِنونى ، إنّ دَفْنِي مُحَرَّمٌ ٭ عليكم ولكنْ خامِرِى أُمَّ عامِرِ
إذا حُمِلَتْ رأسى وفى الرأسِ أكثرِى ٭ وغُودِرَ عند المُلتقَى ثم سائرِى
هنالك لا أبْغِى حَياةً تَسُرُّنى ٭ سَجِيسَ اللَّيالى مُبْسَلاً بالجرائرِ[2]

قوله « خامِرِى أُمَّ عامر » : هى الضبع . يعنى : إذا قتلتمونى فلا تدفنونى ولكن ألقونى إلى التى يقال لها : خامرى أمّ عامر ، وهى الضبع . وهذا اللفظ بعيد
٢٠ من المعنى .

لعلى بن أبى طالب

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ــ وقيل له : أتقتل أهل

(١) يقولون : مات قعصا : أى أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .
(٢) سَجِيسَ الليالى : أى أبدا . ومبسلا : أى مسلما .

الشام بالغداة وتظهر بالعشىّ فى إزار ورداء ؟ فقال : أبالموت تخوّفونى ؟ فوالله ما أبالى أسقطتُ على الموت أم سقط علىّ .

وقال لابنه الحسن عليهما السلام : لا تدعُوَنّ أحدا إلى المبارزة ، وإن دُعيت إليها فأجب ، فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع .

٥ وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : بقية السيف أنْمَى عدداً ، وأطيَبُ ولداً . يريد أن السيف إذا أسرع فى أهل بيت كثر عددُهم ونما ولدُهم .

ومما يستدلّ به على صدق قوله : ما عَمِل السيفُ فى آل الزبير وآلِ أبى طالب وما أكثَرَ مِن عددِهم .

لأبى دلف العجلى

وقال أبو دلف العِجْلىّ :

١٠
سَيْفِى بلَيْلى قَبَسى * وفى نَهارى أنسى
إنّى فتًى عَوّدَنى * مُهْرى رُكُوبَ الغَلَس
يَحْمَدُنى سيفِى كما * يَحْمَدُ كَرِّى فرسى

لابن طاهر

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان :

لَسْتُ لِرَيْحانٍ ولا رَاحٍ * ولا على الجارِ بنَفّاجِ
١٥ فإنْ أرَدْتَ الآنَ لى موْقِفاً * فبَيْن أسْيافٍ وأرْماحِ
تَرَى فتى تحْت ظلال القَنا * يَقْبِض أرْوَاحًا بأرْوَاحِ

لابن رميلة

وقال أشهب بن رميلة :

أُسُودُ شَرًى لاقت أُسُودَ خَفِيَّةٍ * تلاقوا على جُرْدٍ بماءِ الأساود

للمهلب فى أعجب ما رأى فى حرب الأزارقة

وقيل للمُهلب بن أبى صُفرة : ما أعجبُ ما رأيتَ فى حرب الأزارقة ؟ قال : فتى كان ٢٠ يخرج إلينا منهم فى كل غداة فيقف فيقول :

وسائلةٍ بالغَيْبِ عنى ولو دَرَتْ * مُقَارَعَتى الأبطالَ طال نَحِيبُهَا
إذا ما التَقَينا كنتُ أولَ فارسٍ * يَجُود بنَفْسٍ أثقلَتها ذُنُوبُها

ثم يحمل فلا يقوم له شىء إلا أقعده ، فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك .

بين هشام وأخيه مسلمة فى الذعر

وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة: يا أبا سعد، هل دخلك ذعرٌ قط لحرب أو عدوّ؟ قال: ما سلمت فى ذلك من ذعر يُنبّه على حيلة، ولم يَغشَنى ذعرٌ قطّ سلبنى رأيى. قال هشام: صدقت هذه والله البسالة.

لعنترة يوم الفروق

وقيل لعنترة: كم كنتم يومَ الفَرُوق[1]؟ قال: كُنّا مائة لم نكثر فنتّكل، ولم نقِلّ فنذلّ.

ما كان يتمثل به ابن المهلب

وكان يزيدُ بن المهلّب يتمثّل كثيراً فى الحرب بقول حُصين بن الحُمام:

تأخّرْتُ أستَبقِى الحياةَ فلمْ أجِدْ ❊ لنَفْسى حَياةً مِثْل أنْ أتَقدّما

للخنساء

وقالت الخنساء:

نهِينُ النُّفُوسَ وبَذْل النُّفُو ❊ سِ يَوْمَ الكريهةِ أبْقَى لها

لعباد بن الحصين

وقيل لعبّاد بن الحُصين، وكان من أشدّ أهل البصر: فى أى عُدّة كنت تُريد أن تلقَى عدوّك؟ قال: فى أجلٍ مستأخِر.

ما كان يتمثل به معاوية يوم صفين

وكان مما يتمثل به معاوية رضى الله تعالى عنه يوم صفّين:

أبَتْ لى شِيمَتى وأبَى بلائِى ❊ وأخْذِى الحَمْدَ بالثّمنِ الرّبيح

وإقدامِى على المكروهِ نفْسِى ❊ وضَرْبِى هامَةَ البطَلِ المُشِيح

وقوْلى كُلّمَا جَشأتْ وجاشَتْ ❊ مكانَكِ تُحْمَدِى أو تَسْتَرِيحِى

لِأَدْفعَ عَنْ مَآثِرَ صالِحاتٍ ❊ وأحمىَ بَعْدُ عن عِرضٍ صَحيح

لقطرى

ونظير هذا قول قطَرِىّ بن الفُجاءة:

[أقُولُ لها وقدْ طارَتْ شَعَاعًا][2] ❊ مِنَ الأبْطال ويْحَكِ لا تُرَاعِى

فإنّكِ لو سألتِ حَياةَ يَوْمٍ ❊ سِوَى الأجَلِ الذى لَكِ لم تُطاعِى

لابن أبى طالب فى صفين

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يخرج كل يوم بصفّين حتى يقف بين الصفّين ويقول:

---

(١) من أيام عبس وذبيان.

(٢) فى الأصل: «وقولى كلمات جشأت لنفسى»

أىَّ يَوْمَىَّ من الموْت أفِرّ * يوْم لا يُقْـدَرُ أو يوْمَ قدِرْ
يَوْمَ لا يُقْـــدَرُ لا أرْهَبُهُ * ومِنَ المَقْدُورِلايُنْجى الحَذرْ

جرير — ومثله قول جرير :

قلْ لِلجبانِ إذا تأَخَّرَ سَرْجُهُ * هل أنت من شَرَكِ المنيَّة ناج

٥ — وهذا البيت فى شعره الذى أوله :

* هاج الفراقُ لقلبك المهتاج *

ومدح فيه الحجاج ، فلما أنشده :

* قل للجبان إذا تأخّر سرجه *

قال له : جَرَأت علىّ الناس يابن اللَّخناء ! قال : والله ما ألقيتُ لها بالًا أيها الأمير
١٠ — إلا وقتى هذا .

عم بن الحدثان والفرزدق — وكان عاصم بن الحدثان عالما ذكيًا ، وكان رأس الخوارج بالبصرة ، وربما جاء الرسول منهم من الجزيرة يسأله عن الأمر يختصمون فيه ، فمرّ به الفرزدق ، فقال لابنه : أنشد أبا فراس ، فأنشده :

وهُمُ إذا كسرُوا الجُفُون أكارم * صُبُرٌ وحِين تُحَلَّل الأزْرَارُ
١٥ — يَغْشَوْنَ حَوْماتِ المَنُونِ وإنَّها * فى الله عند نُفُوسِهِمْ لَصِغارُ
يَمْشُونَ بالخَطِّىِّ لا يثْنيهم * والقوْمُ إن رَكِبُوا الرماحَ تِجَارُ

فقال له الفرزدق : ويحك ! اكتم هذا لا يسمعه النساجون فيخرجوا علينا بحُفوفهم[1]
فقال أبوه : هو شاعر المؤمنين وأنت شاعر الكافرين .

لعنترة وغيره — ونظير هذا مما يشجّع الجبان قولُ عنترة الفوارس :

٢٠ — بكرتْ تُخَوِّفُنى الحُتُوفَ كأنّنى * أصبحتُ عن غرض الحُتُوفِ بمعزِلِ
فأجبتُها : إنَّ المنِيَّـة مَنْهلٌ * لا بُدَّ أن أُسْقَى بِكأس المنْهلِ
فاقْنَىْ حَيَاءكِ لا أبَالكِ واعْلَمى * أنّى امرُؤٌ سأَمُوتُ إن لم أُقْتَـلِ

(١) الحف : المنسج ؛ وفى الأصل : « بسيوفهم » .

ومن أحسن ما قالوه فى الصبر ، قولُ نَهشل بن حَرِىّ بن ضَمْرة النَّهشلىّ :

وَيَوْمٍ كأنّ المصْطَلِينَ بحرِّه ۞ وإن لم تكنْ نارٌ وُقوفٌ على جَمْرِ

صَبَرْنَا له حتى يَبُوخَ ، وإنما ۞ تفرَّجُ أيامُ الكريهةِ بالصَّبْرِ

وأحسن من هذا عندى قولُ حبيب :

٥ فأَثْبَتَ فى مُستنقع الموتِ رِجْلَهُ ۞ وقالَ لها مِنْ تحتِ إخْمَصِكِ الحَشْرُ

تَرَدّى ثِيَابَ الموتِ حُمْرًا فما أَتَى ۞ لها الليلُ إلا وهْىَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرِ

وأحسن من هذا قوله :

يستعذِبون مناياهم كأنهمُ ۞ لا يخرجون منَ الدنيا إذا قُتِلوا

وقولُه فى المعنى :

١٠ قومٌ إذا لبِسوا الحديدَ حسِبتَهم ۞ لم يحسَبوا أنّ المنيَّةَ تُخلقُ

انظُرْ بحيث ترى السُّيوفَ لَوَامِعًا ۞ أبدا وفوقَ رُءوسِهم تتألَّقُ

وقال الجحّاف بن حكيم :

شهِدنَ مع النبىّ مُسَوَّماتٍ ۞ حُنَيْنًا وهى دامية الحوامى

ووقعةَ راهطٍ شهِدتْ وحلَّت ۞ سنابكُهُنّ بالبلدِ الحرامِ

١٥ تعرّض للطِّعانِ إذا التقينا[1] ۞ خُدُوداً لا تَعرَّضُ لِلَّطامِ

أخذه من قولهم : ضربة بسيف فى عزّ ، خيرٌ من لطمة فى ذلّ .

ومن أحسن ما وُصِفت به رجالُ الحرب قولُ الشاعر[2] :

رُوَيداً بنى شيبانَ بعضَ وعيدِكمْ ۞ تُلاقوا غَداً خَيلى على سفوان

تُلاقوا رِجالا لا تَحيد عنِ الوغى ۞ إذا الخيلُ جالتْ فى قنا الميدان

٢٠ إذا استُنجِدوا لم يسألوا من دَعاهُمُ ۞ لأيّةِ أرض أو لأىّ مكان

---

(١) فى بعض الأصول : « بكل ثغر »

(٢) هو وداك بن نميل المازنى

ونظير هذا قول الآخر :

قومٌ إذا نزل الغريبُ بدارِهِمْ ٭ تركوهُ ربَّ صواهلٍ وقِيانِ
وإذا دعوتَهُمُ ليومِ كريهةٍ ٭ سَدُّوا شُعاعَ الشمسِ بالفُرْسانِ
لا يَنكُتُونَ الأرضَ عند سُؤالِهِمْ ٭ لتطلُّبِ العِلاَّتِ بالعِيدانِ
بل يُسفرون وجوهَهم فترى لها ٭ عند السُّؤال كأحسنِ الألْوانِ ٥

ومن أحسن المحدَثين تشبيهاً فى الحرب ، مُسلم بن الوليد الأنصارى فى قوله ليزيد بن مزْيد :

تلقَى المنيَّةَ فى أمثالِ عُدَّتِها ٭ كالسَّيلِ يقذِف جلْمودا بجلمودِ
تجودُ بالنفس إذ ضَنَّ الجوادُ بها[1] ٭ والجودُ بالنَّفس أقصَى غايةِ الجودِ

وقوله أيضا : ١٠

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يومِ ذى رَهَجٍ ٭ كأنه أجَلٌ ، يسعَى إلى أمَلِ
ينالُ بالرِّفْقِ ما تعيا الرجال به ٭ كالموت مستعجلا يأتى على مَهَلِ

وقال أبو العتاهية :

كأنك عند الكرِّ فى الحرب إنما ٭ تفِر عن السِّلم الذى من ورائكا
كأنَّ المنايا ليْس تجرِى لَدَى الْوَغى ٭ إذا التقتِ الأبطالُ إلا برأيكا ١٥
فما آفةُ الآجالِ غيْرُك فى الوغَى ٭ وما آفة الأموال غير حِبائكا

وقال زيد الخيل :

وقد علمتْ سلامةُ أنَّ سيْفِى ٭ كريهٌ كلما دُعِيتْ نَزالِ
أُحادِثُهُ بصَقْلٍ كل يومٍ ٭ وأُعْجِمُه بهاماتِ الرجال

وقال أبو مِحلِّم السعدىّ[2] : ٢٠

تقولُ وصَكّت وجهَها بيمينِها ٭ أبَعْلِى هذا بالرحَى المُتقاعسُ

(١) فى بعض الأصول : « شح الضنين » .
(٢) انظر الحماسة ، والكامل للمبرد .

فقلت لها لا تعْجلى وتَبيَّنى ۞ بلائى إذا التفَّتْ علىّ الفوارس
ألستُ أردُّ القِرْنَ يركب رَدْعه[١] ۞ وفيه سِنان ذو غرارين نائس[٢]
إذا هاب أقوام تقحّمتُ غمرة[٣] ۞ يهاب حُميَّاهُ الألدُّ المداعِسُ
لعمرُ أبيك الخير إنى لخـادمٌ ۞ لضَيْفى وإنى إن ركبتُ لفارسُ

وقال آخر يمدح المهلّب بالصبر :

وإذا جُدِدْتَ فكلُّ شىء نافعٌ ۞ وإذا حُدِدْتَ فكلُّ شىء ضائرُ
وإذا أتاكَ مُهلَّبٌ فى الوغى ۞ فى كفّه سيفٌ فنِعْم الناصِرُ

ومن قولنا فى القائد أبى العباس فى الحرب :

نفسى فداؤك والأبطالُ واقِفةٌ ۞ والموتُ يَقسِمُ فى أرواحِها النِّقَما
١٠ شاركْتَ صَرْفَ المنايا فى نُفوسِهمُ ۞ حتى تحكّمْتَ فيها مثل ما احتَكما
لو تستطيع العُلا جاءتْك خاضعةً ۞ حتى تُقبِّل منكَ الكفَّ والقَدَما

ومن قولنا فى وصف الحرب :

سيوف يَقيلُ الموتُ تحت ظُباتها ۞ لها فى الكُلَى طُعْمٌ وبينَ الكُلَى شرْبُ
إذا اصْطَفّت الرايات حُمْراً مُتونُها ۞ ذَوائبُها تَهفو فيهْفو لها القلبُ
١٥ ولم تَنطِقِ الأبطالُ إلّا بفعْـلِها ۞ فألْسُنُها عُجْمٌ وأفعالُهـا عرْبُ
إذا ما التقَوْا فى مأزق وتعانقوا ۞ فلُقْياهُمُ طَعْنٌ وتَعْنيقُهُمْ ضَرْبُ

ومن قولنا فى رجال الحرب وأنّ الوغى قد أخذت منهم ومن أجسامهم فهى مثلُ السيوف فى رقّتها وصلابتها :

سيفٌ تقـلّدَ مِثْلهُ ۞ عَطْفَ القَضيب على القضِيبْ
٢٠ هـذا تُجزُّ به الرِّقا ۞ بُ وذا تُجزُّ به الخطوبْ

(١) أى يخرّ صريعا لوجهه .
(٢) النائس : المضطرب .
(٣) فى بعض الأصول « تجشمت كل ما » .

ومن قولنا أيضاً :

تراهُ فى الْوَغى سيْفاً صَقيلًا ٭ يُقَلِّبُ صفْحتَىْ سيْفٍ صقيلِ

ومن قولنا أيضاً :

سيْفٌ عليه نجادُ سَيفٍ مِثْلِه ٭ فى حَدِّهِ لِلْمُفْسِدِينَ صلاحُ

ومن قولنا أيضاً فى الحرب وذكر القائد :

مَقِيلُكَ تحت أَظْلالِ العوالى ٭ وبيْتُك فوْق صَهْواتِ الجِيادِ

تَبَخْتَرُ فى قميصٍ من دِلاصٍ ٭ وتَرْفُل فى رداءٍ من نجادِ

كأنّك لِلحروب رَضيعُ ثدْيٍ ٭ غَذَتْك بكلِّ داهِيَةٍ نَآدِ

فكَمْ هذا التَّمنّى لِلْمَنايا ٭ وكم هذا التَّجلُّدُ لِلجِلادِ

لئِنْ عُرِف الجهادُ بكُلِّ عامٍ ٭ فإنّك طولَ دَهْرِكَ فى جهادِ

وإنّك حين أُبتَ بكلِّ سَعْدٍ ٭ كمِثْلِ الرُّوحِ آبَ إلى الفُؤادِ

رأينا السَّيف مُرتَدياً بسَيفٍ ٭ وعايَنّا الجواد على الجواد

وقد وصفنا الحربَ بتشبيه عجيب لم يُتَقدَّمْ عليه(١) ، ومعنى بديعٍ لانظير له ، فمن ذلك قولُنا :

وجيش كظهْرِ اليَمِّ تنفُحهُ الصَّبا ٭ يَعُبُّ عُباباً من قناً وقنابِلِ

فتَنْزِلُ أُولاهُ وليس بنازِلٍ ٭ وترحلُ أُخراهُ وليس براحِلِ

ومُعتَرَكٍ ضَنْكٍ تعاطَتْ كُماتُهُ ٭ كُئوسَ دِماءٍ منْ كُلًى ومفاصلِ

يُديرونَها راحاً منَ الرُّوحِ بيْنَهم ٭ ببيضٍ رِقاقٍ أو بسُمْرٍ ذوابِلِ

وتُسْمِعُهُم أُمُّ المَنِيَّة وسْطَها ٭ غِناءَ صليلِ البِيضِ تحتَ المَناصلِ

ومن قولنا فى هذا المعنى :

سيف من الْحَتف تَرَدَّى به ٭ يومَ الوغَى سيف من الحزْمِ

مواصلاً أعْداءهُ عن قِلًى ٭ لاصِلة القربَى ولا الرَّحْمِ

(١) فى بعض الأصول : إليه .

وصلٌ يحنُّ الإلفُ من بُغضه * شوقاً إلى الهجرانِ والصَّرْمِ
حتى إذا نادمهُم سيفه * بكلِّ كأسٍ مُرَّةِ الطَّعْمِ
ترى حُمَيّاها بهاماتِهم * تغور بين الجِلْدِ والعظمِ
على أهازيجِ ظُبىً بينها * ماشئتَ من حَذْفٍ ومن خَرْمِ
طاعوا له من بعدِ عِصْيانِهم * وطاعةُ الأعداء عن رَغْمِ
وكم أعدُّوا واستعدُّوا له * هيهاتَ ليس الخضْمُ كالقضْمِ

ومن قولنا فى شبهه:

كم ألحَمَ السَّيفَ فى أبناء مَلْحَمةٍ * مامنهمُ فوق مـتْنِ الأرض دَيّارُ
وأوردَ النّارَ من أرواحِ مارقةٍ * كادت تَميَّزُ من غيظٍ لها النّارُ
١٠ كأنّما صالَ فى ثِنْيَيْ مُفاضتِه * مُستأسدٌ حنِقُ الأحشاءِ هدّارُ
لما رأى الفِتنةَ العمياءَ قد رَحُبَتْ * منها على النّاسِ آفاقٌ وأقطارُ
وأطبقَت ظُلَمٌ من فوقِها ظُلَمٌ * ما يُستضاءُ بها نُورٌ ولا نارُ
قاد الجِيادَ إلى الأعداء ساريةً * قُبّاً طَواها كطىِّ العَصْبِ إضْمارُ
ملمومةً تتبارى فى مُلَمْلَمَةٍ * كأنّها لاعتِدالِ الخلْقِ أفهارُ
١٥ تَزْوَرُّ عندَ احتِباسِ الطَّعنِ أعيُنُها * وهُنّ من فُرُجاتِ النَّقْعِ نُظّارُ
تفُوتُ بالثّأرِ[1] أقواماً وتُدرِكُه * من آخرين إذا لم يُدْرَكِ الثّارُ
فانْسابَ ناصِرُ دينِ اللهِ يَقْدُمُهم * وحولَهُ من جنودِ اللهِ أنصارُ
كتائبٌ تتبارى حولَ رايتِه * وجحْفَلٌ كسَوادِ الليلِ جرّارُ
قومٌ لهم فى مَكَرِّ الليلِ غَمْغَمةٌ * تحت العجاجِ وإقبالٌ وإدبارُ
٢٠ يَستقبلون[2] كراديساً مكردسةً * كما تدافَعَ[3] بالتّيّارِ تيّارُ

(١) فى بعض الأصول: «بالطعن».
(٢) فى بعض الأصول: «يستقدمون».
(٣) فى بعض الأصول: «تدفع».

مِن كلِّ أَرْوعَ لا يَرْعَى لِهاجِسَةٍ * كأنَّهُ مُخْدِرٌ فى الخَيْلِ هَصَّارُ
فى قَسْطلٍ من عَجاج الحربِ مُدَّ لهُ * بين السماء وبينَ الأرضِ أَسْتارُ
فكم بساحتِهم من شِلْوِ مُطَّرَحٍ * كأنه فوقَ ظَهْرِ الأرْضِ إجّارُ
كأنَّما رأسُهُ أفلاقُ حنظَلةٍ * وساعِداهُ إلى الزَّنْدَيْنِ جُمّارُ
وكم على النَّهْرِ أَوْصالًا مُفرّقةً[1] * تقَسّمتْها المنايا فهْىَ أشطارُ
قد فُلّقتْ بصفيحِ الهنْدِ هامُهُمُ * فهُنَّ بين حَوامِى الخيْلِ أَعْشارُ

ومن قولنا فى الحروب :

وحوْمةٍ غادرتْ فُرْسانَها * فى مبرك لِلْحَرْبِ جعْجاعِ
مُسْتلْحَمٍ بالموتِ مستشعرٍ[2] * مُفَرّقٍ لِلشَّمْلِ جَمّاعِ
وبلْدة صحصَحَتْ منها الرُّبا * لفَيْلَقٍ كالسَّيْلِ دفّاعِ
كأنَّما باضت نعامُ الفَلا * منهم بهامٍ فوْقَ أَدْراعِ
تراهُمُ عنْد احْتِماسِ الوَغَى * كأَنَّهُم جِنٌّ بأَجْراعِ
بكلّ مأثورٍ على متْنِهِ * مِثْلُ مدَبّ النَّمل فى القاعِ
يَرْتَدُّ طرْفُ العيْن من حدّهِ * عن كوْكبٍ للموتِ لمّاعِ

ومن قولنا فى الحروب :

ورُبَّ مُلْتفَّةِ العوالى * يلتَمِعُ الموتُ فى ذُراها
إذا توطّت حُزُونَ أرضٍ * طحْطَحتِ الشُّمَّ من رُباها
يقُودُها منهُ ليثُ غابٍ * إذا رأى فُرْصةً قضاها
تَمضى بِآرائِهِ سُيوفٌ * يَسْتبِقُ الموتُ فى ظُباها
بِيضٌ تُحِلّ القلوبَ سُودًا * إذا انْتضَى عزْمَهُ انتضاها
تتْبعُهُ الطّيرُ فى الأعادى * تَجْنى كَلاَ العُشب من كُلاها

(١) فى بعض الأصول : « مقسمة ».
(٢) فى بعض الأصول : « مستعبر ».

أقدم إذْ كاعَ كلُّ ليثٍ * عن حومْة الموتِ إذْ رآها
فأَقحم الخيلَ فى غِمــارٍ * تفْغَرُ بالموتِ لهوتاهــا
عنَت له أوْجُـــهُ المنـايا * فعافها القومُ واشْــتهاها

فرسان العرب فى الجاهلية والإسلام

ابن مكدم وقول حسان فيه

٥ كان فارس العرب فى الجاهلية ربيعة بن مُكدَّم . من بنى فراس بن غَنْم بن مالك بن كنانة ، وكانَ يُعْقَر على قبره فى الجاهلية . ولم يُعقر على قبر أحد غيره . وقال حسان بن ثابت وقد مرّ على قبره :

نفرَتْ قلوصِى من حِجارَةِ حرّةٍ * بُنِيَت على طَلْقِ اليدين وهُوبِ
لا تنْفرِى يا ناقُ منـــه فإنّه * شِرِّيبُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ
١٠ لولا السِّفارُ وطولُ قفْرٍ مهْمَهٍ * لتركـتُها تحبو على عُرْقوبِ

فراس بن غنم وكلمة لعلى فيهم

وكان بنو فراس بن غنم بن كنانة أنجد العرب . كان الرجل منهم يعدل عشرة من غيرهم . وفيهم يقول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لأهل الكوفة : من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب ، أبدلكم الله بى مَن هو شرٌ لكم ، وأبدلنى بكم من هو خيرٌ منكم . ودِدْت والله أنّ لى بجميعكم - وأنتم مائةُ ألف - ثلثمائة من
١٥ بنى فراس بن غنم .

من فرسان العرب فى الجاهلية

ومن فرسان العرب فى الجاهلية عنترة الفوارس ، وعُتيبة بن الحارث بن شهاب ؛ وأبو براء عامر بن مالك مُلاعب الأسنة ، وزيد الخيل ، وبسطام بن قيس ، والأُحَيمِر السعدى ، وعامر بن الطُّفيل ، وعمرو بن عبدودّ ، وعمرو بن معديكرب .

من فرسانهم فى الاسلام

وفى الإسلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام ، والزبير ، وطلحة ،
٢٠ ورجال الأنصار : عبد الله بن خازم السُّلمى ، وعباد بن الحُصين ، وعُمَيْر بن الحباب ، وقطرىّ بن الفُجاءة ، والحريش بن هِلال السعدى ، وشبيب الحرورىّ .

للعرب فى بعض فرسانهم

وقالوا : ما استحيا شجاع قطُّ أن يفرّ من عبد الله بن خازم وقطرىّ بن الفجاءة ، صاحب الأزارقة .

وقالوا : ذهب حاتم بالسخاء ، والأحنف بالحلم ، وخُرَيم بالنعمة ، وعُمير ابن الحباب بالشدّة .

ابن خازم مع ابن زياد فى جرذ

وبينا عبد الله بن خازم عند عبيد الله بن زياد إذ دُخل عليه بجُرَذٍ أبيض ، فعجب منه عبيد الله ، وقال : هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا ؟ ونظر إليه ، فإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ ، واصفرّ كأنه جرادةٌ ذكر فقال عبيد الله : أبو صالح يعصى الرحمن ، ويتهاون بالسلطان ، ويقبض على الثعبان ، ويمشى إلى الليث ، ويلقى الرماح بنحره ، وقد اعتراه من جُرذ ما ترون ، أشهد أن الله على كل شيء قدير .

شبيب الحرورى

وكان شبيب الحرورىّ : يصيح فى جَنبات الجيش فلا يُلوى أحد على أحد . وفيه يقول الشاعر :

إنْ صاحَ يوماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ منحدراً ٭ والريحَ عاصِفةً والموْجَ يَلتطمُ

ولما قُتل أمر الحجاج بشق صدره . فإذا له فؤاد مثل فؤاد الجمل . فكانوا إذا ضربوا به الأرض ينزو كما تنزو المثانة المنفوخة .

لابن عباس فى الأنصار

ورجال الأنصار أشجع الناس : قال عبد الله بن عباس : ما استُلّت السيوف ، ولا زحفت الزحوف ، ولا أُقيمت الصفوف ، حتى أسلم ابنا قيلة : يعنى الأوس والخزرج ، وهما الأنصار ، من بنى عمرو بن عامر من الأزد .

أبو براء لما أسن

العتبى : لما أسنّ أبو بَراء عامر بن مالك وضعّفه بنو أخيه وخرّفوه . ولم يكن له ولد يحميه ، أنشأ يقول :

دَفعْتُكُمُ عنى وما دفْعُ راحةٍ ٭ بشىء إذا لم تَسْتعنْ بالأناملِ

يُضَعِّفُنى حِلْمى وكثرةُ جهلِكُمْ ٭ علىّ وأنى لا أصُولُ بجاهِلِ

لعلى فى همدان

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، إذ رأى همدان وغَناءها فى الحرب يوم صفين :

ناديت هَمْدانَ والأبْواب مغلقة ٭ ومثْلُ هَمْدانَ سَنّى فَتْحةَ الباب

كالهُنْدُوانىِّ لم تُفْلَلْ مضارِبُهُ ٭ وجهٌ جميل وقلبٌ غيرُ وجّابِ

لابن براقة

وقال ابن برّاقة الهمدانى :

كذبتم وبَيْتِ اللهِ لاتأخذونها ۔ مُراغَمةً ما دام للسيفِ قائمُ
متى تجمع القلبَ الذّكِىّ وصارِمًا ۔ وأنْفاً حَمِيًّا تجتنبْكَ المظالمُ
وكنتُ إذا قومٌ غَزَوْنى غزَوْتُهمْ ۔ فهل أنا فى ذا يالهمدان ظالمُ

لتأبط شرا

٥ وقال تأبط شراً :

قليلُ التَّشكِّى لِلمُهِمّ يُصِيبُهُ ۔ كثيرُ النوى شتُّ الهوى والمسالكِ
يَبيتُ بموْماةٍ ويُضْحى بغيرها ۔ جَحِيشاً ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المهالكِ
إذا حاص[1] عينيه كرى النوم لم يَزَلْ ۔ له كالئٌ من قلب شيْحانَ فاتكِ
ويجعلُ عينيه ربيئةَ قلبه ۔ إلى سَلَّةٍ من حدِّ أخْلَقَ باتِكِ
١٠ إذا هَزّهُ فى عَظْمِ قِرْنٍ تَهَلَّلتْ ۔ نَواجذُ أفواهِ المنايا الضّواحِكِ

للمخزومى

وقال أبو سعيد المخزومى ـ وكان شجاعا :

وما يُريدُ بنو الأغبار من رجلٍ ۔ بالجمرِ مُكتحِلٍ بالنبلِ مُشْتَمِلِ
لا يشرب الماء إلا من قَلِيبِ دمٍ ۔ ولا يَبيتُ له جارٌ على وَجَلِ

لبشار

ونظير هذا قول بشّار العقيلى :

١٥ فَتًى لا يَبيتُ على دِمنةٍ ۔ ولا يَشْربُ الماء إلا بِدَمْ

بين ابن الزبير والأشتر

وقال عبدُ الله بن الزُّبير : التقيت بالأشتر النخعىّ يوم الجمل ، فما ضربته ضربةً حتى ضربنى خمساً أو ستا ، ثم أخذ برجلى فألقانى فى الخندق ، وقال : والله لولا قرابتُك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى آخر .

جائزة عائشة لمن بشرها بنجاة ابن الزبير

٢٠ وقال أبو بكر بن أبى شَيبة : أعطت عائشةُ الذى بشّرها بحياة ابن الزُّبير إذ التقى مع الأشتر عشرة آلاف .

لمتمم فى أخيه مالك

وذكر متمّم بن نُوَيرة أخاه مالكا وجَلَدَه ، فقال : كان يخرج فى الليلة

---

(١) فى بعض الاصول : « خاط » ، وهما بمعنى .

الصَّنَوْبرِ ، عليه الشملةُ الفلُوت ، بيْنَ المزَادَتَيْن على الجملِ الثِّفالِ ، مُعتقِل الرُّمْح الخطيّ . قالوا : وأبيك إن هذا لهو الجَلَد .

من عمر إلى ابن مقرن فى الصائفة

وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مُقرّن وهو على الصائفة : أن استعِن فى حَربك بعمرو بن معديكرب ، وطُليحة الأزدى ، ولا تُولّهما من الأمر شيئا ؛ فإن كل صانع أعلمُ بصناعته .

لعمرو بن معديكرب

وقال عمرو بن معديكرب يصف صبره وجَلَده فى الحرب :

أعاذِلُ عُـــدَّتى بَزّى ورُمحى * وكلّ مُقلِّص سَلِس القِيـادِ

أعاذلُ إنمـا أفْنى شـــبابى * إجابتىَ الصَّريخ إلى المنـادِى

مع الأبطال حتى سَلّ جِسْمِى * وأقرحَ عاتقى حَمْـــلُ النِّجَادِ

ويَبْقَى بَعدَ حِلْمِ القومِ حِلمى * ويَفْنَى قبلَ زادِ القومِ زادِى

ومنْ عجب عَجِبْتُ له حديثٌ * بديعٌ ليس من بدع السّـدادِ

تمنّى أن يُلاقيَنى أُبَىٌّ[1] * ودِدْتُ وأينما مِنّى وِدادى

تمنّـانى وســـابِغَتى قميصى * كأنّ قتيرَها حَـــدقُ الجرادِ

وسيفٌ لابن ذى كنعان عندى * تُخُيّر نصلُهُ من عهدِ عادِ

فلوْ لاقيتَنى للَقيتَ ليثـــاً * هصورًا ذا ظُبًا وشبا ًحِدادِ

ولاسْتَيْقنتَ أنّ الموتَ حق * وصرّحَ شَحْمُ قلبِكَ عن سوادِ

أُريدُ حياتَهُ ويُريدُ قتْــــلى * عذيرَك من خليلِكَ من مُرادِ

وله فى ابن مكشوح

ومن قوله فى قيس بن مكْشوح المرادى :

تَمنّـانى على فرسٍ * عليْهِ جالِسٌ أسدُهْ

علىّ مُفاضةٌ كالنِّهْيِ * أخلص ماءَهُ جدَدُهْ

فلو لاقيتنى للقيـــ * ـتَ ليثاً فوقهُ لِبَـدُهْ

سَبَنْتَى ضَيغماً هَصراً * صلَخْدًا ناشِزًا كتدهْ

(١) فى بعض الأصول : «قييس» ، وهو تحريف .

يُسامى القِرْنَ إن قِرنٌ ۞ تيمَّمه فيعتضِـدُهْ
فيأخُـذه فيُرْدِيه ۞ فيخفِضُه فيقْتصِدُهْ
فيـدمغُه فيحطِمُهُ ۞ فيخضِمُهُ فيزدَرِدُهْ

المكيدة فى الحرب

للنبى صلى الله عليه وسلم

٥ قال النبى صلى الله عليه وسلم : الحرب خدعة :

للمهلب

وقال المهلّب لبنيه : عليكم بالمكيدة فى الحرب فإنها أبلغ من النجدة .

وكان المهلّب يقول : أناةٌ فى عواقبها فوْت ، خيرٌ من عجلة فى عواقبها دَرَك .

لمسلمة بن عبد الملك

وقال مسلمة بن عبد الملك : ما أخذتُ أمرا قط بحزم فلمتُ نفسى فيه وإن كانت العاقبةُ علىّ ، ولا أخذت أمراً قطُّ وضيَّعتُ الحزم فيه إلا لُمت نفسى عليه ١٠ وإن كانت لى العاقبة .

لبعض أهل التمرس بالحرب

وسئل بعض أهل التمرّس بالحرب : أىُّ المكايد فيها أحزم ؟ قال : إذكاء العيون ، وإفشاء الغلَبة ، واستطلاع الأخبار ، وإظهار السرور ، وإماتةُ الفرَق ، والاحتراس من البطانة[1] من غير إقصاء لمن يُستنصح ، ولا استناد لمن يُستغشّ ، وإشغالُ الناس عمّاهم فيه من الحرب بغيره .

للهند

١٥ وفى كتاب للهند : الحازم يحذر عدوّه على كل حال : يحذر المواثبة إن قرُب ، والغارة إن بعُد ، والكمينَ إن انكشف ، والاستطراد إن ولّى .

بين المأمون والفضل بن سهل فى رأى فات الأمين

وقال المأمون للفضل بن سهل : قد كان لأخى رأى لو عمل به لظفر . فقال له الفضل : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال لو كتب إلى أهل خراسان وطَبَرِسْتان والرى ودُنْباوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة ، لم نخل نحن من إحدى خصلتين : ٢٠ إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه فَعَصانا أهلُ هذه البلدان وفسدت نياتهم فانقطعوا عن معاونتنا . وإما قبلناه وأمضيناه فلا نجد ما نعطى منه مَن معنا ، وتفرّق جندُنا ووهى أمرنا . فقال الفضل : الحمد لله الذى ستر هذا الرأى عنه وعن أصحابه .

وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله فى حرب الأزارقة ، فكتب إليه : إن من

---

(١) فى بعض الأصول : « المكايد الباطنة » .

البلية أن يكون الرأى بيد من يملكه دون من يُبصره .

لبعض أهل التمرس

وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه : شاوروا فى حربكم الشجعان من أولى العزم ، والجبناء من أولى الحزم ؛ فإن الجبان لا يألو برأيه ما يقى مُهجكم ، والشجاع لا يعدو ما يشدّ نُصرتكم ؛ ثم خلّصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم مَعَرَّةَ الجبان ، وتهوُّرَ الشجعان ، فتكونَ أنفذَ من السهم الزالج ، والحسام الوالج . ٥

بين الإسكندر ومؤدبه فى مدينة فتحها

وكان الإسكندر لا يدخل مدينة إلا هَدَمَها وقتل أهلها ، حتى مرَّ بمدينة كان مؤدِّبُه فيها ؛ فخرج إليه ، فألْطَفَهُ الإسكندر وأعظمه . فقال له : أصلح الله الملك ، إن أحقَّ مَن زيّن لك أمرك ، وأعانك على كل ماهَوِيتَ لَأَنَا ، وإن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكانى منك ، فأحب أن تُشفِّعنى فيهم ، وألاّ تخالفنى فى كل ما سألتك لهم . فأعطاه من العهود والمواثيق على ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه . فلما توثّق منه قال : فإن حاجتى إليك أن تهدمها وتقتل أهلها . قال : ليس إلى ذلك سبيل ، ولابد من مخالفتك . فقال له : ارحل عنا . ١٠

سعيد بن العاص وحصن فتحه

قيل : صالحَ سعيدُ بن العاص حصناً من حصون فارس على ألاّ يقتل منهم رجلا واحداً ، فقتلهم كلهم إلا رجلا واحدا .

عمرو بن العاص وعلج قيسارية

ابن الكلبى قال : لما فتح عمرو بن العاص قَيسارِيّة سار حتى نزل غزّة ، فبعث إليه عِلْجُها : أن ابعث إلىّ رجلا من أصحابك أُكلّمه . ففكّر عمرو وقال : مالهذا أحدٌ غيرى . قال : فخرج حتى دخل على العِلج فكلمه فسمع كلاماً لم يسمع قطُّ مثله . فقال العلج : حدّثنى : هل فى أصحابك أحد مثلك ؟ قال لا تسأل عن هذا ، إنّى هيّنٌ عليهم إذ بعثوا بى إليك وعَرَّضُونى لما عرّضونى له ، ولا يدرون ماتصنع بى . قال : فأمر له بجائزة وكُسوة ، وبعث إلى البوّاب : إذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه . فخرج من عنده فمرّ برجل من نصارى غسّان فعرَفه ؛ فقال : يا عمرو قد أحسنت الدخول فأحسِن الخروج . ففطن عمرو لما أراده ، فرجع . فقال له الملك : ماردَّك إلينا ؟ قال : نظرت فيما أعطيتَنى فلم أجد ذلك يَسَعُ بنى عمى ، فأردتُ أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من أن ١٥ ٢٠

يكون عند واحد . فقال : صدقت . أعْجِلْ بهم . وبعث إلى البواب أن خَلِّ سبيله . فخرج عمرو وهو يلتفت ، حتى إذا أَمِنَ قال : لاعُدْتُ لمثلها أبدا . فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج قال له : أنت هو ؟ قال : نعم ، على ما كان من غدرك .

عمر والهرمزان

وقال : ولما أُتِى بالهُرْمُزان أسيرا إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا أمير المؤمنين ، هذا زَعيم العَجم وصاحب رُسْتُم[1] فقال له عمر : أعرِض عليك الإسلام نُصحاً لك فى عاجلك وآجلك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب فى الإسلام . فدعا له عمر بالسيف . فلما همّ بقتله قال : يا أمير المؤمنين ، شربةً من ماء أفْضَلُ من قتلى على ظمإ . فأمر له بشربة من ماء . فلما أخذها قال : أنا آمن حتى أشربها ؟ قال : نعم . فرمَى بها وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج . قال : صدقتَ ، لك التوقُّفُ عنك والنظر فى أمرك ؛ ارفعا عنه السيف . فلما رُفع عنه . قال : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا عبده ورسوله ، وما جاء به حق من عنده . قال عمر : أسلمتَ خيرَ إسلام ، فما أخّرَك ؟ قال كرهتُ أن تظُن أنى أسلمت جزعا من السيف وإيثارا لدينه بالرهبة . فقال عمر : إن لأهل فارس عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك . ثم أمر به أن يُبَرّ ويُكْرَمَ ، فكان عمر يشاوره فى توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس .

معن ونفر من الأسرى

وهذا نظير فعل الأسير الذى أتى به مَعْنُ بن زائدة فى جملة الأسرى . فأمَرَ بقتلهم ، فقال له : أتقتل الأسرى عِطاشاً يا مَعْن فأمر بهم فَسُقُوا ، فلما شربوا قال : أتقتل أضيافك يا معن ؟ فخلّى سبيلهم .

ملك من ملوك العجم

وذكروا : أن ملكا من ملوك العجم كان معروفاً ببُعد الغور ويقظة الفطنة وحسن السياسة ، وكان إذا أراد محاربة ملك من الملوك وجه إليه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يُظْهِر محاربته ، فيكشف عن ثلاث خصال من حاله ؛ فكان يقول لعيونه : انظروا ، هل ترِد على الملك أخبار رعيته على حقائقها

---

(١) هو رستم بن فرخزاد ، كان من أعظم رجال فارس وقائد جيوش يزدجرد ملك ساسان فى وقعة القادسية ، وقد قتل رستم فى هذه الوقعة .

أم يخدعه عنها المُنهى ذلك إليه ؟ وانظروا إلى الغِنى فى أى صنف هو من رعيته ، أفيمن اشتدّ أنَفُهُ وقلّ شرَهُه ، أم فيمن قلّ أنَفه واشتدّ شرهُه ؟ وانظروا فى أى صنف من رعيته القوّامُ بأمره ؟ أفيمن نظر ليومه وغده ، أم مَن شغله يومُه عن غده ؟ فإن قيل له : لا يُخدَع عن أخباره ، والغِنى فيمن قلّ شرهُه واشتد أنَفه ، والقوّام بأمره مَن نَظَر ليومه وغده ، قال : اشتغلوا عنه بغيره . وإن قيل له ضدّ ٥ ذلك قال : نار كامنةٌ تنتظر مُوقِدا ، وأضغانٌ مُزَمَّلَةٌ تنتظر مَخْرَجاً ، اقصدوا له ، فلا حَيْنَ أحْيَنُ من سلامةٍ مع تضييع ، ولا عدوّ أعدى من أمْن أدّى إلى اغترار .

وقيعة ملك الهياطلة بيزدجرد

كانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تنزل بلخ ، ثم نزلت بابل ، ثم نزل أردشير بن بابك فارس ، فصارت دارَ مملكتهم ، وصار بخراسان ملوكُ الهياطلة وهم الذين قتلوا فيروزَ بن يزْدَجرد بن بهرام مَلِكَ فارس ، وكان غزاهم ؛ فكاده ١٠ ملكُ الهياطلة بأن عَمد إلى رجل ممن عرفه بالمكايدة وحُسن الإدارة ، فأظهر السخط عليه وأوقع به على أعين الناس توقيعا قبيحاً ونكّل به تنكيلا شديداً . ثم أرسله وقد واطأه على أمر أبطنه معه وظاهره عليه فخرج حتى أتى فيروز فى طريقه ، فأظهر النزوعَ إليه والاستنصار به من عظيم ما ناله . فلما رأى فيروزُ ما به من التوقيع والنكاية فيه ، وثِقَ به واستنام إليه . فقال : أنا أدلّك أيها الملك على غِرّة ١٥ القوم وعورتهم وأُعْلمك مكان غفلتهم . فسلك به سبيلَ مهلكة مُعْطِشة ؛ ثم خرج إليه ملك الهياطلة فأسره وأكثرَ أصحابه ، فسألهم أن يمنوا عليه وعلى من معه ، وأعطاهم موثقاً لا يغزوهم أبدا ، ونصب لهم حجَرا جعله حدّا بينه وبينهم ، وحلف لهم ألّا يجاوزه هو ولا جنودُه ، وأشهد الله عليه وعلى من حضر من قرابته وأساورته ؛ فمنّوا عليه وأطلقوه ومنْ معه . فلما عاد إلى مملكته أخذته الأنفَة مما أصابه ، فعاد إلى ٢٠ غزوهم ناكثاً لعهده غادراً بذمته ، إلا أنه تلطف فى ذلك بحيلة ظنّها مُجزِئَةً فى أيمانه ، فجعل الحجر الذى نصبه لهم على فِيل فى مقدّمة عسكره ، وتأول فى ذلك أنه لا يجاوزه فلما صار إليهم ناشدوه الله وذكّروه الأيمان به ، وما جعل على نفسه من عهده وذمته ، فأبى إلا لجاجاً ونكثا . فواقعوه نظفروا به فقتلوه وقتلوا حُماته واستباحوا عسكره .

للنبي صلى الله عليه وسلم

أسامة بن زيد الّليثى قال : كان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إذا غزا أخذ طريقا وهو يريد أخرى ، ويقول : الحرب خدعة .

مالك الخثعمى وتسميته بالثعلب

زياد عن مالك بن أنس قال : كان مالك بن عبد الله الخثعمىّ ، وهو على الصائفة ، يقوم فى الناس كلما أراد أن يرحل ؛ فيحمد الله تعالى ويثنى عليه ثم يقول . إنى داربٌ بالغداة إن شاء الله تعالى دربَ كذا . فتتفرق الجواسيس عنه ٥ بذلك؛ فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقا أخرى . فكانت تُسميه الروم : الثعلب .

وصايا أمراء الجيوش

عمر بن عبد العزيز يوصى الجراح

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرّاح : إنه بلغنى أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا بعث جيشا أو سريّةً قال : اغْزُوا بسم الله ، وفى سبيل الله ، تقاتلون ١٠ من كفر بالله ، لا تغُلُّوا ولا تَغدروا ولا تُمثّلوا ولا تقتُلوا امرأةً ولا وليدا . فإذا بعثتَ جيشا أو سرية فمُرْهم بذلك .

لعمر بن الخطاب

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد الألوية : بسم الله وبالله وعلى عون الله . امضوا بتأييدِ الله . وما النصر إلا من عند الله ولزومِ الحقِّ والصبر . فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . ولا تَجْبُنُوا عند ١٥ اللقاء ، ولا تُمَثِّلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هَرِمًا ولا امرأة ولا وليدا ، وتَوَقّوا قتلَهم إذا التقى الزحفان ، وعند شنّ الغارات .

أبو بكر يوصى يزيد بن أبى سفيان

ولما وجّه أبو بكر رضى الله عنه يزيد بن أبى سفيان إلى الشام شيّعه راجلا . فقال له يزيد : إمّا أن تركب وإما أن أنزل . فقال : ما أنت بنازلٍ وما أنا براكب . إنى أحتسب خُطاى هذه فى سبيل الله . ثم قال : إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم ٢٠ لله ، فذرْهم وما حبسوا أنفسهم له ـ يعنى الرّهبان ـ وستجد قوما فحصوا عن أوساط رءوسهم الشّعر ، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف . ثم قال له : إنى موصيك بعشر : لا تغدر ، ولا تمثّل ، ولا تقتُل هَرِما ولا امرأة ولا وليدا ، ولا تَعقِرَنّ شاة ولا بعيرا إلا ما أكلتم ، ولا تحرقنّ نخلا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تَغُلّ ، ولا تبخس .

أبو بكر يوصى خالد بن الوليد

وقال أبو بكر رضى الله عنه لخالد بن الوليد، حين وجهه لقتال أهل الردّة: سِر على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا من الحملة، فإنى لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد، وسِرْ بالأدِلّاء، ولا تقاتل بمجروح، فإنّ بعضه ليس منه؛ واحترس من البَيَات، فإنّ فى العرب غِرّة؛ وأقلل من الكلام، فإنما لك ما وُعِىَ عنك؛ واقبل من الناس علانيتهم، وكِلْهُمْ إلى الله فى سرائرهم، ٥
وأستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه.

من خالد إلى مرازبة فارس

كتب خالد بن الوليد إلى مَرازبة فارس مع ابن نُفيلة الغسّانى: الحمد لله الذى فضّ حُزمتكم، وفرّق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلَب ملككم، وأذل عزكم؛ فإذا أتاكم كتابى هذا فابعثوا إلىّ بالرُّهن، واعتقدوا منا الذمّة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذى لا إله إلا هو، لأسيرنّ إليكم بقوم يُحبون الموت كما تحبون الحياة، ١٠
ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا.

من عمر إلى ابن أبى وقاص

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنهما - ومَن معه من الأجناد:

أما بعد؛ فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضلُ العدّة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب؛ وآمُرك ومن معك ١٥
أن تكونوا أشدّ احتراسا من المعاصى منكم من عدوّكم، فإن ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوّهم، وإنما يُنصَرُ المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدّتنا كعدّتهم، فإذا استوَينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة، وإلا نُنْصَرْ عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا
واعلموا أن عليكم فى مسيركم حَفَظَةً من الله يعلمون ما تفعلون، فاستَحْيوا منهم، ٢٠
ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله؛ ولا تقولوا إن عدوّنا شر منا فلن يُسَلَّط علينا وإن أسأنا: فرُبّ قوم سُلّط عليهم شر منهم، كما سُلّط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كُفّارُ المجوس ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾. واسألوا الله العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوّكم.

أسأل الله ذلك لنا ولكم. وتَرَفَّقْ بالمسلمين فى مسيرهم، ولا تُجَشِّمْهُم مسيرا يُتعبهم، ولا تُقَصِّرْ بهم عن منزل يَرْفُقُ بهم، حتى يبلغوا عدوَّهم والسفر لم ينقُص قوّتهم، فإنهم سائرون إلى عدوّ مقيم حامى الأنفس والكُراع[1]. وأقِمْ بمن معك فى كل جمعة يوما وليلةً، حتى تكون لهم راحةٌ يُجِمُّون فيها أنفسَهم، ويَرُمُّون أسلحتَهم وأمتعتَهم. ونَحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه. ولا يَرْزَأْ أحداً من أهلها شيئا: فإن لهم حرمة وذمة ابْتُلِيتم بالوفاء بها كما ابتُلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولَّوْهم خيرا، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأَذْكِ العيونَ بينك وبينهم؛ ولا يَخْفَ عليك أمرُهم وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإنّ الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدَقك فى بعضه، والغاشّ عينٌ عليك وليس عينا لك. وليكن منك عند دنوِّك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبُثّ السرايا بينك وبينهم. فتقطع السرايا أمدادَهم ومرافقَهم، وتتبع الطلائعُ عوراتِهم. وانتق للطلائع أهلَ الرأى والبأس من أصحابك، وتخيَّر لهم سوابقَ الخيل؛ فإن لقُوا عدوًّا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك. واجعل أمرَ السرايا إلى أهل الجهاد والصبرِ على الجِلاد، ولا تَخُصَّ بها أحدا بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثرُ مما حابيتَ به أهلَ خاصّتك. ولا تبعثَنَّ طليعةً ولا سريّةً فى وجهٍ تتخوف فيه غلبةً أو ضيعة ونِكاية؛ فإذا عاينت العدوّ فاضمُمْ إليك أقاصيَك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتَك وقوتَك، ثم لا تعاجلْهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تُبصرَ عورةَ عدوك ومقاتلَه، وتعرفَ الأرضَ كلها كمعرفة أهلها، فتصنعَ بعدوك كصُنعه بك، ثم أَذْكِ أحراسَك على عسكرك، وتحفَّظْ من البيات جُهدَك. ولا تُؤْتَيْ بأسيرٍ ليس له عهدٌ إلا ضربتَ عنقَه، لتُرهبَ بذلك عدوّ الله وعدوّك. والله وليُّ أمرِك ومن معك، ووليُّ النصر لكم على عدوّكم، والله المستعان.

(١) الكراع: الخيل.

عبد الملك يوصى أميره إلى أرض الروم

وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيّره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجرُ اللهِ لعباده، فكن كالمضارِب الكَيِّس الذى إن وجد ربحاً تَجرَ وإلا تَحَفَّظَ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تحْرِز السلامة. وكن من احتيالك على عدوِّك أشدَّ حذراً من احتيال عدوِّك عليك.

زياد يوصى قواده

وكان زياد يقول لقواده: تجنّبوا اثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاء، وبطون الأودية.

بين الوليد وعباد بن زياد

وأغزى الوليدُ بن عبد الملك جيشاً فى الشتاء، فغنِموا وسلموا. فقال لعبّاد: يا أبا حرب، أين رأى زياد من رأينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد أخطأت، وليس كل عورة تُصاب.

معاوية وقد أراد استعمال ابن خالد ثم الغامدى

العُتبى قال: جاشت الرُّوم وغزت المسلمين برا وبحراً، فاستعمل معاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فلما كتب له عهدَه قال: ما أنت صانع بعهدى؟ قال: أتّخذه إماماً لا أعصيه. قال: ارْدُدْ علىّ عهدى. ثم بعث إلى سُفيان ابن عوف الغامدىّ فكتب له عهده، ثم قال له: ما أنت صانع بعهدى؟ قال: أتخذه إماماً أمام الحزم، فإن خالفَه خالفتُه. فقال معاوية: هذا الذى لا يُكَفْكَف من عجلة، ولا يُدْفع فى ظهره من خَوَر، ولا يُضْرَبُ على الأمور ضَرْبَ الجمل الثِّفال[1].

دريد وابن عوف النصرى

وقال دُريد بن الصمّة لمالك بن عوف النَّصرى، قائد هوازن، يوم حنين: يامالك، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإنّ هذا يوم له مابعده من الأيام، مالى أسمع رُغاء البعير، ونهيق الحمير، وبُكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ قال: سقتُ مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجلٍ أهلَه ومالَه ليقاتل عنهم. فأنقض به[2] وقال: راعى ضأن والله! وهل يَرُدُّ المنهزِمَ شىء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه،

(١) الجمل الثفال: البطىء.
(٢) أنقض به: أنكر عليه.

وإن كانت عليك ، فُضِحتَ فى أهلك ومالك ؛ وَيْحَك ! إنك لم تصنع بتقديم البيْضَةِ بَيْضَةِ هوازن إلى نحور الخيل شيئا ، ارفعهم إلى مُتَمَنِّع بلادِهم وعُلْيا قومِهم ، ثم الْقَ الصُّبَاء [1] على متون الخيل ؛ فإن كانت لك لَحِقَ بك مَن وراءك ، وإن كانت عليك كنتَ قد أحرزتَ أهلك ومالك . قال : لا والله لا أفعل ذلك ؛ إنك قد كبرتَ وذهل عقلُك . قال دريد : هذا يوم أشهده ولم يَفُتْنى . ثم أنشأ يقول :

يا لَيْتَنى فيها جَذَعْ * أَخُبُّ فيها وأَضَعْ
أَقُودُ وَطْفاء الزَّمَعْ * كأنَّها شاةٌ صَدَعْ

لقتيبة ينصح أصحابه

وكان قتيبة بن مُسلم يقول لأصحابه : إذا غزوتم ، فأطيلوا الأظفار ، وقصّروا الشعور ، والحظوا الناس شَزْرا ، وكلّموهم رمزا ، واطعنوهم وخزا .

لأبى مسلم ينصح قواده

وكان أبو مسلم يقول لقواده : أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام ، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب .

لسعيد بن زيد

وكان سعيد بن زيد يقول لبنيه : قصروا الأعنَّة ، واشحذوا الأسنة ، تأكلوا القريب ، ويرهبكم البعيد .

المنصور وعيسى ابن موسى

وقال عيسى بن موسى : لما وجهنى المنصور إلى المدينة لمحاربة عبد الله بن الحسن ، جعل يُوصينى ويكثر ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إلى متى توصينى ؟

إنّى أنَا ذاكَ الحسامُ الهِنْدِى * أكلتُ جَفْنِي وفَرَيْتُ غِمْدِى
* فكلُّ ما تَطْلُبُ عِنْدِى عِنْدِى *

المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير

لجميل يصف لعبد الملك قومه

قال عبد الملك بن مروان لجُمَيل بن عَلقمة الثعلبى : ما مَبْلَغ عزّكم ؟ قال : لم يُطمَعْ فينا ولم يُؤمن منّا . قال : فما مبلغ حِفظكم ؟ قال : يدفع الرجل منّا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه . قال عبد الملك : مثلُك من يصف قومه .

(١) الصباء : يعنى المسلمين ، وكذلك كان المشركون يسمونهم .

لابن مطاع

وقال عبد الملك بن مروان لابن مُطاع العنزى : أخبرنى عن مالك بن مِسْمَع قال له : لو غضب مالكٌ لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه فى أى شىء غضب . قال عبد الملك : هذا والله السُّودد .

قال : ولم يَلِ قطُّ مالكُ بن مِسْمع ولا أسماء بن خارجة شيئاً للسلطان .

للعرب فى الدفاع عن الجار

وكانت العرب تمتدح بالذّبِّ عن الجار ، فيقولون : فلانٌ منيعُ الجار حامى الذمار . نعم ، حتى كان فيهم من يحمى الجراد إذا نزل فى جواره ، فسُمّى مجير الجراد .

لمروان فى معن

وقال مَروان بن أبى حَفصة يمدح مَعن بن زائدة ويصف مَفاخر بنى شيبان ومَنْعهم لمن آستجار بهم :

هُمُ القومُ إن قالُوا أصابوا وإن دُعُوا ٭ أجابوا ، وإنْ أعْطَوْا أطابوا وأجْزَلُوا

هُمُ يَمنعُون الجارَ حتى كأنما ٭ لِجارِهِمُ بينَ السِّماكَيْنِ مَنزِلُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

هُمُ يَمنعُون الجارَ حتى كأنهُ ٭ كَثِيبةَ زَوْر بين خافِيَتَىْ نَسْرِ

معاوية وهانئ فى مال اختانه ابن شهاب

وذكر أن معاوية ولّى كَثير بن شهاب المذحجىّ خُراسان ، فاختان مالا كثيراً . ثم هرب فاستتر عند هانئ بن عُروة المُرادى . فبلغ ذلك معاوية فهدر دمَ هانئ . فخرج هانئ إلى معاوية ، فكان فى جواره . ثم حضر مجلسه وهو لا يعرفه . فلما نهض الناسُ ثبت مكانه ، فسأله معاوية عن أمره ، فقال : أنا هانئ بن عروة ، فقال : إنّ هذا اليوم ليس باليوم الذى يقول فيه أبوك :

أُرَجِّلُ جُمّتى وأَجُرُّ ذَيلى ٭ وتَحمل شِكّتى أفق كُمَيْتُ[1]

وأمشى فى سَراة بنى غُطَيْفٍ ٭ إذا ما سامَنى أمرٌ أَبَيْتُ

قال : أنا والله يا أمير المؤمنين اليومَ أعزُّ منى ذلك اليوم . قال : بِمَ ذلك ؟ قال : بالإسلام . قال : أين كثير بن شهاب ؟ قال : عندى وعندك يا أمير المؤمنين .

(١) الأفق : الفرس الرائعة الكريمة .

قال : انظر إلى ما اختانه فخذ منه بعضا وسوِّغه بعضاً ، وقد أمَّنَّاه ووهبناه لك .

مقتل محمد ابن أبي بكر

الشيبانى قال : لما نزل محمد بن أبى بكر مصر وصَيَّر اليه معاويةُ معاويةَ بن حُدَيْج الكندى . تفرق عن محمد من كان معه ، فتغيَّب فدُلَّ عليه ، فأخذه فضرب عُنقه وبعث برأسه إلى معاوية . فكان أولَ رأس طِيفَ به فى الإسلام . وكان ٥ محمد بن جعفر بن أبى طالب معه ، فاستجار بأخواله من خثعم فغيَّبوه ؛ وكان سيِّد خثعم يومئذ رجلا فى ظهره بَزَخ[1] مِن كَسْرٍ أصابه ، فكان إذا مشى ظنّ الجاهل أنه يتبختر فى مِشيته ، فذُكِر لمعاوية أنه عنده ، فقال له : أسلم إلينا هذا الرجل . فقال : ابن أختنا لجأ إلينا لنحقن دمه ، فدعْه عنك يا أمير المؤمنين . قال : والله لا أدعه حتى تأتينى به . قال : لا والله لا آتيك به . قال : كذبت ، والله ١٠ لتأتينّى به ، إنك ما علمتُ لأوْرَه[2] . قال : أجل ، إنى لأورهُ حين أقاتلك على ابن عمك لتحقن دمه ، وأقدِّم ابن عمى دونه تسفك دمه . فسكت عنه معاوية وخلّى بينه وبينه .

المهدى ومعن فى رجل أهدر دمه

الشيبانى قال : قال سعيد بن سلم : أهدر المهدى دم رجل من أهل الكوفة كان يسعى فى فساد سلطنته ، وجعل لمن دله عليه أو جاء به مائة ألف درهم . قال : ١٥ فأقام الرجل حيناً متواريا ، ثم إنه ظهر بمدينة السلام ، فكان ظاهراً كغائب ، خائفا مترقبا . فبينا هو يمشى فى بعض نواحيها إذ بَصُرَ به رجل من أهل الكوفة فعرفه فأهوى إلى مجامع ثوبه وقال هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين . فأمكنَ الرجلَ من قياده ونظر إلى الموت أمامه . فبينا هو على تلك الحالة إذ سمع وَقْعَ الحوافر من وراء ظهره ، فالتفت فإذا معن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد ، أجرنى أجارك الله . ٢٠ فوقف وقال للرجل الذى تعلق به : ما شأنك ؟ قال : بُغيةُ أمير المؤمنين الذى أهدر دمه وأعطى لمن دَلّ عليه مائة ألف . فقال : يا غلام ، انزل عن دابتك واحمل أخانا . فصاح الرجل : يا معشر الناس ، يُحالُ بينى وبين من طَلَبه

(١) البزخ : خروج الصدر ودخول الظهر .
(٢) الأوره : الأحمق .

أمير المؤمنين . قال له معن : اذهب فأخبره أنه عندى . فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب ، فدخل إلى المهدى فأخبره ، فأمر بحبس الرجل ووجّه إلى معن من يَحْضُرُ به ، فأتته رسلُ أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه وقُرِّبتْ إليه دابتُه ، فدعا أهل بيته ومواليه فقال : لا يُخلَصَنّ إلى هذا الرجل وفيكم عَيْنٌ تَطرف . ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدى ، فلم يردّ عليه ، فقال : يا معن ، أتُجير علَيّ ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ونعم أيضاً ! واشتد غضبه . فقال معن : يا أمير المؤمنين ، قَتَلتُ فى طاعتكم باليمن فى يوم واحد خمسةَ عشر ألفاً ، ولِى أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائى وحسن غَنائى ، فما رأيتمونى أهلا أن تهبوا لى رجلا واحداً آستجار بى ؟ فأطرق المهدى طويلا ثم رفع رأسه وقد سُرِّى عنه ، فقال : قد أجَرْنا من أجَرْت . قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله ـ فيكون قد أحياه وأغناه ـ فَعَل . قال : قد أمرنا له بخمسة آلاف . قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم ؛ فأجزل له الصلة . قال : قد أمرنا له بمائة ألف . قال : فَتُعَجِّلْها يا أمير المؤمنين بأفضل الدعاء . ثم انصرف ولحقه المال ؛ فدعا الرجل فقال له : خذ صلتك والحق بأهلك ، وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

الجبن والفرار

لعمرو بن معديكرب فى الفزعات

قال عمرو بن معديكرب : الفَزَعات ثلاث : فمن كانت فَزْعته فى رجليه فذلك الذى لا تُقِلّه رجلاه ، ومَن كانت فزعته فى رأسه فذلك الذى يفرّ عن أبويه ، ومن كانت فزعته فى قلبه فذلك الذى يقاتل .

للأحنف

وقال الأحنف : أسرعُ الناس إلى الفتنة ، أقلهم حياء من الفرار .

لعائشة

وقالت عائشة أم المؤمنين : إنّ لله خَلقا قلوبُهم كقُلوب الطير ، كلما خَفَقت الريح خفقت معها ؛ فأفّ للجبناء ! فأف للجبناء !

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

يَفِرُّ جَبانُ القومِ عن أُمِّ نَفْسِهِ ۞ ويحمى شجاع القوم مَن لا يُناسِبُهْ

وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الجَوادِ عَدُوُّهُ * وَيُحْرَمُ مَعْرُوفَ البَخِيلِ أَقارِبُهُ

لخالد بن الوليد

وقال خالد بن الوليد عند موته : لقد لَقِيتُ كذا وكذا زَحْفًا ، وما فى جسمى موضعُ شبرٍ إلا وفيه ضربةٌ أو طعنة أو رَمْيَة ؛ ثم هأنذا أموت حَتْفَ أنفى كما يموت العَيْر ؛ فلا نامت أعينُ الجبناء .

للفرار السلمى فى الفرار

٥ ومن أشعار الفرّارين الذين حَسّنوا فيها الفرار على قبحه حتى حَسُن ، قول الفرّار السلمى :

وكتيبة لَبّسْتها بكتيبة * حتى إذا الْتَبَسَتْ أَمَلْتُ بها يدى
وتركتهم تَقِصُ الرماحُ ظُهورَهم * مِن بين مقتولٍ وآخَرَ مُسْنَدِ
هل يَنْفَعَنِّى أن تقولَ نساؤُهم * وقُتِلْتُ دون رجالها : لا تَبْعَدِ

للحارث بن هشام فى الفرار

١٠ وقال أبو عُبيدة مَعمر بن المثنَّى : ما اعتذر أحد من الفرّارين بأحسن مما اعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول :

اللهُ يعلَمُ ماتركتُ قِتالَهُم * حتى رَمَوْا مُهْرِى بأشْقَرَ مُزْبِدِ
وعلمت أنى إن أقاتل واحدا * أُقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فَصَدَدْتُ عنهم والأحِبّةُ فيهمُ * طمعاً لهم بعقابِ يوم مرصد

١٥ وهذا الذى سمعه صاحب رُتْبيل فقال : يا معشر العرب ، حسنتم كلّ شىء فحَسُنَ حتى الفرار .

وبعد هذا يأتى قول حسان فى ذلك .

وأسلم الحارث يوم فتح مكة وحَسُن إسلامه ، وخرج فى زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله ، فاتبعه أهل مكة يبكون ، فرقّ وبكى وقال : أما لو كنا

٢٠ نستبدل داراً بدارنا ، أو جارا بجارنا ، ما رأينا بكم بدلا ؛ ولكنها النُّقلة إلى الله ! فلم يزل هنالك مجاهداً حتى مات .

لبعض الشعراء

وقال آخر :

قامتْ تُشَجِّعُنى هندٌ وقد علمت * أنّ الشَّجاعة مقرُونٌ بها العطَبُ

لا والذى منَعَ الأبصارَ رُؤيتَهُ ۞ مايشتهى الموتَ عندى من له أدَبُ
للحرب قومٌ أضلَّ اللهُ سعيَهمُ ۞ إذا دعتهُم إلى نيرانها وثبوا
ولستُ منهم ولا أهوى فِعالَهمُ ۞ لا القتلُ يُعجبنى منها ولا السَّلَبُ

الوراق — وقال محمود الوراق:

أيها الفارسُ المُشيحُ المغيرُ ۞ إنّ قلبى من السّلاح يطيرُ
ليسَ لى قوّة على رهَجِ الخيـ ۞ ـلِ إذا ثوّرَ الغبارَ مُثيرُ
واستدارتْ رَحَى الحروبِ بقومٍ ۞ فقتيلٌ وهاربٌ وأسيرُ
حيثُ لا يَنطِق الجبانُ من الذُّعـ ۞ ـرِ ويَعلُو الصّياحُ والتّكبيرُ
أنا فى مِثْلِ ذا وهذا بليدٌ ۞ ولَبيبٌ فى غيرِه نِحْريرُ

لابن خريم — وقال أيمَن بن خُريْم:

إنَّ للفتنةِ مَيْطًا[1] بيِّنًا ۞ فرُوَيْد الميطَ منها يعتدِلْ
فإذا كان عطاءٌ فأتِهمْ ۞ وإذا كان قِتالٌ فاعتزِلْ
إنما يُوقِدُها جُهّالُها ۞ حطَبَ النّارِ فدعْها تشتعِلْ

لصاحب كليلة ودمنة — ومما يحتج به الفارّون: ما قاله صاحب كليلة ودمنة: إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه؛ لأن النفقة فيه من النفس، والنفقة فى غيره من المال.

لأبى تمام — أخذ هذا المعنى حبيب الطائى فنظمه فى شعره حيث يقول:

كَمْ بيْنَ قومٍ إنّما نفَقاتُهمْ ۞ مال وقومٍ يُنفِقُونَ نُفوسا

من الفرارين: ابن الأشعث — ومن الفرّارين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؛ فرّ من الأزارقة وكان فى عشرة آلاف، وكان قد بعث إليه المهلّب: يا بن أخى، خَنْدِقْ على نفسك وعلى أصحابك، فإنى عالم بأمر الخوارج، ولا تغترّ. فبعث إليه: أنا أعلم بهم منك، وهم أهوَنُ علىّ من ضَرطة الجمل فبيّته قطَرِىٌّ صاحب الأزارقة فقتَل من أصحابه خمسمائة، وفرّ لا يلوى على أحد. فقال فيه الشاعر:

(١) ميطا: أى هياجا وصخبا.

تركتَ ولدانَنا تَدْمَى نحورُهُمُ ۞ وجئتَ مُنهزماً يا ضَرطةَ الجَمَلِ

أمية بن عبد الله

ومن الفرارين أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد؛ فر يوم مرداء هَجَر من أبى فُدَيْك، فسار من البحرين إلى البصرة فى ثلاثة أيام، فجلس يوماً بالبصرة فقال: سرت على فرسى «المِهْرجانِ» من البحرين إلى البصرة فى ثلاثة أيام. فقال له بعض جلسائه:
٥ أصلح الله الأمير، فلو ركبت «النَّيروزَ» لسرتَ إليها فى يوم واحد. فلما دخل عليه أهلُ البصرة لم يروا كيف يُكلِّمونه، ولا ما يُلقُونه من القول، أيهنِّئونه أم يُعزّونه؛ حتى دخل عليه عبدُ الله بن الأهتم فاستشرف الناسُ له، وقالوا: ما عسى أن يُقال للمنهزم؟ فسلم ثم قال: مرحباً بالصابر المخذول، الذى خذله قومه. الحمد لله الذى نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا فقد تعرضت للشهادة جهدَك، ولكنْ
١٠ عَلِم اللهُ حاجةَ أهل الإسلام إليك، فأبقاك لهم بخذلانِ مَن معك لك. فقال أميةُ بن عبد الله: ما وجدت أحداً أخبرَنى عن نفسى غيرَك. وفيه يقول الشاعر:

إذا صوّتَ العُصفُورُ طارَ فؤادُه ۞ وليثٌ حديدُ النَّابِ عِنْدَ الثَّرائِدِ

الحجاج وخيل لأمية

أتى الحجاج بدواب من دواب أمية قد وُسم على أفخاذها: «عُدّة» فأمر الحجاج أن يكتب تحت ذلك: «للفرار».

أبو دلامة

١٥ وقال أبو دُلامة: كنت مع مروان[1] أيام الضحاك الحرورى، فخرج فارس منهم فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل، فقتله، ثم ثان، ثم ثالث. فانقبض الناس عنه، وجعل يدنو ويهدِر كالفحل المُغتلم؛ فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف؟ قال: فلما سمعتُ عشرة آلاف هانت علىّ الدنيا وسَخَوْتُ بنفسى فى سبيل عشرة آلاف وبرزت إليه. فإذا عليه فَرْوٌ قد بلّه المطر فارْمَعَلّ، ثم
٢٠ أصابته الشمس فاقفعلّ[2]، وله عينان تتقدان كأنهما جمرتان؛ فلما رآنى فهِم الذى أخرجنى، فأقبل نحوى وهو يرتجز ويقول:

وخارجٍ أخرجَهُ حُبُّ الطَّمَعْ ۞ فرَّ مِنَ الموْتِ وفى الموْتِ وقعْ

۞ مَنْ كانَ يَنْوِى أهلَهُ فلا رَجَعْ ۞

(١) هو مروان بن محمد. (٢) تقبض.

فلما رأيته قَنَّعْتُ رأسى ووليت هاربا ومروان يقول : مَن هـذا الفاضح ؟ لا يفوتكم ! فدخلت فى غمار الناس .

لأعرابى فى الغزو — وقيل لأعرابى : ألا تغزو العدوّ ؟ قال : وكيف يكونون لى عدوّاً وما أعرفهم ولا يعرفوننى ؟

لآخر — وقيل للآخر : ألا تغزو العدوّ ؟ قال : والله إنى لأبغض الموت على فراشى ، فكيف أخبّ إليه ركضا ! ٥

لحسان يعير الحارث بن هشام — ومما قيل فى الفرّارين الجبناء من الشعر قولُ حسان بن ثابت يعيّر الحارث ابن هشام بفراره يوم بدر ، وقد تقدم ذكر ذلك :

إنْ كنتِ كاذبَةَ الذى حدَّثتِنى * فنجوْتِ مَنْجَى الحارثِ بن هشام

تَرَكَ الأحِبّةَ لم يُقاتِلْ دونَهم * ونَجا برأسِ طِمِرَّةٍ ولجـام ١٠

مَلأتْ به الفرْجَيْن فامتدتْ به * وثوَى أحبّتُه بِشَرِّ مُقـام

لبعض العراقيين فى أكول جبان — وقال بعض العراقيين فى رجل أكول جبان :

إذا صَوَّتَ العُصفورُ طار فؤادُه * وليثٌ حديدُ الناب عند الثَّرائدِ

وقال فيه :

ضعيفُ القلبِ رعْديدٌ * عظيمُ الخَلْقِ والمَنْظَرْ ١٥

رَأَى فى النوم عُصْفوراً * فَوارى نفسَـه أشهرْ

لبعض الشعراء — وقال آخر :

لو جرَتْ خَيْلٌ نُكوصاً * لجرَتْ خَيْـلُ دُفافَهْ

هِيَ لا خيْـلُ رَجاءٍ * لا ولا خيْـلُ مَخافَهْ

وقال آخر : ٢٠

خَرجنا نُريدُ مُغاراً لنا * وفينا زِيادٌ أبو صَعْصَعَهْ

فسِتّةُ رَهْط به خمسـةٌ * وخمسةُ رهْط به أرْبعهْ

للطرماح في بني تميم

ولم يقل أحد فى وصف الجبن والفرار مثل قول الطِّرِمّاح فى بنى تميم :

تميمٌ بطُرْقِ اللؤمِ أهْدى مِنَ القَطا ٭ ولو سَلَكَتْ سُبْلَ المكارمِ ضَلَّتِ
ولو أنَّ بُرْغوثاً على ظَهْرِ قَملةٍ ٭ رأَتْه تميمٌ يومَ زَحفٍ لوَلَّتِ
ولو جَمَعَتْ يوماً تميمٌ جموعَها ٭ على ذَرَّةٍ معقولةٍ لاشمعلَّت[1]

لزفر بن الحارث

٥ وليس يُعاب الشجاعُ والبُهْمة البطلُ بالفَرَة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة : كما قال زُفر بن الحارث وفرّ يوم مرج راهط عن أبيه وأخيه فقال :

أيَذْهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأْتُه ٭ بصالحِ أيامى وحُسنِ بلائيا
ولم تُر منى زَلَّةٌ قبل هذه ٭ فِرارى وتَرْكى صاحبَىَّ ورائيا

لعمرو بن معديكرب

وفرّ عمرو بن معديكرب من عباس بن مرداس وأَسَرَ أختَه ريحانة ؛ وفيها

١٠ يقول عمرو :

أمِنْ رَيحانةَ الداعى السَّميعُ ٭ يُؤَرِّقُنى وأصحابى هُجُوعُ

وفرّ عن بنى عبس وفيهم زُهير بن جَذيمة العبسى وولده شأس بن زهير وقيس بن زهير ! فقال فيهم :

أجاعِلَةٌ أُمُّ الثُّوَيْرِ خَزايَةً ٭ علىَّ فِرارى إذْ لقِيتُ بنى عَبْسِ
٥ لقِيتُ أبا شأسٍ وشأساً ومالِكاً ٭ وقيْساً فَجاشت من لِقائِهم نفْسى
لَقُونا فضمُّوا جانبَيْنا بصادق ٭ من الطعْنِ مثل النارِ فى الحطبِ اليَبْس
ولما دَخانا تحتَ فَىْءِ رِماحِهم ٭ خَبَطْتُ بكفِّى أطلبُ الأرضَ باللَّمْس
وليس يُعابُ المرءُ من جُبْنِ يومِه ٭ إذا عُرِفَتْ منه الشّجاعةُ بالأمْس

وقال أيضا :

٢٠ ولقد أجمع رجلَىَّ بها ٭ حذرَ الموت وإنى لفَرُورْ
ولقد أعطفها كارهةً ٭ حين للنفس من الموت هَرِيرْ
كلَّ ما ذلك منى خُلُق ٭ وبكلٍّ أنا فى الرَّوع جدير

(١) اشمعلت : تفرقت .

وابن صبح سادراً يوعدنى * ماله فى الناس ما عشتُ مجير

بين الحارث وامرأته

وقال الحارث لآمرأته ، وذلك أنها نظرت إليه وهو يُحِدّ حربة يوم فتح مكة فقالت له : ماتصنع بهذه ؟ قال : أعددتُها لمحمد وأصحابه . فقالت : ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : والله إنى لأرجو أن أُخْدِمَكِ بعضهم ! ثم أنشأ يقول :

٥ إنْ يُقْبِلوا اليومَ فما بى علّهْ * هــذا سلاحٌ كاملٌ وألّهْ

* وذو غرارَيْن سَريعُ السَّلّهْ *

فلما لقيهم خالد يوم الخندمة انهزم الرجل ، فلامته آمرأته ، فقال :

إنكِ لو شاهدتِ يومَ الْخَنْدَمَهْ * إذْ فرَّ صَفْوانُ وفرَّ عِكْرِمَهْ

وأبو يزيدَ قائم كالْمُوتِمَهْ * ولحقتْنا بالسيوف المُسلمه

١٠ يفْلَقْنَ كلَّ ساعدٍ وجُمْجُمَهْ * ضَرباً فلا تُسْمَعُ إلا غَمْغَمَهْ

لهم نَهيتٌ خلفنا وهمهمه * لم تَنطِقى فى اللوْمِ أدْنى كَلِمَهْ

بين ابن زياد وابن زرعة

وكان أسلم بن زرعة وجَّهه عبيد الله بن زياد لحرب أبى بلال الخارجى فى ألفين ، وأبو بلال فى أربعين رجلا : فشدُّوا عليه شدّة رجل واحد فانهزم هو وأصحابه ، فلما دخل على ابن زياد عنَّفه فى ذلك وقال : ويلك ! أتمضى فى ألفين

١٥ وتنهزم عن أربعين ؟ فخرج عنه وهو يقول : لَأَنْ يذُمّنى ابن زيادٍ حيًّا خيرٌ من أن يَمدحنى وأنا ميت ـ وفى رواية أخرى : أن يشتمَنى الأميرُ وأنا حىٌّ أحبُّ إلىّ من أن يدعولى وأنا ميت . فقال شاعر الخوارج :

أألْفَا مُؤمِنٍ فيما زَعَمْتُمْ * ويهزمهم بآسَكَ أربَعونا

كذبْتُمْ ، ليس ذٰلِكُمُ كذاكُم * ولكنّ الخوارجَ مؤمنونا

٢٠ هُمُ الفئةُ القليلةُ قد عَلِمتُمْ * على الفئةِ الكثيرةِ يُنْصَرُونا

عبدالله بن مطيع

ومثل ذلك قولُ عبد الله بن مطيع بن الأسود العَدوى ، وكان فَرَّ يوم الحرَّة من جيش مُسلم بن عُقبة ، فلما كان أيامَ حِصارِ الحجاج بمكة لعبد الله بن الزُّبير جعل يقاتل أهلَ الشام ويقول :

أنا الذى فررتُ يومَ الحرَّهْ * والشيْخُ لا يَفِر إلا مرّهْ

فاليومَ أجزى فرّة بكرّه ﴿ لا بأس بالكرّة بعد الفرّهْ

فلم يزل يُقاتل حتى قُتِل .

وأحسن ما قيل فى الفرار كله ماقاله قيس بن الخطيم : لقيس بن الخطيم

إذا ما فررْنا كان أسْوَا فِرارِنا ﴿ صُدودُ الخُدودِ وازْورار المناكبِ

٥ أُجالِدُهم يومَ الحديقة حاسرا ﴿ كأنّ يدى بالسيف مِخْراقُ لاعبِ

وفرّ عُتيبة بن الحارث بن هشام يوم ثبرة عن ابنه حَزْرة وقال : لعتيبة بن الحارث

ياحسرتى لقد لقيتُ حَسْرَهْ ﴿ بالتميم غشيتنى عبْرَهْ

نِعمَ الفتى غادرْتُه بِثَبْرَهْ ﴿ نجّيْتُ نفسى وتركتُ حَزرَهْ

﴿ هل يترُكُ الحرُّ الكريمُ بِكْرَهْ ﴿

١٠ وفرّ أبو خراش الهذلى من فائد وأصحابه ، ورصدوه بعرفات فقال : لأبى خراش

وفونى وقالوا يا خُوَيلد لا تُرَعْ ﴿ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

وقلتُ وقد جاوزتُ أصحابَ فائدٍ ﴿ أأعْجَزتُ أُولى الخيل أم أنا أحْلم

فلولا آدراكُ الشرِّ قامت حليلتى ﴿ تخيّرُ من خُطّابها وهى أيّمُ

ولولا ادراكُ الشرِّ أتلفتُ مُهجتى ﴿ وكان خراش يومَ ذلك ييْتَمُ

١٥ وفرّ حُبيب بن عوف يوم مَرْداء هجر من أبى فُديك ، فقال : لحبيب بن عوف

بذلتُ لهم يا قَوم حوْلى وقوّتى ﴿ ونُصْحى وما ضَمّت يداىَ من التّبرِ

فلما تناهى الأمر بى من عدوّكم ﴿ إلىٰ مُهجتى ولّيتُ أعداءكم ظهرى

وطِرتُ ولم أحفِل ملامَةَ عاجز ﴿ يُقيم لأطرافِ الرُّدَيْنِيّةِ السُّمْر

فلو كان لى روحانِ عَرّضتُ واحدا ﴿ لكلّ رُدَيْنِىّ وأبيضَ ذى أُثْر

* * *

٢٠ رَجع بنا القول إلى الفرّارين والجبناء وماقيل فيهم .

فرّ خالد بن عبد الله بن أسيد عن مصعب بن الزبير يوم الجُفْرة بالبصرة ، للفرزدق فى خالد ابن أسيد

فقال فيه الفرزدق :

وكلُّ بنى السَّوداء قد فرّ فرّةً ◦ فلم يبق إلا فرّةٌ فى آسْت خالدِ
فضحتم أمير المؤمنين وأنتمُ ◦ ترون سُوداناً غِلاظَ السَّواعِدِ

جبان

وقيل لرجل جبان فى بعض الوقائع: تقدم. فأنشأ يقول:

وقالوا تقدمْ، قلتُ لست بفاعلٍ ◦ أخافُ على فَخّارتى أن تحطَّما
فلو كان لى رأسان أتلفتُ واحدًا ◦ ولكنه رأس إذا راح أعقما
فلو كان مُبْتاعا لدَى السوق مِثْلُهُ ◦ فعلتُ ولم أحفِلْ بأن أتقدما
فأُوتم أولادا وأُرْمِلُ نِسوةً ◦ فكيف على هذا ترون التقدُّما

بين هند وابن زنباع

وقالت هند بنت النعمان بن بشير لزوجها رَوْح بن زنباع: كيف سَوّدك قومك وأنت جبانٌ غيور؟ قال: أمّا الجبن، فإن لى نفسا واحدة فأنا أحوطها، وأما الغيرة فما أحق بها مَن كانت له امرأة حمقاء مثلك، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فترمى به فى حِجْره.

لكعب بن زهير

وقال كعب بن زهير:

بُخْلا علينا وجُبْناً مِن عدوّكم ◦ لبئْسَتِ الخلّتانِ البخلُ والجُبْنُ

فضائل الخيل

للنبى صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم فى صفة الخيل: أعرافها أدفاؤها، وأذنابها مَذَابُّها والخيلُ معقودٌ فى نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: عليكم بإناث الخيل فإنّ بطونها كنز؛ وظهورها حِرْز، وأصحابها مُعانون عليها.

وسأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنى أريد أن أشترى فرسا أُعِدُّهُ فى سبيل الله. فقال له: اشتره أدْهَمَ أو كُمَيْتاً أقْرحَ أرْثم، أو مُحَجّلا مطلق اليمين[1]، فإنها ميامينُ الخيل.

(١) الأدهم: الأسود. والكميت: من الكمتة، وهى لون بين السواد والحمرة. والأقرح: ما كان فى جبهته بياض قليل دون الغرة. والأرثم: هو ما كانت شفته العليا وأنفه أبيضين. والمحجل: ما كانت قوائمه بيضاء. ومطلق اليمين: أى لاتحجيل فيها.

لبعض الحكماء

وقيل لبعض الحكماء : أي الأموال أشرف ؟ قال : فَرَسٌ تتبعها فرس في بطنها فرس .

صفة جياد الخيل

للنبي صلى الله عليه وسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب من الخيل الشقر .

وقال : لو جُمعتْ خيلُ العرب في صعيد واحد ما سبَقها إلا أشقر .

وسأله رجل : أيُّ المال خير ؟ قال : سِكة مأبورة ، ومُهْرةٌ مأمورة [١] .

وكان عليه الصلاة والسلام يكره الشّكال [٢] في الخيل .

لبعضهم

وقالوا : إنما سميت خيلا لاختيالها .

لأعرابي

ووصف أعرابيٌّ فرساً فقال : إذا تركته نَعَس ، وإذا حرّكته طار .

مسلم وابن عم له في شراء خيل

وأرسلَ مُسلم بن عمرو لابن عم له بالشام يشتري له خيلا ، فقال له : لا علم لي بالخيل . فقال : ألست صاحب قَنْص ؟ قال : بلى . قال : فانظر ، كلّ شيء تستحسنه في الكلب فاطلبه في الفَرس . فأتى بخيل لم يكن في العرب مثلها .

لبعض الضبيين في وصف فرس

وقال بعض الضَّبيّين في وصف فرس :

متقاذِفٍ عبْلِ الشّوى شنِجِ النّسا ۞ سَبّاقِ أَنْدِيَةِ الجِيَادِ عَمَيْثَلِ

وإذا تَعَلّلَ بالسّياطِ جِيادُها ۞ أعطاك نائله ولم يتعلّل

بين المهدي وابن دراج في أفضل الخيل

سأل المهدي مطَر بن دَرّاج عن أي الخيل أفضل ؟ قال : الذي إذا استقبلتَه قلتَ نافر ، وإذا استدبرتَه قلت زاخر ، وإذا استعرضته قلت زافر . قال : فأيّ هذه أفضل ؟ قال : الذي طرفُه إمامُه ، وسَوْطُه عنانُه .

لبعضهم

وقال آخر : الذي إذا مَشَى رَدَى ، وإذا عدَا دَجا ، وإذا اُستُقْبِلَ أَقْعَى ، وإذا اُستُدْبِرَ جَبّى [٣] ، وإذا اُستُعرِض اُستوى .

(١) السكة : الطريق المصطفة من النخل . والمأبورة : الملقحة . والمأمورة : الكثيرة النتاج .

(٢) الشكال : أن تكون ثلاث قوائم محجلة وواحدة مطلقة .

(٣) جبى : انكب على وجهه .

بين معاوية وصعصعة فى أفضل الخيل

وسأل معاوية بن أبى سفيانَ صعصعة بن صُوحان : أى الخيل أفضل ؟ قال : الطويل الثلاث ، القصير الثلاث ، العريض الثلاث ، الصافى الثلاث . قال : فَسِّرْ لنا . قال : أما الطويل الثلاث ، فالأُذن والعنق والحزام ؛ وأما القصير الثلاث ، فالصُّلب والعَسِيب والقَضِيب ؛ وأما العريض الثلاث ، فالجَبهة والمِنْخَر والوَرِك ؛ وأما الصافى الثلاث ، فالأديم والعين والحافر . ٥

بين عمر بن الخطاب وعمرو ابن معديكرب فى عراب الخيل

وقال عمر بن الخطاب لعمرو بن معديكرب : كيف معرفتك بِعِراب الخيل ؟ قال : معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده . فأمر بأفراس فعُرضت عليه ، فقال : قدِّموا إليها الماء فى التِّراس ، فما شرب ولم يَكْتَفِ فهو من العِراب ، وما ثَنَى سُنْبُكه فليس منها .

١٠ قلت : إنما المحفوظ أن عمر شك فى العِتاق والهُجن ، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلى فأخبره ، فدعا سلمانُ بطست من ماء فوُضِع بالأرض ، ثم قدم إليه الخيل فَرَساً فرساً ، فما ثنى سنبكه وشرب هجّنه ، وما شرب ولم يَثْنِ عَرَّبه .

لحسان بن ثابت

وقال حسان بن ثابت يصف طولَ عنق الفرس :

بكل كُميت جَوْزُهُ نِصْفُ خَلْقِه * أَقَبَّ طُوَال مُشرِفٍ فى الحوارِكِ

لزهير

١٥ وقال زهير :

ومُلْجَمُنا ما إنْ ينالُ قذالُه * ولا قَدماه الأرضَ إلا أنامِله

لبعض الشعراء

وقال آخر :

له ساقا ظَليمٍ خا * ضِبٍ فوجئَ بالرُّعبِ
حديدُ الطَّرْفِ والمَنْكِبِ والعُرْقوبِ والقَلْبِ

٢٠ وقال آخر :

هَرِيتٌ قصيرُ عِذارِ اللّجامِ * أسيلٌ طَويلُ عِذارِ الرَّسَنْ

لم يرد بقوله « قصير عذار اللجام » قِصر خدِّه ، وإنما أراد طويل شق الفم ؛ وأراد بطول عذار الرسن ، طولَ الخدّ .

وقال آخر :

بكلِّ هَرِيتٍ نقىِّ الأديم * طويلِ الحزام قصير اللّببْ

لأبى عبيدة في عتاقة الفرس

وقال أبو عبيدة : يُستدلّ على عَتاقة الفرس برقة جحافله وأرْنَبَتِهِ ، وسَعة مِنْخَرَيْه ، وعُرْى نواهقه ، ودِقّة حَقْوَيه وما ظهر من أعالى أُذنيه ، ورقة سالفتيه وأديمه ، ولين شعره . وأبْيَنُ من ذلك كله لينُ شكير ناصيته وعُرفه .

وكانوا يقولون : إذا اشتد نفَسُه ، ورَحُبَ مُتَنَفَّسُه ، وطال عنقه ، واشتد حِقْوه ، وانهَرَتَ شِدْقُه ، وعظمت فخذاه ، وانشبخت[1] أنساؤه ، وعظمت فصوصه ، وصلبت حوافره ووَقُحت : أُلحق بجياد الخيل .

لرجل من أسد

قيل لرجل من بنى أسد : أتعرف الفرس الكريم من المُقرف ؟ قال نعم : أما الكريم فالجواد الجيد ، الذى نَهَز نَهْز العَيْر ، وأُنُف تأنيف السَّير ، الذى إذا عدا اسلهب ، وإذا قُيِّد اجْلَعَبّ ، وإذا انتصب اتلأبّ .

وأما المُقرف فإنه الذَّلول الحجَبَة ، الضخم الأرنبة ، الغليظ الرقبة ، الكثير الجلبة ، الذى إذا أرسلته قال أمسِكنى ، وإذا أمسكته قال أرْسِلْنى .

لابن الكلبى فى جياد سليمان عليه السلام

وكان محمد بن السائب الكَلْبى يحدث أن الصافنات الجياد المعروضة على سليمان ابن داود عليهما السلام كانت ألف فرس ورثها عن أبيه ، فلما عُرِضت عليه ألهته عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب ، فَعَرْقَبها إلا أفراساً لم تُعرض عليه ، فوفد أقوامٌ من الأزد ، وكانوا أصهاره ، فلما فرغوا من حوائجهم ، قالوا : يانبىَّ الله ، إنّ أرضنا شاسعة فزوّدنا زاداً يبلّغنا . فأعطاهم فرساً من تلك الخيل ، وقال : إذا نزلتم منزلا فاحملوا عليه غلاما واحتطبوا ؛ فإنكم لاتورون ناركم حتى يأتيكم بطعامكم . فساروا بالفرس ، فكانوا لا ينزلون منزلا إلا ركبه أحدهم للقنْص فلا يُفلته شىء وقعت عينه عليه من ظبى أو بقر أو حمار ، إلى أن قَدِموا إلى بلادهم فقالوا : « ما فرسُنا إلا زاد الراكب » ، فسموه زاد الراكب ، فأصل فحول العرب من نتاجه .

ويقال إن « أعوج » كان منها ، وكان فحلا لهلال بن عامر أنتجته أمه ببعض

(١) انشبخت : تقلصت .

بيوت الحىّ ، فنظروا إلى طِرْف يضع جَحْفَلَته على كاذَتها ـ على الفخذ مما يلى الحياء ـ فقالوا : أدركوا ذلك الفرس لا ينزو على فرسكم ، لعظم « أعوج » وطول قوائمه فقاموا إليه فوجدوا المهر ، فسموه أعوج .

وأخبرنا فرج بن سلام عن أبى حاتم عن الأصمعى قال : أُغير على أهل النسارِ[1] وأعوج موثقٌ بثمامة ، فجال صاحبُه فى متنه ثم زجره فاقتلع الثمامة ، ٥ فخرجت تَخُف فى متنه كالخُذروف وراءه ، فعدا بياضَ يومه وأمسى يتعشى من جَميم قُباء .

لبعض الشعراء فى فرس

وقال الشاعر فى وصف فرس :

وأحمرَ كالدِّيباج أمّا سماؤه ٭ فريّا ، وأمّا أرضُه فمحُول

١٠ قوله : سماؤه : أعلاه . وأرضه : أسفله ، يريد قوائمه .

للطائى

وللطائى نظير هذا حيث يقول :

مُبْتَلُّ مَتْنٍ وصَهْوَتَين إلى ٭ حوافرٍ صَلْبةٍ له مُلُسِ

فهو لدَى الرَّوْعِ والجلائبِ ذو ٭ أعْلًى مُنَدًّى وأسفلٍ يَبَسِ

أو أدهمٍ فيـــه كُمْتةٌ أَممٌ ٭ كأنّهُ قطعةٌ مِنَ الغَلَسِ

١٥ صهصِلقٌ فى الصَّهِيلِ ، تحسَبُهُ ٭ أُشْرِجَ حُلقومُه على جَرَسِ

وقال حبيب أيضاً يصف فرساً أهداه إليه الحسن بن وهبٍ الكاتب .

ما مُقْرَبٌ يختالُ فى أشْطانه ٭ ملآن مِنْ صَلَفٍ به وتَلَهْوُقِ

بحوافرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صُلَّبٍ ٭ وأشاعرٍ شُعْرٍ وخلْقٍ أخْلَقِ

وبشُعلةٍ تبدُو كأنّ حُلولها ٭ فى صَهْوَتَيه بُدُوُّ شيْبِ المَفرِقِ

٢٠ ذو أوْلَقٍ تحت العَجاجِ وإنما ٭ من صِحّةٍ إفراطُ ذاك الأوْلَقِ

تُغْرَى العيونُ به ويُفْلِقُ شاعر ٭ فى نَعْتِه عفواً وليس بمُفْلِقِ

بمُصَعَّدٍ من نعته ومُصَوَّبٍ ٭ ومُجَمَّعٍ من حسنه ومُفَرَّق

(١) ماء لبنى عامر.

قدسالتِ الأوضاحُ سيْلَ قرارةٍ * فيه فمفترقٌ عليه وملتقِي
صافى الأديم كأنما ألبستَهُ * من سُندُسٍ ثوباً ومن إستبرق
مُسْوَدُّ شَطْرٍ مثل مااسودَّ الدُّجَى * مُبيَضُّ شطرٍ كابيضاض المُهْرقِ
فكأن فارسه يُصرفُ إذ بَدَا * فى متنه آبْنًا للصباح الأبلق
٥ إمْليسة إمليدة لو عُلّقتْ * فى صَهْوَتيه العينُ لم تتعلّقِ
يُرْقَى وماهو بالسَّليمِ ويَغتدى * دونَ السلاحِ سِلاحَ أروعَ مُلْقِ

لبعض الشعراء فى أبي دلف

وقال أبو سويد: شهد أبو دلف وقعة البَذّ [1] وتحته فرس أدهم وعليه تَنْضَح الدم، فاستوقفه رجل من الشعراء وأنشد:

كم ذا تُجرِّعُه المَنونَ ويَسْلَمُ * لو يَستطيعُ شَكا إليكَ الأدهَمُ
١٠ فى كلّ مَنْبتِ شعرةٍ من جِلْدِهِ * نَمَقٌ يُنَمِّقُه الحسامُ المِخْذَمُ
وكأنما عَقَدَ النُّجومَ بطَرفِه * وكأنهُ بِعُرَى المجرَّةِ مُلجَم
وكأنه بين البَوارقِ لَقْوَةٌ * شَقراءُ كاسرة طَوَتْ ما تطعمُ
ما تُدركُ الأرواحُ أدْنَى سيره * لا بَلْ يفوتُ الرِّيحَ فهْوَ مُقدَّمُ
رَجَعَتْهُ أطرافُ الأسِنَةِ أشقرًا * واللّونُ أدهم حينَ ضَرَّجَهُ الدَّمُ

١٥ قال: فأمر له بعشرة آلاف.

لابن عبد ربه فى وصف الفرس

ومن قولنا فى وصف الفرس:

ومُقْرَبة يَشقرُّ فى النَّقْعِ كُمْتُها * ويَخْضَرُّ حِيناً كلما بَلَّها الرَّشْحُ
تطيرُ بِلا رِيشٍ إلى كلّ صَيْحةٍ * وتَسْبَحُ فى البَرّ الذى مابِه سَبْحُ

لابن الرقاع

وقال عدىّ بن الرّقاع:

٢ يَخرجن من فُرُجات النَّقْع دامِيَةً * كأنّ آذانَها أطرافُ أقلامِ

وطلب البحترى الشاعر من سعيد بن حُمَيد بن عبد الحميد الكاتب فرساً

(١) البذ: كورة بين أذربيجان وأران، بها كان مخرج بابك الخرمى فى أيام المعتصم، وشهدها أبو دلف.

ووصف له أنواعاً من الخيل فى شعره فقال :

لأُكلِّفَنَّ العِيسَ أبعَدَ هِمَّةٍ * يجرى إليها خائف أو مُرتجى
وإلى سَرَاةِ بنى حُميدٍ إنهم * أمسَوْا كواكبَ أشرقَتْ فى مَدْحِج
والبيتُ لولا أنّ فيه فضيلةً * تعلو البيوتَ بفضلِها لم يُحْجَج
فأعِنْ على غَزْوِ العدوّ بمُنطوٍ * أحشاؤهُ طَىَّ الرِّداء المُدْرَج ٥
إمّا بأشقر ساطِعٍ أغشى الوَغَى * منهُ بمثلِ الكوكبِ المتأجِّج
مُتسَرْبِلٍ شِيَةً طَلَتْ أعطافَهُ * بدَمٍ فما تلقاهُ غيرَ مُضرَّج
أو أدْهَمٍ صافى الأديمِ كأنهُ * تحتَ الكمىّ مُظهَّرٌ بيرَنْدَج
ضَرِمٍ يَهيجُ السَّوْطُ من شُؤْبُوبِهِ * هَيْجَ الجَنائبِ من حريقِ العَرْفَج
خَذِفَتْ مَرَاقِعُ وَطْئِهِ فلوَ انّه * يجرى برَمْلةِ عالجٍ لم يُرْهِج ١٠
أو أشهب يَقَقٍ يضىء وراءه * متْنٌ كمَتْنِ اللُّجة المُترجرج
تَخفى الحُجولُ ولو بَلَغْنَ لَبانَه * فى أبيضٍ مُتألقٍ كالدُّمْلُج
أوْفى بعُرْفٍ أسودٍ مُتفرّدٍ * فيما يليهِ وحافر فيرُوزَجى
أو أبلقٍ مـلأَ العيونَ إذا بَدا * من كلّ لونٍ مُعْجِبٍ بنَموذَج
جذلانَ تحسُدُه الجيادُ إذا مَشى * عَنَقاً بأحسنِ حُلّةٍ لم تُنْسَج ١٥
وعريض أعلى المتن لو علّيْتَه * بالزئبق المُنهال لم يَتدَحْرَج
خاضَتْ قوائمه الوثيقُ[1] بِناؤُها * أمواجَ تَحْنيبٍ بهنّ مُدرّج
ولأنتَ أبعدُ فى السَّماحةِ همّةً * مِن أن تَضِنَّ بمُلْجمٍ أو مُسْرَج

لامرئ القيس — وأول من شَبَّه الخيل بالظباء والسِّرحان والنعامة ، وتبعه الشعراء وحذوا حذوه وعلى مثاله ــ امرؤ القيس بن حجر : ٢٠

له أيْطَلاَ ظَبْيٍ وساقا نَعامةٍ * وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقْريبُ تَتْفلِ

(١) فى بعض الأصول : « القويم » .

كأنَّ على المَتْنَيْنِ منه إذا انْتحى ٭ مَداكَ عروسٍ أو صَلاية حَنْظَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً ٭ كجُلْمودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ منْ عَلِ
دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوليدِ أمَرَّه ٭ تَتابُعُ كفَّيْه بخيْطٍ موَصَّلِ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِه ٭ كما زَلَّتِ الصَّفْواءُ بالمتَنَزَّلِ

لطفيل الخيل

٥ فأخذت الشعراء هذا التشبيه من امرئ القيس فحذوا عليه، فقال طُفيل الخيل :

إنى وإنْ قَلَّ مالى لا يُفارقُنى ٭ مِثْلُ النَّعامة فى أوْصالِها طولُ
تقْريبها المَرَطى والجوْزُ مُعتدلٌ ٭ كأنّه سُبَدٌ بالماء مغسولُ
أو ساهِمُ الوجْهِ لم تُقَطَّعْ أباجِلُه ٭ يُصانُ وهْوَ ليوْمِ الرَّوْعِ مَبْذولُ

بين عبد الملك بن مروان وأصحابه

وقال عبد الملك بن مروان لأصحابه : أى المناديل أفضل ؟ فقال بعضهم :
١٠ مناديل مصر التى كأنها غِرْقِئُ البيض . وقال بعضهم : مناديل اليمن التى كأنها أنوار الربيع . فقال : ماصنعتم شيئا ، أفضلُ المناديل مناديل عَبْدة بن الطَّبيب حيث يقول :

لمَّا نَزَلنا ضَربنا ظِلَّ أخْبِيَةٍ ٭ وفارَ باللحمِ للقوْمِ المراجيلُ
وردًا وأشقرَ لم يُنْهِته طابخُهُ ٭ ماقاربَ النُّضْجَ منها فهومأكولُ
وقد وثبنا على عُوجٍ مُسَوَّمَةٍ ٭ أعرافُهُنَّ لأيْدينا مناديلُ

سوابق الخيل

١٥

للأصمعى

قال الأصمعى : ماسبق فى الرهان فرسٌ أهْضَمُ قطُّ . وأنشد لأبى النَّجم :

٭ مُنتفِج الجوْفِ عريضٌ كلْكَلُهْ ٭

لأبى النجم فى فرس هشام

قال : وكان هشام بن عبد الملك رجلا مُسَبِّقا لا يكاد يَسبق ، فسَبَقت له فرسٌ أنثى وصَلَّت أختها ، ففرح لذلك فرحا شديداً ، وقال : علىّ بالشعراء . قال
٢٠ أبو النجم : فدُعينا فقيل لنا : قولوا فى هذه الفرس وأختها . فسأل أصحابُ النشيد النَّظِرةَ حتى يقولوا . فقلت له : هل لك فى رجل يَنْقُدُك إذا آستنسئوك ؟ قال : هات . فقلت من ساعتى :

أشاعَ للغَرَّاء فينا ذِكْرَها ٭ قوائمٌ عوجٌ أطَعْنَ أمرَها

وما نسينا بالطريق مُهْرها * حين نَقيسُ قدره وقدرها

وصبرَهُ إذا عـدا وصبرَها * والمـاء يعلو نحره ونحرها

ملْبومة شـدّ المليـكُ أسْرَها * أسْفَلهـا وبطنَهـا وظهْرها

قدكاد هاديها يكونُ شَطْرها * لا تأخذُ الحَلْبةُ إلا سُؤْرَها

قال أبو النجم : فأمر لى بجائزة وانصرفت .   ٥

بين الرشيد والأصمعى فى فرس سابق

أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد ، وأبو الحسن على بن جعفر البصرى ، قالا : حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريْب الأصمعى : أن هارون الرشيد ركب فى سنة خمس وثمـانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلْبة . قال الأصمعى : فدخلت الميـدان لشهودها فيمن شَهد من خواص أمير المؤمنين ؛ والحلْبةُ يومئذ أفراسٌ للرشـيد ولولديه الأمين والمـأمون ، ولسليمان بن أبى جعفر المنصور ولعيسى بن أبى جعفر   ١٠ فجاء فرس أدهم يقال له الربيذ لهرون الرشيد سابقاً ؛ فابتهج لذلك ابتهاجا عُلم ذلك فى وجهه ، وقال علىّ بالأصمعى . فنوديتُ له من كل جانب ، فأقبلت سريعا حتى مثلت بين يديه ، فقال : يا أصمعى ، خذ بناصية الربيذ ثم صفه من قونَسِه إلى سُنْبُكه ؛ فإنه يقال إن فيه عشرين اسمـا من أسمـاء الطير . قلت : نعم يا أمير المؤمنين ؛ وأُنشدك شعراً جامعا لها من قول أبى حَزرة . قال : فأنشدنا لله أبوك .   ١٥ قال : فأنشدته :

وأقَبَّ كالسِّرحانِ تمَّ له * ما بين هامَتِه إلى النَّسْرِ

الأقب : اللاحق المُخْطَف البطن ، وذلك يكون من خِلْقَةٍ وربما حدث من هُزال أو بُعْدِ قَوَد ؛ والأنثى قَبَّاء ، والجمع قُبٌّ ، والمصدر القَبب . والسِّرحان : الذئب ، شبهه فى ضُموره وعدْوه به ، وجمعه سَراحين : وقد قالوا : سِراح .   ٢٠ والهـامة : أعلى الرأس ، وهى أم الدماغ ، وهى من أسمـاء الطير . والنسر : هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه كأنه النَّوى والحصى ، وهو من أسماء الطير ، وجمعه نُسور .

رَحُبَتْ نَعامتُه ووُفِّر فَرخُهُ * وتمكن الصُّرَدان فى النحْر

رَحُبت : اتسعت . ونعامته : جلدة رأسه التى تغطى الدماغ ، وهى من أسماء الطير . وقوله « ووُفّر فرخه » الفرخ : هو الدماغ ، وهو من أسماء الطيور . ووفّر أى تمّم ؛ يقال : وفّرت الشيء ووفَرته ، بالتخفيف ، موفور . والصَردان : عرقان فى أصل اللسان ، ويقال إنهما عرقان أخضران مكتنِفان باطن اللسان ، منهما الرّيقُ ونَفَس الرئة ؛ وهما من أسماء الطير . وفى الظهر صُرَد أيضا ، وهو بياض يكون فى موضع السرج من أثر الدَّبَر ؛ يقال : فرس صَرِد إذا كان ذلك به . والنحر : موضع القلادة من الصدر ، وهو البَرْك .

وأنافَ بالعُصْفورِ من سَعَفٍ ٭ هامٍ أشمَّ موَثَّقُ الجِذْرِ

أناف : أشرف . والعصفور : أصل منبت الناصية . والعصفور أيضاً : عظم ناتئ فى كل جبين . والعصفور : من الغرر أيضاً ، وهى التى سالت ودقّت ولم تجاوز إلى العينين ولم تستدر كالقُرْحة ؛ وهو من أسماء الطير . والسّعَف ، يقال : فرس بَيّن السَّعَف ، وهو الذى سالت ناصيته . وهامٍ : أى سائل منتشر . وأشمّ : مرتفع ؛ والشّمم فى الأنف : ارتفاع قصبته . ويروى : هادٍ أشم . يريد عُنقاً مرتفعاً ، وجمعه هوادٍ . وقوله : موثّق ، أى شديد قوىّ . والجِذْر : الأصل من كل شيء . قال الأصمعى وغيره : هو بالفتح . وقال أبو عمرو بن العلاء : هو بالكسر .

وآزدانَ بالدّيكَيْنِ صَلصَله ٭ ونَبَتْ دجاجتُهُ عن الصَّدرِ

ازدان : افتعل ، من قولك زان يزين ، وكان الأصل : ازتان ، فقلبت التاء دالا لقرب مخرجها من مخرج الزاى ، وكذلك ازداد ، من زاد يزيد . والديكان : واحدهما ديك ، وهو العظم الناتئ خلف الأذن ، وهو الذى يقال له الخُشَشاء والخشّاء . والصلصل : بياض فى طرف الناصية ؛ ويقال : هو أصل الناصية : والدجاجة : اللحم الذى على زَوْره بين يديه ؛ والديك والصلصل والدجاجة : من أسماء الطير .

والناهِضانِ أُمِرَّ جَلْزُهُما ٭ فكأنما عُثِما على كَسْرِ

الناهضان : واحدهما ناهض ، وهو لحم المنكبين ؛ ويقال : هو اللحم الذى يلى العَضُدَيْن من أعلاهما ؛ والجمع نواهض ؛ ويقال فى الجمع : أَنْهُض ، على غير قياس . والناهض : فرخ القطا ، وهو من أسماء الطير . وقوله : أُمِرَّ جَلْزُهما : أى فُتِلَ وأُحْكِمَ ؛ يقال أمررتُ الحبل فهو مُمَرٌّ ، أى فتلته ؛ والجَلْز : الشدّ . وقوله :

* فكأنما عُثِما على كَسْرِ * ٥

أى كأنهما كُسِرَا ثم جُبِرا ؛ يقال : عُثِمَت يَدُه . والعَثْم : الجبر على عُقدة وعِوَج ؛ وعُثْمان : فُعلان منه .

مُسْحَنْفِرُ الجَنْبَيْنِ مُلْتَئِمٌ * ما بَيْنَ شِيمَتِهِ إلى الغُرِّ

مسحنفر الجنبين : أى منتفخهما . مُلتئم : أى معتدل . وشيمته : نحْره [1] . والشيمة أيضا : من قولك : فرس أَشْيَمُ : بيّنُ الشِّيمة ، وهى بياض فيه ؛ ويقال : ١٠ أن تكون شامة أو شام فى جسده . والغُرّ فى الطير الذى يسمى الرخمة ، وهى عضلة الساق [2]

وَصَفَتْ سَمَاناهُ وحافِرُهُ * وأَدِيمُهُ ومَنابِتُ الشَّعْرِ

السُّمَانَى : طائر ، وهو موضع من الفرس لا أحفظه ، إلا أن يكون أراد السَّمامة ، وهى دائرة تكون فى سالفة الفَرس ، وهو عُنقه . والسَّمامة من الطير ١٥ أيضا . والأديم : الجلد .

وسَمَا الغُرابُ لِمَوْقِعَيْهِ مَعًا * فأُبِينَ بَيْنَهُمَا على قَــدْرِ

سما الغراب : أى ارتفع . والغراب : رأس الورك . ويقال للصَّلوَين : الغرابان ، وهما مكتنفا عَجْب الذنب . ويقال : هما أعالى الوركين . والموقعان

(١) فى بعض الأصول : « منخره » . ٢٠
(٢) كذا فى بعض الأصول . وفى نهاية الأرب : « والغر فى الطير الأغلب الذى يسمى الرخمة . وهى من الفرس عضلة الساق » . والذى فى سائر الأصول : « والغر فى الأغلب على الذى يسمى الرخمة من الفرس وهى عضلة الساق »

منه : فى أعالى الخاصرتين . فأُبِينَ : أى فُرِّق بينهما . على قدر ، أى على استواء واعتدال .

واكْتَنَّ دونَ قَبِيحِهِ خُطَّافُهُ * ونَأَتْ سَمَامَتُهُ عن الصَّقْر

اكتنّ ، أى استتر . والقبيح : ملتقى الساقين ، ويقال إنه مُرَكَّب الذراعين فى العضدين . والخُطَّاف : من أسماء الطير ، وهو حيث أدركت عَقِب الفارس إذا حرّك رجليه ، ويقال لهذين الموضعين من الفرس : الْمَرْكلان . ونأت ، أى بعدت ، والسَّمامة : دائرة تكون فى عُنق الفرس ، وقد ذكرناها ، وهى من أسماء الطير . والصقر : أحسبها دائرة فى الرأس ، وما وقفت عليها ، وهى من أسماء الطير .

وتَقَدَّمَتْ عنه القَطاةُ له * فنأتْ بمَوْقِعها عن الْحُر

القطاة : مقعد الرِّدْف ، وهى من أسماء الطير ؛ والْحُرّ : من الطير ، يقال : إنه ذكر الحمام . وهو من الفرس : سواد يكون فى ظاهر أذنيه .

وسَما على نِقْوَيْهِ دون حِدَاتِه * خَرَبانِ بينهما مَدَى الشِّبر

النِّقوان : واحدهما نِقْو ، والجمع أنقاء . وهو عظم ذو مُخ ، وإنما عَنَى هاهنا عظامَ الوَرِكين ؛ لأن الخَرَب هو الذى تراه مثل المُدْهُن فى وَرِك الفرس . وهو من الطير : ذَكَرُ الحبارى . والحِدأة : من الطير ؛ وأصله الهمز ولكنه خُفِّف ، وهى سالفة الفرس ، وجمعها حِداء ، على وزن فِعال ، كما تقول : عَظاءة وعَظاء ؛ ويقال : عَظاية . وإذا فتحت الفاء قلت حَدَأة ، وهو الفأس ذات الرأسين ، وجمعها حَدَأ ، مثل نَواة ونَوى ، وقَطاة وقطا .

يدع الرَّضِيم إذا جرى فِلَقا * بتوائِمٍ كمواسمٍ سُمْرِ

الرَّضيم : الحجارة . والفِلق : المكسورة فِلَقا . بتوائم : جمع توْأم ، وقد قالوا : تُوَام ، على وزن فُعال ، جمع تَوْأم ؛ وهى على غير قياس . يقول : هى مَثْنَى مَثْنَى ، يعنى حوافره . والمواسم : جمع مِيسَم الحديد ، أى إنها كمواسم الحديد فى صلابتها . وقوله سمر : أى لون الحافر ، وهو أصلب الحوافر .

رُكِّبْنَ فى مَحْضِ الشَّوَى سَبِطٍ * كَفْتِ الوُثُوبِ مُشَدَّدِ الأَسْرِ

الشوى هاهنا : القَوائم ، والواحدة شَواة ؛ ويقال : فرس محض الشوى ، إذا كانت قوائمه معصوبة . سَبِط : سهل . كَفْتِ الوثوب . أى مجتمع ، من قولك : كَفَتُّ الشىء ، إذا جمعته وتَمَّمته . مشدّد الأسر : أى الخلق .

٥ قال الأصمعى : فأمر لى بألف درهم [1] .

لأبى العتاهية فى المشمر فرس الرشيد

وسبق يوما فرس للرشيد ، يسمى المشمِّر . وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر ابنى يحيى بن خالد البرمكى . فقال أبو العتاهية :

جاء المشمِّر والأفراس يقدُمها * هَوناً على سرعة منها وما انتهرا

وخلف الريح حسرت وهى تتبعه * ومرّ يختطف الأبصار والنظرا

لأبى النجم فى الحلبة

١٠ وقال أبو النجم فى شعر يصف الفرس ، وهو أجود شعر يصف الحلبة :

ثمّ سَمِعْنا بِرِهانٍ نأمُلُهْ * قِيدَ لهُ مِنْ كلِّ أُفْقٍ جَحْفَلُهْ

فقلتُ للسَّائس قُدْهُ أُعْجِلُهْ * واغْدُ لَعنَّا فى الرِّهانِ نُرْسِلُهْ

نعلو بهِ الحَزْنَ ولا نُسهِّلُهْ * إذا علا الأخْشَبَ صاحَ جندلُهْ

تَرَنُّم النُّوَّحِ يُبكِي مُثْكِلُهْ * كأنَّ فى الصَّوْتِ الذى يُفَصِّلُهْ

١٥ زُمَّارَ دُفٍّ يَتغنى جُلجُلُهْ * حتى وردنا المِصْرَ يُطْوَى قَنْبُلُهْ

طَيَّ التِّجار العَصْبَ إذ تَنَحَّلُهْ * وقد رأينا فِعلَهُمْ فَنفعلُهْ

نطْويه والطَّىّ الرقيقُ يجدلُهْ * نُضمِّرُ الشَّحْمَ ولسنا نَهزِلُهْ

حتى إذا الليل تولَّى أَنجَلُهْ * واتَّبَعَ الأيدىَ مِنه أرْجُلُهْ

قمنا على هَوْلٍ شديدٍ وَجَلُهْ * نَمُدُّ حَبْلا فوقَ خَطٍّ نَعْدِلُهْ

٢٠ نقولُ قَدِّمْ ذا وهذا أَدْخِلْهْ * وقام مشقوقَ القميص يُعْجِلُه

فوق الخُماسِيِّ قليلًا يَفضُلُهْ * أَدْرَكَ عَقْلًا والرِّهانُ عَمَلُهْ

(١) فى نهاية الأرب : « بعشرة آلاف درهم » .

حتى إذا أدركَ خيْلا مُرسِلهْ ٭ ثار عَجَاجٌ مُسْتَطِيرٌ قَسْطلهْ
تَنْفشُ منه الخيلُ ما لا تغزِلهْ ٭ مَرًّا يُغَطِّيها ومَرًّا تُنْعَلُه
مَرَّ القَطَا آنصبَّ عليه أجْدَلُهْ ٭ وَهْوَ رَخِي البالِ سامٍ وَهَلُه
قَدَمَـهُ مِثْلا لِمَنْ يَمثله ٭ تَطيرُهُ الجنُّ وحيناً تُرجِلُهْ
٥ تَسْبحُ أُخراهُ ويَطفو أوَّلُهْ ٭ ترى الغلامَ ساجياً ما يَرْكلُهْ
يُعطيهِ ما شاء وليْس يَسألُهْ ٭ كأنَّهُ مِن زَبدٍ يُسَرْبِلُهْ
فى كُرْسُفِ النَّدَّافِ لولا بَللُهْ ٭ تخالُ مِسكاً عَلَّهُ مُعَالُهْ
ثم تناولنا الغُلامَ نُنزلُهْ ٭ عن مُفْرَعِ الكِتْفيْنِ حُلْوٍ عَطَلُهْ
مُنْتَفجِ الجوْف عريض كَلْكلُهْ ٭ فوافَتِ الخيلُ ونحن نَشكُلُهْ
١٠ والجنُّ عُكّاف به تُقبِّلُهْ ٭

لآخر فى فرس أبى الأعور السلمى

وقال آخر فى فرس أبى الأعور السُّلمى :

مَرَّ كلمع البرْقِ سام ناظِرُهْ ٭ تَسْبحُ أُولاهُ ويَطْفو آخِرُهْ
فما يَمَسُّ الأرضَ منه حافِرُهْ

قول هذا أشبه من قول أبى النجم ؛ لأنه يقول :

١٥ ٭ تَسبحُ أُخْراهُ ويَطفو أوَّلُهْ

وقال الأصمعى : إذا كان الفرس كما قال أبو النجم لحمار الكساح أسرع منه ، لأن آضطراب مؤخره قبيح .

وقال الأصمعى : كان أبو النجم وصّافا للخيل إلا أنه غلط فى هذا البيت ، وقد غلط رُؤْبة أيضا فى الفرس فقال يصف قوائمه :

٢٠ ٭ يَهوين شتى ويَقَعْنَ وفْقَا ٭

ولما أنشده مُسلم بن قتيبة ، قال له : أخطأت فى هذا يا أبا الجَحّاف ، جعلته مقيَّدا . قال : قرّبنى من ذَنب البعير .

عن الأصمعى في فرس — وأنشد الأصمعى :

قد أطْرُق الحىَّ على سابحٍ * أسْطَعَ مِثْلِ الصَّدَعِ الأجْرَدِ
لمّا أتيتُ الحىَّ فى مَتْنِــه * كأنَّ عُرْجونا بَمتْنِ يدِى
أقبلَ يختالُ على شَــأْوِه * يضربُ فى الأقربِ والأبعدِ
كأنه سكرانُ أو عابِسٌ * أو ابن رَبٍّ حَدَث المولِدِ ٥

لبعض الشعراء — وقال غيره :

أما إذا اســتقبلتَه فكأنهُ * جِذْعٌ سَمَا فوق النَّخيل مُشَذَّبُ
وإذا اعترضت له استوتْ أقطاره * وكأنه ، مُسْتَدْبَرًا ، مُتَصوِّبُ

لابن المعتز — وقال ابن المعتز :

وقد يحضُرُ الهيْجاء فى شَنِجِ النَّسا * تكامَلَ فى أسْنانِه فهْو قارِحُ ١٠
له عُنُقٌ يغتالُ طولَ عِنانه * وصدرٌ إذا أعطَيْته الجرْىَ سابحُ
إذا مال عن أعطافِهِ قلت شاربٌ * عناهُ بتصريفِ المُدامة طافحُ

وقال أيضاً :

ولقد وطِئتُ الغيْثَ يحْمِلُنى * طِرْفٌ كلَوْنِ الصُّبْحِ حين وقدْ
يَمشى ويعرِضُ فى العِنانِ كما * صَدَفَ المُعَشَّق بالدلالِ وصدْ ١٥
طارت به رِجلٌ مُرَصَّعــةٌ * رَجّامــةٌ لِحَصَى الطريق ويَدْ
فكأنه موجٌ يســيلُ إذا * أطلقتَهُ وإذا حَبَسْت جَمَــدْ

الحلبــة والرهان

الحلبة والرهان وشىء عنهما — والحلبة : جمع الخيل ، ويقال : مجتمع الخيل ، ويقال : مجتمع الناس للرهان ؛ وهو من قولك : حلب بنو فلان على بنى فلان وأحلبوا : إذا اجتمعوا . ويقال ٢٠ منه : حَلَبَ الحالبُ اللبنَ فى القدح : أى جمعه فيه . والمِقْوس : الحبل الذى يُمدُّ فى صدور الخيل عند الإرسال للسباق . والمنصّبة : الخيل حين تُنَصَّب للإرسال .

وأصل الرهان من الرهن ، لأن الرجل يراهن صاحبه فى المسابقة ، يضع هذا رهنا وهذا رهنا ، فأيهما سبق فرسُه أخذ رهْنَه ورهْن صاحبه . والرهان ، مصدر راهنته مراهنة ورهانا ، كما تقول : قاتلته مقاتلة وقتالا . وهذا كان من أمر الجاهلية ، وهو القِمار المنهىّ عنه . فإن كان الرهن من أحدهما بشىء مسمًّى على أنه إن سَبق لم يكن له شىء ، وإن سبقه صاحبُه أخذ الرهن ، فهذا حلال ؛ لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر ؛ وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهنا وأدخلا بينهما محلِّلا ، وهو فرس ثالث يكون مع الأولين ، ويسمى أيضاً الدّخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شىء ، ثم يرسلون الأفراس الثلاثة ، فإن سبق أحد الأوّلين أخذَ رهْنَه ورهنَ صاحبه فكان له طيبا ، وإن سبق الدخيل أخذ الرهنين جميعا ، وإن سُبق هو لم يكن عليه شىء . ولا يكون الدخيل إلا رائعا جواداً ، لا يأمنان أن يسبقهما ؛ وإلا فهذا قمار ، لأنهما كأنهما لم يُدخلا بينهما محلّلا .

قال الأصمعى : السابق من الخيل : الأول ، والمصلِّى : الثانى الذى يتلوه . قال : وإنما قيل له مُصَلّ ، لأنه يكون عند صلوى السابق ، وهما جانبا ذَنَبه عن يمينه وشماله ؛ ثم الثالث والرابع لا اسم لواحد منهما إلى العاشر ، فإنه يسمَّى سُكَيْتاً .

قال أبو عبيدة : لم نسمع فى سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه اسما لشىء منها إلا الثانى والعاشر ؛ فإن الثانى اسمه المصلِّى ، والعاشر السُّكَيْت ؛ وما سوى ذينك يقال له الثالث والرابع ، وكذلك إلى التاسع ، ثم السُّكَيْت ويقال السُّكَّيْت ، بالتشديد والتخفيف ، فما جاء بعد ذلك لم يعتدّ به . والفِسْكِل ـ بالكسر ـ الذى يجىء آخر الخيل ، والعامة تسميه الفُسكل ـ بالضم .

وقال أبو عبيدة : القاشور ، الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل ، وهو الفِسْكل ، وإنما قيل للسُّكيت ؛ سُكَيت لأنه آخر العدد الذى يقف العادُّ عليه . والسَّكت : الوقوف ، هكذا كانوا يقولون ، فأما اليوم فقد غيَّروا .

من شأنهم مع السابق

وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق . قال جرير :

إذا شِئتمُ أن تَمسحوا وجه سابقٍ ۞ جَوادٍ ، فمُدُّوا فى الرِّهان عِنانِيا

ومن قولنا فى هذا المعنى :

وإذا جياد الخيلِ ما طَلَها المَدى * وتقطَّعتْ فى شأوِها المبهُورِ
خَلُّوا عِنانى فى الرِّهان ومسِّحوا * مِنّى بغُرَّةِ أبلقٍ مشهورِ

وصف السلاح

درع على — كانت درعُ علىّ صدرا لا ظهر لها ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : إذا استمكن عدوّى من ظهرى فلا يُبْقِ . ٥

درع الجراح — ورؤى الجراح بن عبد الله قد ظاهَر بين درعين ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : لست أقى بدنى وإنما أقى صبرى[1] .

لزيد بن حاتم فى الأدراع — وآشترى زيد بن حاتم أدراعا وقال : إنى لست أشترى أدراعاً وإنما أشترى أعمارا . ١٠

لابن المهلب يوصى بنيه — وقال حبيب بن المُهلَّب لبنيه : لا يقعدنّ أحدكم فى السوق ، فإن كنتم لابدّ فاعلين ، فإلى زراد ، أو سَرّاج ، أو ورّاق .

بين عمر بن الخطاب وعمرو ابن معديكرب فى الصمصامة — العتبى قال : بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معديكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصَّمصامة ، فبعث به إليه ، فلما ضرب به وجده دون ما كان يبلغه عنه ، فكتب إليه فى ذلك ، فرد عليه : إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ، ولم أبعث بالساعد الذى يَضرب به . ١٥

بينهما فى السلاح — وسأله عمر بن الخطاب يوما عن السلاح ، فقال : يسألُ أميرُ المؤمنين عما بدا له . قال : ما تقول فى التُّرس ؟ قال : هو المِجنُّ الدائر ، وعليه تدور الدوائر . قال : فما تقول فى الرُّمح ؟ قال : أخوك وربما خانك فانقصف . قال : فالنَّبل ؟ قال : منايا تخطِئُ وتصيب . قال : فما تقول فى الدِّرع ؟ قال : مُثقِلة للراجل ، مُتْعبة[2] للفارس ، وإنها لحصنٌ حصين . قال : فما تقول فى السيف ؟ قال : ٢٠

(١) فى الأصول « صدرى » . وما أثبتنا من عيون الأخبار .
(٢) فى بعض الأصول : « مشغلة » .

هناك لا أمَّ لك يا أمير المؤمنين ، فضربه عمر بالدِّرة وقال : بل لا أم لك . قال : الحمى أضرعتنى لك[1] .

لابن يامين في الصمصامة

الهيثم بن عدى قال : وُصف سيفُ عمرو بن معديكرب الذى يقال له الصَّمصامة لموسى الهادى ، فدعا به فوضع بين يديه مجرَّدا ، ثم قال لحاجبه : إيذن للشعراء . فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فيه ، فبدرهم ابن يامين[2] فقال :

حازَ صَمْصامةَ الزُّبَيدِىِّ عَمْرٍو * من جميع الأنام مُوسى الأمِينُ
سَيفَ عمرو وكان فيما سمِعْنا * خَيْرَ ما أُغْمِدَتْ عليه الجُفُونُ
أخضر المَتنِ بين حَدَّيْهِ نُورٌ * من فِرِنْدٍ تمتدُّ فيه العُيونُ
أَوقدت فَوقَه الصواعقُ ناراً * ثم ساطتْ به الذُّعافَ القُيونُ
فإذا ما سللْته بَهر الشمْسَ ضِياءً فلم تكَدْ تَسْتَبِينُ
فكأنّ الفرِندَ والرَّونق الجا * رِىَ فى صَفْحَتَيْهِ ماءٌ مَعِينُ
وكأنّ المَنون نِيطَتْ إليه * فهو من كل جانِبَيهِ مَنُونُ
نِعْمَ مِخْراق ذى الحفيظة فى الهيـجاء يسطو به ونعم القرين
ما يُبالى مَن انْتضاهُ لحرب * أَشِمَالٌ سَطَتْ به أم يَمينُ

فأمر له ببدرة وخرجوا .

الزبير بن العوام وسيفه

وضرَبَ الزبيرُ بن العوام يوم الخندق عثمانَ بن عبد الله بن المُغيرة فقطّه إلى القَرَبُوس ؛ فقالوا : ما أجود سيفك ! فغضب - يريد أن العمل ليده لا لسيفه - وقال :

متى تَلْقَنى يَعدو بِبَزّى مقلّص * كُمَيْتٌ بَهِيم أو أغَرُّ مُحَجَّلُ

(١) أراد أن الإسلام قيده ، ولو كنت فى الجاهلية لم تكلمنى بهذا الكلام ، وهو مثل تضربه العرب إذا اضطرت للخضوع .
(٢) اضطرب هذا الاسم فى الأصول ، فمرة « ابن أقيس » ومرة « ابن أقيس » وما أثبتنا رواية نهاية الأرب وابن خلكان (٢ : ٣٠٤) ومروج الذهب (٤ : ٢٨٦) وديوان المعانى (٢ : ٥٢) ورواية فتوح البلدان « أبو الهول » .

تُلَاقِ آمرءًا إنْ تَلْقَهُ فبِسَيْفِهِ ٭ تُعَلِّمْكَ الأيامُ ماكنتَ تجهلُ

لأبى الشيص — وقال أبو الشِّيص :

٭ خَتَلَتْهُ المَنُونُ بعدَ اْختيالِ ٭ بين صَفَّين من قنًا ونِصَالِ

فى رِداءٍ من الصفيحِ صَقِيلٍ ٭ وقميصٍ من الحديدِ مُذَالِ

لأبى الأغر يوصى ابنه — وبلغ أبا الأغر التميمىّ أنّ أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شر ، فوجّه إليهم آبنه ٥
الأغرّ وقال : يابنىّ ، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم ، وإياك والسيف فإنه ظلّ
الموت ، واتّق الرُّمح فإنه رِشاءُ المنيّة ، ولا تقرب السهام فإنها رُسل لا تُؤامر
مُرْسِلَها . قال : فماذا أقاتل ؟ قال : بما قال الشاعر :

جَلاميد يملأْنَ الأكُفَّ كأنها ٭ رُءوسُ رجالٍ حُلِّقتْ بالمواسِمِ

لأعرابى فى متحاربين — وذكر أعرابىّ قوماً تحاربوا فقال : أقبلت الفحول ، تمشى مشى الوعول ، فلما ١٠
تصافحوا بالسيوف ، فَغَرت المنايا أفواهها .

لآخر فى مأسورين — وقال آخر يذكر قوما أُسروا : استنزلوهم عن الجياد بلِيِّنة الخُرصان ،
ونزعوهم نَزع الدِّلاء بالأشطان .

لآخر فى معتدين — وقال أعرابى فى آخرين ابتغَوْا قوما أغاروا عليهم ، فقال : احتَشُّوا كل جُمالِيَّةٍ
عَيْرَانَةٍ ، كيما يخصفون أخفاف المطىِّ بحوافر الخيل ، حتى أدركوهم بعد ثالثة ، ١٥
فجعلوا المُرَّان أَرْشِيَةَ المنايا فاستَقَوْا بها أرواحهم .

لحبيب فى السيف — ومن أحسن ماقيل فى السيف قولُ حبيب :

ونَبَّهن مثلَ السيفِ لولم تَسُلَّهُ ٭ يَدانِ لسَلَّتْهُ ظُباهُ من الغِمْدِ

وله فى الرماح — وقال فى صفة الرماح :

مُثَقَّفات سَلَبْنَ الرومَ زُرْقَتها ٭ والعُرْبَ ألوانَها والعاشِقَ القَضَفَا ٢٠

للنابغة فى السيف — ومن الإفراط القبيح قولُ النابغة فى وصف السيف :

يَقُدُّ السَّلُوقىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ ٭ ويوقِدُ فى الصُّفَّاح نارَ الحُباحِبِ

فذكر أنه يقُدّ الدرع المُضاعف نسجه ، والفارسَ ، والفرسَ ، ويقع بها فى الأرض فيقدح النار من الحجارة .

وأقبح منه فى الإفراط قولُ الآخر : لبعضهم

تظل تحفِرُ عنه إن ضربتَ به * بعدَ الذراعين والقيدَيْن والهادى

٥ وقد جمع العلوىّ وصف الخيل والسلاح كله فأحسن وجوّد حيث يقول : للعلوى

بِحَسبىَ مِنْ مالى من الخَيلِ أَعْيَط * سليمُ الشَّظَى عارِى النَّواهِقِ أَمْعَطُ

وأبيَضُ من ماءِ الحديد مُهَنَّد * وأسمرُ عسّالُ الكُعوب عَنَطْنَطُ

وبيضاء كالضَّحضاح زَغْفٌ مُفاضَةٌ * يُكفِّتُها عنِّى نجــادٌ مُخَطَّط

ومَعْطوفةُ الأطْرافِ كَبْداء سَمْحَةٌ * مُفَجَّةُ الأعضادِ صفراء شَوْحَطُ

١٠ فياليتَ مالى غــير ما قد جمعْته * على لُجَّــةٍ تيَّارُها يَتَغَطْغَطُ

وياليتنى أُمْسِى على الدهرِ ليْلةً * وليسَ على نفسى أمير مُسَلَّط

ومن قولنا فى وصف الرمح والسيف : لابن عبد ربه

بكلّ رُدَيْنِىّ كأن سِنانَهُ * شِهابٌ بَدا فى ظُلْمةِ الليلِ ساطِعُ

تقاصَرتِ الآجالُ فى طولِ مَتْنِه * وعادتْ به الآمالُ وهْى فجائِعُ

١٥ وساءت ظُنونُ الحربِ فى حُسْنِ ظَنّه * فهُنَّ طَبات للقلوب قوارِعُ

وذى شُطَبٍ تقْضى المنايا بحُكْمه * وليس لما تقْضِى المنِيَّةُ دافِعُ

فِرِنْد إذا ما اعْتَنّ للعين راكد * وبرق إذا ما اهتزّ بالكفّ لامعُ

يُسَلِّلُ أرواحَ الكُماةِ انسلالُه * ويرتاعُ منه الموتُ والموتُ رائعُ

إذا ما التقَتْ أمثالُه فى وقيعَــةٍ * هنالك ظنُّ النفسِ بالنفسِ واقعُ

٢٠ ومن قولنا فى وصف السيف :

بكل مــأثور على مَتْنِه * مِثْلُ مَــدَبِّ النَّمْلِ بالقاعِ

يرتد طرْفُ العَيْنِ من حَدّه * عن كَوْكَبٍ لِلمَوْتِ لمّاعِ

لإسحاق ابن خلف

وقال إسحاق بن خلف البَهْرانى فى صفة السيف :

أَلْقَى بجـانِبِ خَصْرِهِ ... أَمْضى مِن الأَجَلِ المُتاح
وكأنما ذَرَّ الهَبا ... ءَ عليهِ أنفاسُ الرِّياح

للغنوى

ومن جيد صفات السيف قول الغَنَوِى :

حُسام غداة الرَّوع ماضٍ كأنه ... من الله فى قبض النفوس رسول
كأنّ على إفرنده موج لُجَّة ... تَقاصَرُ فى ضحضاحه وتطول
كأنّ جُيوش الذَّر كَسَّرْنَ فوقه ... قرونَ جرادٍ بينهن ذُحول

النزع بالقوس

إبراهيم الشيبانى قال : كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه يعرّض له ضَيعة بواسطَ فى مَغْرمٍ لزمه للخليفة ؛ فحمل وكيلا له على بغل وأترع له خُرجا بدنانير ، وقال له : اذهب إلى واسط فاشتر لى هذه الضيعة المعروضة ، فإن كفاك ما فى هذا الخرج وإلا فاكتب إلى أُمدّك بالمال . فخرج ، فلما أصحر عن البيوت ، لحق به أعرابى راكبٌ على حمار معه قوس وكنانة ؛ فقال له : إلى أين تتوجه ؟ فقال : إلى واسط . قال : فهل لك فى الصُّحبة ؟ قال : نعم . فسارا حتى فَوّزا ، فعنّت لهما ظباء ، فقال له الأعرابى : أىُّ هذه الظباء أحبُّ إليك : المتقدم منها أم المتأخر فأُذَكِّيَه لك ؟ قال له : المتقدم . فرماه فخرمه بالسهم ، فاشْتَوَيا وأكلا ، فاغتبط الرجل بصحبة الأعرابى ، ثم عنّ له زُفّة قطا ، فقال : أيها تريد فأصرعَها لك ؟ فأشار إلى واحدة منها فرماها فأقْصَدَها ، ثم اشتويا وأكلا ، فلما انقضى طعامهما فوّق له الأعرابى سهماً ثم قال له : أين تريد أن أُصيبك ؟ فقال له : اتق الله وآحفظ زمام الصحبة . قال : لابد منه ! قال له : آتق الله ربك واستَبْقِنى ، ودونك البغل والخرج فإنه مُترعٌ مالا . قال : فاخلع ثيابك . فآنسلخ من ثيابه ثوباً ثوبا حتى بقى مجرَّداً . قال له : اخلع أمواقك[1] .

(١) الأمواق : جمع موق ، وهو خف غليظ يلبس فوق الخف .

وكان لابساً خُفَّيْن طائفيَّين ، فقال له : أتق الله فىّ ودع لى الخفين أتبلّغ بهما من الحرّ ، فإن الرّمضاء تحرق قدمىّ . قال : لا بدّ منه . قال فدونك الخُف فآخلعه . فلما تناول الخفَّ ، ذكر الرجل خنجراً كان معه فى الخف ، فآستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عانته ، وقال له : الاستقصاء فُرقة . فذهبت مثلا . وكان هذا الأعرابى من رُماة الحَدَق . ٥

بين لص ورام — وحدّث العتبى عن بعض أشياخه قال : كنت عند المهاجر بن عبد الله والى اليمامة ، فأُتى بأعرابى كان معروفا بالسّرَق فقال له : أخبرنى عن بعض عجائبك . قال : عجائبى كثيرة ، ومن أعجبها أنه كان لى بعير لا يُسْبَق ، وكانت لى خيل لا تُلْحَق ، فكنت أخرج فلا أرجع خائباً ، فخرجت يوماً فاحترشتُ ضبًّا ، فعلّقته على قَتَبى ، ثم مررت بخباء ليس فيه إلا عجوز ليس معها غيرها ، فقلت : يجب أن يكون لهذه رائحة من غنم وإبل . فلما أمسيتُ إذا بإبل مائة ، وإذا شيخ عظيم البطن ، شثْن الكفين ، ومعه عبد أسود ، فلما رآنى رحب بى ، ثم قام إلى ناقة فآحتلبها ، وناولنى العُلْبة . فشربت ما يشرب الرجل ، فتناول الباقى فضرب به جبهته ، ثم احتلب تسع أينُق فشرب ألبانهن ، ثم نحر حُوارا فطبخه ، فأكلت شيئا ، وأكل الجميع حتى ألقى عظامه بيضا ، وجثا على كومة من البطحاء وتوسدها ثم غَطّ غطيط البَكْر . فقلت : هذه والله الغنيمة ، ثم قمت إلى فحل إبله فخطمتُه : ثم قرنته ببعيرى وصحت به ، فاتّبعنى الفحل واتّبعته الأبل إرْباباً به فى قطار ، فصارت خلفى كأنها حبل ممدود ؛ فمضيت أبادر ثنيّة بينى وبينها مسيرة ليلة للمُسْرِع ، ولم أزل أضرب بعيرى ، مرة بيدى ، ومرة برجلى ، حتى طلع الفجر ؛ فأبصرت الثنيّة ، وإذا عليها سواد ، فلما دَنَوْت منه إذا الشيخ قاعد وقوسُه فى حجره ! فقال : أضيْفَنا ؟ قلت : نعم ! قال : أتسخو نفسك عن هذه الإبل ؟ قلت : لا . فأخرج سهما كأنه لسان كلب ، ثم قال : انظره بين أذنى الضبِّ المعلّقِ فى القَتَب . ثم رماه فصدع عظمَه عن دماغه ، فقال لى : ما تقول ؟ قلت : أنا على رأيى الأول . قال : انظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى ، ثم رمى به فكأنما قدره بيده

ثم وضعه بأصبعه ، ثم قال : رأيك ؟ فقلت : إنى أحب أن أستثبت . قال : أنظر هذا السهم الثالث فى عُكوة ذنَبه ، والرابع والله فى بطنك . ثم رماه فلم يخطئ العُكوة ؛ قلت : أنزلُ آمنا ؟ قال : نعم . فدفعت إليه خطام لحله وقلت : هذه إبلك لم تذهب منها وبرة . وأنا أنظر متى يرمينى بسهم يُقصِد به قلبى ؛ فلما تباعدت قال : أقبل ! فأقبلت والله فَرَقا من شره لا طمعاً فى خيره . فقال : ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا من حاجة ! قلت نعم . قال : فاقرُن من هذه الإبل بعيرين وامض لِطيَّتك . قال : قلت : أما والله لا أمضى حتى أخبرَك عن نفسك ؛ فلا والله ما رأيت أعرابيا قط أشدّ ضِرساً ، ولا أعدَى رِجلا ، ولا أرمَى يداً ، ولا أكرمَ عَفْوا ، ولا أسخى نفساً ، منك . فصرف وجهه عنى حياءً وقال : خذ الإبل برمتها مباركا لك فيها .

النبى صلى الله عليه وسلم فى الرمى

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : اركبوا وارموا ؛ وأنْ ترموا أحبُّ إلىّ من أن تركبوا .

وقال : كل لَهْوِ المؤمن باطلٌ إلا فى ثلاث : تأديبه فرسَه ورمْيه عن كَبد قوسِه ، وملاعَبتِه امرأتَه ؛ فإنه حق . إن الله ليُدْخِلُ الجنةَ بالسهم الواحد عامله المحتَسِب ، والقوىّ به فى سبيل الله ، أى والرامى به فى سبيل الله .

وروى عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : ﴿ وأعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ . ألا إنّ القوة الرمى . ألا إنّ القوةَ الرمى . ألا إنّ القوة الرمْى .

ابن أبى وقاص

وكان أرمى أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبى وقاص ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له فقال : اللهم سدّد رمْيَته ، وأجِبْ دَعوَته . فكان لا يُردّ له دعاءٌ ، ولا يخيب له سهم .

النبى صلى الله عليه وسلم ورماة من أسلم

وذكر أسامة بن زيد : أنّ شيوخا من أسْلَمَ حدّثوه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم وهم يرمون ببُطْحان ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارمُوا يابنى إسمعيل ، فقد كان أبوكم راميا ، وأنا مع ابن الأدرع . فتعدّى القوم فقالوا :

يا رسول الله، مَن كنت معه فقد نَضَل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارموا وأنا معكم كلكم. فانتضلوا ذلك اليوم ثم رجعوا بالسواء؛ ليس لأحد على أحد منهم فضل.

لعمر بن الخطاب

وقال عمر: آتزروا وآرتدوا، وآنتعلوا وآحتفوا، وآرمُوا الأغراض، وآلقَوْا الرُّكُب، وانْزُوا على الخيل نَزْواً، وعليكم بالمَعَدِّيّة - أو قال: بالعربية - ودَعُوا التنعُّم وزِيّ العجم.

وقال أيضا: لنْ تخور قواكم ما نَزَوْتم ونَزَعْتم. يعنى نزوتم على ظهور الخيل ونزعتم بالقسيّ.

لرجل من البادية يذمر قومه

وجنى قوم من أهل اليمامة [1] جناية، فأرسل السلطانُ إليهم جُنداً من محاربة ابن زياد. فقام رجل من أهل البادية يُذَمِّر أصحابه فقال: يامعشر العرب، ويابنى المُحصنات، قاتلوا عن أحسابكم وأنسابكم؛ فوالله لئن ظهر هؤلاء عليكم لايدَعون بها لَبِنة حمراء ولا نخلة خضراء إلا وضعوها بالأرض، ولَأَعْتَراكم من نُشّاب معهم فى جعاب كأنها أيور الفِيَلة ينزعون فى قِسيّ كأنها الغُبط، تئطّ إحداهن أطيط الزُّرْنُوق، يَمغَط أحدهم فيها حتى يتفرّق شعر إبْطَيْه، ثم يرسل نُشّابة كأنها رِشاء منقطع، فما بين أحدكم وبين أن تنفضخ عينُه أو ينصدع قلبه منزلة. فخلع قلوبَهم فطاروا رُعبا.

مشاورة المهدى لأهل بيته

فى حرب خراسان

هذا ماتراجع فيه المهدىُّ ووزراؤه، وما دار بينهم من تدبير الرأى فى حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أن نكثوا بَيعتهم، ونقضوا موثقهم، وطردوا العُمال، والتوَوْا بما عليهم من الخراج. وحمل المهدىّ ما يُحب من مصلحتهم ويكره من عَنَتهم على

(١) كذا فى بعض الأصول وعيون الأخبار. والذى فى سائر الأصل: «المدينة».

أن أقال عثرتهم ، واغتفر زلّتهم ، واحتمل دالّتهم ؛ تطوُّلًا بالفضل ، واتساعا بالعفو ، وأخذاً بالحُجة ، ورفقاً بالسياسة ؛ ولذلك لم يزل مذ حمَّله اللهُ أعباء الخلافة ، وقلّده أمور الرعية ، رفيقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطا للمعدلة فى رعيّته : تسكُن إلى كنفه ، وتأنس بعفوه ، وتثق بحلمه ؛ فإذا وقعت الأقضية اللازمة ، والحقوق الواجبة ، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مُداهنة ؛ أثرةً للحق ، وقياما بالعدل ، وأخذاً بالحزم . فدعا أهلَ خراسان الاغترارُ بحلمه ، والثقةُ بعفوه ، أن كسروا الخراج ، وطردوا العمال ، وسألوا ما ليس لهم من الحق ؛ ثم خلطوا احتجاجا باعتذار ، وخصومةً بإقرار ، وتنصّلا باعتلال . فلما انتهى ذلك إلى المهدى ، خرج إلى مجلس خَلائه ، وبعث إلى نفر من لُحْمَتِه ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصحهم للرعية ؛ ثم أمر الموالى بالابتداء ؛ وقال للعباس بن محمد : أىْ عَمّ ، تَعَقَّبْ قولَنا ، وكُن حكما بيننا . وأرسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمر ، وشاركهما فى الرأى . وأمر محمد بن الليث بحفظ مُرَاجَعتهم وإثبات مقالتهم فى كتاب .

فقال سلّام صاحب دار المظالم : أيها المهدى ، إن فى كل أمر غاية ، ولكل قوم صناعة ، استفرغت رأيهم . واستغرقت أشغالَهم ، واستنفدت أعمارَهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وعُرفوا بها وعُرفت بهم ؛ ولهذه الأمور التى جعلْتَنا فيها غايةً وطلبْت معونتنا عليها : أقوامٌ من أبناء الحرب ، وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفُرسان الهزاهز ، وإخوان التجارب ، وأبطال الوقائع ، الذين رَشَحَتْهُمْ سِجَالُها ، وفيّأتهم ظلالُها ، وعضّتهم شدائدُها ، وقرمتهم نواجذها ؛ فلو عَجَمْتَ ما قِبَلَهُم ، وكشفت ما عندهم ، لوجدتَ نظائرَ تؤيّد أمرك ، وتجاربَ توافق نظرك ، وأحاديثَ تقوّى قلبَك . فأما نحن معاشرَ عُمّالك ، وأصحاب دواوينك ، فحَسَنٌ بنا وكثيرٌ منّا أن نقوم بثِقل ما حمّلتَنا من عملك ، واستودعْتَنا من أماناتك ، وشغَلْتنا به من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك ، وإظهار حقك .

فأجابه المهدى : إن فى كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفى كل حال

تدبير يُبطِل الآخِرُ الأوّل ؛ ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا .

قال : نعم أيها المهدى ، أنت متسع الرأى ، وثيق العقدة قوى المنة ، بليغ الفطنة ، معصوم النية ، محضور الرَّوِيّة ، مؤيّد البديهة ، موفّق العزيمة ، مُعان بالظفر ، مَهْدِىٌّ إلى الخير ؛ إن هممت ففى عزمك مواقع الظن ، وإن أجمعت صدع فعالُك ملتبسَ الشك ، فاعزم يَهْدِ اللهُ إلى الصواب قلبَك ، وقُلْ يُنْطِق الله بالحق لسانَك ، فإنّ جنودك جمة ، وخزائنك عامرة ، ونفسك سخية ، وأمرك نافذ .

فأجابه المهدى : إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة ، لا يَهلك عليهما رأى ، ولا يتفيَّل معهما حزم ؛ فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يحضُركم : فإنى من ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .

قال الربيع : أيها المهدى ، إنّ تصاريف وجوه الرأى كثيرة ، وإن الإشارة ببعض معاريض القول يسيرة ؛ ولكنّ خراسان أرض بعيدة المسافة ، متراخية الشُّقة ، متفاوتة السُّبُل ، فإذا ارتأيتَ من محكم التدبير ، ومُبْرَم التقدير ، ولباب الصواب . رأيا قد أحكمه نظرك ، وقلبه تدبرُك ، فليس وراءه مذهب لحجة طاعن ، ولا دونه مُتَعلَّق لخصومة عائب ، ثم خَبَّت البُرُدُ به ، وانطوت الرسلُ عليه . كان بالحَرَى ألاّ يصل إليهم محْكَمُهُ إلا وقد حدث منهم ما ينقضه ؛ فما أيسرَ أن ترجع إليك الرسل وترِد عليك الكتب بحقائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومصادر أمورهم ؛ فتحدث رأياً غيره ، وتبتدع تدبيراً سواه ، وقد انفرجت الحلَق ، وتحلّلت العُقد ، واسترخى الحِقاب ، وامتد الزمان . ثم لعلّما مَوْقعُ الآخرة كمصدر الأولى . ولكن الرأى لك أيها المهدى وفّقك الله ، أن تصرف إجالة النظر ، وتقليبَ الفكر فيما جمعتنا له واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحِيَل فى أمرهم ، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، وورع واسع ، ليس موصوفا بهوى فى سواك ، ولا متّهما فى أَثَرة عليك ، ولا ظنينا على دُخْلة مكروهة ، ولا منسوبا إلى بدعة محذورة ، فيقدحَ فى ملكك ، ويربِّض الأمور لغيرك ، ثم تُسند إليه أمورَهم ، وتفوّض إليه حربَهمْ ، وتأمره

فى عهدك ووصيتك إياه بلزوم أمرك مالزمه الحزم ، وخلاف نهيك إذا خالفه الرأى ، عند استحالة الأمور واستدارة الأحوال ، التى يُنقَصُ أمرُ الغائب عنها ، ويَثبُت رأىُ الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك فواثب أمرهم من قريب ، وسقط عنه ما يأتى من بعيد ، تَمّت الحيلة ، وقَويت المكيدة ، ونَفذ العمل ، وأحدّ النظر إن شاء الله . ٥

قال الفضل بن العبّاس : أيها المهدى ، إن ولىَّ الأمور ، وسائس الحروب ، ربما نحّى جنودَه ، وفرّق أموالَه ، فى غير ماضيق أمرٍ حَزبه . ولا ضغطةِ حال اضطرته ، فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها ، فاقداً لها ، لا يثق بقُوّة ، ولا يصول بعُدّة ، ولا يفزع إلى ثِقة . فالرأى لك أيها المهدى وفقك الله ، أن تعفى خزائنك من الإنفاق للأموال ، وجنودَك من مُكابدة الأسفار ، ومقارعة ١٠ الأخطار وتغرير القتال . ولا تسرع للقوم فى الإجابة إلى ما يطلبون ، والإعطاء لما يسألون ، فيفسُد عليك أدبهم ، وتُجَرِّئ من رعيتك غيرَهم ؛ ولكن اغزُهُم بالحيلة ، وقاتلهم بالمكيدة ، وصارعْهم باللين ، وخاتلْهم بالرفق ، وأبْرِق لهم بالقول ، وأرعِد نحوهم بالفِعل ، وابعث البُعوث ، وجنِّد الجنود وكَتِّب الكتائب ، واَعقِد الألوية ، وانصُب الرايات ، وأظهر أنك موجِّهٌ إليهم الجيوش مع أحنق ١٥ قوادك عليهم ، وأسوئهم أثراً فيهم ، ثم ادْسُس الرسل ، وابثُث الكتب ، وضَع بعضهم على طمع من وعدك ، وبعضاً على خوف من وعيدك ، وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم ، واغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتَنطوى الصدور على البِغضة ، ويدخل كلاًّ من كلٍّ الحذرُ والهيبة ؛ فإن مَرَامَ الظَّفر بالغِيلة ، والقتالَ بالحيلة ، والمُناصبة بالكتب ، والمكايدة بالرسل ، ٢٠ والمقارعةَ بالكلام اللطيف المَدخل فى القلوب ، القوى المَوقع من النفوس ، المعقود بالحُجج ، الموصول بالحِيل ، المبنىّ على اللّين ، الذى يستميل القلوب ، ويَسْتَرِقُّ العقول ، ويسبى الآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعى المواتاة ـ أنْفَذُ من القتال بظُبات السيوف وأسنة الرماح : كما أن الوالى الذى يستنزل طاعة رعيّته

بالحيل ، ويُفرّق كلمة عدوه بالمكايدة ، أحكمُ عملا وألطف نظراً[1] وأحسن سياسة من الذى لا يَنال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال ، والتغرير والخِطار .

وليعلم المهدى ـ وفقه الله ـ أنه إن وجه لقتالهم رجلا ، لم يَسِرْ لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج على حال شديدة ، وتُقدم على أسفار ضيقة ، وأهوال متفرّقة ، وقوّاد غَشَشَة ، إن ائتمنهم استنفدوا ماله ، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له .

قال المهدى : هذا رأى قد أسفر نوره ، وبرق ضوؤه ، وتمثل صوابه للعيون ، وتجسد حقه فى القلوب ، ولكنْ فوق كلّ ذى علم عليم .

ثم نظر إلى ابنه علىّ فقال : ما تقول ؟

قال على : أيها المهدى ، إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يدا ، ولم ينصبوا مِن دونك أحدا يكدح فى تغيير ملكك ، ويربّض الأمور لفساد دولتك ؛ ولو فعلوا لكانَ الخطب أيسر ، والشأن أصغر ، والحالُ أذلّ ؛ لأن الله مع حقه الذى لا يخذله ، وعند موعده الذى لا يُخلفه : ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفة من شيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكما ، طلبوا حقا ، وسألوا إنصافا : فإن أجبتَ إلى دعوتهم ، ونفّست عنهم قبل أن تتلاحم منهم حال ، أو يحدثَ مِن عندهم فَتق ، أطعتَ أمر الرب ، وأطفأتَ نائرة الحرب ، ووفّرت خزائنَ المال ، وطرحت تغرير القتال ؛ وحَمَل الناسُ مَحْملَ ذلك على طبيعة جُودك وسجيّة حِلْمك ، وإسجاح خليقتك ، ومعدلة نظرك ؛ فأمنت أن تُنسَب إلى ضَعْفَة ، وأن يكون ذلك لهم فيما بقى دُربة . وإن مَنَعْتَهم ما طلبوا ، ولم تُجبهم إلى ما سألوا ، اعتدلت بك وبهم الحال ، وساويتَهم فى ميدان الخطاب . فما أرَبُ المهدى أن يَعمد إلى طائفة من رعيته : مُقِرّين بمملكته ، مُذْعِنين لطاعته ، لا يُخرجون أنفسهم عن قُدرته ، ولا يُبرئونها من عبوديّته ، فيُمَلّكهم أنفسهم ، ويخلعَ نفسَه عنهم ، ويقفَ على الجدل معهم ، ثم يجازيَهم السوء فى حِد المقارعة ، ومضمار المخاطرة ؟ أيريد المهدى ـ وفقه الله ـ الأموال ؟

(١) فى الأصل : ألطف منظرا .

فلعمرى لا ينالها ولا يَظفَر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يَدّعى قِبَلهم ؛ ولو نالها لحُمِلتْ إليه ، أو وُضِعَتْ بخرائطها بين يديه ، ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها . لكان مما إليه يُنسَب وبه يُعرَف ، من الجود الذى طَبعه الله عليه ، وجَعَل قُرّةَ عينه ونَهْمَةَ نفسه فيه . فإن قال المهدى : هذا رأى مستقيم سديد فى أهل الخَراج الذين شكَوْا ظلمَ عُمّالنا وتحامُلَ وُلاتنا ، فأما الجنودُ الذين نقضوا مواثيقَ العهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا بابَ المعصية ، وكسروا قيْد الفتنة ؛ فقد ينبغى لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم ، وعِظةً لسواهم . فيعلم المهدى أنه لو أتى بهم مغلولين فى الحديد ، مُقرَّنين فى الأصفاد ، ثم اتسع لَحقن دمائهم عفوُه ، ولإقالة عثرتهم صفحُه ، واستبقاهم لما هُم فيه من حَرْبه ، أو لمن بإزائهم من عدوه ، لما كان بِدْعا من رأيه ، ولا مستنكرًا من نظره . لقد علمت العربُ أنه أعظمُ الخلفاء والملوك عفوا ، وأشدُّها وقعا ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاظمه عفو ، ولا يتكاءدُه صفح ، وإن عَظُمَ الذنبُ وجلّ الخطب . فالرأى للمهدى ــ وفقه الله تعالى ــ أن يَحُل عقدةَ الغيْظ بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم ، وأن يذكر أولى حالاتهم وضَيعة عِيالاتهم ، برًّا بهم ، وتوسّعاً لهم ، فإنهم إخوان دولته ، وأركانُ دعوته ، وأساسُ حقه ، الذين بِعزتهم يصُول ، وبحجتهم يقول . وإنما مَثَلُهم فيما دخلوا فيه من مَساخطه ، وتَعرّضوا له من معاصيه ، وانطوَوْا فيه عن إجابته ؛ ومَثَلهُ فى قلة ما غَيَّر ذلك من رأيه فيهم ، أو نَقَل من حاله لهم ، أو تغيّر من نعمته بهم ــ كمثل رجلين أخَوَين متناصرَيْن متوازرين ، أصاب أحدَهما خَبَلٌ عارض ، ولهو حادث ، فنهض إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالمكروه ؛ فلم يزدد أخوه إلا رقّة له ، ولُطفاً به ، واحتيالا لمداواة مرضه ، ومراجعة حاله ، عطفاً عليه ، وبرًّا به ، ومَرْحمةً له .

فقال المهدى : أما علىّ فقد نوى سمْت اللّيان ، وفضّ القلوب عن أهل خراسان ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون . ثم قال : ماترى ياأبا محمد ؟ يعنى موسى ابنه .

فقال موسى : أيها المهدى ، لا تسكن إلى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم ، وأنت ترى الدماء تسيل من خلال فعلهم . والحال من القوم تنادى بمضمرة شرّ ، وخفيّة حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها سترا ، واتخذوا العلل من دونها حجابا ، رجاء أن يدافعوا الأيامَ بالتأخير ، والأمورَ بالتطويل ، فيكسروا حيَل المهدى فيهم ، ويثنوا جنوده عنهم ، حتى يتلاحم أمرُهم ، وتتلاحق مادّتهم ، وتستفحل حربُهم ، وتستمرّ الأمورُ بهم ؛ والمهدىّ من قوتهم فى حال غِرّة ولباس أمنَة ، قد فتر لها ، وأنس بها ، وسكن إليها . ولولا ما اجتمعت له قلوبهم ، وبَردت عليه جلودهم ، من المناصبة بالقتال ، والإضمار للقِراع ، عن داعية ضلال أو شيطان فساد ، لرهبوا عواقبَ أحوال الولاة ، وغِبَّ سكون الأمور .

فليشددْ المهدى ــ وفقه الله ــ أزرَه لهم ، ويكتّبْ كتائبه نحوهم ، وليضع الأمر على أشدّ ما يحضره فيهم ، وليوقن أنه لا يُعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت دُربةً لفسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعيةً إلى عودتهم ، وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن ببابه من الوفود الذين إن أقرّهم على تلك العادة ، وأجراهم على ذلك الأدب لم يبرح فى فَتْقٍ حادث ، وخلاف حاضر ، لا يصلُح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا . وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُّربة ، لم يصل إلى ذلك بالعقوبة المُفْرِطة ، والمئونة الشديدة . والرأيُ للمهدى ــ وفقه الله ــ ألّا يقيل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم ، حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحرّ بهم القتل ، ويُحدِق بهم الموت ، ويُحيط بهم البلاء ، ويُطبق عليهم الذل . فإن فعل المهدىّ بهم ذلك كان مقطعةً لكل عادةِ سوء فيهم ، وهزيمةً لكل بادرة شرّ منهم . واحتمال المهدى مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه غزواتٍ كثيرة ، ونفقاتٍ عظيمة .

قال المهدى : قد قال القوم فاحكم يا أبا الفضل .

فقال العباس بن محمد : أيها المهدى ، أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جنبات الصواب ، وتعدّوا أموراً قصّر بنظرهم عنها أنه لم تأت تجاربهم عليها .

وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تُنفَق، والجنود ألا تفرّق، وبأن لا يُعْطَى القومُ ما طَلبوا، ولا يُبذل لهم ما سألوا، وجاء بأمر بين ذلك، آستصغاراً لأمرهم وآستهانة بحربهم، وإنما يَهِيجُ جسيماتِ الأمورِ صغارُها.

وأما علىٌّ فأشار باللين وإفراط الرفق. وإذا جَرّد الوالى لمن غَمط أمرَه وسَفِه حقَّه، اللينَ بَحتا، والخيرَ مَحضا، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوبَ على لينه، ولا بشرٍّ ٥ يَحيشهم[1] إلى خيره؛ فقد مَلَّكهم الخلعَ لِعُذْرِهم ووسّع لهم الفُرْجة لِثَنْى أعناقهم، فإن أجابوا دعوته، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطرّهم، ولا شدةِ حالٍ أخرجتهم، لم يزل ذلك يهيج عزة فى نفوسهم، ونزوة فى رءوسهم، يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم؛ ويصرفون بها رأىَ المهدى فيهم. وإن لم يقبلوا دعوته، ويُسرعوا لإجابته باللّين المحض والخير الصّراح، فذلك ما عليه الظنُّ بهم، والرأىُ فيهم، ١٠ وما قد يُشبه أن يكون من مِثْلهم؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يخطُر على قلب بشر، ولا تُدركه الفِكَر، ولا تعلمه نفس؛ ثم دعا الناس إليها ورغّبهم فيها؛ فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يُعْصَبوا بشدةٍ لا لينَ فيها، وأن يُرْمَوْا بشرٍّ لا خيْرَ ١٥ معه. وإذا أضمر الوالى لمن فارق طاعتَه وخالف جماعته، الخوفَ مفردا والشرَّ مجرداً، ليس معهما طمع يكسرهم، ولا لين يَثْنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلَهم الحميّةُ من الشدة، والأنفةُ من الذلّة، والامتعاضُ من القَهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادى فى الخلافِ، والاستبسال فى القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكُرْه، ويُذعنوا بالقَهْر، على ٢٠ بِغْضَة لازمة، وعداوة باقية، تُورث النفاق، وتُعْقِب الشقاق، فإذا أمكنتْهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قَويت لهم حال، عاد أمرُهم إلى أصعبَ وأغلظَ وأشدَّ مما كان.

---

(١) يحيشهم: يجعلهم يفزعون.

وقال : فى قول الفضل أيها المهدى ، أكْفَى دليل ، وأوضحُ برهان ، وأبْيَنُ خبرٍ بان . قد اجتمع رأيه ، وحَزُم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم ، وتوجيه البعوث نحوهم ، مع إعطائهم ما سألوا من الحق ، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل .

٥ قال المهدى : ذلك رأى .

قال هارون : خلطتَ الشدة أيها المهدى باللين ، فصارت الشدة أمرَّ فطامٍ لما تكره ، وعاد اللين أهدى قائدٍ إلى ما تُحب ؛ ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدى : لقد قلتَ قولا بديعا ، وخالفت به أهلَ بيتك جميعا ، والمرء مُتَّهم بما قال ، وظنين بما آدَّعى ، حتى يأتى ببينة عادلة ، وحجة ظاهرة ، ١٠ فاخْرُج عما قلت .

قال هارون : أيها المهدى ، إن الحرب خُدعة ، والأعاجم قومٌ مَكَرة ، وربما اعتدلت الحالُ بهم ، واتفقت الأهواء منهم ، فكان باطن ما يُسِرُّون على ظاهر ما يعلنون ؛ وربما افترقت الحالان ، وخالف القلب اللسان ، فانطوى القلبُ على مَحجوبةٍ تُبْطَن ، واستسرّ بمدخولةٍ لا تُعْلَن ؛ والطبيب الرفيق بطِبِّه ، البصيرُ ١٥ بأمره ، العالم بمقدَم يده ، وموضع ميسمِه ، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء ؛ فالرأى للمهدى ـ وفقه الله ـ أن يَفِرّ باطنَ أمرهم فَرَّ المُسِنَّة ، ويَمْخضَ ظاهرَ حالهم مَخْضَ السِّقاء ، بمتابعة الكتب ، ومظاهرة الرسل ، وموالاة العيون ، حتى تُهتَك حُجُبُ غيوبهم ، وتُكْشَفَ أغطيةُ أمورهم ؛ فإن آنفرجت[1] الحال له وأفضت الأمور به إلى تغيير حال أو داعيةِ ضلال ، آشتملت الأهواء عليه ، ٢٠ وانقاد الرجال إليه ، وامتدت الأعناق نحوه ، بدِين يعتقدونه . وإثم يستحلّونه ، عَصَبَهم بشدّة . لا لينَ فيها ، ورماهم بعقوبة لا عفوَ معها ، وإن انفرجت الغيوب ، واهتُصرت السُّتور ، ورُفعت الحجب ، والحالُ فيهم مَرِيعة ، والأمور بهم معتدلة ، عن أرزاق يطلبونها ، وأعمال يُنكرونها ، وظُلامات يدّعونها ، وحقوق يسألونها ،

(١) فى بعض الأصول « انكشفت » .

بماتّةِ سابقتِهم ، ودالّةِ مناصحتهم . فالرأى للمهدى ـ وفقه الله ـ أن يتسع لهم بما طلبوا ، ويتجافى لهم عما كرهوا ، ويَشْعَبَ من أمرهم ماصَدَعوا ، ويَرْتق من فَتْقهم مافتقوا : ويولّيَ عليهم من أحبّوا ، ويُداوي بذلك مَرَضَ قلوبهم ، وفسادَ أمورِهم ؛ فإنما المهدى وأمّته وسوادُ أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق ، والوالد الشفيق ، والراعى الحَدِب ، الذى يحتال لمرابِض غنمِه ، وضوالِّ رعيته ، حتى يبرئَ المريضةَ من داءِ علتها ، ويرد الضالّة إلى أُنس جماعتها . ثم إن خراسان بخاصةٍ لهم ذالّة محمولة ، وماتّة مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوقٌ واجبة ؛ لأنهم أيدى دولته ، وسيوفُ دعوته ، وأنصار حقه ، وأعوان عدله . فليس من شأن المهدى الاضطغانُ عليهم ، ولا المؤاخذة لهم ، ولا التوعُّر بهم ، ولا المكافأة بإساءتهم ؛ لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفةً قبل أن تقوى ، ومحاولةَ قطع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلظ ، أحزمُ فى الرأى وأصحُّ فى التدبير ، من التأخير لها والتهاونِ بها ، حتى يلتئم قليلُها بكثيرها ، وتجتمعَ أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدى : ما زال هارون يقع وَقْع الحيا ، حتى خرج خروج القِدْح مما قال ، وانسلّ انسلال السيف فيما ادعى ، فدعوا ما قد سَبَق موسى فيه أنه هو الرأى ، وثَنَّى بعده هارون ، ولكن مَن لأعِنَّة الخيل ، وسياسةِ الحرب ، وقيادة الناس ، إن أمعن بهم اللجاج ، وأفرطت بهم الدالّة ؟

قال صالح : لسنا نبلغ أيها المهدى بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسة رأيِك ، وبعضَ لحظات نظرك ؛ وليس ينفضّ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ، ذو دين فاضل ورأى كامل ، وتدبير قوىّ ، تُقلّده حربك ، وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ، ويضطلع بالأعباء الثقيلة . وأنت بحمد الله ميمون النقيبة ، مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم ؛ فليس يقع اختيارُك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتُسند إليه ثَغْرَك إلا أراك الله ما تُحب ، وجمع لك منه ما تريد .

قال المهدى : إنى لأرجو ذلك . لقديم عادة الله فيه ، وحسن معونته عليه .

ولكن أحب الموافقة على الرأى ، والاعتبار للمشاورة فى الأمر المهم .

قال محمد بن الليث : أهلُ خراسان ـ أيها المهدى ـ قوم ذوو عزة ومَنَعة ، وشياطينُ خَدَعَة زُروع الحميّة فيهم نابتة ، وملابسُ الأنفة عليهم ظاهرة ، فالرَّوِيَّة عنهم عازبة ، والعجلة فيهم حاضرة ، تسبق سيولهم مطرَهم ، وسيوفُهم عَذَلَهم ، ٥ لأنهم بين سِفْلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظرَ عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلجمون إلا بشدّة ولا يُفطمون إلا بالقهر ؛ وإن ولّى المهدى عليهم وضيعاً لم تَنْقَد له العظماء ، وإن ولّى أمْرَهم شريفاً تحامل على الضعفاء . وإن أخّر المهدىّ أمرَهم ودافَعَ حَرْبَهم حتى يُصيب لنفسه من حشمِه ومواليه ، أو بنى عمه أو بنى أبيه ، ناصحاً يتفق عليه أمرهم ، وثقةً تجتمع له أملاؤهم ، بلا أنفة تلزمهم ، ولا حميّة تَدْخلهم ، ولا عَصبية تُنَفِّرهم ، ١٠ تنفست الأيام بهم ، وتراخت الحالُ بأمرهم ، فدخل بذلك من الفساد الكبير والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحبُ هذه الصفة وإن جدّ ولا يَستَصْلحُه وإن جَهَد ، إلا بعد دهر طويل ، وشر كبير . وليس المهدى ـ وفقه الله ـ فاطماً عاداتِهم ولا قارعاً صَفَاتَهم بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عِدْلَ فى ذلك بهما : أحدهما لسان ناطق موصول بسَمعك ، ويدٌ ممثّلة لعينك ، وصخرة لا تُزَعْزَع ، وبُهْمَة ١٥ لا ينثنى ، وبازِلٌ لا يُفزعه صوتُ الجُلجل ، نقىّ العِرْض ، نزيه النفس ، جليل الخطر ، قد اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمّته ، فجعل الغرضَ الأقصى لعينِه نُصْباً ، والغرض الأدنى لقدَمه موطناً ، فليس يُغفل عملاً ، ولا يتعدى أملاً وهو رأس مواليك ، وأنصحُ بنى أبيك رجلٌ قد غُذّى بلطيف كرامتك ، ونبَتَ فى ظل دولتك ونشأ على قويم أدبك ؛ فإن قلدته أمرهم ، وحمّلته ثِقلهم ، وأسندت ٢٠ إليه ثغرهم : كان قُفْلاً فَتَحه أمْرُك ، وباباً أغلَقَهُ نهيُك ، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصافَ بينه وبينهم حاكماً . وإذا حكّم النصفة وسلك المَعدلة فأعطاهم مالهم وأخذ منهم ما عليهم ، غرس لك فى الذى بين صدورهم ، وأسكن لك فى السُّوَيداء داخل قلوبهم طاعةً راسخة العروق ، باسقة الفُروع ، مُتمثّلة فى حواشى عوامِّهم ، متمكّنة من قلوب خواصهم ؛ فلا يبقى فيهم ريب إلا نَفَوْه ، ولا يلزمهم حق إلا ٢٥ أدَّوْه ، وهذا أحدهما .

والآخر عُود من غَيْضتك ، ونَبْعة من أرومتك ، فتىّ السن ، كهل الحلم ، راجح العقل ، محمود الصّرامة ، مأمون الخلاف ، يُجرِّد فيهم سيفَه ، ويبسط عليهم خيرَه بقدر مايستحقون ، وعلى حسب مايستوجبون ، وهو فلان أيها المهدى ، فسلِّطه ـ أعزك الله ـ عليهم ، ووجّهه بالجيوش إليهم ، ولا تمنعك ضراعة سنّه وحداثة مولده ؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشك والجهل مع الكُهولة ؛ وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طَبعكم الله عليه واختصّكم به من مكارم الأخلاق ، ومَحامد الفِعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصَرامة الأنفس ، كفراخ عِتاقِ الطير المُحكَمَةِ لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب ؛ فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت فى صدوركم ، مَزروع فى قلوبكم ، مستحكم لكم ، متكامل عندكم ، بطبائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله : أفتاء أهلِ بيتك أيها المهدى فى الحلم على ما ذُكر ، وأهلُ خراسان فى حال عِزٍّ على ماوصف . ولكنْ إن ولّى المهدىُّ عليهم رجلا ليس بقديم الذّكر فى الجنود ، ولا بنَبيه الصوت فى الحروب ، ولا بطويل التجربة للأمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة فى الأعداء ، دخل من ذلك أمران عظيمان ، وخَطران مَهولان : أحدهما أن الأعداء يغتمزونها منه ، ويحتقرونها فيه ، ويجترءون بها عليه فى النُّهوض به والمُقارعة له والخلاف عليه ، قبل الاختبار لأمره ، والتكشُّفِ لحاله ، والعِلْم بطباعه . والأمر الآخر أن الجنود التى يقود ، والجيوش التى يسوس ، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ، ولم يعرفوه بالصّوت والهيبة ، انكسرت شجاعتُهم ، وماتت نجدتهم ، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم ووقوع معرفتهم . وربما وقع البَوار قبل الاختبار . وبباب المهدى ـ وفقه الله ـ رجلٌ مَهيب نبيهٌ حَنيكٌ صَيِّتٌ ، له نسب زاكٍ وصوتٌ عال ، قد قاد الجيوش ، وساس الحروب ، وتألف أهلَ خُراسان واجتمعوا عليه بالمقة ، ووَثِقوا به كل الثّقة ؛ فلو ولاه المهدى أمرَهم لكفاه الله شرهم .

قال المهدى : جانبتَ قصد الرَّميَّة ، وأبيتَ إلا عَصبية ، إذ رأيُ الحَدَثِ

من أهل بيتنا كرأى عشرة حُلماء من غيرنا ، ولكن أين تركتم ولى العهد ؟

قالوا : لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيهَ جدِّه ، ونسيجَ وحده ، ومن الدين وأهله بحيث يقصُر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عز وجل قد حَجَب عن خَلْقه ، وسَتَر من دون عِباده ، عِلْمَ ما تختلف به الأيام ، ومعرفةَ ما تجرى به المقادير ، من حوادث الأمور وريب المنون ، المخترِمَة لخوالى القرون ومواضى الملوك ؛ فكرهْنا شُسُوعه عن محلةِ المُلْك ، ودار السلطان ، ومقرّ الإمامة والولاية ، وموضع المدائن والخزائن ، ومُستقرّ الجنود ، وموضع الوُجوه ، ومجمع الأموال التى جعلها الله قُطباً لمدار الملك ، ومِصْيدةً لقلوب الناس ، ومَثابة لإخوان الطمع ، وثُوّار الفِتَن ، ودواعى البِدَع ، وفرسان الضلال ، وأبناء المُروق ؛ وقلنا : إن وجّه المهدى ولىّ عَهْدِه لحَدَث فى جيوشه وجنودِه ماقد حدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهدى أن يُعقِبه بغيره ، إلا أن ينهض إليهم بنفسه ؛ وهذا خطرٌ عظيم ، وهَوْل شديد ؛ وإن تنفست الأيام بمَقامه ، واستدامت الحال بأيامه ، حتى يقع عَرَض لا يستغنى فيه ، أو يحدث أمرٌ لابد فيه منه ، صار ما بعده مما هو أعظمُ هَوْلًا وأجل خطرا ، له تَبَعاً وبه مُتَّصلا .

قال المهدى : الخطبُ أيسر مما تذهبون إليه ؛ وعلى غير ما تصفون الأمر عليه ، نحن أهلَ البيت . نجرى من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابقٍ من العلم ، ومحتوم من الأمر ، قد أنبأت به الكُتب ، وتتابعت عليه الرسل ، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا ، وتكامل بحَذافيره عندنا ، فبِهِ نُدبّر ، وعلى الله نتوكل : إنه لابدّ لولىّ عهدى ـ وولىُّ عهدى عقبى بعدى ـ أن يقود إلى خُراسان البعوث ، ويتوجّه نحوها بالجنود .

أما الأول فإنه يُقدّم إليهم رُسُله ؛ ويُعْمِل فيهم حِيَله ، ثم يخرج نَشِطاً إليهم ، حَنِقاً عليهم ، يريد ألّا يدع أحدا من إخوان الفتن ، ودواعى البِدَع ، وفُرسان الضلال ، إلا توطّأه بحرّ القتل ، وألبسه قناع القهر ، وطوّقه طوقَ الذُّل . ولا أحداً من الذين عملوا فى قَصّ جناح الفتنة ، وإخماد نار البدعة ، ونصرةُ ولاة الحق ،

إلا أجرى عليهم دِيَمَ فضلِهِ ، وجداولَ بَذْله ، فإذا خرج مُزْمعاً به مُجمعاً عليه ؛ لم يَسِر إلا قليلا حتى يأتيه أنْ قد عَمِلتْ حِيَله ؛ وكدحت كتُبه ؛ ونفذت مكايده ؛ فهدأت نافرةُ القلوب ، ووقعت طائرة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا ؛ فيميل نظراً لهم وبرًّا بهم وتعطّفاً عليهم ، إلى عدُوّ قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقَهم ، ومنع حُجّاجَهم بيتَ الله الحرام ، وسَلب تجارَهم رزقَ الله الحلال . ٥

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون ، وبَذْلِ مايَسْألون ، فإذا سمعت الفِرَق بقرانها له ، وجَنَحَ أهلُ النواحى بأعناقهم نحوه ، فأصغت إليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة ، وقدِمَت عليه الوفود ، قصد لأول ناحية بخعت بطاعتها ، وألقت بأزمتها ، فألبسها جَناحَ نعمته ، وأنزلها ظلّ كرامته ، وخصّها بعظيم حِبائه ، ثم عمّ الجماعة بالمَعْدَلَة ؛ وتعطّف عليهم بالرحمة ، ١٠ فلا تبقى فيهم ناحية دانية ، ولا فِرقة قاصية ، إلا دخلت عليها بركتُه ، ووصلت إليها منفعته ، فأغنى فقيرَها ، وجَبرَ كسيرها ، ورفع وَضيعها ، وزاد رفِيعَها ، ماخلا ناحيتين : ناحيةً يغلب عليهم الشقاء وتستميلهم الأهواء فتستخف بدعوته ، وتُبطئ عن إجابته ، وتتثاقل عن حقه ، فتكون آخرَ مَن يَبعث ، وأبطأَ من يُوَجّه ، فيضطمر عليها موْجِدَةً ، ويبتغى لها علّة ، لا يلبث أن يجدها بحقٍ يلزمهم ؛ ١٥ وأمرٍ يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحرُّ فيهم القتل ، ويحيط بهم الأسْر ، ويُفنيهم التتبّع ، حتى يُخرب البلاد ، ويُؤتِم الأولاد . وناحيةً لا يبسط لهم أماناً ، ولا يقبل لهم عهداً ، ولا يجعل لهم ذمة ؛ لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتدرّع جلباب الفِتنة ، ورَبض فى شقّ العصا . ولكنه يقتل أعلامَهم ، ويأسر قوّادهم ، ويطلب هُرّابهم فى لُجَج البحار ، وقُلل الجبال ، وخَمَر الأودية ، ٢٠ وبطون الأرض ، تقتيلا وتَغليلا وتَنكيلا ؛ حتى يَدع الدّيار خرابا ، والنّساء أيامى . وهذا أمرٌ لا نَعرف له فى كُتبنا وقتاً ، ولانصحّح منه غير ماقلنا تفسيرا .

وأما موسى ولى عهدى ، فهذا أوان توجّهه إلى خراسان ، وحُلوله بجُرْجان ؛ وما قضى الله له من الشخوص إليها والمُقام فيها ، خيرٌ للمسلمين مَغَبّةً ، وله بإذن

الله عاقبة ، من المقام بحيث يُغْمَر فى لُجج بُحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا، فيتصاغر عظيمُ فضلِه ، ويتذأّب مشرقُ نُوره ، ويُتقالّ كثير ماهو كائنٌ منه . فمن يَصحبُه من الوزراء ومن يُختارُ له من الناس ؟

قال محمد بن الليث : أيها المهدى ، إن ولىّ عهدِك أصبح لأُمتك وأهل ملتك عَلما قد تثنّت نحوه أعناقُها ، ومُدّتْ سَمْتَه أبصارُها ، وقد كان لقرب داره منك ، ومحلّ جواره لك ، عُطُل الحال ، غُفْل الأمر ، واسع العذر ، فأما إذا انفرد بنفسه ، وخلا بنظره ، وصار إلى تدبيره ، فإن من شأن العامة وأمراء الأمة أن تتفقد مخارج رأيه ، وتستنصِتَ لمواقع آثاره ، وتسألَ عن حوادث أحواله ، فى برّه ومَرْحَمَتِه ، وإقساطه ومَعدلته ، وتدبيره وسياسته ، ووزرائه وأصحابه ، ثم يكون ماسيق إليهم أغلبَ الأشياء عليهم ، وأملكَ الأمور بهم ، وألزمها لقلوبهم ، وأشدَّها استمالة لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم . فلا يفتأ المهدى ـ وفقه الله ـ ناظراً له فيما يُقوّى عَمد مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ، ويستجمع رضا أُمته ، بأمر هو أزْين لحاله ، وأظهر لجماله ، وأفضلُ مَغَبّةً لأمره ، وأجلُّ موقعا فى قلوب رعيته ، وأحمدُ حالاً فى نفوس أهل مِلّتِه . ولا أوقع مع ذلك بأستجماع الأهواء له ؛ وأبلغ فى استعطاف القلوب عليه ، من مَرْحَمَةٍ تَظْهر من فعله ، ومَعْدلة تنتشر عن أثره ، ومحبةٍ للخير وأهله ؛ وأن يَختار المهدىُّ ـ وفقه الله ـ من خيار أهل كل بلدة ، وفُقهاء أهلِ كلّ مصر . أقواماً تسكن العامةُ إليهم إذا ذُكروا ، وتأنس الرعيةُ بهم إذا وُصفوا ، ثم تُسهّل لهم عمارة سُبُل الإحسان ؛ وفَتح باب المعروف كما قد كان فُتح له وسهل عليه .

قال المهدى : صدقت ونصحتَ . ثم بعث فى ابنه موسى ؛ فقال : أىْ بُنَىّ ، إنك قد أصبحتَ لِسَمْتِ عيون العامة نُصْبا ، ولَمَثْنَى أعطافِ الرعية غاية ، فحسنتُك شاملة ، وإساءتك نامية ، وأمرُك ظاهر . فعليك بتقوى الله وطاعته ، فاحتمل سخط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ؛ فإن الله عزّ وجلّ كافيك مَن أسْخطَه عليك إيثارُك رضاه ؛ وليس بكافيك مَنْ يُسْخِطه عليك إيثارُك رضامَنْ سواه.

ثم اعلم أن الله تعالى فى كل زمان عِتْرة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه ، وخبايا لنُصرة حقه ، يجدِّد حبلَ الإسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنُصرتهم ، ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله أعوانا ، يَسُدون الخَلل ، ويُقيمون المَيل ، ويدفعون عن الأرض الفساد ؛ وإنّ أهل خراسان أصبحوا أيدىَ دولتِنا ، وسيوفَ دعوتِنا الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، ونصرف نزول العظائم بمُناصحتهم ، وندافع ريبَ الزمان بعزائمهم ، ونُزاحم ركنَ الدهرِ ببصائرهم . فهم عمادُ الأرض إذا أرجفت كُنفُها ، وحُتوف الأعداء إذا أبرزت صَفحتها ، وحصونُ الرعية إذا تضايقت الحال بها ؛ قد مضت لهم وقائع صادقات ، ومواطن صالحات ، أخمدت نيرانَ الفتن ، وقَصمت دواعى البِدَع ، وأذلّت رقاب الجبّارين ؛ ولم ينفكّوا كذلك ماجَرَوْا مع ريح دولتنا ، وأقاموا فى ظلّ دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا التى أعزّ الله بها ذِلّتهم ، ورفع بها ضَعَتهم ، وجعلهم بها أرباباً فى أقطار الأرضين ، ومُلوكا على رقاب العالمين ، بعد لباس الذُّل ، وقِناع الخوف ، وإطباق البلاء ، ومُحالفة الأسى ، وجَهد البأس والضُّر . فظاهرْ عليهم لِبَاس كرامتك ، وأنزلهم فى حدائق نعمتك . ثم اعرف لهم حقّ طاعتهم ، ووسيلة دالّتهم ، وماتة سابقتهم ، وحُرمةَ مُناصحتهم ، بالإحسان إليهم ، والتّوسعة عليهم ، والإثابة لمُحسنهم ، والإقالة لمُسيئهم .

أىْ بُنَىّ ؛ ثم عليك العامةَ ، فاستَدْعِ رضاها بالعدل عليها . واستَجْلِبْ مودّتها بالإنصاف لها ، وتحسّنْ بذلك لربك ، وتزيّن به فى عين رعيّتك ، واجعل عُمّال القَدْر ، وولاةَ الحُجج ، مقدّمةً بين يدى عملك ، ونَصَفَةً منك لرعيتك ؛ وذلك أن تأمر قاضى كلّ بلد ، وخيارَ أهل كلّ مصر ، أن يختاروا لأنفسهم رجلا تُولّيه أمرَهم ، وتجعل العدلَ حاكما بينه وبينهم ، فإن أحسن حُمدت ، وإن أساء عُذرت . هؤلاء عمال القدر ؛ وولاة الحُجج . فلا يضيعنّ عليك مافى ذلك ـ إذا انتشر فى الآفاق وسبق إلى الأسماع ـ من انعقاد ألسنةِ المُرجفين ، وكَبْت قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكّنّ فى ظل كرامتك

نازلا ، وبعُرَا حبلِك متعلّقا ، رجلان : أحدهما كريمةٌ من كرائم رجالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخر له دِينٌ غير مغموز ، وموضعٌ غير مدخول ، بصيرٌ بتقليب الكلام ، وتصريف الرأى ، وأنحاء الأدب ، ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف
٥ الخطوب ، يضع آداباً نافعة ، وآثاراً باقية ، من تجميل محاسنك ، وتحسين أمرك ، وتحلية ذكرك . فتستشيره فى حربك ، وتُدخله فى أمرك . فرجُلٌ أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلّتى ، ويرعى فى خُضرة جِنانى ؛ ولا تدعْ أن تختار لك من فُقهاء البلدان ، وخِيار الأمصار . أقواماً يكونون جيرانَك وسُمّارَك ، وأهلَ مشاورتك فيما تُورد ، وأصحابَ مُناظرتك فيما تُصْدِر . فسِر على بركة الله ، أصْحَبَك اللهُ من
١٠ عونه وتوفيقه دليلًا يهدى إلى الصواب قلبك ، وهادياً يُنطق بالخير لسانَك .

وكُتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد [١] .

باب فى مداراة العدوّ

للهند — فى كتاب للهند : أنّ العدو الشديد الذى لا تقوى له لا ترد بأسه عنك بمثل الخشوع والخُضوع له ، كما أنّ الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بلينه
١٥ وانثنائه معها .

وقالوا : ازْفِنْ [٢] للقرد فى دَوْلته .

أخذه الشاعر فقال :

لا تعبدنْ صَنمًا فى فاقة نزلتْ * وازْفِن بلا حَرَج للقرد فى زمنه

لأحمد بن يوسف — وقال أحمد بن يوسف الكاتب : إذا لم تقدر أن تَعَضّ يدَ عدوِّك فقبِّلها .

لسابق البربرى — ٢٠ وقال سابق البَرْبَرِىّ :

وداهِنْ إذا ما خِفْتَ يوماً مُسَلَّطاً * عليك ، ولَنْ يحتالَ مَن لا يُداهِنُ

---

(١) كذا فى الأصل . والذى يذكره المؤرخون أن خروج موسى الهادى إلى جرجان كان فى سنة ١٦٦ ، وكانت وفاة المهدى فى شهر المحرم سنة ١٦٩ بعد الهجرة .

(٢) ازفن : ارقص .

للحكماء — وقالت الحكماء : رأسُ العقل مغافصة [١] الفُرصة عند إمكانها . والانصرافُ عما لا سبيل إليه .

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

بلاءٌ ليس يشـــبهُهُ بَلاءٌ * عَـداوةُ غيرِ ذي حَسَبٍ ودِينِ
يُبيحُكَ منـــه عِرْضاً لم يَصُنْهُ * ويَرْتَعُ منك فى عِرْضٍ مَصُونِ

٥

التحفظ من العدوّ وإن أبدى لك المودّة

للحكماء — قالت الحكماء : احذَر المَوتور ولا تطمئنّ إليه ، وكُن أشدَّ ما تكون حذراً منه أَلْطَفَ ما يكون مُداخلةً لك ؛ فإنما السلامةُ من العدو بتباعُدك منه ، وانقباضِك عنه . وعند الأُنس إليه والثقة [به] تُمَكِّنه من مقاتِلك .

١٠ قالوا : لا تطمئنّ إلى العدوّ وإن أبدى لك المُقاربة ، وإن بسط لك وجهه وخَفض لك جناحه ؛ فإنه يتربّص بك الدوائر . ويُضمر لك الغوائل ولا يَرتجى صلاحاً إلا فى فسادك ، ولا رفعةً إلا بسُقوط جاهك .

للأخطل يحذر بنى أمية — كما قال الأخطل :

بنِي أُمَيَّـــةَ إنى ناصحٌ لَكُمُ * فلا يَبِيتَنَّ فيكم آمِناً زُفَرُ
واتَّخِذُوه عَدُوًّا إنّ شـاهدَه * وما تَغَيَّبَ من أخْلاقِهِ دَعَر
إنّ الضَغِينة تَلْقاها وإن قَدُمَتْ * كالعُرِّ يَكْمُنُ حِيناً ثم يَنْتَشِرُ

١٥

للهند — وفى كتاب الهند : الحازم يحذر عدوَّه على كل حال يحذر المُواثبة إن قَرُب والمعاودة إن بَعُد ، والكمين إن انكشف ، والاستطرادَ إن ولّى ، والكرّة إن فرّ .

لحكيم يوصى ملكا — وأوصى بعضُ الحكماء ملكا فقال : لا يكونَنّ العدوُّ الذى كشف لك عن عداوته بأخوفَ عندك من الظنين الذى يستتر لك بمُخاتلته ، فإنه ربما تخوّف الرجلُ السُّمّ الذى هو أقتل الأشياء ، وقتَله الماء الذى هو مُحيِي الأشياء ؛ وربما تخوّفَ أن تقتله الملوك التى تَملكه ، ثم تقتله العبيد التى يملكها .

٢٠

(١) المغافصة : المفاجأة والأخذ على غرة .

للأخطل

ولم يقل أحد فى العدو المندمل على العداوة مثلَ قول الأخطل :

إنّ الضغينة تلقاها وإن قَدُمت * كالعرّ يكمُن حيناً ثم ينتشرُ

للحسن بن هانئ

وقد أشار الحسنُ بن هانئ إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول :

وابْنُ عمّ لا يُكاشفُنا * قد لَبِسناهُ على غَمَرِهْ

كَمَنَ الشنْآنُ فيه لنا * كَكُمونِ النارِ فى حَجَرِهْ

وشبهوا العدوَّ إذا كان هذا فعلَه بالحية المُطرقة . قال ابنُ أخت تأبط شرّا :

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ موْتاً كما * أطْرقَ أفعى يَنفثُ السّمَ صِلّْ

بين معاوية وابن الزبير

وقال عبد الله بن الزُّبير لمعاوية ـ ويقال معاوية قالها لعبد الله بن الزبير ـ : مالى أراك تُطرق إطراق الأُفعوان فى أُصول الشجر .

للهند

وفى كتاب الهند : إذا أحدث لك العدوُّ صداقة لعلة ألجأته إليك ، فمع ذهاب العلّة رجوعُ العداوة ، كالماء تُسخّنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً والشجرةُ المُرّةُ لو طليتَها بالعسل لم تُثمر إلا مُرًّا .

لدريد

وقال دريد :

وما تَخْفَى الضغينة حيثُ كانتْ * ولا النَّظرُ المريض من الصحيح

لزهير

وقال زهير :

وما يَكُ فى صديقٍ أو عَدُوٍّ * تُخَبِّرْكَ العيونُ عنِ القلوبِ

لزياد

وقيل لزياد : ما السرور ؟ قال : من طال عمره حتى يرى فى عدوه ما يسرّه .

باب من أخبار الأزارقة

كان أول من خرج من الخوارج بعد قتل علىّ رضى الله عنه ، حَوْثَرة الأقطع ؛ فإنه خرج إلى النُّخَيْلة واجتمع إليه جماعة من الخوارج ، ومعاويةُ بالكوفة ، وقد بايعه الحسن والحُسين وقيس بن سعد بن عُبادة ؛ ثم خرج الحسن يريد المدينة ؛ فوجه إليه معاوية وقد تجاوز فى طريقه ، يسأله أن يكون المتولّىَ لحاربتهم . فقال الحسن عليه السلام : والله لقد كففتُ عنك لحقن دماء المسلمين ،

وما أحسب ذلك يسعنى ؛ فكيف أن أقاتل قوماً أنت أولَى بالقتال منهم ؟ فلما
رجع الجواب إليه وجّه إليهم جيشاً أكثرُه من أهلِ الكوفة ، ثم قال لأبى حوثرة .
تقدمْ فاكفنى أمرَ ابنك . فسار إليه أبوه ، فدعاه إلى الرجوع ، فأبى ، فداوره
فصمّم . فقال له : أىْ بنىّ ، أجيئك بابنك لعلّك تراه فتحنّ إليه ! فقال له :
يا أبتِ ، أنا والله إلى طَعنة نافذةٍ أتقلّب فيها على كعوب الرمح أشْوَقُ منى إلى ابنى . ٥
فرجع إلى معاوية فأخبره ، فقال : يا أبا حوثرة ، جارَ هذا جدا فلما نظر حوثرة
إلى أهل الكوفة قال : يا أعداء الله ! أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتَهُدُّوا سلطانه .
واليوم تقاتلون معه لتشدّوا سلطانه ؟ ثم جعل يَشُدّ عليهم ويقول :

احملْ على هٰذِى الجموعِ حَوْثَرَهْ ۞ فعَنْ قَرِيبٍ سَتَنالُ المَغْفِرَهْ

فحمل عليه رجل من طيئ فقتله ، فرأى أثر السجود قد لوّح جبهته ، ١٠
فندم على قتله .

مرداس ومقتله

وكان مرداس أبو بلال قد شهد صِفِّين مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ،
وأنكر التحكيم ، وشهد النَّهروان ونجا فيمن نجا . فلما خرج من حبس ابن زياد
ورأى شدّة الطلب للشُّراة ، عزم على الخروج ، فقال لأصحابه : إنه والله ما يسعُنا
المُقام مع هؤلاء الظالمين ، تجرى علينا أحكامُهم ، مُجانبين للعدل مُفارقين للفصْل . ١٥
والله إن الصبر على هذا لعظيم ، وإنّ تجريد السيف وإخافة السبيل لشديد ؛ ولكنا
ننتبذ عنهم ولا نجرّد سيفنا ولا نُقاتل إلا من قاتَلَنا . فاجتمع إليه أصحابه زُهاء
ثلاثين رجلا ، منهم : حُرَيْث بن حَجْل وكَهْمَس بن طلق الصَّريمى ، فأرادوا أن
يولّوا أمرهم حُرَيثا فأبى ، فولوا أمرَهم مِرداسا ، فلما مضى بأصحابه لقيهم عبدُ الله بن
رَبَاح الأنصارى ، وكان له صديقا ؛ فقال له : يا بن أخى ، أين تريد ؟ فقال : أريد ٢٠
أهرُب بدينى ودينِ أصحابى من أحكام هؤلاء الجَوَرَة . قال له : أعَلِمَ أحدٌ بكم ؟ قال :
لا . قال : فارجع . قال : أو تخاف علىّ مكروها ؟ قال : نعم ، وأن يُؤتَى بك .
قال : فلا تخف . فإنى لا أجرّد سيفا ولا أُخيف أحداً ولا أُقاتل إلا مَن قاتلنى .

ثم مضى حتى نزل آسَك ؛ فمرّ به مال يُحْمَل إلى ابن زياد وقد بلغ أصحابُه

الأربعين ، فحطّ ذلك المالَ فأخذ منه عطاءه وأعْطِياتِ أصحابه وترك ما بقى ، وقال : قُولوا لصاحبكم إنما أخذنا أعْطِياتِنا . فقال له أصحابه : لماذا تترك الباقى ؟ قال : إنهم يقسمون هذا الفىء كما يُقيمون الصلاة ، فلا تُقاتلوهم ما داموا على الصلاة .

٥ فوجّه إليهم ابنُ زياد أسلمَ بن زُرْعة الكِلابىّ فى ألفين ، فلما وصل إليهم ، قال له مرداس : اتق الله يا أسلم ، فإنا لا نُريد قتالاً ولا نُروِّع أحدا ؛ وإنما هربْنا من الظُّلم ، ولا نأخذ من الفىء إلا أعطياتنا ، ولا نُقاتل إلا مَن قاتلَنا . قال : لابد من ردّكم إلى ابن زياد . قال : وإن أراد قَتْلَنا ؟ قال : وإن أراد قتلكم . قال : فَتشْرَكُ فى دمائنا ؟ قال : نعم . فشدّوا عليه شدّة رجل واحد فهزموه ١٠ وقتلوا أصحابه .

ثم وجه إليهم ابنُ زياد عبّادا ، فقاتلهم يوم الجمعة حتى كان وقت الصلاة ، فناداهم أبو بلال : يا قوم ، هذا وقت الصلاة فوادِعُونا حتى نصلّى[وتُصلّوا[1]] . فوادَعُوهم ؛ فلما دخلوا فى الصلاة شدُّوا عليهم فقتلوهم ، وهم بين راكع وساجد وقائم فى الصلاة وقاعد . فقال عِمران بن حِطّان يرثى أبا بلال :

١٥ يا عينُ بَكّى لِمِرْداسٍ ومَصرَعه ٭ يا ربِّ مرداسٍ اجْعلنى كمرداسِ

أبقَيْتنِي هائماً أبــكى لمرزئتى ٭ فى منْزل مُوحش من بعد إيناس

أنكرتُ بَعْدَك ماقد كنتُ أعْرِفه ٭ ما الناسُ بعدك يا مرداسُ بالناسِ

إمّا شَرِبْتَ بكأس دارَ أوّلُها ٭ على القُرون فذاقوا جَرْعَة الكاسِ

فكلُّ من لم يَذُقها شاربٌ عَجِلاً ٭ منها بأنفاسِ وِرْدٍ بَعْدَ أنفاسِ

٢٠ وليس فى الفرَقِ كلها وأهل البدع أشدّ بصائر من الخوارج ، ولا أكثر اجتهادا ، ولا أوطان أنفسا على الموت ؛ منهم الذى طُعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله ويقول : عَجلت إليك ربِّ لترضى .

---

(١) زيادة عن الكامل .

ولما مالت الخوارج إلى أصبهان حاصرتْ بها عَتَّابَ بنَ وَرْقاء سبعةَ أشهر يقاتلهم فى كل يوم وكان مع عتّاب بن ورقاء رجل يقال له : شريح . ويكنى أبا هريرة ، فكان يخرج إليهم فى يوم فيناديهم :

يابنَ أبى الماحوز والأشرارِ * كيف ترونَ يا كِلابَ النارِ
شَدَّ أبى هريرَةَ الهرّارِ * يَغروكم بالليلِ والنَّهارِ
* وهوَ مِنَ الرَّحْمٰنِ فى جوَارِ *

فتعاظمهم ذلك . فكَمن له عبيدة بن هلال فضربه ، واحتمله أصحابُه ، فظنّت الخوارج أنه قد قُتل ، فكانوا إذا تواقفوا ينادونهم : مافعل الهَرّار ؟ فيقولون : مابه من بأس . حتى أبَلَّ من عِلّته ، فخرج إليهم فقال : يا أعداء الله ! أتَرَوْن بى بأسا ؟ فصاحوا : قد كنا نرى أنك لحقت بأُمك الهاوية فى النار الحامية .

فلما طال الحصار على عتّاب ، قال لأصحابه : ماتنتظرون ؟ إنكم والله ماتُؤْتَوْنَ من قلّة : وإنكم فُرسان عشائركم ؛ ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتم منهم ؛ وما بقى من هذا الحصار إلا أن تَفْنَى ذخائرُكم فيموتَ أحدُكم فيدفنَه صاحبُه ، ثم يموت هو فلا يجد مَن يدفنه ! فقاتِلوا القومَ وبكم قُوة ، من قبل أن يضعف أحدُكم عن أن يمشى إلى قِرْنه .

فلما أصبح صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج وهم غارُّون ، وقد نصب لواء لجارية يقال لها ياسَمين ، فقال : من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسَمين ! ومن أراد الجِهاد فلْيَلْحَقْ بلوائى . قال : فخرج فى ألفين وسبعمائة فارس ، فلم تشعُر بهم الخوارج حتى غَشوهم . فقاتلوهم بجِدٍ لم ترَ الخوارج مثلَه ، فقتلوا أميرَهم الزبيرَ بن علىّ ، وآنهزمت الخوارج ، فلم يتبعهم عتّاب بن ورقاء .

وخرج قُرَيْبُ بنُ مرة الأزدى وزَحّاف الطائى ، وكانا مُجتهدين بالبصرة فى أيام زياد فاعترضا النـاسّ ، فلقيا شيخاً ناسكا من بنى ضُبيعة بن ربيعة بن نزار فقتلاه ، وتنادى النـاس ، فخرج رجل من بنى قُطَيعة من الأزد بالسيف ، فناداه الناس من بعض البيوت : الحروريةَ الحروريةَ ! انجُ بنفسك . فنادوه : لسْنا

حَرُورِيّةً نحن الشُّرَط . فوقف فقتلوه .

وبلغ أبا بلال خبرُهما ، وكان على دين الخوارج إلا أنه كان لا يرى اعتراضَ الناس ، فقال : قُرِيبٌ ، لا قرّبه الله من الخير ، وزحّافٌ ، لاعفا الله عنه ، فلقد ركبَاها عشواء مُظلمة .

٥ ثم جعلا لايَمُرّان بقبيلة إلا قتلا مَنْ وجَدا فيها ، حتى مرّا ببنى علىّ بن سُود ، من الأزد ، وكانوا رُماةً ، وكان فيهم مائة يُجيدون الرمى ، فرموهم رمياً شديدا ، فصاحوا : يابنى علىّ ، البُقيا ، لارِماء بيننا . فقال رجل منهم :

لا شىء للقوم سوى السهام ٭ مشحوذة فى غلس الظلام

فهربت عنهم الخوارج ؛ فاشتقّوا مقبُرة بنى يَشْكُر حتى خرجوا إلى مُزَيْنة ، ١٠ واستقبلهم الناس فقُتلوا عن آخرهم .

زياد والخوارج

ثم عاد الناس إلى زياد ، فقال : ألا يَنهَى كلُّ قوم سفهاءهم ؟ فكانت القبائل إذا أحست بخارجى فيهم أوثقوه وأتوا به زيادا ، فمنهم من يَحبسه ومنهم من يقتله .

ولزيادٍ أخرى فى الخوارج : أنه أُتى بامرأة منهم ، فقتلها ثم عرّاها ، فلم تخرج النساء إلا بعد زياد ، وكنّ إذا أُرغِمْن على الخروج قلن : لولا التَّعرية لسارعْنا .

من فرسان الخوارج

١٥ ومن مشاهير فرسان الخوارج : عمرو القَنَا ، من بنى سعد بن زيد مناة ؛ وعَبيدة بن هلال ، من بنى يشكر بن بكر بن وائل ، وهو الذى طَعن صاحب المهلّب فى فخذه ؛ فشكّها مع السرج ؛ وهما اللذان يقول فيهما ابن المُنجِب السدوسى من فُرسان المهلّب ، وكان قال له مولاه خِلاج : وددت أنّا فَضضنا عسكرهم حتى أصير إلى مستقرّهم فأستلبَ منه جاريتين ، إحداهما لك والأخرى لى :

٢٠ أخِلَاجُ إنك لن تُعانِقَ طَفْلَةً ٭ شَرِقاً بها الجـادِىُّ كالتِّمْثال

حتى تُعَانِقَ فى الكتيبةِ مُعلِما ٭ عَمْرَو القَنَا وعَبيدةَ بنَ هِلال

وترى المُقَعْطَرَ فى الكتيبة مُقْدِماً ٭ فى عُصْبةٍ قَسَطُوا مع الضُّلّال

والمُقَعْطَر : من مشاهير فرسانهم ، وقَطرىّ ، أنجدُهم قاطبة ، وصالح بن مِخْراق ، من بُهَمهم ، وكذلك سعد الطلائع .

المهلب في نفر من الخوارج

ولما اختلف أمرُ الخوارج وانحاز قَطَرِيٌّ فيمن معه وبقي عبدُ ربّه ، قال المهلّب لأصحابه : إن الله تعالى قد أراحكم من أقرانِ أربعة : قطريّ بن الفُجاءة ، وصالح بن مِخراق ، وعَبيدة بن هلال ، وسعد الطلائع ؛ وإنما بين أيديكم عبدُ ربه في خُشَار من خُشار الشيطان .

تعطش الخوارج إلى القتال

وكانت الخوارج تُقاتل على السوط يؤخذ منها والعِلْق الخسيس أشدَّ قتال ، ٥ وسقط في بعض أيامهم رُمح لرجل من مُرَاد من الخوارج ، فقاتلوا عليه حتى كثر الجراحُ والقتل ، وذلك مع المغرب ، والمُرادي يرتجز :

اللَّيلُ ليلٌ فيهِ وَيْلٌ ويلُ * وسالَ بالقومِ الشُّراةِ السَّيْلُ

* إن جازَ للأعداء فينا قَوْلُ *

تفرق كلمة الخوارج

وتفرقت مقالة الخوارج على أربعة أضرب : فقال نافعُ بن الأزرق : ١٠ بآستعراض الناس والبراءة من عثمان وعليّ وطلحة والزبير ، واستحلال الأمانة وقتلِ الأطفال .

وقال أبو بَيْهَس هَيصم بن جابر الضُّبَعِيّ : إن أعداءنا كأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم : يحلّ لنا المُقام فيهم كما أقام رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم وأقام المسلمون بين المشركين . وأقول : إن مناكحتهم ومواريثهم تجوز ، لأنهم منافقون ١٥ يظهرون الإسلام وإن حكمهم عند الله حكم المشركين .

وقال عبد الله بن إباض : لا نقول فيمن خالفنا إنه مُشرك ، لأن معهم التوحيدَ والإقرارَ بالكتاب والرسول ، وإنما هم كُفَّارٌ للنِّعم ، ومواريثُهم ومناكِحُهم والإقامة معهم : حِلٌّ ، ودعوةُ الإسلام تجمعهم .

وقالت الصُّفْرِيّة بقول عبد الله بن إباض ، ورأت القعودَ ، حتى صار عامتهم ٢٠ قَعَداً ؛ وإنما سُمّوا صُفْرِيَّةً لاصفرار وجوههم ، وقيل : لأنهم أصحاب ابن الصَّفّار .

كتاب الزبرجدة

في الأجواد والأصفاد

فرش كتاب الزبرجدة

لابن عبد ربه — قال الفقيه أبو عمر أحمدُ بن محمد بن عبد ربه ، تغمده الله برحمته : قد مضى قولنا في الحروب ومايدخلها من النقص والكمال ، وتقدُّم الرجالِ ، على منازلهم من الصبر والجلد ، والعُدّة والعَدد . ٥

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد ، إذ كان أشرفُ ملابس الدنيا وأزينُ حللها وأجلَبُها لحمد ، وأدفعها لذمّ ، وأسترها لعيب : كرمَ طبيعة يتحلى بها السمحُ السريّ ، والجواد السخي . ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى ، تَسَمَّى بها ، فهو الكريم عز وجل . ومن كان كريماً من خَلْقِه ، فقد تسمَّى باسمه ، واحتذى على صفته . ١٠

للنبي صلى الله عليه وسلم — وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه .

وفي الحديث المأثور : الخَلق عِيال الله ، فأحَبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله .

للحسن والحسين — وقال الحسن والحسين عليهما السلام لعبد الله بن جَعفر : إنك قد أسرفتَ في بذل المال . قال : بأبي وأُمي أنتما ، إنّ الله قد عودني أن يتفضّل عليّ ، وعوّدته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطعَ العادة فيقطعَ عني . ١٥

للمأمون — وقال المأمون لمحمد بن عبّاد المهلّبي : أنتَ مِتْلاف ! قال : مَنْعُ الجودِ سوء ظنّ بالمعبود . يقول الله عز وجل : ﴿ وما أنفقتُمْ مِنْ شَيْءٍ فهُوَ يُخْلِفُهُ وهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنفِقْ بِلالا ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا . ٢٠

مدح الكرم وذمّ البخل

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : اصطناع المعروف يَقِي مصارع السوء .

وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله يُحب الجُود ومكارم الأخلاق ويُبغض سَفْسافَها .

٥ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من العرب : من سيّدُكم ؟ قالوا الجدُّ بن قيس على بُخل فيه . فقال صلى الله عليه وسلم : وأى داء أدْوَأُ من البخل .

وقال الله تعالى : ﴿ ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

لأكثم بن صيفى

وقال أكثم بن صيفيّ حكيم العرب : ذلّلوا أخلاقكم للمطالب ، وقُودوها إلى المحامد ، وعلّموها المكارم ، ولا تُقيموا على خُلق تَذُمُّونه من غيركم ، وصِلُوا من ١٠ رَغب إليكم ، وتحلّوا بالجُود يَكْسِبكم المحبّة ، ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر.

لبعض الشعراء

أخذه الشاعر فقال :

أَمِنْ خَوْفِ فَقْرٍ تَعَجَّلْتَه ۞ وأَخَّرْتَ إنفاقَ ما تَجْمَعُ

فصِرْتَ الفقيرَ وأنتَ الغَنِيُّ ۞ وما كنتَ تَعْدو الذى تصْنَع

بين سخى وبخيل

وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويُخوّفه ١٥ الفقر . فردّ عليه : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاء واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ﴾ وإنى أكره أن أترك أمراً قد وقع ، لأمرٍ لعله لا يقع .

من خطبة لخالد القسرى

وكان خالد بن عبد الله القسرى يقول على المنبر : أيها الناس ، عليكم بالمعروف ؛ فإن الله لا يُعْدِم فاعلَه جَوازِيَه ؛ وما ضعفت الناسُ عن أدائه قوِيَ اللهُ على جزائه .

٢٠ أخذه من قول الحُطيئة :

مَنْ يَفْعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ ۞ لا يَذْهَبُ العُرْفُ بين اللهِ والناس

وأخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة : يقول الله تعالى فيما أنزله على داود عليه السلام : من يفعل الخير يجده عندى ، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي .

من خطبة سعيد بن العاص

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر : مَن رزقه الله رزقاً حَسناً فَلْيُنفق منه سرّاً وجهراً ، حتى يكون أسعدَ الناس به ؛ فإنما يَتْرك ما يترك لأحد رجلين : إمّا لُمصلحٍ فلا يَقِل عليه شيء ، وإما لمُفسد فلا يبقى له شيء .

أخذه الشاعر فقال :

٥ أَسْعِد بمالِك فى الحياةِ فإنما ٭ يَبْقى خِلافَكَ مُصْلِحٌ أو مُفْسِدُ

فإذا جمعتَ لُمفْسد لم يُغْنِهِ ٭ وأخو الصلاح قليلهُ يَتَزَيَّدُ

لأبى ذر

قال أبو ذَر : إن لك فى مالك شريكين : الحَدَثان والوارث ؛ فإن آستطعت ألّا تكون أبخسَ الشركاء حظًّا فافعل .

وقال بُزُرجَمْهر الفارسى : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها ، فإنها لا تفنى ؛

١٠ وإذا أدبرت عنك فأنفِق منها فإنها لا تبقى .

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال :

لا تَبخَلَنَّ بِدُنْيا وهْىَ مُقْبِلَةٌ ٭ فليس يَنْقُصُها التَّبْذيرُ والسَّرَفُ

وإنْ تولّتْ فأحْرى أن تجود بها ٭ فالحمدُ منها إذا ما أدْبَرَتْ خَلَفُ

لكسرى فى الأسخياء

وكان كسرى يقول : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ، فإنهم أهلُ حسنِ الظنّ

١٥ بالله تعالى ، ولو أنّ أهل البخل لم يدخل عليهم من ضَرر بُخلِهم ومَذَمّةِ الناس لهم وإطباق القلوب على بُغضهم ، إلا سوء ظَنهم بربّهم فى الخَلَفِ ، لكان عظيما .

للوراق

وأخذ هذا المعنى محمود الورّاق فقال :

مَن ظَنَّ باللهِ خيْرًا جادَ مُبْتدِئاً ٭ والبُخْلُ مِن سوءِ ظَنّ المرْءِ باللهِ

بين موسى الهادى وابن يزيد

محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز قال : خرجتُ مع موسى الهادى أمير المؤمنين

٢٠ من جُرجان ، فقال لى : إمّا أن تَحملنى وإما أن أحملك . ففهمت ما أراد ، فأنشدتُه أبيات آبن صِرْمة الأنصارى .

أُوصيكمُ باللهِ أوّل وَهْلةٍ ٭ وأحسابِكُم ، والبِرُّ باللهِ أوّلُ

وإن قومُكُم سادوا فلا تَحْسُدُوهُمُ ٭ وإن كنتُمُ أهلَ السيادةِ فاعْدِلُوا

وإن أنتمُ أعْوَزْتُمُ فتعفَّفُوا ‫*‬ وإن كان فضلُ المالِ فيكم فأفضِلُوا

فأمر لى بعشرين ألفا .

لابن عباس

وقال عبد الله بن عباس : ساداتُ الناس فى الدنيا الأسخياء ، وفى الآخرة الأتقياء .

لأبى مسلم الخولانى

قال أبو مُسلم الخَوْلانى : ما شىء أحسن من المعروف إلا ثوابه ، وما كل من قدر على المعروف كانت له نيّة ؛ فإذا اجتمعت القُدرة والنية تمت السعادة . وأنشد :

إن المكارمَ كُلّها حَسَنٌ ‫*‬ والبذْلُ أحْسنُ ذلك الحَسنِ

كم عارفٍ بى لَسْتُ أعرِفُهُ ‫*‬ ومُخَبِّرٍ عنى ولم يرَنى

يأتيهمُ خبَرِى وإن بَعُدَتْ ‫*‬ دارِى وبُوعِدَ عنهمُ وطنى

إنى لَحُرٌّ المالِ مُمْتَهِنٌ ‫*‬ ولِحُرِّ عِرْضى غيْرُ مُمْتَهِن

لخالد القسرى

وقال خالد بن عبد الله القسرى : من أصابه غُبار مَرْكَبى فقد وجب علىّ شكرُه .

لابن العاص

وقال عمرو بن العاص : والله لرَجُلٌ ذكرنى ، ينام على شقّه مرة وعلى شقة أخرى ، يرانى موضعاً لحاجته ، لأوجَبُ علىّ حقا إذا سألنيها منى إذا قضيتُها له .

لعبد العزيز ابن مروان

وقال عبد العزيز بن مروان : إذا أمكننى الرجل من نفسه حتى أضع معروفى عنده ، فَيدُهُ عندى أعظمُ من يدى عنده . وأنشد لابن عبّاس رضى الله تعالى عنهما :

إذا طارِقاتُ الهمِّ ضاجَعَتِ الفتَى ‫*‬ وأعمل فِكْرَ اللّيلِ واللّيْلُ عاكِرُ

وباكَرَنى فى حاجَةٍ لم يكن لها ‫*‬ سِوَاىَ ولا من نكْبَة الدّهرِ ناصر

فَرَجْتُ بمالى هَمّه عن خِناقِه ‫*‬ وَزاوَلَهُ الهمُّ الطَّرُوقُ المُساوِرُ

وكان له فضْلٌ علىّ بِظَنّه ‫*‬ بىَ الخيرَ إنّى لِلّذِى ظَنّ شاكرُ

لأبى عقيل فى مروان

وقيل لأبى عُقَيل البليغ العِرَاقى : كيف رأيتَ مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه ؟ قال : رأيتُ رغبته فى الإنعام فوق رغبته فى الشكر ، وحاجتَه إلى قضاء الحاجة أشدّ من حاجة صاحب الحاجة .

لزياد وقال زياد : كفى بالبُخل عاراً أن آسمه لم يقع فى حَمد قطّ ، وكفى بالجود مجدا أن آسمه لم يقع فى ذم قط .

لبعض الشعراء وقال آخر :

ألاَ تَرانى وقد قطَّعتَنى عـذَلاً ٭ ماذا من الفضْلِ بيْن البُخلِ والجُودِ
٥ إلاّ يكُنْ ورقٌ يوماً أراحُ به ٭ للخابِطِين فإنى لَيّنُ العُودِ
لا يعدمُ السائلون الخيرَ أفعلهُ ٭ إما نوالاً وإما حُسْنَ مَرْدُودِ

قوله « إلا يكن ورق » يريد المال ، وضَرَبه مثلا . ويقال : أتى فلان فلانا يختبط ما عنده . والاختباط : ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائبة ، فجعل طالب الرزق مثل الخابط .

١٠ لابن خارجة قال أسماء بن خارجة : ما أُحب أن أرُدّ أحداً فى حاجة طلبها ، لأنه لايخلو أن يكون كريماً فأصون له عرضه ، أو لئيما فأصون عرضى منه .

لأرسطاطاليس وقال أرسطاطاليس : من آنتجعك من بلاده فقد آبتدأك بحسن الظن بك والثقة بما عندك .

الترغيب فى حسن الثناء واصطناع المعروف

١٥ للنبي صلى الله عليه وسلم قال النبى صلى الله عليه وسلم : إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربّه فآنظروا ما يتبعه من حسن الثناء .

من عمر إلى أبي موسى وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، وآعلم أنّ مالك عند الله مثلُ ما للناس عندك .

لبعض الحكماء وقيل لبعض الحكماء : ما أفادك الدهر ؟ قال : العِلْم به . قيل : فما أحمدُ الأشياء ؟
٢٠ قال : أن تبقى للإنسان أُحدوثةٌ حسنة .

لبعض أهل التفسير وقال بعض أهل التفسير فى قول الله تعالى ﴿ واجْعلْ لى لِسَانَ صِدْقٍ فى الآخِرِين ﴾ إنه أراد حسن الثناء من بعده .

لأكثم بن صيفى وقال أكثم بن صيفى : إنما أنتم أخبار فطيِّبوا أخباركم .

لحبيب الطائي أخذ هذا المعنى حبيب الطائى فقال :

وما ابنُ آدمَ إلا ذِكْرُ صالِحَةٍ * أو ذِكْرُ سيئةٍ يَسرِى بها الكَلِمُ
أما سَمِعْتَ بدَهْرٍ بادَ ، أُمَّتُه * جاءت بأخبارِها من بعْدِها أُمَمُ

لابن دريد وقال أبو بكر محمد بن دريد :

وإنما المرء حديث بعده * فكن حديثاً حسناً لمن وعى ٥

لبعضهم وقالوا : الأيام مزارع ، فما زرعتَ فيها حصدته .

لابن عبد ربه ومن قولنا فى هذا المعنى وغيره من مكارم الأخلاق :

يا مَن تَجَلَّد للزّما * نِ أمَا زَمانُكَ مِنكَ أَجْلَدْ
سَلِّطْ نُهاكَ على هَوَا * كَ وعُدَّ يومَكَ ليس مِن غَدْ
إن الحياةَ مزارِعٌ * فازرعْ بها ما شئتَ تَحْصُدْ ١٠
والناسُ لا يَبْقَى سِوَى * آثارِهم والعينُ تُفْقَدْ
أوَ ما سَمِعْتَ بمَنْ مَضَى * هٰذا يُذَمُّ وذاك يُحْمَدْ
المالُ إنْ أَصْلَحْتَهُ * يَصْلُحْ وإنْ أفسَدْتَ يَفْسُدْ

للأحنف وقال الأحنف بن قيس : ما ادّخَرَت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء ، شيئاً أفضلَ من آصطناع المعروف عند ذوى الأحساب . ١٥

لبعضهم وقالوا : تَربيب المعروف أولى من آصطناعه ؛ لأن اصطناعه نافلة ، وتربيبه فريضة .

وقالوا : أَحْيِ معروفَك بإماتة ذِكره ، وعظِّمه بالتَّصغير له .

للحكماء وقالت الحكماء : مِن تَمام كَرم المنْعِم التغافلُ عن حُجته ، والأقرارُ بالفضيلةِ لشاكرِ نعمتِه . ٢٠

وقالوا : للمعروف خصال ثلاث : تَعجيله وتَيسيره وستره ، فمن أخل بواحدة منها فقد بَخس المعروف حقّه وسقط عنه الشكر .

لمعاوية وقيل لمعاوية : أى الناس أحبّ إليك ؟ قال : من كانت له عندي يدٌ صالحة .

قيل : فإن لم تكن له ؟ قال : فمن كانت لى عنده يد صالحة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من عظُمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه ، فإن لم يقُم بتلك المؤونة عَرَّض النعمة للزوال .

عروة بن أدية فى صلبه

أبو اليقظان قال : أخذ عبيد الله بن زياد عروةَ بن أُدَيَّة أخا أبى بلال ، وقطع يده ورجله ، وصلبه على باب داره ؛ فقال لأهله وهو مصلوب : انظروا إلى هؤلاء الموكلين بى فأحسنوا إليهم ، فإنهم أضيافكم .

ابن المبارك عن حُميد عن الحسن قال : لأَن أقضى حاجةً لأخ لى ، أحبُّ إلىّ من عبادة سنة .

بين السندى وكوفى ذى مروءة

وقال إبراهيم بن السِّندى : قلت لرجل من أهل الكوفة ، من وجوه أهلها ، كان لا يَجِف لِبْدُه ، ولا يستريح قلبه ، ولا تسكن حركته فى طلب حوائج الرجال وإدخال المرافق على الضُّعفاء وكان رجلا مفوَّها ؛ فقلت له : أخبرنى عن الحالة التى خَفَّفتْ عنك النَّصَب وهوَّنت عليك التعبَ فى القيام بحوائج الناس ، ماهى ؟ قال : قد والله سمعتُ تغريد الطير بالأسحار ، فى فروع الأشجار ، وسمعت خَفْق أوتار العيدان ، وترجيعَ أصوات القِيان ، فما طربتُ من صوت قط ، طَرَبى من ثناءٍ حَسَنٍ بلسانٍ حَسَن على رجل قد أحسن ، ومن شكر حُرٍ لمنعم حر ، ومن شفاعة محتسب لطالبٍ شاكر . قال إبراهيم : فقلت له : لله أبوك ! لقد حُشِيتَ كَرَما .

لجعفر بن محمد

إسماعيل بن مسرور عن جعفر بن محمد قال : إن الله خلق خلقاً من رحمته برحمته لرحمته ، وهم الذين يقضون الحوائج للناس ، فمن آستطاع منكم أن يكون منهم فليكن .

الجود مع الإقلال

من الكتاب والسنة

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن الأنصار : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِم ولَو كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فأُولَـئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أفضل العطية ما كان من مُعْسِر إلى مُعْسر .

وقال عليه الصلاة والسلام : أفضل العطية جُهْدُ المُقِلّ .

الحكماء — وقالت الحكماء : القليل من القليل أحمدُ من الكثير إلى الكثير .

لحبيب — أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه فى أبيات كتب بها إلى الحسن بن وهب الكاتب وأهدى إليه قلما : ٥

قد بَعَثْنا إليكَ أكْرَمَكَ الله بشىء فكُنْ له ذا قَبُولِ

لا تقِسْهُ إلى ندى كَفِّكَ الغمـ ـر ولا نَيْلِكِ الكثيرِ الجزيلِ

واسْتَجِزْ قِـلَّة الهَدِيَّةِ مِنّى * إنّ جُهْدَ المُقِلّ غيرُ قليل

لبعضهم — وقالوا : جُهد المقلّ أفضلُ من غِنَى المُكْثِر .

لصريع الغوانى — وقال صريع الغوانى : ١٠

ليس السَّماحُ لِمُكْثِرٍ فى قومه * لكنْ لمُقْتِرِ قومِه المُتحمِّدِ

لأبى هريرة فى جعفر بن أبى طالب — وقال أبو هريرة : ما وددت أن أحداً ولدتنى أمُّه إلا أم جعفر بن أبى طالب؛ تبعتُه ذات يوم وأنا جائع ، فلما بلغ الباب التفت فرآنى ، فقال لى : ادخل ، فدخلت : ففكّر حينا فما وجد فى بيته شيئاً إلا نِحْياً كان فيه سمن مَرّة ، فأنزله من رَفّ لهم ، فشقّه بين أيدينا ، فجعلنا نلعق ما كان فيه من السمن والزيت ، وهو يقول : ١٥

ما كلَّفَ اللهُ نفساً فوقَ طاقَتِها * ولا تجودُ يد إلا بما تَجِدُ

لبعض الحكماء — وقيل لبعض الحكماء : مَن أجوَدُ الناس ؟ قال : من جاد من قلّة ، وصان وجه السائل عن المَذَلّة .

لحماد عجرد — وقال حماد عجرد : ٢٠

أَوْرِقْ بخيرٍ تؤمَّلْ للجزيلِ فما * ترجَى الثِّمارُ إذا لم يُورِقِ العُودُ

إن الكريم ليُخفى عنك عسرته * حتى تراه غنيًّا وهو مجهود

بُثَّ النَّوالَ ولا تَمْنَعْكَ قلّتُهُ * فكُلُّ ما سَدَّ فقراً فهْوَ محمُودُ

وللبخيلِ على أمْوالهِ عِلَلٌ ٭ زُرْقُ العيونِ عليها أوجُه سُودُ

حاتم

وقال حاتم :

أُضاحِكُ ضَيْفِى قبْل إنزال رَحْلِهِ ٭ ويُخْصبُ عِندى والمحَلُّ جَديبُ

وما الخصْبُ للأضْياف أن يكثُرَ القِرىَ ٭ ولكنّما وجْهُ الكريم خَصِيبُ

لعبد الملك فى عروة

٥ وقال عبد الملك بن مَرْوان : ما كُنت أُحب أنّ أحداً ولدنى من العرب إلا عُروة بن الورد لقوله :

أتهزأُ منى أنْ سَمِنْتَ وأنْ ترى ٭ بجِسمِىَ مسَّ الجوعِ والجوعُ جاهِدُ

لأنى امرُؤٌ عافى إنائىَ شِرْكَة ٭ وأنتَ امرُؤ عافى إنائِك واحدُ

أُقسّم جِسْمى فى جُسُومٍ كثيرةٍ ٭ وأحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ

لصريع

١٠ ومن أحسن ما قيل فى الجود مع الإقلال قول صريع :

فلَوْ لم يكن فى كفّه غيرُ رُوحِه ٭ لجادَ بها فلْيتَّقِ اللهَ سائِلُهْ

لابن النطاح

ومن أفرط ما قيل فى الجود قول بَكْر بن النطّاح :

أقولُ لمُرْتادِ النّدَى عنْدَ مالِكٍ ٭ تمسَّكْ بجَدْوَى مالِكٍ وصِلاتِه

فتًى جَعَلَ الدُّنيا وِقاءً لعِرْضِهِ ٭ فأسْدَى بها المعروفَ قبلَ عُدَاتِه

١٥ فلو خَذَلَتْ أموالُه جُودَ كفِّهِ ٭ لقاسَمَ مَن يرْجُوهُ شَطْرَ حياتِه

وإنْ لم يَجُزْ فى العُمْر قَسْمٌ لِمالِكٍ ٭ وجازَ لهُ أعْطاهُ مِنْ حَسناتِه

وجادَ بها مِن غيرِ كُفْرٍ بربّهِ ٭ وأشْرَكهُ فى صَومِهِ وصلاتِه

لبعض الشعراء

وقال آخر فى هذا المعنى وأحسن :

مَلأْتُ يَدى مِن الدنيا مرارا ٭ وما طَمِعَ العواذِلُ فى اقتِصادى

٢٠ ولا وجبَتْ علَىَّ زَكاةُ مالٍ ٭ وهل تجِبُ الزّكاة على الجواد

العطية قبل السؤال

لسعيد بن العاص

قال سعيد بن العاص : قَبحَ اللهُ المعروف إن لم يكن ابتداءً من غير مسألة ،

فالمعروف عوض من مسألة الرجل إذا بذل وجهه ، فقلبه خائف ، وفرائصه تُرْعَد ، وجبينه يرشح ؛ لا يَدرى أيرجع بنُجْح الطلب ، أم بسوء المُنقَلَب ، قد انتُقِعَ لونهُ ، وذهب دمُ وجهه . اللهم فإن كانت الدنيا لها عندى حظٌّ فلا تجعل لى حظا فى الآخرة .

لأكثم — وقال أكثم بن صيفى : كل سؤالٍ وإن قلّ أكثرُ من كل نَوَال وإن جلّ . ٥

لعلى — وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لأصحابه : مَن كانت له إلىّ منكم حاجة فليرفعها فى كتاب ، لأصونَ وجوهَكم عن المسألة .

لحبيب — حبيب قال :

عطاؤكَ لا يفْنَى ويَستَغْرِق المُنَى * وتَبقى وُجوهُ الرَّاغِبينَ بمائِها

وقال حبيب أيضاً : ١٠

ذُلُّ السُّؤالِ شَجاً فى الحَلْقِ مُعْتَرِضُ * مِن دونِه شَرَقٌ من خَلفه جَرَضُ

ما ماءُ كفِّكَ إن جادتْ وإن بَخِلتْ * مِن ماءِ وَجهى إذا أفْنيتُه عِوَضُ

إنى بأيْسَرِ ما أدْنيتَ مُنْبسِطٌ * كما بأكثر ما أقْصَيْتَ مُنْقَبِضُ

لبعضهم — وقالوا : مَن بذل إليك وجهه فقد وفّاك عن نعمتك .

وقالوا : أكمل الخِصال ثلاث : وقار بلا مهابة ، وسماح بلا طلبِ مكافأة ، وحِلم بغير ذلّ . ١٥

وقالوا : السخى من كان مَسروراً ببذله ، متبرعا بعطائه ، لا يلتمس عرض دنيا فيَحبطَ عمله ، ولا طالب مكافأة فيَسقط شُكره ، ولا يكون مَثله فيما أعطى مثل الصائد الذى يُلقِى الحب للطائر : لا يريد نفعها ولكن نفعَ نفسِه .

بين ابن أبى سبرة وأبى الأسود — نظر المنذر بن أبى سبرة إلى أبى الأسود الدؤلى وعليه قميصٌ مرقوع ، فقال له : ما أصبَرَك على هذا القميص ؟ فقال له : رُبَّ مملوكٍ لا يُستطاع فِراقُه . فبعث إليه بتَخت من ثياب . فقال أبو الأسود : ٢٠

كَسانِى ولم أستَكْسِه فَحمِدْتُه * أخٌ لكَ يُعطِيكَ الجَزيلَ وناصِرُ

وإنّ أحقّ الناس إن كُنتَ شاكِراً ٭ بشُكرِكَ مَن أعطاكَ والعِرْضُ وافِرُ

بين معاوية وابن صوحان فى الجود

وسأل معاوية صعصعةَ بن صُوحان : ما الجود ؟ فقال : التبرّع بالمال، والعطيّة قبل السؤال .

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

٥ كَريمٌ على العِلاتِ جزلٌ عطاؤهُ ٭ يُنيلُ وإن لم يُعتَمَدْ لِنَوالِ

وما الجُودُ مَن يُعطِي إذا ما سألتهُ ٭ ولكِنّ مَن يُعطى بغيرِ سُؤال

لبشار

وقال بشّار العُقيلى :

ما لكفٌّ ينشقُ عن وَجهِه الجد ٭ بُ كما انشقّتِ الدُّجى عن ضِياءِ

فَتُجوج السماء فيضُ يديْه ٭ لقريبٍ ونازحِ الدارِ ناءِ

١٠ ليسَ يُعطيكَ للرَّجاءِ وللخَوْ ٭ فِ ولكنْ يَلَذُّ طَعمَ العَطاءِ

لا ولا أنْ يُقالَ شِيمَتُه الجُو ٭ دُ ولكِنْ طبائِعُ الآباءِ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

إن بيْنَ السُّؤالِ والإعْتِذار ٭ خُطّةٌ صَعْبَةٌ على الأحرار

لحبيب

وقال حبيب :

١٥ لئنْ جَحدْتُكَ ما أوْليتَ مِنْ نِعَمٍ ٭ إنى لفِى اللؤم أمضَى منكَ فى الكَرَمِ

أنسَى ابتسامُكَ والألوانُ كاسفةٌ ٭ تَبَسُّمَ الصُّبحِ فى داجٍ مِنَ الظُّلَمِ

رددتَ رَوْنَقَ وجهى فى صحيفتِه ٭ رَدّ الصِّقالِ بهاءَ الصّارِمِ الخَذِمِ

وما أُبالى وخيرُ القول أصدقُهُ ٭ حَقَنْتَ لِى ماءَ وَجهى أم حقنتَ دَمى !

استنجاح الحوائج

عادتهم فى ذلك

٢٠ كانوا يستفتحون حوائجهم بركعتين يقولون فيهما : اللهم بك أستنجح ، وباسمك أستفتح ، وبمحمد نبيّك إليك أتوجه ، اللهم ذلّل لى صعوبته ، وسهّل لى حزونته ، وارزقنى من الخير أكثر مما أرجو ، واصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف .

للنبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: آستعينوا على حوائجكم بالكتمان لها، فإنّ كل ذي نعمة محسود.

لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان: لاتطلُبوا الحوائج في غير حينها، ولا تطلُبوها من غير أهلها، فإنّ الحوائج تُطلب بالرجاء، وتُدرَك بالقضاء.

٥ وقال: مفتاح نُجْح الحاجة الصبرُ على طول المُدة، ومِغلاقُها آعتراض الكَسَل دونها.

لبعض الشعراء

قال الشاعر:

إنى رأيتُ وفى الأيامِ تَجْرِبَةٌ * للصبرِ عاقبــةً محمودةَ الأثرِ
وقلّ مَن جَدّ فى أمرٍ يُحاوِلُهُ * واسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إلافازَبالظَّفَرِ

من أمثالهم

١٠ ومن أمثال العرب فى هذا: مَنْ أدمَنَ قَرْعَ الباب يوشك أن يُفتح له.

لشاعر فى مثله

أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

إن الأمور إذا آنسدت مسالكها * فالصبر يفتُق منها كل ما ارتتجا
لا تيأَسَنّ وإنْ طالتْ مُطالَبَةٌ * إذا تضايَقَ أمرٌ أن ترى فَرَجا
أَخْلِقْ بِذِى الصَّبرِأنْ يَحْظَى بحاجَتِهِ * ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلِجا

لخالد بن صفوان

١٥ وقال خالد بن صفوان: فَوْتُ الحاجة خيرٌ من طلبها إلى غير أهلها، وأشدُّ من المُصيبة سوءُ الخَلَف منها.

لبعضهم

وقالوا: صاحبُ الحاجة مَبْهوت، وطلب الحوائج كلِّها تعزير.

للحكماء

وقالت الحكماء: لا تطلب حاجتك من كذّاب؛ فإنه يقرّبها بالقول ويُبعدها بالفعل؛ ولا من أحمق، يريد نفعَك فيضرّك؛ ولا من رجل له أُكلة من جهة ٢٠ رجل، فإنه لا يؤثر حاجتك على أكلته.

لدعبل

وقال دعبل بن على الخُزاعى:

جِئْتُكَ مُسْتَرْفِداً بلا سَبَبٍ * إليـك إلا بحُرْمَةِ الأدَبِ
فاقْضِ ذِمامى فإننى رَجُلٌ * غيرُ مُلِحٍّ عليك فى الطَّلَبِ

لشيب بن شيبة

وقال شَبيب بن شَيبة : إنى لأعرف أمراً لا يتلاقى به آثنان إلا وجب النُّجْحُ بينهما . قيل له : وماذاك ؟ قال : العقل : فإن العاقل لا يَسأل مالا يُمكن ، ولا يَرُدُّ عما يُمكن .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

٥ أتيْتكَ لا أُدْلِي بقُـــرْبَى ولا يَدٍ ٭ إليْـــكَ سوى أنّى بجودِكَ واثق

فإن تُو لِنى عُرْفاً أكُنْ لك شاكراً ٭ وإن قُلْت لى عُذْراً أقُلْ أنتَ صادقُ

للحسن بن هانئ

وقال الحسن بن هانئ :

فإن تُو لِنى منكَ الجميلَ فأهْلُه ٭ وإلا فإنِّى عاذرٌ وشَكُورُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

١٠ لعَمْرُك ما أخْلَقتُ وَجْهاً بَذَلْتُهُ ٭ إليكَ ولا عَرَضْتُهُ لِلْمَعَايِرِ

فتًى وفَّرَتْ أيدِى المكارم عِرْضَهُ ٭ عليه وخلَّتْ مالَهُ غيرَ وَافِرِ

بين ابن واسع وأمير

ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء فقال : أتيتك فى حاجة فإن شئت قضيتَها وكنا كريمين ، وإن شئتَ لم تَقضِها وكُنَّا لئيمين . أراد : إن قضيتَها كنتَ أنت كريما بقضائها وكنتُ أنا كريماً بسؤالك إياها ؛ لأنى وضعت الطَّلِبَةَ فى موضعها ؛ ١٥ فإن لم تقضها كنتَ أنتَ لئيما بمنعك وكنت أنا لئيما بسوء اختيارى لك .

لحبيب

وسرق حبيب هذا المعنى فقال :

عَيَّــاشُ إنكَ لَلَّئِيمُ وإننى ٭ مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِى لَلَئيم

عبد الله بن طاهر وسوار القاضى

ودخل سوار القاضى على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان فقال : أصلح الله الأمير :

٢٠ لنا حاجة والعُذْرُ فيها مُقَــدَّمٌ ٭ خفيفٌ مُعنَّاها مضاعفة الأجرِ

فإن تَقْضِها فالحمـــدُ للهِ وَحْدَهُ ٭ وإن عاقَ مَقْدُورٌ ففى أوْسَعِ العُذْرِ

قال له : ما حاجتُك أبا عبد الله ؟ قال : كتابٌ لى : إن رأى الأميرُ — أكرمه الله — أن يُنفذه فى خاصته ، كتب إلى موسى بن عبد الملك فى تعجيل

أرزاق . قال : أوَ غير ذلك أبا عبد الله ؟ نعجّلها لك من مالك ، وإذا وددت كنت مخيّراً بين أن تأخذ أو تردّ . فأنشد سَوّار يقول :

فبابُكَ أيمنُ أبوابهم ٭ ودارُكَ مأهولةٌ عامِرَهْ

وكفُّكَ حينَ ترى المُجتَدِي ٭ نَ أندى من اللَّيلةِ الماطِرَهْ

وكَلْبُكَ آنَسُ بالمُعتَفِين ٭ من الأمِّ بابنتِها الزّائِرَهْ

أبو حازم الأعرج وسلطان في حاجة

ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان فقال : أتيتك في حاجة رفعتُها إلى الله قَبْلك ، فإن يأذن الله في قضائها قضيتَها وحمدناك ، وإن لم يأذن في قضائها لم تَقضِها وعذرناك .

من الحديث

وفي بعض الحديث : اطلبوا الحوائج عند حِسانِ الوجوه .

الطائي

أخذه الطائي فنظمه في شعره فقال : ١٠

قد تأوَّلتُ فيـــك قولَ رسول الله إذْ قالَ مُفْصِحاً إفصاحا

إن طلبتم حوائجاً عند قومٍ ٭ فتنَقَّوْا لها الوجوهَ الصِّباحا

فلعَمْرِي لقد تَنَقَّيْتُ وجهًا ٭ ما بِهِ خابَ من أرادَ النَّجاحا

بين المنصور وطالب حاجة

قال المنصور لرجل دخل عليه : سَل حاجتك فإنك لست تقدر على هذا المقام في كل حين . قال : يبقيك الله يا أمير المؤمنين ، ما أستقصر عمرك ولا أخاف بخلك ، وإنّ عطاءك لشرف ، وإن سؤالك لزَيْن ، وما بأمرئ بذل إليك وجهه نَقْص ولا شَين . فوصله وأحسن إليه . ١٥

استنجاز المواعد

كلمات في معنى هذا العنوان

من أمثالهم في هذا : أنجزَ حُرٌّ ما وعَد.

وقالوا : وعدُ الكريمِ نَقْد ، ووعدُ اللئيم تسويف . ٢٠

للزهري

وقال الزُّهري : حقيق على من أورق بوعْدٍ أن يُثمر بفعل .

للمغيرة

وقال المغيرة : من أخر حاجة فقد ضَمِنها .

للموبذان

وقال الموبذان الفارسي : الوعد السحابة ، والإنجاز المطر .

لبعضهم — وقال غيره : المواعيد رءوس الحوائج والإنجاز أبدانها .

لابن عمر — وقال عبد الله بن عمر : خُلْفُ الوعدِ ثُلُثُ النفاق ، وصدق الوعد ثلثُ الإيمان ، وما ظنُّك بشيء جعله الله مِدْحةً فى كتابه ، وفخراً لأنبيائه ، فقال تعالى (واذْكُرْ فى الكتابِ إسْمَاعِيلَ إنَّهُ كانَ صادِقَ الوَعْدِ) .

٥ جبار فى عامر ابن الطفيل — وذكر جبار بن سُلمى عامر بن الطُّفيل فقال : كان والله إذا وعد الخير وفى ، وإذا وعد الشر أخلف . وهو القائل :

ولا يَرْهَبُ ابنَ العَمِّ ماعشتُ صَوْلتى * ويأمن منى سَطوةَ المُتَهَدِّدِ

وإنى وإن أوْعَدْتُهُ أو وعَدْتُهُ * ليَكذِبُ إيعادِى ويَصْدُقُ موعِدِى

لابن أبى حازم — وقال ابن أبى حازم :

١٠ إذا قلتَ فى شىء « نعم » فأتِمَّهُ * فإنّ « نَعَمْ » دَيْنٌ على الحرِّ واجبُ

وإلا فقُلْ « لا » تَسترِحْ وتُرِحْ بها * لئلا يقولَ النـاسُ إنك كاذِبُ

ولو لم يكن فى خُلف الوعد إلا قولُ الله عز وجل : (يا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا لِمَ تقُولُونَ ما لاتفعَلونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أنْ تقُولوا مَالاتفعَلون) لكفى .

لعمر بن الحارث — وقال عمر بن الحارث : كانوا يفعلون ولا يقولون ، ثم صاروا يقولون

١٥ ويفعلون ، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون ، ثم صاروا لايقولون ولا يفعلون ، فزعم أنهم ضَنُّوا بالكذب فضلا عن الصدق .

للحسن بن هانئ — وفى هذا المعنى يقول الحسن بن هانئ :

قالَ لِى تَرْضَى بوعْدٍ كاذِبٍ ؟ * قلْتُ إنْ لم يَكُ شَحْمٌ فنفش[1]

لابن الأحنف — ومثله قول عباس بن الأحنف ، ويقال إنها لمسلم بن الوليد صريع الغوانى :

٢٠ ماضَرَّ مَنْ شَغَلَ الفؤادَ بِبُخْلِهِ * لو كانَ عَلَّلَنِى بِوَعْدٍ كاذِبِ

صبراً عليكَ فمـا أرى لى حِيلةً * إلا التَّمَسُّكَ بالرجاءِ الخائبِ

سأموتُ من كمَدٍ وتَبْقَى حاجتى * فيها لديكَ ومالهـا مِن طالبِ

(١) النفش : الصوف .

بين عبد الملك وابن أم الحكم

قال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان فى مواعيد وعدها إياه فمطَله بهـا : نحن إلى الفِعل أحوج منا إلى القول ، وأنت بالإنجاز أولى منك من المَطل ، وآعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإنجازك الوعد وآستتمامك المعروف .

بين عيسى بن موسى وابن معن

القاسم بن معن المسعودي قال : قلت لعيسى بن موسى : أيها الأمير ، ما انتفعتُ بك منذ عرفتك ، ولا أوصلت لى خيراً منذ صحبتُك . قال : ألم أكلِّم لك أميرَ المؤمنين فى كذا وأسأله لك كذا ؟ قال : قلت : بلى ، فهل استنجزتَ ما وعدت ، وآستتممت ما بدأت ؟ قال : حال من دون ذلك أمور قاطعة ، وأحوال عاذرة . قلت : أيها الأمير ، فما زدت على أن نَبهت العجز من رقدته ، وأثرتَ الحزن من رَبْضَتِه ، إنّ الوعد إذا لم يشفعه إنجاز يحقّقه ، كان كلفظ لا معنى له ، وجسم لا روح فيه .

عبد الصمد وابن ديسم

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشى لخالد بن دَيسم عامل الرّى :

أخالدُ إن الريّ قد أجحفَتْ بنا * وضاقَ علَيْنا رَحْبُهَا ومَعاشُهَا

وقد أطمَعَتْنا مِنْكَ يَوْمًا سحابَةٌ * أضاءت لنا بَرقاً وأبطا رشاشها

فلا غيْمُها يَصْحُو فيَيْئِسَ طامِعاً * ولا ماؤها يأتى فتروى عِطاشها

بين بشار وسلم

وقال سعيد بن سَلْم : وعد أبى بشارا العُقيلى حين مدحه بالقصيدة التى يقول فيها :

صَدّتْ بخَدٍّ وجَلَتْ عن خدٍّ * ثم آنْثَنتْ كالنَّفَسِ المُرْتَدِّ

فكتب إليه بشارٌ بالغد :

مازالَ ماَمَنَّيْتَنِي مِنْ هَمِّى * الوعْدُ غمٌّ فأَرِحْ مِنْ غَمِّى

* إن لم تُرِدْ مَدْحِى فَرَاقِبْ ذَمِّى *

فقال له أبى : يا أبا مُعاذ ، هلاّ استنجزتَ الحاجة بدون الوعيد ! فإذا لم تفعل فتربَّصْ ثلاثا وثلاثا ؛ فإنى والله مارضيتُ بالوعد حتى سمعتُ الأبرش الكَلبى يقول لهشـام : يا أمير المؤمنين ؛ لا تَصنع إلىّ معروفا حتى تَعِدنى ؛ فإنه لم يأتنى منك سَيْب على غير وعد إلا هان علىّ قدرُه وقلّ منى شُكره . فقال له هشام : لئن قلت

ذلك لقد قاله سيدُ أهلِكَ أبو مسلم الخَوْلانى : « إن أوقع المعروف فى القُلوب ، وأبردَه على الأكباد مَعروف منتظَر ، بوعد لا يكدِّره المَطْل » .

يحيى بن خالد وقضاء الحوائج

وكان يحيى بن خالد بن برمك لا يقضى حاجة إلا بوعد ، ويقول : من لم يَبِتْ على سرور الوَعد لم يجد للصنيعة طعما .

لبعضهم

٥ وقالوا : الخُلف ألأم من البخل لأنه من لم يفعل المعروف لزمه ذمُّ اللؤم وحده ، ومن وَعد وأخلف لزمه ثلاث مَذَمَّات : ذمّ اللؤم ، وذمّ الخلف ، وذمّ الكذب .

لزياد الأعجم

وقال زياد الأعجم :

لِلّهِ دَرُّكَ مِنْ فَتًى * لو كنتَ تَفْعَلُ ما تَقُولْ

١٠ لا خيْرَ فى كذب الجوَا * دِ وحبَّذا صِدْقُ البخيلْ

بين الحسن بن وهب وحبيب

استبطأ حبيبُ الطائى الحسنَ بن وهب فى عِدَةٍ وعدها إياه ، فكتب إليه أبياتا يستعجله بها : فبعث إليه بألف درهم وكتب إليه :

أعْجَلْتَنا فأتاكَ عاجِـلُ بِرِّنا * قلاًّ ولو أخَّرْتَهُ لم يَقْلِلِ

فخُذِ القليلَ وكنْ كَمَنْ لم يَسْألِ * ونكون نحنُ كأننا لم نَفْعلِ

ابن دأب عند المهدى

١٥ وقال عبد الملك بن مالك الخزاعى : دخلت على أمير المؤمنين المهدى وعنده ابن دأب وهو ينشد قول الشماخ :

وأشعث قد قَدّ السفارُ قميصَهُ * يَجُرُّ شِواءً بالعَصا غيْرَ مُنْضَجِ

دَعَوْتُ إلى ما نابَنى فأجابَنى * كَريمٌ من الفتيانِ غيْرُ مُزَلَّجِ

فتى يُمرِئُ الشِّيزَى ويُرْوِى سِنانَه * ويَضْرِبُ فى رأسِ الكَمِىِّ المُدَجَّجِ

٢٠ فتًى ليْس بالرّاضى بأدنى معيشةٍ * ولا فى بُيُوتِ الحىّ بالمُتَوَلِّجِ

فرفع المهدىُّ رأسه إلىّ وقال : هذه صفتك أبا العباس . فقلت : بك نلتُها يا أمير المؤمنين . قال : فأنشدنى . فأنشدته قول السموءل :

إذا المرءُ لم يدْنَسْ منَ اللُّؤم عِرْضُه * فكلُّ رداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيـلُ

وإنْ هو لم يَحملْ على النّفسِ ضَيْمَها * فليس إلى حُسْنِ الثّناءِ سَبيلُ
إذا المرء أعْيَتْهُ المروءة يافعاً * فَمطْلَبُها كَهْــلاً عليه ثَقيلُ
تُعَــيِّرُنا أنّا قليلٌ عِــدادُنا * فقُلْتُ لها إنّ الكِرامَ قليلُ
وما ضَرّنا أنّا قليـــلٌ وجارُنا * عَزيزٌ وجارُ الأكْثَرين ذَليلُ
ونحنُ أُناسٌ لا نَرى القَتْلَ سُبَّةً * إذا ما رأتْهُ عامِرٌ وسَــلولُ ٥
يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا * وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتَطُــولُ
وما ماتَ منّا سيّدٌ حَتْفَ أنْفِه * ولا طُلَّ منا حيثُ كانَ قَتيلُ
تَسيلُ على حَدِّ السُّيوفِ نُفوسُنا * وليْستْ على غيْرِ السُّيُوفِ تَسيلُ
ونُنْكِرُ إنْ شِئْنا على الناسِ قوْلَهُمْ * ولا يُنْكِرونَ القولَ حينَ نقولُ
فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما فى نِصابِنا * كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيــلُ ١٠
وأسيافُنا فى كلِّ شَرْقٍ ومغْرِبٍ * بها مِنْ قِرَاعِ الدارِعِينَ فُلولُ

فقال: أحسنت، اجلس، بهذا بلغتم، سلْ حاجتك. قلت: يا أمير المؤمنين، تكتب لى العطاء ثلاثين رجلا من أهلى. قال: نعم، علىّ إذا وعدتُ، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك متمكّن من القُدرة وليس دونك حاجز عن الفعل؛ فما معنى العِدة؟ فنظر إلى ابن دأب كأنه يريد منه كلاماً فى فضل الموعد، فقال ابن دأب: ١٥

حلاوةُ الفِعْلِ بوَعْدٍ يُنْجَزُ * لاخيْرَ فى العُرْفِ كنَهْبٍ يُنْهَزُ

فضحك المهدى وقال:

الفعْـــل أحسنُ ما يكو * نُ إذا تقدّمَهُ ضَمانُ

للمهلب يوصى بنيه

وقال المهلب بن أبى صفرة لبنيه: يا بَنِىَّ، إذا غدا عليكم الرجل وراح مُسَلّما فكفى بذلك تقاضيا. ٢٠

لبعض الشعراء

وقال الشاعر:

أرُوحُ بتَسْليمى عليكَ وأغْتَدى * وحَسْبُكَ بالتّسْليمِ منّى تقاضيا

وقال آخر :

كفاكَ مُخَبِّرًا وجْهِى بشَانى ۞ وحسبُكَ أنْ أراكَ وأن ترانى
وما ظَنّى بمن يعنيه أمْرِى ۞ ويعْلَمُ حاجتى ويَرى مكانى

العتابى — كتب العتابى إلى بعض أهل السلطان : أما بعد ؛ فإن سحاب وعدك قد أبرقت ، فليكن وبلها سالما من علل المَطْل . والسلام . ٥

للجاحظ — وكتب الجاحظ إلى رجل وعَده : أما بعدُ فإن شجرة وعدك قد أورقت فليكن ثمرُها سالما من جوائح المَطْل . والسلام .

عبد الله بن طاهر ودعبل — وعَدَ عبد الله بن طاهر دِعْبلا بغلام ، فلما طال عليه تَصَدَّى له يوما وقد ركب إلى باب الخاصّة ، فلما رآه قال : أسأت الاقتضاء ، وجهلت المأخذ ، ولم تُحْسن النظر ، ونحن أولى بالفضل ؛ فلك الغلام والدابة متى ننزل إن شاء الله تعالى . ١٠ فأخذ بعنانه دعبل وأنشده :

يا جَوادَ اللّسانِ مِنْ غيرِ فعْلٍ ۞ ليْتَ فى راحتيْكَ جُودَ اللّسانِ
عيْنَ مِهْرانَ قد لطَمْتَ مِرارًا ۞ فاتقِ ذا الجــلالِ فى مِهْران
عُرْتَ عيْناً فدَعْ لِمِهْرانَ عيْناً ۞ لا تَدَعْهُ يطوف فى العِمْيانِ

قال : فنزل له عن دابته ، وأمر له بالغلام . ١٥

أبان وخلف ابن خليفة — وسأل خلف بن خليفة أبَانَ بن الوليد جارية ، فوعده بها وأبطأت عليه ، فكتب إليه :

أرى حاجتى عِند الأميرِ كأنّها ۞ تَهُمُّ زماناً عنــدَهُ بمُقام
وأحْصَرُ من إذْكارِهِ إن لقِيتُه ۞ وصدق الحياء مُلْجِمٌ بلِجامِ
أراها إذا كانَ النهارُ نَسيئةً ۞ وباللّيلِ تُقْضَى عنْدَ كُلّ مَنامِ ٢٠
فيارِبّ أخْرِجْها فإنك مُخْرِجٌ ۞ مِنَ الْميْتِ حَيًّا مُفْصِحاً بكلامِ
فتَعلَمَ ما شُكْرى إذا ما قضَيْتَها ۞ وكيْفَ صَلاتى عنْدَها وصيامى

لأبى العتاهية — وكتب أبو العتاهية إلى رجل وعده بِعِدَة ومَطَلَه بها :

لا جَعَلَ اللهُ لى إليكَ ولا * عندَكَ ما عِشتُ حاجةً أبدا

ما جئتُ فى حاجةٍ أُسَرُّ بها * إلا تثاقلتَ ثمَّ قُلتَ غَدَا

لدعبل — وكتب دعبل إلى رجل وعده وعداً وأخلفه :

أحسِبْتَ أرضَ اللهِ ضَيِّقَةً * عَنِّى فأرضُ الله لم تَضِقِ ٥

وجعلتَنِى فَقْعاً بِقَرْقَرَةٍ * فوَطِئْتَنى وطْئاً على حَنَقِ

فإذا سألتكَ حاجةً أبداً * فاضْرِبْ بها قُفْلاً على غَلَقِ

وأعِدَّ لى غُلاً وجامعةً * فاجْمَعْ يَدَىَّ بها إلى عُنُقِى

ما أطولَ الدُّنيا وأوْسَعَها * وأدلَّنى بمسالِكِ الطُّرُقِ

لابن عبدربه — ومن قولنا فى رجل كتب إلىّ بِعِدَةٍ فى صحيفة ومطلنى بها : ١٠

صَحيفَةٌ طابَعُها اللُّومُ * عُنْوانُها بالجَهْلِ مَخْتومُ

يُهدَى لها والخُلْفُ فى طَيِّها * والمَطْلُ والتَّسْويفُ واللُّومُ

مَن وجْهُه نَحْسٌ ومَن قُرْبُهُ * رِجْسٌ ومَنْ عِرْفانُهُ شُومُ

لا تَهْتَضِمْ إنْ بِتَّ ضَيْفاً لهُ * فَخُبْزُهُ فى الجَوْفِ هاضُومُ

تَكْلِمُهُ الألحاظ مِنْ رِقَّةٍ * فهو بِلَحْظِ العيْنِ مَكْلُومُ ١٥

لا تَأْتَدِمْ شيئاً على أكْلِه * فإنه بالجوعِ مَأدومُ

وقلت فيه :

صحيفةٌ كُتِبَتْ ليْتٌ بها وعسى * عُنْوانُها راحةُ الرَّاجى إذا يَئسا

وعدٌ له هاجِسٌ فى القلبِ قد بَرِمَتْ * أحْشاءُ صدرى به مِن طولِ ما هَجَسا

بَراعةٌ غَرَّنى منها ومِيضُ سنى * حتى مَدَدْتُ إليها الكَفَّ مُقْتبِسا ٢٠

فصادَفَتْ حَجَراً لو كنتَ تَضْرِبُهُ * مِن لُؤْمِه بعصا موسى لما انبَجَسا

كأنما صِيغَ منْ بُخْلٍ ومِن كَذِبٍ * فكان ذاكَ له روحاً وذا نَفَسا

وقلت فيه :

رجاءٌ دون أقربِه السّحابُ * ووعدٌ مثلَ ما لَمَعَ السرابُ

وتَسْويفٌ يَكِلُّ الصبرُ عنه * ومَطْلٌ ما يقومُ له حِسابُ

وأيام خلت من كل خير * ودنيا قد تَوَزَّعها الكلاب

٥

لطيف الاستمناح

الحكماء

قالت الحكماء : لطيف الاستمناح سبب النجاح ، والأنفس ربما انطلقت وانشرحتْ بلطيف السؤال ، وانقبضت وامتنعت بجفاء السائل ؛ كما قال الشاعر :

وجفَوْتَنِي فقطَعْتُ عنك فوائدى * كالدَّرِّ يَقْطَعُه جَفاء الحالِب

العتابى

وقال العتابى : إن طلبت حاجة إلى ذى سلطان فأَجمل فى الطلب إليه ، وإياك

١٠ والإلحاحَ عليه ؛ فإنّ إلحاحك يَكْلِمُ عِرْضَكَ ويُريق ماء وجهك ، فلا تأخذُ منه عِوَضا لما يأخذ منك ؛ ولعلّ الإلحاح يجمع عليك إخلاقَ ماءِ الوجه ، وحرمانَ النجاح ؛ فإنه ربما مَلّ المطلوبُ إليه حتى يستخف بالطالب .

الحسن بن هانئ

وقال الحسن بن هانئ :

تأنّ مواعيــدَ الكرامِ فرُبّما * حملْتَ من الإلحاحِ سَمْحاً على بُخْلِ

لبعض الشعراء

١٥ وقال آخر :

إنْ كنت طالبَ حاجةٍ فتجمّلِ * فيها بأحسنِ ما طَلَبْتَ وأَجْمِلِ

إنَّ الكريمَ أخا المروءة والنُّهَى * مَنْ ليس فى حاجاته بِمُثقِّلِ

بين مروان ابن أبى حفصة وابن يزيد

وقال مروان بن أبى حفصة : لقيت يزيد بن مَزْيد وهو خارج من عند المهدى فأخذت بعنان دابّته وقلت له : إنى قلت فيك ثلاثة أبيات أريد بكل بيت منها

٢٠ مائة ألف . قال : هاتِ لله أبوك . فأنشأت أقول :

يا أكرم الناس من عُجم ومن عرب * بعد الخليفة يا ضرغامة العرب

أفنيت مالك تعطيــه وتُنْهِبه * يا آفة الفضة البيضاء والذهب

إن السنان وحَدَّ السيف لو نطقا * لأخْبرا عنك فى الهيجاء بالعجب

عبد الملك ونفر من بني أمية

المدائني قال : قَدم قوم من بنى أُمية على عبد الملك بن مروان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، نحن ممن تعرف ، وحقُّنا ما لا يُنكر ، وجئناك من بعيد ، ونَمُتُّ بقريب ، ومهما تُعطنا فنحن أهلُه .

الرشيد وعبد الملك ابن صالح

دخل عبدُ الملك بن صالح على الرشيد فقال : أسألك بالقرابة والخاصة أم بالخلافة والعامة ؟ قال : بل بالقرابة والخاصة . قال : يداك يا أمير المؤمنين أطْلَقُ ٥ من لساني بالمسألة ، فأعطاه وأجزل له .

عبد الملك وأبو الريان

ودخل أبو الرَّيان على عبد الملك بن مروان ، وكان عنده أثيراً ، فرآه خائراً ، فقال : يا أبا الرَّيان ، مالك خائرا ؟ قال : أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين ! قال : كيف ذلك ؟ قال : نُسْأل ما لا نقدر عليه ونَعتذر فلا نُعْذَر . قال عبد الملك : ١٠ ما أحسنَ ما اسْتَمْنَحْتَ واعْتَرَرْتَ[1] يا أبا الريّان . أعطوه كذا وكذا .

الحجاج والشعبي

العتّابي قال : كتب الشَّعبي إلى الحجاج يسأله حاجة ، فاعتل عليه ، فكتب إليه الشّعبي : والله لا عَذَرْتُك وأنت والى العراقين وابنُ عظيم القَريتين . فقضى حاجته . وكان جدّ الحجاج لأمه عروة بن مسعود الثقفي .

معاوية وابن زرارة

العتبي قال : قدم عبد العزيز بنُ زرارة الكِلابي على أمير المؤمنين معاوية ١٥ فقال : إني لم أزل أهزّ ذوائب الرِّحال إليك ، فلم أجد مُعَوَّلا إلا عليك ، أمتطي الليل بعد النهار ، وأَسِمُ المجاهلَ بالآثار ، يقودني إليك أملٌ ، وتسوقني بلوى ، والمجتهد يُعذر ، وإذا بلغتك فَقَطْنِي . فقال : احطط عن راحلتك .

يزيد بن المهلب وكريز

ودخل كُريز بن زُفر بن الحارث على يزيد بن المهلب فقال : أصلح الله الأمير ، أنت أعظم من أن يُستعان بك ويُستعان عليك ، ولست تفعل من الخير شيئاً ٢٠ إلا وهو يصغُر عنك وأنتَ أكبرُ منه ، ولا العجب أن تفعل ، ولكن العجب ألاّ تفعل . قال : سل حاجتك . قال : حملت عن عشيرتي عَشر ديات . قال : قد أمرتُ لك بها وشفعتُها بمثلها .

(١) اعترّ : أتاه طالباً معروفه .

حاتم الطائي وسائل حاجة

العتبي عن أبيه قال : أتى رجل إلى حاتم الطائي فقال : إنها وقعت بيني وبين قوم ديات ، فاحتملتها في مالي وأملي ، فعدِمْتُ مالي وكنتَ أملي ، فإن تحملها عني فرُبَّ همّ قد فرجتَه ، وغمّ كفيتَه ، ودين قضيتَه ، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمّ يومك ، ولم أيأس من غدِك . فحملها عنه .

خالد القسري وسائل

٥ المدائني قال : سأل رجل خالداً القسري حاجة ، فاعتل عليه ، فقال له : لقد سألتُ الأمير من غير حاجة . قال : وما دعاك إلى ذلك ؟ قال : رأيتك تُحب مَن لك عنده حُسْنُ بَلاء ، فأردتُ أن أتعلّق منك بحبل مودة . فوصله وحباه وأدْنى مكانه .

المنصور والهجري

الأصمعيّ قال : دخل أبو بكر الهَجريّ على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ١٠ نَغَضَ فمي ، وأنتم أهلَ البيت بركة ، فلو أذِنْتَ لي فقبّلتُ رأسك لعل الله يُشدد لي منه ! قال : اختر منها أو من الجائزة . فقال : يا أمير المؤمنين . أهونُ عليّ من ذهاب درهم من الجائزة ألّا تبقى حاكّة في فمي . فضحك المنصور وأمر له بجائزة .

أبو دلف وجار له

وذكروا أن جاراً لأبي دلف ببغداد لزمه كبير دَين فادح ، حتى احتاج إلى بيع داره ، فساوموه بها ، فسألهم ألفي دينار ؛ فقالوا له : إنّ دارك تساوي خمسمائة . ١٥ قال : وجِواري من أبي دُلف بألف وخمسمائة ! فبلغ أبا دلف ؛ فأمر بقضاء دينه وقال له : لا تَبعْ دارَك ولا تَنتقل من جوارنا .

قيس بن سعد وامرأة

ووقفت امرأة على قيس بن سعد بن عبادة فقالت : أشكو إليك قلة الجِرْذان . قال : ما أحسن هذه الكِناية ! املأوا لها بيتَها خُبزاً ولحماً وسمنا .

المنصور وأزهر السمان

إبراهيم بن أحمد عن الشيباني قال : كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا ٢٠ دخل البصرة دخل مستترا ، فكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث ، فلما أفضت الخلافة إليه قدم عليه أزهر ، فرحّب به وقرّبه ، وقال له : ما حاجتك يا أزهر ؟ قال : داري متهدمة ، وعليّ أربعة آلاف درهم ، وأريد لو أن ابني محمداً بَنَى بعِياله . فوصله باثني عشر ألفا ، وقال : قد قضينا حاجتك يا أزهر ؛ فلا تأتنا طالبا . فأخذها وارتحل . فلما كان بعد سنة أتاه ، فلما رآه أبو جعفر قال :

ما جاء بك يا أزهر ؟ قال : جئتك مسلما . قال : إنه يقع فى خَلَد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً . قال : ما جئت إلا مسلّما . قال : قد أمرنا لك باثنى عشر ألفا ، واذهب فلا تأتنا طالبا ولا مسلّما . فأخذها ومضى ؛ فلما كان بعد سنة أتاه ، فقال : ما جاء بك يا أزهر ؟ قال : أتيت عائداً ، قال : إنه يقع فى خلدى أنك جئت طالباً . قال : ما جئتُ إلا عائداً . قال : قد أمرنا لك باثنى عشر ألفاً ، واذهب فلا تأتنا ٥ طالبا ولا مسلما ولا عائداً . فأخذها وانصرف ؛ فلما مضت السنة أقبل ، فقاله له : ما جاء بك يا أزهر ؟ قال : دعاء كنتُ أسمعك تدعو به يا أمير المؤمنين ، جئت لأكتبه . فضحك أبو جعفر وقال : إنه دعاء غير مُستجاب ، وذلك أنى قد دعوت الله به ألا أراك فلم يَسْتَجِبْ لى ، وقد أمرنا لك باثنى عشر ألفا وتعال متى شئت ، فقد أعْيَتْنى فيك الحيلة . ١٠

ابن المهلب وأعرابى

أقبل أعرابى إلى داود بن المهلب فقال له . إنى مدحتك فاستمع . قال : على رِسْلِك ! ثم دخل بيته وتقلّد سيفه وخرج ، فقال : قُل ، فإن أحسنتَ حكّمناك ، وإن أسأت قتلناك ! فأنشأ يقول :

أمِنْتُ بِداودٍ وجودِ يَمِينِــهِ ٭ من الحَدَثِ المَخْشِىِّ والبُؤْسِ والفقْرِ

فأصبحتُ لا أخشى بداودَ نَبْوَةً ٭ منَ الحدَثانِ إذْ شَدَدْتُ به أزْرِى ١٥

له حُكْمُ لُقْمانٍ وصورَةُ يوسُفٍ ٭ وحُكْمُ سُلَيْمانٍ وعَدْلُ أبى بَكْرِ

فتًى تَفْرَقُ الأموالُ من جُودِ كفِّه ٭ كما يَفْرَقُ الشيطانُ من لَيْلةِ القدرِ

فقال : قد حكّمناك ؛ فإن شئت على قدرك ، وإن شئت على قدرى . قال : بل على قدرى . فأعطاه خمسين ألفا ، فقال له جلساؤه : هلا احتكمت على قدر الأمير ؟ قال : لم يك فى ماله ما يفى بقدْرِه ! قال له داود : أنت فى هذه أشعرُ ٢٠ منك فى شعرك . وأمر له بمثل ما أعطاه .

الرشيد وإسحاق الموصلى

الأصمعى قال : كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلى فأنشده :

وآمِرَةٍ بالبُخْلِ قلتُ لها اقْصِرى ٭ فليس إلى ما تأمُرِينَ سَــبيلُ

فَعَالِى فعَالُ الْمُكْثِرِينَ تَجَمُّلاً * ومالى كما قد تَعلَمِينَ قليلُ
فكيفَ أخافُ الفقرَ أو أُحْرَمُ الغِنَى * ورأىُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ

فقال له الرشيد : لله دَرُّ أبيات تأتينا بها ! ما أحسنَ أصولها وأبْيَنَ فصولها، وأقل فضولها ! يا غلام أعطه عشرين ألفا . قال : والله لا أخذت منها درهما واحدا ! قال : ولم ؟ قال : لأن كلامك والله يا أمير المؤمنين خيرٌ من شعرى ! قال : أعطوه أربعين ألفا . قال الأصمعى : فعلمت والله أنه أصْيَدُ لدراهم الملوك منى .

معاوية وزيد ابن منية

العتبى عن أبيه قال : قدم زيد بن مُنية من البصرة على معاوية ، وهو أخو يعلى بن مُنية صاحب الجمل ؛ جمل عائشة رضى الله عنها ، ومتولى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ؛ وكانت ابنة يعلى عند عتبة بن أبى سفيان ؛ فلما دخل على معاوية شكا دَيْنَه ، فقال : يا كعب ، أعطه ثلاثين ألفا . فلما ولَّى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى ، ثم قال له : الْحَقْ بصهرك - يعنى عُتبة - فقدم عليه مصر . فقال : إنى سرت إليك شهرين ، أخوض فيهما المتالف ، ألبس أردية الليل مَرَّة ، وأخوض فى لُجَج السراب أخرى ، مُوقَراً من حُسن الظن بك ، وهارباً من دهر قَطِم ، ومن دين لَزِم ، بعد غِنًى جَدَعْنا به أنوفَ الحاسدين . فقال عتبة : إن الدهر أعاركم غنى ، وخلطكم بنا . ثم استردّ ما أمكنه أخذه ، وقد أبقى لكم منّا ما لا ضَيْعَةَ معه ، وأنا رافع يدى ويدك بيد الله ، فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

ابن سويد وأبو ساسان

إبراهيم الشيبانى قال : قال عبد الله بن على بن سُويد بن مَنْجوف : أعدَمَ أبى إعدامةً بالبصرة وأنفَضَ ، فخرج إلى خراسان فلم يصب بها طائلا . فبينا هو يشكو تعزُّر الأشياء عليه ، إذ عدا غلامُه على كسوته وبغلته فذهب بهما . فأتى أبا ساسان حُضين بن المُنذر الرقاشى فشكا إليه حاله ، فقال له : والله يابن أخى ، ما عمُّك ممن يحمل محاملَك ، ولعلى أن أحتال لك . فدعا بكسوة حسنة فألبسنى إياها ، ثم قال : امض بنا . فأتى باب والى خراسان ، فدخل وتركنى بالباب ، فلم ألبث أن خرج الحاجب فقال : أين علىّ بن سُويد ؟ فدخلت إلى الوالى ، فإذا حُضين

على فراش إلى جانبه ، فسلمت على الوالى فردّ علىّ ، ثم أقبل عليه حُضين فقال : أصلح الله الأمير ، هذا على بن سُويد بن مَنجوف ، سيد فتيان بكر بن وائل وابن سيد كهولها ، وأكثر الناس مالا حاضراً بالبصرة وفى كل موضع ملكتْ به بكرُ ابن وائل مالا ، وقد تحمّل بى إلى الأمير فى حاجة . قال : هى مقضية . قال : فإنه يسألك أن تمُدّ يدك فى ماله ومراكبه وسلاحه إلى ما أحببت . قال : لا والله لا أفعل ذلك به ، نحن أولى بزيادته . قال : فقد أعفيناك من هذه إذْ كرهتَها ، فهو يسألك أن تحمّله حوائجك بالبصرة . قال : إن كانت حاجة فهو فيها ثقة ، ولكن أسألك أن تكلّمه فى قبول معونة منا ؛ فإنا نحب أن يُرَى على مثله من أثرنا . فأقبل علىّ فقال : يا أبا الحسن ، عزمتُ عليك ألّا تردّ على عمّك شيئاً أكرمك به . فسكتُّ . قال : فدعا لى بمال ودوابّ وكساً ورقيق ، فلما خرجت قلت : أبا ساسان ، لقد أوقفتنى على خطة ما وقفتُ على مثلها قط . قال : اذهب إليك يابن أخى ، فعمُّك أعلم بالناس منك ؛ إن الناس إن علموا لك غِرارةً من مال حَشَوْا لك أخرى وإن يعلموك فقيراً تعدّوا عليك مع فقرك .

المهدى وأبو دلامة

إبراهيم الشيبانى قال : ولد لأبى دلامة ابنة ليلا ، فأوقد السِّراج وجعل يخيط خريطة من شُقق ، فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدى فاستأذن عليه ، وكان لا يحجب عليه ، فأنشده :

لو كان يقعُدُ فوقَ الشمسِ من كَرَمٍ ✽ قومٌ لقِيلَ اقْعُدوا يا آل عبّاسِ

ثم ٱرتَقوا من شُعاع الشمس فى دَرَجٍ ✽ إلى السماء فأنتمْ أكرَمُ الناسِ

قال له المهدى : أحسنت والله أبا دلامة ، فما الذى غدا بك إلينا ؟ قال : وُلدت لى جارية يا أمير المؤمنين . قال : فهل قلت فيها شعرا ؟ قال : نعم قلت :

فما وَلَدَتْكِ مريمُ أمُّ عيسى ✽ ولم يَكْفُلْكِ لقمانُ الحكيمُ

ولكنْ قد تَضُمُّكِ أمُّ سَوْءٍ ✽ إلى لَبّاتِها وأبٌ لئيمُ

قال فضحك المهدى وقال : فما تريد أن أعينك به فى تربيتها أبا دلامة ؟ قال : تملأ هذه يا أمير المؤمنين . وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه . فقال المهدى :

وما عسى أن تحمل هـذه ؟ قال : من لم يقنع بالقليـل لم يقنع بالكثير . فأمر أن تُملأ مالا ، فلما نُشرت أخذتْ عليهم صحنَ الدار ، فدخل فيها أربعة آلاف درهم .

وكان المهدى قد كسا أبا دلامة ساجا ، فأُخذ به وهو سكران ، فأُتى به إلى المهدى ؛ فأمر بتمزيق الساج عليه وأن يحبس فى بيت الدّجاج ؛ فلما كان فى بعض الليل وصحا أبو دلامة من سُكره ورأى نفسه بين الدّجاج ، صاح : يا صاحب البيت ! فاستجاب له السجان ، قال : مالك ياعدوّ الله ؟ قال : ويْلَك ! من أدخلنى مع الدّجاج ؟ قال : أعمالك الخبيثة ! أُتى بك أميرُ المؤمنين وأنت سكران ، فأمر بتمزيق ساجك وحبْسِك مع الدّجاج . قال له : ويلك ! أوَ تقدر على أن تُوقد لى سراجا وتجيئنى بدواة وورق ولك سَلَبى هـذا . فأتاه بدواة وورق ؛ فكتب أبو دُلامه إلى المهدىّ :

أَمِن صهْباء صافيـةِ المِزاجِ ۞ كأنّ شعاعَها لهبُ السِّراجِ
تَهَشُّ لهـا النفوسُ وتشتهيها ۞ إذا بَرَزت تَرقرقُ فى الزُّجاجِ
وقد طبخت بنـار الله حتى ۞ لقد صارت من النُّطف النِّضاجِ
أميرَ المؤمنين فدتْكَ نفسى ۞ علامَ حبستَنِى وخرقت ساجى
أُقادُ إلى السجونِ بغير ذنب ۞ كأنى بعضُ عُمـالِ الخَراجِ
ولو معهم حُبستُ لهان وجدى[1] ۞ ولـكنى حُبستُ مع الدَّجاجِ
دَجاجات يُطيفُ بِهِنّ ديك ۞ يُنادى بالصياحِ إذا يُناجى
وقد كانت تُخبّرُنى ذنوبى ۞ بأنى من عذابك غيرُ ناجى
على أنى وإن لاقيتُ شرًّا ۞ لخيْرِك بعد ذاك الشرّ راجى

ثم قال أوصِلها إلى أمير المؤمنين. فأوصلها إليه السجّان ، فلما قرأها أمر بإطلاقه وأدخله عليه ، فقال له : أين بت الليلة أبا دُلامة ؟ قال : مع الدجاج يا أمير المؤمنين . قال : فـما كنتَ تصنع ؟ قال : كنت أُقاقى معهن حتى أصبحْت . فضحك المهدى

(١) فى بعض الأصول « ذا كم » .

وأمر له بصلة جزيلة ، وخلع عليه كسوة شريفة .

بين أبي دلامة وعيسى بن موسى

وكتب أبو دُلامة إلى عيسى بن موسى وهو والى الكوفة رُقعة فيها هذه الأبيات :

إذا جئت الأميرَ فقل سلامٌ * عليك ورحمةُ الله الرَّحيمِ
فأما بعدَ ذاك فلِى غريمٌ * من الأنصارِ قُبّحَ منْ غريمِ ٥
لَزومٌ ما علِمتُ لِبابِ دارى * لُزُومَ الكلبِ أصحاب الرَّقيمِ
له مِائةٌ علىّ ونِصفُ أُخْرَى * ونِصفُ النصْفِ فى صكٍّ قديم
دراهِمُ ما انتفعْتُ بها ولكن * وَصَلْتُ بها شُيوخَ بنى تميمِ
أتونى بالعشيرة يسألونى * ولم أكُ فى العشيرة باللئيم

قال : فبعث إليه بمائة ألف درهم . ١٠

أبو دلف وأبو دلامة

ولقى أبو دُلامة أبا دُلف فى مَصادٍ له وهو والى العراق ، فأخذ بعِنان فرسه وأنشده :

إنى حَلفْتُ لئِنْ رأيتُكَ سالمًا * بِقُرَى العراقِ وأنتَ ذُو وَفْرِ
لتُصَلِّيَنَّ عَلى النبىِّ مُحَمّدٍ * ولتَمْلأَنَّ دراهماً حِجْرِى

فقال : أمّا الصلاة على النبىّ فنعم ، صلى الله عليه وسلم . وأما الدراهم ، فلمّا نرجع إن شاء الله تعالى . قال له : جُعلتُ فِداك . لا تَفْرِق بينهما . فاستلفها له وصُبّت فى حِجره حتى أثقلتْه . ١٥

أبو دلامة والمهدى

ودخل أبو دُلامة على المهدى ، فأنشده أبياتاً أعجب بها ، فقال له : سَلْنى أبا دُلامة واحتكم وأفرِط ما شئت . فقال : كَلبٌ يا أمير المؤمنين أصطاد به . قال : قد أمرنا لك بكَلْب ، وهاهنا بلغت همتك ، وإلى هاهنا انتهت أُمنيتك ؟ قال : لا تعْجَل علىّ يا أمير المؤمنين ، فإنه بقى علىّ . قال : وما بقى عليك ؟ قال : غلامٌ يقود الكلب . قال : وغلام يقود الكَلب . قال : وخادِم يَطبخ الصَّيد . قال : وخادم يطبخ الصيد . قال : ودار نَسكنها . قال : ودار تَسكنها . قال : وجارية نأوى إليها . ٢٠

قال: وجارية تأوى إليها. قال: قد بقى الآن المعاش. قال: قد أقطعناك ألفى جريب عامرة وألفى جريب غامرة. قال: وما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: التى لا تَعْمُر. قال: أنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفا من فيافى بنى أسد. قال: قد جعلتُها كلَّها لك عامرة. قال: فيأذن لى أمير المؤمنين فى تقبيل يده؟ قال: أما هذه فدعها. قال: ما منعتَنى شيئاً أيسرَ على أمّ ولدى فقداً منه. ٥

أبو دلامة والمنصور

ودخل أبو دُلامة على أبى جعفر المَنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة، وكان قد أخذ أصحابَه بلباسها وأخذهم بلُبس دراريع، عليها مكتوب بين كتفى الرجل: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ وأمرهم بتعليق السيوف على أوساطهم. فدخل عليه أبو دُلامة فى ذلك الزِّىّ، فقال له: كيف أصبحت أبا دُلامة؟ قال: بِشَرِّ حال يا أمير المؤمنين. قال: كيف ذلك؟ ويلك. قال: وما ظنُّك ١٠ يا أمير المؤمنين بمن أصبح وجهُه فى وسطه، وسيفُه على اسْتِه، وقد نَبَذ كتاب الله وراء ظهره؟ قال: فضحك أبو جعفر وأمر بتغيير ذلك، وأمر لأبى دُلامة بصلة.

هو والمنصور أيضاً

وأوصل أبو دُلامة إلى العبّاس بن منصور رقعةً فيها هذه الأبيات:

قِفْ بالديار وأىَّ الدهرِ لم تَقِفِ * على منازلَ بينَ السَّهْلِ والنجفِ ١٥
وما وُقوفُكَ فى أطْلال منزلةٍ * لولا الذى استحدثتْ فى قلبكَ الكَلِفِ
إنْ كنتَ أصبَحْتَ مشْغوفاً بجاريَةٍ * فلا وربِّكَ لا يشفيكَ من شَغَفِ
ولا يَزيدُك إلا العَلَّ مِن أسَفٍ * فهل لقلبِك مِن صبْرٍ على الأسفِ
هـذى مقالَةُ شَيْخٍ مِنْ بنى أسدٍ * يُهدِى السَّلامَ إلى العبَّاسِ فى الصُّحُفِ
تَخُطُّها من جوارى المِصْرِ كاتبةٌ * قد طالما ضُرِبت فى اللام والألفِ ٢٠
وطالمَا اخْتَلَفَتْ صَيْفاً وشاتِيَةً * إلى مُعَلِّمِها باللَّوْحِ والكَتِفِ
حتى إذا ما استوَى الثَّدْيانِ وامْتَلأتْ * منها وخِيفَتْ على الإسرافِ والقَرَفِ
صِينتْ ثلاثَ سِنِين ما تَرَى أحداً * كما تُصانُ بِبَحْرٍ دُرَّةُ الصَّدَفِ

بينا الفتى يَتَمشّى نحوَ مَسْجِدِه * مُبادِراً لِصلاةِ الصُّبْحِ بالسُّدفِ
حانتْ لهُ نَظْرَةٌ منها فأبصرها * مُطِلّةً بين سجْفَيْها مِنَ الغُرَفِ
فخَرَّ فى التُّرْبِ ما يَدْرِى غَداتَئذٍ * أَخَرَّ مُنْكَشِفاً أَو غيرَ مُنْكَشِفِ
وجاءهُ القَوْمُ أفواجاً بمائِهِمُ * لِيَنْضَحُوا الرجُلَ المَغْشِىَّ بالنطَفِ
فوَسْوَسُوا بِقُرْانٍ فى مَسامِعِهِ * خوفاً من الجنّ والإنسان لم يَخَفِ... ٥
... شيئاً ، ولكنه مِنْ حُبِّ جاريةٍ * أَمْسَى وأصبح منْ موْتٍ على شرفِ
قالوا لك الخيْرُ ما أبصرتَ قلتُ لهم * جِنِّيَّةٌ أقصدَتْني من بنى خَلَفِ
أبصرْتُ جاريةً مَحْجوبةً لهُمُ * تطلّعتْ من أعالى القصرِ ذى الشُّرَفِ
فقلت : أَيُّكُمُ واللهُ يأْجُرُهُ * يُعيرُ قُوَّتَهُ مِنِّى إلى ضَعَفِ
فقامَ شَيْخٌ بَهِىٌّ مِنْ تِجارِهِمُ * قد طالَما خَدَعَ الأقوامَ بالحَلِفِ ١٠
فابتاعَها لى بأَلْفَىْ أَحْمَرٍ فغَدَا * بها إلىَّ فألقاها على كَتِفِى
فبِتُّ أَلْثِمُها طوْراً وتلثِمُنى * طوْراً ونفعلُ بعضَ الشىءِ فى اللُّحُفِ
بِتْنا كذلك حتى جاءَ صاحِبُها * يَبْغِى الدنانيرَ بالميزانِ ذى الكِفَفِ
وذاك حقٌّ على « زَنْدٍ » وكيف بِهِ * والحَقُّ فى طرفٍ والعينُ فى طرف
وبين ذاكَ شهودٌ لم أُبالِ بِهِمْ * أكنتُ مُعْتَرِفاً أم غيرَ مُعْتَرِفِ ١٥
فإنْ تَصِلْني قَضَيْتُ القومَ حَقَّهُمُ * وإن تَقُلْ لا فَحَقُّ القوم فى تَلَفِ

فلما قرأ العباس الأبيات أُعجِب بها وآستظرفها وقضى عنه ثمن الجارية . واسم أبى دلامة زَنْد .

جعفر بن يحيى وعبد الملك بن صالح

إبراهيم بن المهدى قال : قال لى جعفر بن يحيى يوماً : إنى آستأذنت أمير المؤمنين فى الحِجامة وأردتُ أن أخلوَ وأفِرَّ من أشغال الناس وأتروّح ، فهل أنت مساعدى ٢٠ قلت : جعلنى الله فِداك ، أنا أسعد الناس بمساعدتك وآنَسُ بمُخالاتك . قال : بكِّرْ إلىَّ بُكُور الغراب . قال فأتيت عند الفجر الثانى ، فوجدت الشمعةَ بين يديه ، وهو قاعد ينتظرنى للميعاد . قال فصلينا ثم أفضْنا فى الحديث حتى جاء وقت الحجامة

فأُتى بحجّام فحجّمنا فى ساعة واحدة ، ثم قُدِّم إلينا طعامٌ فطَعِمْنا ، فلما غسلنا أيدينا خُلع علينا ثياب المُنادمة ، وضُمّخنا بالخَلُوق ، وظَلِلنا بأَسَرِّ يومٍ مرَّ بنا ، ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب . فقال : إذا جاء عبد الملك القَهرمانى فأذنْ له . فنسى الحاجب . وجاء عبدُ الملك بن صالح الهاشمى على جلالته وسنّه وقَدره وأدبه ،

٥ فأذِن له الحاجب . فما راعنا إلا طالعةُ عبد الملك . فتغير لذلك جعفرُ بن يحيى وتنغص عليه ما كان فيه . فلما نظر عبد الملك إليه على تلك الحالة ، دعا غلامَه فدفع إليه سيفَه وسوادَه وعمامتَه ، ثم جاء ووقف على باب المجلس ، وقال : آصنعوا بى ما صنعتم بأنفسكم . قال : فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة ، ودعا بالطعام فطَعِم ، ثم جاء بالشراب فشرِبَ ثلاثاً ، ثم قال : لِيُخفَّف عنّى فإنه شىء ما شربتُه قط . فتهلل

١٠ وجهُ جعفر وفرح . وكان الرشيد قد عَتب على عبد الملك بن صالح ووجد عليه ، فقال له جعفر بن يحيى : جعلنى الله فداك ، قد تفضَّلتَ وتطوَّلت وأسعدْت ، فهل من حاجة تبلُغها مقدرتى ، أو تحيط بها نعمتى ، فأقضيها لك مكافأةً لما صنعْت؟ قال : بلى ، إن قلب أمير المؤمنين عاتبٌ علىّ فسَلْهُ الرضا عنى . قال : قد رضى عنك أمير المؤمنين . ثم قال : علىَّ أربعة آلاف دينار : قال : حاضرة ، ولكن من مال

١٥ أمير المؤمنين أحَبُّ إليك . قال : وابنى إبراهيم أحب أن أشُدّ ظهره بصهرٍ من أولاد أمير المؤمنين . قال . قد زوّجه أمير المؤمنين عائشة . قال : وأُحب أن تخفق الألويةُ على رأسه . قال : قد ولّاه أمير المؤمنين مِصر . قال : وانصرف عبد الملك ونحن نعجبُ من إقدامه على قضاء الحوائج من غير آستئذان أمير المؤمنين . فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر ، فلم نلبث أن دُعى بأبى يوسف القاضى

٢٠ ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك ، فعقد النكاح وحُملت البِدَرُ إلى منزل عبد الملك ؛ وكتب سِجلُّ إبراهيم على مصر . وخرج جعفر فأشار إلينا ، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه ، نزل ونزلنا بنزوله ؛ فالتفت إلينا ، فقال : تعلقت قلوبكم بأول أمرِ عبد الملك فأحببتم معرفةَ آخره ، وإنى لما دخلت على أمير المؤمنين مَثَلتُ بين يديه وابتدأت القصة من أولها ؛ فجعل يقول : أحْسَنَ واللهِ ، فما صنعتَ؟

فأخبرته بما سأل وبما أجبتُه به ، فجعل يقول فى ذلك : أحسنت : أحسنت !
وخرج إبراهيم والياً على مصر .

ذو حاجة على باب ملك من الأكاسرة

وقدم رجل على ملك من ملوك الأكاسرة ، فمكث ببابه حيناً لا يصل إليه ، فتلطف فى رقعة أوصلها إليه ، وفيها أربعة أسطر :

فى السطر الأول : الضُّر والأمل أقدمانى عليك . ٥

والسطر الثانى : الفقر لا يكون معه صبر على المطالبة .

والسطر الثالث : الانصراف بلا فائدة فتنةٌ وشماتةٌ للعدو .

والسطر الرابع : فإما نعمْ مثمرة ، وإما لا مُرِيحةٌ .

فلما قرأها وقّع تحت كل سطر منها بألف مثقال وأمر له بها .

يحيى بن خالد وشاعر

وقد دخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد بن بَرْمك فأنشده : ١٠

سألتُ النَّدَى هل أنت حُر؟ فقال لا * ولكنَّنى عبدٌ ليَحْيى بنِ خالدِ
فقلتُ شِراءً قال لا بل وِراثةً * تَوارَثَنى عن والدٍ بعدَ والدِ

فأمر له بعشرة آلاف .

خالد القسرى وأعرابى

ودخل أعرابىّ على خالد بن عبد الله القسرىّ فأنشده :

أخالدُ إنى لم أزُرْكَ لخَلَّةٍ * سِوى أننى عافٍ وأنتَ جوادُ ١٥
أخالدُ بيْنَ الحمدِ والأجرِ حاجتى * فأيّهما تأْتى فأنتَ عِمادُ

فأمر له بخمسة آلاف درهم .

العباس القائد وابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى ـ ودخلتُ على أبى العبّاس القائد فأنشدتُه :

اللهُ جَرَّد للنَّدَى والبــاسِ * سيْفاً فقَلّدَهُ أبا العبّاسِ
مَلِكٌ إذا اسْتَقْبَلْتَ غُرَّةَ وجهِه * قَبضَ الرَّجاءِ إليكَ روحَ الياسِ ٢٠
وجهٌ عليه منَ الحياءِ سَكينةٌ * ومَحبّةٌ تَجْرى من الأنفاسِ
وإذا أحبَّ اللهُ يَوماً عبْدَهُ * ألقى عليه مَحبّــةً للناسِ

ثم سألتُه حاجة فيها بعضُ الغِلظ ، فتلكأ علىّ . فأخذت سَحاية من بين يديه

فوقّعتُ فيها على البديهة :

ما ضرَّ عندك حاجتى ما ضرَّها * عُذراً إذا أعْطيْتَ نفسكَ قدْرَها
انظرْ إلى عَرْضِ البلادِ وطولِها * أوَلستَ أكرمَ أهلها وأبرَّها
حاشى لجودِك أنْ يُوعِّرَ حاجتى * ثقتى بجودِك سَهَّلَتْ لى وَعْرَها
٥ لا يَجْتَنى حُلْوَ المحامدِ ماجدٌ * حتى يذوقَ من المطالبِ مُرَّها

فقضى الحاجة وسارع إليها .

المتوكل وعبد الله ابن يحيى

وأبطأ عبدُ الله بن يحيى عن الديوان ، فأرسل إليه المتوكل يتعرف خبره ، فكتب إليه :

عليلٌ من مكانيْنِ * مِنَ الإفلاسِ والدَّيْنِ
١٠ ففى هٰذيْنِ لى شُغْلٌ * وحَسْبى شُغْلُ هٰذيْنِ

فبعث إليه بألف دينار .

الفضل بن يحيى ومستمنح

عبد الله بن منصور قال : كنت يوماً فى مجلس الفضل بن يحيى ، فأتاه الحاجب فقال : إن بالباب رجلا قد أكثر فى طلب الإذن وزَعَم أن له يداً يَمُتُّ بها قال : أدْخِلْه . فدخل رجل جميل الوجه رَثُّ الهيئة ، فسلّم فأحْسَن . فأومأ إليه ١٥ بالجلوس فجلس ؛ فلما علم أنه قد انطلق وأمكنه الكلام ، قال له : ما حاجتك ؟ قال له : قد أعربتْ بها رثاثةُ هيئتى ، وضعفُ طاقتى ! قال : أجلْ ، فما الذى تَمُتُّ به ؟ قال : ولادةٌ تقرب من ولادتك ، وجوار يدنو من جوارِك ، واسم مشتق من اسمك . قال : أمّا الجوار فقد يمكن أن يكون كما قلت ، وقد يُوافق الاسمُ الاسم ، ولكن ما علَّمَكَ بالولادة ؟ قال : أعلمتْنى أمى أنها لما وضعتْنى ٢٠ قيل إنه وُلِد الليلةَ ليحيى بن خالد غلام وسُمّى الفضل ؛ فسمّتنى فُضَيْلاً ، إعظاماً لاسمك أن تُلْحِقَنى بك . فتبسّم الفضل وقال : كم أتى عليك من السنين ؟ قال : خمسٌ وثلاثون . قال : صدقت ، هذا المقدار الذى أتيْت عليه ؛ فما فعلت أُمُّك ؟ قال : توفيت رحمها الله ، قال : فما منعك عن اللُّحوق بنا فيما مضى ؟ قال : لم أرض نفسى للقائك ، لأنها كانت فى عامّية وحداثة تُقْعِدنى عن لقاء الملوك . قال : يا غلام

أعطه لكل عام مضى من سنيه ألفاً ، وأعطه من كسوتنا ومراكبنا ما يصلح له .
فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانه وخاصة أهله .

من حبيب إلى ابن أبي دواد

وكتب حبيب بن أوس الطائى إلى أحمد بن أبى دُواد :

اعــلمْ وأنتَ المرء غيْرَ مُعلَّمِ * وافهمْ جُعِلْتُ فداك غيْرَ مُفهَّمِ
أنّ اصطناع العُرْفِ مالم تُولِهِ * مُستكمِلا كالثوبِ ما لم يُعْلَمِ ٥
والشُّكرُ مالم يُستَتَرْ بصَنيعةٍ * كالخطّ تقرؤهُ وليس بمُعْجَمِ
وتفنُّنِى فى القولِ إكثارٌ وقد * أسرجْتَ فى كرَم الفعالِ فألجِمِ

وقال دعبل بن على الخزاعى فى طاهر بن الحسين صاحب خراسان :

أياذا اليمَنَيْنِ والدَّعْــوتيْنِ * ومن عنده العُرفُ والنّــائلُ
أترْضى لِمثْــلِى أنى مُقيم * ببابِكَ مُطَّرَحٌ خامِــلُ ١٠
رَضيتُ من الوُدّ والعائداتِ * ومن كل ما أمّلَ الآمِلُ
بتَسليمَةٍ بيْنَ خمسٍ وسِتٍّ * إذا ضمّــكَ المجلِسُ الحافلُ
وما كنتُ أرضى بذا من سِواكَ * أيرضى بذا رَجُــلٌ عاقلُ
وإن نابَ شغْلٌ فنى دونَ ما * تُدبّرُهُ شُغُــلٌ شاغلُ
عليكَ السلامُ فإنى امرُؤٌ * إذا ضــاقَ بى بلدٌ راحِلُ ١٥

بين زياد وضبى

الأصمعى قال : نظر زياد إلى رجل من ضَبّة يأكل أكلا قبيحاً ، وهو أقبح الناس وجهاً ، فقال : يا أخا ضَبّة ، كم عيالك ؟ قال : سبع بنات أنا أجمل منهن وجهاً ، وهن آكَلُ منى . فضحك زياد وقال : لله درك ! ما ألطفَ سؤالك ! افرضوا له ولكل واحدة منهن مائة وخادماً ، وعجّلوا له ولهن بأرزاقهن . فخرج الضبى وهو يقول : ٢٠

إذا كنتَ مُرْتادَ السّماحةِ والنّدَى * فنــادِ زِياداً أوْ أخًا لزيادِ
يُجبْكَ امرُؤٌ يُعطِى على الحمدِ مالهُ * إذا ضَنّ بالمعْروفِ كُلُّ جَوادِ
وما لِىَ لا أُثنى عليكَ وإنمــا * طَرِيفِىَ من مَعروفكُمْ وتِلادِى

دعبل وبعض أمراء الرقة

ووقف دعبل ببعض أمراء الرقّة ، فلما مثل بين يديه قال : أصلح الله الأمير ، إنى لا أقول كما قال صاحب مَعْن :

بأىّ الخلّتين عليك أُثنى * فإنى عندَ مُنْصرَفى مَسُولُ
أبِالحسنى وليس لها ضِياءٌ * علىّ فمنْ يُصَدِّقُ ما أقولُ
٥ أمِ الأخرى ولستَ لها بأهْلٍ * وأنتَ لكلّ مَكْرُمَة فعُولُ

ولكنى أقول :

ماذا أقولُ إذا أتيتُ مَعاشِرِى * صِفْراً يَداى منَ الجواد المُجْزِلِ
إنْ قلتُ أعْطانى كَذَبْتُ وإن أقُلْ * ضَنَّ الأميرُ بمالِهِ لم يَجْمُلِ
ولأنتَ أعْلمُ بالمكارِم والعُلا * مِنْ أنْ أقولَ فَعلتَ ما لم تَفعلِ
١٠ فاخْتَرْ لنفسكَ ما أقولُ ، فإننى * لا بُدَّ مُخْبِرُهُم وإن لم أُسْأَلِ

قال له : قاتلك الله ! وأمر له بعشرة آلاف درهم .

بشر بن مروان وابن عبدل

العُتبى قال : دخل ابن عَبْدل على عبد الملك بن بشر بن مروان لما ولى الكوفة ، فقعد بين السماطين ثم قال : أيها الأمير ، إنى رأيت رُؤيا فأْذَنْ لى فى قَصَصِها . فقال : قل . فقال :

١٥ أغفَيْت قبل الصُّبْح نومَ مُسَهَّدٍ * فى ساعةٍ ما كنتُ قبلُ أنامُها
فرأيتُ أنكَ رُعْتَنِى بوَليدةٍ * مَفلوجَةٍ حَسَنٍ علىَّ قيامُها
وببِدْرة حُمِلَت إلىّ وبغْلةٍ * شَهْباء ناجيَةٍ يَصِرُّ لجامُها

قال له عبد الملك بن بشر بن مروان : كل شىء رأيت فهو عندى إلا البغلة ، فإنها دهماء فارهة . قال : امرأتى طالق ثلاثا إن كنتُ رأيتُها إلا دهماء ،
٢٠ إلا أنى غَلِطت .

على الأرمنى والبطين

الشيبانى عن البطين الشاعر قال : قدمت على علىّ بن يحيى الأرمنىّ فكتبتُ إليه :

رأيتُ فى النَّوْم أنى راكبٌ فرساً * ولِي وصيفٌ وفى كفِّى دنانيرُ
فقال لمْ قومٌ حِذْقٌ ومَعْرِفة * رأيتَ خيراً وللأحلام تَعْبيرُ

رُؤياكَ فسِّرْ غداً عندَ الأميرِ تجدْ ＊ تعبيرَ ذاكَ وفى الفألِ التَّباشيرُ
لجئتُ مُسْتَبْشراً مُسْتَشعِراً فرَحاً ＊ وعندَ مِثْلِكَ لى بالفعلِ تَيْسيرُ

قال : فوقّع لى فى أسفل كتابى : « أضغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ثم أمر لى بكل شىء ذكرته فى أبياتى ورأيته فى منامى .

لبشار

وقال بشار العقيلى : ٥

حتى متَى ليْتَ شِعْرى يابن يَقْطِينِ ＊ أُثني عليْك بما لاَ منك تُوليني
أمَا عَلِمتَ جَزاكَ اللهُ صالحةً ＊ عنى وزادَكَ خيْراً يابن يَقْطِينِ
أنى أُرِيدُكَ للدُّنيا وزينتِها ＊ ولا أُرِيدُكَ يوْمَ الدِّينِ للدِّين

لبعض الشعراء

وقال آخر فى مثل هذا المعنى :

يابنَ العلاءِ ويابنَ القَرْمِ مِرْداسِ ＊ إنى لَأُطْرِيكَ فى أهلى وجُلاَّسِي ١٠
أُثنى عليــكَ ولى حالٌ تُكذِّبُنى ＊ فيما أقولُ فأَسْتَحْيِي من الناسِ
حتى إذا قيلَ : ما أعْطاكَ مِن صَفَدٍ ＊ طأطأتُ مِن سوءِ حالى عندها راسِي

الأخذ من الأمراء

لعثمان فى جائزة السلطان

حدّثنا جعفر بن محمد ، عن يزيد بن سِمْعان ، عن عبد الله بن ثَوْر ، عن عبد الحميد بن وهب ، عن أبى الخَلاّل ، قال : سألت عثمان بن عفّان عن جائزة ١٥ السلطان ، فقال : لحمٌ طرىٌّ ذكى .

عكرمة والجائزة

جعفر بن محمد ، عن يحيى بن محمد العامرىّ ، عن المُعتمر ، عن عِمْران بن حُدَير ، قال : انطلقت أنا ورجل إلى عكرمة ، فرأى الرجل عليه عمامة متخرِّقة ، فقال الرجل : عندنا عمائم ، ألا نبعث إليك بعمامة منها ؟ قال عكرمة : إنا لا نقبل من الناس شيئاً ، إنما نقبل من الأمراء . ٢٠

الحسن البصرى وخميصته

وقال هشام بن حسان : رأيتُ على الحسن البصرى خَميصةً لها أعلام يصلّى فيها ، أهداها إليه مَسلمة بن عبد الملك .

الرسول صلى الله عليه وسلم وخفان أهداهما النجاشي

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس خُفَّين أسودين أهداهما إليه النجاشي صاحب الحبشة.

وقال نافع: كان عبد الله بن عمر يقبل هدايا أهل الفِتْنة، مثل المختار وغيره.

جائزة الرشيد لأبن أنس

ودخل مالك بن أنس على هارون الرشيد فشكا إليه دَيْناً لزمه فأمر له بألف دينار عَيْن. فلما وضع يديه للقيام، قال: يا أمير المؤمنين، وزوّجتُ ابنى محمداً فصار علىّ فيه ألفُ دينار. قال: ولابنه محمد ألف دينار.

قال: فلقد مات مالك وتركها لوارثه فى مِزْود.

وقال الأصمعى: حدثنى إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: كان الربيع بن خُثَيم فى ألف ومائة من العطاء فكلم فيه أبى معاويةَ فألحقه بألفين؛ فلما حضر العطاء نودى الربيعُ بن خُثَيم، فقيل له: فى ألفين. فقعد، فنظروا فوجدوا على اسمه مكتوبا: كَلَّم فيه يحيى بنُ طلحة أميرَ المؤمنين فألحقه بألفين.

إبراهيم بن أدهم ورجل أراد أن يهب له

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: يا أبا إسحاق، كنتُ أريد أن تقبل منى هذه الجُبة كُسوةً. قال: إن كنتَ غنيا قبلتُها منك، وإن كنتَ فقيراً لم أقبلها منك. قال: فإنى غنىّ. قال: وكم مالك؟ قال: ألفا دينار. قال: فأنتَ تودُّ أنها أربعة آلاف؟ قال: نعم. قال: فأنت فقير، لا أقبلها منك.

ابن الأغلب وابن الفرات فى مال قسم عليهم

وأمر إبراهيم بن الأغلب المعروف بزيادة الله، بمال يقسم على الفقهاء، فكان منهم من قَبل ومنهم من لم يقبل، فكان أسدُ بن الفُرات فيمن قَبل، فجعل زيادة الله يَغْمِص على كل من قَبِل منهم، فبلغ ذلك أسدَ بن الفرات، فقال: لا عليه، إنما أخذنا بعضَ حقوقنا والله سائله عما بقى!

لذى الرمة

وقد فخرت العربُ بأخذ جوائز الملوك وكان من أشرف ما يتموّلونه، فقال ذو الرمة:

وما كان مالى من تُراثٍ ورِثْتُهُ ... ولا دِيةٍ كانتْ ولا كَسْبِ مَأْثَمِ

ولكن عطاءُ اللهِ من كلِّ رحلةٍ ... إلى كلِّ مَحْجُوبِ السُّرادقِ خِضْرِمِ

بعض الشعراء يهجو مروان بن أبى حفصة

وقال آخر يهجو مروان بن أبى حفصة ويعيبه بأخذه من العامة ويفخر بأنه لا يأخذ إلا من الملوك، فقال:

عَطايا أمير المؤمنينَ،ولم تكنْ ٭ مُقَسَّمةً مِنْ هؤُلا وأولئكا
وما نِلْت حتى شِبتَ إلا عطيَّةً ٭ تَقومُ بها مَصْرورةً فى رِدائِكا

تفضيل بعض الناس على بعض فى العطاء ٥

ابن الخطاب وابن خذيم

ذَكر عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه الفقراء فقال: إن سعيد بن خِذْيم منهم. فأعطاه ألف دينار، وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا أعطيتَ فأغْنِ.

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفدٌ من العرب فأعطاهم وفضلَ رجلا منهم؛ فقيل له فى ذلك، فقال: كل القوم عِيالٌ عليه. ١٠

الرسول صلى الله عليه وسلم والعباس بن مرداس

وأعطى النبى صلى الله عليه وسلم يوم حنين المؤلَّفةَ قلوبُهم، فأعطى الأقرعَ ابن حابس التميمى. وعُيينة بن حصن الفَزارى، مائةً من الإبل، وأعطى العبّاس بن مرداس السُّلمى خمسين؛ فشق ذلك عليه، فقال أبياتا. فأتاه بها وأنشده إياها وهى:

أيَذْهبُ نَهبى ونَهْبُ العُبيـــدِ بيْنَ عُيَيْنَةَ والأقْرَعِ ١٥
ولا كانَ حِصْنٌ ولا حابِسٌ ٭ يَفُوقانِ مِرْداسَ فى مَجْمَعِ
وما كنتُ غيْرَ امرِئٍ منهُمُ ٭ ومَن تَضَعِ اليَوْمَ لم يُرْفَعِ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال: أقطع عنى لسان العباس. فأعطاه حتى أرضاه.

الرسول صلى الله عليه وسلم وصفوان بن أمية

وقال صفوان بن أُميـة: لقد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٠ وما خَلق الله خلقاً أبغَضَ إلىّ منه فما زال يُعطينى حتى ما خلق الله خلقاً أحبَّ إلىَّ منه. وكان صفوان بن أمية من المؤلَّفة قلوبُهم.

شكر النعمة

سليمان التميمي قال: إن الله أنعم على عباده بقدر قدرته، وكلفهم من الشكر بقدر طاقتهم. — لسليمان التميمي

وقالوا: مكتوبٌ في التوراة: اشكرْ لمن أنعمَ عليك، وأنعمْ على من شكرك. — لبعضهم

وقالوا: كفر النعمة يوجب زوالها، وشكرُها يوجب المزيد فيها. ٥

وقالوا: مَن حمدك فقد وفَّاك حقَّ نعمتك.

وجاء في الحديث: مَن نَشر معروفاً فقد شكره، ومن ستره فقد كفره. — في الحديث

وقال عبد الله بن عباس: لو أن فرعونَ مصرَ أسدى إليّ يداً صالحة لشكرته عليها. — ابن عباس وشكر النعم

وقالوا: إذا قَصُرَتْ يداك عن المكافأة فلْيَطُلْ لسانك بالشكر. — لبعضهم

وقالوا: ما نَحل الله تعالى عبادَه شيئا أقلَّ من الشكر، واعتبر ذلك بقول الله عز وجل: ﴿ وقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾.

محمد بن صالح الواقدي قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي، فقلت: إن هاهنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفا. فقال: يا محمد، هؤلاء يشكرون معروفا، فكيف لنا بشكر شكرهم. ١٥ — الواقدي ويحيى البرمكي في قوم جاءوا يشكرونه

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنعم الله على عبده نعمةً فرأى عليه أثَرَها إلا كُتِبَ: حبيبَ الله شاكرا لأنْعُمِه. وما أنعم الله على عبده نعمة فلم يرَ أثرَها عليه إلا كتب: بغيضَ الله كافرا لِأنْعُمِه. — للنبي صلى الله عليه وسلم في شكر النعمة وكفرها

وكتب عديّ بن أرطاة إلى عُمَر بن عبد العزيز: إني بأرض كَثُرتْ فيها النِّعم، وقد خِفْت على مَن قِبَلي من المسلمين قلّةَ الشكر والضعف عنه فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى لم يُنعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثرَ مما أخذوا. واعتبر ذلك لقول الله تعالى: ﴿ ولقد آتَيْنَا دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ عِلْماً وقَالَا الحَمْدُ لِلهِ ﴾. فأي نعمة أفضل مما أوتي داودُ وسليمان. ٢٠ — بين عدي بن أرطاة وعمر بن عبد العزيز

بين النبي صلى الله عليه وسلم وعائشة فى أبيات لابن جناب

وسمع النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضى الله عنها تنشد أبيات زُهير ابن جَنَاب :

ارْفعْ ضَعيفَكَ لا يَحُرْ بكَ ضَعْفُهُ * يوماً فتُدرِكَهُ عواقِبُ ما جَنَى
يَجْزيكَ أو يُثْنِى عليكَ فإنَّ مَنْ * أثنى عليكَ بما فعلتَ كَمَنْ جَزَى

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : صدق يا عائشة ، لا شكَرَ الله مَن لا يَشكر الناس .

لبعض الشعراء فى شكر النعمة

الخُشنى قال : أنشدنى الرياشى :

إذا أنا لم أشكُرْ على الخير أهْلَهُ * ولم أذْمُمِ الجِبْسَ اللئيمَ المذمَّما
فَفِيمَ عَرَفْتُ الخيرَ والشَّرَّ باسْمِهِ * وشَقَّ لِيَ اللهُ المسامعَ والفَمَا

وأنشدنى فى الشكر :

سأشكرُ عَمْراً ما تَراخَتْ مَنِيَّتِى * أيادِىَ لم تُمْنَنْ وإن هى جَلَّتِ
فَتَى غيرَ محجوبِ الغِنى عن صَدِيقِهِ * ولا مُظهِرَ الشَّكْوَى إذا النَّعْلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتِى من حيث يَخْفَى مكانُها * فكانت قَذَى عَيْنَيْهِ حتى تَجَلَّتِ

قلة الكرام فى كثرة اللئام

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : الناس كإبلٍ مائةٍ لا تكاد تجد فيها راحلة .

للحكماء

وقالت الحكماء : الكرام فى اللئام كالغرة فى الفرس .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

تُفاخِرُنى بِكَثرتِها قُرَيط * وقلّ والِدَ الحَجَلَ الصقورُ
فإنْ أَكُ فى شِرَارِكُمُ قليلًا * فإنى فى خيارِكم كثيرُ
بُغاثُ الطَّيرِ أكثَرُها فِراخًا * وأمُّ الصَّقرِ مِقْلاتٌ نَزُورُ

للسموأل

وقال السموأل :

تُعَيِّرُنا أنَّا قليلٌ عديدُنا * فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قليلُ

وما ضرّنا أنّا قليلٌ وجارُنا * عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذليلُ

وقال حبيب : لحبيب

ولقد نكونُ ولا كريمَ ننالُهُ * حتى نخوضَ إليه ألفَ لئيمِ

وقال ابن أبي حازم : لابن أبي حازم

٥ وقالوا : لو مَدَحْتَ فتى كريماً * فقلتُ وكيف لى بِفتى كريمِ
بَلَوْتُ ومَرَّ بى خمسونَ حولاً * وحسبُكَ بالمُجرِّبِ من عَليمِ
فلا أحدٌ يُعَــدُّ لِيَوْمِ خَير * ولا أحدٌ يَعودُ على عَـدِيمِ

وقال دِعْبل : لدعبل

ما أكثرَ الناسَ لابلْ ما أقَلَّهُم * واللهُ يَعلمُ أنّى لم أقُلْ فَنَدَا
١٠ إنى لأُغْلِقُ عينى ثم أفتحُها * على كثيرٍ ولكنْ ما أرى أحَدَا

وأحسن ماقيل فى هذا المعنى قول حبيب الطائى : لحبيب الطائى

إنّ الجيادَ كثيرٌ فى البلادِ وإنْ * قلُّوا ، كما غيرُهُمْ قلٌّ وإن كثُرُوا
لا يَدْهَمَنَّكَ من دَهْمائِهِمْ عَجَبٌ * فإنَّ جُلَّهُمُ أو كُلَّهُم بَقَــرُ
وكلما أضْحَت الأخطارُ بينَهُمُ * هلْكَي تبيَّنَ مَنْ أضْحى له خَطَرُ
١٥ لولم تُصادفْ شِيَاتُ البَهْمِ أكثرَ ما * فى الخيلِ لم تُحمد الأوضاحُ والغُرَرُ

الأصمعى قال : قال كسرى : أى شىء أضرّ ؟ فأجمعوا على الفقر . فقال كسرى : الشحّ أضرّ منه ، لأن الفقير يجد الفرجة فيتسع . لكسرى فى الشح

من جاد أولا وضنّ آخراً

نزل أعرابىّ برجل من أهل البصرة ، فأكرمه وأحسن إليه ثم أمسك ، أعرابى وبصرى
٢٠ فقال الأعرابى :

تَسَرَّى فلما جاذَبَ المَرْءَ نفْسَه * رأى أنّه لا يستقيمُ له السَّرْوُ

وكان يزيد بن منصور يُجرى لبشّار العُقيلى وظيفةً فى كل شهر ، ثم قطعها

عنه ؛ فقال :

أبا خالدٍ مازلتَ سابحَ غَمْرَةٍ * صغيراً فلما شِبْتَ خَيَّمتَ بالشَّاطى

جَرَيْتَ زماناً سابقا ثم لم تَزَلْ * تأَخَّرُ حتى جئتَ تَفطُو مع القاطى

كسِنَّوْرِ عبدِ اللهِ بيعَ بِدِرْهَمٍ * صغيرا ، فلما شَبَّ بيعَ بِقيراطِ

لمسلم فى محمد ابن منصور

وقال مُسلم بن الوليد صريع الغوانى لمحمد بن منصور بن زياد : ٥

أبا حَسنٍ قد كنتَ قدَّمتَ نعمة * وألحقتَ شُكراً ثم أمسكتَ وانيا

فلا ضَيرَ لم تَلحقْك مِنى مَـلامةٌ * أسأتَ بنا عَوْداً وأحسنْتَ بادِيا

فأُقسِمُ لا أَجزيكَ بالسُّوءِ مثْلَهُ * كفى بالذى جازَيْتنى لك جازِيَا

لسليمان الأعمى فى سليمان بن على

وقال سليمان الأعمى ، وهو أخو صريع الغوانى ، فى سليمان بن على :

ياسوءة يُكبِر الشيطانُ إن ذُكرتْ * منها العجائبَ جاءت من سُليمانا ١٠

لا تَعجبنَّ بخير زلَّ عن يده * فالكوكبُ النحس يسقى الأرض أحيانا

من ضنّ أولا ثم جاد آخراً

للحارث المخزومى فى عبد الملك

قدِم الحارث بن خالد المخزومىّ على عبد الملك فلم يصلْه ، فرجع وقال فيه :

صحِبْتُكَ إذ عَيْنى عليها غِشاوةٌ * فلما انْجلَت قطَّعتُ نفسى ألومُها

حَبَسْتُ عليكَ النَّفْسَ حتى كأنما * بِكفَّيْكَ يَجرى بُؤسُها ونعيمُها ١٥

فبلغ قولُه عبدَ الملك ، فأرسل إليه فردّه وقال : أرأيت عليك غضاضةً من مُقامك ببابى ؟ قال : لا ، ولكنى اشتقتُ إلى أهلى ووطنى ، ووجدت فضلا من القول فقلت ، وعلىَّ دَين لَزِمنى . قال : وكم دَيْنُك ؟ قال ثلاثون ألفا . قال : فقضاء دينك أحبُّ إليك أم ولايةُ مكة ؟ قال : بل ولاية مكة . فولّاه إياها .

عتيبة والحطيئة

وقدم الحطيئةُ المدينةَ فوقف إلى عُتيبة بن النّهاس العجلىّ ، فقال : أعطنى . فقال : ٢٠ مالكَ عندى حقٌّ فأعطيَكه ، وما فى مالى فَضْلٌ عن عيالى فأعودَ به عليك . فخرج عنه مُغضبا ، وعرّفه به جلساؤه ، فأمر بردِّه ، ثم قال له : ياهذا ، إنك وقفتَ إلينا فلم تستأنس ولم تُسلّم ، وكتمتَنا نفسَك ، كأنك الحُطيئة ؟ قال : هو ذلك . قال : اجلس فلك

عندنا كلُّ ما تحب ، فجلس فقال له : مَن أشعرُ الناس ؟ قال الذى يقول :

ومنْ يَجعلِ المعروفَ مِن دونِ عِرْضِهِ * يَفِرْهُ ومَن لا يَتّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

يعنى زهيراً . قال : ثم من ؟ قال : الذى يقول :

من يسأل الناس يحرموه * وسـائلُ الله لا يخيبُ

٥ يعنى عبيداً . قال : ثم من ؟ قال : أنا . . .

فقال لوكيله : خُذ بيد هذا فامض به إلى السوق ، فلا يُشيرَنّ إلى شىء إلا اشتريتَه له . فمضى معه إلى السوق ، فعرض عليه الخزّ والقز ، فلم يلتفت إلى شىء منه . وأشار إلى الأكسية والكرابيس الغلاظ والأقبية ، فاشترى له منها حاجته ؛ ثم قال : أمسِك . قال : فإنه قد أمرنى أن أبسُط يدى بالنفقة . قال :

١٠ لا حاجة لى أن يكون له على قومى يد أعظم من هذه . ثم أنشأ يقول :

سُئِلْتَ فلم تَبخلْ ولم تُعْطِ طائِلاً * فَسِيّانِ لاذَمّ عليكَ ولا حَمْدُ

وأنت امرُؤٌ لا الجُودُ منك سَجِيّةٌ * فتُعطِى وقد يُعْدِى على النائِلِ الوُجْدُ

من مدح أميراً فخيبه

سعيد بن سلم وأعرابى

قال سعيد بن سَلْم : مدحنى أعرابىّ فأبلغ ، فقال :

١٥ ألا قُلْ لِسارى اللّيْلِ لاتَخْشَ ضِلّةً * سَعيدُ بنُ سَلْمٍ نُورُ كلِّ بلادِ

لنا سيِّدٌ أرْبَى على كلِّ سـيدٍ * جوادٌ حثا فى وجهِ كل جَوادِ

قال : فتأخّرت عنه قليلاً ، فهجانى فأبلغ ، فقال :

لِكلِّ أخى مَدْحٍ ثوابٌ عَلِمْتُهُ * وليس لمدحِ الباهِلىّ ثوابُ

مَدَحْتُ سَعيداً والمديحُ مهَزّةٌ * فكان كصَفْوانٍ عليه تُرابُ

أبو دلف والحسن ابن رجاء

٢٠ ومدح الحسنُ بن رجاء أبا دلف فلم يُعطه شيئا : فقال :

أبا دُلَفٍ ما أكذبُ الناسِ كلّهم * سِوایَ فإنى فى مَديحِكَ أكْذَبُ

لبعض الشعراء

وقال آخر فى مثل هذا المعنى :

إنى مَدحتُك كاذِباً فأثبْتَنِى * لمّا مَدحتُك مايُثابُ الكاذِبُ

وقال آخر فى مثل هذا المعنى :

لئنْ أخطأتُ فى مَدْحِيكَ ما أخطأتَ فى مَنْعِى

لقد أحْلَلْتُ حاجاتِى ، بِوَادٍ غيرِ ذِى زَرْعِ

حبيب الطائى وعياش

ومدح حبيب الطائىّ عيّاش بن لهيعة ، وقدم عليه مصرَ واستسلفه مائتى مثقال ، فشاور فيها زوجته ، فقالت له : هو شاعر ، يمدحك اليومَ ويهجوك غدا ؛ فاعتلَّ عليه واعتذر إليه ولم يقض حاجته ، فقال فيه :

عَيّاشُ ، إنكَ لَلَّئيم وإننى ، مُذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مطلبى لَلَئيمُ

ثم هجاه حتى مات ، وهجاه بعد موته فقال فيه :

لا سُقِيَتْ أطلالكَ الدّاثِرهْ ، ولا انقضَتْ عَثْرَتُكَ العاثِرَهْ

يا أسدَ الموتِ تَخَلَّصْتَهُ ، مِن بَيْنِ فَكّىْ أسد القاصره[1]

ما حفرةٌ واراك ملحودُها ، بَرّةَ الرَّمس ولا طاهره

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى ـ وسألتُ بعض موالى السلطان إطلاق محبوس فتلكأ فيه ، فقلت :

حاشا لمثلِكَ أن يَفُكَّ أسيرَا ، أو أنْ يكونَ مِن الزّمانِ مُجيرا

لَبِسَتْ قَوافى الشّعرفيك مَدارعًا ، سُوداً وَصَلّت أوجُهاً وصُدورا

هلاَّ عَطفتَ برحمةٍ لما دعَت ، ويْلاً عليك مَدائحِى وثُبورا

لو أنّ لُؤمَك عادَ جوداً عُشْرُهُ ، ما كان عندَك حاتمٌ مَذْكورا

ربيعة الرقى ويزيد بن حاتم

قال : ومدح ربيعة الرقى يزيد بن حاتم الأزدى ، وهو والى مصر ، فاستبطأه ربيعة ، فشخص عنه من مصر وقال :

أرانى ولا كُفْرانَ لله راجعاً ، بِخُفَّىْ حُنَيْن من نَوالِ ابنِ حاتِمِ

فبلغ قولُه يزيدَ بن حاتم ، فأرسل فى طلبه فرُدّ إليه . فلما دخل عليه قال له :

(١) القاصرة : مكان فى الطريق إلى مصر ، يروون أن أسدا فيه أكل عتبة بن أبى لهب .

أنت القائل :

* أرانى ولا كفران لله راجعا *

قال : نعم . قال : فهل قلت غير هذا ؟ قال : لا والله . قال : اتزجمن بخُفَّىْ حنين مملوءة مالا فأمر بخلع نعليه ومُلئتا له مالا ؛ فقال فيه لما عزل عن مصر
٥ وولى يزيد بن أُسَيد السُّلمى مكانه :

بكى أهلُ مِصْرٍ بالدُّموع السَّواجِمِ * غَداةَ غَدَا منها الأغرُّ ابنُ حاتِمِ

وفيها يقول :

لشَتَّان ما بَيْنَ اليَزِيدَيْنِ فى النَدَى * يَزيد سُليمٍ والأغرِّ ابن حاتِمِ

فهَمُّ الفتى الأزدِىِّ إنفاقُ مالِه * وهمُّ الفتى القيسى جَمْعُ الدَّراهِمِ

١٠ فلا يَحْسَبِ التَّمْتامُ أنِّى هَجَوْتُه * ولكنَّنى فضَّلْتُ أهلَ المكارِمِ

أجواد أهل الجاهلية

من أجواد الجاهلية

الذين انتهى إليهم الجودُ فى الجاهلية ثلاثةُ نفر : حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى ، وهَرِم بن سنان المُرِّى ، وكعب بن مامَةَ الإيادى .

شىء عن حاتم

ولكن المضروب به المثلُ حاتمٌ وحده ، وهو القائل لغلامه يسار ، وكان إذا
١٥ آشتد البرد وكَلِب الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً فى يفَاع من الأرض لينظُر إليها من أضلّ الطريق ليلًا فيصمِد نحوه ، فقال فى ذلك :

أَوْقِدْ فإنَّ اللَّيْل ليلٌ قَرُّ * والريحُ يا موقد ريح صِرُّ

علَّ يَرى نارَك مَن يَمُرُّ * إن جلَبتْ ضيفاً فأنت حُرُّ

وقالوا : لم يكن حاتم مُمسكا شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه ، فإنه كان
٢٠ لا يجود بهما .

ومرّ حاتم فى سفره على عَنَزة وفيهم أسير ، فاستغاث بحاتم ولم يحضُره فكاكُه ، فاشتراه من العنزيّين وأطلقه وأقام مكانَه فى القيد حتى أدّى فداءه ..

وقالت نوار آمرأة حاتم : أصابتنا سنة اقشعرّتْ لها الأرضُ واغبرّ أفقُ

السماء ، وراحت الإبلُ حُدْباً حَدابير ، وضنت المراضِعُ على أولادها فما تبض بقطرة ، وحلَقت السنةُ المال وأيقنّا بالهلاك . فوالله إنا لفى ليلة صِنَّبْرٍ بعيدةِ ما بين الطرفين ، إذ تضاغى صِبْيَتُنا جوعا : عبدُ الله وعدىّ وسَفّانة : فقام حاتم إلى الصَّبيَّين وقمتُ أنا إلى الصّبية ، فوالله ما سكتوا إلا بعد هَدْأة من الليل ، وأقبل يعلّلنى بالحديث . فعرفت ما يريد فتناومتُ ، فلما تهوّرَت النجوم إذا شىء قد رفع كِسْر البيت ثم عاد ، فقال : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتُك من عند صِبية يتعاوَون عُواءَ الذئاب ، فما وجدتُ مُعَوَّلًا إلا عليك يا أبا عدىّ ، فقال : أعْجِليهم فقد أشبعكِ الله وإياهم : فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى بجانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رِئالُها ؛ فقام إلى فرسه فوجأ لبّته بمُدْية فخرّ ، ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية إلى المرأة فقال لها : شأنَك ؛ فاجتمعنا على اللحم نشوى ونأكل ، ثم جعل يمشى فى الحى يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول : هُبُّوا أيها القوم ، عليكم بالنار . فاجتمعوا والتفع فى ثوبه ناحيةً ينظر إلينا ، فلا والله إن ذاق منهُ مُزْعة وإنه لأحْوَجُ إليه منّا ؛ فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلّا عظم وحافر . فأنشأ حاتم يقول :

مَهْلًا نَوَارُ أقِلّى اللَّوْمَ والعَذلَا * ولا تقُولى لشَىْءٍ فاتَ ما فعَلا
ولا تقولى لمالٍ كنتُ مُهْلِكَهُ * مهْلًا وإن كنتُ أُعطى الأنسَ والخَبَلَا
يَرَى البَخيلُ سبيلَ المالِ واحِدةً * إن الجوادَ يرى فى مالِه سُبُلَا

ورئى حاتم يوما يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدلّ عليه أضيافه وهو يقول :

أقول لابنى وقد سُطْتُ يديه * بكلبة لا يزال يجلدها
أوصيك خيراً بها فإن لها * عندى يداً لا أزال أحمدها
تدل ضيفى علىّ فى غلس الليـ * ـل إذا النار نام مُوقدها

ذكرت طيئ عند عدىّ بن حاتم أن رجلا يعرف بأبى الخَيْبرىّ مر بقبر حاتم فنزل به وجعل ينادى : أبا عدىّ : أقرِ أضيافك . قال : فيقال له : مهلا ما تُكلم

من رِمّة بالية ؟ فقال : إن طيئا يزعمون أنه لم ينزل به أحد إلا قراه ، كالمستهزئ
فلما كان في السحر وثب أبو خيبرى يصيح : واراحلتاه : فقال له أصحابه :
ما شأنك ؟ قال : خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتى وأنا أنظر إليها .
فتأملوا راحلته فإذا هى لا تنبعث . فقالوا : قد والله أقراك . فنحروها وظلوا
٥ يأكلون من لحمها ، ثم أردفوه وانطلقوا ، فبينما هم فى مسيرهم إذ طلع عليهم عدىّ
ابن حاتم ومعه جمل قد قرنه ببعيره ، فقال إن حاتما جاء فى النوم فذكر لى قولك
وأنه أقراك وأصحابك راحلتك ، وقال لى أبياتاً رددها علىّ حتى حفظتها ، وهى :

أبا الخَيْبَرِىّ وأنت امرؤ ٭ حسود العشيرة شتّامها
فماذا أردت إلى رِمَّة ٭ بِدَاوِيةٍ صَخِبٍ هامُها
١٠ أتبغى أذاها وإعسارها ٭ وحولك غوث وأنعامها
وإنا لنطعم أضيافنا ٭ من الكُوم بالسيف نعتامها

وأمرنى بدفع راحلة عوض راحلتك ، فخذها : فأخذها.

ولحاتم بن عبد الله أيضا :

أماوِىّ قد طالَ التجنُّبُ والهَجْرُ ٭ وقد عَذَرَتنا فى طِلابِكُمُ العُذْرُ
١٥ أماوِىّ إنّ المالَ غادٍ ورائحٌ ٭ ويَبقى مِنَ المالِ الأحاديثُ والذِّكرُ
أماوىّ إما مانعٌ فمبيّن ٭ وإما عطاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ الزَّجر
أماوىّ إنى لا أقولُ لِسائلٍ ٭ إذا جاء يوماً حَل فى مالِىَ النَّذْرُ
أماوىّ ما يُغْنِى الثَّراء عن الفَتَى ٭ إذا حَشْرَجَت يوماً وضاقَ بها الصّدْرُ
أماوىّ إن يُصْبِحْ صداىَ بقَفْرةٍ ٭ من الأرضِ لا ماءٌ لَدَىَّ ولا خمرُ
٢٠ تَرىْ أنّ ما أنفقتُ لم يكُ ضَرّنى ٭ وأنّ يَدِى مما بَخِلْت به صِفْرُ
إذا أنا دَلاَّنى الذين يَلُوننى ٭ بمُظْلِمةٍ لجٍّ جَوانبُها غُبْرُ
وراحوا سراعًا يَنْفُضون أكُفَّهُمْ ٭ يقولون قد أدْمَى أظافِرَنا الحَفْرُ
أماوىّ إن المالَ مالٌ بَذَلْته ٭ فأوّلُه شُكْرٌ وآخِرُه ذِكْرُ

وقد يَعلَمُ الأقوامُ لو أنّ حاتِماً * أرادَ ثراءَ المالِ كان له وَفْرُ
فإنى وجدّى رُبَّ واحـدِ أُمّهِ * أجرْتُ فلا قَتْلٌ عليه ولا أسْرُ
ولا أظلم ابن العمّ إن كان إخوتى * شُهوداً وقد أوْدَى بإخوته الدّهرُ
غَنِينا زَماناً بالتّصَعْلُك والغِنى * وكلاًّ سَقاناه بكاسيهما الدهرُ
فما زادَنا بَأْواً[1] على ذى قرابةٍ * غِنانا، ولا أزرَى بأحلامِنا الفَقْرُ ٥

* * *

شىء عن هرم

وأما هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذى يقول فيه :

متى تُلاقِ على عِـلّاتِه هَرِماً * تَلْقَ السَّماحةَ فى خَلْقٍ وفى خُلُقِ

وكان سنان أبو هرم سيدَ غَطَفان، وماتت أمه وهى حامل به، وقالت : إذا أنا مت فشُقّوا بطنى فإن سيد غطفان فيه . فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منها سناناً . وفى بنى سنان يقول زُهير : ١٠

قومٌ أبوهم سِنانٌ حين تَنسُبُهم * طابوا وطابَ مِنَ الأولادِ ماوَلَدوا
لوكان يَقعُد فوقَ الشمسِ مِن كَرَمٍ * قومٌ بأوّلِهمْ أو مَجدِهمْ ، قَعَدوا
جِنٌّ إذا فَزِعوا إنسٌ إذا أمِنوا * مُرَزّءون بَهاليلٌ إذا قَصدوا
مُحَسَّدون على ماكان من نِعَمٍ * لا يَنزِعُ اللهُ منهم مالَهُ حُسِدوا

وقال زهير فى هرم بن سنان : ١٥

وأبيَض فيّـاضٍ يَداهُ غَمامَة * على مُعْتَفِيه ما تُغِبُّ نوائـله
تَراه إذا ما جِئْته مُتهـلِّلاً * كأنك تُعْطِيهِ الذى أنت سائلُه
أخو ثِقةٍ لا تُتْلِفُ الخمرُ مالَهُ * ولكنه قد يُتلِفُ المالَ نائلُه

أخذ الحسن بن هانئ هذا المعنى فقال :

فتًى لا تغول الخَمْرُ شَحْمَةَ مالِهِ * ولكنْ أيادٍ عُوَّدٌ وبوادِى ٢٠

---

(١) فخراً واستعلاء.

وقال زهير فى هرم بن سنان وأهل بيته :

إليك أعملتها فُتلاً مَرافِقُها * شهرَين يجهض من أرحامها العَلَقُ
حتى دَفعْن إلى حُلوٍ شمائلُه * كالغيثِ ينبُتُ فى آثارِهِ الورَقُ
من أهلِ بيتٍ يَرى ذو العرشِ فضلَهُم * يُبنى لهم فى جِنانِ الخُلدِ مُرتَفَقُ
المطعمون إذا ما أزمةٌ أزمتْ * والطّيّبون ثيابا كلما عَرِقوا
كأنّ آخرَهُمْ فى الجُودِ أوّلُهُمْ * إنّ الشّمائلَ والأخلاقَ تتّفِقُ
إن قامَرُوا قَمَروا أوْ فاخروا فخروا * أو ناضلوا نَضلوا أو سابقوا سبَقوا
تنافَس الأرْض موْتاهم إذا دُفِنوا * كما تُنوفس عندَ الباعةِ الورِق

وقال فيهم أيضاً :

١٠ وفيهم مقامات حسانٌ وجوهُهم * وأندية ينتابها القول والفعل
على مُكثِريهم حق من يعتَفيهمُ * وعند المُقلّين السماحة والبذل
فما كان من خير أتوه فإنما * توارثه آباء آبائهم قَبْلُ
وهل يُنبت الخَطّىَّ إلا وشيجُه * وتُغرس إلا فى منابتها النخل

* * *

شىء عن كعب ابن مامة

وأما كعب بن مامة الإيادىّ فلم يأت عنه إلا ما ذُكر من إيثاره رفيقه
١٥ النّمرىّ بالماء حتى مات عطشا ونجا النّمرىّ ، وهذا أكثر من كل ما أثنى لغيره .
وله يقول حبيب :

يَجودُ بالنّفْسِ إن ضنّ البخيلُ بها * والجُودُ بالنّفْسِ أقصى غايةِ الجودِ

وله ولحاتم الطائى يقول :

٢٠ كعْبٌ وحاتِمٌ اللذانِ تقسّما * خِطَط العُلا مِنْ طارِف وتليدِ
هذا الذى خَلَفَ السّحابَ وماتَ ذا * فى الجدِ ميتةَ خِضْرِمٍ صِنْديدِ
إلا يكنْ فِيها الشّهيدَ فقَوْمُهُ * لا يسْمَحُون به بألف شهيدِ

أجواد أهل الإسلام

عدتهم

وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلا فى عصر واحد ، لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم .

أجواد الحجاز

فأجواد الحجاز ثلاثة فى عصر واحد : عُبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

٥

أجواد البصرة

وأجواد البصرة خمسة فى عصر واحد وهم : عبد الله بن عامر بن كريز ، وعُبيد الله بن أبى بكرة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومُسلم بن زياد ، وعُبيد الله بن معمر القُرشى ثم التيمى . وطلحة الطلحات ، وهو طلحة بن عبدالله ابن خلف الُخزاعى ، وله يقول الشاعر يرثيه ، ومات بسجستان وهو والٍ عليها .

١٠

نضَّرَ اللهُ أعظُمًا دفنُوها * بسجِسْتانَ طلْحَةَ الطَّلَحَاتِ

أجواد الكوفة

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة فى عصر واحد ، وهم : عتّاب بن ورقاء الرِّياحى وأسماء بن خارجة الفَزارىّ . وعِكرمة بن رِبعى الفيّاض .

فمن جود عبيد الله بن عباس

شىء عن عبيدالله ابن عباس

١٥

أنه أول من فطر جيرانَه . وأول من وضع الموائد على الطرق ، وأول من حَيّا على طعامه ، وأول من أنهبه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وفى السّنةِ الشهباء أطْعَمْتَ حامِضًا * وحُلْوًا ولَحْمًا تامِكا ومُمَـزّعَا

وأنتَ ربيعٌ لليتــامَى وعِصْمَةٌ * إذا المَحْلُ من جَوّ السَّماء تطَلَعَا

أبوك أبو الفضل الذى كان رحْمَةً * وغَوْثًا ونورًا للخلائق أجْمَعَا

٢٠

ومن جوده أنه أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه فقال : يا بن عباس إن لى عندك يداً وقد احتجت إليها . فصعّد فيه بصره وصوّبه ، فلم يعرفه ، ثم قال له : ما يَدُكَ عندنا ؟ قال : رأيتك واقفاً بزَمْزَم وغلامك يمتح لك من مائها والشمس قد صهرتك ، فظلّلتك بطرف كسائى حتى شربت . قال : إنى لأذكر

ذلك وإنه يتردد بين خاطرى وفكرى . ثم قال لقيّمه : ما عندك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة آلاف درهم . قال : ادفعها إليه وما أراها تفى بحق يده عندنا . فقال له الرجل : والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه ، فكيف وقد ولَد سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله عليه وسلم ، ثم شفع ٥ بك وبأبيك .

ومن جوده أيضاً : أنّ معاوية حبس عن الحُسين بن علىّ صِلاتِه حتى ضاقت عليه حاله ، فقيل [له] : لو وجّهت إلى ابن عمك عبيد الله ، فإنه قد قدم بنحو من ألف ألف درهم . فقال الحسين : وأين تقع ألف ألف من عُبيد الله ؟ فوالله لَهُو أجوَدُ من الريح إذا عصفت ، وأسخى من البحر إذا زخر . ثم وجه إليه ١٠ مع رسوله بكتاب ذكر فيه حَبْسَ معاوية عنه صِلاتِه وضيقَ حاله وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم . فلما قرأ عبيد الله كتابه ، وكان من أرقّ الناس قلباً وألينهم عطفاً ، انهملت عيناه ثم قال : ويلك يا معاوية مما اجترحتْ يداك من الإثم حين أصبحت ليّن المهاد رفيع العماد ، والحسينُ يشكو ضيقَ الحال وكثرةَ العيال . ثم قال لقهرمانه : احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من فضّة وذهب وثوب ودابة ، ١٥ وأخبِرْه أنى شاطرتهُ مالى ، فإن أقنعه ذلك وإلا فارجع واحمل إليه الشطر الآخر . فقال له القيم : فهذه المُؤن التى عليك من أين تقوم بها ؟ قال : إذا بلغنا ذلك دللتُك على أمر يُقيم حالك ! فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين قال : إنا لله ! حَمَّلتُ والله على ابن عمى وما حسبتُه يتسع لنا بهذا كله . فأخذ الشطر من ماله . وهو أول مَن فعل ذلك فى الإسلام .

٢٠ ومن جوده أن معاوية بن أبى سفيان أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النّيروز حُللاً كثيرة ومِسْكا وآنية من ذهب وفضة ، ووجّهها مع حاجبه ، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها ، فقال : هل فى نفسك منها شىء ؟ قال : نعم والله ، إنّ فى نفسى منها ما كان فى نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام . فضحك عُبيد الله وقال : فشأنَك بها فهى لك . قال : جُعلتُ

فداك ، أخاف أن يبلغ ذلك معاويةَ فيجدَ علىّ . قال : فاختمها بخاتمك وادفعها
إلى الخازن ، فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلا . فقال الحاجب : والله لهذه الحيلةُ
فى الكرم أكثرُ من الكرم ، ولوددت أنى لا أموت حتى أراك مكانه ــ يعنى
معاوية ــ فظنّ عبيد الله أنها مكيدة منه ، قال : دع عنك هذا الكلام ، فإنا قوم
نَفِى بما وعدنا ولا ننقض ما أكّدنا . ٥

ومن جوده أيضاً أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه فقال له : تَصدّق ، فإنى نُبِّئتُ
أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه ! فقال له : وأين أنا
من عُبيد الله ؟ قال أين أنت منه فى الحَسب أم كثرةِ المال ؟ قال : فيهما . قال :
أما الحَسب فى الرجل فمروءته وفعلُه ، وإذا شئتَ فعلت ، وإذا فعلت كنت حَسيبا .
فأعطاه ألفى درهم واعتذر له من ضيق الحال ؛ فقال له السائل : إن لم تكن ١٠
عُبيد الله بن عباس فأنت خير منه ، وإن كنت هو فأنت اليوم خيرٌ منك أمس .
فأعطاه ألفاً أخرى . فقال السائل : هذه هِزّةُ كريم حسيب ، والله لقد نقرتُ
حبة قلبي فأفرغتها فى قلبك ، فما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحى .

ومن جوده أيضاً : أنه جاءه رجل من الأنصار فقال : يابن عم رسول الله ،
إنه وُلد لى فى هذه الليلة مولود ، وإنى سمّيته باسمك تبركا منى به ، وإن أمه ماتت . ١٥
فقال عبيد الله : بارك الله لك فى الهبة ، وأجزل لك الأجر على المصيبة . ثم دعا
بوكيله فقال : انطلق الساعةَ فاشتر للمولود جاريةً تحضنه ، وادفع إليه مائتى دينار
للنفقة على تربيته . ثم قال للأنصارى . عُدْ إلينا بعد أيام ، فإنك جئتنا وفى العيش
يُبس وفى المال قِلّة . قال الأنصارى : لو سبقتَ حاتماً بيوم واحد ما ذكرته
العرب أبدا ، ولكنه سبقك فصرتَ له تاليا ، وأنا أشهد أنّ عفوَك أكثرُ من ٢٠
مجهوده ، وطَلّ كرمك أكثر من وابله .

جود عبد الله بن جعفر

شىء عن عبد الله ابن جعفر

ومن جُود عبد الله بن جعفر أن عبد الرحمن بن أبى عمّار دخل على نخّاس
يعرض قِيانا له ؛ فعلق واحدةً منهن ، فشُهر بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاووس

ومُجاهد يعذلونه ، فكان جوابه أن قال :

يَلُومُنِي فِيكِ أَقْوامٌ أُجالِسُهمْ ، فما أُبالِي أَطارَ اللَّوْمُ أَمْ وقعَا

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر ، فلم يكن له همٌّ غيره ، فحج فبعث إلى مولى الجارية فاشتراها منه بأربعين ألف درهم ، وأمر قيِّمة جواريه أن تزيّنها وتحلّيها ، ففعلت ؛ وبلغ النـاس قدومُه فدخلوا عليه ، فقال : مالى لا أرى ابن أبى عمار زارَنا ؟ فأُخبِر الشيخُ ، فأتاه مسلِّما . فلما أراد أن ينهض آستجلسه ، ثم قال : ما فَعَل حُبُّ فلانة ؟ قال : فى اللحم والدم والمخ والعَصب . قال : أتعرفها لو رأيتها ؟ قال : لو أُدْخِلتُ الجنةَ لم أُنكرها . فأمر بها عبدُ الله أن تخرج إليه ، وقال له : إنما اشتريتها لك ، ووالله مادنوتُ منها ، فشأنك بها مباركا لك فيها . فلما ولّى قال : يا غلام ، احمل معه مائة ألف درهم يَنعم بها معها . قال : فبكى عبد الرحمن فرحا وقال : يأهل البيت ، لقد خصّكم الله بشرف ما خَصَّ به أحداً قبلكم من صُلب آدم ، فتهنكم هذه النعمة ، وبورك لكم فيها .

ومن جوده أيضاً أنه أعطى امرأة سألته مالا عظيما ، فقيل له : إنها لا تعرفك وكان يُرضيها اليسير . قال : إن كان يرضيها اليسير فإنى لا أرضى إلا بالكثير ، وإن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى .

جود سعيد بن العاص

شىء عن سعيد ابن العاص

ومن جود سعيد بن العاص أنه مرض وهو بالشام ، فعاده معاوية ومعه شُرَحبيل بن السِّمْط ، ومُسلم بن عُقبة المُزى ، ويزيد بن شجرة الرَّهاوي . فلما نظر سعيد معاوية وثب عن صدر مجلسه إعظاماً لمعاوية ، فقال له معاوية : أقسمتُ عليك أبا عثمان ألّا تتحرك ، فقد ضَعُفْتَ بالعلة . فسقط ؛ فتبادر معاويةُ نحوه حتى حنا عليه ، وأخذ بيده فأقعده على فراشه وقعد معه ، وجعل يُسائله عن عِلّته ومَنامه وغذائه ، ويصف له ما ينبغى أن يتوقّاه ، وأطال القُعود معه ؛ فلما خرج التفت إلى شُرحبيل بن السِّمط ، ويزيد بن شجرة ، فقال : هل رأيتما خَللا فى مال أبى عثمان ؟ فقالا : ما رأينا شيئاً ننكره . فقال لمسلم بن عقبة : ماتقول ؟

قال : رأيت . قال : وما ذاك ؟ قال : رأيت على حَشَمه ومواليه ثيابا وَسِخة ، ورأيتُ صحن داره غيرَ مكنوس ، ورأيت التجّار يُخاصمون قهرمانه . قال : صدقت ، كل ذلك قد رأيتُه . فوجه إليه مع مُسلم بثلثمائة ألف ، فسبق رسولٌ يبشره بها ويُخبره بما كان . فغضب سعيد وقال للرسول : إن صاحبك ظن أنه أحسنَ فأساء ، وتأول فأخطأ ؛ فأما وسخ ثياب الحشم فمن كثرة حركتِه آتسخ ثوبه ، وأما كَنْس الدار فليست أخلاقنا أخلاقَ من جعل دارَه مِرآتَه ، وتَزْيِنَه لُبْسَه ، ومعروفَه عِطره ، ثم لا يبالى بمن مات هُزْلاً من ذى لُحمة أو حُرمة . وأما مُنازعة التجار قهرمانى فمن كثرة حوائجه وبَيعه وشرائه ؛ لم يجد بُدّا من أن يكون ظالماً أو مظلوماً . وأما المال الذى أمر به أمير المؤمنين فوصلتْه كل ذى رحم قاطعة وهنأته كرامتُه المُنعَم بها عليه ، وقد قَبلناه وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف ، ولشُرحبيل بن السّمط بمثلها ، وليزيد بن شَجرة بمثلها ، وفى سعة الله وبَسْط يد أمير المؤمنين ما عليه مُعَوَّلنا .

فركب مُسلم بن عُقبة إلى معاوية فأعلمه ، فقال : صدق آبن عمى فيما قال ، وأخطأت فيما انتهيت إليه ، فاجعل نصيبك من المال لروْح بن زِنْباع عقُوبةً لك ، فإنه من جنى جناية عوقب بمثلها ، كما أنه من فعل خيرا كوفِئَ عليه .

ومن جوده أيضا أن معاوية كان يُداول بينه وبين مروان بن الحكم فى ولاية المدينة ، فكان مروان يُقارضه ، فلما دخل على معاوية قال له : كيف تركت أبا عبد الملك ؟ يعنى مروان . قال : تركته منفّذا لأمرك ، مُصلحا لعملك . قال معاوية : إنه كصاحب الخُبْزَة : كُفِى إنضاجها فأكلها ! قال : كلا يا أمير المؤمنين ؛ إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا ، ولا يحصدون إلا ما زرعوا . قال : فما الذى باعد بينك وبينه ؟ قال خِفْتُه على شرفى وخافنى على مثله . قال : فأى شىء كان له عندك ؟ قال : أَسُوؤُهُ حاضرا وأَسُرُّه غائبا . قال : يا أبا عثمان ، تركتنا فى هذه الحروب . قال : حملتَ الثقل وكُفيتَ الحزم . قال : فما أبطأ بك ؟ قال غَناؤك غنى أبطأنى عنك ، وكنتُ قريبا لو دعوتَ لأجبناك ، ولو أمرتَ لأطعناك . قال :

ذلك ظنُّنا بك . فأقبل معاوية على أهل الشام فقال يأهل الشام ، هؤلاء قومى وهذا كلامهم . ثم قال : أخبِرْنى عن مالِك ، فقد نُبِّئت أنك تَتَحَرَّى فيه . قال : ياأمير المؤمنين ، لنا مالٌ يَخْرُج لنا منه فَضْل ، فإذا كان ما خرج قليلا أنفقناه على قِلّته ، وإن كان كثيرا فكذلك ، غير أنا لاندخر منه شيئا عن مُعْسِر ولا طالب ولا مستحمل ، ولا نستأثر منه بِفلْذة لحم ولا مُزعة شحم . قال : فكم يدوم لك هذا ؟ قال من السَّنة نِصْفَها . قال : فما تصنع فى باقيها ؟ قال : نجد من يُسلفنا ويُسارع إلى معاملتنا . قال : ما أحدٌ أحْوَج إلى أن يصلح من شأنه منك . قال : إن شأننا لصالح ياأمير المؤمنين ، ولو زدت فى مالى مثلَه ما كنتُ إلا بمثل هذه الحال . فأمر له معاوية بخمسين ألف درهم ، وقال : اشترِ بها ضيعة تُعينك على مروأتك . فقال سعيد : بل أشترى بها حمداً وذكرا باقيا . أطعم بها الجائع ، وأُزوج بها الأَيِّم ، وأفكّ بها العانى ، وأواسى بها الصديق ، وأصلح بها حال الجار فلم تأت عليه ثلاثة أشهرٍ وعنده منها درهم . فقال معاوية : ما فضيلةٌ بعد الإيمان بالله هى أرفعُ فى الذكر ولا أنبه فى الشرف من الجود ، وحَسبك أن الله تبارك وتعالى جعل الجود أحد صفاته .

ومن جوده أيضا ما حكاه الأصمعىّ ، قال : كان سعيد بن العاص يسمُر معه سماره إلى أن ينقضى حينٌ من الليل ، فانصرف عنه القوم ليلةً ورجلٌ قاعد لم يقم ، فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال : حاجتَك يا فتى ؟ فذكر أنّ عليه ديناً أربعةَ آلافِ درهم ، فأمر له بها ، وكان إطفاؤه للشمعة أكثرَ من عطائه .

جود عبيد الله بن أبى بكرة

شىء من عبيد الله ابن أبى بكرة

ومن جود عبيد الله بن أبى بكرة أنه أدلى إليه رجل بحرمة ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فقال : أصلحك الله ، ما وصلنى أحدٌ بمثلها قط ، ولقد قطعتَ لسانى عن شكر غيرك ، وما رأيتُ الدنيا فى يد أحد أحسنَ منها فى يدك ، ولو لا أنت لم تبق لها بهجةٌ إلا أظلمتْ ، ولا نورٌ إلا انطمس .

جود عبيد الله بن معمر القرشى التيمى

شيء عن عبيد الله ابن معمر

ومن جود عبيد الله بن معمر القرشى ، أن رجلا أتاه من أهل البصرة كانت له جارية نفيسة قد أدبها بأنواع الأدب حتى برعت وفاقت فى جميع ذلك ، ثم إنّ الدهر قَعَد بسيِّدها ومال عليه . وقَدِمَ عبيدُ الله بن مَعمر البصرة من بعض وجوهه ، فقالت لسيدها : إنى أريد أن أذكر لك شيئا أستحى منه ، إذ فيه جفاء منى ، غير أنه يُسَهِّلُ ذلك علىّ ما أرى من ضيق حالك وقلة مالك وزوال نعمتك ، وما أخافه عليك من الاحتياج وضيق الحال ، وهذا عُبيد الله بن معمر قدم البصرة ، وقد علمتَ شرفه وفضلَه وسعة كفِّه وجودَ نفسه ، فلو أذنتَ لى فأصلحت من شأنى ثم تقدمتَ بى إليه وعرضتَنى عليه هدية ، رجوتُ أن يأتيك من مُكافأته ما يُقيلك الله به ويُنهضُك إن شاء الله . قال : فبكى وجداً عليها وجزعا لفراقها منه ، ثم قال لها : لولا أنك نطقت بهذا ما ابتدأتك به أبدا . ثم نهض بها حتى أوقفها بين يدى عبيد الله فقال : أعزك الله ، هذه جاريةٌ ربّيتها ورضيتُ بها لك ، فاقبلْها منى هدية . فقال : مثلى لا يَستهدى من مثلك ؛ فهل لك فى بيعها فأُجْزِلَ لك الثمن عليها حتى ترضى ؟ قال : الذى تراه . قال : يُقْنِعُك منى عَشْرُ بِدَرٍ فى كل بدرة عشرةُ آلاف درهم ؟ قال : والله ياسيدى ما امتدّ أملى إلى عُشْرِ ما ذكرت ، ولكن هذا فضلك المعروف وجودك المشهور . فأمر عبيد الله بإخراج المال حتى صار بين يدى الرجل وقبضه ، وقال للجارية : ادخلى الحجاب . فقال سيدها : أعزك الله ! لو أذنتَ لى فى وداعها ! قال : نعم . فوقفت وقام ، وقال لها وعيناه تدمعان :

أبوحُ بحُزْنٍ من فِراقِكِ مُوجِعٍ * أقاسِى به ليْلًا يُطيلُ تفكُّرى
ولولا قُعودُ الدهرِ بى عنك لم يكن * يُفرِّقُنا شىءٌ سوى الموتِ فاعْذُرى
عليكِ سلامٌ لا زيارةَ بيننا * ولا وَصْلَ إلا أنْ يشاء ابنُ مَعْمَرِ

قال عبيد الله بن معمر : قد شئتُ ذلك ، فخذ جاريتك وبارك الله لك فى المال . فذهب بجاريته ومالِه فعادَ غنيّا .

فهؤلاء أجواد الإسلام المشهورون في الجُود المنسوبون إليه، وهم أحد عشر رجلا كما ذكرنا وسمَّينا، وبعدهم طبقة أخرى من الأجواد، قد شُهروا بالجود وعُرفوا بالكرم، وحُمدت أفعالهم، وسنذكر ما أمكننا ذكره منها إن شاء الله تعالى:

الطبقة الثانية من الأجواد

فنهم الحكم بن حَنْطب

٥

قيل لنصيب بن رباح: خَرِفَ شِعرُك أبامحجن! قال لا، ولكن خَرِف الكرم؛ لقد رأيتُني ومدحتُ الحكم بن حنطب، فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة.

شيء عنه

وسأل أعرابي الحكم بن حَنطب، فأعطاه خمسمائة دينار، فبكى الأعرابي، فقال: ما يُبكيك يا أعرابي؟ لعلك استقللت ما أعطيناك! قال: لا والله، ولكني أبكي لما تأكلُ الأرضُ منك، ثم أنشأ يقول:

١٠

وكأنَّ آدمَ حين حانَ وفاتُهُ ... أوْصاكَ وهوَ يجودُ بالحَوْباءِ

ببَنيهِ أن ترْعاهمُ فرَعَيْتَهُم ... فكفَيْتَ آدمَ عَيْلَةَ الأبناءِ

العتبي قال: أخبرني رجل من أهل منبج، قال: قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مُمْلِقٌ فأغنانا! قال له: كيف أغناكم وهو مُملق؟ قال: علَّمنا المكارمَ، فعاد غنيُّنا على فقيرنا.

١٥

ومنهم معن بن زائدة

وكان يقال فيه: حدِّث عن البحر ولا حَرَج، وحدِّث عن معن ولا حَرَج:

شيء عنه

وأتاه رجل يسأله أن يحمله، فقال: ياغلام، أعطِه فرسا وبِرْذَوْناً وبَغلا وعَيْرًا وبَعيرا وجارية. وقال: لو عرفتُ مركوبا غير هؤلاء لأعطيتك.

العتبي قال: لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس، أتاه مروان ابن أبي حفصة فأخذ بعضادتي الباب، فأنشده شعره الذي قاله فيه:

٢٠

فما أحجمَ الأعداءُ عنكَ بَقيَّةً ... علَيْكَ، ولكنْ لم يَرَوْا فيكَ مطْمَعا

لهُ راحتانِ الحَتْفُ والجُودُ فيهما ... أبَى اللهُ إلّا أنْ يضُرَّ وينْفَعا

ومنهم يزيد بن المهلب

شيء عنه

وكان هشام بن حسّان إذا ذكره قال : والله إن كانت السفنُ لتجْرى فى جوده .

وقيل ليزيد بن المهلّب : مالك لا تبنى دارا ؟ قال : منزلى دار الإمارة أو الحبس . ٥

ولما أُتى يزيدُ بن عبد الملك برأس يزيد بن المهلب ، نال منه بعضُ جلسائه فقال له : مَهْ ! إن يزيد بن المهلّب طلب جسيما وركب عظيما ومات كريما .

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلّب فى الحبس فأنشده :

صَحَّ فى قَيْدِكَ السماحَةُ والمجْ ـدُ وفَكُّ العُناة والإفضالُ

قال : أتمدحنى وأنا فى هذه الحال ؟ قال . أصبتُك رخيصاً فاشتريتك . فأمر له بعشرة آلاف . ١٠

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصير : أغْرَم ديتَك خمسين مرة . قال : ليس عندى ما أغرَم . قال : والله لتَغْرَمَنّ ديتك مائة مرة . قال يزيد بن المهلّب : أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين . قال : أغرم . فغرمها عنه مائة ألف .

العتبى قال : أخبرنى عَوانة قال : استعمل الوليدُ بن عبد الملك عثمان بن حيّان المُرّى على المدينة وأمره بالغِلظة على أهل الظِّنّة ؛ فلما اسْتُخْلِف سليمان أخذه بألفى ألف درهم ؛ فاجتمعت القيسية فى ذلك فتحمّلوا شطرها وضاقوا ذرعا بالشطر الثانى . ووافق ذلك استعمالُ سليمانَ يزيد بن المهلب على العراق . فقال عمر بن هبيرة : عليكم بيزيد بن المهلّب ، فما لها أحدٌ غيره ! فتحملوا إلى يزيد وفيهم عُمر بن هُبيرة ، والقَعقاع بن حبيب ، والهُذيل بن زُفر بن الحارث ، وانتهوا إلى رُواق يزيد . قال يحيى بن أقتل ـ وكان حاجباً ليزيد بن المهلب وكان رجلا من الأزد ـ فاستأذنت لهم فخرج يزيد إلى الرواق فقرّب ورحّب ، ثم دعا بالغداء ، فأُتوا بطعامٍ ما أنكروا منه أكثرُ مما عرفوا ، فلما تغدَّوْا تكلم عثمان بن حيّان وكان لَسِناً ١٥ ٢٠

مفوّها ، وقال : زادك الله فى توفيقك أيها الأمير ، إن الوليد بن عبد الملك وجّهنى إلى المدينة عاملا عليها ، وأمرنى بالغلظة على أهل الظنّة والأخذ عليهم ؛ وإن سليمان أغرمنى غُرماً ، والله ما يَسَعُه مالى ولا تحمله طاقتى ؛ فأتيناك لتحمل من هذا المال ما خفّ عليك ، وما بقى والله ثقيلٌ علىّ . ثم تكلم كل منهم بما حضره، وقد اختصرنا كلامهم . ٥

فقال يزيد بن المهلب : مرحباً بكم وأهلا ، إن خير المال ما قُضى فيه الحقوقُ وحُمِلت به المغارم ، وإنما لى من المال ما فَضَلَ عن إخوانى ، وأيمُ اللهِ لو علمتُ أن أحدا أملأ بحاجتكم منى لهديتُكم إليه فاحتكموا وأكثِروا . فقال عثمان بن حيان : النصف أصلح الله الأمير . قال : نعم وكرامة ، اغْدُوا على مالِكم فخذوه . ١٠

فشكروا له وقاموا فخرجوا . فلما صاروا على باب السرادق قال عمر بن هُبيرة : قبّح الله رأيكم ، والله ما يبالى يزيد أنِصفها تَحمَّل أم كلَّها . فمن لكم بالنصف الباقى ؟ قال القوم : هذا والله الرأيُ ! وسمع يزيدُ مُناجاتهم ، فقال لحاجبه : انظر يا يحيى إن كان بقى على القوم شىء فليرجعوا ، فرجعوا إليه وقالوا : أقِلْنا قال : قد فعلت . قالوا : فإن رأيت أن تحملها كلَّها فأنت أهلُها ، وإن أبيْتَ فما لها أحد غيرك ، قال : قد فعلت . ١٥

وغدَا يزيدُ بن المهلب إلى سليمان فقال : يا أمير المؤمنين ، أتانى عثمان بن حيّان وأصحابه . قال : أمسِكْ فى المال ؟ قال : نعم . قال سليمان : والله لآخذَنّهُ منهم . قال يزيد : إنى قد حملتهُ . قال : فأدِّه : قال يزيد والله ما حملته إلا لأؤدّيه ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن هذه الحَمَالة وإن عظُم خطبُها ، لَحَمْدُها والله أعظمُ منها ، ويدى مبسوطة بيدك ، فابسطها لسؤالها . ثم غدا يزيد بالمال على الخُزّان فدفعه إليهم . فدخلوا على سليمان فأخبروه بقبض المال ، فقال : وفت يمينُ سليمان ، احملوا إلى أبى خالد ماله . ٢٠

فقال عدى بن الرقاع العاملى :

ولله عَيْنا مَنْ رأى كحَمالةٍ ٭ تحمَّلَها كبْشُ العِـــراقِ يَزِيدُ

الأصمعى قال : قدم على يزيد بن المهلّب قومٌ من قُضاعة من بنى ضبّة ، فقال رجل منهم :

واللهِ ما نَدْرى إذا ما فاتَنا ٭ طلَبٌ إليكَ مَن الّذِى نتَطلّبُ ؟ ٥

ولقدْ ضَربْنا فى البلادِ فلمْ نَجدْ ٭ أحداً سِواكَ إلى المكارِمِ يُنْسَبُ

فاصبرْ لعادَتِنا التى عوَّدْتَنا ٭ أوْ لا فأرْشِدْنا إلى مَنْ نَذْهَبُ ؟

فأمر له بألف دينار ؛ فلما كان فى العام المقبل وفد عليه فقال :

مالى أرَى أبوابَهُمْ مَهْجُـــورةً ٭ وكأنّ بابَكَ مَجْمَعُ الأسْواقِ

أرَجَوْكَ أمْ خافُوكَ أمْ شامُوا النَّدَى ٭ بِيدَيْك فاجْتَمَعُوا مِنَ الآفاقِ ١٠

إنّى رأيْتُكَ للمكارِمِ عاشِـــقاً ٭ والمَكْرُماتُ قَليـــلةُ العُشّاقِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

ومر يزيد بن المهلّب فى طريق البصرة بأعرابيّة ، فأهدت إليه عنزا ، فقبلها وقال لابنه معاوية : ماعندك من نفقة ؟ قال : ثمانمائة درهم . قال : ادفعها إليها ! قال إنها لا تعرفك ويُرضيها اليسير قال : إن كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى ، ١٥ وإن كان يُرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير .

ومنهم يزيد بن حاتم

شىء عنه — وكتب إليه رجل من العلماء يستوصله ، فبعث إليه ثلاثين ألف درهم ، وكتب إليه : « أما بعد ، فقد بعثت إليك بثلاثين ألفاً ، لا أُكثّرها آمتناناً ، ولا أقلّلها تجبُّراً ، ولا أستثيبك عليها ثناء ، ولا أقطع لك بها رجاء ، والسلام » . ٢٠

وكان ربيعة الرَّقى قد قدم مصر فأتى يزيدَ بن حاتم الوردى فلم يُعطه شيئا ، فشغل عنه ببعض الأمر ، فخرج وهو يقول :

أَرانى ولا كفرانَ للهِ راجِعًا ٭ بخُفَّىْ حُنَيْن من نَوالِ ابنِ حاتِمِ

فسأل عنه يزيد ، فأُخبر أنه قد خرج وقال كذا ، وأنشد البيت ؛ فأرسل فى طلبه فأُتى به ، فقال : كيفَ قلت ؟ فأنشده البيت ؛ فقال شُغِلنا عنك ! ثم أمر بخُفَّيْه فخلِعَتا من رجليه ومُلِئتا مالًا ، وقال : ارجع بهما بدلا من خُفَّىْ حُنَين ! فقال فيه لما عُزل عن مصر وولى مكانه يزيد بن حاتم :

٥ بكَى أهلُ مِصْرٍ بالدُّمُوعِ السَّواجِمِ ٭ غداةَ غدَا منها الأغرُّ ابنُ حاتِمِ

وفيها يقول :

لشتَّانَ ما بَينَ اليزيدَيْنِ فى النَّدى ٭ يَزيدَ سُلَيْمٍ والأغرِّ ابنِ حاتِمِ

فهَمُّ الفَتى الأزدىِّ إتلافُ مالِهِ ٭ وهَمُّ الفتى القيْسىِّ جَمْعُ الدَّراهِمِ

فلا يَحْسَبِ التَّمتامُ أَنِّى هَجَوْتُهُ ٭ ولكنَّنى فضَّلتُ أهلَ المَكارِمِ[1]

١٠ وخرج إليه رجل من الشعراء يمدحه ، فلما بلغ مصر وجده قد مات ؛ فقال فيه :

لئن مِصْرُ فاتَتْنى بما كُنْتُ أَرْتجى ٭ وأخلَفَنى منها الذى كُنْتُ آمُلُ

فما كُلُّ ما يَخْشَى الفتَى بمُصِيبه ٭ ولا كُلُّ ما يَرْجُو الفتَى هُوَ نائِلُ

وما كان بيْنى لوْ لقِيتُكَ سالِماً ٭ وبيْنَ الغِنى إلّا ليالٍ قلائلُ

ومنهم أبو دُلف

١٥

واسمه القاسم بن إسماعيل ، وفيه يقول علىُّ بن جَبلة :

إنما الدنْيا أبو دُلَفٍ ٭ بين مَبْدَاهُ ومُحْتضَرِهْ

فإذا ولَّى أبو دُلَفٍ ٭ ولَّتِ الدنيا على أثَرِهْ

وقال فيه رجل من شعراء الكوفة :

٢٠ الله أجرَى من الأرزاق أكثرها ٭ على العبادِ ، على كَفَّىْ أبى دلَفِ

بَارَى الرياحَ فأعطَى وهْىَ جارية ٭ حتى إذا وقفَتْ أعطى ولم يقِفِ

(١) تقدم هذا الخبر.

ما خَطَّ «لا» كاتباهُ فى صحيفتِهِ * يَوْماً كما خُطَّ «لا» فى سائرِ الصُّحُفِ

فأعطاه ثلاثين ألفا.

ومدحه آخر فقال فيه :

يُشْبِهُه الرَّعْدُ إذا الرعدُ رَجَفْ * كأنهُ البَرْقُ إذا البرقُ خَطفْ

كأنه الموتُ إذا الموتُ أزِفْ * تحمِلُهُ إلى الوغى الخيْلُ القُطُفْ ٥

إن سارَ سارَ المجدُ أو حَلَّ وقَفْ * انظر بعينَيكَ إلى أسْنَى الشَّرَفْ

هــل ناله بقُدْرةٍ أو بِكُلَفْ * خَلْقٌ من الناسِ سِوى أبى دُلَفْ

فأعطاه خمسين ألفاً .

ومن أخبار معن بن زائدة

شىء عنه ١٠ قال شَراحيل بن معن بن زائدة : حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف القاضى ، وكنت كثيرا ما أسايره ، إذ عرض له أعرابىّ من بنى أسد فأنشده شعرا مدحه فيه وأفرط ، فقال له هارون : ألم أنْهكَ عن مثل هذا فى مدحك يا أخا بنى أسد ؟ إذا قلت فينا فقل كقول القائل فى أب هذا :

بَنو مطر يوم اللقـــاءِ كأنهمْ * أُسودٌ لهـا فى غِيلِ خِفَّانَ أَشْبُلُ

هم يَمنعون الجـارَ حتى كأنمـا * لجـارِهِمُ بيْنَ السِّماكَيْنِ مَنزِلُ ١٥

بَهاليلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن * كأوَّلِهمْ فى الجــاهليَّةِ أوَّلُ

وما يَستطيعُ الفاعلونَ فَعالَهمْ * وإن أحْسَنوا فى النائباتِ وأَجْمَلوا

هم القومُ إن قالوا أصابوا وإن دُعوا * أجابوا وإن أعْطَوْا أطابوا وأجزلوا

ومنهم خالد بن عبد الله القسرى

شىء عنه ٢٠ وهو الذى يقول فيه الشاعر :

... إلى خالدٍ حتى أُنِخْنَ بِخالدٍ * فنِعْمَ الفتَى يُرْجى ونعمَ المُؤَمَّلُ

بينا خالد بن عبد الله القسري جالس فى مظلة له ، إذ نظر إلى أعرابى يخبّ به بعيره مُقبِلًا نحوه ؛ فقال لحاجبه . إذا قدم فلا تحجبْه . فلما قدم أدخله عليه ، فسلّم وقال :

أصلحَكَ اللهُ قلّ ما بيَدى ٭ فما أُطِيقُ العيالَ إذ كثُروا
٥ أناخَ دهـرٌ ألْقى بكَلْكَلِه ٭ فأرْسَلونى إليكَ وانْتظروا

فقال خالد : أرسلوك وانتظروا ؟ والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بما يسُرُّهم . وأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة .

ومنهم عدىّ بن حاتم

شىء عنه

دخل عليه ابن دارة فقال : إنى مدحتُك . قال : أَمسِك حتى آتيك بمالى ثم ١٠ امدحْنى على حَسبه ، فإنى أكره ألّا أُعطيك ثمنَ ما تقول ، لى ألفُ شاة ، وألفُ درهم ، وثلاثةُ أعبد ، وثلاث إماء ، وفرسى هذا حُبس فى سبيل الله ، فامدحنى على حسب ما أخبرتك . فقال :

تَحِنُّ قَلُوصِى فى مَعَدٍّ ، وإنما ٭ تُلاقى الرَّبيعَ فى ديارِ بنى ثُعَلْ
وأبقَى الليالى من عَدِىِّ بن حاتمٍ ٭ حُساماً كنَصْل السيفِ سُلَّ مِنَ الخِلَلْ
١٥ أبوكَ جَوَادٌ لا يُشَقُّ غُبارُهُ ٭ وأنت جَوادٌ لستَ تُعْذَر بالعِلَلْ
فإنْ تَفعلوا شرًّا فمثلُكُمُ اتّقِى ٭ وإن تفعلوا خيرا فمثلُكم فَعَلْ

قال له عدى : أمسك ؛ لا يبلغُ مالى أكثرَ من هذا .

أصفاد الملوك على المدح

بين الرشيد وباهلى

سعيد بن مُسلم الباهلى قال : قدمَ على الرشيد أعرابى من باهلة وعليه جُبة ٢٠ حِبَرة ، ورداء يَمانٍ قد شدَّه على وسطه ثم ثناه على عاتقه ، وعمامة قد عصبها على فَوْدَيه وأرخى لها عَذَبة من خَلْفه ، فمَثَلَ بين يدى الرشيد ، فقال سعيد : يا أعرابى ، خذ فى شَرفِ أمير المؤمنين . فاندفع فى شعره . فقال الرشيد :

يا أعرابى ، أسمعك مُستحسِنا وأُنكرك متَّهما ؛ فقل لنا بيتين فى هذين ـ يعنى محمداً الأمينَ وعبدَ الله المأمونَ ابنيه ، وهما عن حفافيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حملتنى على الوعْرِ القَرْدَد ورجعتنى عن السّهْل الجَدَد ، وروعةُ الخلافة ، وبُهْرُ الدرجة ، ونفورُ القوافى على البديهة ؛ فأرْوِدْنى تتألف لى توافِرُها ويسكن روعى .

قال : قد فعلتُ ، وجعلتُ اعتذارَك بدلا من امتحانك . قال : يا أمير المؤمنين ، نفّست الخناق ، وسهلت ميدان السباق ؛ فأنشأ يقول :

بَنَيْتَ لعبــدِ اللهِ ثمّ مُحمـدٍ * ذُرَا قُبّةِ الإسلامِ فاخْضَرّ عودُها

هما طُنُباها ، باركَ اللهُ فيهما * وأنتَ أمـيرَ المؤمنينَ عمودُها

فقال الرشيد : وأنت يا أعرابى ، بارك الله فيك ! فَسَلْ ولا تكن مسألتُك دون إحسانك . قال الهُنَيْدَةَ يا أمير المؤمنين . فأمر له بمائة ناقة وسبع خِلَع .

المهدى ومروان ابن أبى حفصة

وقال مَروان بن أبى حفصة : دخلت على المهدىّ فاستنشدنى ، فأنشدته الشعر الذى أقول فيه :

طَرَقَتْكَ زائرةً فحىِّ خيالَهـا * بيضاءُ تَنشُرُ بالحَياءِ دلالَهَا

قادتْ فؤادَكَ فاسْتَقادَ ومِثلُها * قادَ القلوبَ إلى الصِّبا فأمالَهَا

حتى انتهيت إلى قولى :

شَهِدتْ من الأنفالِ آخرُ آيةٍ[1] * بتُراثِهِمْ فرجوْتُمُ إبطالَهَا

هل تَطْمِسونَ منَ السماءِ نجومَها * بأكُفِّكُمْ أو تَسْتُرون هِلالَهَا

أو تجحدون مَقالةً عن ربِّكُمْ * جِـبريلُ بَلَّغَها النبىَّ فقالَهـا

قال : وأنشدته أيضاً شعري الذى أقول فيه :

يابن الذى وَرِثَ النبىَّ مُحمّداً * دون الأقاربِ منْ ذوى الأرحامِ

الوحىُ بيْنَ بَنى البَناتِ وبينَكُمْ * قُطِعَ الخِصامُ فلاتَ حين خِصامِ

(١) يريد قوله تعالى (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم) .

ما للنساء مع الرِّجالِ فريضةٌ ۞ نَزَلت بِذلك سورةُ الأنعامِ
أنى يكون وليسَ ذاكَ بكائنٍ ۞ لِبَنى البناتِ وِراثةُ الأعمامِ
ألَنى سِهامَهمُ الكتابُ فحاوَلوا ۞ أن يَشْرَعوا فيها بغيرِ سِهامِ
ظَفِرَتْ بَنو ساقى الحَجيج بحقّهم ۞ وغُرِرْتُمُ بتوهُّمِ الأحلامِ

٥ قال مروان بن أبى حفصة : فلما أنشدت المهدىّ الشعرين قال : وجب حقُّك على هؤلاء ـ وعنده جماعة من أهل بيته ـ قد أمرتُ لك بثلاثين ألفاً ، وفَرَضْتُ على موسى خمسةَ آلاف ، وعلى هارون مثلَها ، وعلى علىّ أربعة آلاف ، وعلى العبّاس كذا ، وعلى فلان كذا فحسَبتُ سبعين ألفاً . قال : فأمر بالثلاثين ألفاً فأتى بها ، ثم قال : اغدُ على هؤلاء وخُذ ما فَرضتُ لك . فأتيت موسى فأمر لى ١٠ بخمسة آلاف ، وأتيت هارون فأمر لى بمثلها ، وأتيت عليا، قال : قَصَّر بى دون إخوتى فلن أُقصّر بنفسى . فأمر لى بخمسة آلاف فأخذت من الباقين سبعين ألفاً .

عبد الملك وأعشى ربيعة

ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان ، وعن يمينه الوليد وعن يساره سليمان : فقال له عبد الملك : ماذا بقى يا أبا المغيرة ؟ قال : مضى ما مضى وبقى ما بقى . وأنشأ يقول :

١٥ وما أنا فى حَقى ولا فى خُصومتى ۞ بمُهتَضَمٍ حَقى ولا قارِعٍ سِنّى
ولا مُسلِمٍ مَوْلاى مِن سوءِ ما جَنَى ۞ ولا خائفٍ مولاى من سوءِ ما أَجْنِي
وفَضْلِىَ فى الأقوامِ والشِّعرِ أننى ۞ أقولُ الذى أعْنِى وأَعْرِفُ ما أَعْنى
وأنّ فؤادى بين جَنْبَىَّ عالمٌ ۞ بما أبصَرَتْ عيْنى وما سَمِعَتْ أُذْنى
وإنى وإنْ فَضلتُ مروانَ وابنَهُ ۞ على الناسِ، قد فَضَّلْتُ خيرَ أبٍ وابنِ

٢٠ فضحك عبد الملك وقال للوليد وسليمان : أتلومانى على هذا ؟ وأمر له بعشرة آلاف .

عبد الرحمن ابن الحكم والفرزدق

العتبى قال : دخل الفرزدق على عبد الرحمن الثقفى بن أم الحكم ، فقال له عبد الرحمن : أبا فراس ، دعنى من شعرك الذى لا يأتى آخره حتى يُنْسَى أوله ، وقل فىّ بيتين يتداولان أفواه الرواة ، وأُعطيكَها عطيةً لم يُعطِكها أحدٌ قبلى .

فغدا عليه وهو يقول :

وأنت ابن بَطْحاوَىْ قُرَيْشٍ فإن تَشَأْ ∗ فكن مِنْ ثَقيفٍ سَيْل ذى حَدَبٍ غَمْر

وأنت ابن فَرْع ماجدٍ لعَقيلةٍ ∗ تلقَّتْ له الشمس المُضيئة بالبدر

قال : أحسنت ، وأمر له بعشرة آلاف .

الفضل بن يحيى وفتى من التجار

أبو سويد قال : أخبرنى الكوفى قال : اعترض الفضلَ بن يحيى بن خالد فى وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان شَخَص إلى الكوفة فقُطع به وأُخِذ جميعُ ما كان معه ، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال :

سأُرْسِلُ بيتاً ليس فى الشِّعْرِ مِثْلَه ∗ يُقَطِّعُ أعْناقَ البيوتِ الشَّوارِدِ

أقامَ النَّدى والبأسُ فى كلِّ منزلٍ ∗ أقامَ به الفضلُ بنُ يحيى بنِ خالِدِ

قال فأمر له بمائة ألف درهم .

زبيدة وابن أبى حفصة فى أبيات مدح بها الأمين

العتبي : قال أبو الجنوب مروان بن أبى حفصة أبياتاً ورفعها إلى زبيدة ابنة جعفر يمتدح ابنها محمدا ، وفيها يقول :

لله دَرُّكِ يا عَقيلة جعفرٍ ∗ ماذا وَلَدْتِ من العُلا والسُّوددِ

إن الخلافةَ قد تَبيَّنَ نورُها ∗ للناظرينَ على جَبينِ مُحمدِ

فأمرت أن يُملأ فمُهُ دُرًّا .

الحسن بن سهل وعلى بن جبلة

وقال الحسن بن رجاء الكاتب : قَدِم علينا على بن جبلة إلى عسكر الحسن ابن سهل ، والمأمونُ هناك بانياً على خديجة بنت الحسن بن سهل ، المعروفة ببوران ، ونحن إذ ذاك نُجرى على نَيِّف وسبعين ألف فلّاح . وكان الحسن بن سهل مع المأمون يَتصبّح ؛ فكان الحسن يجلس للناس إلى وقت انتباهه ، فلما قدم على بن جبلة نزل بى ، فقلتُ له : قد قوى شُغل الأمير . قال : إذاً لا أَضيع معك ! قلت : أجل . فدخلت على الحسن بن سهل فى وقت ظُهوره فأعلمتُه مكانه ؛ فقال : ألا ترى مانحن فيه ؟ قلت : لستَ بمشغولٍ عن الأمر له . فقال . يُعطَى عشرة آلاف إلى أن نتفرّغ له . فأعلمتُ على بن جبلة ؛ فقال فى كلمة له :

أعطَيْتَنى ياوَلِيَّ الحقِّ مُبتدئًا ∗ عَطِيَّةً كافأتْ حَمْدى ولم تَرَنى

مَا شِمْتُ بَرْقَكَ حتى نِلْتُ رَيِّقَهُ * كأنما كنت بالجَدْوَى تُبادِرُنى

ابن طوق ورجل عرض له

عرض رجل لابن طَوْق وقد خرج متنزها فى الرحبة فناوله رقعة فيها جميع حاجته، فأخذها فإذا فيها:

جعلتُك دُنْيَاىَ فإنْ أنتَ جُدْتَ لِى * بخَيْرٍ وإلّا فالسّلامُ على الدُّنيا

٥ فقال: والله لأصدقنَّ ظنّك. فأعطاه حتى أغناه.

عبد الله بن طاهر ودعبل بن على

عرض دعبل بن على الشاعر لعبد الله بن طاهر الخراسانى وهو راكب فى حرّاقه له فى دجلة، فأشار إليه برقعة، فأمر بأخذها، فإذا فيها:

عجِبْتُ لحرّاقةِ بنِ الحُسَـيْنِ كيفَ تسيرُ ولا تغْرَقُ

وبَحْرانِ مِنْ تَحْتِها واحِدٌ * وآخرُ مِنْ فوْقِها مُطْبِقُ

١٠ وأعجبُ مِنْ ذاكَ عِيدانُها * إذا مسَّها كيْف لا تُورِقُ

فأمر له بخمسة آلاف درهم وجارية وفرس.

وخرج عبد الله بن طاهر فتلقاه دعبل برقعة فيها:

طلَعتْ قناتكَ بالسَّعادةِ فوْقها * معْقودةً بلواءِ مُلْكٍ مُقْبِلِ

تَهتزُّ فوْقَ طريدَتيْنِ كأنّما * تَهْفو يُقَصُّ لها جناحا أجْدَلِ

١٥ ربحَ البخيلُ على احتيالِ عِرْضَهُ * بِنَدى يدَيْكَ ووَجْهِكَ المُتهلِّلِ

لو كانَ يعْلَمُ أنّ نيلَكَ عاجِل * ما فاضَ مِنْهُ جَدْوَلٌ فى جدْوَلِ

فأمر له بخمسة آلاف.

عبد الله بن طاهر وشاعر

ووقف رجل من الشعراء إلى عبد الله بن طاهر فأنشده:

إذا قِيلَ: أىّ فتًى تعلَمونَ * أهَشُّ إلى البأسِ والنائلِ

٢٠ وأضْرَبَ لِلْهامِ يومَ الوغَى * وأطْعَمَ فى الزمَنِ الماحِلِ؟

أشارَ إليك جَمِيعُ الأنامِ * إشارةَ غرْقَى إلى ساحِلِ

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

أحمد بن مُطير قال: أنشدت عبد الله بن طاهر أبياتاً كنتُ مدحت بها بعض

الوُلاة ، وهى :

له يومُ بُؤْسٍ فيهِ للناسِ أبْؤُس ٭ ويومُ نعيمٍ فيهِ للناسِ أنْعُمُ
فيقْطُر يومَ الجودِ من كفِّهِ النَّدى ٭ ويقطُر يومَ البؤسِ من كفّه الدَّمُ
فلوْ أنَّ يوم البُؤسِ لَمْ يثْنِ كفَّهُ ٭ على الناسِ لم يُصْبِحْ على الأرضِ مُجْرِمُ
ولو أنّ يوم الجودِ فرّغَ كفَّهُ ٭ لبذْلِ النَّدَى ما كانَ بالأرضِ مُعْدِم ٥

فقال لى عبد الله : كم أعطاك ؟ قلت : خمسة آلاف . قال : فقبلتها ؟ قلت نعم . قال لى : أخطأت ؛ ما ثمن هذه إلا مائةُ ألف .

أبو جعفر وحماد عجرد

ودخل حماد عجرد على أبى جعفر بعد موت أبى العبّاس أخيه فأنشده :

أبوكَ بعدَ أبى العبَّاسِ إذْ بانا ٭ يا أكرمَ الناسِ أعْراقاً وعيدَانا
لو مَجَّ عود على قوم عُصارتَهُ ٭ لَمجَّ عودُك فينا المِسْكَ والبانَا ١٠

فأمر له بخمسة آلاف درهم .

سعيد بن خالد وموسى شهوات

القحذمى قال : جاء موسى شَهَوات إلى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ، فقال : إن هنا جارية تعشّقْتُها ، وأبوا أن ينقُصونى عن مائتى دينار . فقال : بورك فيه فذهب إلى سعيد بن خالد بن أسيد ، وأمّه عائشة بنت طلحة الطلحات فدعا بِمِطْرَف خَزّ فبسطه وعقد فى كل ركن من أركانه مائة دينار ، وقال لموسى ١٥ خذ المُطرف بما فيه . فأخذه ، ثم غدا عليه فأنشده :

أبا خالدٍ أعنى سعيدَ بنَ خالدٍ ٭ أخا العُرْف ، لا أعنى ابن بنتِ سعيدِ
ولكنّنى أعنِي ابنَ عائشة الذى ٭ أبو أبوَيهِ خالدُ بنُ أسـيدِ
عَميدَ النَّدى ما عاشَ يرْضَي به النّدى ٭ فإن ماتَ لم يرْضَ النَدى بعَميدِ
دعُوهُ دعُوه إنّكمْ قد رقدْتمُ ٭ وما هو عنْ أحسابِكمْ برَقُودِ ٢٠

للزبيرى فى آل مروان

العتبي قال : سمعت عمى ينشد لأبى العباس الزبيرى :

وكلُّ خليفةٍ وولِىِّ عهْـدٍ ٭ لكمْ يا آلَ مَرْوانَ الفِـداءُ
إمارتُكمْ شفاءٌ حَيثُ كانتْ ٭ وبعْضُ امارةِ الأقوامِ داءُ

فأنتمْ تُحْسِنُون إذا مَلَكْتُم * وبعضُ القومِ إن مَلَكوا أساءوا
أأَجْعلُكُمْ وغيرَكُمُ سَواءً * وبينَكُمُ وبينَهُمُ الهَــواءُ
هُمُ أرْضٌ لأرجُلكُمْ وأنتُمْ * لأيديهِمْ وأرجُلِهِمْ سَماءُ

فقلت له : كم أعطى عليها ؟ قال : عشرين ألفاً .

أبو مسلم ورؤبة

٥ الأصمعى قال : حدثنى رؤبة قال : دخلت على أبى مُسلم صاحب الدعوة ، فلما أبصرنى نادى : يارؤبة . فأجبته :

لَبَّيْكَ إذْ دعَوْتنى لبيْكا * أحْمَدُ ربًّا ساقنى إليْكا
الحمدُ والنِّعْمَةُ فى يدَيْكا

قال : بل فى يدىِ اللهِ تعالى . قلت له : وأنت إذا أنعمتَ أجدت . ثم قلت :
١٠ يأذن لى أمير المؤمنين فى الإنشاد ؟ قال : نعم ؛ فأنشدته :

ما زال يأتى المُلْكَ فى أقطارِهِ * وعنْ يمينِـهِ وعنْ يسارِهِ
مُشَمِّرا لا يصطَلى بنارِهِ * حتى أقرَّ المُلْك فى قرارِهِ

فقال : يا رؤبة ، إنك أتيتنا وقد شفَّ المالُ واستنفده الإنفاق ، وقد أمرنا لك بجائزة ، وهى تافهة يسيرة ، ومنك العوْد وعلينا المُعَوَّل ، والدهر أطْرَقُ
١٥ مُستَتِبٌّ [1] ، فلا تجعل بيننا وبينك الأسِدّة . قال رؤبة : فقلت : الذى أفادنى الأميرُ من كلامه أكثرُ من الذى أفادنى من ماله .

هشام ونصيب

ودخل نصيب بن رباح على هشام فأنشده :

إذا استبقَ الناس العُلا سَبَقْتَهُمُ * يَمِيُنكَ عفْوا ثمّ صَلّتْ شِمالكا

فقال هشام : بلغتَ غاية المدح فسَلْنى . فقال : يا أمير المؤمنين ، يداك بالعطيّة
٢٠ أطلق من لسانى بالمسألة . قال : لا بُد أن تفعل . قال : لى ابنة نفضْتُ عليها من سوادى فكسَّدها ، فلو أنفقها أميرُ المؤمنين بشىء يجعله لها . قال : فأقطعها أرضا ، وأمر لها بحلى وكسوة . فنفقت السوداء .

---

(١) الأطرق والمستتب : من أوصاف البعير ، وهو الضعيف الذليل .

عبد الله بن جعفر ونصيب

الرياشي عن الأصمعي قال : مدح نُصيب بن رباح عبد الله بن جعفر فأمر له بمال كثير وكُسوة شريفة ورواحل مُوقَرة بُرًّا وتمراً ؛ فقيل له : أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود ؟ قال : أما لئن كان عبداً إن شعره فى لحُرّ ؛ ولئن كان أسود إنّ ثناءه لأبيض ، وإنما أخذ مالًا يَفنى وثياباً تَبلى ورواحلَ تنضَى ، وأعطى مديحاً يُرْوى وثناء يَبْقى . ٥

هشام وأبو النجم

وذكروا عن أبى النجم العِجْلى أنه أنشد هشاماً شعره الذى يقول فيه :

* الحمد لله الوهوب الُمجزل *

وهو من أجود شعره ، حتى آنتهى إلى قوله :

* والشمس فى الجوّ كعين الأحول *

وكان هشام أحول ، فأغضبه ذلك ، فأمر به فطُرِد . فأمّل أبو النجم رجعته ، ١٠ فكان يأوى إلى المسجد ، فأَرِق هشام ذات ليلة فقال لحاجبه : أَبغِنى رجلا عربيا فصيحاً يُحدثنى وينشدنى . فطَلَب له ما سأل ، فوجد أبا النجم ، فأَتى به ، فلما دخل عليه قال : أين تكون منذ أقصيناك ؟ قال : حيث ألفانى رسولك . قال : فمن كان أبا النجم مَثْواك ؟ قال : رجلين ، أتغدّى عند أحدهما وأتعشّى عند الآخر . قال : فما لَكَ من الولد ؟ قال : ابنتان ، قال أزَوّجْتهما ؟ قال : زَوّجْتُ ١٥ إحداهما . قال : فَبِمَ أوصيتَها ليلةَ أهديتَها ؟ قال : قلت لها :

سُبِّى الحماةَ وابهتِى عليها * وأن أبت فازْدَلِفى إليها

ثم اقْرَعِى بالعودِ مِرْفقَيْها * وجدّدى الُحلف به عليها

* لا تخبرِى الدهرَ بذاكِ ابنَيْها *

قال : فهل أوصيتها بعد هذا ؟ قال : نعم : ٢٠

أوْصيْتُ من بَرّةَ قلباً بَرَّا * بالكلبِ خيرًا والحماةِ شرَّا

لا تَسأمى خَنْقاً لها وجَرَّا * والحىّ عُمّيهمْ بشرّ طُرَّا

وإن كَسَوْكِ ذَهَبا ودُرّا * حتى يَرَوْا حُلْوَ الحياةِ مُرّا

قال هشام : ماهكذا أوصى يعقوبُ ولده . قال أبو النجم : ولا أنا كيعقوب ، ولا ولدى كولده . قال : فما حال الأخرى ؟ قال هى ظلّامة التى أقول فيها :

كأنّ ظَــلّامةَ أُختَ شَيْبانْ ، يَتيمــــة ووالِداها حَيّــانْ

الرَّأْسُ قَمْلٌ كُلُّهُ وصِئْبانْ ، وليس فى الرِّجْلين إلا خيطانْ

، فَهْىَ التى يُذْعَرُ مِنها الشَّيْطانْ ،

قال هشام لحاجبه : مافعلتَ بالدنانير التى أمرتُك بقبضها ؟ قال : هى عندى ، وهى خمسمائة دينار . قال له : ادفعها لأبى النّجم ليجعلها فى رجلَىْ ظلّامة مكان الخيطين .

مروان بن محمد وطريح وذو الرمة

أبو عبيدة قال : حدثنى يونس بن حبيب قال : لما اسْتُخْلِفَ مروان بن محمد دخل عليه الشعراء يهنئونه بالخلافة ، فتقدم إليه طُريح بن إسماعيل الثقفى ، خال الوليد بن يزيد ، فقال : الحمد لله الذى أنعم بك على الإسلام إماما ، وجعلك لأحكام دينه قِواما ، ولأمة محمد المصطفى جُنّة ونظاما . ثم أنشده شعره الذى يقول فيه :

تُسُوءِ عِدالكَ فى سَدادٍ ونَعْمَةٍ ، خِلافَتُنا تِسْعين عاما وأشْهُرا

فقال مروان : كم الأشهر ؟ قال : وفاء المائة بأمير المؤمنين ، تبلغ فيها أعلى درجة وأسعد عاقبة فى النصرة والتمكين . فأمر له بمائة ألف درهم .

ثم تقدم إليه ذو الرّمة متحانياً كِبْرة ، قد انحلّت عمامتُه مُنحدرة عن وجهه ، فوقف يُسوّيها ، فقيل له : تقدّم . قال : إنى أُجل أميرَ المؤمنين أن أخطب بشرفه مادحا بلَوْثة عمامتى . فقال مروان : ما أمّلتُ أنه أبقَتْ لنا منك مَىّ ولا صَيْدَحُ [1] فى كلامك إمتاعا . قال : بلى والله يا أمير المؤمنين ؛ أَرِدُ منه قَراحا ، والأحسن امتداحا ، ثم تقدم فأنشد شعراً يقول فيه :

فقلتُ لها سِيرى ، أمامَكِ سيّدٌ ، تفَرَّعَ مِن مَرْوانَ أو من مُحَمّدِ

(١) مىّ : صاحبته . وصيدح : ناقته .

فقال له : مافعلت مَى ؟ فقال :

طُوِيتْ غَدائرُها بِبُرْدِ بِلًى ۞ ومَحا التُّرابُ مَحاسنَ الخدِّ

فالتفت مروان إلى العباس بن الوليد ، فقال : أما ترى القوافى تنثال انثيالا ؟ يُعطَى بكل مَن سَمّى من آبائى ألفَ دينار . قال ذو الرمة : لو علمتُ لبلغتُ به عبدَ شمس .

المنصور وابن هرمة

الربيع حاجب المنصور قال : قلت يوما للمنصور : إن الشعراء ببابك وهم كثيرون ، طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم . فقال : اخرج إليهم فاقرأ عليهم السلام ، وقل لهم من مدحنى منكم فلا يصفنى بالأسد ، فإنما هو كلب من الكلاب ؛ ولا بالحيّة ، فإنما هى دُويّبة مُنتنة تأكل التراب ؛ ولا بالجبل ، فإنما هو حجر أصم ؛ ولا بالبحر ، فإنما هو غُطامط لجب ؛ ومن ليس فى شعره هذا فليدخل ؛ ومن كان فى شعره فلينصرف . فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة ، فإنه قال له . أنا له ياربيع ؛ فأدخلنى . فأدخله ، فلما مثل بين يديه ، قال المنصور : ياربيع ، قد علمتُ أنه لا يُجيبك أحدٌ غيره ؛ هات يابن هرمة . فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

له لحظاتٌ عن حفافَىْ سَرِيرِهِ ۞ إذا كرَّها فيها عَذابٌ ونائلُ

لهم طِينة بيْضاءُ من آل هاشمٍ ۞ إذا اسْوَدَّ من كُوم التراب القبائلُ

إذا ما أبى شيئاً مضى كالذى أبى ۞ وإنْ قال إنى فاعلٌ فهْوَ فاعِلُ

فقال : حسبك ! هاهنا بلغْت ، هذا عين الشعر ، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم . فقمتُ إليه وقبلتُ رأسه وأطرافه ثم خرجت ، فلما كدت أن أخفى على عينيه سمعته يقول : ياإبراهيم ! فأقبلت إليه فزعا ، فقلت : لبيك فداك أبى وأمى . قال : احتفظ بها فليس لك عندنا غيرها ! فقلت : بأبى وأمى أنت ، أحفظُها حتى أوافيك بها على الصراط بخاتَم الجهبذ .

جعفر وابن الجهم

على بن الحسين قال : أنشد على بن الجهم جعفراً المتوكل شعره

الذى أوله :

* هى النفسُ ما حَمَّلْتَها تتحمّلُ *

وكان فى يد المتوكل جوهرتان ، فأعطاه التى فى يمينه ؛ فأطرق متفكّراً فى شىء يقوله ليأخذ التى فى يساره ، فقال : مالك مفكراً ؟ إنما تفكر فيما تأخذ به
٥ الأخرى ! خُذها لا بُورك لك فيها ! فأنشأ يقول :

بِسُرَّمَنْرَا إمامُ عَـــدْلٍ * تَغرِفُ مِن بَحْرِهِ البِحارُ
يُرْجى ويُخشى لكلّ أمرٍ * كأنهُ جَنَّـــةٌ ونارُ
المُلْكُ فيـــه وفى بَنِيهِ * ما اخْتَلَفَ الليلُ والنّهارُ
يَداه فى الجودِ ضَرَّتانِ * عليـه كِلتاهُمـا تَغـار
١٠ لم تَأتِ منه اليمينُ شيئاً * إلا أتت مثْـلَه اليسارُ

لبعض الشعراء فى الهول

وقال آخر فى الهَوْل :

إذا سَأَلت النَّدَى عن كلِّ مَكْرُمَةٍ * لم تُلفِ نِسْبَتَها إلا إلى الهولِ
لوزاحَمَ الشمسَ أَلقَى الشمسَ مُظْلِمةً * لو زاحم الصُّمَّ ألجاها إلى المَيْلِ
أمضى منَ الدهْرِ إنْ نابَتْهُ نائبةٌ * وعندَ أعدائِهِ أمْضى منَ السَّيْلِ

عبداللّه بن طاهر وأبو يزيد الشاعر

١٥ ودخل شاعر من أهل الرى ، يقال له أبو يزيد ، على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، فأنشده :

اشربْ هنيئاً عليكَ التاجُ مُرْتفِقاً * من شادمهْرَ ودَعْ غُمدانَ لليمنِ[1]
فأنت أوْلى بتاجِ المُلْكِ تَلْبَسُه * من هَوْذَةَ بنِ علىٍّ وابنِ ذى يزنِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

٢٠ ودخلت ليلى الأخيليّة على الحجّاج فأنشدته :

إذا وَرَد الحَجّاجُ أرضاً مريضةً * تَتبَّعَ أقصى دائهـا فشفاها

(١) مرتفقا : ثابتا دائما . وشادمهر : موضع بنيسابور . وفى بعض الأصول « شاذياخ » وهى نيسابور .

شَفاها من الداء العُضال الذي بها * غُـلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ سَـقاها

فقال لها : لا تقولى غلام ، ولكن قولى : همام . ثم قال : أى النساء أحبُّ إليك أُنْزِلُكِ عندها ؟ قالت : ومَن نساؤك أيها الأمير ؟ قال : أُم الجُلاس بنت سعيد بن العاص الأُموية ، وهند بنت أسماء بن خارجة الفَزارية ، وهند بنت المهلب بن أبى صفرة العتكيّة . قالت : القيسية أحبّ إلىّ . فلما كان من الغد ٥ دخلت عليه . قال : يا غلام ، أعطِها خَمسمائة . قالت : أيها الأمير ، أحسبها أُدْماً . قال قائل : إنما أمر لك بشاء . قالت : الأمير أكرمُ من ذلك . فجعلها إبلًا على آستحياء ، وإنما كان أمر لها بشاء أوّلا .

كتاب الجمانة

في الوفود

فرش كتاب الوفود

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه :

قد مضى قولنا فى الأجواد والأصفاد على مراتبهم ومنازلهم ، وما جَروا عليه ، وما نَدبوا إليه من الأخلاق الجميلة ، والأفعال الجزيلة . ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه فى الوفود الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى الخلفاء والملوك ؛ فإنها مقامات فضل ، ومشاهد حَفل ؛ يُتَخَيَّر لها الكلام ، وتُسْتَهذب الألفاظ ، وتُستجزل المعانى . ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدَهم وزعيمَهم الذى عن قُوّته ينزعون ، وعن رأيه يُصدرون ؛ فهو واحد يَعدل قبيلة ، ولسان يُعرب عن ألسنة ، وماظنّك بوافد قوم يتكلّم بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم أو خليفته ، أو بين يدى ملك جبار فى رغبة أو رهبة ، فهو يوطد لقومه مرّة ويتحفّظ من أمامه أخرى . أتُراه مدخِراً نتيجة من نتائج الحكمة ، أو مُستبقياً غريبة من غرائب الفِطنة ؛ أم تظن القوم قدّموه لفصل هذه الخُطة إلا وهو عندهم فى غاية الحَذاقة واللَّسن ، ويَجمع الشعر والخطابة . ألا ترى أنّ قيس بن عاصم المِنقرىّ لمّا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم بَسَط له رداءه وقال : هذا سيد الوَبَر . ولما تُوفى قيس بن عاصم قال فيه الشاعر[1] :

عليكَ سلامُ اللهِ قَيْسَ بنَ عاصِمٍ ٭ ورحمتُهُ ماشاء أن يَتَرحما
تحيّةَ من ألبَسْتَه منك نِعمةً ٭ إذا زار عن شَحْطٍ بلادَكَ سَلما
وماكانَ قيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ ٭ ولكنه بُنْيانُ قوْمٍ تَهدَّما

(١) هو عبدة بن الطبيب

وفود العرب على كسرى

كسرى والنعمان

ابن القطامى عن الكلبىّ قال : قَدم النعمانُ بن المُنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم . فافتخر النعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارسَ ولا غيرها ، فقال كسرى وأخذته عزةُ الملك : يانعمان ، لقد فكرتُ فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرتُ فى حال من يقدَم علىّ من وفود الأمم ، فوجدت الروم لها حظٌ فى اجتماع ألفتها ، وعِظَم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ؛ وأنّ لها ديناً يبيّن حلالها وحرامها ويردّ سفيهها ويُقيم جاهلها . ورأيت الهند نحواً من ذلك فى حكمتها وطِبّها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيّب أشجارها ، ودقيق حسابها، وكثرة عددها . وكذلك الصين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها فى آلة الحرب وصناعة الحديد ، وفروسيّتها وهمتها ، وأنّ لها مُلكاً يجمعها . والترك والخزَر على ما بهم من سوء الحال فى المعاش ، وقلّة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم مُلوك تضمّ قواصيهم وتُدبّر أمرهم . ولم أر للعرب شيئاً من خِصال الخير فى أمرِ دينٍ ولا دُنيا ، ولا حزم ولا قُوة ، مع أن مما يدل على مهانتها وذُلّها وصِغَرِ همتها ، محلّتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد خرجوا من مَطاعم الدنيا وملابسها ، ومشاربها ولهوها ولذّاتها ، فأفضلُ طعام ظَفِرَ به ناعمُهم لحومُ الإبل التى يعافها كثيرٌ من السباع لثِقلها وسوء طعمها وخوف دائها ، وإنْ قَرَى أحدهم ضيفاً عدّها مَكرُمة ، وإن أطعمَ أكلة عدّها غنيمة ؛ تنطق بذلك أشعارُهم ، وتفتخر بذلك رجالُهم ، ما خلا هذه التّنوخيّة التى أسس جدّى اجتماعها ، وشدّ مملكتها ، ومنَعَها من عدوّها ؛ فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإنّ لها مع ذلك آثاراً ولَبُوسا ، وقُرى وحُصونا ، وأموراً تُشبه بعض أمور الناس ـ يعنى اليمن ـ ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلّة والقلّة والفاقة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان : أصلح الله الملك ، حقّ لأُمةٍ الملكُ منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها . إلا أنّ عندى جواباً فى كل ما نطق به الملك ، فى غير ردٍّ عليه ، ولا تكذيب له ، فإن أمّنى من غضبه نطقتُ به .

قال كسرى : قل فأنت آمن .

٥ قال النعمان : أمّا أُمتك أيها الملك فليست تُنازَع فى الفضل ، لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها ، وبسطةِ محلِّها ، وبُحْبُوحَةِ عِزِّها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأُمم التى ذكرتَ ، فأىّ أمة تقرنها بالعرب إلا فَضَلَتْها .

قال كسرى : بماذا ؟

١٠ قال النعمان : بعزّها ومنَعَتِها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنَفَتها ووفائها :

فأما عِزُّها ومنَعَتُها ؛ فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ، ووطّدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونُهم ظهورُ خيلهم ، ومِهادُهم الأرض ، وسُقوفهم السماء ، وجُنّتهم السيوف ، وعُدّتهم الصبر.

١٥ إذْ غيرُها من الأمم إنما عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حُسْنُ وجوهها وألوانها فقد يُعْرَف فضلُهم فى ذلك على غيرهم من الهند ، والصين المُنحفة ، والترك المشوّهة ، والروم المقشّرة .

وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أُمة من الأمم إلا وقد جَهلتْ آباءها وأصولها وكثيراً من أوّلها ، حتى إنّ أحدهم ليُسْأَلُ عمن وراء أبيه دُنْيا فلا ينْسُبه ولا يعرفه

٢٠ وليس أحد من العرب إلا يسمّى آباءه أباً فأباً ، حاطوا بذلك أحسابَهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ؛ ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يُدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها ، فإنّ أدناهم رجلاً الذى تكون عنده البكرةُ والناب عليها بلاغُه فى حُموله وشِبعه وريّه ، فيطرقه الطارق الذي يكتفى بالفِلْذة ويجتزئ بالشَّربة

فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يُكسبه حُسْنَ الأحدوثة وطيبَ الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورَونق كلامهم وحُسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء ، وضَربهم للأمثال ، وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس . ثم خيْلهم أفضلُ الخيل ، ونساؤهم أعفّ النساء ، ولباسُهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجَزْع ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سَفَر ، ولا يُقطع بمثلها بلدٌ قفر .

وأما دينها وشريعتها ، فإنهم متمسّكون به ، حتى يبلغ أحدُهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حُرماً ، وبلدا محرماً ، وبيتاً محجوجاً يَنسكون فيه مناسكَهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجلُ قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته منه ، فيَحجزه كرمُه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

وأما وفاؤها ، فإنّ أحدهم يلحظ اللحظة ويُومئ الإيماءة فهى ولَثٌّ وعُقدة لا يحلّها إلا خروج نفسِه ، وإنّ أحدَهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدَينه فلا يغْلَق رهنُه ولا تُخفر ذمته ؛ وإن أحدهم ليبلُغه أن رجلاً استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره ، فيصاب ، فلا يرضَى حتى يُفنى تلك القبيلة التى أصابتْه أو تفنى قبيلتُه لِما خُفِر مِن جِواره ؛ وإنه ليلجأ إليهم المجرمُ المُحدث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفُسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

وأما قولك أيها الملك : يئدون أولادهم ، فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفةً من العار وغيْرة من الأزواج .

أما قولك : إنّ أفضل طعامهم لحومُ الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له ، فعمَدوا إلى أجلّها وأفضلها ، فكانت مراكبَهم وطعامَهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبُها لحوما ، وأرقّها ألبانا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مَضغة ، وإنه لا شىء من اللّحمان يعالج ما يعالج به لحمُها إلا آستبان فضلُها عليه .

وأما تحارُبهم وأكلُ بعضِهم بعضا ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ؛

فإنما يفعل ذلك مَن يفعله من الأمم إذا أنِستْ من نفسها ضَعفاً وتخوّفت نُهوض عدوها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أهلُ بيتٍ واحد يعْرَفُ فضلُهم على سائر غيرهم ، فيُلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمّتهم : وأما العرب فإن ذلك كثيرٌ فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا مُلوكا أجمعين ، ٥ مع أنفَتِهم من أداء الخراج والوظَف بالعسْف .

وأما اليمن التى وصفها الملك فإنما أتى جدَّ الملك وليُّها الذى أتاه عند غلبة الحَبَش له على ملك متَّسق ؛ وأمرٍ مجتمع ؛ فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخا ، وقد تقاصر عن إيوانه ، وصغُر فى عينه ما شيِّد من بنائه . ولولا ما وتر به من يليه من العرب لمال إلى مجال ، ولوَجد من يُجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة ١٠ العبيد الأشرار .

قال : فعجب كسرى لِما أجابه النعمانُ به ؛ وقال : إنك لأهلٌ لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ولما هو أفضل . ثم كساه من كسوته ، وسرّحه إلى موضعه من الحيرة .

فلما قدم النعمانُ الحيرةَ وفى نفسه مافيها مما سمع من كسرى من تَنقّص العرب ١٥ وتَهجين أمرهم ، بعث إلى أكثمَ بن صَيْفىّ وحاجبِ بن زُرارة التميميّين ، وإلى الحارث بن عُباد وقيس بن مسعود البكريّين ، وإلى خالد بن جعفر ، وعَلقمة بن عُلاثة ، وعامر بن الطفيل العامريّين ، وإلى عمرو بن الشَّريد السُّلمى ، وعمرو بن معديكرب الزُّبيدى ، والحرث بن ظالم المُرّى ؛ فلما قدموا عليه فى الخَوَرْنَق ، قال لهم : قد عَرفتم هذه الأعاجمَ وقُرْبَ جوارِ العرب منها ، وقد سمعتُ من ٢٠ كسرى مقالاتٍ تخوَّفتُ أن يكونَ لها غور ، وأن يكونَ إنما أظهرها لأمرٍ أراد أن يتخذ به العرب خَوَلا كبعض طَماطمته فى تأديتهم الخَراج إليه ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله .

فاقتصَّ عليهم مقالاتِ كسرى ومارد عليه ؛ فقالوا : أيها الملك ، وفّقك الله ، ما أحسنَ مارَدَدْت ، وأبلغَ ماحَجَجْتَه به ؛ فمُرْنا بأمرك ، وادعُنا إلى ماشئت .

قال : إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت وعَزَزْتُ بمكانكم وما يُتخوّف من ناحيتكم ، وليس شيء أحبَّ إلىَّ مما سدّد الله به أمرَكم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عزَّكم ؛ والرأىُ أن تَسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتَنطلقوا إلى كسرى ، فإذا دخلتم نَطق كل رجل منكم بما حضره ، ليعلم أنّ العرب على غير ما ظنّ أو حدَّثته نفسُه ؛ ولا يَنطق رجل منكم بما يُغضبه ، فإنه ملك عظيم السلطان ، كثيرُ الأعوان مُترَف مُعْجَبٌ بنفسه ، ولا تنخزلوا له انخزال الخاضع الذليل ، وليكن أمرٌ بين ذلك ، تظهر به وَثَاقةُ حُلومكم ، وفضلُ منزلتكم ، وعظمة أخطاركم ؛ وليكن أولَ من يبدأ منكم بالكلام أكثمُ بن صيفى ، لِسَنِىّ حالِه ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتُكم بها ؛ فإنما دعانى إلى التّقدمة بينكم علمى بمَيْل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه ؛ فلا يكوننّ ذلك منكم فيجدَ فى آدابكم مَطْعَنا ؛ فإنه ملك مُترَف ، وقادرٌ مسلّط .

ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حُلَل الملوك ، كل رجل منهم حُلّة ، وعمّمه عمامة ، وختّمه بياقوتة ؛ وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرية وفرس نَجيبة ، وكتب معهم كتاباً :

أما بعد ، فإن المَلِك ألقَى إلىّ من أمر العرب ما قد عَلِم ، وأجبتُه بما قد فَهِم ، بما أحببتُ أن يكون منه على عِلْم ، ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الأُمم التى آحتجزت دونه بمملكتها ، وحَمَتْ ما يليها بفضل قُوّتها ، تبلُغها فى شىء من الأمور التى يتعزّز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة . وقد أوفدتُ أيها الملك رهطا من العرب ، لهم فضلٌ فى أحسابهم وأنسابهم وعُقولِهم وآدابهم ؛ فليسمع الملك ، ولْيُغْمِضْ عن جفاء إن ظهر من منطقهم ، وليُكرِمْنى بإكرامهم وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتُهم فى أسفل كتابى هذا إلى عشائرهم .

فخرج القوم فى أُهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان ، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم . فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر مرازبته ووجوهَ أهل مملكته ، فحضروا وجلسوا على كراسىّ

عن يمينه وشماله ؛ ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وضعهم النعمانُ بها فى كتابه ؛ وأقام الترجمانَ ليؤدىَ إليه كلامَهم ، ثم أذن لهم فى الكلام .

فقام أكثمُ بن صيفيّ فقال : إن أفضلَ الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمُّها نفعا ، وخيرَ الأزمنة أخصبُها ، وأفضلَ الخطباء أصدقُها . ٥ الصدق مَنْجاة ، والكذب مَهْواة ، والشرُّ لجاجة ، والحزم مَرْكَبٌ صعب ، والعَجز مركبٌ وطيء . آفةُ الرأى الهوى ، والعجزُ مِفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر . حُسن الظن وَرطة ، وسوء الظن عِصمة . إصلاح فساد الرعية خيرٌ من إصلاح فسادِ الراعى . من فَسدت بطانتُه كان كالغاصّ بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شَر الملوك من خافه البَريء . المرء يَعجز لا المحالة . أفضلُ الأولادِ ١٠ البَرَرَة . وخيرُ الأعوان من لم يُراء بالنصيحة . أحقُّ الجنود بالنصر من حَسُنَتْ سريرتُه . يكفيك من الزاد ما بلّغك المحلّ . حسبك من شرٍّ سماعُه . الصمت حكمٌ وقليل فاعلُه . البلاغة الإيجاز . من شدّد نفر ، ومن تراخى تألف .

فتعجب كسرى من أكثم ، ثم قال : ويحك يا أكثم ! ما أحكمك وأوثقَ كلامَك لولا وَضْعُك كلامَك فى غير موضعه .

١٥ قال أكثم : الصدقُ يُنبئ عنك لا الوعيد .

قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى .

قال أكثم : رُبَّ قولٍ أنفذُ من صول .

ثم قام حاجب بن زرارة التميمى ، فقال وَرَى زَنْدُك ، وعلَت يدُك ، وهيبَ سلطانُك . إن العرب أمة قد غلُظت أكبادُها ، واستحصدت مِرّتُها ، ومَنعت ٢٠ دِرّتها ؛ وهى لك وامقةٌ ما تألفتَها ، مُسترسِلة ما لاينتَها ، سامعةٌ ما سامحتَها ، وهى العلقم مرارة ، والصاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزلالُ سلاسة . نحن وُفودها إليك ، وألسنتها لديك ؛ ذمّتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة ؛ إن نَؤُبْ لك حامدين خيراً فلك بذلك عمومُ مَحْمَدَتنا ، وإن نَذُم لم نَخُصَّ بالذمّ دونها .

قال كسرى : يا حاجب ، ما أشبه حجرَ التلال بألوان صخرها .

قال حاجب : بل زئيرَ الأُسْدِ بصولتها .

قال كسرى : وذلك .

ثم قام الحارث بن عُبَاد البَكرى فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظّها ، وعلوّ ثنائها . من طال رشاؤه كثُر مَتْحُه ، ومن ذهب ماله قلّ مَنْحُه . تناقُلُ الأقاويلِ يعرّف اللُّب ؛ وهذا مقام سيوجِف بما يُنطقُ فيه الرَّكْب ، وتَعرف به كُنْهَ حالنا العجمُ والعرب ؛ ونحن جيرانك الأدْنَوْن ، وأعوانك المُعينون ، خيولنا جَمّة ، وجُيوشنا فَخْمة ، إن استنجدتَنا فغيرُ رُبُض ، وإن استطرقتنا فغير جُهُض ، وإن طَلبتنا فغيرُ غُمُض ، لا نَنْثنى لذُعر ، ولا نتنكّر لدهر ، رِماحنا طِوال ، وأعمارنا قِصار .

قال كسرى : أنفسٌ عزيزة ، وأمة واللهِ ضعيفة .

قال الحارث : أيها الملك ، وأنى يكون لضعيفٍ عِزّة ، أو لصغيرٍ مِرَّة ؟

قال كسرى : لو قَصُر عُمرك لم تستولِ على لسانِك نفسُك .

قال الحارث : أيها الملك ، إن الفارس إذا حمل نفسَه على الكَتيبة مغرِّرا بنفسه على الموت ، فهى مَنِيّةٌ استقبلها ، وحياةٌ استدبرها ؛ والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدُما ، وأحبسها وهى تصرّف بهم ، حتى إذا جاشت نارها ، وسَعَرت لظاها ، وكَشفت عن ساقها ، جعلتُ مَقادَها رُمحى ، وبَرْقها سيفى ، ورَعدها زئيرى ، ولم أُقصّر عن خوض خُضاخضها ، حتى أنغمس فى غَمرات لُججها ، وأكون فُلْكا لفُرسانى إلى بُحبوحة كَبْشها ، فأستمطرها دما ، وأترك حُماتَها جَزَرَ السباع وكلِّ نَسْر قَشْعَم .

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟

قالوا : فَعاله أنطق من لسانه .

قال كسرى : ما رأيتُ كاليوم وفداً أحْشَدَ ، ولا شهودًا أوْفَد .

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلمى فقال : أيها الملك نعِمَ بالُك ، ودام فى السرور حالك ؛ إنّ عاقبة الكلام متدبّرة ، وأشكال الأمور مُعتبرَة ، وفى كثير ثَقْلة ، وفى قليل بُلْغة ، وفى الملوك سورةُ العزّ ، وهذا منطق له ما بعده ، شَرُفَ فيه مَن شَرُف ، وخَمل فيه مَن خَمل ، لم نأت لضَيْمك ، ولم نَفِدْ لسُخطك ، ولم نتعرّض لرفْدك . إنّ فى أموالنا مُرتقدا ، وعلى عزنا مُعتمدا ؛ إن أورينا نارا أثقبْنا ، وإن أَوِدَ دهرٌ بنا اعتدلنا ، إلا أنّا مع هذا لجِوارك حافظون ، ولمن رامك مكافحون ، حتى يُحمد الصَّدَر ، ويُستطاب الخَبر .

قال كسرى : ما يقوم قصدُ مَنطقك بإفراطك ، ولا مدحُك بذمّك .

قال عمرو : كفى بقليلِ قَصْدى هاديا ، وبأيسرِ إفراطى مُخبِرا ، ولم يُلَمْ من عَزَفت نفسُه عما يعلم ، ورضى من القصد بما بلغ .

قال كسرى : ما كل ما يَعرف المرء ينطق به . اجلس .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابىّ فقال : أحضَر اللهُ الملكَ إسعادا ، وأرشده إرشادا ؛ إنّ لكل منطق فُرصة ، ولكل حاجة غُصة ، وعِىُّ المنطق أشدُّ من عِىّ السكوت ، وعِثار القول أنكى من عثار الوَعْث ، وما فُرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى ، وغُصة المنطق بما لا نهوى غير مُستساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم مَن سَمِعَنى أننى له مُطيق أحبُّ إلىّ من تكلُّفى ما أتخوّف ويُتخوّف منى . وقد أوفدَنا إليك مَلِكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونِعْمَ حاملُ المعروفِ والإحسان . أنفسُنا بالطاعة لك باخعة ، ورقابُنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة .

قال له كسرى : نطقتَ بعقل ، وسَمَوْتَ بفضل ، وعلوت بنُبل .

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامرىّ فقال : أنهجتْ لك سبلُ الرشاد ، وخضعت لك رقابُ العباد ؛ إن للأقاويل مناهج ، وللآراء موالج ، وللعويص مخارج ؛ وخير القول أصدقُه ، وأفضلُ الطلب أنجحُه . إنّا وإن كانت المحبّة أحضرتْنا ، والوفادة قرّبتنا ، فليس مَن حضَرَك منا بأفضلَ ممن عَزَب عنك ، بل لو قِسْتَ كلَّ رجل

منهم وعلمت منهم ما علمنا ، لوجدتَ له فى آبائه دُنْياً أندادا وأكفاء ، كلهم إلى الفضلِ منسوب ، وبالشرف والسودد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يَحمى حِماه ، ويُروى نَداماه ، ويَذود أعداه ؛ لا تَخْمَد ناره ، ولا يحترز منه جاره . أيها الملك ، من يَبْلُ العرب يعرف فضلَهم ؛ فاصطنع العرب ، فإنها الجبال الرواسى عزّا ، والبحور الزواخر طُميًّا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحَصَى عددا ؛ فإن تعرفْ لهم فضلهم يُعِزُّوك ، وإن تَستصرخهم لا يخذُلوك .

قال كسرى ـ وخشى أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه ـ : حسْبك ، أبْلَغْتَ وأحسَنْت .

ثم قام قيس بن مسعود الشَّيبانى فقال : أطاب الله بك المَراشد ، وجنَّبك المصائب ، ووقاك مكروهَ الشَّصائب[1] ؛ ما أحقَّنا إذ أتيناك بإسماعك ما لا يُحْنِق صدرَك ، ولا يَزرع لنا حقدا فى قلبك ؛ لم نقدَم أيها الملك لُمساماة ، ولم نَنتسبْ لُمعاداة ، ولكن لتعلم أنت ورعيتُك ومَن حَضَرَك مِن وفود الأمم أنّا فى المنطق غير مُحجمين ، وفى البأس غيرُ مقصرين ؛ إن جُورِينا فغير مسبوقين ، وإن سُومِينا فغير مغلوبين .

قال كسرى : غير أنكم إذا عاهدتم غيرُ وافين . وهو يُعرِّض به فى تركه الوفاء بضمانه السَّواد[2] .

قال قيس : أيها الملك ، ما كنتُ فى ذلك إلا كوافٍ غُدِر به ، أو كخافر أخفر بذمته .

قال كسرى : ما يكون لضعيفٍ ضمان ، ولا لذليلٍ خِفارة .

قال قيس : أيها الملك ، ما أنا فيما خُفر من ذمتى ، أحقُّ بإلزامى العارَ منك فيما قُتل من رعيتك ، وانتُهك من حُرمتك .

قال كسرى : ذلك ، لأن مَن ائتمن الخانَةَ ، وآستنجد الأَثَمَة، ناله من الخطأ

---

(١) الشصائب : الشدائد .

(٢) يريد سواد العراق .

ما نالني ، وليس كلُّ الناس سواء ؛ كيف رأيت حاجب بن زُرارة لم يُحكِم قُواه فيُبرم ، ويعهد فيُوفى ، ويَعِد فيُنجز ؟

قال : وما أحقَّه بذلك وما رأيته إلا لى

قال كسرى : القوم بُزُلٌ فأفضلها أشدُّها .

٥ ثم قام عامر بن الطُّفيل العامرىّ فقال : كَثُر فُنونُ المنطق ، وليس القول أعمى من حِنْدِسِ الظَّلْماء ، وإنما الفخر فى الفَعال ، والعِزّ فى النجدة ؛ والسُّوددُ مطاوعَةُ القدْرة . وما أعلمك بقدْرنا ، وأبصَرك بفضلنا ؛ وبالحرى إن أدالت الأيام ، وثابت الأحلام ، أن تُحْدِث لنا أموراً لها أعلام .

قال كسرى : وما تلك الأعلام ؟

١٠ قال : مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر ، على أمر يُذكر .

قال كسرى : وما الأمر الذى يُذْكر ؟

قال : مالى علم بأكثر مما خبّرنى به مُخبر .

قال كسرى : متى تكاهَنْتَ يا بن الطُّفيل ؟

قال : لستُ بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن .

١٥ قال كسرى : فإن أتاك آتٍ من جهة عينك العوراء ما أنت صانع ؟

قال : ما هيبتى فى قَفاى بدون هَيبتى فى وجهى ، وما أذهبَ عينى عَيْثٌ[1] ولكن مطاوعة العيث .

ثم قام عمرو بن معديكرب الزّبيدى فقال : إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب ، وملاكُ النُّجْعة الارتياد ، وعفْو الرأى خيرٌ من استكراه

٢٠ الفكرة ، وتوقّف الخِبرة خيرٌ من اعتساف الحيرة ، فاجتَبِذْ طاعتَنا بلفظك ، واكتَظِمْ بادِرَتَنا بحلْمك ، وألِنْ لنا كنفك يسلُسْ لك قيادُنا ، فإنّا أناس لم

(١) العيث . الإفساد

يُوقِس صَفاتَنا قِراعُ مناقير من أراد لنا قضْما ، ولكن منعْنا حِمانا مِن كل مَن رام لنا هَضْما .

ثم قام الحارث بن ظالم المرِّى فقال : إنّ من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملَق ، ومن خطلِ الرأى خفة الملك المُسلّط ، فإن أعلمْناك أن مواجهتَنا لك عن ائتلاف ، وانقيادَنا لك عن تَصاف ، ما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام ولْثِ العقود ، والأمر بيننا وبينك مُعتدل ، ما لم يأت من قِبلك ميلٌ أو زلل .

قال كسرى : من أنت ؟

قال : الحارث بن ظالم .

قال : إن فى أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر ، وأقرب من الوزر .

قال الحارث : إنّ فى الحق مَغضبة ، والسَّرْوُ التغافل ، ولن يستوجب أحدٌ الحلم إلا مع القدرة ، فلتُشْبه أفعالُك مجلسَك .

قال كسرى : هذا فتى القوم .

ثم قال كسرى : قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنّن فيه متكلّموكم ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يُثقِّف أوَدَكم ، ولم يُحكِم أمركم ، وأنه ليس لكم مَلِكٌ يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعِكم ، لم أُجزْ لكم كثيراً مما تكلمتم به . وإنى لأكره أن أجبّه وفودى أو أُحنِق صدورهم ، والذى أُحبُّ هو إصلاح مُدْبِركم ، وتألف شواذّكم ، والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم ؛ وقد قبلت ما كان فى منطقكم من صواب . وصفحت عما كان فيه من خَلل ؛ فانصرفوا إلى مَلِكِكم فأحسِنوا مُوازرته والتزموا طاعته ، وارْدَعُوا سُفهاءكم وأقيموا أودَهم ، وأحسنوا أدبهم ، فإن فى ذلك صلاح العامة .

وفود حاجب بن زرارة على كسرى

العتبي عن أبيه : أن حاجب بن زُرارة وفد على كسرى لما مَنع تميما من رِيف العراق ، فاستأذن عليه ، فأُوصِل إليه فقال : أسيِّدُ العربِ أنت ؟ قال : لا . قال : فسيّد مُضر ؟ قال : لا . قال : فسيّد بنى أبيك أنت ؟ قال : لا . ثم أذن له فدخل عليه . قال : من أنت ؟ قال : سيد العرب ! قال : أليس قد أوْصَلْتُ إليك : أسيّد العرب أنت ؟ فقلت : لا ، حتى اقتصرتُ بك على بنى أبيك ، فقلت : لا ؟ قال له : أيها الملك ، لم أكن كذلك حتى دخلتُ عليك ، فلما دخلتُ عليك صرتُ سيدَ العرب . قال كسرى : زِه ! املئوا فاه دُرّا . ثم قال : إنكم معشر العرب غُدُر ، فإن أذنتُ لكم أفسدتم البلاد ، وأغرتم على العباد ، وأذيتمونى . قال حاجب : فإنى ضامن للملك ألّا يفعلوا . قال : فمن لى بأن تفى أنت؟ قال : أرْهَنكَ قوسى . فلما جاء بها ضَحِك مَن حوله وقالوا : لهذه العصا يفى ! قال كسرى : ما كان ليُسْلِمها لشىء أبدا . فقبضها منه ، وأذِن لهم أن يدخلوا الريف .

ومات حاجب بن زرارة ، فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوسَ أبيه ؛ فقال له : ما أنت الذى رهنتَها ! قال : أجل . قال : فما فعل ؟ قال : هلك ، وهو أبى ، وقد وفَى له قومُه ووفى هو للملك . فردها عليه وكساه حُلة .

فلما وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم عُطاردُ بن حاجب ، وهو رئيس تميم ، وأسلم على يديه ، أهداها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يقبلها ؛ فباعها من رجل من اليهود بأربعة آلاف درهم .

ثم إن مضر أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، هلك قومك وأكلتهم الضَّبُع . يريدون الجوع ـ والعرب يسمُّون السّنة الضَّبعَ والذئب . قال جرير :

* من ساقَه السنة الحَصّاء والذِّيبُ *[1]

(١) صدره : « يأوى إليكم بلا منّ ولا جحد » .

فدعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم فأُحيُوا ، وقد كان دعا عليهم فقال : اللهم اشدُدْ وطأتك على مُضر ، وابعثْ عليهم سنين كسِنِي يوسف .

وفود أبي سفيان إلى كسرى

الأصمعى قال : حدثنا عبدُ الله بن دينار عن عبد الله بن بكر المُزَنى ، قال : قال أبو سفيان : أهديتُ لكسرى خيلاً وأَدَماً، فقَبل الخيلَ وردّ الأدم، وأُدْخِلتُ عليه فكأنّ وجهه وجهان من عِظَمه، فألقى إلىّ مخدّةً كانت عنده، فقلت: واجُوعاه! أهذه حظّى من كسرى بن هُرمز ؟ قال : فخرجتُ من عنده ، فما أمرُّ على أحد من حَشَمه إلا أعْطَيها ، حتى دُفعتْ إلى خازن له : فأخذها وأعطانى ثمانمائة إناء من فضةٍ وذهب .

قال الأصمعى : فحدثتُ بهذا الحديث النّوشجان [1] الفارسى ، فقال : كانت وظيفة المخدّة ألفاً ، إلا أن الخازن اقتطع منها مائتين .

وفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر

قال : وفد حسان بن ثابت على النعمان بن المُنذر ، قال : فلقيت رجلا ببعض الطريق ، فقال لى : أين تُريد ؟ قلت : هذا الملك . قال : فإنك إذا جئته متروكٌ شهرا ، ثم تُترك شهراً آخر ، ثم عسى أن يأذن لك ؛ فإن أنت خلوتَ به وأعجبتَه فأنت مُصيبٌ منه خيراً ، وإن رأيت أبا أُمامةَ النابغةَ فاظعَن ؛ فإنه لا شىء لك ! قال : فقدمْتُ عليه ، ففعل بى ما قال ، ثم خلوتُ به وأصبتُ مالا كثيرا ونادمتُه فبينما أنا معه إذا رجل يرتجز حول القُبة ويقول :

أنامَ أمْ يَسْمَعُ [2] ربُّ القُبّهْ ۝ يا أوْهَبَ الناسِ لعُنْسٍ صُلْبهْ
ضرّابةٍ بالمِشْــفَرِ الأذِبّهْ ۝ ذاتِ هِبابٍ فى يديها جَذْبهْ

(١) فى بعض الأصول : « أبا البورستان » .
(٢) فى بعض الأصول : « تنام أم تسمع » .

فقال النعمان : أبو أمامة ، ائذنوا له فدخل فحيّاه وشرب معه ، ووردت النَّعَمُ السود . ولم يكن لأحد من العرب بعيرٌ أسودُ غيره ولا يفتحل أحدٌ فحلًا أسود . فاستأذنه النابغة فى الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ٭ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

٥ فأمر له بمائة ناقة من الإبل السُّود برُعاتها ؛ فما حسدتُ أحدا قط حَسَدى له فى شعره وجزيل عطائه .

وفود قريش على سيف بن ذى يزن

بعد قتله الحبشة

نعيم بن حَمّاد قال : أخبرنا عبد الله بن المُبارك ، عن سُفيان الثَّورى ، قال :
١٠ قال ابنُ عباس : لما ظَفِر سيفُ بن ذى يَزَن بالحبشة ، وذلك بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، أتته وفودُ العرب وأشرافُها وشعراؤها تُهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطَلبه بثأر قومه ، فأتاه وفدُ قريش ، فيهم : عبدُ المطلب بن هاشم ، وأُميةُ بن عبد شمس ، وأسد بن عبد العُزّى ، وعبد الله بن جُدعان ، فقَدموا عليه وهو فى قصر له يقال له غُمْدان ، وله يقول أبو الصلت ، والد أمية
١٥ ابن أبى الصلت :

لم يُدْرِك الثأرَ أمثالُ ابن ذى يَزَنٍ ٭ لجّجَ فى البحرِ للأعداءِ أحوالَا
أتى هِرَقْل وقد شالتْ نعامتُه ٭ فلم يَجدْ عندهُ القولَ الذى قالَا
ثم انْثَنَى نحوَ كِسْرى بعد تاسِعةٍ ٭ من السِّنين لقد أبعدْتَ إيغالَا
حتى أتى ببَنِى الأحرارِ يقْدُمُهم ٭ إنكَ عَمْرِى لقد أسرَعْتَ إرقالَا
٢٠ مَنْ مِثْلُ كِسرى وبهرامَ الجُنودِ لَهُ ٭ ومِثْلُ وهْرِزَ يوم الجيش إذ جالا
لله درُّهمُ مِنْ عُصْبةٍ خرجُوا ٭ ما إن رأينا لهُمْ فى الناس أمْثالَا
صِيداً جَحاجِحةً ، بِيضاً خَضارِمةً ٭ أُسْداً تُرَبِّبُ فى الغاباتِ أشْبالَا
أرسلتَ أُسْداً على سُودِ الكِلابِ فقدْ ٭ غادرْتَ أوْجُهَهُمْ فى الأرضِ أفلالا

اشرَبْ هنيئاً عليْكَ التاجُ مُرْتفِقاً ◦ فى رأسِ غُمْدانَ دارًا مِنْكَ مِحْلالا

ثم آطْلِ بالمِسْكِ إذْ شالتْ نعامَتُهُمْ ◦ وأَسْبِلِ اليوْم فى بُردَيْك إسْبالَا

تلك المكارِمُ لا قعبانِ مِن لَبَنٍ ◦ شيبَا بِماءٍ فعادَا بعدُ أبْوالَا

فطلبوا الإذن عليه ، فأذن لهم ، فدخلوا ، فوجدوه متضمِّخا بالعنبر ، يلمع وبَيص المسك فى مفرقِ رأسه ، وعليه بُردانِ أخضران قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، وسيفهُ بين يديه ، والملوكُ عن يمينه وشماله ، وأبناء الملوك والمَقَاوِل .

فدنا عبدُ المطلب فاستأذنه فى الكلام ، فقال له : قُل . فقال : إنّ الله تعالى أيها الملك أحلّك محلا رفيعا صَعْباً مَنيعا ، باذخاً شامخا ؛ وأنبتك مَنبتا طابت أرومتُه ، وعزّتْ جُرثومته ، ونبل أصله ، وبَسَق فرْعُه ، فى أكرم معدن ، وأطيب موطن ؛ فأنت أبيْتَ اللّعنَ رأسُ العرب ، وربيعُها الذى به تُخْصِب ، ومَلِكُها الذى به تنقاد ، وعمودُها الذى عليه العماد ، ومعقِلُها الذى إليه يلجأ العباد ، سَلفُك خيرُ سلف ، وأنت لنا بعدهم خيرُ خلف ، ولن يَهلك مَن أنت خَلَفُه ، ولن يَخمُل من أنت سلفهُ . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمّته وسدَنة بيته ، أشخَصَنا إليك الذى أبهجك لكشف الكَرْب الذى فدَحنا ، فنحن وفْد التهنئة لا وفود المرْزِئة .

قال : من أنت أيها المتكلم .

قال : أنا عبد المطلب بن هاشم .

قال : ابنُ أختنا ؟ قال : نعم . فأدناه وقرّبه ؛ ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال: مَرحبا وأهلا ، وناقةً ورحْلا ، ومُسْتناخا سهلا ، ومَلِكا ربَحْلا ، يُعطى عطاءً جزْلا . فذهبت مثلا .

وكان أول ما تكلم به قد سمع الملك مقالتكم، وعرف قرابتكم ، وقبِل وسيلتكم فأهْل الشرف والقباهة[1] أنتم ، ولكم القُربى ما أقمتم ، والحِباء إذا ظعنتم .

قال : ثم استنهِضوا إلى دارِ الضيافةِ والوفود ، وأُجْريتْ عليهم الأنزال .

(١) فى بعض الأصول « الليل والنهار » .

فأقاموا ببابه شهرا لا يصِلون إليه ولا يأذن لهم فى الانصراف . ثم انتبه إليهم انتباهة ، فدعا بعبد المطلب من بينهم ، فخلا به وأدنى مجلسه ، وقال : ياعبد المطلب ، إنى مفوِّض إليك مِن سِرّ عِلمى أمراً لو غيرُك كانَ لم أُبحْ له به ، ولكنّى رأيتك موضعه (١) فأطلعتُك عليه ؛ فليكن مَصونا حتى يأذن الله فيه ؛ فإنّ الله بالغُ أمرِه : إنى أجد فى العلم المخزون ؛ والكتاب المكنون الذى ادخرناه لأنفسنا ، واحتجبناه دون غيرنا ، خبراً عظيما ، وخطراً جسيما ، فيه شرفُ الحياة ، وفضيلة الوفاة ، للناس كافة ، ولرهطك عامة ، ولنفسك خاصة .

قال عبد المطلب : مِثْلُك أيها الملك مَن بَرّ وسَرّ وبَشّر ، ماهُوَ ؟ فِداك أهلُ الوَبَر ، زُمَرا بعد زُمَر .

قال ابن ذى يزن : إذا وُلد مولود بتِهامة ، بين كتفيه شامة ، كانت له الإمامة ، إلى يوم القيامة .

قال عبد المطلب : أبيتَ اللعن ، لقد أُبتُ بخير ما آبَ به أحد ؛ فلولا إجلالُ الملِك لسألته أن يزيدنى فى البشارة ما أزداد به سرورا .

قال ابن ذى يزن : هذا حِينُه الذى يُولَد فيه أو قد وُلِد ، يموت أبوه وأمّه ، ويكفله جدُّه وعمه ؛ قد وجدناه مرارا ، والله باعثه جهارا ، وجاعلٌ له مِنّا أنصارا ، يُعِزُّ بهم أولياءه ، ويُذِلّ بهم أعداءه ، ويفتتح كرائم الأرض ، ويضرب بهم الناس عن عُرض ؛ يُخمد النّيران ، ويكسر الأوثان ، ويَعبد الرحمن ، قولُه حَكَم وفَصل ؛ وأمره حَزم وعدل ، يأمر بالمعروف ويفعله ، وينهى عن المنكر ويُبطله .

فقال عبدُ المطلب : طال عُمرك ، ودام مُلكك ، وعلا جَدُّك ، وعَزّ فخرك ؛ فهل المَلِك يَسُرُّنى بأنْ يُوضح فيه بعْضَ الإيضاح ؟

فقال ابن ذى يَزَن : والبيت ذى الطُّنُب ، والعلامات والنُّصب ، إنك ياعبد المطلب ، لَجدُّه من غير كَذِب . فخَرّ عبدُ المطلب ساجدا .

(١) فى بعض الأصول : « معدنه » .

قال ابن ذى يزن: آرفع رأسك؛ ثَلِج صدرك، وعلا أمرك؛ فهل أحسست شيئاً مما ذكرتُ لك؟

قال عبدُ المطلب: أيها الملك، كان لى ابنٌ كنتُ له مُحبّا، وعليه حَدِباً مُشفِقا، فزوجتُه كريمة من كرائم قومه، يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام بين كتفيه شامة، فيه كلُّ ما ذكرتَ من عَلامة؛ مات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمُّه. ٥

قال ابن ذى يزن: إن الذى قلتُ لك كما قلت، فاحفظ ابنَك وآحذر عليه اليهود؛ فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا، آطوِ ما ذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإنى لست آمَنُ أن تَدْخُلَهم النّفاسة، من أن تكون لكم الرِّياسة، فَيبغون له الغوائل، ويَنصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم. ولولا أنى أعلم أن الموت مُجْتاحِى قبل مَبعثِه، لسرتُ بخيلى ورَجْلى حتى أصير بيثرب دارِ مُهاجَرِه؛ فإنى أجد فى الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن يثرب دارُ هجرته، وبيتُ نُصرته؛ ولولا أنى أتَوَقَّى عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنتُ على حداثة سنِّه أمره، وأوطأتُ أقدامَ العربِ عَقِبَه؛ ولكنى صارف إليك ذلك عن غير تقصير منى بمن معك. ١٠

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعْبد، وعشر إماء سُود، وخمسة أرطال فضة، وحُلَّتين من حُلَل اليمن، وكَرِش مملوءة عنبرا، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فأنبئنى بما يكون من أمره. ١٥

فما حال الحولُ حتى مات ابنُ ذى يزن، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يامعشر قريش، لا يَغبِطنى رجلٌ منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نَفاد، ولكن يغبطنى بما يبقى لى ذكرُه وفخره لِعَقِبى. فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال: سيظهر بعد حين. ٢٠

وفود عبد المسيح على سطيح

جرير بن حازم عن عِكرمة عن ابن عباس، قال: لما كان ليلةَ وُلد النبى صلى الله عليه وسلم، ارتجّ إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرة شُرفة؛ فعظُم

ذلك على أهل مملكته ، فما كان أوشك أن كتب إليه صاحبُ اليمن يُخبره أن بُحيرة ساوةَ غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحبُ السَّماوة يُخبره أن وادي السماوة ٱنقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طَبَرِيّة أن الماء لم يَجرِ تلك الليلة فى بحيرة طبرية ؛ وكتب إليه صاحبُ فارس يُخبره أن بُيوت النيران خَمدت تلك الليلة ، ولم تَخمُد

٥ قبل ذلك بألف سنة . فلما تواترت الكُتب أبرز سريرَه وظهر لأهل مملكته ، فأخبرهم الخبر ؛ فقال المُوبذَان : أيها الملك ، إنى رأيت تلك الليلةَ رُؤيا هالتنى . قال له : وما رأيتَ ؟ قال : رأيت إبلا صِعابا ، تقود خيلًا عِرابا ، قد اقتحمت دِجْلة ، وانتشرت فى بلادنا . قال : رأيتَ عظيما ، فما عندك فى تأويلها ؟ قال : ما عندى فيها ولا فى تأويلها شىء ، أرْسل إلى عاملك بالحيرة ، يُوجِّه إليك رجلًا

١٠ من علمائهم ، فإنهم أصحابُ علم بالحِدثان . فَبَعَثَ إليه عبدَ المسيح بن نُفيلة الغَسانى : فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر . فقال له : أيها الملك . والله ما عندى فيها ولا فى تأويلها شىء ولكن جَهّزنى إلى خالٍ لى بالشام ، يقال له سَطيح ، قال : جَهِّزوه . فلما قدم على سطيح وجده قد ٱحتُضِر ؛ فناداه فلم يُجبْه ، وكلمه فلم يَرُد عليه ، فقال عَبد المسيح :

أَصَمُّ أمْ يَسمَعُ غِطْرِيفُ اليَمَنْ ۞ يا فاصِلَ الخُطَّةِ أعْيَتْ مَنْ ومَن

١٥ أتاكَ شيخُ الحيِّ مِنْ آلِ سنَنْ ۞ أبْيَضَ فَضْفاضَ الرِّداءِ والبدنْ

رسولُ قيلِ العُجْمِ يَهْوِى لِلْوَثَنْ ۞ لا يَرْهَبُ الوَعْدَ ولا رَيْبَ الزَّمَنْ

فرفع إليه رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جمل مُشيح ، إلى سَطيح ، وقد أوفى على الضريح ؛ بعثك ملكُ بنى ساسان ، لٱرتجاج الإيوان ، وخُمودِ النيران ، ورُؤيا المُوابَذان ؛ رأى إبِلًا صعابا ، تقود خَيلا عِرابا ، قد اقتحمتْ فى الواد ،

٢٠ وٱنتشرت فى البلاد يا عبدَ المسيح ، إذا ظهرت التِّلاوة ، وفاض وادى السَّماوة ، وغاضت بحيرة ساوة وظهر صاحبُ الهِراوة ، وخمدت نار فارس ، فليست بابل للفُرس مقاما ، ولا الشام لسطيحٍ شاما . يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سُقوط الشُّرفات ، وكلّ ماهو آت آت . ثم قال :

إن كان مُلْكُ بنى ساسانَ أفْرَطَهُمْ ۞ فإنّ ذا الدَّهْرَ أطْوارٌ دَهاريرُ

مِنْهُمْ بنو الصَّرْح بهرامٌ وإخْوتُهُ * والهُرْمُزَانُ وسابُورٌ وسابورُ
فرُبَّما أَصْبَحوا منهمْ بمنْزِلةٍ * يَهابُ صَوْلَهُمُ الأُسْدُ المهاصيرُ
حَثُّوا المَطِيَّ وجدُّوا فى رِحالِهِمُ * فما يَقومُ لهم سرْجٌ ولا كُورُ
والناسُ أولادُ عَلَّاتٍ فمن عَلِموا * أن قد أقلَّ فمحقورٌ ومهجورُ
والخير والشرُّ مَقْرونانِ فى قَرَنٍ * فالخير مُتَّبَعٌ والشرُّ محذورُ ٥

ثم أتى كسرى فأخبره ، فغمه ذلك . ثم تعزّى فقال : إلى أن يملك منّا أربعةَ عشرَ ملكاً يدور الزمان . فهلكوا كلهم فى أربعين سنة .

وفود همدان على النبى

صلى الله عليه وسلم

قدم مالك بن نَمَط فى وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقُوه ١٠ مُقْبِلًا من تَبوك ، فقال مالك بن نَمَط : يارسول الله نصيّة من هَمْدان ، من كل حاضر وباد ، أتَوْك على قُلُص نَوَاج ، متصلة بحبائل الإسلام ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم ، من مخلاف خارف ، ويام وشاكر عهدُهم لا يُنقض ، عن سُنّة ماحل [1] ولا سوداء عَنْقفير [2] ، ما أقامت لَعْلع ، وما جرى اليَعفورُ بصُلَّع [3]

فكتب إليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : هذا كتاب من محمد رسول الله إلى ١٥ مِخلاف خارف ، وأهل جِنَاب الهَضْب ، وحِقَاف الرمل ، مع وفدها ذى المِشعار مالك بن نَمَط ومن أسلم من قومه ، أن لهم فِرَاعَها ووِهاطَها وعَزَازَها ، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، يأكلون عِلافَها ، ويرعون عَفَاها ، لنا من دِفْئِهم وصِرامِهم ما سلموا بالميثاق والأمانة ، ولهم من الصدقة الثِّلْبُ والناب والفصيل والفارض الداجن والكبش الحَوَرِىّ ؛ وعليهم الصّالغ والقارح . ٢٠

(١) الماحل : الساعى بالنميمة والإفساد .
(٢) العنقفير : الداهية .
(٣) واليعفور : ولد الظبية . ولعلع : جبل . وصلع : الأرض لا نبات لها .

وفود النخع على النبي
صلى الله عليه وسلم

قدم أبو عمرو النَّخعى على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى رأيت فى طريقى هذه رُؤيا ، رأيت أتاناً تركتُها فى الحىّ ولدت جَدْيا أسْفَعَ أحوى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل لك من أمة تركتها مُصِرَّة[1] حملا ؟ قال : نعم ، تركت أمة لى أظنها قد حملت ؟ قال : فقد ولدت غلاما وهو ابنك . قال : فما باله أسفع أحوى ؟ قال : ادُن منّى . فدنا منه ؛ فقال : هل بك بَرَصٌ تكتُمه ؟ قال نعم ، والذى بعثك بالحق ما رآه مخلوق ولا علِم به . قال : فهو ذاك . قال : ورأيت النُّعمان بن المُنذر عليه قُرطان ودُمْلجان ومَسَكتان . قال : ذلك مُلك العرب عاد إلى أفضل زيّه وبهجته . قال : ورأيت عجوزا شمطاء تخرج من الأرض قال : تلك بقيّة الدنيا . قال : ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ابن لى يُقال له عمرو ، ورأيتها تقول : لظّى لظى ! بصيرٌ وأعمى ! أطعمونى ! آكلكم آكلكم ! أهلككم ومالكم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تلك فتنة فى آخر الزمان . قال : وما الفتنة يا رسول الله ؟ قال : يقتل الناس إمامهم ثم يشتجرون اشتجار أطْباق الرأس — وخالف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه — يحسب المُسىء أنه محسن ، ودمُ المؤمن عند المؤمن أحلى من شُرب الماء .

وفود كلب على النبي
صلى الله عليه وسلم

قدِمَ قطَن بن حارثة العُليمى فى وفد كلب على النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر كلاما ، فكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا نُسخته :

هذا كتاب من محمد رسول الله لعمائر كلب وأحلافها ، ومن ظأرَهُ الإسلام من غيرها ، مع قطن بن حارثة العُليمى ، بإقامة الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة لحقها ،

(١) مصرة حملا ، أى ذات حمل محقق .

فى شدة عَقْدها ، ووفاء عهدها ، بمحضر شهود من المسلمين : سَعد بن عُبادة ، وعبد الله بن أُنيس ، ودِحْيَة بن خليفة الكلبى ، عليهم فى الحُمولةِ الراعية البِساطِ الظُّؤار ، فى كلّ خمسين ناقةٌ غيرُ ذات عوّار ، والحَمُولةُ المائرة لهم لاغيَة ، وفى الشَّوِىّ الوَرِىّ مُسِنَّة حامل أو حائل ، وفيما سقى الجدولُ من العين المَعين العُشْرُ من ثمرها مما أخرجت أرضُها ، وفى العِذْى شطرُه بقيمة الأمين ، فلا تُزاد ٥ عليهم وظيفة ولا يُفرَّق . يشهد الله تعالى على ذلك ورسوله .

وكتب ثابت بن قيس بن شمّاس .

وفود ثقيف على النبى صلى الله عليه وسلم

وفدت ثَقيف على النبى صلى الله عليه وسلم ، فكتب لهم كتابا حين أسلموا : ١٠
ن لهم ذمة الله ، وأن واديهم حرام ، عِضاهُه وصَيْدُهُ وظُلمٌ فيه ، وأن ما كان لهم ن دَين إلى أجل فبلغ أجلَه فإنه لِياطٌ مُبرَّأ من الله ورسوله ، وأن ما كان لهم من دَين ، رَهن وراء عُكاظ ، فإنه يُقْضَى إلى رأسه ويُلَاطُ بعُكاظ ولا يؤخَّر .

وفود مذحج على النبى صلى الله عليه وسلم ١٥

وفَد ظَبْيان بن حدّاد فى سراة مَذْحِج على النبى صلى الله عليه وسلم . فقال بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثناء على الله عزّ وجل بما هو أهله .

الحمد لله الذى صَدَع الأرض بالنبات ، وفتق السماء بالرَّجْع . ثم قال : نحن قوم من سَراة مَذحج من يُحابِر بن مالك . ثم قال : فتوَقَّلتْ بنا القلاص، من أعالى الحَوْف ورءوس الهضاب ، ترفعها عُرَر الرُّبا وتخفِضُها بُطنان الرقاق ، ٢٠ وتلْحَفُها دياجى الدُّجى . ثم قال : وسروات الطائف كانت لبنى مهْلائيل بن قَيْنان : غَرَسُوا ودِيانَه وذلّلوا خِشَانه ، ورَعوا قُربانه . ثم ذكر نُوحا حين خرج من السفينة

بمن معه ، قال فكان أكثرَ بنيه بَناتا . وأسرعَهم نَباتا ، عادٌ وثمود ، فرماهم الله بالدَّمالق ، وأهلكهم بالصواعق . ثم قال : وكانت بنو هانئ من ثمود تسكن الطائف ، وهم الذين خطُّوا مَشاربها ، وأتَوْا جداولَها ، وأحْيَوْا غِراسها ، ورفعوا عَريشها . ثم قال : وإن حِمْير ملكوا مَعَاقل الأرض وقَرارَها ، وكُهول الناس وأغمارَها ، ورُءوسَ الملوكِ وغِرارَها ، فكان لهم البَيضاء والسوداء ، وفارسُ الحمراء ، والجِزية الصفراء ؛ فبطروا النِّعم ، وآستحقوا النِّقم ، فضرب الله بعضَهم ببعض . ثم قال : وإن قبائل من الأزد نزلوا على عهد عمرو بن عامر ، ففتحوا فيها الشرائع ، وبنوا فيها المصَانع ، وآتخذوا الدَّسَائع ؛ ثم ترامتْ مذحج بأسنّتها ، وتَـنَزَّتْ بأعنّتها : فغلب العزيزُ أذلَّها ، وقتل الكثيرُ أقلَّها . ثم قال : وكان بنو عمرو بن جَذيمة يَخْبِطون عَضِيدها ، ويأكلون حَصيدها ، ويُرَشِّحون خَضِيدَها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنّ نعيم الدنيا أقلُّ وأصغرُ عند الله من خُرْءِ بُعَيضة ، ولو عَدَلَت عند الله جَناحَ ذبابٍ لم يكن لكافر منهـا خَلاق ، ولا لمسلم منها لَحاق .

وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم

وَفَدَ لقيط بن عامر بن المُنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبٌ له يقال له نَهيكُ بن عاصم بن مالك بن المُنتفق .

قال لَقيط : فخرجتُ أنا وصاحبي حتى قَدِمنا المدينة لآنسلاخ رجب ، فأتينا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فوافيناه حين آنصرف من صلاة الغَداة ، فقام في الناس خَطيبا ، فقال : أيها الناس ، ألا إني قد خَبأتُ لكم صَوْتي منذ أربعة أيام ، لتسمعوا الآن [1] ، ألا فهل من امرئ قد بَعثه قومُه ؟ ـ فقالوا : اعْلَمْ لنا ما يقول رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ـ ألا ، ثم لعله أن يُلهيه حديثُ نفسه

(١) في بعض الأصول : « ألا لأسمعنكم اليوم » .

أو حديث صاحبه أو يلهيه ضالٌّ ، ألا وإنى مسئول هل بلّغت ، ألا اسمعوا ألا اجلسوا .

فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي ، حتى إذا فرغ لنا فؤادُه وبصرُه ، قلت : يارسول الله ، ماعندك من علم الغيب ؟ فضحك لَعَمْرُ الله وهزّ رأسه ، وعلم أنى أبتغى سَقَطه ؛ فقال : ضَنَّ رَبُّكَ بمفاتيح خمس من الغَيب لا يعلمهن إلا الله ـ وأشار بيده ـ قلت : وما هى ؟ قال : عِلْم المنيّة ، قد علم متى مَنِيَّةُ أحدكم ولا تعلمونه ؛ وعِلم ما فى غد وما أنت طاعم غدا ، ولا تعلمه ، وعلم المَنِيّ حين يكون فى الرَّحم ، قد علمه ولا تعلمونه ؛ وعِلم الغيث ، يُشرف عليكم آزلين مُسْنِتين (١) فيظلّ يضحك ، قد عَلِمَ أن عونكم قريب .

قال لقيط : قالت : لن نَعدم من رب يَضحك خيرا .

وعلم يوم الساعة . قلت : يارسول الله ، إنى سائلك عن حاجتى فلا تعجلنى .

قال : سَل عما شئت .

قال : قلت : يارسول الله ، علّمنا مما لا يعلم الناس ومما تَعْلم ؛ فإنا من قَبيلٍ لا يصدّقون تصديقَنا أحدا ؛ من مذحج التى تدنو إلينا ، وخثعم التى توالينا ، وعشيرتنا التى نحن منها .

قال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : تَلْبَثُون ما لبثتم ، ثم يُتَوَفّى نبيُّكم ، ثم تلبثون حتى تُبعث الصيحة ، فلَعَمْرُ إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات ، والملائكة الذين عند ربك ؛ فيُصبح ربُّك يطوف فى الأرض وقد خَلت عليه البلاد ، فيرسل ربُّك السماء بهَضْب من عند العرش ، فلَعَمْرُ إلهك ما تدع على ظهرها من مَصرع قَتيل ، ولا مَدفن ميّت ، إلا شقّت القبر عنه حتى تخلقه من قِبل رأسه فيستوى جالسا ، ثم يقول ربك : مَهْيَم ـ لما كان فيه ـ فيقول : يارب ، أمس ! اليوم ! ولعهده بالحياة يحسبه حديث عهد بأهله .

فقلت : يارسول الله ، كيف يجمعنا بعد ماتفرقنا الرياح والبِلَى والسباع ؟

(١) آزلين : قد صرتم فى جدب وقحط . ومسنتين : قد أصابتكم الشدة . وفى بعض الأصول : « أذلين مشفقين » .

قال : أنبئك بمثل ذلك فى إلّ الله ، أشرفتُ على الأرض وهى مَدَرة يابسة فقلت : لا تَحيا هـذه أبدا ، ثم أرسل ربُّك عليها السماء فلم تلبث إلا أياما حتى أشرفتُ عليها وهى شَرَبة واحدة ، ولَعَمْر إلهك لهو أقدرُ على أن يَجمعكم من الماء على أن يَجمع نباتَ الأرض ، فتخرجون من الأصواء ـ قال ابن إسحاق : الأصواء أعلام القبور ـ ومن مصارعكم ، فتنظرون إليه وينظر إليكم .

قال : قلت : يا رسول الله ، وكيف ، نحن مِلْء الأرض وهو شخص واحد ننظر إليه وينظر إلينا ؟

قال : أُنبئك بمثل ذلك فى إلّ الله : الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونهما ويريانكم ساعة واحدة ، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم وتَروه من أن تروهما ويرياكم ، لا تُضارون فى رؤيتهما .

قال : قلت : يا رسول الله ، فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه ؟

قال : تُعرضون عليه باديةً له صفحاتُكم لا يخفى عليه منكم خافية ، فيأخذ ربك بيده غَرفة من الماء ، فينَضح بها قُبُلكم ، فلعمر إلهك ما تُخطئ وجه أحدكم منها قطرة . فأما المُسلم فتدع وجهه مثل الرَّيْطة البيضاء ، وأما الكافر فتَخطمه بمثل الحمِم الأسود . ثم ينصرف نبيّكم ويتفرق على أثره الصالحون . قال : فتسلكون جسراً من النار ، فيطأ أحدكم الجمر يقول : حس ! يقول ربك : أوَ إنّه ؟ فتطّلعون على حوض الرسول لا نظمأ والله ناهلُه ، فلعمر إلهك ما يبسُط أحد منكم يده إلا وضع عليها قدح يُطهره من الطَّوْف والبول والأذى ، وتُحبَس الشمس والقمر ولا ترون منهما واحداً .

قال : قلت : يارسول الله ، فبم نُبصر يومئذ ؟

قال : بمثل بصرك ساعتك هذه ؛ وذلك قبل طلوع الشمس فى يوم أشرقته الأرض وواجهته الجبال .

قال : قلت : يارسول الله ، فبم نُجْزَى من سيّئاتنا وحسناتنا ؟

قال : الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، إلا أن يعفو .

قال : قلت يارسول الله ، فما الجنة وما النار ؟

قال : لعمر إلهك إنّ للنار لسبعة أبواب ، مامنها بابان إلّا يسير الراكب بينهما سبعين عاما . وإن للجنة لثمانيةَ أبواب ، مامنها بابان إلّا يسير الراكب بينهما سبعين عاما .

قال : قلت : يارسول الله ، فعلام نطّلع من الجنة ؟

قال : على أنهار من عسل مُصفّى ، وأنهار من كأس ما بها من صُداع ولا ندامة وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه ، وماء غير آسن وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون ، وخير من مثله معه ، وأزواج مطهَّرة .

قال : قلت : يارسول الله ، أوَ لنا فيها أزواج ؟ أَوَ منهن صالحات ؟

قال : الصالحات للصالحين ، تلَذُّون بهن مثل لذاتكم فى الدنيا ، ويلْذَذْنَ بكم ، غير أنْ لا توالد .

قال لقيط : قلت : أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه ، فلم يجبه النبى صلى الله عليه وسلم .

قال : قلت : يارسول الله ، علام أبايعك ؟ قال : فبسط إلىّ يده وقال : على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وزِيال الشِّرك ، وألّا تشرك بالله إلها غيره .

قال : فقلت : وإنّ لنا ما بين المشرق والمغرب ؟ .

فقبض صلى الله عليه وسلم يده وظن أنى مُشْترِطٌ شيئاً لا يُعطينيه .

قال : قلت : نَحُلّ منها حيث شئنا ، ولا يجزى عن امرئ إلا نفسه ؟ فبسط إلىّ يده وقال : ذلك لك : حُلّ حيث شئت ، ولا يجزى عنك إلا نفسك . قال : فانصرفنا عنه .

وفود قيلة على النبى صلى الله عليه وسلم

خرجت قَيْلة بنت مخرمة التّميمية تبغى الصُّحبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عمُّ بناتها ، وهو أثوب بن أزهر ، قد انتزع منها بناتها ، فبكت

جُويرِيةٌ منهن حُديباء قد أخذتها الفَرْصة ، عليها سُبيِّج من صوف ، فرَحِمْتها فذهبت بها . فبينما هما تُرْتِكان الجمل إذ انتفجت منه الأرنب ؛ فقالت الحديباء : الفَصْية . والله لا يزال كعبك أعلى من كعب أثوب . ثم سَنح الثعلب ، فسمّته اسما غير الثعلب نسِيَه ناقلُ الحديث . ثم قالت فيه مثل ما قالت فى الأرنب ،

٥ فبينما هما تُرتكان الجمل إذ برك الجمل وأخذته رِعدة . فقالت الحديباء : أخذتك والأمانةِ إخذةَ أثوب . قالت قَيلة : فقلت لها : فما أصنع ، ويحك ! قالت : قلِّبي ثيابك ظهورَها لبطونها ، وادْحَرجى ظهرك لبطنك ، وقلّبي أحلاس جملك . ثم خلعت سُبَيِّجها فقلبه ، ثم ادحرجت ظهرها لبطنها ، فلما فعلتُ ما أمرتْنى به انتفض الجمل ، ثم قام فنأج وبال ، فقالت : أعيدى عليه أداتك . ففعلتُ ، ثم

١٠ خرجنا نُرتك ، فإذا أثوبُ يسعى وراءنا بالسيف صَلْتا ، فوأْلنا إلى حِواء ضخم فداراه ، حتى ألقى الجمل إلى رُواقه الأوسط ، وكان جملًا ذلولا ، واقتحمتُ داخله وأدركنى بالسيف ، فأصابت ظُبته طائفةً من قرون رأسِيَهْ ؛ ثم قال : ألقِ إلىّ ابنة أخى يادَفارِ . فألقيتها إليه . فجعلها على مِنكبه وذهب بها . وكنتُ أعلمَ به من أهل البيت ، وخرجتُ إلى أخت لى ناكحٍ فى بنى شَيبان أبتغى الصحبة إلى

١٥ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبينما أنا عندها تحسَب أنى نائمة ، إذ جاء زوجها من السامر ، فقال لها : وأبيك لقد وجدتُ لقيلة صاحبَ صدق . قالت أختى : مَن هو ؟ قال : حُريث بن حسّان الشَّيبانى ، وافد بكر بن وائل عاويا ذا صباح . فقالت أختى : الويل لى ، لا تخبرها فتتبعَ أخا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها ، ليس معها أحد من قومها . قال : لا ذكرتهُ .

٢٠ قالت : وسمعت ما قالا ؛ فغدوت إلى جملى فشددت عليه ، ثم نشدتُ عنه فوجدته غيرَ بعيد . فسألته الصُّحبة فقال : نعَمْ وكرامة ، وركابه مُناخة عنده .

قالت : فسرت معه صاحبَ صِدق ؛ حتى قَدِمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى بالناس صلاة الغداة : قد أُقيمت حين شق الفجر ، والنجوم شابكة فى السماء ، والرجال لا تكاد تعارفُ من ظُلمة الليل ؛ فصففتُ مع الرجال ؛ وأنا

امرأة قريبة عهد بجاهلية ؛ فقال الرجل الذى يلينى من الصف : امرأة أنتِ أم رجل ؟ فقلت : لا بل امرأة . فقال : إنك كدت تفتنينى ، فصلِّى فى النساء وراءك . فإذا صفٌّ من نساء قد حدث عند الحُجرات لم أكن رأيته إذْ دخلت ؛ فكنت فيهن ؛ حتى إذا طلعت الشمس دنوتُ ؛ فجعلت إذا رأيت رجلا ذا رُواء وذا قِشْر[1] طَمَح إليه بصرى لأرى رسولَ الله فوق الناس ، حتى جاء زجل ؛ فقال : السلام عليك يارسول الله . فقال : وعليك السلام ورحمة الله . وعليه تعنى النبى صلى الله عليه وسلم ـ أسمالُ مُليّتين ، كانتا مُزعفرتين وقد نفَضتا ؛ ومعه عُسيّب نخلة مَقشُوّ غير خُوصتين من أعلاه : وهو قاعد القُرفصاء . فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم متخشعاً فى الجلسة أُرعدت من الفَرَق ، فقال جليسُه : يارسول الله ، أُرعدت المسكينة . فقال رسول الله ، ولم ينظر إلى وأنا عند ظهره : يامسكينة ، عليكِ السكينة .

قالت : فلما قالها صلى الله عليه وسلم أذهب الله ما كان دخل فى قلبى من الرّعب .

وتقدّم صاحبى أول رجل فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه ، ثم قال : يارسول الله ، اكتُب بيننا وبين تميم كتاباً بالدَّهناء لا يُجاوزها إلينا منهم إلا مسافرٌ أو مجاوزٌ .

قال : يا غلام ، اكتب له بالدَّهناء .

قالت : فلما رأيتهُ أمر بأن يُكتب له ؛ شُخِص بى ، وهى وطنى ودارى ؛ فقلت : يارسول الله ؛ إنه لم يسألك السويّة من الأرض إذ سألك ؛ إنما هذه الدهناء مُقَيّدُ الجمل ومَرعى الغنم ؛ ونساء بنى تميم وأبناؤها وراء ذلك . فقال : أمسك يا غلام ، صدقت المسكينة المُسلم أخو المُسلم ، يسعهما الماء والشجر ، ويتعاونان على الفَتّان .

فلما رأى حُريث أن قد حيل دون كتابه ، قال كنت أنا وأنت كما قال فى المثل : حتفَها تَحمِلُ ضأنٌ بأظلافها ! فقلت : أمَا والله ما علمت إن كنتَ لدليلا

(١) القشر : اللباس .

فى الظلماء، جوادا لدَى الرّحل، عفيفاً عن الرفيقة حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لا تلمنى أن أسأل حظى إذ سألت حظّك. قال: وأىّ حظ لك فى الدهناء لا أبالك.

قلت مُقيّد جملى تُريده لجمل آمرأتك! فقال: لا جرم إنى أشهد رسول الله أنى لك أخٌ ما حَييت؛ إذ أثنيتِ علىّ عنده. فقلت: أمّا إذ بدأتها فلن أضيعها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيلام ابنُ هذه أن يَفصل الخُطة، وينتصر من وراء الحَجَزة. فبكيتُ ثم قلت: فقد والله ولدته يا رسول الله حراما، فقاتل معك يوم الرَّبذة، ثم ذهب يمترى من خَيبر، فأصابته حُمّاها فمات فقال: لو لم تكونى مسكينة لجررناك على وجهك. أيُغلب أُحَيْدُكم على أن يصاحب صُويحبه فى الدنيا معروفا، فإذا حال بينه وبينه من هو أولى به استرجع ثم قال: ربِّ آسِنى لما أمضيت، وأعِنّى على ما أبقيت. فوالذى نفسُ محمد بيده إنّ أحدكم ليبكى فيستعبر له صُويحبه؛ فياعباد الله لا تعذّبوا إخوانكم ثم كتب لها فى قطعة أدم أحمر: لقَيلة والنسوة من بنات قيلة يُظلمن حقّا، ولا يُكرهن على مَنكح، وكل مؤمن مسلم لهن نصير أحْسِنّ ولا تسِئْنَ.

كتاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم لأكيدر دومة

من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُكيدر دُومة، حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيفِ الله فى دُومة الجندل وأكنافها:

إن لنا الضاحية من الضَّحل والبَوْرِ والمَعامِى وأغفال الأرض والحَلْقة والسِّلاح والحافر والحِصْن، ولكم الضّامنة من النخل والمَعين من المعمور [1]، لا تَعدل

(١) زيد فى بعض الأصول: «بعد الخمس».

سارحتُكم ولا تُعدّ فاردتُكم ، ولا يُحظَر عليكم النبات . تُقيمون الصلاة لوقتها ، وتُؤتون الزكاة لحقها ، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولكم به الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين .

كتابه صلى الله عليه وسلم

لوائل بن حجر الحضرمى ٥

من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشابيب من أهل حَضرموت بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة : فى التيعة شاة ، لا مُقوَّرة الألياط ولا ضِناك ، وأنطور الثَّبْجَة والتيمة لصاحبها ، وفى السُّيوب الخُمس : لا خِلاط ، ولا وِراط ، ولا شِناق ، ولا شِغار ، ومن أجْبَى فقد أرْبى ، وكُل مُسكرٍ حرام .

حديث جرير بن عبد الله البجلى ١٠

قدم جرير بن عبد الله البَجَلىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن منزله ببيشة ، فقال سَهْل ودَكْداك ، وسَلَم وأراك ، وحَمْض وعَلاك ، إلى نخلة ونخلة ، ماؤها ينبوع ، وجنابها مَريع ، وشِتاؤها ربيع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ خير الماء الشِّبِم ، وخير المال الغنم ، وخير المرعى الأراك ، والسَّلم إذا أخلف كان لَجِينا ، وإذا أسقط كان ١٥ دَرِينا ، وإذا أكل كان لَبِينا .

وفى كلامه عليه السلام : إن الله خلق الأرض السُّفلى من الزَّبد الجُفاء والماء والكُباء .

حديث عياش بن أبى ربيعة

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيّاش بن أبى ربيعة إلى بنى عبد كُلال ٢٠ وقال له : خُذ كتابى بيمينك وادفعه بيمينك فى أيمانهم ، فهم قائلون لك اقرأ . فاقرأ : ﴿لم يَكُنِ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتابِ والمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾ . فإذا

فرغت منها فقل : آمن محمد وأنا أول المؤمنين . فلن تأتيك حجة إلا وقد دُحِضت ولا كتاب زخرف إلا وذهب نُوره ومَحَّ لونه ، وهم قارئون ، فإذا رَطنوا فقد ترجموا . فقُل : حَسَن ، آمنت بالله وما أنزل من كتاب الله . فإذا أسلموا فسَلْهم قُضُبَهم الثلاثة التى إذا تخصّروا بهـا سُجد لهم ، وهى الأثل قضيب ملمع ببياض ،
٥ وقضيب ذو عُجَر كأنه من خيزران ، والأسود البهيم ، كأنه من ساسَم . ثم اخرُج بها فحرِّقها فى سُوقهم .

حديث راشد بن عبد ربه السلمى

عبد الله بن الحكم الواسطىّ عن بعض أشياخ أهل الشام ، قال : قال استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب على نَجران ، فولّاه الصلاة
١٠ والحرب ، ووجّه راشد بن عبد ربه أميراً على القضاء والمظالم . قال راشد بن عبد ربه :

صَحا القلبُ عن سَلْمَى وأقْصَرَ شأوُهُ ٭ ورَدّتْ عليـه ما نَفَتْهُ تُماضِرُ
وحكَّمه شَيْبُ القذالِ عن الصّبَا ٭ وللشَّيْبُ عن بعضِ الغَوَايَةِ زاجِرُ
فأقْصرَ جهلى اليومَ وارتدّ باطِلِى ٭ عن الجهل لمـا ابْيَضّ مِنّى الغَدائرُ
على أنه قد هاجَهُ بعـد صَحْـوَةٍ ٭ بمعرض ذى الآجامِ عيسٌ بواكرُ
١٥ ولمـا دَنَتْ من جانبِ الغُوطِ أخْصَبَتْ ٭ وحَلّتْ وَلاقاها سُـلَيْمٌ وعامِرُ
وخَبَّرها الرُّكْبانُ أنْ ليس بينَها ٭ وبين قُرَى بُصْرَى ونَجْرانَ كافِرُ
فألْقتْ عَصاها واستقَرَّت بها النَّوى ٭ كما قَرَّ عيْنـاً بالإيابِ المُسافِرُ

وفود نابغة بنى جعدة

على النبى صلى الله عليه وسلم

٢٠ وَفَدَ أبو ليـلى نابغةُ بنى جَعدة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنشده شعره الذى يقول فيه :

بَلَغْنا السماءَ مَجْـدُنا وسَنَاؤنا ٭ وإنا لَنَبْغِى فوقَ ذلك مَظْهَرَا

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : إلى أين أبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن شاء الله . فلما انتهى إلى قوله :

وَلا خيْرَ فى حِلْمٍ إذا لم تكن له ٭ بَوادِرُ تَحْمِى صَفْوَهُ أنْ يُكَدَّرَا

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ ! فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفَضّ له سِنّ ، وبقى حتى وفد على عبد الله بن الزبير فى أيامه بمكة وامتدحه ، فقال له : يا أبا ليلى ، إنّ أدنى وسائلك عندنا الشعر ، لك فى مال الله حَقّان : حق برؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقٌّ بشركتك أهل الإسلام فى فيئهم . ثم أحسن صلته وأجازه .

وفود طهفة بن أبى زهير النهدى
على رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قدمت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم ، قام طهفة [1] ابن أبى زُهير ، فقال : يارسول الله ، أتيناك من غَوْرَى تهامة بإكوار المَيْس ، ترمى بنا العِيس ، نَستحلب الصَّبِير ، ونَستخلب الخَبير ؛ ونستعضد البَرِير ، ونَستخيل الرِّهام ، ونستحيل الجَهام ، من أرض غائلة النِّطاء ، غليظة الوِطاء ، قد نَشِفَ المُدْهُن ويَبِس الجِعْثِن ، وسَقط الأُملوج ، ومات العُسلوج ؛ وهلك الهَدِىّ ، ومات الْوَدِىّ ، برئنا يارسول الله من الوَثَن والعَنَن ، وما يُحدث الزمن ؛ لنا دعوة السلام ، وشريعة الإسلام ، ماطَمَى البحر ، وقام تِعَار ؛ ولنا نَعَمٌ هُمَّل أغفال ، ماتَبِضّ ببلال ؛ ووَقِيرٌ كثير الرَّسْل ، قليل الرِّسْل ، أصابتها سُنَيَّةٌ حمراء مؤزِلة ، ليس بها عَلَل ولا نَهَل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك لهم فى مَحْضها ومَخْضها ومَذْقها ، وابعث راعيها فى الدَّثْر ، بيانع الثَّمر ، وافجُر له الثَّمد ، وبارك له فى المال والولد . من أقام الصلاة كان مُسلما ، ومن آتى الزكاة كان مُحسنا ، ومن شهد

(١) ويروى طخفة ، بالخاء المعجمة .

أن لا إله إلا الله كان مُخلصا . لكم يابنى نهد ، ودائع الشِّرك ، ووضائع الملك ، لا تُلطِط فى الزكاة ، ولا تُلحِد فى الحياة ، ولا تَثاقل عن الصلاة .

وكتب معه كتاباً إلى بنى نهد : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد، السلامُ على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بنى نَهد فى الوظيفة ٥ الفَريضة ، ولكم الفارض والفرِيش ، وذو العِنان الرَّكوب والفلو الضبيس ، لا يُمنع سَرحكم ، ولا يُعْضد طَلْحكم ، ولا يُحبس دَرّكم ، مالم تُضمروا الإماق ، وتأكلوا الرِّباق . من أقر بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى عليه فعليه الرّبوة .

وفود جبلة بن الأيهم

على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ١٠

العِجْلى قال : حدثنى أبو الحسن علىّ بن أحمد بن عمرو بن الأجدع الكوفى بهيت ، قال : حدثنى إبراهيم بن علىّ مولى بنى هاشم ، قال : حدثنا ثِقات شيوخنا أنّ جبلة بن الأيهم بن أبى شمر الغسّانى لما أراد أن يُسلم كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يُعلمه بذلك ويَستأذنه فى القدوم عليه . فسُرَّ بذلك عمرُ والمسلمون ، ١٥ فكتب إليه أن اقْدَمْ ولك ما لَنا وعليك ما علينا ، فخرج جَبلة فى خمسمائة فارس من علكّ وجَفنة ، فلما دنا من المدينة ألبسهم ثيابَ الوشى المَنسوج بالذهب والفضة ، ولبس يومئذ جبلةُ تاجَه وفيه قُرط مارية ، وهى جدّته فلم يبق يومئذ بالمدينة أحدٌ إلا خرج ينظر إليه ، حتى النساء والصبيان ، وفرح المُسلمون بقدومه وإسلامه ، حتى حضر الموسمَ من عامه ذلك مع عمرَ بن الخطاب : فبينا هو يطوف بالبيت إذ ٢٠ وطئ على إزاره رجلٌ من بنى فَزارة فَحلّه ، فالتفت إليه جَبَلةُ مُغضبا . فلطمه فهشم أنفه ، فاستعدى عليه الفَزارى عمرَ بن الخطاب . فبعث إليه فقال : ما دعاك يا جَبلة إلى أن لطمتَ أخاك هذا الفَزارى فهشمتَ أنفه ؟

فقال : إنّه وَطئ إزارى فحلّه ، ولولا حُرمة هذا البيت لأخذت الذى فيه

عيناه . فقال له عمر : أمّا أنت فقد أقررت . إمّا أن تُرضيه وإلا أقدْتُه منك قال : أتُقيده منى وأنا ملك وهو سُوقة ؟ قال : ياجبلة ، إنه قد جمعك وإيّاه الإسلام ، فما تفضُله بشىء إلا [بالتُّقى] بالعافية . قال : والله لقد رجوت أن أكون فى الإسلام أعزَّ منى فى الجاهلية . قال عمر : دع عنك ذلك . قال : إذن أتنصَّر . قال : إن تنصَّرت ضربتُ عنقك . قال : واجتمع قومُ جَبلة وبنو فَزارة فكادت تكون فِتنة ، فقال جبلة : أخّرنى إلى غد يا أمير المؤمنين . قال : ذلك لك .

فلما كان جنح الليل خرج جبلةُ وأصحابه ، فلم يثْن حتى دخل القسطنطينية على هرقل ، فتنصَّر وأقام عنده ، وأعظم هرقلُ قدومَ جبلة ، وسُر بذلك وأقطعه الأموال والأرضين والرِّباع .

ثم بعث عمر بن الخطاب رسولًا إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، فأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام ، فلما أراد أن يكتب جواب عمر قال للرسول : أَلَقِيتَ ابنَ عمك هذا الذى ببلدنا - يعنى جبلة - الذى أتانا راغباً فى ديننا ؟ قال : ما لقيتُه .

قال : القَهْ ، ثم آئتنى أعطِك جواب كتابك .

وذهب الرسول إلى باب جبلة ، فإذا عليه من القَهارمة والحُجّاب والبهجة وكثرة الجمع مثلُ ما على باب هرقل .

قال الرسول : فلم أزل أتلطف فى الإذن حتى أُذن لى ، فدخلت عليه ، فرأيت رجلًا أصهب اللحية ذا سِبال ؛ وكان عهدى به أسمر أسودَ اللحية والرأس . فنظرتُ إليه فأنكرته ، فإذا هو قد دعا بسُحالة الذهب فذرها فى لحيته حتى عاد أصهب ، وهو قاعدٌ على سرير من قوارير ، قوائمه أربعة أسُود من ذهب ، فلما عَرفنى رفعنى معه فى السرير ، فجعل يُسائلنى عن المسلمين ، فذكرتُ خيراً ، وقلت : قد أُضعفوا أضعافا على ما تعرف . فقال : كيف تركت عمر بن الخطاب ؟ قلت : بخير . فرأيت الغم قد تبيّن فيه لما ذكرت له من سلامة عمر . قال : فانحدرت عن السرير . فقال : لِمَ تأبى الكرامة التى أكرمناك بها ؟ قلت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا .

قال : نعم ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقِّ قلبك من الدَّنَس ولا تُبال علام قعدت . فلما سمعته يقول : صلّى الله عليه وسلم طمعتُ فيه ، فقلت له : ويحك يا جبلة ! ألا تُسلم وقد عرفت الإسلام وفضله ؟ قال : أَبَعْدَ ما كان منى ؟

قلت : نعم ، قد فعل رجلٌ من بنى فَزارة أكثَرَ مما فعلت : ارتد عن الإسلام وضَرب وجوهَ المسلمين بالسيف ، ثم رجع إلى الإسلام وقُبل ذلك منه وخلّفته بالمدينة مُسلما .

قال : ذَرنى من هذا ؛ إن كنتَ تَضمن لى أن يزوِّجنى عمر ابنته ويولِّينى الأمر بعده رجعتُ إلى الإسلام . قلت : ضمنت لك التزويج ولم أضمن لك الإمرة .

قال : فأومأ إلى خادم بين يديه ، فذهب مُسرعا ، فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام ، فوُضعت ، ونُصبت موائدُ الذهب وصِحاف الفضة ، وقال لى : كُلْ ، فقبضت يدى . وقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل فى آنية الذهب والفضة . فقال نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقِّ قلبك وكُل فيما أحببت . قال : فأكل فى الذهب والفضة وأكلتُ فى الخَليج [1] ؛ فلما رُفع الطعامُ جىء بطِساس الفضة وأباريق الذهب ، وأومأ إلى خادم بين يديه ، فمرّ مُسرعا ، فسمعت حِسّا ، فالتفتُّ ، فإذا خدم معهن الكراسى مُرصّعة بالجواهر ، فوُضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره ، ثم سمعت حِسّا ، فإذا عشر جوار قد أقبلن مطمومات الشعر متكسرات فى الحَلى عليهن ثيابُ الديباج ، فلم أر وجوها قط أحسنَ منهن ، فأقعدهُنّ على الكراسىّ عن يمينه ؛ ثم سمعتُ حسّا ، فإذا عشر جوارٍ أخرى ، فأجلسهن على الكراسىّ عن يساره ؛ ثم سمعت حسّا ، فإذا جارية كأنها الشمس حُسنا ؛ وعلى رأسها تاج ، على ذلك التاج طائر لم أرَ أحسنَ منه ، وفى يدها اليمنى جامٌ فيها مسكٌ وعنبر ، وفى يدها اليسرى جامة فيها ماء ورد ، فأومأتْ إلى الطائر أو قال : فصَفَرتْ بالطائر ، فوقع فى جام ماء الورد فاضطرب فيه ، ثم أومأتْ إليه أو قال : فصفرت به ، فطار حتى نزل على صليب

(١) الخليج : الجفنة .

فى تاج جَبلة ؛ فلم يزل يرفرف حتى نفض مافى ريشه عليه . وضحك جبلة من شدّة السرور حتى بدت أنيابه ؛ ثم التفت إلى الجوارى اللواتى عن يمينه ، فقال : بالله أطربننى ؛ فاندفعن يتغنين يَخفقن بعيدانهن ويقُلْن :

دَرُّ عصـــابةٍ نادَمْتُهم * يوماً بجِلِّقَ فى الزمانِ الأولِ

٥ يَسقونَ مَنْ وَرَدَ البَريصَ عليهمُ * بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَحيقِ السَّلْسَلِ

أولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أبيهمُ * قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كِلاَبُهُمْ * لا يَسألونَ عن السَّوادِ المُقبِلِ

بِيضُ الوجوهِ أعِفَّةٌ أحسابُهُمْ * شُمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأولِ

قال : فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أتدرى من قائل هذا ؟ قلتُ : لا . قال : قائله حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ١٠

ثم التفت إلى الجوارى اللاتى عن يساره ، فقال : بالله أبكيننا . فاندفعن يتغنين يَخْفقن بعيدانهن ويقُلْن :

لِمَنْ الدارُ أقفرَتْ بِمَعانِ * بين أعلَى اليَرْموكِ فالخَمّانِ[1]

ذاكَ مَغْنًى لآلِ جَفْنَةَ فى الدهـــرِ مَحَـــلًّا لِحَادِثِ الأزمانِ

١٥ قد أرانى هناكَ دَهراً مَكِيناً * عند ذى التاجِ مَقعَدى ومَكانى

ودَنا الفِصحُ فالولائدُ يَنْظِمْـــنَ سِراعاً أكِلَّةَ المَرْجانِ

لم يُعَلِّلْنَ بالمغـــافرِ والصَّمْـــغِ ولا نَقْفِ حَنْظَلِ الشَّرْيانِ

قال : فبكى حتى جعلتْ الدموع تسيل على لحيته ؛ ثم قال : أتدرى من قائل هذا ؟ قلت : لا أدرى . قال : حسان بن ثابت . ثم أنشأ يقول :

٢٠ تَنصَّرَتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمَةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ

تكَنّفَنى منها لَجَــاجٌ ونَخْوةٌ * وبِعْتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ

فيـــاليت أُمى لم تَلِدْنى وليتنى * رَجَعْتُ إلى الأمرِ الذى قال لى عُمَرْ

(١) رواية الأغانى ومعجم البلدان : الصمان . وهو موضع لظاهر البلقاء .

ويا ليتني أرعى المَخاضَ بقَفْرةٍ ۞ وكنتُ أسيراً في ربيعةَ أو مُضَرْ

ويا ليت لي بالشامِ أدنَى معيشةٍ ۞ أُجالِسُ قومي ذاهِبَ السَّمعِ والبصَرْ

ثم سألني عن حسان : أحيٌّ هو ؟ قلت : نعم ، تركته حيًّا . فأمر لي بكسوة ومال ونُوق مُوقَرة بُرًّا . ثم قال لي : إن وجدتَه حيًّا فادفع إليه الهدية واقرئه سلامي ، وإن وجدتَه ميتاً فادفعها إلى أهله وآنحر الجمال على قبره .

فلما قدمتُ على عمر أخبرتُه خبر جبلة وما دعوتُه إليه من الإسلام والشرط الذي شرطه وأني ضمنتُ له التزويج ولم أضمن له الإمرة ، فقال : هلا ضمنت له الإمرة ؛ فإذا أفاء الله به إلى الإسلام قضى عليه بحُكمه عز وجل .

ثم ذكرتُ له الهدية التي أهداها إلى حسّان بن ثابت ، فبعثَ إليه وقد كُفَّ بصرُه ، فأُتي به وقائدٌ يقوده ، فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ، إني لأجد رياحَ آلِ جفنةَ عندك ! قال : نعم . هذا رجل أقبل من عنده . قال : هات يا بن أخي إنه كريم من كرام مدحتُهم في الجاهلية حلف ألّا يلقى أحدا يعرفني إلا أهدى إلى معه شيئا . فدفعتُ إليه الهدية . المالَ والثياب ، وأخبرتُه بما كان أمر به في الإبل إن وُجد ميتاً . فقال : وددت أني كنت مَيتاً فنُحِرَتْ على قبري .

قال الزبير : وانصرف حسان وهو يقول :

إنَّ ابن جَفْنةَ مِنْ بقيَّةِ مَعْشَرٍ ۞ لمْ تغْـذُهُمْ آباؤُهُمْ باللومِ

لمْ ينْسَني بالشَّامِ إذْ هُوَ رَبُّها ۞ مَلِكا ولا مُتَنصِّرًا بالرُّومِ

يُعطِي الجَزِيلَ ولا يَراهُ عندَهُ ۞ إلا كبَعْضِ عطِيَّةِ المذْمُومِ

فقال له رجل كان في مجلس عمر : أتذكر مُلوكا كفرة أبادهم الله وأفناهم ؟ قال : ممن الرجل ؟ قال : مُزَني . قال : أمَا والله لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطوقتك طوق الحمامة .

قال : ثم جهزني عمر إلى قيصر وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به .

فلما قدمت القسطنطينية وجدتُ الناس مُنصرفين من جنازته ، فعلمت أنّ الشقاء غلب عليه في أمّ الكتاب .

وفود الأحنف على عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

المدائنى قال : قدم الأحنفُ بن قيس التميمى على عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى أهل البصرة وأهل الكوفة ، فتكلموا عنده فى أنفسهم وما ينوب كلَّ واحد منهم ، وتكلم الأحنف فقال :

يا أمير المؤمنين ، إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتك وفودُ أهل العراق ، وإنّ إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والمُلوك الجبابرة ، ومنازلَ كسرى وقيصر وبنى الأصفر ، فهم من المياه العَذبة والجِنان المُخصبة فى مثل حِوَلاء السَّلَى وحدقة البعير [1] ، تأتيهم ثمارهم غضّة لم تتغيّر ؛ وإنا نزلنا أرضا نشاشةً طَرَفٌ فى فلاة وطرف فى ملح أجاج ، جانبٌ منها منابت القصب ، وجانب سَبخة نشّاشة لا يَجف ترابها ، ولا ينبت مرعاها ، تأتينا منافعها فى مثل مرىء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف منّا يستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرنّق ولدها ترنيقَ العنز ، تخاف عليه العدوّ والسبع ، فإلا ترفع خَسيستنا ، وتُنعشْ ركيستنا ، وتجبُر فاقتنا ، وتزيد فى عيالنا عِيالا ، وفى رجالنا رجالا ، وتُصَغِّر درهمنا ، وتكبِّر قفيزنا ، وتأمر لنا بحفر نهر نَستعذب به الماء هَلَكنا .

قال عمر : هذا والله السيد ! هذا والله السيد !

قال الأحنف : فما زلت أسمعها بعدها .

فأراد زيد بن جبلة أن يضع منه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس هناك ، وأمّه باهليّة .

قال عمر : هو خير منك إن كان صادقاً . يريد : إن كانت له نيّة

(١) الحولاء : غلاف أخضر مملوء ماء . والسلى : الجلدة الرقيقة التى يكون فيها الولد . ويكنى بحولاء السلى وحدقة البعير عن الخصب والخير .

فقال الأحنف :

أنا ابنُ الباهِلَيِةِ أَرْضَعَتْني * بِثَدْيٍ لا أجَـدَّ ولا وخِيمِ
أُغُضّ علَى القَذَى أجفانَ عيْنِي * إذا شَرَّ السَّفيهُ إلى الحَليمِ

قال فرجع الوفد واحتبس الأحنفَ عنده حولا وأشهراً ، ثم قال : إن
٥ رسول الله صلى الله عليه وسلم حذّرنا كُل منافق صَنَعِ اللسان ، وإنى خِفتك فاحتبستك ، فلم يبلغنى عنك إلا خير ؛ رأيت لك جُولًا[1] ومعقولا ؛ فارجع إلى منزلك واتق الله ربك . وكتب إلى أبى موسى الأشعرى أن يحتفر لهم نهراً .

وفود الأحنف وعمرو بن الأهتم

على عمر بن الخطاب رضى الله عنه

١٠ العُتبى عن أبيه قال : وفَد الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأراد أن يُقرِع بينهما فى الرياسة ، فلما اجتمعت بنو تميم ، قال الأحنف :

ثوَى قدَحٌ عنْ قوْمِهِ طالمَا ثوَى * فلمّا أتاهُمْ قالَ قُومُوا تنَاجَزُوا

فقال عمرو بن الأهتم : إنا كنّا وأنتم فى دار جاهليّة فكان الفضل فيها لمن
١٥ جَهِل ، فسفكنا دماءكم ، وسَبينا نساءكم ، وإنّا اليوم فى دار الإسلام والفضلُ فيها لمن حلِم ؛ فغفر الله لنا ولك .

قال : فغلب يومئذ عمرو بن الأهتم على الأحنف ووقعت القرعة لآل الأهتم فقال عمرو بن الأهتم :

لمَّا دعَتْني لِلرِّيَاسَــةِ مِنْقَرٌ * لدَى مَجْلِسٍ أَضْحى بِهِ النَّجْمُ بادِيَا
٢٠ شَدَدْتُ لهَا أزْرِى وقدْ كنْتُ قبلَها * لأمْثالِهَا ممَّا أشُــدُّ إزَارِيَا

وعمرو بن الأهتم : هو الذى تكلم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

---

(١) الجول : الرأى .

وسأله عن الزبرقان ، فقال عمرو : مُطاع فى أدْنيْه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .

فقال الزبرقان : والله يا رسول الله إنه ليعلم منى أكثر مما قال ، ولكن حسدنى .

قال : أما والله يا رسول الله ، إنه لزَمِرُ المروءة ، ضيّق العَطَن ؛ أحمق الوالد لئيم الخال ؛ والله ما كذبتُ فى الأولى ولقد صدقتُ فى الأخرى ؛ رضيتُ عن ابن عمى فقلتُ أحسن ما علمتُ ولم أكذب ، وسخِطتُ عليه فقلت أقبح ما علمت ولم أكذب .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لسحرا .

وفود عمرو بن معديكرب

على عمر بن الخطاب رضى الله عنه

إذ أوفده سعد

لما فتحت القادسيّة على يدى سعد بن أبى وقّاص ، أبلى فيها عمرو بن معديكرب بلاءً حسناً ، فأوفده سعدٌ على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكتب إليه معه بالفتح وأثنى فى الكتاب على عمرو ؛ فلما قَدِم على عمر بن الخطاب سأله عن سعد ، فقال : أعرابى فى نَمرته ، أسدٌ فى تأمورته ، نبطى فى جبايته ، يقسم بالسويّة ، ويعدل فى القضية وينفّل [1] فى السريّة ؛ وينقل إلينا حقنا نقل الذّرة. فقال عمر : لشدّ ما تقارضتُما الثناء . وكان عمر قد كتب إلى سعد يوم القادسيّة أن يُعطى الناس على قدر ما معهم من القرآن ؛ فقال سعد لعمرو بن معديكرب ما معك من القرآن ؟ قال : ما معى شىء . قال : إن أمير المؤمنين كتب إلىّ أن أعطى الناس على قدر ما معهم من القرآن . فقال عمرو :

إذا قُتِلْنا ولا يبكى لنا أحدٌ ... قالت قريشُ ألا تلك المقادير

(١) فى بعض الأصول : « وينفر » .

نُعطَى السَّوِيَّةَ من طعن له نَفَذٌ ✽ ولا سوِيَّةَ إذ تُعْطَى الدنانيرُ

قال: فكتب سعد بأبياته إلى عمر، فكتب إليه أن يُعْطَى على مقاماته فى الحرب.

وفود أهل اليمامة على أبى بكر الصديق

رضى الله عنه

وفد أهل اليمامة على أبى بكر الصديق رضى الله عنه، بعد إيقاع خالد وقتْله مُسيلمة الكذاب، فقال لهم أبو بكر: ماكان يقول صاحبكم؟ قالوا: أعفنا ياخليفة رسول الله. قال: لابد أن تقولوا. قالوا: كان يقول: ياضِفدع كم تَنِقِّين. لا الشرابَ تَمنعين، ولا الماءَ تُكدِّرين، لنا نصفُ الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش قوم لا يعدلون. فقال لهم أبو بكر: ويحكم! ماخرج هذا من إلٍّ ولا برٍّ، فأين ذهب بكم؟ قال أبو عبيد: الإل: الله تعالى. والبر الرجل الصالح.

وفود عمرو بن معديكرب

على مجاشع بن مسعود

وفد عمرو بن معد يكرب الزُّبيدى على مُجاشع بن مسعود السُّلمى ـ وكانت بين عمرو وبين سُليم حروب فى الجاهلية ـ فقدم عليه البصرة يسأله الصلة، فقال له: اذكُر حاجتك. فقال له: حاجتى صلةُ مثلى. فأعطاه عشرة آلاف درهم، وفرساً من بنات الغبْراء، وسيفاً جُرازاً، ودِرْعا حَصينة، وغلاما خبّازاً؛ فلما خرج من عنده. قال له أهل المجلس: كيف وجدتَ صاحبك؟ قال لله بنو سُليم! ما أشد فى الهيجاء لقاءها، وأكرم فى اللَّأواء عطاءها، وأثبتَ فى المكرمات بناءها. والله يابنى سُليم، لقد قاتلناكم فى الجاهلية فما أجْبَنّاكم، ولقد هاجيناكم فما أفحمناكم، ولقد سألناكم فما أبخلناكم:

فلله مسئولاً نَوَالاً ونائِلاً ✽ وصاحِبَ هَيْجٍ يومَ هَيْجٍ مُجاشعُ

وفود الحسن بن على رضى الله عنهما

على معاوية رضى الله عنه

أبو بكر بن أبى شَيبة قال : وفد الحسن بن على رضى الله عنهما على معاوية بعد عام الجماعة ، فقال له معاوية : والله لاحبُوَنَّك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً قبلك ولا أُجيز بها أحداً بعدك . فأمر له بمائة ألف . ٥

وفى بعض الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على آبنته فاطمة ، فوجد الحسن طفلا يلعب بين يديها ، فقال لها : إن الله تعالى سيُصلح على يدى ابنك هذا بين فِئتين عظيمتين من المُسلمين .

وفود زيد بن منية على معاوية رحمه الله

العتبى قال : قدم زيد بن مُنْية على معاوية من البصرة ـ وهو أخو يعلى ١٠ ابن مُنية صاحب جمل عائشة ، ومتولى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة . وكان عُتبة بن أبى سفيان قد تزوج آبنة يعلى بن مُنية ـ فلما دخل على معاوية شكا إليه ديناً لَزِمه . فقال : ياكعب ، أعطه ثلاثين ألفا . فلما ولّى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفا أخرى . ثم قال له الحق بصهرك ـ يعنى عتبة ـ فقدم عليه مِصر ، فقال : إنّى سرتُ إليك شهرين ، أخوض فيهما المتالف ، ألبس أردية الليل مَرّة ، وأخوض ١٥ فى لُجج السراب أخرى ، مُوقراً من حسن الظن بك ، وهارباً من دهر قَطِم ، ودَيْن لَزِم ، بعد غِنًى جَدعْنا به أنوف الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك مَهْرباً وعليك مُعَوّلا . فقال عُتبة : مرحباً بك وأهلا ؛ إن الدهر أعاركم غِنًى ، وخَلطكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذُه ، وقد أبقى لكم منّا ما لا ضيعة معه ، وأنا واضعٌ يدى ويدك بيد الله فأعطاه ستين ألفاً ، كما أعطاه معاويةُ رحمه الله. ٢٠

وفود عبد العزيز بن زرارة

على معاوية رحمه الله

العُتبى عن أبيه قال : وفد عبد العزيز بن زُرارة على معاوية وهو سيّد أهل

الكوفة . فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لم أزل أهز ذوائب الرِّحال إليك ؛ إذ لم أجد معوَّلاً إلا عليك ، امتطى الليل بعد النهار ، وأسِم المجاهلَ بالآثار ، يقودنى إليك أمل ، وتَسُوقنى بَلْوى ، والمجتهد يُعذَر ، وإذ بلغتك فقطْنى . فقال معاوية : احطُط عن راحلتك رحلَها .

٥ وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة ، فهلك هناك ؛ فكتب به يزيدُ بن معاوية إلى معاوية ، فقال لزرارة : أتانى اليوم نَعيُ سيد شباب العرب . قال زرارة : يا أمير المؤمنين ، هو ابنى أو ابنك . قال : بل ابنك . قال : لِلموتِ ماتلد الوالدة .

أخذه سابق البربرى فقال :

١٠ ولِلموتِ تغذو الوالِداتُ سِخَالَها ✽ كما لِخَرابِ الدهرِ تُبْنَى المساكِنُ

وقال آخر :

لِلموتِ يولَدُ مِنّا كُلُّ مولودِ ✽ لا شىءَ يبقَى ولا يَفْنَى بِمَوْجودِ

وفود عبد الله بن جعفر

على يزيد بن معاوية

١٥ المدائنى قال : قَدم عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية ، فقال له : كم كان عَطاؤك ؟ فقال له : ألف ألف . قال : قد أضعفناها لك . قال : فداك أبى وأمى ، وما قلتُها لأحد قبلك ! قال : أضعفناها لك ثانية . فقيل ليزيد : أتعطى رجلا واحداً أربعة آلاف ألف ؟ فقال : ويحكم ، إنما أعطيتُها أهلَ المدينة أجمعين ، فما يده فيها إلا عارية .

٢٠ فلما كان فى السنة الثانية قَدم عبد الله بن جعفر ، وقدم مولًى له يقال له نافع ، كانت له منزلة من يزيد بن معاوية . قال نافع : فلما قدمنا عليه أمر لعبد الله بن جعفر بألف ألف ، وقضى عنه ألفَ ألف ، ثم نظر إلى فتبسم ، فقلت : هذه لتلك الليلة . وكنتُ سامرتُه ليلة فى خلافة معاوية وأسمعتُه فيها ،

فذكرته بها . وقَدِمتْ عليه هدايا من مصر كثيرة ، فأمر بها لعبد الله بن جعفر ؛ وكانت له مائة ناقة ، فقلت لابن جعفر : لو سألته منها شيئاً نحتلبه فى طريقنا ؟ ففعل ، فأمر بصرفها كلها إليه . فلما أراد الوَداع أرسل إلىّ فدخلت عليه ، فقال : ويلك ! إنمــا أخّرْتُك لأتفرغ إليك ، هات قولَ جميل :

خَليلَىّ فيما عِشْتُما هل رأَيْتُما * قتيلًا بَكَى مِن حُبِّ قاتِلِه قَبْلِى ٥

قال ؛ فأسمعتُه ، فقال : أحسنت والله ؛ هات حاجتك ! فما سألته شيئاً إلا أعطانيه ، فقال : إن يُصلح اللهُ هـذا الأمرَ من قِبَل ابن الزبيرِ تَلْقَنا بالمدينة ؛ فإن هذا لا يَحْسنُ إلا هناك . فمنع والله من ذلك شُؤم ابن الزبير .

وفود عبد الله بن جعفر

على عبد الملك بن مروان ١٠

قال بُدَيح : وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان ، وكان زوّج ابنتَه أم كلثوم من الحجاج على ألفى ألف فى السر وخمسمائة ألف فى العلانية ، وحملها إليه إلى العراق ، فمكثت عنده ثمانية أشهر . قال بُديح : فلما خرج عبدُ الله ابن جعفر إلى عبد الملك بن مروان ، خرجنا معه حتى دخلنا دمشقَ ، فإنا لنحُطّ رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة وَرْدَة ومعه الناس ، فقلنا : جاء إلى ١٥ ابن جعفر ليُحيِيه ويدعوه إلى منزله . فاستقبله ابنُ جعفر بالترحيب ، فقال له : لكن أنت لامرحباً بك ولا أهلا ! فقال : مهلا يابن أخى ، فلستُ أهـلا لهـذه المقالة منك . قال : بلى ، ولِشرٌ منها ، قال : وفيم ذلك ؟ قال : إنك عمدتَ إلى عقيلة نساء العرب ، وسيدة بنى عبد مناف ، ففرشتها عبدَ ثقيف يتفخّذها . قال : وفى هـذا عَتب علىّ يابن أخى ؟ قال : وما أكثرُ مِن هذا ؟ قال : والله إنّ أحق ٢٠ الناس أن لا يلومنى فى هذا لأنت وأبوك ؛ إنْ كان مَن قبلكم من الوُلاة ليصلون رَحِمى ، ويعرفون حقى ، وإنك وأباك منعتمانى ماعندكما حتى ركبنى من الدَّين ماوالله لو أن عبداً مُجدَّعا حبشيًّا أعطانى بها ما أعطانى عبدُ ثقيف لزوجتها ؛ فإنمـا فديتُ

بها رقبتى من النار . قال : فما راجعه كلمةً حتى عطف عِنانه ، ومضى حتى دخل على عبد الملك ـ وكان الوليدُ إذا غضب عُرِف ذلك فى وجهه ـ فلما رآه عبد الملك قال : مالك أبا العباس ؟ قال : إنك سلّطت عبدَ ثقيف وملّكته ورفعته حتى تفخّذ نساء عبد مناف ، وأدركته الغيرة . فكتب عبدُ الملك إلى الحجّاج يعزم عليه ألّا يضع كتابه من يده حتى يطلّقها . . . فما قطع الحجّاج عنها رزقا ولا كرامة يُجريها عليها حتى خرجت من الدنيا . قال : وما زال واصلًا لعبد الله بن جعفر حتى هلك . قال بُديح : فما كان يأتى علينا هلالٌ إلا وعندنا عِير مُقبلة من الحجاج، عليها لُطَفٌ وكُسوة وميرة ، حتى لحق عبدُ الله بن جعفر بالله .

ثم استأذن ابنُ جعفر على عبد الملك ، فلما دخل عليه استقبله عبد الملك بالترحيب ، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره ، ثم سأله فألطف المسألة ، حتى سأله عن مطعمه ومشربه . فلما انقضت مسألته ، قال له يحيى بن الحكم : أمِن خِبْثة كان وَجْهك أبا جعفر ؟ قال : وما خبثة ؟ قال : أرضك التى جئت منها . قال : سبحان الله ، رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها طِيبة وتسميها خِبثة ؟ لقد اختلفتما فى الدنيا وأظنكما فى الآخرة مختلفَيْن .

فلما خرج من عنده هيّأ له ابنُ جعفر هدايا وألطافا . فقلت لبُديح : ما قيمة ذلك ؟ قال : قيمته مائة ألف . من وُصَفاء ووصائف وكسوة وحرير ولُطَف من لطَف الحجاز . قال : فبعثنى بها ، فدخلتُ عليه وليس عنده أحد . فجعلت أعرض عليه شيئاً شيئاً . قال : فما رأيت مثل إعظامه لكل ماعرضتُ عليه من ذلك ، وجعل يقول كلما أريتُه شيئا : عافَى الله أبا جعفر ! ما رأيت كاليوم ، وما نريد أن يتكلف لنا شيئا من هذا ، وإن كُنا لمتذمّمين محتشمين . قال : فخرجت من عنده وأذن لأصحابه .

فوالله لبينا أنا عند بن جعفر أحدّثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى إليه ، إذا بفارس قد أقبل علينا ، فقال أبا جعفر ، إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك ، ويقول لك : جمعت له وَتَخش رقيق الحجاز وأُباقهم وحَبسْتَ عنا فلانة ،

فابعث بها إلينا ـ وذلك أنه حين دخل عليه أصحابُه جعل يحدثهم عن هدايا ابن جعفر ويُعظمها عندهم ، فقال له يحي بن الحكم : وماذا أهدى إليك ابنُ جعفر ؟ جمع لك وَخْش رقيق الحجاز وأبَّاقهم وحبس عنك فلانة . قال : ويلك ، وما فلانة هذه ؟ قال : ما لم يسمع والله أحدٌ بمثلها قطّ جمالا وكمالا وخُلقا وأدبا ، لو أراد كرامتك بعث بها إليك . قال : وأين تُراها . وأين تكون ؟ قال : هى والله معه ، وهى نفسه التى بين جنبيه ـ فلما قال الرسول ما قال ، وكان ابنُ جعفر فى أذنه بعض الوقر ، إذا سمع مايكره تصامّ ، فأقبل عليه فقال : مايقول بابُديح ؟ قال : قلت : فإنّ أمير المؤمنين يَقرأ السلام ويقول : إنه جاءنى بريد من ثغر كذا يقول : إن الله نصر المسلمين وأعزهم . قال : آقرأ أمير المؤمنين السلام ، وقل له : أعز اللهُ نصرك ، وكَبت عدوّك . فقال الرسول : يا أبا جعفر ، إنى لست أقول هذا ، وأعاد مقالته الأولى . فسألنى فصرفته إلى وجه آخر . فأقبل علىّ الرسول ، فقال : يا ماصّ ... أبِرُسل أمير المؤمنين تَهَكَّمُ ، وعن أمير المؤمنين تُجيب هذا الجواب ؟ أما والله لأطُلَّنّ دمك . فانصرف ، وأقبل علىّ ابنُ جعفر فقال : مَن تُرى صاحبنا ؟ قال : صاحبُك بالأمس . قال : أظنه ! فما الرأى عندك ؟ قلت : يا أبا جعفر ، قد تكلّفت له ما تكلفت ، فإن منعتَها إياه جعلتها سبباً لمنعك ، ولو طلب أميرُ المؤمنين إحدى بناتك ما كنتُ أرى أن تمنعها إياه . قال : آدعها لى . فلما أقبلتْ . رحَّب بها ثم أجلسها إلى جنبه ، ثم قال : أما والله ما كنتُ أظن أن يفرق بينى وبينك إلا الموت . قالت : وما ذاك ؟ قال : إنه حدث أمر ، وليس والله كائناً فيه إلا ما أحببتِ ، جاء الدهر فيه بما جاء . قالت : وما هو ؟ قال : إن أمير المؤمنين بعث يطلبك . فإن تَهْوَىْ فذاك ، وإلا والله لم يكن أبدا . قالت : ماشىء لك فيه هوى ولا أظن فيه فرجاً عنك إلا فديته بنفسى ، وأرسلتْ عينها بالبكاء . فقال لها : أما إذا فعلت فلا تَرَيِنّ مكروها : فمسحَتْ عينيها ، وأشار إلىّ فقال : ويحك يا بُديح استحثها قبل أن تتقدّم إلىّ من القوم بادرة . قال : ودعا بأربع وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسمائة دينار ، ودعا مولاة له كانت تلى

طيبَهُ ، فدَحَست لهـا ربعة عظيمة مملوءة طيبا ، ثم قال : عجِّلها ويلك . فخرجتُ أسوقها حتى انتهيت إلى البـاب ؛ وإذا الفارس قد بلّغ عنى ، فمـا تركنى الحجّاب أن تمس رجلاى الأرض حتى أُدخلت على عبد الملك وهو يتلظّى ، فقال لى ياماصّ ، وكذا أنت المُجيب عن أمير المؤمنين والمُتهكّم برسله ؟ قلت : ياأمير المؤمنين ، إيذن لى أتكلم . قال : وما تقول ياكذا وكذا ؟ قلت : إيذن لى جعلنى الله فداك أتكلم . قال : تكلم . قلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أصغر شأنا ، وأقل خطراً من أن يَبلغ كلامى من أمير المؤمنين ما أرى ، وهل أنا إلا عبدٌ من عبيد أمير المؤمنين ، نعم ، قد قلت مابلغك ، وقد يعلم أمير المؤمنين أنّا إنما نعيش فى كَنَف هذا الشيخ ، وأنّ الله لم يزل إليـه محسنا ، فجاءه من قِبلك شىء ما أتاه قطُّ مثلُه ، إنمـا طلبتَ نفسه التى بين جنبيه ، فأجبتُ بمـا بلغك لأسهّل الأمرَ عليه ؛ ثم سألنى فأخبرتُه واستشارنى فأشرتُ عليه ، وهاهى ذه قد جئتُك بها . قال : أدخلها ويلك ! قال : فأدخلتُها عليه وعنده مَسلمة ابنُه ، غلام ما رأيت مثلَه ولا أجمل منه حين اخضرّ شاربه . فلمـا جلستْ وكلّمها أُعجب بكلامها ، فقال : لله أبوكِ ، أمسكك لنفسى أحبُّ إليك أم أهبك لهذا الغلام ، فإنه ابنُ أمير المؤمنين ، قالت : ياأمير المؤمنين ، لستَ لك بحقيقة ، وعسى أن يكون هـذا الغلام لى وجها . قال : فقام من مكانه ما راجعها ، فدخل ، وأقبـل عليها مَسلمة فقال : يا لَكاع ، أعَلَى أمير المؤمنين تختارين ؟ قالت : ياعدوّ نفسه إنما تلومنى أن اخترتُك ! لعمر الله لقد فال رأىُ من اختارك . قال : ضيّقتْ والله مجلسَه . واطّلع علينا عبد الملك قد ادّهن بدُهن وَارَى الشيب ، وعليه حُلة تتلألأ كأنها الذهب ، بيده مِخصرة يخطِر بهـا ، فجلس مجلسَه على سريره ، ثم قال : إيها ، لله أبوك ، أُمسكك لنفسى أحبُّ لك أم أهبك لهذا الغلام ؟ قالت : ومن أنت أصلحك الله ؟ قال لها الخصىّ : هـذا أمير المؤمنين ! قالت : لست مختارة على أمير المؤمنين أحدا . قال : فأين قولُك آنفا ؟ قالت : رأيتُ شيخاً كبيرا ، وأرى أمير المؤمنين أشبَّ الناس وأجملهم ، ولست مختارة عليه أحداً . قال : دونكها يا مَسلمة . قال بُديح : فنشرتُ عليه

الكُسوة والدنانير التي معي ، وأريتُه الجواري والطِّيب . قال : عافى الله ابنَ جعفر ! أخَشِيَ ألا يكونَ لها عندنا نفقة وطيب وكُسوة ؟ فقلت : بلى ، ولكنه أحبّ أن يكون معها ماتكتفي به حتى تستأنس . قال : فقبضها مسلمة ، فلم تلبث عنده إلا يسيراً حتى هَلكت . قال بُديح : فوالله الذي ذهب بنفس مَسلمة ، ماجلست معه مجلساً ولا وقفتُ موقِفاً أنازعه فيه الحديث ، إلا قال : ابْغِني مثل فلانة . فأقول : ابْغِني مثل ابن جعفر .

قال : فقلت لبديح : ويلك ! فما أجازه به ؟ قال : قال حين دفع إليه حاجته ودينه : لأجيزنك جائزة لو نُشر لي مروان من قبره ما زِدْته عليها . فأمر له بمائة ألف . وايمُ الله إني لا أحسبه أنفق في هديته ومسيرِه ذلك وجاريتِه التي كانت عدل نفسه مائتي ألف .

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف : أن ابعث إليَّ رجلا يصلح للدين والدنيا ، أتخذه سميراً وجليساً وخليًّا . فقال الحجاج : ما له إلا عامرٌ الشَّعبي . وبعث به إليه . فلما دخل عليه وجده قد كَبا مُهتما ، فقال : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال ذكرتُ قول زهير[1] :

كأني وقدْ جاوزتُ سَبعينَ حِجّةً ٭ خَلَعتُ بها عني عِذارَ لِجامي

رَمتْني بَناتُ الدهرِ من حيثُ لا أرى ٭ فكيف بمن يُرْمى وليسَ برامي

فلو أنني أُرْمَى بِنَبْـــل رأيتُها ٭ ولكنني أُرْمَى بغــــيرِ سِهامِ

على الراحَتَيْنِ تارةً وعلى العَصا ٭ أَنُوءُ ثلاثاً بَعدهُنّ قِيامي

قال له الشَّعبي : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كما قال لبيدُ بن ربيعة ، وقد بلغ سبعين حِجة :

كأني وقد جاوزتُ سَبعين حِجةً ٭ خَلَعْتُ بها عن مَنْكِبيَّ رِدائيا

(١) ينسب هذا الشعر لعمرو بن قميئة.

ولما بلغ سَبعاً وسبعين سنة قال :

باتت تَشَكَّى إلىّ النفسُ مُوهَنةً ﴿ وقد حَمَلْتُكِ سَبعاً بعد سَبعينَا

فإن تُزادِى ثلاثًا تَبْلُغِى أملًا ﴿ وفى الثــلاثِ وَفاء للثمانينا

ولما بلغ تسعين سنة قال :

٥ ولقد سَئِمتُ من الحياةِ وطولِها ﴿ وسُؤالِ هذا الناسِ كيف لبِيد ؟

ولما بلغ عشراً ومائة قال :

أليسَ ورائى إن تَراخت مَنِيّتى ﴿ لُزُومُ العَصا تُحنَى عليها الأصابعُ

أُخَبِّرُ أخبارَ القُرونِ التى خلت ﴿ أنوءُ كأنى كلما قمتُ راكعُ

ولما بلغ ثلاثين ومائة وحضرته الوفاة قال :

١٠ تَمنّى ٱبنتاى أن يعيشَ أبوهُما ﴿ وهل أنا إلا مِن رَبيعةَ أو مُضَرْ

فقُوما فقُولا بالذى تَعْلَمانِه ﴿ ولا تَخْمِشا وجهاً ولا تَحْلِقا شعرْ

وقولا هو المرءُ الذى لاصديقَهُ ﴿ أضاعَ ولا خانَ الخليلَ ولا غَدَرْ

إلى سنَةٍ ثمَّ الســلامُ عليكما ﴿ ومن يَبْكِ حولًا كاملا فقدِ اعتذرْ

قال الشعبى : فلقد رأيت السرور فى وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها .

١٥ وفود الحجاج بابراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

عمران بن عبد العزيز قال : لما ولى الحجاجُ بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير ، استخلص إبراهيمَ بن محمد بن طلحة فقرّبه وعظّم منزلته . فلم تزل تلك حالُه عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان ، فخرج معه مُعادِلا ، لا يُقصّر له ٢٠ فى برّ ولا إعظام ، حتى حضر به عبدَ الملك . فلما دخل عليه لم يبدأ بشىء بعد السلام إلا أن قال له : قدمت عليك أميرَ المؤمنين برجل الحجاز ، لم أدَع له بها نظيراً فى الفضل والأدب والمروءة وحُسن المذهب ، مع قرابة الرحم ، ووجوب الحق ، وعِظَم قدْر الأبوّة ، وما بلوتُ منه فى الطاعة والنصيحة وحسن المُوازرة ، وهو

إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وقد أحضرتُه بابَك ليسهل عليه إذنُك ، وتعرفَ له ماعرفتُك . فقال : أذكرتَنا رحماً قريبة وحقا واجبا ، ياغلام ، إيذن لإبراهيم ابن محمد بن طلحة . فلما دخل عليه أدناه عبدُالملك حتى أجلسه على فراشه ، ثم قال له : يابن طلحة ، إنّ أبا محمد ذكّرنا مالم نزل نعرفُك به فى الفضل والأدب والمُروءة وحُسنِ المذهب ، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعِظَم قدر الأبوة ، ومابلاه منك فى الطاعة والنصيحة وحُسن الموازرة ، فلا تَدَعَنّ حاجةً فى خاصة نفسك وعامتك إلا ذكرتَها . فقال : ياأمير المؤمنين ، إن أول الحوائج ، وأحقَّ ماقُدّم بين يدى الأمور ، ماكان لله فيه رِضا ، ولِحَقِّ نبيه صلى الله عليه وسلم أداء ، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة ، وعندى نصيحةٌ لاأجد بُدًّا من ذكرها ، ولاأقدر على ذلك إلا وأنا خال ، فأخلِنى ياأمير المؤمنين ترِدْ عليك نصيحتى . قال : دون أبى محمد ؟ قال : نعم ، دون أبى محمد ؟ قال عبد الملك للحجاج : قم . فلما خَطْرَفَ السِّتْرُ أقبل علىَّ فقال : يابن طلحة ، قل نُصيحتك . فقال : تالله ياأمير المؤمنين ، لقد عمدت إلى الحجاج فى تغطرُسه وتعجْرُفه وبُعده من الحق وقُربه من الباطل ، فوليتَه الحرمين ، وهما ما هما ، وبهما ما بهما من المُهاجرين والأنصار ، والموالى الأخيار ، يطؤهم بطغام أهل الشام ، ورعاع لاروية لهم فى إقامة حق ولا فى إزاحة باطل ، ويسومهم الخَسف ، ويحكم فيهم بغير السُّنة بعد الذى كان من سَفْك دمائهم ، وما انتُهك من حُرَمِهم ؛ ثم ظننتَ أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق ، وفيما بينك وبين نبيك غداً إذا جاثاك للخصومة بين يدى الله فى أمته . أمَا والله لاتنجو هنالك إلا بحجة . فاربَعْ على نفسك أوْدَع . فقال له عبد الملك : كذبتَ ومِثْتَ وظنّ بك الحجاجُ مالم يجده فيك ؛ وقد يُظَنُّ الخير بغير أهله ؛ قُم فأنت الكاذب المائن . قال : فقمت وماأعرف طريقا . فلما خطرفت الستر لحقنى لاحق فقال : احبسوا هذا ، وقال للحجاج : ادخل . فدخل ، فمكث مليًا من النهار لا أشك أنهما فى أمرى ، ثم خرج الآذِنُ فقال : ادخل يابن طلحة . فلما كُشِف لى الستر لقينى الحجاج وهو خارج وأنا داخل ؛ فاعتنقنى

وقبّل ما بين عينىّ ، وقال : أمّا إذا جزى الله المتواخيَيْن خيراً بفضل تواصلهما ، فجزاك الله عنى أفضلَ الجزاء ؛ فوالله لئن سَلِمْت لك لأرفعن ناظرَك ، ولأعْلِيَنّ كَعبكَ ، ولأُتبعنّ الرجالَ غبارَ قدميك . قال : فقلت : يَهزأ بى وحقّ الكعبة !

فلما وصلت إلى عبد الملك ، أدنانى حتى أدنانى عن مجلسى الأول ؛ ثم قال :
٥ يا بن طالحة ، لعلّ أحدا شاركك فى نصيحتك هذه ! قلت : والله يا أمير المؤمنين ، ما أعلم أحداً أنصعَ عندى يدا ولا أعظمَ معروفاً من الحجّاج . ولو كنت مُحابيا أحدا لغرضِ دنيا لحابيتُه . ولكنى آثرتُ الله ورسوله ، وآثرتُك والمؤمنين عليه . قال : قد علمتُ أنك لم تُرِد الدنيا ، ولو أردتَها لكانت لك فى الحجّاج ، ولكن أردتَ الله والدار الآخرة . وقد عزلتُه عن الحرمين لِمَا كرِهتَ من ولايته
١٠ عليهما ، وأعلمتُه أنك استنزلتنى له عنهما آستقلالا لهما ؛ ووَلّيتُه العراقين وما هنالك من الأمور التى لا يَدْحضُها إلا مثلُه ، وأعلمته أنك آستدعيتنى إلى ولايته عليهما استزادةً له ، لأُلزِمه بذلك من حقّك ما يؤدِّى إليك عنى أجرَ نصيحتِك . فاخرج معه فإنك غير ذامٍّ لصحبته فخرجت مع الحجاج وأكرمنى أضعاف إكرامه .

وفود رسول المهلب

١٥ على الحجاج بقتل الأزارقة

أبو الحسن المدائنى قال : لما هَزم المُهَلبُ بن أبى صُفرة قطَرِىَّ بن الفجاءةِ صاحبَ الأزارقة ، بعث إلى مالك بن بشير فقال له : إنى مُوفِدُك إلى الحجاج فسِرْ ، فإنما هو رجل مِثلك . وبعث إليه بجائزة ، فردها وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق . وتوَجّه . فلما دخل على الحجّاج ، قال له : ما آسمك ؟ قال :
٢٠ مالك بن بشير . قال : مُلْكٌ وبشارة . كيف تركتَ المهلّب ؟ قال : أدركَ ما أمّل وأمّن مَن خاف . قال : كيف هو بجُنده ؟ قال : والدٌ رءوف : قال : فكيف جُنْدُه له ؟ قال : أولادٌ بَرَرة . قال : كيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعَهم بالفضل وأقنعهم بالعدل . قال : فكيف تصنعون إذا لقيتُم عدوّكم ؟ قال : نلقاهم بجدنا فنطمع فيهم ، ويلقونا بجدّهم فيطمعون فينا . قال : كذلك الجدُّ إذا لقِى الجد . قال:

فما حال قطرىّ؟ قال: كادَنا ببعض ما كدناه. قال: فما منعكم من اتّباعه؟ قال: رأينا المُقامَ من ورائه خيراً من اتّباعه. قال: فأخبرنى عن ولد المهلب. قال: أعباء القتال بالليل، حُماة السّرح بالنهار. قال: أيُّهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم. قال: لتقُولن. قال: هم كحلقةٍ مضروبة لا يُعرَف طرفاها. قال: أقسمتُ عليك هل رَوَأتَ فى هذا الكلام؟ قال: ما أطلع اللهُ على غيبه أحداً. ٥
فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع لا الكلام المصنوع.

وفود جرير

على عبد الملك بن مروان

لما مدح جرير بن الخطفى الحجّاج بن يوسف بشعره الذى يقول فيه:

مَنْ سَدّ مُطَّلَعَ النِّفاق عليكُمُ * أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلةِ الحَجّاجِ ١٠

وبشعره الذى يقول فيه:

أَمْ مَنْ يَغَارُ على النِّساء حفِيظَةً * إذ لا يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الأزْواجِ

وقوله:

دعا الحَجّاجُ مِثْلَ دُعاءِ نُوحٍ * فأسْمَع ذا المَعارِجِ فاسْتجابَا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكنى مُوفِدُك على أمير ١٥ المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسِرْ إليه بكتابى هذا فسار إليه؛ ثم استأذنه فى الإنشاد فأذن له، فقال:

* أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِى *

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

تعزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قالت: * رأيتَ الوارِدِينَ ذَوِى امتِياحِ ٢٠
ثِقِى باللهِ لَيْسَ لهُ شَرِيكٌ * ومِنْ عِنْدِ الخليفَةِ بالنَّجاحِ
سأَشْكُرُ إنْ رَدَدْتَ إلىّ رِيشِى * وأَنْبَتَّ القوادِمَ فى جَناحِى
أَلَسْتُمْ خيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا * وأَنْدَى العالَمِينَ بُطُونَ راحِ

ارتاح عبد الملك ، وكان متكئاً فاستوى جالساً ، وقال : من مدحَنا منكم فليمدحْنا بمثل هذا أو ليسكتْ ! ثم قال له : ياجرير، أترى أم حزرة تُرويها مائةُ ناقة من نعَم كلب؟ قال : إذالم تُرْوِها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله . فأمر له بمائة ناقه من نعم كلب . كلها سود الحدقة . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنها أبّاق ونحن مشايخ وليس بأحدنا فضل عن راحلته ، فلو أمرتَ بالرِّعاء . فأمر له بثمانية من الرعاء ، وكانت بين يدى عبد الملك صِحاف من فِضة يقرعها بقَضيب فى يده ؛ فقال له جرير : والمِحْلَبُ يا أمير المؤمنين ، وأشار إلى صَحفة منها ؛ فنبذها إليه بالقضيب ، قال : خُذها لا نفعتْكَ ! فنى ذلك يقول جرير .

أعطَوْا هُنَيْدَةَ يَحدُوها ثمانيةٌ ٭ ما فى عَطائهم مَنٌ ولا سَرفُ

وفود جرير عن أهل الحجاز

على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

قدم جرير بن الخطفى على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، عن أهل الحجاز ، فاستأذنه فى الشعر ، فقال : مالى وللشعر يا جرير؟ إنى لفى شغل عنه ! قال يا أمير المؤمنين ، إنها رسالة عن أهل الحجاز . قال : فهاتها إذاً . فقال :

كم من ضرير أميرَ المؤمنينَ لدَى ٭ أهلِ الحجازِ دهاهُ البؤسُ والضررُ
أصابتِ السَّنَةُ الشَّهباءُ ماملَكتْ ٭ يمينُه فحَناه الجهــدُ والكِبَرُ
ومن قَطيع الحَشا عاشتْ مُخَبَّأةً ٭ ماكانت الشمسُ تلقاها ولا القمرُ
لما اجتلتْها صُروفُ الدهرِ كارِهةً ٭ قامت تُنادى بأعْلَى الصوتِ : ياعمرُ !

وفود دكين الراجز

على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

قال دُكَين بن رجاء الفُقيمى الراجز : مدحتُ عمرَ بن عبد العزيز وهو والى المدينة ، فأمر لى بخمس عشرة ناقة كرائم صعابا ، فكرهت أن أرمى بها الفجاج فتنتشر علىّ ، ولم تَطِبْ نفسى ببيعها ، فقدمتْ علينا رُفقةٌ من مصر ، فسألتُهم

الصُّحبة ، فقالوا : إن خرجت الليلة . فقلت : إنى لم أودِّع الأمير ولا بدّ من وَداعِه . قالوا : فإن الأمير لا يُحجَبُ عن طارق ليل . فاستأذنت عليه ، فأذن لى وعنده شيخان لا أعرفهما . فقال لى : يادُكين ، إن لى نفساً توّاقة ، فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا فيه فبِعَيْنٍ ما أَرَيَنَّكَ . قلت له : أشهِد لى بذلك أيها الأمير . قال : إنى أشهد الله . قلت : ومن خَلْقِه ! قال : هذين الشيخين . قلت لأحدهما : من أنت يرحمك الله أعرِفْك ؟ قال : سالم بن عبد الله . فقلت : لقد استسمنتُ الشاهد . وقلت للآخر : من أنت يرحمك الله ؟ قال : أبو يحيى مولى الأمير . وكان مُزاحم يُكنى أبا يحيى . قال دُكين : فخرجت بهن إلى بلدى ، فرمى الله فى أذنابهن بالبركة ، حتى اتخذتُ منهن الضياع والرِّباع والغلمان . فإنى لبصحراء فَلْج ، إذا بَريد يركُض إلى الشام ، فقلت له : هل من مُغَرِّبَةِ خَبَر ؟ قال : مات سليمان بن عبد الملك . قلت : فمن القائم بعده ؟ قال : عمر بن عبد العزيز . قال : فأنخت قَلوصى فألقيتُ عليها أداتى وتوجهت عنده ؛ فلقيت جريراً فى الطريق جائياً من عنده ، فقلت : من أين أبا حَزْرة ؟ قال : من عند أميرٍ يعطى الفقراء ويمنع الشعراء . قلت : فما ترى فإنى خرجت إليه ؟ قال : عَوِّل عليه فى مال ابن السبيل كما فعلت . فانطلقتُ فوجدتُه قاعداً على كرسىّ فى عَرْصة داره ، قد أحاط الناس به . فلم أجد إليه سبيلا الوصول ، فناديتُ بأعلى صوتى :

يا عمَرَ الخيراتِ والمكارمْ ... وعمرَ الدَّسائعِ العظائمْ

إنى امْرُؤ من قَطَنِ بنِ دارِمِ ... أطلبُ حاجِى من أخى مَكارمِ

إذ نَنتَجِى والليلُ غيرُ نائم ... فى ظلمة الليل وليلى عاتم

عند أبى يحيى وعند سالمِ

فقام أبو يحيى ففرَّج لى ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا البدوىّ عندى شهادة عليك . قال : أعرفها ، آدْنُ منى يادكين ، أنا كما ذكرتُ لك أن لى نفساً توّاقة ، وأن نفسى تاقت إلى أشرف منازل الدنيا ، فلما أدركتُها وجدتُها تتوق إلى الآخرة ؛ والله ما رزأتُ من أمور الناس شيئاً فأُعطيك منه ، وما عِندى

إلا ألفا درهم ، أعطيك أحدَهما . فأمر لى بألف درهم . فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظمَ بركةً منها .

وفود كثير والأحوص ونصيب

على عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

حماد الراوية قال : قال لى كُثير عَزّة : ألا أخبرك عما دعانى إلى ترك الشعر ؟ قلت : نعم . قال : شخصتُ أنا والأحوص ونُصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكل واحد منا يُدلُّ عليه بسابقةٍ وإخاء قديم ، ونحن لا نشك أنْ سيشركنا فى خلافته ، فلما رُفعت لنا أعلامُ خُناصرة ، لَقِينا مسلمة بن عبد الملك ، وهو يومئذ فتى العرب ، فسلَّمنا فردّ ، ثم قال : أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر ؟ قلنا : ما تَوَضَّح إلينا خبر حتى انتهينا إليك . ووَجَمْنا وَجْمة عُرف ذلك فينا . فقال : إن يك ذو دِين بنى مروان قد وَلِىَ وخَشِيتم حرمانه ، فإن ذا دُنيانا قد بقى ، ولكم عندى ما تُحبون ، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهلُه .

فلما قدم كانت رحالُنا عنده بأكرمِ منزول عليه ؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيرُه ، فلا يؤذَن لنا ؛ إلى أن قلت فى جمعة من تلك الجمع لو أنى دنوت من عمر فسمعتُ كلامه فحفظتُه ، كان ذلك رأياً . ففعلت ، فكان مما حفظتُ من كلامه : « لكل سفر زاد لامحالة ، فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله له من ثوابه أو عقابه ، فترغبوا وترهبوا ، ولا يطولَنَّ عليكم الأمد فتقسوَ قلوبكم وتنقادوا لعدوّكم » فى كلام كثير لا أحفظه ، ثم قال : « أعوذ بالله أن آمركم بما أنهَى عنه نفسى ، فتخسر صفْقَتى ، وتظهر عَيْلتى ، وتبدو مَسكنتى ، فى يومٍ لاينفع فيه إلا الحق والصدق » ! ثم بكى حتى ظننتُ أنه قاضٍ نحبَه ، وارتجّ المسجدُ وماحوله بالبكاء ، وانصرفتُ إلى صاحبىّ فقلت لهما : خُذا فى شَرْجٍ من الشِّعر غير ما كُنا نقول لعُمَرَ وآبائه ؛ فإن الرجل آخرىٌّ وليس بدنيوى .

إلى أن استأذن لنا مسلمة فى يوم جُمعة بعد ما أُذن للعامة . فلما دخلتُ سلَّمت ثم قلت : يا أمير المؤمنين ، طال الثَّواء وقلَّت الفائدة ، وتحدث بجفائك إيانا وفودُ العرب . قال : يا كُثيِّر ، (إنما الصَّدَقاتُ لِلفُقَرَاءِ والمَسَاكِينِ والعَامِلِينَ عَلَيْهَا والمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وفى الرِّقَابِ والغَارِمِينَ وفى سَبِيلِ الله وابنِ السَّبِيلِ) أفى وَاحدٍ من هؤلاء أنت ؟ قلت : بلى ، ابن سبيلٍ منقطَع به ، وأنا صاحبك . ٥
قال : ألستَ صاحبَ أبى سعيد ؟ قلت : بلى ، قال : ما أرى ضيفَ أبى سعيد منقطَعا به .
قلت : يا أمير المؤمنين ، أتأذن لى فى الإنشاد ؟ قال : نعم ، ولا تقل إلا حقا .
فقلت :

وليتَ فلم تَشتُمْ عليًّا ولم تُخِفْ ٭ بَرِيًّا ولم تَقبَل إشـــارةَ مُجْرِمِ
وصَدَّقتَ بالفعلِ المَقال مع الذى ٭ أتيتَ فأمسى راضياً كلُّ مُسْلِمِ ١٠
ألا إنما يَكفى الفتى بعدَ زَيغِه ٭ منَ الأَوَدِ البـاقى ثِقافُ المُقوِّمِ
وقد لبِسَتْ لُبْسَ الهَلوك[1] ثيابَها ٭ تَراءى لك الدنيا بكَفٍّ ومِعْصم
وتُومِضُ أحيـاناً بعينٍ مريضةٍ ٭ وتَبسِمُ عن مثْلِ الجُمَانِ المنظَّمِ
فأعرَضْتَ عنهـا مُشمئزًّا كأنمـا ٭ سَقَتْك مَدُوفاً من سِمَامٍ وعَلْقَمِ
وقد كُنتَ من أجبالِها فى مُمَنَّعٍ ٭ ومن بحرِها فى مُزْبِدِ الموجِ مُفْعَمِ ١٥
ومازِلتَ تَوَّاقاً إلى كلِّ غاية ٭ بَلَغْتَ بهـا أعلى البنـاءِ المُقوَّمِ
فلما أتاك المُلْكُ عفواً ولم يكن ٭ لطالبِ دُنيا بَعدَهُ من تقدُّمِ
تَركْتَ الذى يَفنى وإن كان مُونقا ٭ وآثرْتَ مايَبقى برأى مُصمِّمِ
وأضرَرْتَ بالفانى وشَمَّرْتَ للذى ٭ أمامَك فى يومٍ من الشرِّ مُظْلِمِ
ومالك إذ كنتَ الخليفةَ مانعٌ ٭ سوى اللهِ من مالٍ رَغيبٍ ولا دمِ
سَما لك هَمٌّ فى الفؤادِ مُؤَرِّقٌ ٭ بَلَغْتَ به أعلى المعالى بسُلَّمِ
فما بين شرْقِ الأرضِ والغربِ كلِّها ٭ مُنادٍ يُنادى من فصيحٍ وأعْجَمِ

(١) الهلوك : البغى.

يقول أميرَ المؤمنين ظلَمْتَنى * بأخذِ لدينارٍ ولا أخذِ درهمِ
ولا بَسْطَ كَفٍّ لامرئ غيرِ مُجرِمِ * ولا السَّفكِ منه ظالمًا ملءَ مِحْجَمِ
ولو يَستطيعُ المسلمونَ لقَسَّموا * لك الشَّطرَ من أعمارِهم غيرَ نُدَّمِ
فأربِحْ بها مِن صَفْقةٍ لِمُبايعٍ * وأعْظِمْ بها أعظِم بها ثم أعظِمِ

٥ قال : فأقبل علىّ وقال : إنك مسئول عما قلت . ثم تقدم الأحوص فاستأذنه فى الإنشاد ، فقال : قل ، ولا تقل إلا حقًّا . فقال :

وما الشِّعرُ إلا حكمةٌ من مُؤلِّفٍ * بمنطِقِ حَقٍّ أو بمنطِقِ باطلِ
فلا تقبلَنْ إلا الذى وافقَ الرِّضا * ولا ترْجِعنَّا كالنِّساءِ الأراملِ
رأيناكَ لم تَعدِلْ عن الحقّ يَمْنةً * ولا شأْمَةً فعلَ الظَّلومِ المخاتِلِ
١٠ ولكن أخذْتَ الحقّ جُهْدَك كلَّه * تَقُدُّ مثال الصالحين الأوائِلِ
فقلْنا ولم نُكذَبْ بما قد بدا لنا * ومَن ذا يَرُدُّ الحقَّ مِن قول قائلِ
ومَن ذا يَرُدُّ السَّهمَ بعدَ مَضائِه * على فُوقِه إذ عارَ مِن نَزْعِ نابلِ
ولولا الذى قد عوَّدَتْنا خلائفٌ * غَطارِيفُ كانوا كاللُّيوثِ البواسلِ
لما وخَدَتْ شهراً برَحْلى شِمِلَّةٌ * تَقُدُّ متانَ البِيدِ بين الرَّواحِلِ
١٥ ولكن رَجَوْنا منك مثل الذى به * حُبِينا زَماناً من ذَويك الأوائلِ
فإن لم يكن للشِّعر عندَك موْضعٌ * وإن كان مثل الدُّرِّ فى نَظْمِ قائلِ
وكان مُصيباً صادقا لا يعيبُه * سوى أنه يُبْنَى بِناءَ المنازلِ
فإن لنا قُرْبَى ومَحْضَ مَودَّة * وميراثَ آباءٍ مشَوْا بالمَناصِلِ
فذادُوا عدوّ السلْمِ عنْ عُقْرِ دارهم * وأرْسَوْا عمودَ الدينِ بعدَ التَّمايُلِ
٢٠ وقبلَكَ ما أعطَى الهنيدة جِلَّةً * على الشعرِ كَعْبا مِن سَدِيس وبازِلِ
رسولُ الإلهِ المُستضاءُ بنورِهِ * عليه سَلامٌ بالضُّحى والأصائِلِ

فقال : إنك مسئول عما قلت . ثم تقدم نصيب فاستأذنه فى الإنشاد ؛ فلم

يأذن له ، وأمره بالغزو إلى دابق . فخرج إليها وهو محموم . وأمر لى بثلثمائة ، وللأحوص بمثلها ، ولنُصيب بمائة وخمسين .

وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز

رضى الله عنه

ابن الكَلْبى : لما استُخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله ؛ فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول ، حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[1] على عمر بن عبد العزيز ، وعليه عمامة قد أرخى طرفها ، وكانت له منه مكانة ، فقال جرير :

يأيها الرَّجُلُ المُرْخى عمامته[2] * هذا زمانُكَ إنى قد مَضى زَمَنى

أَبلِغ خَليفتَنا إن كنتَ لاقِيَهُ * أنى لَدى الباب كالمَصفودِ فى قَرَنِ

وحْش المَكانةِ من أهلى ومن ولَدى * نائى المحَلَّةِ عن دارى وعن وطنى

قال : نعم أبا حَزْرة ونُعْمَى عين . فلما دخل على عمر قال : يا أمير المؤمنين ، إن الشعراء ببابك ؛ وأقوالهم باقية ؛ وسهامهم مسنونة . قال : يا عون ، مالى وللشعراء ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن النبى صلى الله عليه قد مُدِح وأعطى ، وفيه أسوة لكل مُسلم . قال : ومن مدحه ؟ قال : عباس بن مرداس ؛ فكساه حُلةً قَطَع بها لسانه . قال : وتَرْوِى قوله ؟ قلتُ : نعم :

رأيتُك يا خيْرَ البَرِيَّةِ كلِّها * نَشَرْتَ كتاباً جاء بالحقِّ مُعْلِما

ونوَّرْت بالبرهانِ أمراً مُدَمَّساً * وأطفأتَ بالبرهانِ ناراً مُضَرَّما

فمَنْ مُبْلغٌ عنى النبيَّ محمداً * كلُّ امرئٍ يُجزى بما قد تَكلما

تعالَى عُلوًّا فوْقَ عَرشٍ إلٰهُنا * وكان مكانُ اللهِ أعْلى وأعْظَما

قال : صدقت ؛ فمن بالباب منهم ؟ قال : ابن عمك عمر بن أبى ربيعة . قال :

---

(١) فى بعض الأصول : « عدى بن أرطاة » .

(٢) فى بعض الأصول : « المزجى مطيته » .

لا قرّب الله قرابته ، ولا حيّا وجهه ! أليس هو القائل ؟

ألا ليت أنّي يومَ حانتْ منيّتي * شَمِمْتُ الذى ما بين عينيكِ والفَمِ
وليت طَهوري كان رِيقَكِ كلّه * وليت حَنوطى من مُشَاشِكِ والدمِ
ويا ليت سَلْمى فى القبورِ ضَجيعتى * هنـالِكَ أو فى جنةٍ أو جهنمِ

٥ فليته والله تمنى لقاءها فى الدنيا ، ويعمل عملا صالحا . والله لا دخل علىّ أبداً . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : جميل بن معمر العذرى . قال : هو الذى يقول :

ألا لَيْتنا نَحْيا جميعاً وإنْ نَمُتْ * يُوافِى لدى المَوْتَى ضريحى ضريحُها
فما أنا فى طولِ الحياةِ براغِبٍ * إذا قيل قد سُوِّى عليها صفيحُها
١٠ أظَلُّ نهارِى لا أراها ويَلْتَقى * مع الليلِ رُوحى فى المنامِ ورُوحُها

أعزُبِ به ؛ فوالله لا دَخل علىّ أبدا . فَمَنْ غيرُ مَنْ ذكرْت ؟ قلت : كُثيِّر عزة . قال : هو الذى يقول :

رُهبانُ مَدْيَنَ والذين عَهِدْتُهُمْ * يبكون من حذَرِ العذابِ قُعودَا
لو يسمعون كما سمعتُ حديثها * خَرّوا لِعَزّةَ راكعين سُجُودَا

١٥ أعزُبْ به . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : الأحوص الأنصارى . قال : أبْعَده الله وسحقَه ، أليس هو القائل وقد أفسد على رجلٍ من أهل المدينة جاريةً هرب بها منه :

اللهُ بينى وبين سيدِها * يَفِرُّ عنى بها وأتّبِعُ

أعزب به . فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : همام بن غالب الفرزدق .
٢٠ قال : أليس هو القائل يفخر بالزنا :

هُما دَلّتانى من ثمانين قامةً * كما انْقضّ بازٍ أقتمُ الرِّيشِ كاسِرُهْ
فلما استوتْ رِجلاىَ فى الأرضِ قالتا * أحَىٌّ يُرَجّى أم قتيلٌ نُحاذِرُهْ
وأصبحْتُ فى القومِ الجلوسِ وأصبحتْ * مُغَلَّقةً دونى عليها دَساكِرُهْ

فقلتُ ارْفعوا الأسبابَ لا يشعُروا بنا * ووَلَّيْتُ فى أعقابِ ليــلٍ أُبادِرُهْ

اعزب به . فوالله لا دَخَلَ علىّ أبدا ، فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : الأخطل التغلبى . قال : أليس هو القائل :

فلستُ بصائمٍ رمضانَ عُمرى * ولستُ بآكِلٍ لحمَ الأضاحى

ولست بزاجرٍ عَنْساً بُكوراً * إلى بَطْحــاءِ مكة للنَّجاحِ ٥

ولستُ بقائمٍ كالعَــيْرِ يدعو * قُبَيْلَ الصبحِ حىّ على الفلاحِ

ولكنى سأشربُها شَمولًا * وأسجدُ عنــد مُنبلَجِ الصباحِ

آعزب به . فوالله لا وَطِئَ لى بِساطا أبداً وهو كافر ؛ فمن بالباب غير من ذكرت ؟ قلت : جرير بن الخَطَفى . قال : أليس هو القائل :

لولا مُراقبةُ العيونِ أرَيْنَنا * مُقَــلَ المَها وسَوالفَ الآرامِ ١٠

هل يَنْهَيَنَّكَ أنْ قَتَلْنَ مُرَقِّشاً * أوْ ما فَعَلْنَ بِعُرْوَةَ بنِ حزامِ

ذُمَّ المَنازِلَ بَعــدَ منزِلةِ اللِّوَى * والعيشَ بَعدَ أولئِكَ الأقوامِ

طرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا * حينَ الزِّيارةِ فارجِعِى بسَلامِ

فإن كان ولا بد فهذا . فأذِن له ؛ فخرجتُ إليـه فقلت : ادخل أبا حَزرة . فدخل وهو يقول : ١٥

إن الذى بعث النبىّ محمــداً * جعـل الخِلافة فى إمامٍ عادِلِ

وَسِع الخـلائقَ عَدْلُهُ ووفاؤهُ * حتى ارْعَوى وأقام ميلَ المـائلِ

واللهُ أنزل فى القرانِ فريضة * لابنِ السبيلِ وللفقيرِ العـائلِ

إنى لأرجو منكَ خيراً عاجلا * والنَّفْسُ مولعَةٌ بحبِّ العاجلِ

فلما مثل بين يديه قال : اتق الله ياجرير ولا تقُل إلا حقا . فأنشأ يقول : ٢٠

كم باليمـامةِ من شَعثاء أرْمَلةٍ * ومن يتيم ضعيفِ الصوتِ والنظرِ

ممن يَعُـدُّكَ تكفى فَقْـدَ والِدِه * كالفَرْخِ فى العشِّ لم يَنْهَضْ ولم يَطِرِ

يدعوكَ دعوةَ ملهوفٍ كأنّ به * خَبْلًا من الجنّ أو مَسًّا من النَّشَرِ

خليفةَ اللهِ ماذا تأمُرَنّ بِنَا ﴿ لسْنا إليكُم ولا فى دارِ مُنْتظَرِ
ما زِلْتُ بعْدَكَ فى همٍّ يُؤرِّقُنى ﴿ قدطالَ فى الحىِّ إصعادِى ومُنْحدَرِى
لاينْفَعُ الحاضِرُ المجْهُودُ بادِيَنا ﴿ ولا يعُودُ لنا بادٍ على حضَرِ
إنّا لَنَرْجُو إذا ما الغيثُ أخلَفنا ﴿ مِنَ الخليفَةِ ما ترْجو مِنَ المطَر
نال[1] الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَراً ﴿ كما أتى ربَّهُ موسى على قدَرِ
هٰذِى الأراملُ قد قضَّيْتَ حاجَتَها ﴿ فمن لِحاجَةِ هذا الأرمَلِ الذّكَرِ

فقال : يا جرير ، والله لقد وَلِيت هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة ، فمائة أخذها عبد الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية .

فقال : والله يا أمير المؤمنين ، إنها لأحبّ مال إلىّ كسبته . ثم خرج ، فقالوا له : ما وراءك ؟ قال ما يسوءكم ! خرجتُ من عند أمير يعطِى الفقراء ويَمْنَعُ الشعراء ، وإنى عنه لراض . ثم أنشأ يقول :

رأيتُ رُقَى الشيطانِ لا تَسْتَفِزُّهُ ﴿ وقد كان شيْطانِى من الجنّ راقيا

وفود نابغة بنى جعدة

على ابن الزبير رحمه الله تعالى

الزبير بن بكار قاضى الحرمين ، قال : أقحمت السَّنةُ نابغة بنى جعدة ، فوفد إلى ابن الزّبير ، فدخل عليه فى المسجد الحرام ، ثم أنشده :

حَكَيْتَ لنا الصِّدِّيقَ لمّا وليَتَنا ﴿ وعُثْمانَ والفاروقَ فارْتاحَ مُعْدِمُ
وسوَّيْتَ بينَ الناسِ فى الحقِّ فاسْتَوَوْا ﴿ فعاد صباحاً حالِكُ اللّوْنِ مُظْلِمُ
أتاكَ أبو ليْلَى يَجُوبُ به الدُّجى ﴿ دُجَى الليلِ جوَّابُ الفلاةِ عَثَمْثَمُ[2]
لتَجْبُرَ مِنْهُ جانِباً زعْزَعَتْ به ﴿ صُرُوفُ الليالى والزّمانُ المُصَمِّمُ

(١) فى بعض الأصول : « أتى الخلافة أو . . . »
(٢) العثمثم : الجمل الشديد .

فقال له ابن الزبير : هوّن عليك أبا ليلى ، فالشعر أدنى وسائلك عندنا ؛ أما صفوة أموالنا فلآل الزبير ، وأما عفوته فإن بنى أسد وتيمًا تشغلها عنك ، ولكنْ لك فى مال الله سهمان : سهم برُؤيتك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، وسهم بشركتك المسلمين فى فيئهم . ثم أخذ بيده ودخل به دار النَّعم ، فأعطاه قلائص سبعاً ، وجملا رحيلا ، وأوقر له الركاب بُرًّا وتمراً وثيابا . فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحَبّ صِرْفا . فقال ابن الزبير : ويح أبى ليلى ! لقد بلغ به الجهد . قال النابغة : أشهدُ لسَمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما وُلّيتْ قريش فعدلتْ، واستُرحمت فرحمت ، وحدثت فصدقت ، ووعدت خيراً فأنجزت ، فأنا والنبيون فُرّاطُ القاصفين .

قال الزبير بن بكار : الفارط : الذى يتقدم إلى الماء يصلح الرِّشاء والدِّلاء والقاصف : الذى يتقدم لشراء الطعام .

وفود أهل الكوفة

على ابن الزبير رحمه الله تعالى

قال : لما قتَل مصعبُ بن الزبير المختارَ بن أبى عُبيد ، خرج حاجّا فقدم على أخيه عبد الله بن الزُّبير بمكة ومعه وجوه أهل العراق ، فقال له : يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق ، لم أدع لهم بها نظيراً ، لتُعطيهم من هذا المال . قال: جئتَنى بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله . والله لا فعلت . فلما دخلوا عليه وأخذوا مجالسهم ، قال لهم : يأهل الكوفة ، وددْت والله أن لى بكم من أهل الشام صرْفَ الدينار والدرهم ، بل لكل عشرة رجلا . قال عُبيد الله بن ظبيان : أتدرى يا أمير المؤمنين ما مَثَلنا ومثلك فيما ذكرت ؟ قال : وما ذلك ؟ قال : فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال أعشى بكر بن وائل :

عُلِّقْتُها عرَضاً وعُلِّقتْ رجُلاً ٭ غيرى وعُلِّقَ أُخرى غيرَها الرَّجُلُ

أحببناك نحن ، وأحببتَ أنت أهلَ الشام ، وأحبَّ أهلُ الشام عبدَ الملك .

ثم انصرف القومُ من عنده خائبين . فكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمُصعب بن الزبير .

وفود رؤبة على أبى مسلم

الأصمعى قال [1] : حدثنا رؤبة قال : قدمت على أبى مسلم صاحب الدعوة، فأنشدته ، فنادانى : يارؤبة ، فنوديتُ له من كل مكان : يارؤبة ! فأجبْتُ :

لبَّيْكَ إذْ دعوْتنى لبَّيْكا * أحْمَدُ ربًّا ساقَنى إليْكا

الحَمْدُ والنِّعْمَةُ فى يدَيْكا

قال : بل فى يَدَى اللهِ عز وجل . قلت : وأنت لما أنعمتَ حُمِدت . ثم استأذنت فى الإنشاد فأذن لى ، فأنشدته :

ما زال يأتِى المُلْكَ من أقطارِهِ * وعنْ يَمينِهِ وعنْ يساره

مُشَمِّراً لا يصْطلى بِنارِهِ * حتى أقرَّ المُلْكَ فى قرارِهِ

فقال : إنك أتيتنا وقد شفَّ المال وآستنفضه الإنفاق ، وقد أمرْنا لك بجائزة وهى تافهة يسيرة ، ومنك العَوْد وعلينا المعوَّل ، والدهر أطرقُ مُستتبّ ، فلا تُلق بجنبيك الأسدّة .

قال : فقلت : الذى أفادنى الأمير من كلامه أحبُّ إلىّ من الذى أفادنى من ماله .

وفود العتابى على المأمون

الشَّيبانى قال : كان كُلثوم العتابى أيام هارون الرشيد فى ناحية المأمون ، فلما خرج إلى خراسان شيّعه إلى قُومِس حتى وقف على سِنداد كسرى ، فلما حاول وداعه قال له المأمون : لا تَدَع زيارتنا إن كان لنا من هذا الأمر شيء . فلما أفضتْ الخلافة إلى المأمون وفد إليه العتّابى زائراً ، فحُجِب عنه ، فتعرّض

(١) انظر ص ٢٤٦ من هذا الجزء . وفى بعض الخبر اختلاف .

ليحيى بن أكثم فقال : أيها القاضى ، إن رأيت أن تذكّر بى أمير المؤمنين . فقال له يحيى : ما أنا بالحاجب . قال له : قد علمتُ ، ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوان . فدخل على المأمون فقال : يا أمير المؤمنين ، أجِرْنى من العتابى ولسانه فلم يأذن له وشُغِل عنه ، فلما رأى العتابى جفاءه قد تمادى . كتب إليه :

ما علَى ذا كُنا افترقنا بِسِنْدا ٭ دَ ولا هكذا رأينا الإخاء ٥

لم أكن أحسبُ الخِلافةَ يَزْدا ٭ دُ بها ذو الصفاءِ إلا صَفاء

تَضرِبُ الناسَ بالمُثقَّفةِ السُّمْـ ٭ ـرِ على غَدْرِهِمْ وتَنْسى الوفاء

فلما قرأ أبياته دعا به ، فلما دنا منه سلَّم بالخلافة ووقف بين يديه ، فقال : ياعتّابى ، بلغتْنا وفاتُك فغمّتْنا ، ثم انتهت إلينا وفادتُك فسرّتنا . فقال : ياأمير المؤمنين ، لو قُسِم هذا البِرُّ على أهل منًى وعرفات لوسِعَهم ؛ فإنه لا دين إلا بك ، ولا دُنيا إلا معك ! قال : سل حاجتك . قال : يدُك بالعطية أطلقُ من لسانى بالمسألة . فأحسن جائزته . وانصرف . ١٠

وفود أبى عثمان المازنى على الواثق

أبو عثمان بكر بن محمد قال : وفدت على الواثق ، فلما دخلت وسلمت قال : هل خلّيتَ وراءك أحداً يُهمك أمرُه ؟ قلت أُخَيّة لى ربّيتُها فكأنها بنتى . قال : ليت شعرى . ما قالت حين فارقتَها ؟ قال : أنشدتْنى قول الأعشى : ١٥

تقول ابنتى يومَ جَدّ الرحيلُ ٭ أرانا سَواءً ومَن قد يَتِمْ

أبانا ، فلا رِمْتَ من عندِنا ٭ فإنا نخافُ بأن تُخْتَرَمْ

أرانا إذا أضْمَرَتْك البِلا ٭ دُ نُجْفَى وتُقْطَعُ مِنّا الرَّحِمْ

قال : ليت شعرى ، ماقلتَ لها ؟ قال : أنشدتُها يا أمير المؤمنين قولَ جرير : ٢٠

ثِقِى باللهِ ليس له شريكٌ ٭ ومن عندِ الخليفةِ بالنَّجاحِ

قال : أتاك النجاح . وأمر له بعشرة آلاف درهم . ثم قال : حدّثنى حديثاً ترويه عن أبى مهديّة مُستطرَفا . قلت : يا أمير المؤمنين ، حدثنى الأصمعى قال :

قال لى أبو مهدية : بلغنى أن الأعراب والأعزاب سواء فى الهجاء . قلت : نعم . قال : فاقرأ : ﴿الأعزابُ أشدُّ كُفْراً ونِفاقا﴾ ولا تقرأ : الأعراب ، ولا يغرَّنّك العَزَب وإن صام وصلى ! فضحك الواثق حتى شغر برجله ، وقال : لقد لقى أبو مهدية من العزْبة شرا . وأمر لى بخمسمائة دينار .

٥ الوافدات على معاوية

وفود سودة ابنة عمارة على معاوية

عامر الشعبيّ قال : وفدت سودةُ بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية ابن أبى سفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلّمت عليه ، فقال لها : كيف أنتِ يابنةَ الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال لها : أنت ١٠ القائلة لأخيك :

شَمِّرْ كفعْـلِ أبيك يابن عِمارةٍ * يومَ الطِّعانِ ومُلتقى الأقرانِ

وانصُر عليًّا والحسيْن ورَهطَه * واقصِدْ لهِنـدٍ وابنِها بهَوَانِ

إنّ الإمامَ أخا النبيِّ محمـــدٍ * عَلَمُ الهـدَى ومنارة الإيمـانِ

فقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمامَ لوائه * قدُماً بأبيضَ صارم وسِنانِ

١٥ قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبُتِر الذنب ؛ فدَعْ عنك تَذْكارَ ماقد نُسِى . قال : هيهات ، ليس مثلُ مقامِ أخيـكِ يُنْسى . قالت : صدقتَ والله يا أميرَ المؤمنين ، ماكان أخى خفىَّ المَقام ، ذليلَ المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإنّ صخراً لَتأتَمُّ الهُداةُ بِهِ * كأنّه عَلَمٌ فى رأسِه نارُ

وبالله أسألُ يا أميرَ المؤمنين إعفائى ممـا استعفيتُه . قال : قد فعلتُ ، فقولى ٢٠ حاجتَك . قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأمورهم مقلَّد ، والله سائلُك عما افترض عليـك من حقّنا ، ولا تزال تُقْـدِم علينا مَن ينهض بعزِّك ، ويَبسط سلطانَك ، فيحصدنا حِصادَ السُّنبل ، ويدوسنا دِياس البقر ، ويسومنا الخَسيسة ، ويسألنا الجليـلة ؛ هـذا ابنُ أرطاةَ قدم بلادى ، وقتـل رجالى ،

وأخذ مالى ، ولولا الطاعةُ لكان فينا عِزٌّ ومَنَعة ، فإما عزلتَه فشكرناك ، وإما لا فعرَفناك !

فقال معاوية : إياى تُهَدِّدين بقومك ؟ والله لقد هممتُ أن أردَّك إليه على قَتَب أشرَس فينفِّذَ حُكمَه فيك . فسكتت ، ثم قالت :

صلّى الإلهُ على رُوحٍ تَضَمَّنَهُ ۝ قبرٌ فأصبحَ فيه العَدْلُ مدفونا ٥

قد حالَفَ الحقّ لا يَبغِى به ثمناً ۝ فصار بالحقِّ والإيمانِ مقرُونا

قال : ومَن ذلك ؟ قالت : علّى بن أبى طالب رحمه الله تعالى . قال : ما أرى عليك منه أثراً ! قالت : بلى ، أتيتُه يوما فى رجُل ولاه صدقاتنا فكان بيننا وبينه مابين الغَثّ والسمين ، فوجدته قائما يصلى ، فانفتل من الصلاة ثم قال برأفة وتعطّف : ألكِ حاجة ؟ فأخبرتُه خبرَ الرجل . فبكى ، ثم رفع يديه إلى السماء ، ١٠ فقال : اللهم إنى لم آمرهم بظُلم خلقك ، ولا تَرْك حقّك . ثم أخرج من جيبه قطعةً من جراب فكتب فيه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تَعثَوا فى الأرض مفسدين ، بقيةُ اللهِ خيرٌ لكمْ إن كنتم مُؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . إذا أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يديك حتى ١٥ يأتى من يقبضه منك . والسلام ﴾ .

فعزله يا أمير المؤمنين . ما خزَمَه بخِزام ، ولا خَتَمه بختام .

فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها . فقالت : ألِى خاصّةً أم لقومى عامة ؟ قال : وما أنتِ وغيرك ؟ قالت : هى والله إذاً الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يَسَعنى ما يَسَعُ قومى . قال : هيهات ! لَمَّظكُم ابن ٢٠ أبى طالب الجرأة على السلطان ، فبطيئا ما تُفْطمون ، وغركم قوله :

فلو كنت بوَّاباً على بابِ جَنَّةٍ ۝ لقُلْتُ لهَمْدانَ ادخُلوا بسَلامِ

وقوله :

ناديْت هَمْدانَ والأبواب مُغْلَقةٌ ۝ ومثْلُ هَمْدانَ سَنَّى فتحةَ الباب

كالهُنْدُوانىّ لم تُفْلَلْ مضارِبُه * وجهٌ جميلٌ وقلبٌ غيرُ وجّابِ

اكتبوا لهـا بحاجتها .

وفود بكارة الهلالية على معاوية

محمد بن عبد الله الخُزاعى عن الشّعبى قال : استأذنتْ بَكّارةُ الهلاليـةُ على
٥ معاوية بن أبى سفيان ، فأذن لها ، وهو يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت
آمرأة قد أسَنّتْ وعَشِىَ بصَرُها وضعُفت قُوتها ، تَرْعَش بين خادمين لها ؛ فسلّمت
وجلست . فردّ عليها معاوية السلام ، وقال : كيف أنت يا خالة ؟ قالت : بخير
يا أمير المؤمنين . قال : غيّرَكِ الدهر ! قالت . كذلك هو ذو غِيَر ، من عاش كَبِر
ومن مات قُبِر . قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

١٠ يا زيدُ دونكَ فاستسر [1] مِنْ دارنا * سيفاً حُساماً فى التُّرابِ دفينـا
قد كنتُ أذْخَرُهُ لِيَوْمِ كَرِيهـةٍ * فاليومَ أبرَزَهُ الزمانُ مَصونا

قال مروان : وهى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أتُرى ابن هنْدٍ للخلافةِ مالِكا * هيهات ذاكَ وإنْ أرادَ بَعيدُ
مَنَّتْكَ نفسُكَ فى الخلاءِ ضلالةً * أغْراك عمْرو للشقا وسعيدُ

١٥ قال سعيد بن العاصى : هى والله القائلة :

قد كنتُ أَطْمَعُ أنْ أموتَ ولا أرَى * فوقَ المنـابِرِ مِنْ أُمَيَّةَ خاطِبا
فالله أخّـرَ مُـــدّتى فتطاولتْ * حتى رأيتُ مِنَ الزمانِ عجائبا
فى كلِّ يومٍ للزمانِ خَطِيبُهُمْ * بينَ الجميعِ لآلِ أحمـــدَ عائبا

ثم سكتوا . فقالت : يا معاوية ، كلامك أعشى بصرى وقصّر حُجّتى ، أنا والله
٢٠ قائلة ما قالوا ، وما خَفِىَ عليك منى أكثر . فضحك وقال : ليس يمنعنا ذلك من
برِّك . اذكرى حاجتك قالت : أمّا الآن فلا .

(١) فى بعض الأصول : « فاحتفر » .

وفود الزرقاء على معاوية

عبيد الله بن عمرو الغسّانى عن الشَّعبى قال : حدّثنى جماعة من بنى أُميـة ممن كان يسْمُر مع معاوية قالوا : بينما معاوية ذات ليلة مع عمرو وسَعيد وعُتبة والوليد ، إذ ذكروا الزرقاء ابنة عدى بن غالب بن قيس الهمدانية ، وكانت شَهِدت مع قومها صِفّين ، فقال : أيُّكم يحفظ كلامَها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين . ٥ قال : فأشيروا علىّ فى أمرها . فقال بعضهم : نشير عليك بقتلها . قال : بئس الرأىُ أشرْتُم به علىّ : أيَحسُنُ بمثلى أن يُتحدَّثَ عنه أنه قَتَل امرأةً بعد ما ظَفِر بها .

فكتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارِمها وعِدّةٍ من فُرسان قومِها ، وأن يُمهّد لها وِطاءً لينا ، ويسترَها بستر خَصِيف ، ويُوسّع ١٠ لها فى النفقة ؛ فأرسل إليها عاملَه فأقرأها الكتاب ، فقالت : إن كان أمير المؤمنين جعل الخيارَ إلىّ فإنى لا آتيه ، وإن كان حَتَم فالطاعة أوْلى . فحَمَلها وأحسنَ جهازَها على ما أمر به .

فلما دخلت على معاوية قال : مرحباً وأهلا ، قدمتِ خيرَ مَقْدَمٍ قَدِمَه وافد ! كيف حالك ؟ ١٥

قالت بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة .

قال : كيف كنتِ فى مَسيرك ؟ قالت : ربيبةَ بيت أو طفلًا مُمهداً .

قال : بذلك أمرناهم ؛ أتدرين فيم بعثتُ إليك ؟ قالت : أنى لى بعلم مالم أعلم . قال : ألستِ الراكبةَ الجملَ الأحمر ، والواقفة بين الصفَّين يوم صفّين تحُضّين على القتال وتُحمّين الحرب ؟ فما حَمَلَك على ذلك ؟ ٢٠

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبُتِر الذنب ، ولم يَعُدْ ماذَهَب ، والدهر ذو غِيَر ، ومن تَفكّر أبصر ، والأمر يَحدُث بعده الأمر .

قال لها معاوية : صدقت ، أتحفظين كلامك يومئذ ؟

قالت : لا والله لا أحفظه ، ولقد أُنْسِيتُه .

قال : لكنى أحفظه ، لله أبوك حين تقولين : أيها الناس ، ارْعَوُوا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غَشَّتْكم جلابيبَ الظُّلَم ، وجارتْ بكم عن قصد المَحَجَّة ، فيالها فتنةً عمياء ، صماء بكماء ، لا تَسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها ، إن المصباح لا يُضىء فى الشمس ، ولا تُنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديدَ إلا الحديد ، ألَا مَن استرشدَنا أرشدناه ، ومن سألَنا أخبرْناه . أيها الناس ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغُصَص ، فكأنْ قد اندملَ شَعْبُ الشتاتِ ، والتأمت كلمةُ العدل ، ودمَغَ الحقُّ باطله ؛ فلا يجهلنَّ أحدٌ فيقول : كيف العدل وأنى ؟ ليقْضِ الله أمراً كان مفعولا . ألَا وإنّ خضابَ النساءِ الحِنّاء ، وخضابَ الرجالِ الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده :

« والصبرُ خيرٌ فى الأمورِ عواقباً »

إيهاً فى الحرب قُدُماً غير ناكصين ولا متشاكسين .

ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد شَرِكْت عليّا فى كل دمٍ سَفكَهُ .

قالت : أحسنَ اللهُ بِشارتَك ، وأدام سلامتَك ؛ فمثلُك بَشَّر بخيرٍ وسَرَّ جليسَه .

قال أو يَسُرُّك ذلك ؟ قالت : نعم والله ، لقد سُررت بالخبر فأنَّى لى بتصديق الفعل .

فضحك معاوية وقال : والله لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ من حُبكم له فى حياته . اذكرى حاجتك .

قالت يا أمير المؤمنين ، آليت على نفسى ألّا أسألَ أميرا أعَنْتُ عليه أبدا ، ومثلُكَ أعطى عن غير مسألة ، وجاد عن غير طِلْبة .

قال : صدقت ! وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا .

وفود أم سنان بنت خيثمة

على معاوية رحمه الله

سعيد بن حُذافة قال : حبَس مروانُ بن الحكم وهو والى المدينة غلاما من بنى ليث فى جِناية جناها ، فأتته جدةُ الغلام أمُّ أبيه ، وهى أم سنان بنت خَيثمة ابن خرشة المذحِجية ، فكلّمته فى الغلام فأغلظ لها مروان . فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مَرْحبا يا بنة خيثمة ، ما أقْدَمك أرضنا وقد عهدتُك تشتمينا وتَحُضّين علينا عدوّنا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة وأعلاما ظاهرة وأحلاما وافرة ، لا يجْهلون بعد علم ، ولا يسفَهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع ماسنّ آباؤه لأنت . قال : صدقت ! نحن كذلك ، فكيف قولك :

عزبَ الرُّقادُ فَمُقْلتى لا تَرْقُدُ ... والليْلُ يصْدِرُ بالهُمومِ ويُورِدُ
يا آلَ مَذْحِجَ لامُقَامَ فشَمِّرُوا ... إنّ العدُوَّ لآلِ أحْمدَ يقْصِد
هـذا عَلِى كالهِلالِ تَحُفُّـهُ ... وسطَ السَّماءِ منَ الكواكِبِ أسْعُدُ
خيْرُ الخلائقِ وابنُ عمِّ مُحَمّدٍ ... إنْ يَهدِكم بِالنُّورِ منهُ تهتَدُوا
ما زالَ مُذْ شَهِدَ الحُرُوبَ مُظَفَّرًا ... والنَّصْرُ فوْق لِوَائِه ما يفْقَدُ

قالت : كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلَفا بعده فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين وهى القائلة :

إمّا هَلكْتَ أبَا الحُسَيْنِ فلم تزَلْ ... بالحقِّ تُعْرَفُ هادِيًا مهْدِيا
فاذْهبْ عليْكَ صلاةُ ربِّكَ مادعتْ ... فوقَ الغُصُونِ حمامةٌ قُمْرِيّا
قدْ كُنْتَ بعْدَ مُحَمّدٍ خلَفًا كَمَا ... أوْصَى إليكَ بنَا فكنْتَ وفِيّا
فاليومَ لا خَلَفٌ يُؤَمَّلُ بعْدَهُ ... هيْهات نأمُلُ بعـدَهُ إنْسِيّا

قالت : يا أمير المؤمنين ، لسان نطق ، وقول صدق ؛ ولئن تحقق فيك ماظننّا لحظك الأوفر . والله ما ورثك الشّنآن فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء . فأدحِضْ

مقالتهم ، وأبعِد منزلتهم ، فإنك إن فعلتَ ذلك تزددْ من الله قُربا ، ومن المؤمنين حُبا . قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت سبحان الله ! والله ما مِثلُك مُدِح بباطل ، ولا اعتُذِر إليه بكذب ؛ وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضميرِ قلوبنا . كان والله عليٌّ أحبَّ إلينا منك ، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك . قال : ممن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبِمَ استحققتُ ذلك عندك ؟ قالت : بسعَةِ حلمك وكريم عفوك . قال : فإنهما يطمعان فى ذلك . قالت : هما والله من الرأى على ما كنتَ عليه لعثمان بن عفان رحمه الله . قال : والله لقد قاربْتِ ، فما حاجتك ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، إن مروان تبَنّكَ بالمدينة تبنكَ مَن لا يريد منها البَراح ؛ لا يحكم بعدل ، ولا يقضى بسُنّة ، يتتبع عثَراتِ المسلمين ، ويكشف عوراتِ المؤمنين ، حبس ابنَ ابنى ، فأتيته ، فقال كيت وكيت فألقَمْتُهُ أخشنَ من الحجر ، وألعقتُه أمرَّ من الصَّاب ثم رجعتُ إلى نفسى باللائمة ، وقلت : لِمَ لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه ؟ فأتيتُك يا أميرَ المؤمنين ، لتكون فى أمرى ناظراً ، وعليه مُعْدِياً .

قال : صدقت ! لا أسألكِ عن ذنبه والقيام بحجته . اكتبوا لها بإطلاقه .

قالت : يا أمير المؤمنين ؛ وأنّى لى بالرجعة وقد نفِد زادى ، وكلَّت راحلتى ؟ فأمر لها براحلة وخمسة آلاف درهم .

وفود عكرشة بنت الأطرش

على معاوية رحمه الله تعالى

أبو بكرٍ الهذلى عن عِكرمة قال : دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكّئة على عُكاز لها ، فسلّمت عليه بالخلافة ثم جلست ؛ فقال لها معاوية : الآن يا عكرشةُ صرتُ عندك أميرَ المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إذ لا علىٌّ حىّ قال : ألست المقلّدة حمائل السيوف بصِفّين ، وأنت واقفة بين الصّفين تقولين :

أيها الناس ، عليكُمْ أنفسَكُمْ لا يَضُرُّكم مَنْ ضَلّ إذا اهْتَدَيْتمْ . إن الجنةَ لا يرحل عنها من أُوطنَها ، ولا يَهرَم من سَكَنها ، ولا يموت من دخلها ؛ فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمُها ، ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوما مستبصرين فى دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم ؛ إن معاوية دلفَ إليكم بعُجم العرب غُلفِ القلوب ، لا يفقهون الإيمان ولا يَدْرُون ما الحكمة ؛ دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه ، فالله اللهَ عبادَ اللهِ فى دين الله ؛ إياكم والتواكلَ ، فإن ذلك ينقض عُرَى الإسلام ، ويطفئُ نور الحق هذه بَدْرٌ الصغرى ، والعقبةُ الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار ، امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غدا ولقد لقيتم أهل الشام كالحُمُرِ الناهقة تَصْقَع صَقْع البقر ، وتَرُوث رَوْثَ العتاق .

فكأنى أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران يقولون : هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة . فإن كدتِ لتقتلين أهل الشام لولا قدَر الله ، وكان أمرُ الله قدرا مقدورا ، فما حَمَلَكِ على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين قال الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسُؤْكم) وإن اللبيب إذا كره أمرا لا يحب إعادته ، قال : صدقت ، فاذكرى حاجتك . قالت : إنه كانت صدقاتنا تُؤْخذ من أغنيائنا فتردُّ على فقرائنا ؛ وإنّا قد فقدنا ذلك ، فما يُجْبر لنا كسير ؛ ولا يُنْعَش لنا فقير ؛ فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبَّه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلُك استعان بالخونة ولا استعمل الظَّلَمة .

قال معاوية : ياهذه ، إنه ينُوبُنا من أمور رعيّتنا أمور تنبثق ، وبحور تنفهق . قالت : ياسبحان الله . واللهِ ما فرض اللهُ لنا حقا فجعلَ فيه ضررا على غيرنا ، وهو علام الغيوب .

قال معاوية : يأهل العراق ، نبّهكم علىُّ بن أبى طالب فلم تُطاقوا ! ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

قصة دارمية الحَجونية

مع معاوية رحمه الله تعالى

سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال : حج معاوية ، فسأله عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحَجُون ، يقال لها دارِميّة الحجونية ؛ وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأُخبر بسلامتها ؛ فبعث إليها فجيء بها ؛ فقال : ماحالكِ يابنةَ حام ؟ فقالت : لست لِحَامٍ إن عِبْتَني ؛ أنا امرأة من بني كِنانة . قال : صدقت . أتدرين لِمَ بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيبَ إلا الله . قال : بعثت إليك لأسألك : عَلامَ أحببت عَلِيًّا وأبغضتِني ؛ وواليتِه وعاديتِني ؟ قالت : أو تُعفِيني . قال : لا أعفيك . قالت : أما إذ أبيت ، فإني أحببتُ عليّا على عدله في الرعية ، وقَسْمه بالسويّة ؛ وأبغضتُك على قتالِ مَن هو أولى منك بالأمر ، وطِلْبَتِك ما ليس لك بحق . وواليت عليّا على ما عَقَدَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الولاء ، وحبِّه المساكين . وإعظامِه لأهل الدين . وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورِك في القضاء ، وحكمك بالهوى .

قال : فلذلك انتفخ بَطْنُك ، وعظُم ثَدْياك ، ورَبَتْ عجيزتُك ، قالت : ياهذا ، بهند واللهِ كان يُضرب المثلُ في ذلك لا بي . قال معاوية : ياهذه ارْبَعي ، فإنا لم نقل إلا خيرا ؛ إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تمّ خَلْقُ ولدِها ، وإذا عظم ثدياها تَرَوّى رَضيعُها . وإذا عظمت عجيزتُها رَزُن مجلسها . فرجعتْ وسكنتْ . قال لها : ياهذه ، هل رأيتِ عليا ؟ قالت : إي والله . قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملكُ الذي فتنك ، ولم تشغله النعمةُ التي شغلتْك . قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله ، فكان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيتُ صدأ الطَّسْت . قال : صدقتِ ! فهل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعلُ إذا سألتُك ؟ قال : نعم . قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلُها وراعيها . قال : تصنعين بها ماذا ؟

قالت : أغذو بألبانها الصِّغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأُصلح بها بين العشائر .

قال : فإن أعطيتك ذلك فهل أُحلُّ عندك محل على بن أبى طالب ؟

قالت : ماء ولا كصَدّاء ، ومَرْعًى ولا كالسَّعْدان ، وفتًى ولا كمالِك ، يا سبحان الله ، أوَ دُونَه ؟ فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعُدْ بالحِلْمِ منّى عليكم * فمَنْ ذا الذى بَعدى يُؤَمَّلُ للحِلْمِ

خُذيها هنيئاً واذكرى فعل ماجدٍ * جَزاكِ على حَرْبِ العداوةِ بالسِّلْمِ ٥

ثم قال : أما والله لو كان علىٌّ حيا ما أعطاك منها شيئا .

قالت : لا والله ، ولا وبَرَةً واحدةً من مال المسلمين .

وفود أم الخير بنت حريش على معاوية

عُبيد الله بن عمر الغَسانى عن الشعبى ، قال : كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أمَّ الخير بنت الحُريش بن سُراقة البارق برحْلها ، وأعلمه أنه مُجازيه ١٠ بالخير خيرا وبالشر شرًّا بقولها فيه ، فلما ورد عليه كتابُه ركب إليها فأقرأها كتابَه ؛ فقالت : أما أنا فغيرُ زائغة عن طاعة ، ولا معتلّة بكذب ، ولقد كنت أحبّ لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى .

فلما شيّعها وأراد مفارقتها قال لها : يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب إلىّ أنه مُجازِينى بالخير خيراً وبالشر شرًّا ؛ فمالى عندك ؟ قالت : ياهذا لا يُطْمِعَنْك ١٥ برُّك بى أن أسُرَّك بباطل . ولا تُؤْيِسْك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق .

فسارت خيرَ مَسير حتى قدمت على معاوية . فأنزلها مع الحَرَم ؛ ثم أدخلها فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه ؛ فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، بحقّ ما دعوتِنى بهذا الاسم . قالت : يا أمير المؤمنين ، مَهْ ، فإن بديهة السلطان مَدْحَضَةٌ لما يُحب عِلْمه ، ٢٠ ولكلّ أجل كتاب . قال : صدقتِ ! فكيف حالُكِ يا خالة ؟ وكيف كنتِ فى مَسيرك ؟ قالت : لم أزل يا أمير المؤمنين فى خيرٍ وعافيةٍ حتى صرتُ إليك ؛ فأنا فى مجلس أنيق ، عند ملك رفيق . قال معاوية : بِحُسْنِ نِيتى ظَفِرتُ بكم . قالت :

يا أمير المؤمنين ، يُعيذك الله من دَحْض المقال وما تُرْدِي عاقبتُه . قال : ليس هذا أردنا . أخبرينا كيف كان كلامُك إذ قُتل عمارُ بن ياسر ؟ قالت : لم أكن زَوَّرْتُهُ قبل ، ولا روّيتُه بعد ؛ وإنما كانت كلمات نَفَثها لسانى عند الصدمة ؛ فإن أحببتَ أن أُحدث لك مقالا غير ذلك فَعَلْت . فالتفت معاوية إلى جلسائه فقال : أيكم يحفظ كلامَها ؟ فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعضَ كلامها يا أمير المؤمنين . قال : هات . قال : كأنى بها وعليها بُرد زَبِيدِيّ كثيف بين النسج ، وهى على جَمل أرمَك وقد أُحيط حولها ، وبيدها سوط منتشر الضفيرة ، وهى كالفحل يهدِر فى شِقْشِقته ، تقول :

يا أَيُّها النَّاس اتَّقُوا رَبَّكُم ، إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ! إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبانَ الدليل ، وبين السبيل ، ورفع العَلَم ، ولم يَدَعكم فى عماء مُدْلَهِمَّة : فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفِراراً عن أمير المؤمنين ، أم فِراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : ﴿ ولَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِينَ ونَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللهم قد عِيلَ الصبر ، وضَعُفَ اليقين ، وانتشرت الرغبة ، وبيدك يارَبّ أزِمّة القلوب ، فاجمع اللهم بها الكلمةَ على التقوى ، وألِّف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله . هَلُمُّوا رحمكم الله إلى الإمام العادل والرضىّ التقىّ ، والصديق الأكبر ؛ إنها إحَنٌ بَدْرِية ، وأحقادٌ جاهلية ، وضغائن أُحُدية وثب بها واثب حين الغفلة ، ليدرك ثاراتِ بنى عبد شمس .

ثم قالت : ﴿ قَاتِلوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلهُمْ يَنْتَهُون ﴾ . صبراً يا معشرَ المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرةٍ من ربكم ، وثباتٍ من دينكم ؛ فكأنى بكم غداً ولقد لقيتم أهل الشام كحُمُر مستنفِرة ، فرّتْ من قَسْوَرة ، لاتدرى أين يُسْلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشترَوُا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرةَ بالعَمَى وعما قليلٍ لَيُصْبِحُنّ نادمين ، حتى تَحُلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص . إنه من ضلّ والله عن الحق وَقَعَ فى الباطل .

ألا إن أولياء الله استصغروا عمرَ الدنيا فرفَضُوها ، واستطابوا الآخرة فسَعَوْا لها ، فاللهَ الله أيها الناس ، قبل أن تبطلَ الحقوق ، وتعطَّلَ الحدود ، ويظهر الظالمون ، وتقوى كلمةُ الشيطان : فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأبي سِبْطيه ، خُلِق من طينته ، وتفرع من تبعته ، وخصَّه بسرِّه ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين : ٥
هاهو ذا مُفَلِّق الهام ، ومكسِّر الأصنام : صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل فى ذلك حتى قتل مُبارِزى بدر ، وأفنى أهلَ أُحد ، وهَزم الأحزاب ، وقَتل الله به أهلَ خيبر ، وفرّق به جمع هوازن : فيالها من وقائع زرعت فى قلوبٍ نفاقا ، ورِدّة وشقاقا ، وزادت المؤمنين إيمانا ، وقد اجتهدتُ فى القول ؛ وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله . ١٠

فقال معاوية : يا أم الخير ، ما أردتِ بهذا الكلام إلا قتلى ، ولو قتلتُكِ ما حَرِجتُ فى ذلك .

قالت : والله مايسوءنى أن يَجرِىَ قتلى على يَدَىْ من يُسعِدُنى الله بشقائه .

قال : هيهات ياكثيرةَ الفُضول . ماتقولين فى عثمان بن عفان رحمه الله ؟

قالت : وما عسيتُ أن أقول فى عثمان ، استخلفه الناس وهم به راضون ، ١٥
وقتلوه وهم له كارهون .

قال معاوية : يا أم الخير : هذا أصلك الذى تَبنين [1] .

قالت : لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ؛ ما أردتُ بعثمان نَقصا ، ولكن كان سابقاً إلى الخير ، وإنه لرفيع الدرجة غدا .

قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول فى ٢٠
طلحة ؟ اْغتِيلَ من مأمنِه ، وأُتى من حيث لم يحذَر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة .

(١) فى بعض الأصول : « تناولك الذى تثنين » يريد أن سوء رأيها فى عثمان هو الأصل الذى بنت عليه .

قال : فما تقولين فى الزبير ؟ قالت : وما أقول فى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وقد كان سبّاقا إلى كل مكرمة فى الإسلام ، وأنا أسألك بحق الله يا معاوية ، فإنّ قريشاً تحدّثت أنك أحلمُها : أن تسعنى بفضل حلمك ، وأن تُعفينى من هـذه المسائل ، ٥ وتسألنى عما شئت من غيرها .

قال نَعم ونعِمَةَ عَيْن ، قد أعفيتُك منهـا . ثم أمر لهـا بجائزة رفيعة وردّها مكرمة .

وفود أروى بنت عبد المطلب

على معاوية رحمه الله

١٠ العباس بن بكار قال : حدّثنى عبد الله بن سليمان المَدنى وأبو بكر الهُذلى ، أن أَرْوَى بنتَ الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية وهى عجوز كبيرة ؛ فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلا ياعمة ، فكيف كنتِ بعدنا ؟

فقالت : يابن أخى ، لقد كفرتَ يدَ النعمة ، وأسأتَ لابن عمك الصحبة ، وتسمَّيت بغير آسمك ، وأخذتَ غيرَ حقك ، مِن غير دين [1] كان منك ولا من ١٥ آبائك ، ولا سابقةٍ فى الإسلام ، بعد أن كفرتُم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتعسَ اللهُ منكم الجدود ، وأضرَعَ منكم الخدود ، وردَّ الحقَّ إلى أهله ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هى العليا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فوُلِّيتُم علينا من بعده ، تحتجون بقرابتكمْ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن أقربُ إليـه منكم وأولى بهذا الأمر ؛ فكُنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل فى ٢٠ آل فرعون ، وكان على بن أبى طالب رحمه الله بعد نبينا بمنزلة هارون من موسى ؛ فغايتُنا الجنة وغايتكم النار .

فقال لها عمرو بن العاص : كُفِّى أيتُها العجوز الضالة ، وأقصِرى عن قولك

---

(١) فى بلاغات النساء : « من غير بلاء ... »

مع ذهاب عقلك ، إذ لا تجوز شهادتك وحدك .

فقالت له وأنت يابن النابغة تتكلم ! وأمُّك كانت أشهرَ امرأة تُغَنّى بمكة ، وآخذَهن لأجرة ! ارْبَعْ على ظَلْعِك ، واعْنَ بشأن نفسك ؛ فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ولا كريم مَنْصِبها ؛ ولقد ادعاك خمسةُ نفر من قريش ، [كلهم يزعم أنه أبوك] فسئلتْ أمك عنهم ، فقالت : كلهم أتانى ، فانظروا أشبهَهُم به فألحِقوه به ، فغلب عليك شَبَهُ العاص بن وائل فلحِقْتَ به .

فقال مروان : كُفّى أيتها العجوز ، واقصدى لما جئتِ له . فقالت : وأنت أيضاً يابن الزرقاء تتكلم !

ثم التفتت إلى معاوية فقالت : والله ما جرّأ علىّ هؤلاء غيرُك ، وإن أمك القائلةُ فى قتل حمزة :

نحن جَزَيْناكم بيومِ بدرِ * والحرب بعدَ الحربِ ذاتُ سُعْرِ
ما كان لى عن عُتْبةٍ مِن صَبْرِ * فشُكرُ وحْشِىّ علىّ دَهرِى
* حتى تَرِمّ أعظُمِى فى قبرى *

فأجابتها بنتُ عمى وهى تقول :

خَزِيتِ فى بدرٍ وبعدَ بدرِ * يابنةَ جبّارٍ عظيمِ الكفرِ

فقال : معاوية عفا الله عما سلف ياعمة ! هاتِ حاجتَك .

قالت : مالى إليك حاجة ، وخرجت عنه .

تم الجزء الأول بعون الله وتوفيقه
ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الثانى
وأوله : « كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك »

فهرس

موضوعات الجزء الاول

من العقد الفريد

كتاب الفريدة

في الحروب ومدار أمرها

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

العِقْدُ الفَرِيدُ

تأليف

الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

المتوفى سنة ٣٢٨ هـ

بتحقيق

محمد سعيد العريان

الجزء الثانى

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

١٣٧٢ — ١٩٥٣

كتاب المرجانة
فى مخاطبة الملوك

فرش كتاب المرجانة فى مخاطبة الملوك

قال أبو عمر أحمدُ بن محمد بن عبد ربّه :

قد مضى قولُنا فى الوفود والوافدات ، ومقاماتهم بين يدى نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبين يدى الخلفاء والملوك . ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه وتأييده وتسديده فى مُخاطبة الملوك ، والتزلّف إليهم بسِحر البيان ، الذى يُمازج الرُّوح لطافةً ، ويجرى مع النفس رقّة . والكلامُ الرقيق مصايدُ القلوب ، وإن منه لمَا يَستَعطف المُستشيطَ غيظاً ، والمُندمِلَ حقداً ، حتى يُطفئَ جمرةَ غيظه ، ويَسُلّ دفائنَ حقده . وإنّ منه لمَا يستميل قلبَ اللئيم ، ويأخذ بسمع الكريم وبصره . وقد جعله الله تعالى بينه وبين خلقه وسيلةً نافعة . وشافعاً مقبولا : قال تبارك وتعالى : ﴿ فتلقّى آدمُ من ربّه كلماتٍ فتابَ عليهِ إنّهُ هوَ التّوابُ الرّحيم ﴾ .

ويذكر فى كتابنا هذا إن شاء الله تعالى من تخلّص من أُنشوطة الهلاك ، وتفلّتَ من حبائل المنيّة ، بحُسن التنصُّل ، ولطيفِ التّوصُّل ، ولينِ الجواب ، ورقيق الاستعتاب ؛ حتى عادت سيئاتُه حسنات ، وعِيضَ بالثواب بدلًا من العقاب وحِفظ هذا الباب أوجبُ على الإنسان من حِفظ عرضه ، وألزمُ له من قوام بدنه .

البيان

كنه البيان

كلُّ شىء كشَف لك قناع المعنى الخفىّ حتى يتأدّى إلى الفهم ويتقبّله العقل ، فذلك البيانُ الذى ذكره الله فى كتابه ، ومنّ به على عباده ؛ فقال تعالى :

﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ القُرْآنَ . خَلَقَ الإنسانَ علَّمَهُ البَيَانَ ﴾ .

للنبي صلى الله عليه وسلم

وسئل النبيّ صلى الله عليه وسلم : فِيمَ الجمال؟ فقال : فى اللسان . يريد البيان.

وقال صلى الله عليه وسلم : إنّ من البيان لسحراً .

للعرب

وقالت العرب : أنفذُ من الرَّمِيّةِ كلمةٌ فصيحة [1] .

لبعض الشعراء

٥ وقال الراجز :

لقدْ خَشيتُ أنْ تكونَ ساحِرًا ۞ راوِيَةً مَرًّا ومَرًّا شاعِرًا

لسهل بن هارون

وقال سهل بن هارون : العقل رائد الروح ؛ والعِلم رائد العقل ، والبيان ترجمان العلم .

لبعضهم

وقالوا : البيان بصرٌ والعِيُّ عَمًى ، كما أنّ العِلم بصَر والجهل عمى ؛ والبيان

١٠ من نِتاج العلم . والعِيّ من نتاج الجهل .

وقالوا : ليس لمنقوص البيان بهاء . ولو حَكَّ بيافوخِه عَنانَ السماء .

لصاحب المنطق

وقال صاحب المنطق : حدُّ الإنسان : الحيُّ الناطقُ المُبين .

وقال : الروح عماد البدن ، والعِلم عماد الروح ، والبيان عماد العِلم .

تبجيل الملوك وتعظيمهم

للنبي صلى الله عليه وسلم

١٥ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرِموه .

للعلماء

وقالت العلماء : لا يُؤَمُّ ذو سلطان فى سلطانه ، ولا يُجلس على تكرمته إلا بإذنه .

لزياد

وقال زياد ابن أبيه : لا يُسَلَّمُ على قادم بين يدى أمير المؤمنين .

ليحيى بن خالد فى خطاب الملوك

وقال يحيى بنُ خالد بنِ برمك : مُساءلة الملوك عن حالها من سجيّة النَّوْكَى ؛

٢٠ فإذا أردت أن تقول : كيف أصبح الأمير ؟ فقل : صَبَّحَ اللهُ الأمير بالنعمة والكرامة . وإذا كان عليلاً فأردتَ أن تسأله عن حاله ، فقل : أنزل اللهُ على

(١) فى بعض الأصول : خفية .

الأمير الشفاء والرحمة ؛ فإن الملوك لا تُسأَل ولا تشمّت ولا تكيّف . وأنشد :

إن الملوكَ لا يُخاطَبُونا ٭ ولا إذا مَلُّوا يعاتَبُونا

وفى المقَالِ لا يُنازَعُونا ٭ وفى العُطاسِ لا يُشَمَّتُونا

وفى الخِطابِ لا يُكيَّفُونا ٭ يُثْنى عليْهم ويُبَجَّلونا

فافْهم وصاتِى لا تكُنْ مجْنونا ٥

ابن صبيح والفضل بن يحيى فى علته

اعتلّ الفضلُ بن يحيى ، فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا أتاه عائداً لم يَزِد على السلام عليه والدّعاء له ، ويخفّف فى الجلوس ، ثم يلْقى حاجبَه فيسأله عن حاله ومأكله ومشربه ونومه . وكان غيره يُطيل الجلوس . فلما أفاق من علّته قال : ماعادنى فى علّتى هذه إلا إسماعيل بن صبيح .

بين معاوية وأصحابه

١٠ وقال أصحاب معاوية له : إنّا ربمـا جَلسنا عندك فوق مقدارِ شهوتك، فنريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك فقال : علامةُ ذلك أن أقول : إذا شئتم .

وقيل ذلك ليزيد ، فقال : إذا قلت : على بركة الله .

وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان ، فقال : إذا وضعتُ الخيزرانة من يدى .

فى خدمة الملوك

ومن تمـام خدمة الملوك أن يُقرِّب الخادمُ إليه نَعْلَيْه ولا يدعه يمشى إليهما، ١٥ ويجعل النعلَ اليمنى مُقابلة الرجل اليمنى ، واليُسرى مقابلة اليسرى ، وإذا رأى مُتّكأً يحتاج إلى إصلاح أصلحه قبل أن يُؤْمَر ؛ فلا ينتظر فى ذلك أمرَه ؛ ويتفقّد الدواة قبل أن يأمره ، وينفُض عنهـا الغُبار إذا قرّبها إليه . وإن رأى بين يديه قِرطاسا قد تباعد عنه قرّبه ووضعه بين يديه على كَسْره .

الحجاج والشعبى

ودخل الشعبي على الحجاج ، فقال له : كم عطاءك ؟ قال : ألفين . قال : ويحك ! ٢٠ كم عطاؤك ؟ قال : ألفان . قال : فلِم لحنتَ فيما لا يَلحن فيه مثلُك ؟ قال : لَحَنَ الأميرُ فلحنت ، وأعربَ الأمير فأعربْت ؛ ولم أكن ليلحَنَ الأميرُ فأُعرِبَ أنا عليه ، فأكون كالمُقرِّع له بلحنهِ ، والمُستطيِل عليه بفضل القول قبله ! فأعجبه ذلك منه ووهبه مالا .

قُبلة اليد

الرسول صلى الله عليه وسلم وتقبيل يده

عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الله بن عمر ، قال : كنا نقبِّل يد النبي صلى الله عليه وسلم .

تقبيل يد عمر ابن الخطاب

ومن حديث وكيع عن سفيان ، قال : قال : قبَّل أبو عبيدة يدَ عمر ابن الخطاب . ٥

ومن حديث الشَّعبي قال : لقي النبي عليه الصلاةُ والسلام جعفر بن أبي طالب فالتزمه وقبّل ما بين عينيه .

قال إياس بن دَغفل : رأيت أبا نضرة يقبِّل خدّ الحسين .

مصعب ورجل قبل يده

الشَّيباني عن أبي الحسن عن مُصعب قال : رأيتُ رجلًا دخل علَى عليّ بن الحسين في المسجد فقبّل يدَه ووضعها على عينيه ؛ فلم يَنْهَهُ . ١٠

عبد الملك ورجل قبل يده

العتبي قال : دخل رجل على عبد الملك بن مروان فقبّل يده ، وقال : يدُك يا أمير المؤمنين أحقُّ يدٍ بالتقبيل ، لِعُلوِّها في المكارم ، وطُهرِها من المآثم ؛ وأنك تُقِلُّ التَّثريب ، وتصفح عن الذنوب ؛ فمن أراد بك سوءاً جعله الله حَصِيدَ سيفِك ، وطريد خوفِك .

بين المنصور وأبي بكر الهجرى

١٥ الأصمعي قال : دخل أبو بكر الهجريّ على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نَغَض فمي ، وأنتم أهل البيت بركة ، فلو أذنت فقبلت رأسك ، لعل الله يُمسك عليّ ما بقي من أسناني . قال : اختر بينها وبين الجائزة . فقال : يا أمير المؤمنين ، أيسر عليّ من ذهاب الجائزة ألّا تبقى في فمي حاكّة . فضحك المنصور وأمر له بجائزة .

بين سليمان وجعفر بن يحيى

٢٠ ودخل جعفر بن يحيى في زيّ العامة وكتمان النباهة على سُليمان صاحب بيت الحِكْمة ، ومعه ثُمامة بن أشرس ، فقال ثمامة : هذا أبو الفضل . فنهض إليه سليمان فقبّل يده وقال له : بأبي أنت ، ما دَعَاك إلى أن تحمِّل عبدك هذه المِنّة التي لا أقوم بشكرها ، ولا أقدر أن أُكافِئ عليها .

عبدالله بن عباس وزيد بن ثابت

الشَّعبي قال : ركب زيدُ بن ثابت ، فأخذ عبدُ الله بن عبّاس بركابه ، فقال له : لا تفعل يابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : هكذا أُمِرْنا أن نَفعل بعُلمائنا . قال له زيد : أرِنى يَدك . فأخرج إليه يده ، فأخذها وقبّلها ، وقال : هكذا أمَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن نفعل بأهل بيتِ نبيّنا .

أنواع القبل

وقالوا قُبلة الإمام فى اليد ، وقُبلة الأب فى الرأس ، وقبلة الأخ فى الخدّ ، وقبلة الأخت فى الصدر ، وقبلة الزوجة فى الفم . ٥

من كره من الملوك تقبيل اليد

هشام ورجل قبل يده

العُتبى قال : دخل رجل على هشام بن عبد الملك فقبّل يده ، فقال : أُفٍّ له ، إن العرب قبّلت الأيدى إلا هُلوعا ، ولا فعلته العجمُ إلا خُضوعا .

واستأذن رجلٌ المأمونَ فى تقبيل يده ، فقال له : إنّ قبلة اليد من المسلم ذِلّة ، ومن الذّمّىّ خَديعة ؛ ولا حاجة بك أن تذِلّ ، ولا بنا أن نُخدَع . ١٠

بين المهدى وأبى دلامة فى مثله

واستأذن أبو دلامة الشاعرُ المهدىَّ فى تقبيل يده ، فقال : أمّا هذه فدَعها . قال : ما مَنَعْتَ عيالى شيئا أيسرَ فقداً عليهم من هذه .

حسن التوقيع فى مخاطبة الملوك

بين الرشيد وابن زائدة

قال هارون الرشيد لَمعن بن زائدة : كيف زمانك يامَعْن؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أنت الزمان ؛ فإن صَلُحْتَ صلُح الزمان ، وإن فسدت فسدَ الزمان . ١٥

بين الرشيد وابن مسلم فى مثله

وهذا نظير قول سعيد بن سَلْم ، وقد قال له أميرُ المؤمنين الرشيد : مَنْ بيتُ قيس فى الجاهلية ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، بنو فَزارة . قال : فَمَنْ بيتُهم فى الإسلام ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، الشريفُ من شرّفتموه . قال : صدقت ! أنتَ وقومُك . ٢٠

أبو جعفر وابن زائدة

ودخل معن بن زائدة على أبى جعفر ، فقال له كَبرتَ يا معن . قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين . قال : وإنك لَجلْد ! قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين . قال : وإنّ فيك لبقيّة . قال هى لك يا أمير المؤمنين . قال : أى الدولتين أحبُّ

إليك أو أبغض ، أدولتُنا أم دولة بنى أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ، إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحبَّ إلىّ ، وإن زاد برهم على برك كانت دولتُهم أحبَّ إلىّ . قال : صدقت .

الرشيد وعبد الملك ابن صالح

قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح : أهـذا منزلُك ؟ قال : هو لأمير المؤمنين وَلِى به . قال : كيف ماؤه ؟ قال : أطيبُ ماء . قال : فكيف هواؤه ؟ قال : أصحّ هواء .

المنصور وجرير ابن يزيد

قال أبو جعفر المنصور لجرير بن يزيد : إنى أردتُك لأمر . قال : يا أمير المؤمنين قد أعدّ اللهُ لك منى قلباً معقوداً بطاعتك ، ورأياً موصولا بنصيحتك ، وسيفاً مشهورا على عدُوّك ؛ فإذا شئتَ فقل .

المأمون وطاهر ابن الحسين فى ابنه

وقال المأمون لطاهر بن الحُسين : صِفْ لى ابنك عبد الله . قال : يا أمير المؤمنين إن مدحتُه عِبتُه ، وإن ذممتُه اغتبتُه ، ولكنه قِدْحٌ فى كف مُثقّف ليوم نِضال فى خدمة أمير المؤمنين .

بعض الخلفاء ورجل فى أمر

وأمر بعضُ الخلفاء رجلًا بأمر : فقال : أنا أطْوَعُ لك من الرّداء ، وأذلُّ لك من الحذاء .

وقال آخر : أنا أطوع لك من يدك ، وأذلُّ لك من نعلك .

وهذا قاله الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك الزيات .

المنصور وابن قتيبة

وقال المنصور لُمسلم[1] بن قُتيبة : ما ترى فى قتل أبى مُسلم ؟ قال : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ . قال : حَسْبُكَ أبا أُمية .

المأمون وابن مزيد

وقال المأمون ليزيد بن مَزيد : ما أكثر الخلفاء فى ربيعة ! قال : بلى ، ولكنّ منابرهم الجذوع .

المنصور وابن مسلم

وقال المنصور لإسحاق بن مُسلم : أفرطتَ فى وفائك لبنى أُمية . قال : يا أمير المؤمنين ، إنه مَن وَفَى لمن لا يُرْجَى كان لمن يُرْجى أوْفَى .

(١) فى بعض الأصول : « سلم » . وفى بعض آخر « سالم » .

الرشيد وابن صالح

وقال هارون لعبد الملك بن صالح : صِفْ لى مَنبِج . قال : رقيقةُ الهواء ، لينة الوطاء . قال : فصف لى منزلَك بها . قال : دون منازلِ أهلى ، وفوق منازل أهلها . قال : ولِمَ وقدْرُك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلُق أميرِ المؤمنين أتأسَّى به ، وأقفو أثرَه ، وأحذو مثالَه .

المأمون وغلام فى الديوان

٥ ودخل المأمون يوماً بيت الديوان ، فرأى غلاما جميلا على أذنه قلم ، فقال : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا الناشئُ فى دولتك ، والمتقلِّبُ فى نعمتك ، والمؤمِّلُ لخدمتِك ، الحسنُ بنُ رجاء . قال المأمون : بالإحسان فى البديهة تفاضَلت العقول ؛ ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته .

المتوكل وابن الجهم فى رأس إسحاق بن إسماعيل

على بن يحيى قال : إنى عند المُتوكل حين دخل عليه الرسول برأس إسحاق بن ١٠ إسماعيل ، فقام على بن الجهم يخطر بين يدى المتوكل ويقول :

أهلًا وسهلًا بِكَ مِن رسولِ * جِئْتَ بما يَشفِي منَ الغليلِ

* برأسِ إسْحٰق بْن إسماعيل *

فقال المتوكل : قوموا التقطوا هذا الجوهر لئلا يضيع .

عقال وأبو عبيد الله

ودخل عقّال بن شَبّة على أبى عُبيد الله كاتب المهدى ، فقال : يابن عقّال ، ١٥ لم أرك منذ اليوم ! قال : والله إنى لألقاك بشَوق ، وأغيب عنك بِتَوْق .

عبد العزيز بن مروان ونصيب

وقال عبدُ العزيز بن مروان لنُصيب بن رَباح ـ وكان أسود ـ : يانصيب هل لك فيما يُثمر المحادثة ؟ يريد المُنادمة . فقال : أصلح الله الأمير ، اللون مُرمَّد ، والشعر مُفَلْفَل ، ولم أقعد إليك بكريم عُنْصر ، ولا بحُسن مَنظر ، وإنما هو عَقْلى ولسانى ؛ فإن رأيتَ ألّا تفرقَ بينهما فافعل .

المأمون ووداعه الحسن بن سهل

٢٠ ولما ودّع المأمونُ الحسنَ بن سهل عند مخرجه من مدينة السلام ، قال له : يا أبا محمد ، ألك حاجةٌ تعهد إلىّ فيها ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أن تحفظ علىّ من قلبك مالا أستعين على حفظه إلا بك .

المأمون وسعيد ابن مسلم

وقال سعيد بن مُسلم بن قُتيبة للمأمون : لو لم أشكر الله إلا على حُسن ما أبلانى فى أمير المؤمنين من قَصْدِه إلىّ بحديثه ، وإشارتِه إلىّ بطرْفه ، لكان

ذلك من أعظم ما تُوجبه النّعمة، وتَفْرِضه الصنيعة. قال المأمون: ذلك والله لأنّ الأمير يجد عندك من حُسن الإفهام إذا حَدّثت، وحُسْن الفهم إذا حُدِّثت، ما لا يجدُه عند غيرك.

مدح الملوك والتزلف إليهم

أردشير حين ولى

٥ في سِيَر العجم أن أردشير بنَ يَزْدجرد لما ٱستوثق له أمرُه، جمع الناس فخطبهم خُطبة حضّهم فيها على الألفة والطاعة، وحذّرهم المعصية ومفارقة الجماعة، وصنّف لهم الناس أربعة أصناف، فخروا له سُجّدا، وتكلم متكلّمُهم، فقال: لا زلتَ أيها الملك مَحْبُوًّا من الله بعز النصر، ودَرَكِ الأمل، ودوام العافية، وتمام النّعمة، وحُسن المزيد: ولا زلت تَتابع لديك المكرُمات، وتشفع إليك الذّمامات،
١٠ حتى تبلغ الغاية التي يؤمَنُ زوالُها، ولا تَنقطع زهرتُها، في دار القَرار التي أعدّها الله لنُظرائك من أهل الزُّلْفى عنده، والحُظْوَةِ لديه، ولا زال ملكك وسُلطانك باقيين بقاء الشمس والقمر، زائدين زيادة البُحور والأنهار، حتى تستوى أقطارُ الأرض كلها في عُلُوِّك عليها، ونَفاذ أمرِك فيها؛ فقد أشرق علينا من ضياء نُورك ما عَمّنا عُمومَ ضياءِ الصبح، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما ٱتصل بأنفسنا ٱتصال النسيم:
١٥ فأصبحتَ قد جمع الله بك الأيادي بعد ٱفتراقها، وألف بين القلوب بعد تباغُضِها، وأذهبَ عنا الإحنَ والحسائك[1] بعد توقّد نيرانها، بفضلك الذي لا يُدْرَك بوصف، ولا يُحَدُّ بنعت.

فقال أردشير: طوبَى للممدوح إذا كان للمدح مُسْتَحِقّا، وللداعي إذا كان للإجابة أهلا.

حسان بن ثابت والجفني

٢٠ دخل حسّان بن ثابت على الحارث الجفْنيّ فقال: أنعم صباحاً أيها الملك، السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك، ووالدي ووالدتي فداؤك. أنّى يُناوِئك المنذر[2]؟ فوالله لَقَذَالُك أحسنُ من وجهه، ولأُمّكَ أحْسَنُ من أبيه، ولَظِلُّك خير من شَخْصِه،

(١) في بعض الأصول: «الحسائف»، وفي بعضها «الحسائد».
(٢) هو المنذر بن المنذر بن ماء السماء.

ولصمتُك أبلغ من كلامه، ولشِمالُك خيرٌ من يمينه. ثم أنشأ يقول:

وُنبِّئت أنّ أبا مُنذر * يُساميك للحدث الأكبر

قذالك أحسَنُ من وجهِهِ * وأُمّكَ خيرٌ من المُنذِرِ

ويُسرَى يدَيْكَ إذا أعْسرتْ * كيُمْنى يديْهِ فلا تمترِ

خالد القسرى يهنئ عمر بن عبد العزيز

٥ ودخل خالد بن عبد الله القَسرىّ على عُمر بن عبد العزيز لما ولِيَ الخلافة، فقال: يا أمير المؤمنين، مَن تكون الخلافة قد زانته فأنتَ قد زنتها، ومَن تكون شرّفته فأنتَ قد شرفْتها، وأنت كما قال الشاعر:

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسنَ وُجُوه * كان للدُّرّ حُسنُ وَجْهِك زَينَا

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أُعْطِيَ صاحبُكم مَقُولًا ولم يُعْطَ مَعْقولا.

المأمون ومادح له عند دخوله بغداد

١٠ ذكر ابن أبى طاهر قال: دخل المأمون بغداد، فتلقّاه وجوه أهلها، فقال له رجل منهم: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك فى مَقْدَمِك، وزاد فى نعمتك، وشكرك عن رعيّتك، تقدّمْتَ مَن قبلك، وأتعبتَ مَن بَعدك، وآيَستَ أن يُعايَنَ مِثلُك أما فيما مضى فلا نعرفه، وأما فيما بقى فلا نَرجوه؛ فنحن جميعاً ندعو لك، ونُثْنى عليك. خَصِبَ لنا جنابُك، وعذُبَ شرابُك. وحسنتْ نظرتُك، وكَرُمَتْ مقدرتُك.

١٥ جَبرْتَ الفقير، وفككتَ الأسير، فأنت يا أمير المؤمنين كما قال الأول:

ما زلتَ فى البَذْلِ للنوال وإطْـلاق لعانٍ بجُرْمِه عَلِقِ

حتى تمنى البِراء أنهمُ * عندكَ أسْرَى فى القيْدِ والحلَقِ

بين خالد القسرى وبعضهم فى مثله

ودخل رجل على خالد بن عبد الله القَسرى فقال: أيها الأمير، إنك لتَبذلُ ماجَلّ، وتَجبرُ ما اعتَلّ، وتُكْثِرُ ما قل، ففضلك بديع، ورأيك جميع.

بين الحسن ابن سهل وآخر

٢٠ وقال رجل للحسن بن سهل: لقد صرتُ لا أستكثر كثيرك ولا أستقلُّ قليلك! قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك أكثرُ من كثيرك، وأنّ قليلك أكثر من قليل غيرك.

ابن صفوان ووال دخل عليه

وقال خالد بن صفوان لوالٍ دخل عليه: قدمتَ فأعطيت كُلاًّ بقِسْطه من نظرك ومجلسك، وصِلاتك وعِداتك، حتى كأنك من كل أحد، أو كأنك لستَ من أحد!

بين الرشيد وبعض الشعراء

وقال الرشيد لبعض الشعراء : هل أحدثتَ فينا شيئا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، المديحُ كله دونَ قدرك ، والشعرُ فيك فوق قدري ، ولكني أستحسن قول العتّابي :

ماذا عسى مادِحٌ يُثْني عليكَ وقد ٭ ناداكَ في الوحي تقديسٌ وتطهيرُ

فُتَّ المَمادِحَ إلا أنّ أَلسُنَنا ٭ مُستَنطَقاتٌ بما تُخْفِي الضَّمايرُ

لابن صفوان في مدح رجل

٥ مدح خالدُ بن صفوان رجلا فقال : قريعَ المنطق ، جَزْلَ الألفاظ ، عربيَّ اللسان ، قليلَ الحركات ، حَسَنَ الإشارات ، حُلوَ الشمائل ، كثيرَ الطّلاوة ، صَمُوتاً قَئُولا ، يَهنأ الجَرَب ، ويداوي الدَّبَر ، ويُقِلّ الحزّ ، ويُطَبِّق المِفْصَل . لم يكن بالزَّمِر في مُروءته ، ولا بالهَذِر في مَنْطِقِه ، متبوعا غيرَ تابع .

٭ كأنه علم في رأسه نار [1] ٭

الرشيد وسهل ابن هارون

١٠ دخل سهل بن هارون على الرشيد ، فوجده يُضاحك ابنه المأمون ، فقال : اللهم زِده من الخيرات ، وابْسُطْ له في البركات ، حتى يكونَ كلُّ يوم من أيامه مُوفِياً على أمسه ، مُقصِّراً عن غده . فقال له الرشيد : ياسهل ، مَن روى من الشعر أحسنَه وأجوده ، ومن الحديث أصحَّه وأبلغَه ، ومن البيان أفصحَه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يُعجزه ؟ قال سهل : يا أمير المؤمنين ، ما ظننتُ أحداً تقدَّمني

١٥ سبقني إلى هذا المعنى . فقال : بل أعشى همدان حيث يقول :

وجدتُكَ أَمْسِ خيرَ بني لُؤَيٍّ ٭ وأنت اليومَ خيرٌ منكَ أمسِ

وأنتَ غداً تَزِيدُ الخيرَ ضِعْفاً ٭ كذاكَ تزيدُ سادة عبدِ شمسِ

المأمون وسهل ابن هارون

وكان المأمون قد استثقل سهلَ بن هارون ، فدخل عليه يوماً والناس عنده على منازلهم ، فتكلم المأمونُ بكلامٍ ذَهَب فيه كل مذهب ، فلما فرغ أقبل سهل

٢٠ ابن هارون على ذلك الجمع فقال : مالكم تَسمعون ولا تَعُون ، وتفهمون ولا تعجَبون ، وتَعجبون ولا تَصِفون ؟ أما والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير مثلَ ما قالت وفعلتْ بنو مروانَ في الدهر الطويل ، عَرَبُكم كعَجَمهم ، وعجَمُهم

---

(١) صدره : « وإن صخراً لتأتم الهداة به » ؛ والبيت للخنساء .

كعربِ بنى تميم ؛ ولكن كيف يَشعر بالدواء مَن لايعرف الداء ؟ قال : فرجع له المأمون إلى رأيه الأول .

الحجاج وزياد العتكى

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العَتكىّ ، فلما أثنى الوفدُ على الحجاج عند عبد الملك بن مروان ، قال زياد : يا أمير المؤمنين ، إنّ الحجاج سيفُك الذى لا يَنْبُو ، وسهمُك الذى لا يَطيش ، وخادمُك الذى لا تأخذه فيك لومةُ لائم . فلم يكن بعد ذلك عند الحجاج أحدٌ أخفَّ ولا أحبَّ إليه منه . ٥

لابن شيبة فى صالح بن المنصور

حدّث الشَّيبانى قال : أقام المنصور صالحاً ابنَه فتكلم فى أمرٍ فأحسن ؛ فقال شبيب بن شيبة : تالله مارأيتُ كاليوم أبْيَنَ بيانا ، ولا أعرب لسانا ، ولا أرْبَطَ جأشا ، ولا أبَلّ رِيقا ، ولا أحسنَ طريقا . وحق لمن كان المنصورُ أباه ، والمهدى أخاه ، أن يكون كما قال زُهير : ١٠

هو الجَوَادُ فإن يَلْحَقْ بِشأْوِهما ... على تَكالِيفِهِ فَمِثْلُهُ لَحِقَا

أوْ يَسْبِقاهُ على ما كان من مَهَلٍ ... فَمِثْلُ ما قَدّما من صالحٍ سَبَقَا

لابن شيبة فى الخلافة

وخرج شَبيب بن شَيبة من دار الخلافة يوما ، فقيل له : كيف رأيتَ الناس ؟ قال : رأيت الداخل راجيا ، والخارج راضيا .

لبعض الخلفاء فى ابن شيبة

وقيل لبعض الخلفاء : إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعدّ له ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لافتضح . قال : فأمر رسولاً فأخذ بيده فصعّده المِنبر : فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة : فمنها الأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر ؛ فأما الأسد الخادر فأشْبه منه صولته ومضاءه ، وأمّا البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاءه ، وأما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياءه ، وأما الربيع الناضر فأشبه منه حسنه وبهاءه . ثم نزل . ١٥ ٢٠

بين عبد الملك وذى حاجة

قال عبد الملك بن مروان لرجل دخل عليه : تكلم بحاجتك . قال : ياأمير المؤمنين ، بُهْرُ الدرَجة وهَيبةُ الخِلافة يَمنعانى من ذلك . قال : فَعَلى رِسْلك ، فإنا لا نحبُّ مَدْح المُشاهدة ، ولا تَزكيةَ اللقاء . قال : يا أمير المؤمنين ، لستُ أمدحُك ، ولكن

أحمد الله على النعمة فيك . قال : حَسْبُكَ فقد أبْلَغْت .

بين المنصور وذى حاجة

ودخل رجل على المنصور ، فقال له : تكلّم بحاجتك . فقال : يُبقيك الله يا أمير المؤمنين . قال : تكلّم بحاجتك ، فإنك لا تقدر على هذا المقام كل حين . قال والله يا أمير المؤمنين ، ما أستقصر أجلَك ، ولا أخاف بُخلَك ، ولا أغتنم مالَك ؛ وإنّ عطاءك لشَرَف ، وإن سُؤالك لزَيْن ، وما لامرئٍ بَذَل وجهه إليك نقْصٌ ولا شيْن . قال : فأحسن جائزته وأكرمه .

بين المأمون والعمانى

حدّث إبراهيم بن السِّندى قال : دخل العُمانىّ على المأمون ، وعليه قَلَنْسُوَة طويلة وخُف ساذَج ، فقال له : إيّاك أن تُنشدنى إلّا وعليك عِمامة عظيمة الكَوْر وخُفان رائقان (١) . قال : فغدا عليه فى زِى الأعراب فأنشده ، ثم دنا فقبّل يده وقال : قد والله يا أمير المؤمنين أنشدتُ يزيدَ بن الوليد ، وإبراهيمَ بن الوليد ، ورأيتُ وجوهَهما ، وقبّلت أيديهما ، وأخذت جوائزَهما ؛ وأنشدتُ مروان وقبّلْتُ يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المنصورَ ورأيتُ وجهه وقبّلت يده وأخذت جائزته ، وأنشدت المهدىّ ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته ، إلى كثير من أشباه الخلفاء ، وكبراء الأمراء والسادة الرؤساء ، فلا والله يا أمير المؤمنين ما رأيتُ فيهم أبهى منظراً ، ولا أحسنَ وجهاً ، ولا أنعَمَ كفًا ، ولا أندَى راحةً منك يا أمير المؤمنين . قال : فأعظم له الجائزة على شِعره ، وأضْعَف له على كلامه وأقبل عليه بوجهه وبِشْره ، فبسطه حتى تمنى جميعُ مَن حضره أنهم قاموا مقامه .

عمر بن عبد العزيز ووفد العراق ومحمد القرظى

حدّث العتبى عن سُفيان بن عُيينة قال : قَدِم على عمر بن عبد العزيز ناسٌ من أهل العراق ، فنظر إلى شاب منهم يتحوّش للكلام ، فقال : أكبِرُوا أكبِرُوا . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس بالسنّ ، ولو كان الأمر كله بالسن لكان فى المسلمين من هو أسَنُّ منك . فقال عمر : صدقتَ رحمك الله ، تكلم . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة ؛ أما الرغبةُ فقد دخلتْ علينا منازلنا وقَدِمتْ علينا بلادَنا ؛ وأما الرهبة فقد أمَّنَنا الله بِعَدْلك من جَوْرك . قال : فما

(١) فى بعض الأصول : دلفان .

أنتم ؟ قال : وفدُ الشكر . قال : فنظر محمد بن كعب القُرظى إلى وجه عمر يتهلل ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لا يغلِبَنّ جهلُ القوم بك معرِفتك بنفسك : فإن ناساً خدعهم الثناء وغرّهم شكرُ الناس فهلكوا ، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم . فألقى عمر رأسه على صدره .

التنصل والاعتذار ٥

للنبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : من لم يقبل من مُتنصّل عذراً ، صادقاً كان أو كاذباً ، لم يَرِدْ علىّ الحوْض .

وقال : الُمعترف بالذنب كمَن لا ذنبَ له . وقال : الاعتراف يَهدم الاقتراف .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

إذا ما امْرؤ مِنْ ذنبِه جاء تائباً ＊ إليكَ فلمْ تغفِرْ لهُ فلك الذّنبُ ١٠

واعتذر رجل إلى إبراهيم بن المهدى . فقال : قد عذَرتُك غير مُعْتَذِرٍ ، إن المعاذير يشوبها الكذب .

جعفر بن يحيى ومعتذر

واعتذر رجل إلى جعفر بن يحيى ، فقال : قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار ، وأغنانا بِحُسن النية عن سوء الظن .

وقال إبراهيم الموصلى : سمعتُ جعفر بن يحيى يعتذر إلى رجل من تأخّر ١٥ حاجةٍ ضَمِنها له ، وهو يقول : أحتجُّ إليك بغالبِ القضاء ، وأعتذرُ إليكَ بصادِق النِّيَّة .

رجل يعتذر إلى ملك

وقال رجل لبعض الملوك : أنا من لا يُحاجُّك عن نفسه ، ولا يُغالِطك فى جُرمه ، ولا يلتمس رضاك إلا مِن جهة عفوِك ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يَستميلك إلا بالاعتراف بالزَّلّة . ٢٠

للحسن بن وهب

وقال الحسنُ بن وهب :

ما أحْسَنَ العفوَ مِنَ القادِرِ ＊ لا سِيَّمَا عنْ غيرِ ذِى ناصِرِ
إنْ كان لى ذنْبٌ ولا ذَنْبَ لى ＊ فمـا لهُ غَيْرُكَ مِنْ غافِرِ

أَعُوذُ بالوُد الذى بيْننـا ، أن يَفسُد الأوَّلُ بالآخِرِ

وله إلى ابن الزيات

وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات .

أبا جَعْفَرٍ ، ما أَحْسَنَ العفوَ كُلَّهُ ، ولا سِيَّما عن قائِلٍ لَيْسَ لى عُذْرُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

٥ اقْبلْ معاذِيرَ مَن يأتيكَ مُعتذِراً ، إنْ بَرَّ عنـدكَ فيما قال أوْ فَجَرَا

فقَدْ أطاعك مَنْ أرْضاكَ ظاهِرُهُ ، وقد أجَلَّكَ مَنْ يعْصِيكَ مُسْتَتِرَا

خيرُ الخليطين من أغضى لصاحبه ، ولو أراد انتصارا منه لانتصرا

للحكماء

وقالت الحكماء : ليس من العدل سرعةُ العذل .

للاحنف

وقال الأحنف بن قيس : رُبَّ ملومٍ لا ذنب له .

١٠ وقال آخر :

، لعلَّ لهُ عُذْرًا وأنتَ تلومُ ،

لحبيب

وقال حبيب :

البِرُّ بى مِنْكَ وطى العُذرَ عِندكَ لى ، فيما أتاكَ فلَمْ تقْبَـلْ ولم تلُمِ

وقامَ عِلمُكَ بى فاحْتجَّ عِندَكَ لى ، مقامَ شاهِدِ عـدْلٍ غيرِ مُتَّهَمِ

١٥ وقال آخر :

إذا اعْتَذَر الجانِى محا العُذرُ ذنْبَهُ ، وكُلُّ امْرِئٍ لا يقْبَلُ العُذْرَ مُذْنِبُ

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

عذيرِىَ مِنْ طُولِ البُكا لوْعَةُ الأسَى ، ولَيْسَ لِمَنْ لا يقبَلُ العُذر مِنْ عُذْرِ

وقال آخر :

٢٠ فهَبْنى مُسيئاً كالّذِى قُلتَ ظَالِمًا ، فعفوٌ جَميلٌ كىْ يكونَ لك الفضْلُ

فإنْ لم أكُنْ للعَفْوِ عِنْدَكَ لِلّذِى ، أتيتُ بِهِ أهْلًا فأنتَ لهُ أهْلُ

لبعضهم فى تجنب الاعتذار

ومن الناس مَن لا يرى الاعتذار ، ويقول : إياك وما يُعتذَرُ منه .

وقالوا : ما اعتذر مذنبٌ إلا ازداد ذنباً .

للوراق

وقال الشاعر محمود الوراق :

إذا كانَ وجْهُ العُذرِ ليسَ ببَيّنٍ * فإنّ اطّراح العذْرِ خيرٌ مِنَ العُذْرِ

بين عبدالملك وابن شهاب الزهرى

قال ابن شِهاب الزهرى : دخلتُ على عبد الملك بن مروان فى رجال من أهل المدينة ، فرآنى أحدثَهم سنا ؛ فقال لى : من أنت ؟ فانتسبتُ له . فقال : لقد كان أبوك وعمك نَعّاقَين فى فِتنة ابن الأشعث . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّ مثلك إذا عفا لم يعدِّد ، وإذا صَفَحَ لم يُثَرِّبْ . فأعجبه ذلك ، وقال : أين نشأت ؟ قلت : بالمدينة . قال : عند مَنْ طَلَبْت ؟ قلت : سعيدِ بنِ المسيِّب ، وسليمانَ بنِ يسار ، وقبيصةَ بن ذؤيب . قال : فأين أنت من عُروة بن الزبير ! فإنه بحر لا تكدِّره الدِّلاء . فلما انصرفتُ من عنده لم أبارحْ عُروةَ بن الزبير حتى مات .

بين محمد بن سليمان وابن السماك

ودخل ابن السماك على محمد بن سليمان بن على ، فرآه مُعرِضاً عنه ، فقال : مالى أرى الأمير كالعاتب علىّ ؟ قال : ذلك لشىء بلغنى عنك كرِهْتُه . قال : إذاً لا أُبالى . قال : ولِمَ ؟ قال : لأنه إذا كان ذنباً غَفرْتَه ، وإن كان باطلا لم تقبَله .

بين المنصور وجرير بن عبد الله

دخل جرير بن عبد الله على أبى جعفر المنصور ، وكان واجداً عليه ، فقال له : تكلّم بحُجّتِك . فقال : لو كان لى ذنب تكلّمتُ بعذرى ، ولكن عفوَ أميرِ المؤمنين أحبُّ إلىّ من براءتى .

الهادى ومذنب

وأُتى موسى الهـادى برجل ، فجعل يُقرِّعه بذنوبه . فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إن اعتذارى مما تُقرِّعنى به ردٌّ عليك ، وإقرارى به يُلزِمُنى ذنباً لم أجْنِه ، ولكن أقول :

فإن كنتَ ترجو فى العقوبةِ راحةً * فلا تزهَدَنْ عند المُعافاةِ فى الأجرِ

بين المأمون وابن الفارسى

سُعِىَ بعبد الملك بن الفارسى إلى المأمون ، فقال له المأمون : إن العدلَ مَنْ عدَّلَهُ أبو العباس ، وقد كان وَصَفَك بما وَصف به ، ثم أتتنى الأخبارُ بخلاف ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الذى بلغك عنى تحميلٌ علىّ ، ولو كان كذلك لقلتُ : نعم ، كما بلغك . فأخذتُ بحظّى من الله فى الصدق ، واتّكلتُ على فضل

أمير المؤمنين فى سَعَةِ عَفْوِه . قال : صدقت .

المأمون وابن يوسف وشكاية شده

محمد بن القاسم الهاشمى أبو العَيناء ، قال : كان أحمد بن يوسف الكاتب قد تولى صدقات البصرة ، فجار فيها وظلم ، فكثُر الشاكى له والداعى عليه ، ووافى بابَ أمير المؤمنين زُهاء خمسين رجلا من جِلّة البصريين : فعزله المأمون ، ٥ وجلس لهم مجلساً خاصا وأقام أحمدَ بنَ يوسف لمناظرتهم ، فكان مما حُفظ من كلامه أن قال :

يا أمير المؤمنين ، لو أن أحداً ممن وَلِيَ الصدقاتِ سَلِمَ من الناس لسَلِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل : ﴿ ومنهم مَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقَاتِ فإنْ أُعْطُوا منها رَضُوا وإنْ لم يُعْطَوْا منها إذا هُمْ يَسْخَطُون ﴾

١٠ فأعجب المأمونَ جوابُه . واستجزل مقالَه ، وخلّى سبيلَه .

محمد بن القاسم الهاشمى أبو العيناء قال : قال لى أبو عبد الله أحمد بن أبى دواد : دخلت على الواثق ، فقال لى : مازال قومٌ فى ثَلْبِك ونَقْصِك ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، لكلّ امرئ منهم ما اكتَسَبَ من الإثم والذى تولّى كِبْرَهُ منهم له عذابٌ عظيم ، واللهُ وليُّ جزائه ، وعقابُ أمير المؤمنين مِن ورائه ، وماذَلّ مَن ١٥ كنتَ ناصره ، ولا ضاع مَن كنت حافظَه : فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت أبا عبد الله .

وسَعَى إلَيّ بعيْب عَزّةَ مَعْشَرٌ ٭ جَعل الإلهُ خُدُودَهُنّ نِعالَها

قال أبو العيناء : قلت لأحمد بن أبى دواد : إن قَوماً تظافروا علىّ ! قال : ﴿يدُ الله فوق أيديهم﴾ قلت : إنهم عَددٌ وأنا واحد ! قال : ﴿كم مِن فِئة قليلة غَلَبتْ ٢٠ فِئةً كثيرةً ﴾ قلت : إن للقوم مَكراً ! قال : ﴿ ولا يَحِيقُ المكرُ السّيّئُ إلّا بأَهلِه ﴾ . قال أبو العيناء : فحدّثتُ بهذا الحديث أحمدَ بن يوسف الكاتب ، فقال : مايرى ابن أبى دواد إلا أنّ القرآنَ أُنزل عليه .

قال : وهجا نهارُ بن توسعة قُتيبةَ بن مُسلم ، وكان وَلِيَ خُراسان بعد يزيد

بين قتيبة بن مسلم ونهار بن توسعة

ابن المهلّب ، فقال :

كانت خُراسانُ أرْضاً إذ يَزِيدُ بها ٭ وكلُّ بابٍ منَ الخيراتِ مفتوحُ

فبُدِّلتْ بعدَه قِرْداً نَطوفُ به ٭ كأنما وجهُه بالخَـــلِّ مَنضوحُ

فطلبه فهرب منه ، ثم دخل عليه بكِتاب أمّه ؛ فقال : ويحك ! بأى وجهٍ تلقانى؟ قال : بالوجه الذى ألقَى به ربّى ، وذُنوبى إليه أكثرُ من ذنوبى إليك . فقرّبه ووصلَه وأحسنَ إليه . ٥

المنصور وابن فضالة

وأقبل المنصور يوما راكباً والفرجُ بن فَضالة جالس عند باب الذَّهب ، فقام الناس إليه ولم يقم . فٱستشاط المنصور غيظاً وغضباً ، ودعا به فقال : مامَنَعَك من القيام مع الناس حين رأيتَنى ؟ قال : خفتُ أن يسألنى الله تعالى : لِمَ فعلتَ ؟ ويسألَك عنه : لِمَ رضِيتَ ؟ وقد كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٠ فسكن غضبُه وقرّبه وقضى حوائجَه .

المأمون وابن أكثم

يحيى بن أكثم ، قال : إنى عند المأمون يوماً ، حتى أُتِىَ برجل تُرْعَدُ فرائصُه ، فلما مَثَل بين يديه قال له المأمون : كفرْتَ نعمتى ولم تشكر معروفى ! قال : ياأمير المؤمنين ، وأين يقع شُكرى فى جَنْبِ ماأنعم الله بك علىّ ؟ فنظر إلىّ وقال متمثّلا : ١٥

فلو كان يَستَغنِي عنِ الشكرِ ماجدٌ ٭ لكَثْرة مالٍ أوْ علوِّ مكانِ

لمَا نَدَب اللهُ العبادَ لِشكرِه ٭ فقال اشكروا لى أيها الثَّقلانِ

ثم التفت إلى الرجل فقال له : هلّا قلت كما قال أصرم بن حُميد :

رَشّحتَ حمدِىَ حتى إننى رجلٌ ٭ كلّى بكلِّ ثنـــاءٍ فيك مُشتغِلُ

خَوَّلت شُكرِىَ ماخَوّلتَ من نِعمٍ ٭ فحُرُّ شُكرى لما خوّلتَنى خَوَلُ ٢٠

الاستعطاف والاعتراف

بين المهدى وابن داود

لما سَخِط المهدى على يعقوب بن داود ، قال له : يا يعقوب ، قال : لبيك ياأمير المؤمنين تلبيةَ مكروب لموجدَتِك . قال : ألم أرفع من قدرك إذ كنتَ

وضيعا ، وأُبعدْ من ذِكرك إذ كنت خاملا ، وأُلبِسْك من نعمتى مالم أجد لك بها يدَين من الشكر ؛ فكيف رأيت الله أظهر عليك وردَّ إليك منك ؟ قال : إن كان ذلك بعلمك يا أمير المؤمنين فتصديقُ مُعترِفٍ مُنيب ، وإن كان مما آستخرجتْه دفائن الباغين فعائذٌ بفضلك . فقال : والله لولا الحِنْثُ فى دَمك بما تقدَّم لك ،

٥ لألبستُك منه قميصا لا تَشُدُّ عليه زِرًّا . ثم أمر به إلى الحَبْس ، فتولّى وهو يقول : الوفاء يا أمير المؤمنين كرم ، والمودة رَحِم ، وأنت بهما جدير .

أخذت الشعراء معنى قوله « ألبستُك منه قميصا لا يشدُّ عليه زرّاً » فقال مُعلّى الطائى :

طوَّقْته بحُسامٍ طَوْقَ داهيَةٍ ، ما يستطيعُ عليهِ شَدَّ أزْرارِ

١٠ وقال حبيب : — لحبيب

طَوَّقْته بالحُسامِ طَوْقَ ردًى ، أغْناه عنْ مَسِّ طَوْقِه بيدهْ

وقال :

طوَّقْته بالحسام مُنْصَلِتاً ، آخرَ طوقٍ يكون فى عنقِهْ

ليزيد بن مزيد أمام الرشيد — ولما رضى الرشيد عن يزيد بن مَزيد أذِن له بالدخول عليه فلما مَثَل بين

١٥ يديه قال : الحمدُ لله الذى سهَّل لى سبيلَ الكرامة بلقائك ، وردّ علىّ النعمةَ بوجه الرضا منك ؛ وجزاك الله يا أمير المؤمنين فى حال سُخْطك جزاء المحسنين المرغِبين[1] وفى حال رضاك جزاء المنعمين المُتطوّلين ؛ فقد جعلك الله وله الحمد تَثَبُّت تحرُّجاً عند الغضب ، وتَمْتَنّ تطوُّلا بالنعم ، وتَستبقى المعروف عند الصنائع تفضلًا بالعفو .

المأمون وإبراهيم بن المهدى — لما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدى ، وهو الذى يقال له ابن شِكْلة ، أمر

٢٠ بإدخاله عليه . فلما مثل بين يديه قال : ولِىُّ الثأر محكم فى القصاص ، والعفو أقرب ؛ ...وى ، [والقدرة تُذهب الحفيظة ، ومَن مَدَّ له الآعتذار فى الأمل هجمتْ به

(١) المرغب : المعطى غيره مايرغب فيه .

الأناة على التلف][1] ؛ وقد جعل الله كلَّ ذنب دُونَ عفوك ، فإن صفحت فبكرمك ، وإن أخذتَ فبحقّك .

قال المأمون : إنى شاورتُ أبا إسحاق والعبّاسَ فى قتلك ، فأشارا علىَّ به .

قال : أما أن يكونا قد نصحاك فى عِظَم قدْر المُلك ولِمَا جرت عليه عادةُ السياسة ، فقد فعلا ؛ ولكنك أبيت أن تستجلبَ النصر إلا من حيث عوَّدك الله . ٥

ثم استعبر باكياً .

قال له المأمون : ما يُبكيك .

قال : جَذَلًا ، إذ كان ذنبي إلى مَن هذه صفتُه . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إنه وإن كان جُرمى يبلغ سفكَ دمى ، فحِلْمُ أمير المؤمنين وتفضُّله يُبلغانى عَفوَه ، ولى بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحُرمةُ الأبِ بعد الأب . ١٠

قال المأمون : لو لم يكن فى حقِّ نسبك ما يُبلغ الصفح عن زَلّتك ، لبلّغك إليه حُسنُ توَصلك ولطفُ تَنصُّلك .

فكان تصويبُ إبراهيم لرأى أبى إسحق والعباس ألطفَ فى طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تخطئتهما .

المأمون وإسحاق بن العباس

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : لا تَحسبَنى أغفلتُ إجلابَك مع ابن المهلّب وتأييدَك لرأيه وإيقادَك لناره . ١٥

قال : يا أمير المؤمنين ، والله لإجرامُ قريشٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظمُ من جُرمى إليك ، ولَرَحِمى أمسُّ من أرحامهم ، وقد قال كما قال يوسف لإخوته : ﴿لا تثريبَ عليكمُ اليومَ يغفِرُ اللهُ لكمْ وهُوَ أرحَمُ الرّاحمين﴾ وأنت يا أمير المؤمنين أحقُّ وارثٍ لهذه المِنة ومُمتثلٍ بها . ٢٠

قال : هيهات . تلك أجرامٌ جاهلية عفا عنها الإسلام ، وجُرمُك جُرمٌ فى إسلامك وفى دار خلافتك .

---

(١) زيادة عن نهاية الأرب .

قال : يا أمير المؤمنين ، فوالله لَلمُسْلِم أحقُّ بإقالة العثرة وغُفْران الزَّلّة مِنَ الكافر ، هذا كتاب الله بيني وبينك . يقول الله تعالى : ﴿وسارِعُوا إلى مغْفِرةٍ مِنْ ربِّكُمْ وجنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰوَاتُ والأرضُ أُعِدَّتْ للمُتَّقِين ، الّذينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والكاظِمِينَ الغَيْظَ والعافِينَ عَن النَّاسِ واللهُ يُحب المحْسِنينَ﴾ فهى للناس يا أمير المؤمنين سُنَّةٌ دخَل فيها المسلمُ والكافر ، والشريفُ والمشروف .

٥

قال : صدقت . اجلس . ورِيَتْ بك زِنادى ، فلا قدَح نارى من الغابرين من أهلِك أمثالُك .

العتبي عن أبيه قال : قبض مروانُ بن محمد بن معاوية بن عمر بن عتبة مالَه بالفِرْسان [1] فقال : إنى قد وجدت قطيعةَ عمك لأبيك ، إنى أقطعتُك بستانى . والبستانُ لا يكون إلا عامرا ، وأنا مُسلِمٌ إليك العامرَ وقابضٌ منك العامر . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن سلفك الصالح لو شهدوا مجلسنا هذا كانوا شهودا على ما ادعيتُه ، وشُفعاء فيما طلبته ، يسألونك بإحسانك إلىَّ مكافأةَ إحسان سلفى إليهم فشَفِّع فينا الأموات ، واحفظ منا القرابات ، واجعل مجلسَك هذا مجلساً يلزَمُ مَن بعدنا شُكرُه . قال : لا والله ، إلا أن أجعلها طعمةً منى لك ، لا قطيعة من عمك لأبيك .

١٠

قال : قد قبلتُ ذلك . ففعل .

١٥

عبد الملك وابن عتبة وخالد بن يزيد

العتبي قال : أمر عبدُ الملك بن مروان بقطع أرزاق آل أبى سفيان وجوائزهم لِمَوْجِدة وَجَدها على خالد بن يزيد بن معاوية . فدخل عليه عمرو بن عتبة . فقال : يا أمير المؤمنين . إن أدنَى حقِّك مُتعِب . وبعضه فادحٌ لنا ، ولنا مع حقك علينا حقٌّ عليك ، بإكرام سلفنا لسلفك . فانظر إلينا بالعين التى نظروا بها إليهم ، وضعْنا بحيث وضعَتْنا الرَّحِمُ منك .

٢٠

قال عبد الملك : إنما يستحق عطيتى من استعطاها ، فأما من ظن أنه يكتفى بنفسه فسَنَكِلُهُ إلى نفسه . ثم أمر له بعطيّة .

---

(١) الفرسان : قرية من قرى أصبهان .

وبلغ ذلك خالداً فقال : أبالحرمانِ يهدّدنى ؟ يدُ الله فوق يده باسطة ، وعطاء الله دونه مبذول . فأما عمرٌو فقد أعْطَى من نفسه أكثر مما أخذ لها .

سليمان بن على وابن عتبة إمام المسودة

العُتبى قال : حدثنا طارق بن المبارك ، عن عمرو بن عُتبة ، قال : جاءت دولةُ المُسوِّدة وأنا حديث السن كثير العِيال متفرِّق المال ، فجعلت لا أنزل قبيلةً من قبائل العرب إلا شُهرت فيها . فلما رأيت أمرى لا يُكتَتم ، أتيت سليمانَ بن على فاستأذنت عليه قُرب المغرب ، فأذِن لى وهو لا يعرفنى : فلما صرتُ إليه قلت : أصلحك اللهُ ! لفظَتْنى البلادُ إليك ، ودلنى فضلُك عليك ؛ فإما قبلتَنى غانما ، وإما رددتَنى سالما .

قال : ومن أنت ؟ فانتسبت له ؛ فعرَفَنى . وقال : مرحبا ، اقعُد فتكلم غانماً سالما . قلت : أصلحك الله ! إن الحُرَمَ التى أنت أقربُ الناس إليهن معنا ، وأولى الناس بهن بعدنا ، قد خِفْن بخَوْفنا ، ومن خاف خِيف عليه . قال : فاعتمدَ سليمان على يديه وسالت دموعه على خديه ، ثم قال : يا ابن أخى ، يحْقِنُ اللهُ دمَك ، ويستر حُرمك ، ويُسلِم مالك إن شاء الله ؛ ولو أمكننى ذلك فى جميع قومك لفعلت . فلم أزل فى جوار سليمان آمنا .

وكتب سليمان إلى أبى العباس أمير المؤمنين : أما بعد . يا أمير المؤمنين ، فإنا إنما حاربْنا بنى أمية على عقوقهم ولم نحاربهم على أرحامهم ، وقد دفَّتْ إلىّ منهم دافّة لم يُشهروا سلاحا ، ولم يكثروا جمعاً ، وقد أحسنَ اللهُ إليك فأحْسِنْ . فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب لهم أمانا ويأمرَ بإنفاذه إلىّ فليفعل .

فكتب لهم كتابا منشوراً وأنفذه إلى سليمان بن على ، فى كل من لجأ إليه من بنى أمية ، فكان يسميه أبو مُسلِم : كهْفَ الأُبّاق .

الرشيد وعبد الملك بن صالح

دخل عبد الملك بن صالح يوما على الرشيد ، فلم يلبث فى مجلسه أن التفت الرشيد فقال متمثّلا :

أُريدُ حَياتَهُ ويُريدُ قتْلى ٭ عذيرك مِنْ خَليلِكَ من مُرَاد

ثم قال : أما والله لكأنى أنظر إلى شؤبوبها قد همع ، وعارضِها قد لمع ، وكأنى

بالوعيد قد وقع ، فأقلعَ عن بَراجمَ بلا مَعاصم ، وجماجمَ بلا غَلاصم ، فمهلا مهلا ؛ فَبِى والله يسهل لكم الوَعْر ، ويصفو لكم الكَدر . وألقتْ إليكم الأمورُ مقاليدَ أزمّتها ، فالتدارك التدارك قبل حلول داهية ، خَبُوطٍ باليد لَبوطٍ بالرِّجل .

قال عبد الملك : أفذًّا ماتكلمتَ أم توْءماً يا أمير المؤمنين ؟ قال : بل فَذًّا .

٥ قال : اتق الله فى ذى رحمك وفى رعيّتك التى استرعاك الله ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضعَ الثواب ؛ فقد محضتُ لك النصيحة وأديت لك الطاعة ، وشددت أواخى مُلكك بأثقل من رُكْنَىْ يَلمْلَمَ ، وتركت عدوّك سبيلا تتعاوره الأقدام ؛ فاللهَ اللهَ فى ذى رحمك أن تقطعه بعد أن وصلتَه ؛ إنّ الكتاب لنميمة واش وبَغْىُ باغ ؛ يَنهش اللحم ، ويلغ فى الدم ؛ فكم ليلِ تمامٍ فيك كابدتُه ،

١٠ ومَقام ضيق فرّجتُه ، وكنتُ كما قال الشاعر أخو بنى كلاب :

ومَقام ضَـيِّق فرّجتُهُ * بلسانى ومَقامى وجَـدَل

لو يقومُ الفيـلُ أو فَيّالُه * زَلَّ عن مثْل مقامى وزَحَلْ

فرضى عنه ورحّب به ، وقال وَريتْ بك زنادى .

الرشيد وعبد الملك بن صالح

والتفت الرشيد يوماً إلى عبد الملك بن صالح فقال : أكُفراً بالنعمة ،

١٥ وغدراً بالإمام ؟

قال : لقد بُؤتُ إذاً بأعباء الندم ، وسعيتُ فى استجلاب النِّقَم ؛ وما ذلك يا أمير المؤمنين ، إلا بَغْىُ باغ نافسنى فيك بقديم الولاية ، وحقّ القرابة ؛ يا أمير المؤمنين ، إنك خليفة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فى أمته ، وأمينُه على رعيته ، لك عليها فرْضُ الطاعة وأداءُ النصيحة ؛ ولها عليك التثبُّتُ فى حادثها ،

٢٠ والعدل فى حكمها .

فقال له هارون : تَضَعُ لى من لسانك ، وترفعُ علىّ من جَنانك بحيث يحفَظ اللهُ لى عليكَ ! هذا قمامةُ كاتبُك يُخبرنى بفِعْلك .

فقال عبد الملك : أحقا يا قمامة ؟

قال : نعم لقد أردتَ خَتْلَ أمير المؤمنين والغدرَ به .

فقال عبد الملك : كيف لا يكذب علىّ من خلفى مَن بَهتَنى فى وجهى ؟

قال الرشيد : هذا ابنك شاهد عليك .

قال : يا أمير المؤمنين ، هو بين مأمورٍ أو عاقّ ؛ فإن كان مأموراً فمعذور ، وإن كان عاقّا فما أخاف من عقوقه أكثر .

بينه وبينه أيضا

وقال له الرشيد يوماً وكان مُعتلًّا عليه : أتُبقُّون بالرَّقة ؟ قال : نعم ، ونتبرّغث ! قال : يابن الفاعلة ! ما حَمَلك على أن سألتُك عن مسألة فرددت علىّ فى مسألتين ؟ وأمر به إلى الحبس ؛ فلم يزل فى حبسه حتى أطلقه الأمين .

لعبد الملك بن صالح بعد خروجه من السجن

إبراهيم بن السِّندى قال : سمعت عبد الملك بن صالح يقول بعد إخراج المخلوع له من الحبس ، وذكر الرشيدَ وفعلَه به ، فقال : والله إن المُلْكَ لشىء ما نويتُه ولا تمنَّيتُه ، ولا نَصبْتُ له ولا أردتُه ، ولو أردتُه لكان إلىّ أسرع من الماء إلى الحُدور ، ومن النار إلى يَبيس العرفج ؛ وإنى لمأخوذ بما لم أَجنِ ، ومسئولٌ عما لم أعرف ، ولكن حين رآنى للمُلْكِ قَمِينا ، وللخلافة خطيرا ، ورأى لى يداً تنالها إذا مُدَّتْ ، وتبلغها إذا بُسِطت ، ونَفساً تكمُل لخصالها ، وتستحقها بفَعالها ـ وإن كنت لم أَجنِ تلك الخصال ، ولم أصطنع تلك الفعال ، ولم أترشَّحْ لها فى السر ، ولا أشرتُ إليها فى الجهر ـ ورآها تحنُّ إلىّ حنين الوالدة الوالهة ، وتميل مَيْلَ الهَلُوك ؛ وخاف أن تَرْغَب إلى خيرِ مَرْغَب ، وتنزِع إلى أخصب منزع ، عاقبنى عقابَ مَن سَهِر فى طلبها ، وجَهد فى التماسها ، فإن كان إنما حَسِبنى أنى أصلح لها وتصلح لى ، وأَلِيقُ بها وتليق بى ، فليس ذلك بذنبٍ جنيتُه فأتوبَ منه ، ولا تطاولتُ له فأحطَّ نفسى عنه ؛ وإن زعم أنه لا صَرْفَ لعقابه ، ولا نجاةَ من عذابه ، إلا أنْ أخرُجَ له من حَدّ العلم والحِلم والحزم ؛ فكما لا يستطيع المِضياعُ أن يكون مُصلحا ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا . وسواء عليه أعاقَبَنى على عِلمى وحلمى ، أم عاقبنى على نسبى وسِنى ، وسواء عليه عاقبنى على جمالى أو عاقبنى على محبة الناس لى . ولو أردتُها لأعجلتُه عن التفكير ، وشغلتُه عن التدبير ، ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير .

ابن سلم حين بلغه غضب الخليفة على رجاء

إبراهيم بن السندى قال : كنت أساير سعد بن سَلم ، حتى قيل له : إن أمير المؤمنين قد غضب على رجاء بن أبى الضحّاك وأمر بأخذ ماله ، فارتاع بذلك وجزع ، فقيل له : ما يروعك منه ؟ فوالله ماجعل اللهُ بينكما نسباً ولا سَببا . فقال : بلى ، النّعمةُ نَسَبٌ بين أهلها ، والطاعة سببٌ مؤكّد بين الأولياء .

لبعضهم فى الاعتذار إلى ملك

وبعث بعض الملوك إلى رجل وَجَد عليه : فقال لما مَثَل بين يديه : أيها الأمير ، إن الغضب شيطانٌ فاستعِذْ بالله منه ؛ وإنما خُلق العفو للمذنب ، والتجاوز للمُسىء ، فلا تَضقْ عما وسع الرعيّة من حلمك وعفوك . فعفا عنه وأطلق سبيله .

قتيبة وأبو مجلز

ولما اتهم قتيبة بن مُسلم[1] أبا مجلز على بعض الأمر، قال : أصلح الله الأمير ، تَثبّتْ ؛ فإن التثبّتَ نصفُ العفو .

الحجاج ومذنب

قال الحجاج لرجل دخل عليه : أنت صاحب الكلمة ؟ قال : أبوء بالذنب ، وأستغفر الرب ، وأسأل العافية ! قال : قد عفونا عنك .

بعض الملوك ومذنب

وأرسل بعض الملوك فى رجل أراد عقوبته ، فلما مثل بين يديه قال : أسألك بالذى أنت بين يديه أذلُّ منى بين يديك ؛ وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابى ، إلّا نظرتَ فى أمرى نظر مَن بُرْئى أحبُّ إليه من سَقمى ، وبراءتى أحبُّ إليه من جُرمى .

سليمان بن عبد الملك وخالد ابن عبد الله

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وَجَد عليه : يا أمير المؤمنين ، إن القُدرة تُذهب الحفيظة ؛ وأنت تَجلُّ عن العقوبة ونحن مُقِرّون بالذنب : فإن تعفُ عنى فأهلُ ذلك أنت ، وإن تُعاقبنى فأهلُ ذلك أنا .

معاوية وابن زنباع

وأمر معاوية بن أبى سفيان بعقوبة روح بن زِنْباع ، فقال له : أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تضع منى خسيسةً أنت رفعتَها ، أو تنقُضَ منى مَريرة أنت أبرَمْتَها ، أو تُشمتَ بى عدوًّا أنت وقَمْتَه ، إلا أتى حِلمُك وصفحُك على خطئى وجهلى . فقال معاوية : خَلِّيا عنه ، إذا أراد الله أمرا يَسّره .

(١) فى بعض الأصول : « سلم بن قتيبة »

عبد الملك ورجل جفاه

وجد عبد الملك بن مروان على رجل فجفاه واطَّرَحه ، ثم دعا به ليسأله عن شيء ، فرآه شاحباً ناحلا : فقال له : مُذْ متى آعتللت ؟ فقال :

ما مسَّنى سُـــقْمٌ ولكنَّنى ٭ جفوْتُ نفْسى إذ جفانى الأمير

وآليت ألا أرضى عنها حتى يرضى عنى أمير المؤمنين . فأعاده إلى نفسه .

الحسن بن سهل ونعيم بن حازم

وقعد الحسنُ بن سهل لنُعيم بن حازم ، فأقبل إليه حافياً حاسراً وهو يقول : ٥ ذنبى أعظم من السماء ، ذنبى أعظم من الأرض . فقال له الحسن : على رِسْلك أيها الرجل ، لا بأس عليك ، قد تقدمتْ لك طاعة ، وحَدَثت لك توبة ، وليس للذنب بينهما موضع ، ولئن وَجَد موضعاً فما ذنبُك فى الذنوب بأعظمَ من عفو أمير المؤمنين فى العفو .

المأمون وهاشمى أذنب

ـ أذنبَ رجلٌ من بنى هاشم ذنباً إلى المأمون ، فعاتبه فيه . فقال : ياأمير المؤمنين ، ١٠ من حَمل مثل دالّتى ، ولبِسَ ثوبَ حُرمتى ، ومَتَّ بمثل قرابتى ، اغتُفِر له فوق زَلَّتى . قال : صدقت يابن عمى . وصفح عنه .

المأمون ورجل اعتذر

واعتذر رجل إلى المأمون من ذنب فقال له : إنى وإن كانت زلتى قد أحاطت بحرمتى فإن فضلك محيط بها ، وكرمَك موقوفٌ عليها .

أخذه صريع الغوانى فقال : ١٥

إن كان ذنبى قد أحاطَ بحُرْمتى ٭ فأَحِط بذَنبى عفوَك المأْمُولا

المنصور ويزيد ابن هبيرة

دخل يزيد بن عمر بن هُبيرة على أبى جعفر المنصور بعدما كتب أمانه ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إنّ إمارتكم بِكر ودولتكم جديدة ، فأَذيقوا الناس حلاوتَها ، وجَنِّبوهم مرارتَها ، تَخِفَّ على قلوبهم طاعتُكم ، وتُسرع إلى أنفسِهم محبّتكم ، ومازلتُ مستبطئا لهذه الدعوة . فلما قام قال أبو جعفر : عجباً من كل مَن يأمر ٢٠ بقتل هذا ! ثم قتله بعد ذلك غدرا .

المنصور بعد هزيمة عبد الله ابن على

الهيثم بن عدى قال : لما انهزم عبد الله بن على من الشام ، قَدِم على المنصور وفد منهم ، فتكلموا عنده ، ثم قام الحارث فقال : ياأمير المؤمنين ، إنا لسنا وفدَ

مُباهاة ، وإنما نحن وقدُ تَوْبة ، ابْتلينا بفتنة آستخفّت كريمَنا ، واستفزّت حليمَنا ، ونحن بما قدّمنا معترفون ، وبما سَلَف منا مُعتذِرون . فإن تعاقبْنا فقد أجرمْنا وإن تعفُ عنا فطالما أحسنتَ إلى من أساء منا .

فقال المنصور للحَرسِيّ : هذا خطيبهم ! وأمر بردّ ضياعِه عليه بالغُوطة .

تميم بن جميل بين يدي المعتصم

٥ قال أحمد بن أبي دُواد : ما رأينا رجلًا نزل به الموتُ فما شَغله ذلك ولا أذهله عما كان يجب أن يفعله ، إلا تميمَ بن جميل ؛ فإنه كان تغلَّبَ على شاطئ الفرات ؛ وأوفى به الرسولُ بابَ أمير المؤمنين المُعتصم في يوم المَوكب حين يجلس للعامة ، ودخل عليه ، فلما مَثَل بين يديه ، دعا بالنِّطْع والسيف ، فأُحْضِرا ، فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً ، وجعل المعتصم يُصَعِّد النظر فيه ويُصَوِّبه ، وكان ١٠ جسيما وسيما ، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جَنانه ولسانُه من منظره . فقال : يا تميم ، إن كان لك عذرٌ فأْتِ به ، أو حجةٌ فأَدْلِ بها .

فقال : أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول : الحمد لله الذي أحسن كلَّ شيء خلقه ، وبدأ خلقَ الإنسانِ من طين ، ثم جعل نسلَه من سُلالة من ماءٍ مَهِين . يا أمير المؤمنين ، إن الذنوب تُخرِس الألسنة ، وتَصْدَع الأفئدة ، ولقد ١٥ عَظُمت الجريرة وكَبُر الذنب ، وساء الظنّ ، ولم يبق إلا عفوُك أو آنتقامُك ، وأرجو أن يكون أقربُهما منك وأسرعُهما إليك أولاهما بآمتنانك ، وأشبهَهما بخلائقك . ثم أنشأ يقول :

أرى الموتَ بين السَّيف والنِّطع كامِناً ... يُلاحِظني من حَيثما أتلفَّتُ

وأكبر ظني أنك اليومَ قاتِلي ... وأيُّ امرئ مما قَضى الله يُفلِتُ

٢٠ ومَن ذا الذي يُدْلِي بعذرٍ وحُجةٍ ... وسَيفُ المَنايا بين عينيه مُصْلَتُ

يعزّ على الأوسِ بن تَغْلِبَ موقفٌ ... يُسَلُّ عليَّ السيفُ فيه وأسكُتُ

وما جَزَعي من أن أموتَ وإنني ... لأَعلَمُ أنّ الموتَ شيءٌ مُوَقَّتُ

ولكنّ خَلْفي صِبْية قد تركتُهم ... وأكبادُهُمْ من حَسرة تتفتّتُ

كأنى أراهم حين أُنعَى إليهم ، وقد خمشوا تلك الوجوه وصوّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بغبطة ، أذودُ الردى عنهم وإن متُّ موّتوا
فكم قائلٍ لا يُبعِدُ الله رُوحَهُ ، وآخرَ جَذلانٍ يُسَرُّ ويَشمَتُ

قال : فتبسم المعتصم وقال : كاد والله ياتميم أن يسبقَ السيفُ العَذَل ، اذهب ، فقد غفرتُ لك الصبوة ، وتركتك للصِّبية . ٥

المهدى وأبو عبيد الله بعد قتل ابنه

وحُكى أن أمير المؤمنين المهدى قال لأبى عُبيد الله لما قتل ابنه : إنه لو كان فى صالح خدمتك وما تعرّفناه من طاعتك ، وفاءٌ يجب به الصفحُ عن ولدك ، ماتجاوز أمير المؤمنين ذلك به إلى غيره ؛ ولكنه نكص على عقبيه وكفر بربّه . قال أبو عبيد الله : رضانا عن أنفسنا وسُخْطُنا عليها موصولٌ برضاك وسُخطك ، ونحن خدمُ نعمتك ، تُثيبنا على الإحسان فنشكر ، وتُعاقبنا على الإساءة فنصبر . ١٠

المنصور وجعفر ابن محمد

أبو الحسن المدائنى قال : لما حج المنصور مرّ بالمدينة ، فقال للربيع الحاجب : علىّ بجعفر بن محمد ، قتلنى اللهُ إن لم أقتله . فمُطِل به ، ثم ألحّ عليه فحضر ، فلما كُشف الستر بينه وبينه ومَثَل بين يديه ، همس جعفر بشفتيه ، ثم تقرّب وسلّم ، فقال : لاسلّم الله عليك ياعدوّ الله ، تُعمل علىّ الغوائل فى مُلكى ؟ قتلنى الله إن لم أقتلك . قال : ياأمير المؤمنين ، إنّ سليمان صلى الله على محمدٍ وعليه ، أُعطِىَ فشكر ، وإن أيوبَ ابتُلِىَ فصبر ، وإن يوسف ظُلِمَ فغفر ؛ وأنت على إرث منهم ، وأحقُّ مَن تأسّى بهم . فنكس أبو جعفر رأسه مليا . وجعفر واقف ، ثم رفع رأسه فقال : إلىّ أبا عبدِ الله ، فأنت القريبُ القرابة ، وذو الرّحِم الواشجة السليمُ الناحية ، القليل الغائلة . ثم صافحه بيمينه ، وعانقه بشماله ، وأجلسه معه على فراشه وانحرف له عن بعضه ، وأقبل عليه بوجهه يُحادثه ويسائله . ثم قال : ياربيع ، عجّل لأبى عبد الله كُسوتَه وجائزتَه وإذنَه . ١٥ ٢٠

قال الربيع : فلما حال الستر بينى وبينه أمسكتُ بثوبه ، فقال : ماأرانا ياربيعُ إلا وقد حُبِسنا . فقلت : لاعَلَيك ! هذه منّى لامنه . فقال : هذه أيسر ، سلْ حاجتَك . فقلت له : إنى منذ ثلاث أدفع عنك وأدارى عليك ، ورأيتك إذ دخلتَ همستَ

بشفتيك ، ثم رأيتُ الأمر انجلى عنك ، وأنا خادم سُلطان ولا غِنَى لى عنه ، فأحبُّ منك أن تعلِّمَنيه . قال : نعم ، قلت : « اللهم احرسنى بعينك التى لا تنام ، واكْنُفْنى بحفظك الذى لا يُرَام ، ولا أَهْلِكُ وأنت رجائى ، فكم من نعمةٍ أنعمتَهَا علىّ قلَّ لك عِندها شُكرى فلم تَحْرِمْنى ، وكم من بليّةٍ ابتُليتُ بها قلَّ عِندها صَبرى فلم تخذلنى ، بك أدرأ فى نَحْرِه ، وأستعيذُ بخيرِك من شَرِّه ، فإنك على كلِ شىء قدير ، وصلى اللهُ على سيدنا محمد وآله وسلَّم .

سليمان بن عبد الملك ويزيد بن راشد

المدائنى قال : لما قام يزيد بن راشد خطيباً ، وكان فيمن دعا إلى خَلع سليمان بن عبد الملك والبيعةِ لعبد العزيز بن الوليد . فنذر سليمان قطع لسانه . فلما أفضت الخلافة إليه ، دخل عليه يزيد بن راشد ، فجلس على طرف البساط مُفكِّراً ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، كُن كَنبىِّ الله صلى الله عليه وسلم : ابْتُلِي فَصَبَر ، وأُعطِى فشَكَرَ ، وقدَر فغفر ، قال : ومن أنت ؟ قال : يزيد بن راشد . فعفا عنه .

الرشيد ورجل حبسه

حبس الرشيد رجلا ، فلما طال حبسُه كتب إليه : إن كل يوم يمضى من نعيمك يمضى من بؤسِى مثلُه ، والأمد قريب والحكم لله ، فأطلقه .

أسد القسرى ودهقان يعذب

ومر أسد بن عبد الله القَسرىّ وهو والى خراسان ، بدار من دور الاستخراج ، ودِهقانٌ يعذَّب فى حبسه ، وحول أسد مَساكين يستجدونه . فأمر لهم بدراهم تُقسم فيهم . فقال الدهقان : يا أسد ، إن كنت تُعطى من يُرْحَم فارحم من يُظْلَم فإن السموات تنفرج لدعوة المظلوم . يا أسد ، احذر مَن ليس له ناصر إلا الله ، واتق من لا جُنَّةَ له إلا الابتهال إلى الله . إن الظالم مَصرعه وخيم ، فلا يغترّ بإبطاء الغيثات من ناصر متى شاء أن يُجيب أجاب ، وقد أَمْلَى لقوم ليزدادوا إثماً فأمر أسد بالكفّ عنه .

المأمون ورجل من خاصته

عَتب المأمون على رجل من خاصّته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن قديم الُحرمة ، وحديث التَّوبة يَمْحُوان ما بينهما من الإساءة . فقال : صدقت . ورضى عنه .

ملك من ملوك فارس وصاحب مطبخه

وكان ملك من ملوك فارس عظيمَ المملكة شديد النِّقمة ، وكان له صاحبُ مطبخ ، فلما قرّب إليه طعامَه صاحب المطبخ سقطتْ نقطةٌ من الطعام على يديه ، فروى لها الملك وجهه ؛ وعلم صاحب المطبخ أنه قاتلُه ، فكفأ الصحفة على يديه . فقال الملك : علىّ به ، فلما أتاه قال له : قد علمتُ أن سقوطَ النقطة أخطأتْ بها يدُك ، فما عُذرك فى الثانية ؟ قال : استحييتُ للملك أن يَقتل مثلى فى سنى وقديم ٥
حُرمتى فى نُقطة ، فأردتُ أن أُعْظِم ذنبى ليحسُنَ به قتلى ، فقال له الملكُ : لئن كان لطفُ الاعتذار يُنجيك من القتل ما هو بمُنجيك من العقوبة ، اجلدوه مائة جلدة وخَلّوه .

المأمون ومحمد ابن عبد الملك

الشيبانى قال : دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضِياعهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك ، ورَبيب دولتك ، ١٠
وسليل نعمتك ؛ وغصن من أغصان دَوحتك ؛ أتأذن فى الكلام ؟ قال : نعم قال : نستمنح الله حياطةَ ديننا ودنيانا ، ورعايةَ أدنانا وأقصانا ببقائك ؛ ونسأله أن يزيد فى عُمرك من أعمارنا ، وفى أثرك من آثارنا ، ويقيَكَ الأذى بأسماعنا وأبصارنا . هذا مَقامُ العائذ بفضلك ، الهاربِ إلى كنفك وظِلّك ، الفقير إلى رحمتك وعَدلِك . ثم تكلم فى حاجته ، فقضاها . ١٥

عبيد بن أيوب والحجاج

وقال عُبيد بن أيوب ، وكان يطلبه الحجاج لجناية جناها ، فهرب منه وكتب إليه :

أذِقنى طعمَ النومِ أو سَلْ حقيقةً * علَىّ فإنْ قامتْ ففصِّلْ بَنانِيَا
خَلعْتَ فؤادى فاستطارَ فأصبحتْ * ترامَى به البِيدُ القِفارُ تَرامِيَا

ولم يقل أحدٌ فى هذا المعنى أحسنَ من قول النابغة الذبيانى للنُّعمان بن المنذر : ٢٠

أتانى أبيتَ اللّعنَ أنك لُمتَنِى * وتلك التى تَستَكُّ منها المسامِعُ
فبتُّ كأنّى ساوَرَتْنِى ضئيلةٌ * من الرُّقْشِ فى أنيابِها السّمُّ ناقِعُ
أكَلَّفْتَنى ذنْبَ امرئٍ وتركتَه * كذِى العُرِّ يُكوَى غيرُهُ وهو راتِعُ
فإنك كالليلِ الذى هو مُدرِكِى * وإن خِلْتُ أنّ المُنتأَى عنكَ واسِعُ

وقال فيه أيضاً :

ولستَ بمستبْقٍ أخاً لا تَلُمُّــهُ * على شَعَثٍ أي الرجالِ المُهـذَّبُ ؟
فإنْ أكُ مظلوماً فعبدٌ ظلَمْتَه * وإن تكُ ذا عَتْبٍ فمثلُكَ يُعْتِبُ
حَلَفْتُ فلم أتْرُكْ لنفسك رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ
٥ لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنّى جنايةً * لَمُبْلِغُكَ الواشى أغشُّ وأكْذَبُ
ألَمْ تَرَ أنّ اللهَ أعطاكَ سورةً * ترى كلَّ مَلْكٍ دونَها يتذبذبُ
فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ * إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

لابن الطثرية

وقال ابن الطَّثْرية :

فهبنى امْرءًا إما بَرِيئاً عَلِمْتَهُ * وإما مُسيئاً تابَ منه وأعْتَبا
١٠ وكنتَ كذِى داءٍ تَبَغَّى لدائِه * طبيباً فلما لَمْ يَجِدْه تَطَبَّبا

الممزق العبدى

وقال الممزَّق العبدى لعمرو بن هند :

تَرُوحُ وتغدو ما يُحَلّ وضِينُها * إليك ابنَ ماءِ المُزْنِ وابنَ محرِّقِ
أحقًا أبَيْتَ اللَّعْنَ إنّ ابنَ مُزْننا * على غيرِ إجرامٍ بريقِى مُشَرَّقِ
فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكلٍ * وإلا فأدْرِكْنِى ولمَّا أُمَزَّقِ
١٥ فأنت عَمِيدُ الناسِ مهما تَقُلْ نَقُلْ * ومهما تَضَعْ من باطلٍ لا يُلَحَّقِ

وتمثل بهذه الأبيات عثمان بن عفان فى كتابه إلى على بن أبى طالب يوم الدار .

لابن الزيات يستعطف المتوكل

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات ، لما أحسّ بالموت وهو فى حبس المتوكل ، برُقعة إلى المتوكل ، فيها :

هى السبيلُ فمن يومٍ إلى يومِ * كأنه ما تُرِيكَ العينُ فى النَّوْمِ
٢٠ لا تَعْجَلَنّ رُوَيداً إنما دُوَلٌ * دُنيا تَنَقّلُ من قومٍ إلى قومِ
إنّ المَنايا وإن أصبحتَ ذا فرحٍ * تَحُومُ حولَكَ حَوْماً أيّما حَوْمِ

فلما وصلتْ إلى المتوكل وقرأها أمر بإطلاقه ، فوجدوه ميتاً .

لعمرو بن عتبة ينصح للمنصور

وقال عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة للمنصور ، وقد أراد عقوبة رجل :

ياأمير المؤمنين ، إن الانتقام عدل ، والتجاوز فضل ، والمتفضّل قد جاوز حد المنصف ، ونحن نُعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه أوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفعَ الدرجات .

أبو مسلم وبعض قواده

جرى بين أبى مسلم صاحبِ الدعوة وقائدٍ من قواده يقال له شَهْرام ، كلام ، فقال له قائدُه كلمةً فيها بعض الغِلَظ ، ثم ندم على ما كان منه ، فجعل يتضرع ويتنصّل إليه . فقال له أبو مُسلم : لا عليك ، لسانٌ سَبق ، ووهم أخطأ ، إنما الغضب شيطان ، وإنما جرّأتك علىّ لطول احتمالى عنك ، فإن كنتَ للذنب متعمّداً فقد شاركتُك فيه ، وإن كنت مغلوباً فإن العذر يسعك ، وقد عفونا على كل حال . فقال : أصلح الله الأمير ، إنّ عفو مثلك لا يكون غروراً . قال : أجل . قال : فإنّ عِظَم الذنبِ لا يَدَعُ قلبى يَسْكن . وألح فى الاعتذار . فقال له أبو مسلم : عجباً لك ! إنك أسأت فأحسنتُ ، فلما أحسنتَ أسىء .

المأمون وأبو دلف وقد رضى عنه

دخل أبو دلف على المأمون ، وقد كان عَتب عليه ثم أقاله ، فقال له وقد خلا مجلسه : قل أبا دلف ، وما عَسيت أن تقول وقد رضى عنك أمير المؤمنين وغَفر لك مافعلت ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ،

لياليَ تُدْنى منك بالبِشْرِ مَجلسى ٭ ووجهُك من ماءِ البَشاشةِ يَقْطُرُ
فَمَنْ لِىَ بالعيْنِ التى كنت مَرّةً ٭ إلىّ بها فى سالفِ الدهرِ تَنظرُ

بين المأمون وأبى دلف

قال المأمون : لك بها رجوعُك إلى المُناصحة ، وإقبالُك على الطاعة . ثم عاد له إلى ما كان عليه .

وقال له المأمون يوماً : أنت الذى تقول :

إنى امْرُؤٌ كِسروِىُّ الفَعالِ ٭ أَصِيفُ الجبالَ وأَشْتو العِراقا

ما أراك قَدّمْت لحقّ طاعة ، ولا قضيتَ واجبَ حُرمة ! قال له يا أمير المؤمنين إنما هى نعمتك ونحن فيها خدمُك ، وما هِراقةُ دمى فى طاعتك إلا بعض ما يجب لك

ودخل أبو دلف على المأمون . فقال : أنت الذى يقول فيك ابن جبلة :

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ ٭ بين باديه ومُحْتَضِرهْ
فإذا ولَّى أبو دُلفٍ ٭ ولتِ الدنيا على أثرهْ

فقال : يا أمير المؤمنين ، شهادة زور ، وكذب شاعر ، ومَلَق مُسْتَجْدٍ ؛ ولكنى
٥ الذى يقول فيه ابن أخيه :

ذَرِينى أجوبُ الأرضَ فى طلب الغِنى ٭ فما الْكَرْخُ بالدنيا ولا النـاسُ قاسِمُ

الكرخ : منزل أبى دلف . وكان اسمه قاسم بن عبد الله .

المنصور ومعن ابن زائدة

وقال المنصور لمعن بن زائدة : ما أظنّ ما قيل عنك من ظُلْمك أهلَ اليمن
واعتسافِك عليهم إلا حقا ؟ قال : كيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلغنى عنك
١٠ أنك أعطيت شاعراً لبيت قاله ألف دينار . وأنشده البيت ، وهو :

مَعْنُ بنُ زائِدةَ الذى زِيدتْ به ٭ فخراً إلى فخرٍ بنو شَيبانِ

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قد أعطيتُه ألف دينار ، ولكن على قوله :

مازلتَ يومَ الهاشِمِيَّةِ مُعْلِماً ٭ بالسيفِ دون خليفةِ الرحْمٰنِ
فَمَنَعْتَ حَوْزَتَه وكنت وِقاءَهُ ٭ مِن وقْعِ كلِّ مُهَنَّدٍ وسِنانِ

١٥ قال : فاستحيا المنصور وجعل ينكت بالمخصرة ، ثم رفع رأسه وقال :
اجلس أبا الوليد .

عبد الملك وأعرابى سرق

أُتِىَ عبد الملك بن مروان بأعرابىّ سَرَق ، فأمر بقطع يده ، فأنشأ يقول :

يَدى يا أميرَ المؤمنينَ أُعيذُها ٭ بعفوِك أن تلقَى مكاناً يَشينُها
ولاخيرَ فى الدنيا وكانت حبيبةً ٭ إذا ما شِمالى فارَقتْها يَمينُها

٢٠ فأبى إلا قَطْعَه ؛ فقالت أمه : يا أمير المؤمنين ، واحِدِى وكاسِبِى . قال : بئس
الكاسبُ كان لك ، وهذا حدّ من حدود الله . قالت : يا أمير المؤمنين ، اجعله من
بعض ذنوبك التى تستغفر الله منها ! فعفا عنه .

تذكير الملوك بذمام متقدم

المأمون وابن أشرس

قال ثُمامةُ بن أشرس للمأمون لما صارت إليه الخلافة : كان لى أمَلان : أملٌ لك وأملٌ بك ، فأمّا أَمَلى لك فقد بلغتُه ، وأما أملى بك فلا أدرى ما يكون منك فيه .

قال : يكون أفضلَ ما رَجَوْتَ وأمّلت . فجعله من سُمَّاره وخاصّته . ٥

يزيد بن عبد الملك والأبرش

الأصمعى قال : لما مات يزيد بن عبد الملك وصارت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك ، خرّ أصحابه سجودا ، إلا الأبرش الكلبى . فقال له : يا أبرش ، مامنعك أن تسجد كما سجدوا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، لأنك ذهبت عنا وتركتَنا : قال : فإن ذهبت بك معى ؟ قال : أو تفعل يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم . قال : فالآن طاب السجود ، ثم سجد .

أبو جعفر ورجل من إخوانه يهنئه بالخلافة

ولما صارت الخلافة إلى أبى جعفر كتب إليه رجل من إخوانه : ١٠

إنا بِطانتُك الأُلى * كنا نُكابِد ما تُكابد

ونُرَى فنُعرفُ بالعَدا * وة والبِعادِ لمن تُباعِدْ

ونَبيت من شَفَقٍ عليـــك رَبيئةً والليلُ هاجدْ

هـذا أوانُ وفاءِ ما * سَبَقت به منك المواعِدْ

فوقّع أبو جعفر على كل بيت منها : صدقت صدقت . ثم دعا به وألحقَه فى خاصته . ١٥

لحبيب

وقال حبيب الشاعر فى هذا المعنى :

وإنَّ أوْلَى الموالى أنْ تُواسِـــيَهُ * عند السرورِ لمن واساكَ فى الحَزَنِ

إنَّ الكِرام إذا ما أسْهَلوا ذَكروا * من كان يَألفُهم فى الموْطِنِ الخَشِنِ

حسن التخلص من السلطان

العباس بن سهل وعثمان بن حيان

أبو الحسن المدائنى قال : كان العباس بن سهل والىَ المدينة لعبد الله بن الزبير ، ٢٠ فلما بايع الناسُ عبد الملك بن مروان ، ولّى عثمان بن حيّان المُرّى وأمره بالغلظة على أهل الظِنّة . فعرض يوما بذكر الفتنة وأهلها ، فقال له قائل : هذا العباس بن سهل

على ما فيه ، كان مع الزبير وعَمِل له . فقال عثمان بن حيّان : ويلى ! والله لأقتلنّه .

قال العبّاس : فبلغنى ذلك ، فتغيَّبْتُ حتى أضرَّ بى التغيُّب ، فأتيتُ ناسا من جُلسائه فقلت لهم : مالى أخاف وقد أمّننى عبد الملك بن مروان ؟ فقالوا : والله ما يَذْكُرُك إلا تغيَّظَ عليك ، وقلّما كُلِّم على طعامه فى ذنبٍ إلا انبسط ، فلو تنكَّرْتَ وحضرتَ عشاءه وكلمته .

قال : ففعلتُ ، وقلتُ على طعامه ، وقد أُتى بجفنةٍ ضخمة ذات ثريد ولحم : « والله لكأنى أنظر إلى جفنةِ حَيّان بن مَعبد ، والناسُ يتكاوَسون عليها ، وهو يطوف فى حاشيته يتفقّد مصالحها ، يسحب أردية الخزّ ، حتى إن الحسك ليتعلق به فما يُميطُه ، ثم يُؤتَى بجفنة تَهادى بين أربعة ما يستقلّون بها إلا بمشقّةٍ وعناء ، وهذا بعد ما يفرغ الناس من الطعام ويتنحَّون عنه ، فيأتى الحاضر من أهله ، والطارئُ من أشراف قومه ، وما بأكثرهم من حاجة إلى الطعام ، وما هو إلا الفخر بالدنوِّ من مائدته والمشاركة ليده .

قال : هيه ! أنت رأيت ذلك ؟ قلت : أجل والله . قال لى : ومن أنت ؟ قلت : وأنا آمِن ؟ قال : نعم . قلت : العباس بن سهل بن سعد الأنصارى . قال : مرحَبًا وأهلا ، أهل الشرف والحق . قال : فلقد رأيتُنى بعد ذلك وما بالمدينة رجل أوجه منى عنده . فقيل له بعد ذلك : أنت رأيت حيّان بن معبد يسحب أردية الخز ويتكاوس الناس على مائدته ؟ فقال : والله لقد رأيته ونزلنا ذلك الماء وغَشِينا وعليه عباءةٌ ذَكْوانيّة ، فلقد جعلنا نَذُوده عن رحْلنا مخافة أن يسرقه .

بين المختار وسراقة

أبو حاتم قال : حدثنا أبو عبيدة قال : أُخِذ سُراقة بن مرداس البارقى أسيراً يوم جَبَّانة السُّبَيْع ، فقُدِّم فى الأسرى إلى المختار ؛ فقال سُراقة :

امْنُن علىَّ اليومَ ياخيرَ مَعَدّ ﴿ وخيرَ من لَبَّى وصلَّى وسجدْ

فعفا عنه المختار وخلّى سبيله .

ثم خرج مع إسحاق بن الأشعث فأُتى به المختارُ أسيرا . فقال له : ألم أعْفُ عنك وأمنّ عليك ؟ أما والله لأقتلنّك . قال : لا والله لا تفعل إن شاء الله . قال :

ولِمَ ؟ قال : لأنّ أبى أخبرنى أنك تفتح الشام حتى تهدِمَ مدينة دمشق حجراً حجرا وأنا معك ، ثم أنشده :

ألا أبْلِغْ أبا إسْحاقَ أنَّا ٭ حَمَلْنا حَمْلةً كانتْ علينا
خرَجْنا لا نَرى الضُّعفاء منا ٭ وكانَ خُروجُنا بطَراً وحَيْنَا
تَرَاهُمْ فى مَصفِّهم قليــلًا ٭ وهُم مِثْلُ الدَّبى لما التَقَيْنا
فأسْجِحْ إذْ قَدَرْتَ فلوْ قَدرْنا ٭ لَجُرْنا فى الحُكومَةِ واعْتَدَيْنا
تقَبَّــلْ تَوْبَةً مِنِّى فإنِى ٭ سأَشْكُرُ إنْ جعلْتَ النَّقْدَ دَيْناً ٥

قال : خلّى سبيله .

ثم خرج إسحاق بن الأشعث ومعه سراقة ، فأُخذ أسيرا وأُتى به المختار ، فقال : الحمد لله الذى أمكننى منك يا عدوَّ الله . هذه ثالثة . فقال سراقة : أمَا والله ما هؤلاء الذين أخذونى ! فأين هم ... لا أراهم ؟ إنا لما التقينا رأينا قوما عليهم ثياب بيض ، وتحتهم خيْل بُلْقٌ تطير بين السماء والأرض . ١٠

فقال المختار خلوا سبيله ليخبر الناس .

ثم دعا لقتاله فقال :

ألا مَنْ مُبْلِغ المُخْتار عَنِّى ٭ بأَنَّ البُلْقَ دُهْمٌ مُصْمتات[1] ١٥
أُرِى عينَىَّ ما لمْ ترْأياهُ ٭ كِلانا عالمٌ بالــتُّرَّهاتِ
كفَرْتُ بِوَحْيِكُمْ وجَعَلْتُ نَذْراً ٭ علَىَّ قِتالَكُمْ حتى المَمَاتِ

معن بن زائدة وبعض الأسرى

كان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى ، فقام إليه أصغرُ القوم فقال له : يا معن ، أتقتل الأسرى عطاشاً ؟ فأمر لهم بالماء ؛ فلما سُقُوا قال : يا معن ، أتقتل ضِيفانك ؟ فأمر مَعْن بإطلاقهم . ٢٠

عمر بن الخطاب والهرمزان

لما أُتى عمر بن الخطاب بالهُرمزان أسيراً ، دعاه إلى الإسلام ، فأبى عليه . فأمرَ بقتله ، فلما عُرِض عليه السيف قال : لو أمرتَ لى يا أمير المؤمنين بشَربةٍ

(١) فى بعض الأصول : « مضمرات » .

من ماء، فهو خير من قتلي على الظمأ . فأمر له بها ؛ فلما صار الإناء بيده قال : أنا آمِنٌ حتى أشرب ؟ قال : نعم . فألقى الإناء من يده وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نورٌ أبلج . قال : لك التوقُّفُ حتى أنظر فى أمرك ، آرفعا عنه السيف . فلما رُفع عنه قال : الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله . فقال له عمر : ويحك ! أسلمتَ خير إسلام ، فما أخّرك ؟ قال : خشيتُ يا أمير المؤمنين أن يقال إن إسلامى إنما كان جَزعاً من الموت . فقال عمر : إن لِفارِسَ حُلوماً بها استحقّتْ ما كانت فيه من المُلْك . ثم كان عمر يُشاوره بعد ذلك فى إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعملُ برأيه .

الحجاج وبعض من أسر مع ابن الأشعث

لما أُتى الحجاج بالأسرى الذين خرجوا مع آبن الأشعث ، أمَرَ بقتلهم ؛ فقال رجل أصلح الله الأمير ، إن لى حُرمةً . قال : وما هى ؟ قال : ذكِرْتَ فى عسكر ابن الأشعث فشُتِمْتَ فى أبويك ، فعرَضْتُ دونهما ؛ فقلت : لا والله ما فى نسبه مَطْعن ، فقولوا فيه ودَعُوا نسبَه . قال ومن يعلم ما ذكرت ؟ [قال] فالتفتُّ إلى أقرب الأسرى إلىّ فقلت : هذا يعلمه . قال له الحجاج : ما تقول فيما يقول ؟ قال : صدق ـ أصلح الله الأمير ـ وبرّ . قال : خليا عن هذا لنُصْرَته ، وعن هذا لحفظ شهادته.

روح بن حاتم وبعض المتلصصين

عمرو بن بحر الجاحظ قال : أُتى روحُ بن حاتم برجل كان متلصّصا فى طريق الرّقاق ، فأمر بقتله ؛ فقال : أصلح الله الأمير ، لى عندك يد بيضاء . قال : وماهى ؟ قال : إنك جئت يوماً إلى مجمع موالينا بنى نَهْشل والمجلس مُحتفل ، فلم يتحفّز لك أحد فقمتُ من مكانى حتى جلستَ فيه ، ولولا مَحْضُ كرمك ، وشرفُ قدرك ، ونباهة أوّلِيَّتِك ، ما ذكَّرْتُك هذه عند مثلِ هذا . قال ابن حاتم : صدق ، وأمر بإطلاقه وولّاه تلك الناحية وضَمّنه إياها .

المأمون وأبو دلف حين ظفر به

ولما ظفر المأمون بأبى دُلف ، وكان يقطع فى الجبال ، أمر بضرْبِ عنقِه ؛ فقال : يا أمير المؤمنين دعْنى أركع ركعتين . قال : آفعل . فركع وحَبّر أبياتاً ، ثم وقف بين يديه فقال :

بِعْ بِىَ النّاسَ فإنّى ٭ خَلَفٌ مِمّنْ تبيعُ

واتَّخِذْنى لَكَ دِرْعاً ، قَلَصَتْ عنهُ الدُّرُوعُ
وارْمِ بى كُلَّ عدُوٍّ ، فأَنا السَّهْمُ السَّرِيعُ

فأطلقه وولّاه تلك الناحية ، فأصلحها .

معاوية وأسير من أهل العراق

أُتى معاوية يومَ صِفِّين بأسيرٍ من أهل العراق ، فقال : الحمد لله الذى أمْكننى منك ! قال : لا تَقُل ذلك يا معاوية ، فإنها مُصيبة ! قال : وأى نعمة أعظم من أنْ أمكننى الله من رجل قتل جماعة من أصحابى فى ساعة واحدة ؟ اْضربْ عنقَه يا غلام! فقال الأسير : اللهم اشْهد أن معاوية لم يقتلْنى فيك ، ولا لأنك ترضى بقتلى [1] ؛ وإنما يقتلنى فى الغلبة على حُطَام هذه الدنيا ؛ فإن فعل فافعلْ به ما هو أهله ؛ وإن لم يفعل فافعلْ به ما أنت أهله .

قال له : ويحك ! لقد سببتَ فأبلغت ، ودعوت فأحسنت ؛ خلّيا عنه .

مصعب بن الزبير ورجل من أصحاب المختار

أمَر مصعبُ بن الزبير برجل من أصحاب المختار أن تُضْرَبَ عنقُه ، فقال : أيها الأمير ، ما أقبحَ بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذى يُسْتضاء به ، فأتعلقَ بأطرافك وأقول : أىْ ربِّ ، سَلْ هذا فيمَ قتلنى ؟ قال : أطلقوه . قال : اجعل ما وهبتَ لى من حياتى فى خَفْض . قال : أعطوه مائة ألف . قال الأسير : بأبى أنت وأمى ، أشهد أن لقيس الرُّقيات منها خمسين ألفاً . قال : ولِمَ ؟ قال : لقوله فيك :

إنما مُصْعبٌ شهابٌ مِنَ اللهِ تَجلَّتْ عن وَجْهِهِ الظَّلْماءُ
مُلكه مُلكُ رحمةٍ ليس فيه ، جبَرُوتٌ يُخشى ولا كِبْرياءُ
يتَّقِى اللهَ فى الأُمُورِ وقَدْ أفْـ ، ـلَحَ مَن كان همهُ الاتِّقاءُ

فضحك مصعب وقال : أرىَ فيك موضعاً للصنيعة . وأمر بلزومه وأحسنَ إليه ؛ فلم يزل معه حتى قُتِل .

عبد الملك ورجل أمر بقتله

أمر عبد الملك بقتل رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك أعزَّ ما تكون أحوَجُ ما تكون إلى الله . فعفا عنه .

(١) فى الأصل : وأنك لا ترضى بقتلى .

الحجاج وأسرى من الخوارج

أُتى الحجاج بأسرى من الخوارج ، فأمر بضرب أعناقهم فقُدِّمَ فيهم شابٌّ فقال : والله ياحجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو . فقال : أُفٍّ لهذه الجِيَف . ماكان فيهم مَن يقول مثل هذا ؟ وأمسك عن القتل .

الحجاج وبعض الأسرى

وأُتى الحجاج بأسرى ، فأمر بقتلهم ، فقال له رجل منهم : لا جزاك الله يا حجاج عن السُّنَّة خيرا ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ فإذا لَقِيتُمُ الَّذينَ كَفروا فضَرْبَ الرِّقابِ حتى إذا أثْخَنْتُمُوهم فَشُدُّوا الْوَثاقَ فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإما فِداء ﴾ . فهذا قول الله فى كتابه . وقد قال شاعركم فيما وَصَف به قومَه من مكارم الأخلاق :

وما نَقْتُلُ الأسرَى ولكنْ نَفُكُّهُمْ * إذا أَثْقَلَ الأعناقَ حَمْلُ القَلائدِ

فقال الحجاج : وَيْحكم ! أعجزتم أن تُخبرونى بما أخبرنى هذا المنافق ؟ وأمسك عمن بقى .

الحجاج وحرورية

الهيثم بن عدى قال : أُتى الحجاج بحَرُورِيَّة ، فقال لأصحابه : ماتقولون فى هذه ؟ قالوا : لقتلها . أصلح الله الأمير ، ونَكِّل بها غيرَها ! فتبسَّمت الحرورية . فقال لها : لم تبسَّمتِ ؟ فقالت : لقد كان وزراء أخيك فرعون خيرٌ من وزرائك ياحجاج : استشارهم فى قتل موسى فقالوا : أرْجِه وأخاه ، وهؤلاء يأمرونك بتعجيلِ قتلى ؛ فضحك الحجاج وأمر بإطلاقها .

معاوية ويونس الثقفى

قال معاوية ليونس الثقفى : اتق الله ؛ لأُطيرَنَّك طِيرة بطيئاً وقوعُها ، قال : أليس بى وبك المرجع إلى الله ؟ قال : نعم . قال : فأستغفر الله .

عبد الملك ومخزوى

ودخل رجل من بنى مخزوم على عبد الملك بن مروان ، وكان زُبيريا ، فقال له عبد الملك : أليس الله قد ردَّك على عقبيك ؟ قال : ومَن رُدَّ إليك يا أمير المؤمنين فقد رُدَّ على عقبيه ، فسكت عبد الملك وعلم أنه أخطأ .

سليمان بن عبدالملك ويزيد ابن أبى مسلم

دخل يزيد بن أبى مُسلم على سليمان بن عبد الملك ؛ فقال له سليمان : علَى آمرئٍ أمَّرك وجرَّأك وسلَّطك على الأمة لعنةُ الله ؛ أتظن الحجاج استقرَّ فى قعر جهنم أم هو يهوى فيها ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن الحجاج يأتى يوم القيامة بين أخيك وأبيك ، فضَعْه من النار حيث شئت .

قيس بن عباد وابن زياد

قال عبيد الله بن زياد لقيس بن عَباد : ما تقول فىّ وفى الحُسين ؟ قال : أعْفِنى عافاك الله . قال : لابدّ أن تقول . قال : يجىء أبوه يوم القيامة فيشفع له ، ويجىء أبوك فيشفع لك .

قال : قد علمتُ غِشّك وخُبثَك ، لئن فارقتنى يوماً لأضعن أكثرَك شَعراً بالأرض . ٥

الحجاج وابن يعمر فى الحسين

الأصمعى قال : بعث الحجاج إلى يحيى بن يعمر ، فقال له : أنت الذى تقول إنّ الحسينَ بنَ على ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنُ رسول الله ؟ لتأتينِّى بالمخرج مما قلتَ أو لأضربنّ عُنقَك ! فقال له ابنُ يعمر : وإن جئتُ بالمخرج فأنا آمن ؟ قال : نعم . قال : اقرأ : ﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نَرْفعُ دَرجاتٍ مَن نَشاء إنّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ ۝ ووَهَبْنا له إسحقَ ويعقوبَ كُلاًّ هَدَيْنا ونوحاً هدَيْنا من قبلُ ومن ذُرِّيّته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسُفَ وموسى وهرُونَ وكذلك نَجْزى المُحسنينَ ، وزَكريّا ويَحْيى وعيسى ﴾ فمَنْ أبعدُ[1] : عيسى من إبراهيم ، أو الحسينُ من محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ وإنما هو ابنُ بنته ، فقال له الحجاج : والله لكأنى ماقرأتُ هذه الآية قط ، وولّاه قضاء بلده ، فلم يزل بها قاضياً حتى مات . ١٠ ١٥

الحجاج وابن أبى ليلى

أبو بكر ابن أبى شَيبة بإسناده قال : دخل عبد الرحمن بن أبى ليلى على الحجاج ، فقال لجلسائه : إن أردتم أن تنظروا إلى رجل يَسُبُّ أمير المؤمنين عثمان بن عفان فهذا عندكم ، يعنى عبد الرحمن ، فقال عبد الرحمن : معاذ الله أيها الأمير أن أكون أسُبُّ أمير المؤمنين ، إنه ليَحْجزنى عن ذلك ثلاثُ آياتٍ فى كتاب الله : قال الله تعالى : ﴿ للفُقَراءِ المُهاجِرينَ الذينَ أُخْرجوا من دِيارِهِمْ وأموالِهِمْ يَبتَغونَ فضلا من اللهِ ورِضْواناً وينصُرونَ اللهَ ورسولَه أُولئكَ هُمُ الصادِقون ﴾ فكان عثمان منهم . ثم قال : ﴿ والّذِين تَبوَّءوا الدّار والإيمانَ من قبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إليهم ولا يجِدُون فى صُدورِهِمْ حاجةً مما أُوتوا ويُؤْثِرونَ على أنفُسِهم ٢٠

(١) فى بعض الأصول : «أقرب» .

ولو كان بهم خَصاصةٌ ، ومَن يوقَ شحَّ نفسِه فأولئك همُ المفلِحون ﴾ فكان أبى منهم . ثم قال : ﴿ والذين جاءوا منْ بَعدِهم يقولون ربَّنا اغفِر لنا ولإخوانِنا الذينَ سبَقونا بالإيمانِ ولا تجعلْ فى قلوبِنا غِلًّا للذين آمنوا ربَّنا إنك رءوفٌ رحيمٌ ﴾ فكنت أنا منهم . فقال : صدقت .

الحجاج وعاصم بن أبى وائل

٥ أبو عَوانة عن عاصم بن أبى وائل قال : بعث إلىّ الحجاج فقال لى : ما اسمك ؟ قلت : ما أرسل إلىّ الأمير حتى عرف آسمى ! قال : متى هَبطتَ هذا البلد ؟ قلت : حين هبط أهلُه . قال : ماتقرأ من القرآن ؟ قلت : أقرأ منه ما إذا تَبعتُه كَفانى . قال : إنى أريد أن أستعين بك فى عملى . قلت : إنْ تَستَعِنْ بى تستعنْ بكبيرٍ أخرق ، ضعيفٍ يَخافُ أعوانَ السوء ؛ وإن تَدَعْنى فهو أحبُّ إلىّ ، وإن ١٠ تقحمْنى أتقحّم . قال : إن لم أجد غيرَك أقحمتك ، وإن وجدتُ غيرك لم أُقحمك . قلت : وأخرى أكرم اللهُ الأمير : إنى ماعلمتُ الناسَ هابوا أميراً قط هيبتَهم لك والله إنى لأتعارُّ من الليل فما يأتينى النوم من ذكرك حتى أُصبح ؛ هذا ولست لك على عمل . قال : هيه ! كيف قلتَ ؟ فأعدتُ عليه ؛ فقال : إنى والله لا أعلم على وجه الأرض خَلْقاً هو أجرأ على دم منى ، انصرِفْ . قال : فقمت فعدلت عن ١٥ الطريق كأنى لا أُبصر : فقال : أرشدوا الشيخ .

الحجاج وأسرى الجماجم

لما أتى الحجاج بأسرى الجماجم ، أُتى فيهم بعامرٍ الشَّعْبى ، ومطرِّف بن عبد الله الشِّخِّير وسعيد بن جُبير ، وكان الشعبي ومطرِّف يَريان التَّقيَّة ، وكان سعيد بن جبير لا يراها ، وكان قد تقدم كتابُ عبد الملك بن مروان إلى الحجاج فى أسرى الجماجم ، أن يَعرِضَهم على السيف . فمن أقرّ منهم بالكفر فى خروجهم ٢٠ علينا فيُخَلّى سبيلَه ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرِب عنقه . فقال الحجاج للشعبى : وأنت ممن أَلّبَ علينا مع ابن الأشعث ؟ اشهَدْ على نفسك بالكفر . فقال : أصلح الله الأمير ، نبَا بِنا المنزل ، وأحزَنَ بنا الجَناب ، واستَحلَسنا الخَوْف ، واكتَحلْنا السهر ، وخَبطَتنا فتنةٌ لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فَجَرةً أقوياء . قال : لله أبوك ! لقد صدقت : ما بَرَرْتم بخروجكم علينا ولا قَويتُم ، خَلُّوا سبيلَ الشيخ .

ثم قال لمطرّف : أتُقر على نفسك بالكفر ؟ قال : أصلح الله الأمير ، إن مَن شَق العصا ، وسفك الدماء ، ونكث البَيْعة ، وفارق الجماعة ، وأخاف المسلمين ، لجديرٌ بالكفر . فخَلَّى سبيلَه .

ثم قال لسعيد بن جُبير : أتقِرُّ على نفسك بالكفر ؟ قال : ما كفرتُ منذ آمنتُ بالله . فضرب عنقه .

ثم استعرض الأسرى ، فمن أقرّ بالكفر خلَّى سبيلَه ، ومن أبَى قَتله ، حتى أُتى بشيخ وشاب ، فقال للشاب : أكافرٌ أنت ؟ قال : نعم ، قال : لكن الشيخ لا يرضى بالكفر . فقال له الشيخ : أعَن نفسى تخادعنى يا حجاج ؟ والله لو علمت أعظم من الكفر لقلتُه . فضحك الحجاج وخلَّى سبيله .

للفرزدق فى هجاء الحجاج بعد موته

فلما مات الحجاج وقام سليمان ، قال الفرزدق :

لئنْ نفر الحجّاجَ آلُ مُعتّبٍ ... لقُوا دولةً كانَ العدوُّ يُدالُها

لقد أصبح الأحياءُ منهُم أذِلّة ... وموتاهُمُ فى النّارِ كُلْحاً سِبالُها

وكانوا يَرونَ الدّائراتِ بغيرهِمْ ... فصارَ عليهم بالعذابِ انفِتالُها

ألِكْنِى إلى مَن كانَ بالصّينِ أو رمَى ... بِه الهِند ألواحُ علَيها جِلالُها

هلُمّ إلى الإسلامِ والعدل[1] عِندنا ... فقدْ ماتَ عنْ أهلِ العِراقِ خبالُها

سليمان بن عبد الملك وابن الرقاع

لما ولى سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالأردن : اجمع يَدَىْ عدِىّ بن الرقاع إلى عنقه ، وابعث به إلىّ على قَتب بلا وِطاء ، ووكِّل به مَنْ ينخس به ففعل ذلك . فلما انتهى إلى سليمان بن عبد الملك أُلْقِى بين يديه إلقاءً لا روح فيه ، فتركه حتى ارتدّ إليه روحُه ، ثم قال له : أنت أهل لما نَزلَ بك . ألست القائل فى الوليد :

معاذ ربّىَ أن نبْقَى ونفقِدَهُ ... وأن نكونَ لِراعٍ بعدَهُ تبَعا

قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما هكذا قلت ، وإنما قلت :

معاذ ربّىَ أنْ نبقَى ونفقِدهُمْ ... وأنْ نكونَ لراعٍ بعدهُمْ تبعا

(١) فى بعض الأصول : «والدين»

فنظر إليه سليمان وآستضحك ، فأمر له بصلة وخلّى سبيله .

شريك والربيع بين يدى المهدى

العتبي قال : كان بين شَريك القاضى والربيع حاجب المهدى ، معارضة ؛ فكان الربيع يحمل عليه المهدىَّ فلا يلتفت إليه ، حتى رأى المهدىُّ فى منامه شريكا القاضىَ مَصروفا وجهُه عنه ، فلما آستيقظ من نومه دعا الربيع وقصّ عليه رؤياه . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن شَريكا مخالفٌ لك وإنه فاطمىٌّ محض . قال المهدى : علىّ به ؛ فلما دخل عليه قال له : يا شريك ، بلغنى أنك فاطمىّ . قال له شريك : أُعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى ، إلا أنْ تَعْنى فاطمةَ بنتَ كسرى . قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم . قال : أفتلعنُها يا أمير المؤمنين ؟ قال : معاذ الله ! قال : فماذا تقول فيمَن يلعنُها ؟ قال : عليه لعنة الله . قال : فالعنْ هذا ـ يعنى الربيع ـ فإنه يلعنها ، فعليه لعنة الله . قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما ألعنها . قال له شريك : يا ماجن ، فما ذِكْرُك لسيدة نساء العالمين وابنةِ سيِّد المرسلين فى مجالس الرجال ؟ قال المهدى : دعْنى من هذا ، فإنى رأيتك فى منامى كأنّ وجهَك مصروفٌ عنى وقفاك إلىّ ، وما ذلك إلا بخلافك علىّ ، ورأيتُ فى منامى كأنى أقتل زِنديقا . قال شريك : إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسفَ الصِّدِّيق صلوات الله على محمد وعليه ، وإن الدماء لا تُستحَل بالأحلام ، وإنّ علامة الزندقة بيِّنة . قال : وما هى ؟ قال : شربُ الخمر ، والرِّشا فى الحكم ، ومَهر البغِىّ . قال : صدقت والله أبا عبد الله ! أنت والله خيرٌ من الذى حَملنى عليك .

المهدى وشريك

ودخل شريك القاضى على المهدىّ ، فقال له الربيع : خُنْتَ مالَ الله ومال أمير المؤمنين . قال : لو كان ذلك لأتاك سَهْمُك .

الحجاج وجامع المحاربى

العتبي قال : دخل جامع المحاربى على الحجاج ـ وكان جامع شيخاً صالحا خطيباً لبيباً جريئا على السلطان وهو الذى قال للحجاج إذ بَنى مدينة واسط بَنيْتَها فى غير بلدِك ، وتورِثُها غيرَ ولدك ـ فجعل الحجاج يشكو سوءَ طاعةِ أهل العراق وقُبح مذهبِهم . فقال له جامع : أمَا إنه لو أحبُّوك لأطاعوك ، على أنهم ماشَنِئوك

لنَسَبك ، ولا لبلدك ، ولا لذات نفسك ؛ فدع عنك ما يُبعدهم منك إلى ما يُقرّبهم إليك ، والتمس العافية ممن دونك ، تُعطَها ممن فوقك ، وليكن إيقاعُك بَعد وعيدك ، ووعيدُك بعد وعْدك . قال الحجاج : ما أرى أن أردّ بنى اللّكيعة إلى طاعتى إلا بالسيف . قال : أيها الأمير ، إنّ السيف إذا لاقى السيفَ ذَهَب الخِيار . قال الحجاج : الخيارُ يومئذ لله . قال : أجل ، ولكنك لا تدرى لمن يجعله الله . فغضب وقال : يا هناهُ ، إنك من مُحارب . فقال جامع : ٥

وللحربِ سُمّينا وكنّا مُحارباً ٭ إذا ما القَنا أمسى من الطّعنِ أحمرا

فقال الحجاج : والله لقد هممتُ بأن أخلع لسانك فأضرب به وجهك . قال جامع : إن صَدَقناك أغْضبناك ، وإن غَشَشْناك أغضبنا الله فغضَبُ الأميرِ أهون علينا من غضب الله . قال : أجل ، وسكن . وشُغل الحجاج ببعض الأمر ، فانسل جامع ، فمرّ بين الصفوف من أهل الشام حتى جاوزها إلى صفوف العراق ، فأبصرَ كبكبةً فيها جماعة من بَكر العراق ، وقَيس العراق ، وتَميم العراق ، وأزْدِ العراق ؛ فلما رأوه اشرَأبُّوا إليه وقالوا له : ما عِندَك دفَع الله عنك ؟ قال : ويحكم ! عُمّوه بالخَلع كما يَعُمكم بالعداوة ، ودعُوا التّعادى ما عاداكم ؛ فإذا ظَفِرتم تراجعتم وتعاديتم . أيها التميمى ، هو أعدى لك من الأزْدِىّ ، وأيها القَيْسِىّ هو أعْدَى لك من التّغلبىّ . وهل ظفر بمن ناوأه منكم إلا بمن بقى معه منكم . ١٠ ١٥

وهرب جامع من فوْره ذلك إلى الشام ، واستجار بزُفَر بن الحارث فأجاره .

الرشيد ومسلم بن الوليد وابن أبى شيخ

العتبى قال كان هارون الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم . وكان مُسلم بن الوليد ، صريع الغوانى ، قد رُمِىَ عنده بالتّشيُّع ، فأمر بطلبه ، فهرب منه ، ثم أمر بطلب أنس بن شَيْخٍ كاتب البرامكة فهرب منه ، ثم وُجد هو ومسلم بن الوليد عند قَيْنَةٍ ببغداد فلما أُتى بهما قيل له : يا أمير المؤمنين ، قد أُتى بالرجُلين . قال : أىّ الرجلين ؟ قيل : أنس بن أبى شَيخ ، ومُسلم بن الوليد . فقال : الحمدُ لله الذى أظفرنى بهما ! يا غلام ، أحضِرْهما . فلما دخلا عليه نظر إلى مُسلم وقد تغيّر لونه ؛ فرَقّ له وقال : ٢٠

إيه يا مسلم ، أنت القائل :

أَنِسَ الهوى ببنى علىٍّ فى الحشا ﴿ وأراه يَطْمَحُ عن بنى العباسِ

قال : بل أنا الذى أقول يا أمير المؤمنين :

أنس الهوى ببنى العُمومةِ فى الحَشا ﴿ مُستوحِشاً من سائرِ الإينـاس

٥ وإذا تـكاملَتِ الفضـائلُ كنتمُ ﴿ أَوْلى بذلك يا بَنى العبـاسِ

قال : فعجب هارون من سُرعة بديهته ، وقال له بعضُ جلسـائه : اسْتَبْقِه يا أمير المؤمنين فإنه من أشعرِ الناس ، وامتحِنْه فسترى منه عجباً . فقال له : قل شيئا فى أنَسٍ . فقال : يا أمير المؤمنين ، أَفْرِخْ روْعى ، أفرخ الله رَوعك يوم الحاجة إلى ذلك ؛ فإنى لم أدخُل على خليفة قط . ثم أنشأ يقول :

١٠ تلـمَّظَ السيفُ منْ شوقٍ إلى أنَسٍ ﴿ فالموتُ يَلحَظُ والأقدارُ تَنتظرُ

فليس يَبلُغ منـــه ما يُؤمِّـــلُه ﴿ حتى يُؤامِرَ فيـــه رأيكَ القَدَرُ

أمضَى منَ الموتِ يَعفو عند قُدرته ﴿ وليس للموتِ عفوٌ حـــين يَقتدرُ

قال : فأجلسه هارون وراء ظهره ، لئلا يَرى ما هم به ، حتى إذا فرغ من قَتل أنَس قال له : أنشدنى أشعَرَ شِعر لك . فكلما فرغ من قصيدة قال له زدْ ؛

١٥ حتى قال له أنشدنى التى تقول فيها « الوَحْلِ » فإنى رويتُها وأنا صغير . فأنشده شعره الذى أوله :

أَدِيرا علىَّ الرَّاحَ لا تَشرَبا قَبْلى ﴿ ولا تطلُبا من عندِ قاتلتى ذَحْلى

حتى انتهى إلى قوله :

إذا ما عَلَت منا ذُؤابةَ شارِبٍ ﴿ تمشَّت بنا مشْىَ المُقيَّدِ فى الوَحْلِ

٢٠ فضحك هارون وقال : ويحك[1] يا مسلم ! أما رضيت أن قيدته حتى يمشى فى الوحلِ ! ثم أمر له بجائزة وخلّى سبيله .

بين كسرى وبوشت بعد مقتل الفلهبذ

قال كسرى لِبُوشت المُغنى ـ وقد قتل الفلهبذَ تلميذَه ـ : كنتُ أستريح منك

---

(١) فى بعض الأصول : « عليك » .

إليه ومنه إليك ، فأذهب حسدُك وتَنَلُ صدرك شَطْرَ تمتُّعى ، وأمر أن يُطرح تحت أرجلِ الفيَلة . فقال : أيها الملك ، إذا كنت أنا قد أذهبت شطر تمتُّعك وأذهبت أنت الشطر الآخر ، أليس جنايتُك على نفسك مثلَ جنايتى عليك ؟ قال كسرى : دعوه ؛ فما دلَّه على هذا الكلام إلا ما جُعل له من طول المدة .

الرشيد ويعقوب ابن صالح

يعقوب بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ، قال : دخلت يوماً على الرشيد أمير المؤمنين وهو متغيِّظ مُتَرَبِّد ، فندمت على دخولى عليه ، وقد كنت أفهم غَضَبَه فى وجهه ، فسلّمت فلم يردّ ؛ فقلت : داهيةٌ نآد . ثم أومأ إلىّ فجلست . فالتفت إلىّ وقال : لله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فلقد نطق بالحكمة حيث يقول :

يأيها الزّاجرى عن شيمَتى سَفَهاً ۞ عمْداً عصيْتُ مَقامَ الزاجرِ النّاهى
أقصِرْ فإنك من قومٍ أرُومتُهم ۞ فى اللؤم فافخرْ بهم ما شئتَ أوْ باهى
يُزيِّنُ الشّعْرُ أفواهاً إذا نَطقَتْ ۞ بالشّعْرِ يوماً وقد يُزْرِى بأفواهِ
قد يُرْزَقُ المرءُ لا مِن فضلِ حيلتِه ۞ ويُصرَفُ الرِّزقُ عن ذى الحيلة الدّاهى
لقد عَجِبتُ لقومٍ لا أصــول لهم ۞ أثْروْا وليسوا وإن أثْروْا بأشباه
ما نالنى من غنًى يوماً ولا عُدمٍ ۞ إلّا وقولى عليه « الحمــد لله »

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ومن ذا الذى بلغت عليه المقدرةُ أن يُسامى مثلك أو يدانيه ؟ قال : لعله من بنى أبيك وأمك .

توسط مسلمة بن هشام والكميت

كان الكُميت بن زيد يمدح بنى هاشم ويعرِّض ببنى أمية ، فطلبه هشام فهرب منه عشرين سنة ، لا يستقرّ به القرار من خوف هشام ، وكان مَسلمة بن عبد الملك له على هِشام حاجةٌ فى كلّ يوم يقضيها له ولا يردّه فيها . فلما خرج مسلمة بن عبد الملك يوماً إلى بعض صُيُوده ، أتى الناسُ يسلّمون عليه ، وأتاه الكميت بن زيد فيمَن أتى ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قِفْ بالدِّيار وقوفَ زائرْ ۞ وتأنَّ إنك غيْرُ صاغِرْ

حتى انتهى إلى قوله :

يا مَسْلَمَ بنَ أبى الوليـــدِ لِمَيِّتٍ إن شئتَ ناشِرْ
عَلِقَتْ حِبالى من حِبا ، لِكَ ذِمّةَ الجارِ المُجاوِرْ
فالآنَ صِرْتُ إلى أميّـــةَ والأمورُ إلى المَصايِرْ
٥ والآنَ كنتُ بِهِ المُصيـــبَ كَمُهْتَدٍ بالأمسِ حائِرْ

فقال مسلمة : سبحان الله ! من هـذا الهِنْدِكِيُّ الجِلْحاب ، الذي أقبـل من أُخرَيات الناس فبدأ بالسلام ، ثم أما بعدُ ، ثم الشعر ؟ قيـل له : هـذا الكُميت ابن زيد . فأُعجب به لفصاحته وبلاغته . فسأله مَسلمة عن خبره وما كان فيه طول غيبته . فذكر له سخطَ أمير المؤمنين عليه ؛ فضَمِنَ له مسلمة أمانَهُ ، وتوجه به حتى ١٠ أدخله على هشام ، وهشام لا يعرفه . فقال الكُميت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، الحمد لله ـ قال هشام : نعم ، الحمد لله ، ياهذا ـ قال الكميت : مبتدئ الحمدِ ومُبتدِعِه ، الذي خص بالحمد نفسَه ، وأمَرَ به ملائكتَه ، وجعله فاتحةَ كتابِهِ ، ومنتهَى شكرِه ، وكلامَ أهـل جنتِه ؛ أحمده حمدَ مَن عَلِمَ يقينا ، وأبصر مستبينا ؛ وأشهد له بما شهد به لنفسه قائما بالقسط ، وحده لاشريك له ، وأشهد ١٥ أنّ محمداً عبده العربىّ ، ورسولُه الأمىّ ، أرسله والنـاس فى هَبَواتِ حَيرة ، ومُدْلَهِمّاتِ ظُلْمة ، عند آستمرار أُبهة الضلال ، فبلّغ عن الله ما أمر به ، ونصح لامته ، وجاهد فى سبيله ، وعَبَد ربَّه حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

ثم إنى يا أمير المؤمنين تِهْتُ فى حيرة ، وحِرْتُ فى سَكْرة ، ادْلأَمَّ بى خطرُها ، وأهابَ بى داعيها ، وأجابنى غاويها ؛ فاقطَوْطَيْتُ [1] إلى الضلالة ، ٢٠ وتَسَكَّعْتُ فى الظُّلمةِ والجهالة ، حائراً عن الحق ، قائلا بغير صِدق . فهـذا مقام العائذ ، ومنطق التائب ، ومُبْصِر الهدى بعد طول العمى ، ثم يا أمير المؤمنين ، كم من عاثر أقلتُم عَثْرَتَه ، ومُجترِمٍ عفوتم عن جُرْمه .

(١) اقطوطى : قارب فى مشيه مع سرعة .

فقال له هشام وأيقن أنه الكميت : ويحك ! مَنْ سَنّ لك الغَواية وأهاب بك في العَمَاية ؟

قال : « الذى أخرج أبى آدمَ من الجنة فنسِىَ ولم يجدْ له عزما . وأمير المؤمنين كريح رحمةٍ أثارت سحاباً متفرقا ، فلَفقت بعضَه إلى بعض حتى التحم فاستحكم ، وهَدر رعدُه ، وتلألأ بَرْقه ؛ فنزل الأرض فرَويتْ واخضلّت واخضرت وأُسقِيت ، فرَوِىَ ظمآنُها ، وامتلأ عطشانُها . فكذلك نَعُدُّك أنت يا أمير المؤمنين . أضاء اللهُ بك الظلمةَ الداجية بعد العُموسِ[1] فيها ، وحَقَن بك دماء قومٍ أشْعَرَ خوفُك قلوبَهم ، فهم يبكون لِما يعلمون من حزمك وبصيرتك ، وقد عَلِموا أنك الحرب وابن الحرب ، إذا احمرت الحَدَق ، وعضّت المغافرُ بالهام . عزّ بأسُك ، واستربط جأشُك ، مِسعارٌ هتّاف ، وكافٍ بصيرٌ بالأعداء ، مُغْرى الخيل بالنَّكراء ، مُستغنٍ برأيه عن رأى ذوى الألباب ، برأى أريب ، وحِلم مُصيب . فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، وتمّم عليه النعماء . ودفع به الأعداء .

فرضى عنه هشام وأمر له بجائزة .

خلاص ابن هبيرة من خالد القسرى

العتبى قال : لما أُتِى بابن هُبيرة إلى خالد بن عبد الله القَسرى وهو والى العراق ، أُتِى به مغلولا مقيَّداً فى مِدْرعة . فلما صار بين يدى خالد ألقتْه الرجالُ إلى الأرض ، فقال : أيها الأمير ، إن القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة قد أنعموا بها على مَنْ قبلك ، فأنشدك اللهَ أن تستنّ فىّ بسُنّة يستنّ بها فيك مَن بعدك ، فأمر به إلى الحبس . فأمر ابنُ هُبيرة غلمانَه فحفروا له تحت الأرض سرداباً حتى خرج الحفرُ تحت سريره ، ثم خرج منه ليلا وقد أُعِدّتْ له أفراسٌ يُداوِلُها ، حتى أتى مسلمةَ بنَ عبد الملك ، فاستجار به فأجاره ، واستوهبه مسلمةُ من هشام بن عبد الملك ، فوهبه إياه .

فلما قدم خالدُ بن عبد الله القسرىّ على هشام ، وجد عنده ابنَ هبيرة ، فقال له : إباقَ العبد أبِقْت . قال له : حين نمتَ نومةَ الأَمَة . فقال

(١) العموس : اشتداد الظلام .

الفرزدق فى ذلك :

لمَّا رأيتَ الأرضَ قد سُدَّ ظهرُها ٭ فلم يبقَ إلا بطنُها لَكَ مَخْرَجَا

دعوْتَ الّذى ناداهُ يونُسُ بعْدَما ٭ ثَوى فى ثلاثِ مُظْلِمات ففَرَّجَا

فأصبحْتَ تحتَ الأرضِ قدسِرْتَ ليْلةً ٭ وما سارَ سارٍ مِثْلَها حينَ أدْلَجا

٥ خرَجْتَ ولم تمْنُن عليكَ شفاعة[1] ٭ سِوى حثِّكَ التّقريبَ مِنْ آلِ أعْوَجَا

ابن هبيرة والناس بعد تأمين هشام له

ودخل الناس على ابن هبيرة بعد ما أمَّنَهُ هشامُ بن عبد الملك يهنئونه ويَحْمَدون له رأيه ، فقال متمثلًا :

مَن يلْقَ خيراً يحمَدِ الناسُ أمْرَه ٭ ومن يَغْوَ لا يعْدَمْ على الغَىِّ لائِمَا

ثم قال لهم : ما كان قولُكم لو عُرِض لى أو أُدْرِكْتُ فى طريق ؟

للقطامى

١٠ ومثل هذا قول القُطامى :

والنَّاسُ مَن يلْقَ خيْرًا قائلون لهُ ٭ ما يَشْتَهِى ولِأُمِّ المُخْطِئ الهَبَلُ

لخصى مسلمة عن خلاص ابن هبيرة

عبد الله بن سوّار قال : قال لى الربيع الحاجب : أتحب أن تسمع حديث ابن هبيرة مع مَسلمة ؟ قلت : نعم . قال : فأرسل لخصِىٍّ كان لَمسلمةَ يقوم على وَضوئه لجاءه . فقال : حدِّثنا حديث ابن هُبيرة مع مَسلمة . قال : كان مسلمة بن عبد الملك ١٥ يقوم من الليل فيتوضّأ ويتنفّل حتى يُصْبِح ، فيدخل على أمير المؤمنين ؛ فإنى لأصبُّ الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ ؛ إذ صاح صائح من وراء الرّواق : أنا باللهِ وبالأمير . فقال مسلمة : صَوْتُ ابن هُبيرة ! اخرج إليه . فخرجتُ إليه ورجعتُ فأخبرتُه . فقال : أدْخِلْه . فدخل فإذا رجل يَميد نعاسا ، فقال : أنا بالله وبالأمير . قال : أنا بالله وأنت بالله . ثم قال : أنا بالله وبالأمير . قال : أنا بالله وأنت بالله . حتى قالها ثلاثا ٢٠ ثم قال : أنا بالله . فسكت عنه ثم قال لى : انطلق به فوضّئه ولْيُصَلِّ ، ثم اعْرِض عليه أحبَّ الطعام إليه فأْتِه به ، وافْرِش له فى تلك الصُّفّة ـ لِصُفّةٍ بين يَدَىْ بيوتِ النساء ـ ولا تُوقظه حتى يقوم متى قام . فانطلقتُ به فتوضأ وصلَّى ، وعَرَضْتُ عليه الطعام

(١) فى بعض الأصول : « طلاقة » .

فقال : شَرْبة سويق ، فشرب . وفرشتُ له فنام . وجئت إلى مسلمة فأعلمْتُه . فغدا إلى هشام فجلس عنده ، حتى إذا حان قيامه قال : يا أمير المؤمنين ، لى حاجة . قال : قُضِيَتْ ، إلا أن تكون فى ابن هُبيرة . قال : رضيتُ يا أمير المؤمنين . ثم قام منصرِفا ؛ حتى إذا كاد أن يخرج من الإيوان . رجع فقال : يا أمير المؤمنين ما عوّدْتَنى أن تستثنى فى حاجة من حوائجى ؛ وإنى أكره أن يتحدث الناس أنك أحدَثْتَ علىَّ الاستثناء . قال : لا أستثنى عليك . قال : فهو ابن هُبيرة فعفا عنه .

فضيلة العفو والترغيب

المأمون وصاحب وضوئه

كان للمأمون خادم ، وهو صاحب وَضُوئه . فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء من يده ، فاغتاظ المأمون عليه . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله يقول : ﴿والكاظِمِين الغَيْظ﴾ . قال : قد كظمت غيظى عنك . قال : ﴿والعافِينَ عنِ النَّاس﴾ . قال : قد عفوتُ عنك . قال : ﴿ واللهُ يُحِبُّ المُحْسنينَ ﴾ . قال : اذهب فأنت حُر .

ابن حيوة وعمر ابن عبد العزيز فى رجل عوقب

أمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل ، فقال له رجاء بن حَيْوة يا أمير المؤمنين ، إن الله قد فعل ما تُحِبُّ من الظَّفَر ؛ فافعل ما يُحِبّه من العفو .

عبد الله بن على وعبد الله بن حسن فى قتل بنى أمية

الأصمعى قال : عزم عبد الله بن علىّ على قتل بنى أمية بالحجاز . فقال له عبد الله بن حسن بن حسَن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم : إذا أسرعت بالقتل فى أكفائك فَمَن تُباهِى بسلطانك ؟ فاعْفُ يَعْفُ الله عنك .

ابن خريم والمهدى

دخل ابن خُريم على المهدى ، وقد عَتَب على بعض أهل الشام وأراد أن يُغزيهم جيشاً ، فقال يا أمير المؤمنين ، عليك بالعفو عن الذنب ، والتجاوزِ عن المسىء ، فلَأَنْ تُطيعك العرب طاعةَ مَحبّة ، خيرٌ لك من أن تُطيعك طاعة خوف .

أمر المهدى بضرب عُنق رجل ، فقام إليه ابن السماك فقال : إن هذا الرجل

المهدى وابن السماك فى رجل أمر بضرب عنقه

لا يَجب عليه ضَرْبُ العنق . قال : فما يجب عليه ؟ قال : تعفو عنه ، فإن كان من أجر كان لك دونى ، وإن كان من وِزْر كان علىّ دونك . فخَلّى سبيله .

الشعبى وابن هبيرة فى محبوسين

كلّم الشعبىُّ ابن هبيرة فى قوم حبسهم فقال : إن كنت حبَسْتَهم بباطلٍ فالحقُّ يُطْلِقهم ، وإن كنتَ حبستهم بحقّ فالعفو يَسَعُهم .

أبو سفيان وحيان من قريش بينهما دماء

٥ العتبى قال : وقعت دماءٌ بين حيَّيْن من قريش ، فأقبل أبو سفيان ؛ فما بقى أحدٌ واضعٌ رأسه إلا رفعه . فقال : يامعشر قريش ، هل لكم فى الحق أو فيما هو أفضلُ من الحق ؟ قالوا : وهل شىءٌ أفضلُ من الحق ؟ قال : نعم ، العفو . فتهادَنَ القومُ واصطلحوا .

بين ابن أبى طلحة وابن عاتكة حين ظفر بابن المهلب

وقال هُزيم بن أبى طَحْمة[1] ليزيد بن عاتكة بعد ظفره بيزيد بن المهلب : ١٠ ما ظلم أحدٌ ظُلْمَك ، ولا نصر نصْرَك ؛ فهل لك فى الثالثة نقُلْها ؟ قال : وما هى ؟ قال : ولا عفا عفْوَك .

أبو جعفر وابن فضالة فى رجل معاقب

وقال المُبارك بن فضالة : كنتُ عند أبى جعفر جالسا فى السّماط ، إذ أمر برجل أن يُقْتَل ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كان يومُ القيامةِ نادى مُنادٍ بين يدَى الله : ألَا مَن كانت له عند الله يدٌ فليَتقدّم ١٥ فلا يتقدمُ إلا من عفا عن مُذنب . فأمر بإطلاقه .

وقال الأحنف بن قيس : أحقُّ الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة .

للنبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : أقربُ ما يكون العبد مِن غضبِ الله إذا غَضِب .

من أمثال العرب

وتقول العربُ فى أمثالها : مَلَكْتَ فأسْجِح . وارْحَمْ تُرْحَم . وكما تَدين تُدان . ٢٠ ومن بَرَّ يوما بُرَّ بِه .

بعد الهمة وشرف النفس

الوليد ونافع ابن جبير

دخل نافع بن جُبير بن مُطعِم على الوليد ، وعليه كساء غليظ ، وخُفّان

(١) فى الأصول : «عدى بن أبى طلحة» ، والتصويب من البيان والتبيين .

جاسيان ، فسلَّم وجلس ، فلم يعرفه الوليد ؛ فقال لخادمٍ بين يديه : سَلْ هذا الشيخَ من هُو . فسأله ، فقال له : اعْزُبْ . فعاد إلى الوليد فأخبره . فقال : عُدْ إليه واسألْه، فعاد إليه ، فقال له مثل ذلك . فضحك الوليد وقال له : من أنت ؟ قال : نافع بن جُبير بن مُطعِم .

زياد بن ظبيان وابنه في الوصاة به

وقال زياد بن ظبْيان لابنه عُبيد الله : ألَا أُوصِى بك الأمير زياداً ؟ قال : يا أبتِ ، إذا لم يكن للحىِّ إلا وصيةُ الميِّت فالحىُّ هو الميّت .

معاوية وعمرو ابن سعيد

وقال معاوية لعمرو بن سعيد : إلى مَن أَوْصَى بك أبوك ؟ قال : إن أبى أوصَى إلىّ ولم يُوصِ بى ! قال وبِمَ أوصى إليك ؟ قال : ألّا يفْقِد إخوانُه منه إلا وجهه .

ابن مسمع وعبيد الله بن ظبيان

وقال مالك بن مِسمع لعُبيد الله بن زياد بن ظبيان : ما فى كِنانتى سهم أنا به أوْثقُ منِّى بك . قال : وإنى لفى كنانتك ؛ أما والله لئن كنتُ فيها قائمـا لأطُولنّها ولئن كنتُ فيها قاعدا لأخرِقنّها . قال : كَثّر الله مثلَك فى العشيرة . قال : لقد سألتَ الله شططا .

لابن المهلب فى الفرزدق

وقال يزيد بن المهلَّب : ما رأيت أشرفَ نفساً من الفرزدق ، هجانى مَلِكا ومدَحَنى سُوقة .

ابن ظبيان وعتاب الرياحى

وقدم عبيد الله بن زياد بن ظبيان على عتّاب بن ورقاء الرّياحى وهو والى خُراسان ، فأعطاه عشرين ألفا ؛ فقال له : والله ما أحسنت فأحمَدَك ، ولا أسأتَ فألومَك ؛ وإنك لأقربُ البعَداء ، وأحبُّ البُغضاء .

وعبيد الله بن زياد بن ظبيان هذا هو القائل : واللهِ ما ندمت على شىء قطّ ندمِى على عبد الملك بن مروان ، إذ أتيتُه برأس مصعب بن الزبير فخرّ لله ساجدا ألّا أكونَ قد ضربتُ عُنقَه فأكون قد قتلتُ ملِكين من ملوك العرب فى يوم واحد .

من همة ابن علفة

ومن أشرف الناس همةً عقيل بن عُلّفةَ المُرّىُّ ؛ وكان أعرابيا يسكن البادية وكان يُصْهِر إليه الخلفاء ، وخَطب إليه عبدُ الملك بن مروان ابنته لأحد أولاده فقال له جَنِّبْنى هُجَناء ولدِك .

عمر بن عبد العزيز وعقيل بن علفة

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل من بنى أمية كان له أخوال فى بنى مُرة . قبحَ الله شَبهاً غَلَب عليك من بنى مُرة . فبلغ ذلك عقيل بن عُلَّفة ، فأقبل إليه فقال له قبل أن يبتدئه بالسلام : بلغنى ياأمير المؤمنين أنك غضبت على رجل من بنى عمك له أخوال فى بنى مُرة ، فقلت : قبح الله شبَها غَلب عليك من بنى مرة ! وأنا أقول : قَبح الله ألأمَ الطَّرفين ، ثم انصرف .

٥

فقال عمر بن عبد العزيز : من رأى أعجبَ من هذا الشيخ الذى أقبل من البادية ليست له حاجة إلا شَتْمنا ثم انصرف ؟ فقال له رجل من بنى مُرة : والله ياأمير المؤمنين ما شتَمك ، وما شتم إلا نفسَه ، نحن والله ألأَمُ الطرفين .

من غيرة عقيل

أبو حاتم السِّجستانى عن محمد بن العتبى بن عبد الله ، قال : سمعتُ أبى يحدث عن أبى عمرو المُرّى ، قال : كان بنو عَقيل بن علَّفة بن مُرة بن غَطفان يتنقَّلون ويَنتجعون الغَيث فسمع عَقيل بن عُلَّفة بنتاً له ضحكت فشهَقت فى آخر ضحكها ! فاخترط السيفَ وحمل عليها وهو يقول :

١٠

فَرِقْتُ إنى رجلٌ فَرُوقُ * لِضَحْكةٍ آخرُها شَهيقُ

وقال عقيل :

إنى وإن سِيقَ إلىَّ المهْرُ * ألفٌ وعُبْدانٌ وذَوْدٌ عَشْرُ

١٥

* أحبُّ أصهارى إلىَّ القبرُ *

وقال الأصمعى : كان عقيل بن علَّفة المُرىّ رجلا غيورا ؛ وكان يُصهر إليه الخلفاء ، وإذا خرج يمتار خرج بابنته الجَرباء معه ، قال : فنزلوا دَيْراً من دِيَرة الشام ، يقال له دَير سَعد ، فلما ارتحلوا قال عقيل :

قضَت وطَراً من دَيرِ سَعْدٍ وطالما * علَى عُرُضٍ ناطَحْنَهُ بالجماجمِ [1]

٢٠

ثم قال لابنه : ياعَمَلّس أجِزْ . فقال :

فأصبحنَ بالمَوْماةِ يَحمِلْنَ فِتيَةً * نَشاوَى منَ الإدْلاجِ مِيلَ العَمائِمِ

(١) فى بعض الأصول : « وربما * على عرض منها بدير الجماجم »

ثم قال لابنته : يا جَرْباء أجيزى . فقالت :

كأنّ الكرى أسْقاهمُ صَرْخَدِيّةً ٭ عُقاراً تَمشّى فى المطا والقوائِم

قال : وما يُدريكِ أنت ما نَعْتُ الخمر ؟ فأخذ السيف وهوَى نحوها ؛ فاستعانت بأخيها عَمَلَّس ، فحال بينه وبينها ، قال : فأراد أن يضربه ، قال : فرماه [عملس] بسهم فاختلّ فخذيه فبرك ، ومَضَوْا وتركوه ، حتى إذا بلغوا أدنى ماء للأعراب ، قالوا لهم : إنا أسْقَطْنا جَزوراً فأدركوها وخذوا معكم الماء . ففعلوا ، فإذا عقيل باركٌ وهو يقول :

إنّ بَنِيَّ زَمّلونى بالدَّمِ ٭ شِنْشِنة أعرِفُها من أخْزَمِ

٭ من يَلْقَ أبطالَ الرجالِ يُكْلَمِ ٭

والشنشنة الطبيعة . وأخْزَم فحل معروف . وهذا مثل للعرب .

الأوس والخزرج

ومن أعزّ الناس نفسا وأشرفهم هِمماً : الأنصار ، وهم الأوْس والخزرجُ ابنا قَيلة ، لم يؤدوا إتاوة قطُّ فى الجاهلية إلى أحد من الملوك ، وكتب إليهم تُبّع يدعوهم إلى طاعته ويتوعّدهم إن لم يفعلوا ؛ فكتبوا إليه :

العبدُ تُبّعُ كَمْ يرومُ قتالنا ٭ ومكانُه بالمنزلِ المتــذلِّلِ

إنا أناسٌ لا يُنامُ بأرضِنا ٭ عَضَّ الرسولُ بِبَظْرِ أمِّ المرْسِلِ

فغزاهم تُبّع أبو كَرِب ، فكانوا يُقاتلونه نهاراً ويخرجون إليه القِرَى ليلا ، فتذمّم مِن قتالهم ورحَل عنهم .

ودخل الفرزدق على سُليمان بن عبد الملك ، فقال له : من أنت ؟ وتجهّم له كأنه لا يعرفه . فقال له الفرزدق : وما تَعرفنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا . قال : أنا من قوم منهم أوْفى العرب ، وأسْودُ العرب ، وأجْود العرب ، وأحلم العرب ، وأفرس العرب ، وأشْعر العرب . قال : والله لتُبيِّننّ ما قلت أو لأوجِعَنّ ظهرَك ولأهدِمَنّ دارَك .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ أما أوْفى العرب فحاجبُ بن زُرارة الذى رَهَن

قومَه عن جميع العرب فوَفَّى بها ، وأما أسود العرب فقيسُ بن عاصم الذى وَفَد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبَسَط له رداءه وقال : هذا سيِّد الوبر . وأما أحلم العرب فعتّاب بن وَرقاء الرِّياحى . وأما أفْرَس العرب فالحَريش بن هلال[1] السَّعديّ ، وأما أشعر العرب فهأنذا بين يديك يا أمير المؤمنين .

٥ فاغتمّ سليمان مما سَمِع من فخره ولم يُنكره ، وقال آرجع على عَقِبيك ، فما لك عندنا شىءٌ من خَير . فرجع الفرزدق وقال :

أتيْناكَ لا مِن حاجة عَرَضَت لنا ٭ إليك ، ولا مِن قلَّة فى مُجاشِع

للفرزدق فى الفخر

وقال الفرزدق فى الفخر :

بنو دارِمٍ قومِى تَرى حُجُزاتِهم ٭ عِتاقاً حَواشِيها رِقاقاً نِعالُها

١٠ يجرون هُدّاب اليَمان كأنهم ٭ سُيوفٌ جَلا الأطباعَ عنها صِقالُها

للأحوص فى مثله

وقال الأحوص فى الفخر ؛ وهو أفخر بيت قالته العرب :

مامِن مُصيبةِ نَكْبةٍ أُرْمَى بها ٭ إلا تُشَرِّفنى وتَرفعُ شانى

وإذا سَألتَ عن الكِرام وجدتنى ٭ كالشمسِ لا تَخْفَى بكلّ مكان

بردا محرق وعامر بن أحيمر

وقال أبو عبيدة : آجتمعت وفود العرب عند النُّعمان بن المنذر ، فأخرج

١٥ إليهم بُرْدَىْ مُحرِّق ، وقال: ليقم أعزُّ العرب قبيلة فلْيَلْبَسهما . فقام عامر بن أحيمر السَّعدى فأتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ؛ فقال له النعمان : بِمَ أنت أعزُّ العرب ؟ فقال : العز والعددُ من العرب فى معدّ ، ثم فى نزار ، ثم فى تَميم ، ثم فى سَعد ، ثم فى كعب ، ثم فى عَوف ، ثم فى بَهدلة ؛ فمن أنكر هذا من العرب فلينافِرْنى . فسكت الناس .

٢٠ ثم قال النعمان : هذه حالُك فى قومك ، فكيف أنت فى نفسك وأهلِ بيتك ؟ قال : أنا أبو عشرة ، وخال عَشرة ، وعم عشرة ؛ وأما أنا فى نفسى فهذا شاهدى . ثم وضع قدمه فى الأرض ثم قال : من أزالها عن مكانها فله مائةٌ من الإبل .

(١) فى بعض الأصول : « الحريش بن عبد الله » وهو تحريف .

فلم يقم إليه أحد . فذهب بالبُرْدَيْن . ففيه يقول الفرزدق :

فما تَمّ فى سَعْد ولا آلِ مالِك * غُــلامٌ إذا ما سِيل لم يَتبهدَلِ

لهم وَهَب النُّعمانُ بُرْدَىْ مُحَرِّق * بمَجْدِ مَعَــدّ والعَديدِ المُحَصَّلِ

بيت سعد مناة وشعر أوس فيهم

وفى أهل هذا البيت من سعد بن زَيْد مناة ، كانت الإفاضة فى الجاهلية . ومنهم بنو صفوان الذين يقول فيهم أوس بن مَغْراء السّعدىّ : ٥

ولا يَريمون فى التَّعْريفِ موْقفَهم * حتى يقالَ أَجيزوا آلَ صَفْوانا

ما تطْلُع الشمسُ إلا عند أوَّلنا * ولا تَغَيَّبُ إلا عنـد أُخْـرانا

للفرزدق

وقال الفرزدق فى مثل هذا المعنى :

تَرى الناسَ ما سِرْنا يسيرونَ خَلفَنا * وإنْ نحنُ أَوْمأنا إلى الناسِ وقَّفوا

لهنيدة فى الفخر

وكانت هُنيدة بنت صعصعة عمة الفرزدق تقول : مَن جاءت من نساء العرب بأربعةٍ كأَرْبَعَتى يحِلُّ لهـا أن تضع خِمارَها عندهم ، فصِرْمَتى لهـا : أبى صعصعة ، وأخى غالب ، وخالى الأقرع بن حابس ، وزَوجى الزِّبْرقان بن بدر ! فسُمِّيتْ ذاتَ الخمار . ١٠

وممن شرفت نفسه وبعدت همتُه ، طاهر بن الحُسين الخراسانى ؛ وذلك أنه لما قتل محمدَ بن زُبيدة ، وخاف المأمون أن يَغدِر به ، آمتنع عليه بخراسان ولم يُظهِر خَلْعَه . ١٥

وقال دعبل بن على الخزاعى يفتخر بقتل طاهر بن الحسين محمدا ، لأنه كان مولى خزاعة ، ويقال إنه خزاعى :

أيسومُنى المأمونُ خُطّة عاجزٍ * أوَ ما رأى بالأمس رأسَ محمدِ !

يُوفِى على رأسِ[1] الخلائق مثلَ ما * تُوفِى الجبالُ على رءوسِ القَدْفَد ٢٠

إنى منَ القَوم الذين هُمُ هُمُ * قَتلوا أخاك وشرّفوك بمقعد

رفعوا محلّك بعد طول خموله * واستنقذوك من الحضيض الأوهد

(١) فى الشعر والشعراء «روس» .

لطاهر بن الحسين

وقال طاهر بن الحسين [1] :

غَضِبْتُ على الدُّنيا فأَنْهَبْتُ ماحَوَتْ * وأَعْتَبْتُها منِّى بإحدى المَتالِفِ
قتلتُ أمير المؤمنينَ وإنما * بَقيتُ عناءً بَعْدَه للخلائفِ
وأصبحت فى دارٍ مقيما كما ترى * كأنى فيها من ملوك الطوائف
٥ وقد بقيَت فى أُمِّ رأسىَ فَتْكَةٌ * فإما لرُشْدٍ أو لرأيٍ مُخالِفِ

لابن مسلمة فى الرد على طاهر

فأجابه محمد بن يزيد بن مسلمة :

عتبتَ على الدُّنيا فلا كنتَ راضياً * فلا أعتبتْ إلا بإحدى المتالف
فَمَنْ أنت أو ما أنتَ يا فَقْعَ قَرْقَرٍ * إذا أنتَ مِنَّا لَمْ تَعَلَّقْ بكاتِفِ
فنحن بأيدينا هرقنا دماءنا * كَشَوْلٍ تهادى الموت عند التزاحف
١٠ ستعلمُ ما تَخْفِي عليك وما جَنَتْ * يداكَ فلا تفخَرْ بِقتْلِ الخلائفِ
وقد بقيت فى أم رأسك فتكة * سنُخرجها منه بأسمرَ راعف

لابن طاهر فى الفخر

وقال عبد الله بن طاهر :

مُدْمِنُ الإغضاءِ موصولُ * ومُدِيمُ العَتْبِ مملولُ
ومَدِينُ البِيضِ فى تعَبٍ * وغَريمُ البِيضِ ممطولُ
١٥ وأخو الوجهين حيث رَمَى * بِهَواه فهْوَ مدخولُ
أَقْصِرِى عما طَمَحْتِ له [2] * فَفَراغى عنكِ مشغولُ
سائلى عمن تُسائلُنى * قد يَرُدُّ الخيرَ مسئول
أنا مَنْ تُعرَفُ نِسْبَته * سلَفِى الغُرُّ البَهاليلُ
سَلْ بِهِمْ تُنْبِيك نَجْدتُهُمْ * مَشْرَفِيَّاتٌ مصاقيل
٢٠ كلُّ عَضْبٍ مُشْرَبٍ عَلَقاً * وغِرارُ الحدِّ مفلولُ
مُصعبٌ جدِّى نقيبُ بنى * هاشمٍ والأمرُ مجهولُ

(١) فى بعض الأصول : « وهو القائل » .
(٢) فى بعض الأصول : « لهجت به » .

وحسينٌ رأسُ دعوتِهم * بَعدَه ، والحقُّ مقبولُ
وأبو مَن لا كِفاءَ له * مَن يُسامِى مجدَه قولوا
صاحبُ الرأيِ التى حَصلتْ * رأيُه القومُ المَحاصيلُ
حَلَّ منهم بالذُّرا شَرَفاً * دونَه عِزٌّ وتبجيلُ
تُفصِحُ الأنباءُ عنه إذا * أَسكَتَ الأنباءَ مجهولُ ٥
سَلْ به الجبارَ يومَ غدا * حولَهُ الجُردُ الأبابيلُ
إذ عَلَتْ مَفْرِقَهُ[1] يدُهُ * نوطُها أبيضُ مصقولُ
أبطلَ المخلوعُ كَلْكَلَه * وحواليْهِ المَقاويلُ
فثَوَى والتُّرْبُ مصرعُه * غالَ عنه مُلكَهُ غُولُ
قادَ جيشاً نحوَ بابلِه * ضاقَ عنه العَرْضُ والطُّولُ ١٠
وهبُوا لله أنفسَهم * لا مَعازيلٌ ولا مِيلُ
مَلِكٌ تجتاحُ صولتُه * ونَداهُ الدهرَ مبذولُ
نُزِعتْ منه تمائمُهُ * وهوَ مرهوبٌ ومأمولُ
وِتْرُهُ يُسْعَى إليه بهِ * ودَمٌ يجنيه مطلولُ

لابن مسلمة في الرد عليه

فأجابه محمد بن يزيد بن مسلمة ، وكان من أصحابه وآثرهم عنده ، ثم اعتذر إليه ١٥ وزعم أنه لم يَدْعُه إلى إجابته إلا قوله :

* من يسامى مجده قولوا *

فأمر له بمائة ألف وزاده أثرة ومنزلة :

لا يَرُعْكِ القالُ والقيلُ * كلُّ ما بُلِّغتِ تضليل
ما هوًى لى كنتِ أعرِفُهُ * بِهوَى غيرِكِ موصولُ ٢٠
أيخونُ العهدَ ذو ثقة * لا يخونُ العهدَ متبولُ
حَمَّلَتْني كلَّ لائمةٍ * كلُّ ما حَمَّلتِ محمولُ

(١) فى بعض الأصول : « من فوقه » .

واحْكُمِى ماشئتِ واحْتَكِمى * فحـرامى لكِ تحليـلُ
أين لى عنـك إلى بَدَلٍ * لا بديلٌ منـكِ مقبولُ
ما لِدارى منـكِ مقفِرةً * وضميرى منـكِ مأهولُ
وبدت يوم الوداع لنا * غادةٌ كالشمس عطبول
٥ تتعاطى شَـدَّ مِئزَرِها * ونطاقُ الخَصْرِ محـلولُ
شَمْلنـا إذ ذاكَ مجتمعٌ * وجَناحُ البَيْنِ مشكولُ
ثم ولّت كى تودّعنا * كحلها بالدمع مغسول
أيها البـادى بِطِيَّتِه * ما لأغـلاطك تحصيل
قد تأوّلتِ على جهـةٍ * ولنـا وَيْحكِ تأويلُ
١٠ إنّ دِلِّيلاك يومَ غـدَا * بك فى الحَـين لضِلِّيلُ
قاتلُ المخـلوعِ مقتولٌ * ودَمُ القـاتلِ مطـلولُ
قد يخونُ الرُّمْحَ عامِلُه * وسِنانُ الرُّمْحِ مصقولُ
ويَنـالُ الوِتْرَ طالِبُـهُ * بعدَ ما تَسْلُو المَثاكيلُ
يا أخا المخـلوعِ طُلْت يداً * لم يكن فى باعِها طُولُ
١٥ وبِنُعْماهُ التى كُفِرتْ * جالت الخيـلُ الأبابيلُ
وبِراعٍ غـيرِ ذى شَفقٍ * فُعِلتْ تلك الأفاعيـلُ
يابن بِنْتِ النـارِ مُوقِدُها * ما لِحَـاذِيه سَراويلُ
مَنْ حُسَيْنٌ مَن أبوهُ ومَنْ * مُصعَبٌ غالَتْهُـمُ غُولُ
إنّ خيرَ القولِ أصدَقُه * حين تَصْطَكُّ الأقاويلُ

٢٠ مراسلات المـلوك

جزائر ملك اليمن إلى مكة

العُتْبىّ عن أبيه ، قال : أهدى ملك اليمن عشرَ جزائر إلى مكة ، وأمر أن ينحرها أعزُّ قُرشىّ ؛ فقدمتْ وأبو سفيان عَروسٌ بهند بنتِ عُتبة ، فقالت له :

أيها الرجل ، لا يَشغَلَنَّك النساء عن هذه المكرمة التى لعلها أن تفوتَك . فقال لها : ياهذه ، دَعِي زوجَك وما يختارُه لنفسه ! والله ما نحرها غيرى إلا نَحَرْتُه ! فكانت فى عُقُلها حتى خرج أبو سفيانَ فى اليوم السابع فنَحَرها .

بين قيصر ومعاوية

زهير عن أبي الجُويرية الجَرْمِيّ ، قال : كتب قَيصر إلى معاوية : أخبرنى عمن لا قِبْلة له ، وعمن لا أبَ له ، وعمن لا عشيرة له ، وعمن سار به قبرُه ، وعن ثلاثة أشياء لم تُخلَقْ فى رَحِم ، وعن شيء ، ونصف شيء ، ولا شيء ؛ وابعث إلىّ فى هذه القارورة ببَزْر كلّ شيء .

فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس ، فقال : أمّا مَن لا قِبلة له فالكعبة . وأما مَن لا أب له فعيسى . وأما مَن لا عشيرة له فآدم . وأما من سار به قبرُه فيونس . وأما ثلاثة أشياء لم تُخلَق فى رَحِم ، فكبش إبراهيم ، وناقةُ ثمود ، وحيّةُ موسى . وأما شيء ، فالرجلُ له عقلٌ يعمل بعقله ؛ وأما نصف شيء ، فالرجل ليس له عقل ويعمل برأى ذوى العقول ، وأما لا شيء ، فالذى ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره . وملأ القارورة ماء وقال : هذا بزرُ كلّ شيء .

فبعث به إلى معاوية ، فبعث به معاوية إلى قيصر ؛ فلما وصل إليه الكتاب والقارورة ، قال : ماخرج هذا إلا من أهل بيت النُّبُوّة .

من ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز

نُعيم بن حماد قال : بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه :

مِن مَلِكِ الأملاك الذى هو ابنُ ألف ملك ، والذى تحته ابنةُ ألف ملك ، والذى فى مَربطه ألفُ فيل ، والذى له نهران يُنْبتان العود والألُوّة والجوز والكافور ، والذى يوجد ريحه على مَسيرة اثنى عشر ميلا ، إلى ملك العرب الذى لا يُشرك بالله شيئا .

أما بعد ، فإنى قد بعثتُ إليك بهدية ، وما هى بهدية ولكنها تحية ؛ قد أحببتُ أن تبعثَ إلىّ رجلا يعلّمنى ويُفهّمنى الإسلام . والسلام .

يعنى بالهدية : الكتاب .

بين ملك الروم والوليد في هدم كنيسة دمشق

الرياشي قال : لما هدم الوليدُ كنيسة دمشق ، كتب إليه ملك الروم :

إنك هدمتَ الكنيسة التي رأى أبوك تَرْكها ، فإن كان صواباً فقد أخطأ أبوك ، وإن كان خطأ فما عُذْرُك .

فكتب إليه : ﴿ وداوُدَ وسُليمانَ إذْ يَحكُمانِ في الحرثِ إذْ نفَشَتْ فيهِ غنمُ القومِ وكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدينَ ، ففهَّمْناها سُليْمان وكُلاًّ آتينا حُكْماً وعِلْماً ﴾ .

٥

بين ملك الروم وعبد الملك بن مروان

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان : أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة . لأُغْزِيَنَّكَ جُنوداً مائة ألفٍ ومائة ألف .

فكتب عبدُ الملك إلى الحجاج أن يَبعث إلى عبد الله بن الحسن [1] ويتوعَّده ويكتبَ إليه بما يقول . ففعل ، فقال عبد الله بن الحسن : « إن لله عزَّ وجل لوحا محفوظاً يلحظه كل يوم ثلثمائةِ لحظة ، ليس منها لحظة إلا يُحيي فيها ويُميت ويُعِز ويُذِلّ ويفعل ما يشاء ، وإني لأرجو أن يكفينيك منها بلحظة واحدة ! »

١٠

فكتب به الحجاج إلى عبد الملك بن مروان ، وكتب به عبد الملك إلى ملك الروم . فلما قرأه قال : ماخَرَج هذا إلا مِن كلام النبوة .

بين ملك الهند والرشيد

بعث ملك الهند إلى هارون الرشيد بسيوف قَلَعِيَّة ، وكلاب سُورية ، وثياب من ثياب الهند .

١٥

فلما أتتْه الرسلُ بالهدية أمر الأتراك فصَفُّوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يُرى منهم إلا الحدَقَ ، وأذن للرُّسل فدخلوا عليه ، فقال لهم : ما جئتم به ؟ قالوا : هذه أشرفُ كُسوةِ بلدِنا . فأمر هارون القَطَّاع بأن يقطع منها جلالاً وبراقع كثيرةً لخيله فصَلَّبَ الرُّسلُ على وجوههم ، وتذمَّموا ونكسوا رءوسهم . ثم قال لهم الحاجب : ما عندكم غير هذا ؟ قالوا له : هذه سيوف قَلْعية لا نظير لها . فدعا هارون بالصَّمْصامة سيفِ عمرو بن معديكرب ، فقُطِعت به السيوفُ بين يديه سيفاً سيفاً كما يُقطّ الفُجل ، من غير أن تَنْثنى له شَفْرة ، ثم عَرَض عليهم حدَّ السيف فإذا لا فلَّ فيه ؛ فصلَّب القوم على وجوههم .

٢٠

(١) في بعض الأصول : « علي بن الحسن » .

ثم قال لهم : ما عندكم غير هذا ؟ قالوا : هذه كلاب سُورية لا يلقاها سبع إلا عقرته . فقال لهم هارون : فإن عندى سَبُعاً ، فإن عقرته فهى كما ذكرتم . ثم أمر بالأسد فأُخرج إليهم ، فلما نظروا إليه هالهم ، وقالوا : ليس عندنا مثل هذا السَّبُع فى بلدنا ! قال لهم هارون : هذه سباع بلدنا . قالوا : فنرسلها عليه . وكانت الأكْلُبُ ثلاثة ، فأُرسلت عليه فمزقته ، فأُعجب بها هارون ، وقال لهم : تمنَّوا فى هذه الكلاب ما شئتم من طرائف بلدنا . قالوا ما نتمنى إلا السيف الذى قطعت به سيوفنا . قال لهم : هذا مما لا يجوز فى ديننا أن نُهاديكم بالسلاح ، ولولا ذلك ما بَخِلْنا به عليكم ، ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم . قالوا : ما نتمنى إلا به . قال : لا سبيل إليه . ثم أمر لهم بتُحف كثيرة ، وأحسنَ جائزتهم .

بين المأمون وطاهر بن الحسين

أبو جعفر البغدادى قال : لما انقبض طاهر بن الحسين بخراسان عن المأمون وأخذ حِذْرَه ، أدّب له المأمون وصيفاً بأحسن الآداب ، وعلّمه فنون العلم ، ثم أهداه إليه مع ألطاف كثيرة من طرائف العراق وقد واطأه على أن يَسُمَّه ، وأعطاه سمَّ ساعة ، ووعده على ذلك بأموال كثيرة ؛ فلما انتهى إلى خراسان وأوصل إلى طاهر الهدية ، قَبِل الهدية وأمر بإنزال الوصيف فى دار ، وأجرَى عليه ما يحتاج إليه من التوسعة فى النُّزَالة ، وتركه أشهراً . فلما بَرِمَ الوصيفُ بمكانه ، كتب إليه :

يا سيدى ، إن كنتَ تقبلنى فاقبلنى ، وإلا فردَّنى إلى أمير المؤمنين .

فأرسل إليه وأوصله إلى نفسه . فلما انتهى إلى باب المجلس الذى كان فيه ، أمره بالوقوف عند باب المجلس ، وقد جلس على لِبدٍ أبيض وقنّع رأسه وبين يديه مُصحف منشور ، وسيفٌ مسلول . فقال : قد قَبِلنا ما بَعث به أمير المؤمنين غيرَك ، فإنا لا نقبلك ، وقد صرَفناك إلى أمير المؤمنين . وليس عندى جوابه أكتبه إلا ما ترى من حالى . فأبلغ أمير المؤمنين السلام وأعلمه بالحال التى رأيتَنى فيها .

فلما قدم الوصيفُ على المأمون وكلمه بما كان من أمره ووصف له الحالة

التى رآه فيها ، شاور وُزراءه فى ذلك وسألهم عن معناه . فلم يَعْلَمْه واحدٌ منهم . فقال المأمون : لكنى قد فهمت معناه : أما تقريعُه رأسَه وجلوسُه على اللّبد الأبيض ، فهو يخبرنا أنه عبد ذليل ؛ وأما المُصحف المنشور ، فإنه يذكّرنا بالعهود التى له علينا ؛ وأما السيف المسلول ، فإنه يقول : إن نُكِثَت تلك العهودُ فهذا يَحكم بينى وبينك . أغلِقوا عنا بابَ ذِكره ولا تَهيجوه فى شىء مما هو فيه .

فلم يَهِجْه المأمونُ حتى مات طاهرُ بن الحسين ، وقام عبدُ الله بن طاهر مكانَه : فكان أخفَّ الناس على المأمون .

بينهما فى ابن السندى

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون فى إطلاق ابن السِّندىّ من حبسه ، وكان عامله على مصر فعزله عنها وحبَسه ؛ فأطلقه له وكتب إليه :

أخى أنت ومَوْلاىَ ... فما تَرْضاهُ أرضاهُ

وما تَهْوى من الأمرِ ... فإنى أنا أهواه

لك اللهُ على ذاكَ ... لك اللهُ لك اللهُ

كتاب الياقوتة

في العلم والأدب

فرش كتاب الياقوتة فى العلم والأدب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه : قد مضى قولنا فى مخاطبة الملوك ومقاماتهم وما تفنّنوا فيه من بديع حِكمهم ، والتزلف إليهم بحسن التوصّل ولطيف المعانى ، وبارع مَنطقهم وآختلاف مذاهبهم   ٥

ونحن قائلون بحمد الله وتوفيقه فى العلم والأدب ؛ فإنهما القُطبان اللذان عليهما مدارُ الدين والدنيا ، وفرْقُ ما بين الإنسان وسائر الحيوان ، وما بين الطبيعة الملَكية والطبيعة البهيمية ؛ وهما مادّة العقل ، وسراج البدن ، ونور القلب ، وعماد الروح ؛ وقد جعل الله بلطيف قدرته وعظيم سلطانه بعض الأشياء عَمَداً لبعض ومُتولداً من بعض . فإجالة الوهم فيما تدركه الحواس تبعث خواطر الذِّكر ، وخواطر الذكر تنبّه رَوِيَّةَ الفكر . وروِيّة الفكر تُثير مكامنَ الإرادة ، والإرادة تحكم أسبابَ العمل . فكل شىء يقوم فى العقل ويُمثل فى الوهم يكون ذكرا ، ثم فكرا ، ثم إرادة ، ثم عملا . والعقل مُتقبل للعلم ، لا يعمل فى غير ذلك شيئا .   ١٠

والعلم عِلمان : علمٌ حُمِلَ ، وعلم استُعْمِل ؛ فما حُمل منه ضَرّ . وما استعمل نفع . والدليل على أن العقل إنما يعمل فى تقبُّل العلوم كالبَصر فى تقبُّل الألوان والسمع فى تقبل الأصوات : أنّ العاقل إذا لم يُعلَّم شيئا كان كمن لا عقل له . والطفل الصغير لو لم تعرِّفه أدبا وتُلقِّنه كتابا كان كأبله البهائم وأضلّ الدّوابّ فإن زعم زاعم فقال : إنا نجد عاقلا قليل العلم ، فهو يستعمل عقله فى قلة علمه فيكون أسَدَّ رأيا وأنبهَ فطنةً وأحسنَ مواردَ ومَصادِرَ من الكثير العلم مع قلة العقل . فإن حجتنا عليه ما قد ذكرناه من حَمْل العلم وآستعماله ؛ فقليلُ العلم يَستعمله العقلُ خيرٌ من كثيره يحفظه القلب .   ١٥   ٢٠

المهلب

قيل للمهلب : بم أدركت ما أدركت ؟ قال : بالعِلم . قيل له : فإنّ غيرَك قد عَلم أكثر مما عَلِمت ولم يُدرك ما أدركت . قال : ذلك عِلمٌ حُمل وهذا علمٌ استُعمل .

الحكماء

وقد قالت الحكماء : العلم قائد والعقل سائق والنفس ذَوْد ؛ فإذا كان قائد بلا سائق هلكتْ ، وإن كان سائق بلا قائد أخذَت يميناً وشمالا ، وإذا اجتمعا ٥ أنابت طوعا أو كرها .

فنون العلم

بين المأمون وسهل بن هارون

قال سهل بن هارون وهو عند المأمون : من أصنافِ العلم ما لا ينبغى للمسلمين أن ينظروا فيه ، وقد يُرْغب عن بعض العِلم كما يرغب عن بعض الحلال .

فقال المأمون : « قد يُسمّى بعضُ الناس الشيء علما وليس بعلم ، فإن كان ١٠ هذا أردتَ فوجهُه الذى ذكرتُ .

ولو قلت أيضاً إن العلم لا يُدرَك غَوْرُه ، ولا يُسْبَرُ قعْرُه ، ولا تُبلَغ غايته ، ولا تُسْتَقْصى أصولُه ، ولا تَنضبط أجزاؤه ، صدقتَ : فإن كان الأمر كذلك فابدأ بالأهمّ فالأهم ، وبالأوْكَد فالأوكد ، وبالفرض قبل النّفل ، يكن ذلك عدلا قصداً ومذهباً جميلا .

١٥ وقد قال بعض الحكماء : لستُ أطلب العلم طمعاً فى غايته والوقوفِ على نهايته ، ولكنِ التماسَ ما لا يَسَعُ جهلُه . فهذا وجهٌ لما ذكرت .

وقال آخرون : علم الملوكِ النسب والخبر ، وعلم أصحاب الحروب درسُ كتبِ الأيام والسِّيَر ، وعلم التجارِ الكتابُ والحساب . فأما أنْ يسمّى الشيء علماً ويُنْهَى عنه من غير أن يُسْأل عما هو أنفعُ منه ، فلا .

لابن إدريس

٢٠ وقال محمد بن إدريس رضى الله عنه : العِلم عِلمان : علمُ الأبدان ، وعلم الأديان .

وقال عبد الله بن مسلم بن قتيبة : مَن أراد أن يكون عالما فليطلب فنًّا

واحدا ، ومن أراد أن يكون أديباً فليتفنّنْ [1] فى العلوم .

لأبى يوسف القاضى — وقال أبو يوسف القاضى : ثلاثة لا يَسْلَمون من ثلاثة : مَن طلب الدِّين بالفلسفة [2] لم يَسلم من الزَّندقة ، ومَن طلب المال بالكيمياء لم يَسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذِب .

لابن سيرين — وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى : العلمُ أكثرُ من أن يُحاطَ به ، فخذوا من كل شىء أحسنَه .

لابن عباس — وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كفاك من علم الدين أن تَعرِفَ ما لا يَسَعُ جهلُه وكفاك من عِلم الأدب أن تَرْوِىَ الشاهدَ والمثل .

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

وما مِن كاتبٍ إلا ستبقَى ۞ كِتابتُه وإن فَنِيتْ يداهُ
فلا تكتُبْ بكفِّك غيرَ شىءٍ ۞ يَسُرُّكَ فى القيامةِ أنْ تَراهُ

للأصمعى — وقال الأصمعى : وَصلتُ بالمُلَحِ ونِلتُ بالغريب .

لبعضهم — وقالوا : من أكثَرَ من النحو حَمَّقَه ، ومن أكثر من الشعر بَذَّله ، ومن أكثرَ من الفقه شَرَّفه .

لأبى نواس — وقال أبو نواس الحسنُ بن هانئ :

كم من حديثٍ مُعْجِبٍ عندى لَكا ۞ لو قدْ نَبَذْتُ به إليكَ لَسَرَّكا
مما تَخَيَّرَهُ الرُّواةُ مهذَّبٍ ۞ كالدُّرِّ منتظِمًا بنَحْرٍ فَلَّكا [3]
أَتَتَبَّعُ العلماءَ أكتُبُ عنهمُ ۞ كيْما أُحدِّثَ مَن لَقِيتُ فيضحَكا

الحض على طلب العلم

للنبى صلى الله عليه وسلم — قال النبى صلى الله عليه وسلم : لايزال الرجل عالماً ما طَلَبَ العلم ، فإذا ظنّ أنه قد عَلِمَ فقد جَهِل .

---

(١) فى بعض الأصول : « فليتسع » .
(٢) فى بعض الأصول : « النجوم لم يسلم .... » .
(٣) فلك : استدار .

وقال عليه الصلاة والسلام : الناس عالِمٌ ومتعلِّم ، وسائرُهم همج .

وعنه صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم . رضا بما يطلب . ولَمِدادٌ جرَتْ به أقلامُ العلماء خيرٌ من دماء الشهداء فى سبيل الله .

لداود عليه السلام يعظ ابنه

٥ وقال داود لابنه سليمان عليهما السلام : اُجعَلِ العِلمَ حول عنقك ، واكتبه فى ألواح قلبك .

وقال أيضا : اجعل العلم مالك والأدبَ حليتَك .

لعلى

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : قيمةُ كل إنسان ما يُحْسِن .

لأبى عمرو ابن العلاء

وقيل لأبى عمرو بن العلاء : هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ قال : إن كان ١٠ يحسُن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم .

لعروة ينصح بنيه

وقال عُروة بن الزُّبير رحمه الله تعالى لبنيه : يا بَنِىّ ، اطلبوا العلم ، فإن تكونوا صِغارَ قومٍ لا يُحتاج إليكم فعسى أن تكونوا كبارَ قومٍ آخرين لا يُستغْنَى عنكم .

لملك الهند ينصح ولده

وقال ملك الهند لولده ، وكان له أربعون ولداً : يا بَنِىّ ، أكثِروا من النظر ١٥ فى الكتب ، وازدادوا فى كل يوم حرفا ؛ فإنّ ثلاثة لا يَستوحِشون فى غُربة : الفقيه العالم ، والبطل الشجاع ، والحلو اللسان الكثير مخارج الرأى .

للمهلب ينصح بنيه

وقال المهلب لبنيه : إياكم أن تجلسوا فى الأسواق إلا عند زَرّادٍ أو وَرّاق . أراد الزَّرّادَ للحرب ، والورّاقَ للعلم .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

٢٠ نِعْمَ الأنيسُ إذا خلَوْتَ كتابُ ٭ تلهو به إن خانَكَ الأحبابُ
لا مُفْشِياً سِرًّا إذا استودَعْتَه ٭ وتُفادُ منــه حِكمةٌ وصواب

وقال آخر :

ولِكل طالبِ لذةٍ متنزَّهٌ ٭ وألَذُّ نُزهةِ عالِمٍ فى كُتْبِه

بين عبد الله بن عبد العزيز وبعضهم

ومر رجل بعبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر ، وهو جالس فى المقبرة وبيده كتاب ، فقال له : ما أجلسك ههنا ؟ قال : إنه لا أوْعَظ مِن قبر ، ولا أمتع من كتاب .

للنسابة البكرى

وقال رؤبة بن العجّاج : قال لى النّسّابة البكرى : يارؤبة ، لعلك من قوم إن سكتُّ عنهم لم يسألونى ، وإنْ حدّثتهم لم يفهمونى ؟ قلت : إنى أرجو ألا أكون كذلك . قال : فما آفة العلم ونَكَده وهُجنته ؟ قلت : تخبرنى ! قال : آفته النسيان ، ونكده الكذب ، وهُجنته نشره عند غير أهله .

لعبد الله ابن عباس

وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما : مَنهُومان لا يَشْبَعان : طالبُ علم وطالبُ دنيا .

وقال : ذَلَلت طالباً فعَزِزْتُ مطلوبا .

بين أبى هريرة وبعضهم

وقال رجل لأبى هريرة : أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أُضيعَه . قال : كفاك بترك طلب العلم إضاعةً له .

لعبد الله ابن مسعود

وقال عبد الله بن مسعود : إن الرجل لا يُولد عالما ، وإنما العلم بالتعلُّم . وأخذه الشاعر فقال :

تَعَلَّم فليس المرءُ يُولدُ عالِما * وليس أخو عِلم كمن هُو جاهل

ولآخر :

تعلَّم فليس المرءُ يُخلقُ عالِمًا * وما عالِمٌ أمْرًا كمن هو جاهلُهْ

ولآخر :

ولم أرَ فرْعاً طال إلا بأصلِه * ولم أرَ بدء العِلم إلا تعلُّما

وقال آخر :

العِلمُ يُحْيي قلوبَ المَيِّتين كما * تَحْيا البلادُ إذا ما مَسَّها المطَرُ

والعلم يجلُو العَمَى عن قلبِ صاحبِه * كما يُجَلِّى سوادَ الظُّلْمةِ القمرُ

لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء : اقصِدْ من أصناف العلم إلى ماهو أشهى لنفسك ، وأخفّ على قلبك ؛ فإنّ نفاذك فيه ، على حسب شهوتك له وسُهولته عليك .

فضيلة العلم

لعلى بن أبى طالب

حدثنا أيوب بن سُليمان قال : حدثنا عامر بن معاوية عن أحمد بن عمران الأخنس[1] عن الوليد بن صالح الهاشمى ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الكوفى ، عن أبى مِخْنف ، عن كُمَيْل النَّخعى ، قال : أخذ بيدى علىُّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فخرج بى إلى ناحية الجبَّانة ، فلما أصْحَر تنفس الصُّعداء ، ثم قال : يا كُمَيْل ، إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها فاحفظ عنى ما أقول لك :

الناس ثلاثة : عالم ربّانى ، ومتعلِّمٌ على سبيل نجاة ، وهَمَج رَعاع ، أتباعُ كلِّ ناعق ، مع كلِّ ريح يَميلون ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يَلْجئوا إلى ركن وثيق.

يا كميل ، العلم خير من المال : العلم يَحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقُصه النفقة ، والعلم يَزْكو على الإنفاق ، ومنفعة المال تزول بزواله .

يا كميل ، محبة العلم دِينٌ يُدان به ، به يَكسب الإنسان الطاعةَ فى حياته ، وجميلَ الأحدُوثةِ بعد وفاته ، والعلم حاكم والمال محكومٌ عليه .

يا كميل ، مات خُزّانُ المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة ها إن ها هنا لعلماً جَمًّا ـ وأشار بيده إلى صدره ـ لو وَجدْتُ له حَمَلةً ، بلى أجد لقِناً غير مأمون عليه ، يَستعمله آلة الدين للدنيا ، ويَسْتظهر بحجج الله على أوليائه ، وبنعمه على عباده ؛ أو منقاداً لحَمَلة الحقِّ ولا بصيرة له فى أحْنائه ، ينقدح الشك فى قلبه لأول عارضٍ من شُبهة . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، أو مَنهوماً باللذة ، سَلِس القياد للشهوة ، أو مغرما بالجمع والادخار ليسا من رعاة الدين فى شىء أقربُ شبها بهما الأنعام السائمة . كذلك يَموت العلم بموْت حامِليه . اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله إما ظاهرا مشهورا ، أو خائفاً مغمورا ، لئلا تَبْطُلَ حُجَجِ الله وبيناته ؛ وكم ذا ، وأين ؟ أولئك والله الأقلّون عددا ؛ والأعظمون عند الله قدرا ؛ بهم يحفظ الله

(١) فى بعض الأصول : « الأخفش » .

حُجَجه حتى يودعوها نُظَراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباهِهم ، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشروا رُوح اليقين ؛ فاستلانوا ما استخشَن المترَفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصَحِبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلقة بالرفيق الأعلى .

يا كميل ، أولئك خلفاء الله فى أرضه ، والدعاة إلى دينه ، آه آه . شوقا إليهم . انصرف إذا شئت . ٥

الخليل فى فضل العلم على المال

قيل للخليل بن أحمد : أيهما أفضل : العِلم أو المال ؟ قال العِلم . قيل له : فما بال العُلماء يَزدحمون على أبواب الملوك والملوك لا يزدحمون على أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بحقِّ الملوك وجهلِ الملوك بحق العلماء .

النبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : فضلُ العلم خير من فضل العبادة . ١٠

وقال عليه الصلاة والسلام : إنّ قليل العمَل مع العلم كثير ، كما أنّ كثيره مع الجهل قليل .

وقال عليه الصلاة والسلام : يحمل هذا العلمَ مِنْ كلِّ خَلفٍ عُدولُه ، يَنفون عنه تحريفَ القائلين ، وانتحالَ المبطلين ، وتأويلَ الجاهلين .

للأحنف

وقال الأحنف بن قيس : كاد العلماء أن يكونوا أربابا ، وكلُّ عِز لم يؤكّد[1] بعلم فإلى ذُلّ ما يصير . ١٥

لأبى الأسود

وقال أبو الأسود الدؤلى : الملوك حُكام على الدنيا ، والعلماء حُكام على الملوك .

لأبى قلابة

وقال أبو قِلابة : مَثَل العلماء فى الأرض مَثَلُ النجوم فى السماء : من تركها ضَلّ ، ومن غابت عنه تحيّر . ٢٠

لابن عيينة

وقال سفيان بن عُيينة : إنما العالِم مثل السراج : من جاءه اقتبس من علمه ، ولا ينقصه شيئا ؛ كما لا ينقص القابسُ من نور السراج شيئا .

(١) فى بعض الأصول : « يكسب » .

في الحديث

وفى بعض الأحاديث : إن الله لا يقتل نفس التقيّ العالم جوعا .

للحسن البصري

وقيل للحسن بن أبى الحسن البَصري : بِمَ صارت الحِرفة مقرونة مع العِلم ، والثروة مقرونة مع الجهل ؟ فقال : ليس كما قلتم ، ولكن طلبتُم قليلا فى قليل فأعجزكم ؛ طلبتُم المالَ وهو قليل ، فى أهل العلم وهم قليل ، ولو نظرتم إلى من احترف من أهل الجهل لوجدتموهم أكثر .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ إنما يَخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ و ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

لبعضهم

وقيل : لا تمنعوا العلم أهله فتظلموهم ، ولا تعطوه غير أهله فتظلموه .

لبعض الشعراء

ولبعضهم :

١٠ من منع الحكمة أربابها ٭ أصبح فى الحكم لهم ظالما

وواضع الحكمة فى غيرهم ٭ يكون فى الحكم لها غاشما

سمعت يوما مثلا سائرا ٭ وكنت فى الشعر له ناظما

لاخير فى المرء إذا ماغدا ٭ لا طالباً علما ولا عالما

لبعض العلماء

وقيل لبعض العلماء : كيف رأيت العلم ؟ قال : إذا اغتممت سلوتى ، وإذا

١٥ سلوت لذّتى .

لسابق البربرى وغيره

وأنشد لسابق البربرى :

العلم زين وتشريف لصاحبه ٭ والجهل والنَّوْكُ مقرونان فى قَرَن

ولغيره :

وإذا طلبت العلم فاعلم أنه ٭ حِمل فأبصر أى شئ تحمل

٢٠ وإذا علمتَ بأنه متفاضـــل ٭ فاشغل فؤادك بالذى هو أفضل

للأصمعى

الأصمعى قال : أول العلم الصمت ، والثانى الاستماع ، والثالث الحفظ ، والرابع العمل ، والخامس نشره .

ويقال : العالم والمتعلم شريكان ، والباقى همج .

وأنشـــد :

لا ينفع العلمُ قلبا قاسيا أبدا ٭ ولا يلين لفكّ الماضغ الحجرُ

لمعاذ بن جبل
وقال معاذ بن جبل : تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة ، وطلبه عبادة ، وبذله لأهله قُربة . والعلم منار سبيل أهل الجنة ، والأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدّث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والزّين عند الأخلاء ، والسلاح على الأعداء . يرفع الله به قوما فيجعلهم قادة أئمة ، تُقتفى آثارهم ، ويُقْتَدى بفعالهم . والعلم حياة القلب من الجهل ، ومصباح الأبصار من الظلمة ، وقوة الأبدان من الضعف ؛ يبلغ بالعبد منازل الأخيار ، والدرجات العلا فى الدنيا والآخرة ؛ الفكر فيه يعدل الصيام ، ومذاكرته القيام ، وبه تُوصل الأرحام ، ويعرف الحلال من الحرام .

لابن طباطبا
ولابن طباطبا العلوىّ :

حسود مريض القلب يخفى أنينه ٭ ويُضحى كئيبَ البال عندى حزينَه
يلوم على أن رحت فى العلم طالبا ٭ أُجمّع من عند الرجال فنونه
فأملك أبكار الكلام وعُونَه ٭ وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يجلب الغنى ٭ ويُحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيالائمىَ دعى أغالى بقيمتى ٭ فقيمة كل الناس مايحسنونه

ضبط العلم والتثبت فيه

لابن عبدالله ابن عمر
قيل لمحمد بن عبد الله بن عمر رضى الله عنه : ما هذا العِلْم الذى بِنْتَ به عن العالَم ؟ قال : كنتُ إذا أخذت كتاباً جعلته مِدْرعة .

لابن مصقلة
وقيل لرقبة بن مصقلة : ما أكثرَ شكّك ! قال : محاماةً عن اليقين .

بين شعبة والسختيانى
وسأل شُعبةُ أيوبَ السّختيانى عن حديث، فقال : أشك فيه ؛ فقال : شكُّك أحبُّ إلىّ من يقينى .

لأيوب
وقال أيوب : إنّ من أصحابى من أرتجى بَرَكةَ دعائه ولا أقبلُ حديثه .

للحكماء — وقالت الحكماء : عَلِّم عِلمَك مَن يجهل ، وتعلَّمْ ممن يَعلم ، فإذا فعلت ذلك حفظتَ ماعلمتَ ، وعلمتَ ماجهلت .

النخعي والشعبي — وسأل إبراهيم النَّخعيّ عامراً الشَّعبي عن مسألة ؛ فقال : لا أدرى . فقال : هذا والله العالم ؛ سُئل عما لا يدرى ، فقال : لا أدرى .

للإمام مالك — ٥ وقال مالك بن أنس : إذا تَرَك العالِمُ « لا أدرى » أصيبت مقاتِلُه .

لعبدالله بن عمرو — وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : من سُئل عما لا يدرى ، فقال : لا أدرى ، فقد أحرز نصفَ العلم .

لبعضهم — وقالوا : العلم ثلاثة : حديثٌ مُسنَد ، وآيةٌ مُحْكَمة ، ولا أدرى ؛ فجعلوا « لا أدرى » من العلم ، إذا كان صواباً من القول .

للخليل — ١٠ وقال الخليل بن أحمد : إنك لا تعرف خطأ مُعلِّمك حتى تجلس عند غيره .

وكان الخليل قد غلبتْ عليه الإباضيَّةُ حتى جالس أيوب .

لبعضهم — وقالوا : عواقبُ المكاره محمودة .

وقالوا : الخيرُ كلُّه فيما أُكْرِهت النفوسُ عليه .

انتحال العلم

للحكماء — ١٥ قال بعض الحكماء : لا ينبغى لأحد أن ينتحل العلم ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿وما أُوتيتُمْ من العِلم إلا قليلا﴾ وقال عز وجل : ﴿وفوقَ كلِّ ذى عِلْمٍ عَليم﴾ .

موسى عليه السلام وقد ظن أنه أعلم الخلق — وقد ذُكِر عن موسى بن عمران عليه السلام ، أنه لما كلمه الله تعالى تكليما ، ودَرَس التوراةَ وحَفِظَها ، حدثته نفسه أن الله لم يَخلق خلقاً أعلمَ منه ، فهوَّن اللهُ إليه نفسَه بالخضر عليه السلام .

مقاتل وبعضهم — ٢٠ وقال مقاتل بن سليمان وقد دخلته أُبَّهةُ العلم : سلونى عما تحت العرش إلى أسفلَ من الثرى . فقام إليه رجل من القوم فقال : مانسألك عما تحت العرش ولا أسفل من الثرى ، ولكن نسألك عما كان فى الأرض وذَكَره اللهُ فى كتابه : أخبرْنى عن كلب أهل الكهف ، ماكان لونه ؟ فأفحَمَه .

لقتادة — وقال قتادة : ما سمعت شيئاً قط ولا حفظتُ شيئا قطُّ فنَسِيتُه . ثم قال : ياغلام ، هاتِ نَعلِى . فقال : هما فى رجليك . ففضحه الله .

لأبى عمرو بن العلاء وغيره — وأنشد أبو عمرو بن العلاء فى هذا المعنى :

مَنْ تحلَّى بغير ما هو فيه ✽ فضحتْه شواهدُ الإمتحان

وفى هذا المعنى : ٥

من تحلى بغير ما هو فيه ✽ شان ما فى يديه ما يدّعيه

وإذا قلّل الدعاوى لما فيـــه أضافوا إليه ماليس فيه

ومحكُّ الفتى سيظهر للنا ✽ س وإن كان دائباً يُخفيه

ويحسَبِ الذى ادّعى ماعداه ✽ أنه عالم بما يفـــتريه

لشبيب ينصح فتى من دوس — وقال شبيب بن شيبة لفتى من دوس : لا تنازع مَن فوقك ، ولا تقل إلا بعلم ، ولا تتعاط مالم تَنلْ ، ولا يخالف لسانك مافى قلبك ، ولا قولك فعلك ، ولا تدع الأمر إذا أقبل ، ولا تطلبه إذا أدبر . ١٠

لقتادة — وقال قتادة : حَفظتُ مالم يحفظ أحدٌ ، وأُنسِيتُ مالم يَنْس أحد : حفظتُ القرآنَ فى سبعة أشهر ، وقبضتُ على لحيتى وأنا أريد قَطْعَ ما تحت يدى فقطعتُ ما فوقها . ١٥

الشعبى والسدى — ومر الشعبيُّ بالسُّدّى وهو يفسّر القرآن ، فقال : لو كان هذا الساعةَ نشوانَ يَضرب على آسته بالطبل ، أما كان أحسنَ له ؟

لبعض المتحلين — وقال بعض المتحلين :

يُجهلنى قومى وفى عَقْدِ مِئْزَرى ✽ تمنّون أمثالًا لهم مُحْكَمَ العلم

وما عَنّ لى من غامِضِ العِلمِ غامِضٌ ✽ مَدَى الدهرِ إلا كنتُ منه على فَهْم ٢٠

لابن الرقاع — وقال عدىّ بن الرِّقاع :

وعَلِمتُ حتى ما أُسـائلُ عالماً ✽ عن عِلم[1] واحدةٍ لكىْ أزدادَها

(١) فى الأصول : «حرف».

شرائط العلم وما يصلح له

لبعضهم

وقالوا : لا يكون العالم عالما حتى تكون فيه ثلاث خصال : لا يحتقر مَن دونَه ، ولا يحسد مَن فوقه ، ولا يأخذ على العلم ثمنا .

وقالوا : رأس العلم الخوف من الله تعالى .

للشعبي

٥ وقيل للشعبي : أفتِني أيُّها العالِم ! فقال : إنما العالم مَن اتقى الله .

للحسن

وقال الحسن : يكون الرجل عالما ولا يكون عابدا ، ويكون عابداً ولا يكون عاقلا .

وكان مسلم بن يسار عالما عابداً عاقلا .

لبعضهم

وقالوا : ما قُرِن شيء إلى شيء ، أفضلَ من حِلم إلى عِلم . ومن عفو إلى قُدرة .

١٠ وقالوا : من تمام آلةِ العالِم أن يكون شديدَ الهيبة ، رزينَ المجلس ، وقوراً صَموتا ، بطيء الالتفات ، قليل الإشارات ، ساكن الحركات ، لا يَصْخَب ولا يغضبُ ، ولا يُبْهر فى كلامه ، ولا يَمسح عُثْنُونَه عند كلامه فى كل حين ؛ فإن هذه كلّها من آفات العيّ .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

١٥ مَليءٌ بِبُهْر والْتِفاتٍ وسُعلةٍ ﴿ ومَسْحةِ عُثْنُونٍ وفَتْلِ الأصابِع

لابن صفوان يمدح رجلا

ومدح خالد بن صفوان رجلا ، فقال : كان بديع المنطق ، جزل الألفاظ ، عربىّ اللسان ، قليل الحركات ، حَسَن الإشارات ، حُلو الشمائل ، كثير الطلاوة ، صموتا وقوراً ، يهنأ الجرب ، ويداوى الدّبر ، ويُقِلّ الحَزّ ، ويُطبّق المَفْصِل ؛ لم يكن بالزمِر المروءة ، ولا الهَذِر المنطق ، متبوعا غير تابع .

٢٠ كأنه عـــلم فى رأسه نار ﴿

لابن المبارك فى مالك بن أنس

وقال عبد الله بن المبارك فى مالك بن أنس رضى الله عنه :

يأبَى الجوابَ فما يُراجَعُ هيْبةً ﴿ فالسائلونَ نواكِسُ الأذْقانِ

هدْىُ الوَقار وعِزُّ سُلطانِ التقَى ﴿ فهو المَهيبُ وليس ذا سُلطانِ

وقال عبد الله بن المبارك فيه أيضا :

صَمُوتٌ إذا ما الصمتُ زَيَّنَ أهلَه ٭ وفتّاقُ أبكارِ الكلام المُخَتّمِ
وعَى ما وعى القرآنُ من كلّ حِكمَةٍ ٭ وسِيطتْ له الآدابُ باللحم والدم

بن عبد الملك ورجل — ودخل رجل على عبد الملك بن مروان ، وكان لا يسأله عن شىء إلا وجد عنده منه عِلماً ، فقال له : أنّى لك هذا ؟ فقال : لم أَمْنع قطّ يا أمير المؤمنين ٥ علماً أفيدُه ، ولم أحتقر علماً أستفيده ، وكنت إذا لقيت الرجل أخذتُ منه وأعطيتُه .

لبعضهم — وقالوا : لو أنّ أهل العلم صانوا علمهم لسادوا أهل الدنيا ، لكن وضعوه غيرَ موضعه فقصّرَ فى حقّهم أهل الدنيا .

حفظ العلم واستعماله ١٠

لابن مسعود — قال عبد الله بن مسعود : تعلّموا ، فإذا عَلمتم فاعملوا .

لابن دينار — وقال مالك بن دينار : العالِم إذا لم يعمل بعلمه زَلّتْ موعظته عن القلب . كما يزل الماء عن الصّفا .

لبعضهم — وقالوا : لولا العمل لم يُطلب العلم ، ولولا العِلْم لم يُطلب العمل .

للطائى — وقال الطائى : ١٥

ولم يَحمَدوا من عالِم غيرِ عامِلٍ ٭ ولم يَحمَدوا من عاملٍ غير عالِمِ

لابن الخطاب — وقال عمرُ بن الخطاب رضوان الله عليه : أيها الناس ، تعلموا كتاب الله تُعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله .

وقالوا : الكلمة إذا خرجت من القلبِ وقعتْ فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تُجاوِز الآذان . ٢٠

لمالك — ورَوى زياد عن مالك ، قال : كن عالما ، أو متعلّماً ، أو مستمعاً ؛ وإياك والرابعة فإنها مهلكة ؛ ولا تكونُ عالماً حتى تكونَ عاملا ، ولا تكون مؤمنا حتى تكون تقيًّا .

لأبي الحسن
وقال أبو الحسن : كان وكيع بن الجرّاح يتحفظ كل يوم ثلاثة أحاديث .

الشعبي والزهري
وكان الشعبي والزهري يقولان : ما سمعْنا حديثا قط وسألنا إعادتَه .

رفع العلم وقولهم فيه

لابن مسعود
قال عبد الله بن مسعود : تعلموا العلم قبل أن يُرْفع .

للنبي صلى الله عليه وسلم
٥ وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبضه بِقَبْضِ العلماء .

لابن عباس في ابن ثابت
وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما ، لما وُورِي زيدُ بن ثابت في قبره : مَن سَرّه أن يَرى كيف يُقْبَض العلم فهكذا يقبض .

تحامل الجاهل على العالم

١٠ قال النبي صلى الله عليه وسلم : ويل لعالِمٍ أمرٍ مِن جاهلِه .

لبعضهم
وقالوا : إذا أردتَ أن تفحِم عالما فأحْضِرْه جاهلا .

وقالوا : لا تناظِر جاهلًا ولا لجوجا : فإنه يجعل المناظرةَ ذَريعةً إلى التعلُّم بغير شكر .

للنبي صلى الله عليه وسلم
قال النبي صلى الله عليه وسلم : ارحموا عزيزاً ذلّ ، ارحموا غنيا افتقَر ، ١٥ ارحموا عالما ضاع بين جُهّال .

كيسان والخليل
وجاء كيسان إلى الخليل بن أحمد يسأله عن شيء ؛ ففكر فيه الخليل ليجيبه ، فلما استفتح الكلام قال له : لا أدرى ما تقول . فأنشأ الخليل يقول :

لو كنتَ تعلم ما أقول عَذَرْتَني * أو كنتُ أجهل ما تقولُ عَذَلْتُكا
لكن جَهِلتَ مَقالتى فعَذَلْتَنى * وعلمتُ أنك جاهل فعَذَرْتُكا

لحبيب
٢٠ قال حبيب :

وعاذلٍ عَذَلْتُه في عَذْلِهِ * فظنّ أنى جاهل من جَهْلِهِ
ما غَبَن المغبونَ مثلُ عقله * من لك يوماً بأخيك كلّه

تبجيل العلماء وتعظيمهم

زيد بن ثابت وابن عباس

الشعبي قال : ركب زيد بن ثابت ، فأخذ عبد الله بن عباس بركابه ؛ فقال : لا تفعل يابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : هكذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا . قال زيد : أرنى يَدَك . فلما أخرج يده قَبّلها ، وقال : هكذا أُمِرْنا أن نفعل بأهل بيت نبيّنا . ٥

لبعضهم

وقالوا : خدمة العالِم عبادة .

لعلى بن أبى طالب

وقال على بن أبى طالب رضوان الله عليه : من حقّ العالِم عليك إذا أتيته أن تسلّم عليه خاصة وعلى القوم عامّة ، وتجلس قُدّامَه ، ولا تشير بيدك ، ولا تغمِزَ بعينك ؛ ولا تقول : قال فلان خلافَ قولك، ولا تأخذ بثوبه ، ولا تُلحّ عليه فى السؤال ؛ فإنما هو بمنزلة النخلة المُرطبة التى لا يزال يسقط عليك منها شىء . ١٠

لبعضهم

وقالوا : إذا جلست إلى العالم فَسَلْ تَفَقُّهاً ولا تَسل تعنُّتا .

عويص المسائل

للنبى صلى الله عليه وسلم فى صعاب المسائل

الأوزاعىّ عن عبد الله بن سعد عن الصُّنابحىّ عن معاوية بن أبى سفيان قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأُغلوطات . ١٥

قال الأوزاعى : يعنى صعابَ المسائل .

ابن سيرين والأغلوطة

وكان ابن سيرين إذا سُئل عن مسألة فيها أغلوطة قال للسائل : أمسِكْها حتى تسأل عنها أخاك إبليس .

بين ابن قيس وابن أنس

وسأل عمرو بن قيس مالكَ بن أنس عن مُحْرِمٍ نَزَع نابَىْ ثعلب ، فلم يردّ عليه شيئا . ٢٠

بين ابن الخطاب وعلى

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه فقال : ما تقول فى رجلٍ أُمّه عند رجل آخر ؟ فقال : يُمسك عنها . أراد عمر : أن الرجل يموت وأُمه عند رجل آخر ، وقول على « يمسك عنها » يريد : يُمسك

عن أم الميت حتى تستبرئ من طريق الميراث .

بين ابن قيس ورجل

وسأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة يجدها الإنسان فى ثوبه أو فى خُفه أو فى جبهته من حصى المسجد ، فقال : ارْمِ بها . قال الرجل : زعموا أنها تصيح حتى تُرَدَّ إلى المسجد . فقال : دعها تصيح حتى ينشقَّ حلقُها ، فقال الرجل : ٥ سبحان الله ! ولها حَلْق ؟ قال : فمن أين تصيح .

بين ابن أنس ومستفسر

وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كيف هذا الاستواء ؟ قال : الاستواء معقول . والكيفُ مجهول ؛ ولا أظنك إلا رَجُلَ سَوء .

وروى مالكُ بن أنس الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ١٠ «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يُدخل يدَه فى الإناء حتى يغسلَها ؛ فإن أحدكم لا يدرى أين باتت يدُه » فقال له رجل : فكيف نَصنع فى المِهْراس أبا عبد الله ؟ ـ والمهراس : حوضُ مكة الذى يتوضأ الناس فيه ـ فقال : مِن الله العلم ، وعلى الرسولِ البلاغ ، ومنا التسليم . أَمِرُّوا الحديث .

لابن عباس

وقيل لابن عباس رضى الله عنهما : ما تقول فى رجلٍ طلَّق امرأتَه عددَ نجوم ١٥ السماء ؟ قال : يكفيه منها كوكبُ الجوزاء .

لابن أبى طالب

وسئل علىُّ بن أبى طالب رضوان الله عليه : أين كان ربنا قبل أن يَخْلق السماء والأرض ؟ فقال : أين توجبُ المكان ، وكان الله عز وجل ولا مكان .

التصحيف

للأصمعى

وذكر الأصمعى رجلا بالتصحيف ، فقال : كان يسمع فيعى غير ما يسمع ، ٢٠ ويكتب غير ماوَعَى ، ويقرأ فى الكتاب غير ماهو فيه .

لبعضهم

وذكر آخرُ رجلا بالتصحيف فقال : كان إذا نَسخ الكتاب مرتين عاد سُريانيًا .

طالب العلم لغير الله

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أُعْطِىَ النَّاسُ العِلْمَ ومُنعوا العمل وتحابُّوا بالألسن ، وتباغضوا بالقلوب ، وتقاطعوا فى الأرحام ـ لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارَهم »

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : أَلَا أخبرُكم بشرِّ الناس ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : العلماء إذا فَسدوا .

للفضيل بن عياض

وقال الفضيل بن عياض : كان العلماء ربيع الناس ، إذا رآهم المريض لم يسرّه أن يكون صحيحا ، وإذا نظر إليهم الفقير لم يوَدّ أن يكون غنيا ؛ وقد صاروا اليوم فتنة للناس .

لعيسى بن مريم

وقال عيسى بن مريم عليه السلام : سيكون فى آخر الزمان علماء يُزهّدون فى الدنيا ولا يزْهدون ، ويُرغِّبون فى الآخرة ولا يرغبون ؛ يَنْهَون عن إتيان الولاة ولا ينتهون ، يُقرّبون الأغنياء ، ويُبعدون الفقراء ، ويتبسّطون للكبراء ، وينقبضون عن الفقراء ؛ أولئك إخوان الشياطين وأعداء الرحمن .

محمد بن واسع

وقال محمد بن واسع : لأن تطلب الدنيا بأقبح مما تطلب به الآخرة ، خير من أن تطلبها بأحسن مما تطلب به الآخرة .

للحسن

وقال الحسن : العلم علمان : علم فى القلب ، فذاك العلم النافع ، وعلم فى اللسان ، فذاك حجة الله على عباده .

للنبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الزبانية لا تخرج إلى فقيه ولا إلى حملة القرآن إلا قالوا لهم : إليكم عنا ، دونكم عَبَدة الأوثان . فيشتكون إلى الله ، فيقول : ليس من علم كمن لم يعلم .

لمالك بن دينار

وقال مالك بن دينار : من طلب العلم لنفسه فالقليل منه يكفيه ، ومن طلبه للناس فحوائج الناس كثيرة .

لابن شبرمة

وقال ابن شبرمة : ذهب العلم إلا غُبّرات فى أدعية سوء .

للنبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من طلب العلم لأربع دخل النار : من طلبه ليباهى به العلماء ، وليمارى به السفهاء ، وليستميل به وجوه الناس إليه ، أو ليأخذ به من السلطان .

وتكلم مالك بن دينار فأبكى أصحابه ، ثم افتقد مصحفه ، فنظر إلى أصحابه ٥ وكلهم يبكى ، فقال : ويحكم ! كلكم يبكى ، فمن أخذ المصحف ! ؟

قال أحمد بن أبى الحَوارىّ : قال لى أبو سليمان فى طريق الحج : يا أحمد ، إن الله قال لموسى بن عمران : مُرْ ظَلَمَة بنى إسرائيل ألا يذكرونى ، فإنى لا أذكر من ذَكَرنى منهم إلا بلعنةٍ حتى يسكت ! ويحك يا أحمد ! بلغنى أنه من حجَّ بمالٍ من غير حلِّه ثم لبَّى قال الله تبارك وتعالى : لا لَبَّيْك ولا سَعْدَيْك حتى تؤدى ١٠ مابيديك ، فما يؤمِّنُنا أن يقالَ لنا ذلك ؟

باب من أخبار العلماء والأدباء

لابن عباس فى الخلفاء

أملى أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الخشنى ، أنّ عبد الله بن عباس سئل عن أبى بكر رضى الله عنه ، فقال : كان والله خيراً كله مع الحِدَّة التى كانت فيه . قالوا : فأخبِرْنا عن عمر رضوان الله عليه . قال : كان والله كالطير الحذِر الذى ١٥ نصِبَ فَخٌ له فهو يخاف أن يقع فيه . قالوا : فأخبِرْنا عن عثمان رضوان الله عليه . قال : كان والله صَوّاماً قوّاما . قالوا : فأخبرنا عن على بن أبى طالب رضوانُ الله عليه . قال : كان والله ممن حَوَى علماً وحِلما ، حسبُك من رجلٍ أعزّته سابقتُه ، وقدّمتْه قرابتُه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلّما أشرفَ على شىء إلا ناله . قالوا يقال : إنه كان محدودا . قال : أنتم تقولونه .

للحسن البصرى وعلى بن أبى طالب

٢٠ وذكروا أن رجلا أتى الحسن فقال : أبا سعيد ، إنهم يزعمون أنك تُبغض عليا ! فبكى حتى اخضلّت لحيتُه ، ثم قال : كان على بن أبى طالب سهماً صائباً من مَرامى الله على عدوّه ، وربّانىَّ هذه الأمة ، وذا سابقتها ، وذا فضلها ، وذا قرابةٍ قريبةٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يكن بالنُّوَمة عن أمر الله ، ولا بالملولةِ فى حق الله ، ولا بالسَّرُوقة لمال الله ؛ أعطى القرآن عزائمه ففاز

منه برياض مُونِقة ، وأعلام بيّنة . ذاك علىّ بن أبى طالب يا لُكَع .

لابن صفوان عن الحسن البصرى

وسئل خالد بن صفوان عن الحسن البصرى ، فقال : كان أشبهَ الناسِ علانيةً بسريرة ، وسريرةً بعلانية وآخَذَ الناسِ لنفسِه بما يأمر به غيرَه ، يالَه مِن رجل آستغنى عما فى أيدى الناس من دنياهم ، واحتاجوا إلى مافى يديه من دينهم .

بين عبد الملك وعروة فى بستان

ودخل عروة بن الزبير بستاناً لعبد الملك بن مروان ، فقال عروة : ماأحسن هذا البستان ! فقال له عبد الملك : أنت والله أحسن منه ؛ إن هذا يؤتى أُكلَه كلَّ عام ، وأنت تؤتى أُكلَك كلَّ يوم .

عبد الملك وشهاب الزهرى

وقال محمد بن شهاب الزهرى : دخلت على عبد الملك بن مروان فى رجال من أهل المدينة ، فرآنى أحدثَهم سنا ، فقال لى : من أنت ؟ فانتسبتُ إليه ، فعرفنى ؛ فقال : لقد كان أبوك وعمك نَعاقَيْن فى فتنة ابن الزبير ! قلت : يا أمير المؤمنين ، مثلُكَ إذا عَفَا لم يَعُد ، وإذا صفح لم يُثَرِّب . قال لى : أين نشأت ؟ قلت : بالمدينة ، قال : عند مَن طلبتَ ؟ قلت : عند ابن يسار ، وابن أبى ذُؤيب ، وسعيد بن المُسيِّب . قال لى : وأين كنتَ من عروةَ بن الزبير ، فإنه بحر لا تُكدِّره الدِّلاء .

للحسن البصرى فى الصحابة

وذُكِر الصحابةُ عند الحسن البصرى ، فقال : رحمهم الله ، شهِدوا وغِبْنا ، وعَلِموا وجَهِلْنا : فما آجتمعوا عليه اتّبعنا ، وما آختلفوا فيه وقَفْنا .

لعبد الرحمن بن مهدى

وقال جعفر بن سليمان : سمعت عبد الرحمن بن مهدى يقول : مارأيت أحداً أقشفَ من شعبة ، ولا أعْبَدَ من سفيان ، ولا أحْفَظَ من ابن المبارك .

وقال : ما رأيت مثل ثلاثة : عطاء بن أبى رباح بمكة ، ومحمد بن سيرين بالعراق ، ورجاء بن حَيْوة بالشام .

لأهل مكة فى عطاء

وقيل لأهل مكة : كيف كان عطاء بنُ أبى رباح فيكم ؟ فقالوا : كان مثلَ العافية التى لا يُعرَف فضلُها حتى تُفْقَد .

شىء عن عطاء

وكان عطاء بن أبى رباح أسودَ أعور أفطس أشلّ أعرج ، ثم عَمِى . وأمّه سوداء تسمَّى بركة .

الأحنف بن قيس

وكان الأحنف بن قيس : أعور أعرج ولكنه إذا تكلم جلا عن نفسه .

وقال الشعبي : لولا أنى زُوحِمْتُ فى الرَّحم ماقامت لأحد معى قائمة . وكان توْأما .

لطاووس فى قتادة

وقيل لطاووس : هذا قتادة يريد أن يأتيك . قال لئن جاء لأقومَنّ . قيل : إنه فقيه . قال : إبليسُ أفقهُ منه ؛ قال : ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ . ٥

للشعبي فى القضاة

وقال الشعبي : القضاة أربعة : عمر ، وعلى ، وأبو موسى ، وعبد الله .

للحسن

وقال الحسن : ثلاثة صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم : الابن والأب والجد ؛ عبد الرحمن بن أبى بكر بن أبى قحافة ، ومعن بن يزيد بن الأخنس السُّلمى .

عبيد الله ابن عبد الله

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود فقيهاً شاعراً ، وكان أحدَ السبعة من فقهاء المدينة . ١٠

وقال الزهرى : كنت إذا لقيت عُبيد الله بن عبد الله ، فكأنما أفْجُر به بحرا .

وقال عمر بن عبد العزيز : وددت لو أن لى مجلساً من عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود لم يفُتنى .

١٥ ولقيه سَعيد بن المُسيّب فقال له : أنت الفقيه الشاعر ؟ قال : لا بد للمصدور أن يَنْفُث .

بين عبيد الله وعمر بن عبد العزيز

وكتب عبيد الله بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز وبَلَغه عنه شيء يكرهه :

أبا حفصٍ أتانى عنكَ قولٌ ∗ قُطِعْتُ به وضاق به جوابى

أبا حفصٍ فلا أدرى أرَغْمى ∗ تُريد بما تُحاوِلُ أمْ عتابى

٢٠ فإن تكُ عاتباً نُعْتِبْ وإلّا ∗ فما عُودِى إذَا بيَرَاعِ غابِ

وقد فارَقتُ أعظمَ منك رُزْءا ∗ وواريْتُ الأحبّةَ فى التُّرابِ

وقد عَزُّوا علىَّ وأسلَمُونى ∗ معاً فلبِستُ بَعدَهُمُ ثِيابى

خالد بن يزيد

وكان خالد بن يزيد بن معاوية أبو هاشم ، عالما كثير الدراسة للكتب وربما

قال الشعر ، ومن قوله :

هل أنت مُنتفِعٌ بعِلْـمِك مَرَّة والعِلْم نافعْ
ومِنَ المُشير عليك بالرأ ۰ يِ المسدَّدِ أنت سامعْ
الموتُ حوْضٌ لا مَحَا ۰ لةَ فيه كلُّ الخلْقِ شارِعْ
ومِنَ التُّقى فازرعْ فإنـك حاصِدٌ ما أنت زارِعْ ٥

وقال عمر بن عبد العزيز : ما وَلَدَت أميةُ مثل خالد بن يزيد ، ما استثنى عثمان ولا غيره .

الحسن وابن جبير — وكان الحسن فى جنازة فيها نوائح ، ومعه سعيد بن جبير ، فهمَّ سعيدٌ بالانصراف ، فقال له الحسن : إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حَسَناً أسْرَع ذلك فى دينك . ١٠

لابن المبارك — وعن عيسى بن إسماعيل عن ابن عائشة عن ابن المبارك ، قال : علمنى سفيان الثورىُّ اختصار الحديث .

لشعبة فى مالك ونافع — وقال الأصمعى : حدثنا شعبة قال : دخلت المدينة فإذا لِمَالكٍ حلْقة وإذا نافع قد مات قبل ذلك بسنة ، وذلك سنة ثمانى عشرة ومائة .

ابن معين — وقال أبو الحسن بن محمد : ما خلق الله أحداً كان أعْرَف بالحديث من يحيى ابن مَعين ؛ كان يؤتى بالأحاديث قد خُلطت وقُلِبَتْ فيقول : هذا الحديث لذا ، وذا لهذا . فيكون كما قال . ١٥

لشريك — وقال شريك : إنى لأسمع الكلمة فيتغير لها لونى .

لابن المبارك فى حيوة وأبى عون — وقال ابن المُبارك : كل من ذُكِر لى عنه وجَدتُه دون ما ذكِر ، إلا حَيوة ابن شُريح ، وأبا عون . ٢٠

وكان حَيوة بن شريح يقعد للناس ، فتقول له أمه : قم يا حَيوةُ ألقِ الشعير للدجاج . فيقوم .

سليمان والثورى — وقال أبو الحسن : سَمِع سليمان التَّيمى من سفيان الثورى ثلاثة آلاف حديث .

ابن اليمان وابنه

وكان يحيى بن اليمان يذهب بابنه داود كل مذهب ، فقال له يوما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كان عبد الله ، ثم كان عَلقمة ، ثم كان إبراهيم ، ثم كان منصور ، ثم كان سفيان ، ثم كان وكيع : قم يا داود . يعنى أنه أهل للإمامة ومات داود سنة أربع ومائتين .

يحيى بن وثاب

٥ وقال الحسن : حدثنى أبى ، قال : أمر الحَجّاج أن لا يَؤُمَّ بالكوفة إلا عربىٌّ وكان يحيى بن رثّاب يؤُمُّ قومه بنى أسد ، وهو مولًى لهم ؛ فقالوا : اعْتَزِل . فقال : ليس عن مِثْلى نَهى ، أنا لاحقٌ بالعرب . فأبوا ؛ فأتى الحجاج فقرأ ، فقال : من هذا ؟ فقالوا يحيى بن وثاب . قال : ماله ؟ قالوا : أمَرْتَ أن لا يَؤُمّ إلا عربىٌّ ، فنحّاه قومُه . فقال : ليس عن مِثْل هذا نهيْت ، يُصلى بهم . قال :
١٠ فصلى بهم الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء . ثم قال : اطلبوا إماماً غيرى : إنما أردت أن لا تَسْتَذِلُّونى ، فأمّا إذ صار الأمر إلىّ فأنا أؤمكم ؟ لا ولا كرامة .

يحيى بن اليمان

وقال الحسن : كان يحيى بن اليمان يصلى بقومه ، فتعصب عليه قومٌ منهم ، فقالوا : لا تُصَلِّ بنا ! لا نَرضاك ، إن تقدّمْتَ نَحّيْناك ! فجاء بالسيف فسل منه أربع أصابع ثم وضعه فى المحراب ، وقال : لا يَدْنو منى أحدٌ إلا ملأتُ السيف
١٥ منه . فقالوا : بيننا وبينك شريك . فقدّموه إلى شريك فقالوا : إن هذا كان يُصلى بنا وكَرِهْناه . فقال لهم شريك : مَن هو ؟ فقالوا : يحيى بن اليمان . فقال : يا أعداء الله ! وهل بالكوفة أحدٌ يشبه يحيى ! لا يُصلِّ بكم غيره . فلما حضرته الوفاة قال لابنه داود : يا بُنَىّ كاد دِينى يذهب مع هؤلاء ، فإن اضطرُّوا إليك بَعدى فلا تصلِّ بهم .

٢٠ وقال يحيى بن اليمان : تزوجت أمّ داود ، وما كان عندى ليلة العرس إلا بطِّيخة ، أكلت أنا نصفَها وهى نصفَها ، وولَدَتْ داود ، فما كان عندنا شىء نَلُفه فيه ، فاشتريت له كساء بحبّتين فلففناه فيه .

على وابن مسعود

وقال الحسن بن محمد : كان لعلىٍّ ضفيرتان ، ولابن مسعود ضفيرتان .

وذكر عبد الملك بن مروان رَوْحا فقال : ما أُعطِىَ أحدٌ ما أُعطى أبو زُرعة :

أعطى فقه الحجاز . ودَهاء أهل العراق ، وطاعةَ أهل الشام .

لابن أنس فى على وعثمان وطلحة والزبير

وروِى أن مالك بن أنس كان يذكر عليًّا وعثمان وطلحة والزبير ، فيقول : والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر .

للمبرد

ذَكَر هذا محمد بن يزيد فى الكامل ؛ قال : وأما أبو سعيد الحسن البصرى فإنه كان يُنكر الحكومة ولا يرى رأيهم ، وكان إذا جلس فتمكن فى مجلسه ذكر عثمان فترحَّم عليه ثلاثا ، ولَعَن قَتَلَتَه ثلاثا ، ثم يذكر عليًّا فيقول : لم يزل علىّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه مُظَفَّراً مُؤَيَّداً بالنِّعم حتى حكّم . ثم يقول : ولِم تُحكِّم والحق معك ! ألا تمضى قُدُما لا أبالك ؟

وهذه الكلمة وإن كان فيها جفاء فإن بعض العرب يأتى بها على معنى المدح فيقول : انظر فى أمر رعيتك لا أبالك ! وقال أعرابى :

رَبَّ العبادِ مالنا ومالكا ٭ قدكنتَ تَسْقِينا فقد بَدالكا

٭ أنزلْ علينا الغَيْثَ لا أبالكا ! ٭

ابن أبى الحوارى وسفيان

وقال ابن أبى الحَوارِىّ : قلت لسفيان : بلغنى فى قول الله عز وجل : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أنه الذى يلقَى الله وليس فى قلبه أحدٌ غيره . قال : فبكى وقال : ما سمعت منذ ثلاثين سنةً أحسنَ من هذا .

بين ابن المبارك وابن النضر

وقال ابن المبارك : كنت مع محمد بن النضر الحارثى فى سفينة ، فقلت : بأى شىء أستخرج منه الكلام ؟ فقلت : ما تقول فى الصوم فى السفر ؟ قال : إنما هى المبادرة يابن أخى . فجاءنى والله بِفُتْيا غير فُتْيا إبراهيم والشعبى .

ابن واسع وابن دينار

وقال الفضيل بن عياض : اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار فى مجلس بالبصرة ؛ فقال مالك بن دينار : ما هو إلا طاعة الله أو النار . فقال محمد بن واسع لمن كان عنده : كنا نقول : ما هو إلا عفو الله أو النار . قال مالك بن دينار : إنه ليعجبنى أن تكون للإنسان معيشةٌ قدر ما يَقُوتُه .

فقال محمد بن واسع : ما هو إلا كما تقول ، ليس يُعجبنى أن يصبح الرجل وليس له غداء ، ويمسى وليس له عشاء ، وهو مع ذلك راضٍ عن الله عز وجل .

فقال مالك : ما أحوجنى إلى أن يعظنى مثلُك .

سفيان وفتى كان يجلس إليه

وكان يجلس إلى سفيان فتًى كثيرُ الفكرة ، طويل الإطراق ، فأراد سفيان أن يُحرِّكه ليسمع كلامه ؛ فقال : يافتى ، إنّ مَن كان قبلَنا مرُّوا على خيل عِتاق وبقينا على حمير دَبِرة . قال : يا أبا عبد الله ، إن كنا على الطريق فما أسرعَ ٥ لحُوقَنا بالقوم .

للأصمعى فى ثغر

وقال الأصمعى : عن شعبة قال : ما أحدِّثكم عن أحد ممن تعرفون وممن لا تعرفون إلا وأيوبُ ويونس وابن عون وسليمان خير منهم .

قال الأصمعى : وحدثنى سلام بن أبى مُطيع قال : أيوبُ أفقَهُهم ، وسليمان التيمى أعبَدُهم ، ويونس أشدُّهم زهداً عند الدراهم ، وابن عون أضبطُهم لنفسه ١٠ فى الكلام .

الأصمعى قال : حدثنا نافع بن أبى نُعيم عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن قال : ألف عن ألف خير من واحد عن واحد ، فلان عن فلان ينتزع السنّة من أيديكم .

النخعى والأعمش

وكان إبراهيم النَّخعى فى طريق ، فلقيه الأعمش فانصرف معه ، فقال له : ١٥ يا إبراهيم إن الناس إذا رأونا قالوا : أعمش وأعور ! قال : وما عليك أن يأثَموا ونُؤجَر ؟ قال : وما عليك أن يَسلَموا ونَسلَم .

ابراهيم النخعى وابن جبير

وروى سفيان الثورى عن واصل الأحدب ، قال : قلت لإبراهيم : إن سعيد ابن جُبير يقول : كلُّ امرأة أتزوجها طالق ، ليس بشىء . فقال له إبراهيم : قل له ينقع آسته فى الماء البارد . قال : فقلت لسعيد ما أمرنى به ؟ فقال : قل له : إن ٢٠ مررتَ بوادى النَّوكى فاحلُلْ به .

لابن مناذر

وقال محمد بن مناذر :

ومَنْ يَبْغِ الوَصاةَ فإنّ عندى ... وَصاةً للكهولِ وللشَّبابِ
خُذوا عن مالِكٍ وعن ابن عَوْن ... ولا تَرْوُوا أحاديثَ ابنِ دابِ

لبعض الشعراء
وقال آخر :

أيها الطالبُ علماً ٭ إيتِ حمّادَ بنَ زَيْدِ
فاقتبسْ حلماً وعلماً ٭ ثم قيِّدْهُ بِقَيْدِ

لأبى نواس فى أبى عبيدة والأصمعى
وقيل لأبى نواس : قد بعثوا فى أبى عُبيدة والأصمعى ليجمعوا بينهما . قال : أما أبو عُبيدة فإن مَكّنُوه من سِفْره قرأ عليهم أساطير الأولين ، وأما الأصمعى فَبُلْبُلٌ فى قفص يُطرِبهم بِصَفيره . ٥

المنصور فى ابن إسحاق وابن دأب
وذكروا عند المنصور محمدَ بنَ إسحاق وعيسى بن دأب ، فقال : أما ابن إسحاق فأعلمُ الناس بالسيرة ؛ وأما ابن دأب فإذا أخرجتَه عن داحس والغبراء لم يُحْسِنْ شيئا .

للمأمون فى الطائى
وقال المأمون رحمه الله تعالى : من أراد لهواً بلا حرج ، فليسمع كلام الحسن الطائى . ١٠

العتابى فيه أيضا
وسئل العتّابى عن الحسن الطائى ، فقال : إن جليسه لِطيبِ عِشرتِه لَأَطْرَبُ من الإبل على الحُدَاء ، ومن الثَّمِلِ على الغناء .

قولهم فى حملة القرآن

بين النخعى وقارىء للقرآن
وقال رجل لإبراهيم النَّخعى : إنى أختم القرآن كل ثلاث . قال : ليتك تختمه كل ثلاثين وتدرى أىّ شىء تقرأ . ١٥

للنبى صلى الله عليه سلم
وقال الحارث الأعور : حدّثنى على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كتابُ الله فيه خبرُ ما قَبلَكم ، ونبأُ ما بَعدَكم ، وحُكم ما بَينكم ؛ هو الفصل ليس بالهزل ، هو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا يَشبع منه العلماء ، ولا يخلَقُ على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ؛ هو الذى مَن تَركه من جبّار قَصَمه الله ، ومن ابتغى الْهُدَى فى غيره أضلّه الله ؛ هو حبْلُ الله المتين ، والذِّكر العظيم ، والصراط المستقيم » . خذها إليك يا أعور . ٢٠

وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم : عَجّل عليك الشيب يا رسول الله . قال : شيبتنى هودٌ وأخواتُها .

لابن مسعود
وقال عبد الله بن مسعود : الحواميم ديباج القرآن .

لبعضهم
وقال : إذا رتعتُ رتعتُ فى رياض دمِثاتٍ أتأنق فيهن .

لعائشة
وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : كانت تنزل علينا الآية فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنحفظ حلالَها وحرامَها وأمْرَها وزجْرَها ، قبل أن نحفظها .

٥ للنبى صلى الله عليه وسلم
وقال صلى الله عليه وسلم : سيكون فى أمتى قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تَراقِيَهُم ، يَمْرُقون من الدين كما يَمْرُق السهمُ من الرَّمِيَّة ، هم شرُّ الخلق والخليقة .

وقال : إن الزبانية لأسرعُ إلى فُسَّاقِ حملةِ القرآن منهم إلى عبَدةِ الأوثان ، فيشكون إلى ربهم فيقول : ليس مَنْ عَلِم كمن لا يعلم .

١٠ للحسن
وقال الحسن : حملة القرآن ثلاثة نفر : رجل اتخذه بضاعةً ينقلُه من مِصرٍ إلى مِصر يطلب به ما عند الناس ، ورجل حَفِظَ حروفَه وضَيَّع حدوده ، واستدرّ به الولاة ، واستطال به على أهل بلده . وقد كَثُر هذا الضربُ فى حملة القرآن لا كَثَّرَهم اللهُ عز وجل . ورجل قرأ القرآن فوضع دواءه على داء قلبه ، فسهر ليلته ، وهملت عيناه ؛ تَسَرْبَلَ الخشوع ، وارتدى الوقار ، واستشعر الحُزن .

١٥ والله لَهذا الضربُ من حَمَلة القرآن أقلُّ من الكِبريتِ الأحمر ، بهم يَسْقِى الله الغيث ، ويُنْزِل النَّصر ، ويَدْفَع البلاء .

العـــقل

لسحبان
قال سَحبان وائل : العقل بالتجارب ؛ لأن عقلَ الغريزةِ سُلَّمٌ إلى عقل التجربة .

لعلى بن أبى طالب
ولذلك قال على بن أبى طالب رضوانُ الله عليه : رأىُ الشيخ خيرٌ من

٢٠ مشهد [1] الغلام .

وعلى العاقل أن يكون عالما بأهل زمانه ، مالكا للسانه ، مُقبلا على شانه .

للحسن البصرى
وقال الحسن البصرى : لسان العاقل من وراء قلبه ؛ فإذا أراد الكلامَ تَفَكَّر ،

(١) فى بعض الأصول : « جلد الغلام » .

فإن كان له قال وإن كان عليه سَكَت ؛ وقلبُ الأحمق من وراءِ لسانه ، فإذا أراد أن يقول قال ، فإن كان له سكت ، وإن كان عليه قال .

بين سليمان بن عبد الملك ورجل أعجب بكلامه

وقال محمد بن الغاز : دخل رجل على سليمان بن عبد الملك ، فتكلم عنده بكلام أعْجَبَ سليمان ، فأراد أن يختبره لينظر أعَقْلُهُ على قدْر كلامه أم لا . فوجده مضعوفا . فقال : فَضْلُ العقل على المنطق حِكمة ، وفضل المنطق على العقل هُجْنة ، وخيرُ الأمور ماصدّق بعضُها بعضا ؛ وأنشد :

وما المرءُ إلا الأصْغَران : لسانُه ٭ ومَعقولُه ، والجسمُ خَلْقٌ مُصوّرُ
فإن تَرَ منه مايَرُوق فربما ٭ أَمَرَّ مَذاقُ العودِ والعودُ أخضرُ

لزهير

ومن أحسن ما قيل فى هذا المعنى قول زهير :

وكائنْ تَرى مِن مُعْجِبٍ لك صامتٍ ٭ زيادتُه أو نَقْصُه فى التكلمِ
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُه ٭ فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدّمِ

لعلى

وقال على رضى الله عنه : العَقل فى الدّماغ ، والضّحك فى الكبد ، والرأفة فى الطّحال ، والصوتُ فى الرئة .

للمغيرة فى عمر

وسُئل المغيرة بن شُعبة عن عمر بن الخطّاب رضوان الله عليه ، فقال : كان والله أفضلَ من أن يَخدع ، وأعقلَ مِن أن يُخدع . وهو القائل : لستُ بِخَبٍّ ، والخَبُّ لا يَخدَعُنى .

لزياد

وقال زياد : ليس العاقل الذى إذا وقع فى الأمر آحتال له ، ولكن العاقل يَحتال للأمر حتى لايقع فيه .

لعمرو بن العاص

وقيل لعمرو بن العاص : ما العقل ؟ فقال : الإصابة بالظن ، ومعرفة ما يكون بما قد كان .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من لم يَنفعْه ظنُّه لم ينفعه يقينه[1] .

لعلى فى ابن عباس

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وذَكَر آبن عباس رضى الله عنهما ،

---

(١) فى بعض الأصول : « تنفعه عينه » .

فقال : لقد كان ينظر إلى الغَيب من سِتْر رقيق .

وقالوا : العاقل فطِنٌ مُتغافل .

لمعاوية

وقال معاوية : العقلُ مِكيال ثُلثُه فِطنة وثلثاه تغافل .

بين عمر والمغيرة حين عزله

وقال المغيرة بن شُعبة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ عَزَله عن كتابة أبى موسى : أعَنْ عَجز عَزَلتَنى أم عن خيانة ؟ فقال : لا عن واحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلِك .

بين معاوية وابن العاص

وقال معاوية لعمرو بن العاص : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلتُ فى شىء قطُّ إلا خرجتُ منه . فقال معاوية : لكنى ما دخلت فى شىء قط وأردتُ الخروج منه .

شعر تمثل به ابن سهل

وقال الأصمعى : ما سمعت الحسنَ بن سهل مُذ صار فى مرتبة الوزارة يتمثل إلا بهذين البيتين :

وما بقيَت من اللَّذّات إلا ٭ محادَثةُ الرِّجالِ ذوِى العُقولِ
وقد كانوا إذا ذُكِروا قليلًا ٭ فقد صاروا أقلَّ منَ القليلِ

لابن طاهر

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر - ويروى لمحمود الوراق - :

لَعَمرُكَ ما بالعقل يُكتَسَبُ الغِنَى ٭ ولا باكتِسابِ المالِ يُكتَسَبُ العقلُ
وكم مِن قليلِ المالِ يُحمَدُ فضلُه ٭ وآخرُ ذو مالٍ وليس له فضلُ
وما سَبَقتْ من جاهل قطُّ نعمةٌ ٭ إلى أحدٍ إلّا أضرَّ بها الجهلُ
وذو اللُّبِّ إن لم يُعطِ أحمَدتَ عقلَه ٭ وإن هو أعطى زانَه القوْلُ والفعلُ

لابن مناذر

وقال محمد بن مُناذر :

وترى الناس كثيراً فإذا ٭ عُدَّ أهلُ العقلِ قَلُّوا فى العَدَدْ
لا يَقِلُّ المرء فى القصدِ ولا ٭ يَعدَمُ القِلَّةَ مَن لم يقتصِدْ
لا تعِدْ شرًّا وعِد خيراً ولا ٭ تُخلِفِ الوعْد وعجِّل ما تعِدْ
لا تقلْ شِعراً ولا تَهْمُمْ به ٭ وإذا ما قلت شِعراً فأَجِدْ

لبعض الشعراء ولآخر :

يُعرَفُ عقلُ المرء فى أربعٍ * مِشْيتُه أولها والحرَكْ
ودوْرُ عَيْنيه ، وألفاظُه * بعدُ عليهنّ يدور الفَلَكْ
وربما أخلفنَ إلّا التى * آخرها منهن سُمّين لكْ
هذى دَليلاتٌ على عقلِه * والعقلُ فى أركانِه كالملِكْ
إن صَحّ صَحّ المرءُ من بَعدِه * ويَهلِكُ المرءُ إذا ما هَلكْ
فانظر إلى مَخْرَج تدبيره * وعقلِه ليس إلى ما ملكْ[1]
فربما خلّط أهلُ الحِجا * وقد يكونُ النَّوْكُ فى ذى النُّسُك
فإنْ إمامٌ سالَ عن فاضلٍ * فادْلُل على العاقِلِ لا أمّ لكْ

هوذة وكسرى وكان هَوذة بن على الحنفىّ يُجير لطيمة كسرى فى كل عام - واللطيمة عِير تَحمل الطيب والبَزّ - فوفَد على كسرى ، فسأله عن بَنيه ، فسَمّى له عدداً . فقال : أيهم أحبُّ إليك ؟ قال : الصغير حتى يَكْبر ، والغائبُ حتى يرجع ، والمريض حتى يُفيق . فقال له : ما غذاؤك فى بلدك ؟ قال : الخبز . فقال كسرى لجلسائه : هذا عقل الخبز . يفضّله على عُقول أهل البوادى الذين غذاؤهم اللبن والتمر .

للأعشى فى هوذة وهَوذة بن على الحنفىّ هو الذى يقول فيه أعشى بكر :

من يَرَ هَوْذَةَ يَسجد غيرَ مُتّئِب * إذا تَعَصّب فوق التاجِ أو وَضَعا
له أكاليلُ بالياقوتِ فَصّلَها * صَوّاغُها لا تَرى عيباً ولا طبعا

بين أبى عبيدة وأبى عمرو وقال أبو عُبيدة عن أبى عمرو : لم يتتوّج مَعَدّىٌّ قط ، وإنما كانت التيجانُ لليمن . فسألتُه عن هوذة بن على الحنفى ، فقال : إنما كانت خَرَزاتٍ تُنظم له .

بين النبى صلى الله عليه وسلم وهوذة وقد كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى هوذة بن على يدعوه إلى الإسلام كما كتب إلى الملوك .

وفى بعض الحديث : إن الله عز وجل لما خلق العقل قال : أقبِل ! فأقبَل ،

---

(١) فى بعض الأصول : « انتهك » .

مما ورد فى العقل

ثم قال له : أدبر ! فأدبَر . فقال : وعزتى وجلالى ، ماخلقتُ خلقاً أحبَّ إلىّ منك ، ولا وضعتُك إلا فى أحبِّ الخلق إلىّ . ولما خَلَق الحُمْق قال له : أقبِل . فأدبَر . ثم قال له : أدبِر . فأقبل . فقال : وعزتى وجلالى ، ماخلقت خلقاً أبغَضَ إلىّ منك ، ولا وضعتُك إلا فى أبغضِ الخلق إلىّ .

٥ وبالعقل أدرَكَ الناسُ معرفة الله عز وجل ؛ ولا يشكُّ فيه أحد من أهل العقول ؛ يقول الله عز وجل فى جميع الأمم : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾

وقال أهل التفسير فى قول الله : ﴿ قَسَمٌ لِذِي حِجْر ﴾ قالوا : لذى عقل .

لبعضهم

وقالوا : ظن العاقل كهانة .

للحسن البصرى

١٠ وقال الحسن البصرى : لو كان للناس كلِّهم عقول خَرِبَت الدنيا .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

يُعَدُّ رَفِيعَ القوْمِ منْ كان عاقلًا ⁂ وإن لم يكن فى قومِه بحسيبِ
وإن حَل أرضاً عاش فيها بعقلِه ⁂ وما عاقـــل فى بلْدَةٍ بغريبِ

وقالوا : العاقل يقى مالَه بسلطانه ، ونفسَه بمالِه ، ودينَه بنفسِه

للأحنف

١٥ وقال الأحنف بن قيس : أنا للعاقل المدْبِر أرجَى منى للأحمق المقْبل .

قال : ولما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض ، أتاه جبريل عليه السلام ، فقال له : يا آدم إن الله عز وجل قد حَبَاك بثلاث خصال لتختار منها واحدة وتتخلى عن آثنتين ؛ قال : وما هن ؛ قال : الحياء والدين والعقل . قال آدم : اللهم إنى اخترت العقل . فقال جبريل عليه السلام للحياء والدين : ٢٠ ارتفعا ؛ قالا : لن نرتفع . قال جبريل عليه السلام : أعصيتما ؟ قالا : لا ، ولكنا أُمِرنا ألّا نفارق العقل حيث كان .

وقال صلى الله عليه وسلم : لاتقتدوا بمن ليست له عُقدة .

للنبى صلى الله عليه وسلم

قال : وما خلق الله خلقا أحب إليه من العقل .

بعضهم وكان يقال : العقل ضربان : عقل الطبيعة وعقل التجربة ، وكلاهما يُحتاج إليه ويؤدى إلى المنفعة .

وكان يقال : لا يكون أحد أحبّ إليك من وزير صالح وافر العقل كامل الأدب حَنيك السنّ بصير بالأمور ، فإذا ظفرت به فلا تباعده ، فإن العاقل ليس بمانعك نصيحته وإن جَفَت . ٥

وكان يقال : غريزة عقل لا يضيع معها عمل .

وكان يقال : أجل الأشياء أصلا وأحلاها ثمرة : صالح الأعمال ، وحُسن الأدب ، وعقل مستعمل .

وكان يقال : التجارب ليس لها غاية والعاقل منها فى الزيادة . ومما يؤكد هذا قول الشاعر : ١٠

ألم تَرَ أنّ العقل زينٌ لأهله ۝ وأنّ كمال العقل طُول التجارب

ومكتوب فى الحكمة : إنّ العاقل لا يغترّ بمودّة الكذوب ولا يثق بنصيحته .

ويقال : من فاته العقل والفتوة فرأس ماله الجهل .

ويقال : من عيّر الناسَ الشيءَ ، ورضيه لنفسه فذاك الأحمق نفسه .

وكان يقال : العاقل دائم المودّة ، والأحمق سريع القطيعة . ١٥

وكان يقال : صديق كل آمرئ عقله ، وعدوّه جهله .

وكان يقال : المعجب لحوح والعاقل منه فى مؤونة . وأما العُجْب فإنه الجهل والكبر .

وقيل : أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم مَن هو دونه . ٢٠

ويقال : ماشىء بأحسن من عقلٍ زانه حِلم ، وحِلمٍ زانه علم ، وعلم زانه صِدق ، وصِدقٍ زانه عمل ، وعملٍ زانه رفق .

لعمر وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ليس العاقل من عرف الخير

من الشر ، بل العاقل من عرف خيرَ الشَّرَّين .

ويقال: عدوّ عاقل أحبّ إلىّ من صديق جاهل .

لبعضهم

وكان يقال : الزم ذا العقل وذا الكرم واسترسل إليه ، وإياك وفراقه إذا كان كريما ، ولا عليك أن تصحب العاقل وإن كان غيرَ محمود الكرم ، لكن احترس من شين أخلاقه وانتفع بعقله ؛ ولا تدع مواصلة الكريم وإن لم تحمد عقله ، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك ، وفرّ الفرار كله من الأحمق اللئيم .

وكان يقال : قطيعة الأحمق مثل صلة العاقل .

للحسن

وقال الحسن : ما أودع الله تعالى امرءا عقلًا ما إلا استنقذه به يوما ما .

بين النبي صلى الله عليه وسلم ومجاشعى

وأتى رجل من بنى مُجاشع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ، ألست أفضل قومى ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن كان لك عقل فلك فضل ، وإن كان لك تُقى فلك دين ، وإن كان لك مال فلك حسَب ، وإن كان لك خلق فلك مروءة .

بين صفوان بن أمية وعمر

قال : تفاخر صفوان بن أمية مع رجل ، فقال صفوان : أنا صفوان بن أُمية ، بخ بخ . فبلغ ذلك عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : ويلك ! إن كان لك دين فإنّ لك حَسبا ، وإن كان لك عقل فإن لك أصلا ، وإن كان لك خلق فلك مروءة ، وإلا فأنت شرّ من حمار .

النبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : كرَم الرجل دينُه ، ومروءته عقله ، وحَسبه خلقه .

وقال : وكل الله عز وجل الحرمان بالعقل ، ووكل الرزق بالجهل ؛ ليعتبر العاقل فيعلم أنّ ليس له فى الرزق حيلة .

لبزرجمهر

وقال بُزُرجمهر : لاينبغى للعاقل أن ينزل بلداً ليس فيه خمسة : سلطان قاهر ، وقاض عدل ، وسوق قائمة ، ونهر جار ، وطبيب عالم .

وقال أيضاً : العاقل لا يرجو ما يُعنَّف برجائه ، ولا يَسأل ما يخاف منعه ، ولا يمتهن ما لا يُستهين بالقدرة عليه .

لأعرابى سئل أعرابى : أى الأسباب أعون على تذكية العقل ، وأيها أعون على صلاح السيرة ؟ فقال : أعونها على تذكية العقل التعلّم ، وأعونها على صلاح السيرة القناعة .

وسئل عن أجود المواطن أن يُختبر فيه العقل ؛ فقال : عند التدبير .

٥ وسئل : هل يعمل العاقل بغير الصواب ؟ فقال : ماكل ما عُمل بإذن العقل فهو صواب .

وسئل : أى الأشياء أدل على عقل العاقل ؟ قال : حُسن التدبير .

وسئل : أى منافع العقل أعظم ؟ قال : اجتناب الذنوب .

لبزرجمهر وقال بُزرجمهر : أفرهُ مايكون من الدواب لا غنى بها عن السوط ، وأعف ١٠ من تكون من النساء لا غنى بها عن الزوج ، وأعقل مَن يكون من الرجال لا غنى به عن مشورة ذوى الألباب .

سئل أعرابى عن العقل متى يُعرف ؟ قال : إذا نهاك عقلك عما لا ينبغى فأنت عاقل .

للنبى صلى الله عليه وسلم وقال النبى صلى الله عليه وسلم : العقل نُور فى القلب نفرّق به بين الحق ١٥ والباطل ، وبالعقل عُرف الحلال والحرام ، وعُرفت شرائع الإسلام ومواقع الأحكام ، وجعله الله نوراً فى قلوب عباده يهديهم إلى هدى ، ويصدّهم عن ردى .

ومن جلالة قدر العقل أنّ الله تعالى لم يخاطب إلا ذوى العقول . فقال عز وجل : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ . وقال : ﴿ لِتُنْذِرَ مَن كان حيًّا ﴾ . أى عاقلا . وقال : ﴿ إنّ فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ . أى لمن كان له عقل .

٢٠ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : العاقل يحلُم عمن ظَلم ، ويتواضع لمن هو دونه ، ويُسابق إلى البِرّ مَن فوقه . وإذا رأى باب برٍّ انتهزه ، وإذا عرضت له فِتنة اعتصم بالله وتنكّبها .

وقال صلى الله عليه وسلم : قوام المرء عقله ، ولا دين لمن لا عقل له .

وإذا كان العقل أشرف أعلاق النفس ، وكان بقَدْر تمكُّنه فيها يكون سمُوّها لطلب

الفضائل وعلوها لابتغاء المنازل ، كانت قيمة كل آمرئ عقله ، وحليته التى يحسن بها فى أعين الناظرين فضله .

لعبد الله بن محمد

ولعبد الله بن محمد :

تأمّل بعَينيك هذا الأنام ٭ وكُن بعضَ من صانه نُبله

٥ لِحلْيَة كل فتًى فضلُه ٭ وقيمة كل آمرئ عقلُه

ولا تتّكل فى طِلاب العُلا ٭ على نَسب ثابت أصلُه

فما من فتى زانه أهلُه ٭ بشىء وخالفه فعلُه

ويقال : العقل إدراك الأشياء على حقائقها فمن أدرك شيئا على حقيقته فقد كَمُل عقله .

١٠ وقيل : العقل مرآة الرجل .

لبعض الشعراء

أخذه بعضُ الشعراء فقال :

عقْل هذا المرء مرآ ٭ ةٌ ترى فيها فِعالَه

فإذا كان عليها ٭ صدأٌ فهو جَهاله

وإذا أخلصه الله ٭ صِقالًا وصَفاله

١٥ فهى تُعطى كلَّ حىٍّ ٭ ناظرٍ فيها مثاله

ولآخر : لا ترانى أبداً أكـ ٭ ـرمُ ذا المال لماله

لا ولا تُزرى بمن يَعـ ٭ ـقل عندى سُوءُ حاله

إنما أقضى على ذا ٭ ك وهـذا بفِعاله

أنا كالمـرآة ألقَى ٭ كل وجه بمثاله

٢٠ كيفما قلّبنى الدّهـ ٭ ـر يجِدْنى من رجاله

ولبعضهم :

إذا لم يكن للمرء عَقل فإنه ٭ وإن كان ذا نُبل على الناس هَيِّنُ

وإن كان ذا عقل أُجِلَّ لعقله ٭ وأفضلُ عقل عقلُ مَن يتديَّن

وقال آخر :

إذا كنت ذا عقل ولم تك ذا غنًى * فأنت كذى رَحْل وليس له بَغْل

وإن كنت ذا مال ولم تكُ عاقلا * فأنت كذى بَغل وليس له رَحل

ويقال : إنّ العقل عَيْن القلب ، فإذا لم يكن للمرء عقل كان قلبه أكْمه .

وقال صالح بن جَناح : ٥

ألا إنّ عقل المرء عينًا فؤاده * وإن لم يكن عقلٌ فلا يُبصر القلب

وقال بعض الفلاسفة : الهوى مَضَاد العقل .

ولعبد الله بن محمد : ثلاث من كُنّ فيه حوى الفضل وإن كان راغبا عن سواها : صحة العقل ، والتمسك بالعدل ، وتَنزيه نفسه عن هواها .

لابن دريد — ولمحمد بن الحسن بن دُريد : ١٠

وآفةُ العَقْل الهوى فمن عَلاَ * على هَواه عقـلُه فقد نَجا

لبعض الحكماء — وقال بعض الحكماء : ما عُبد الله بشيء أحبَّ إليه من العقل ، وما عُصى بشيء أحبَّ إليه من السَّتر .

لمسلمة بن عبد الملك — وقال مَسلمة بن عبد الملك : ما قرأت كتابا قط لأحد إلا عرفت عقله منه .

ليحيى بن خالد — وقال يحيى بن خالد : ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : الكتاب يدل على عقل كاتبه ، والرسول يدل على عقل مُرسله ، والهديّة تدل على عقل مهديها . ١٥

بين عمر بن عبد العزيز ورجل من أعوانه — واستعمل عمر بن عبد العزيز رجلا ، فقيل له : إنه حديث السن ولا نراه يضبط عملك ؛ فأخذ العهد منه وقال : ما أراك تضبط عملك لحداثتك ؛ فقال الفتى :

وليس يزيد المرء جهْلًا ولا عَمًى * إذا كان ذا عقل ، حداثةُ سنّه

فقال عمر : صدق ، وردّ عليه عهده . ٢٠

شعر لجثامة — وقال جَثّامة بن قيس يصف عاقلا :

بصير بأعقاب الأُمور كأنما * تخاطبه من كلّ أمر عواقبُه

ولغيره في المعنى : ولغيره

بَصير بأعقاب الأمور كأنما ﴿ يرى بصواب الرأى ما هو واقع

وقال شبيب بن شيبة لخالد بن صفوان : إنى لأعرف أمراً لا يتلاقى فيه اثنان إلا وجب النُجح بينهما ؛ قال له خالد : ما هو؟ قال العقل ، فإنّ العاقل لا يَسأل إلا ما يجوز ، ولا يُردُّ عما يمكن . فقال له خالد : نعيتَ إلىّ نفسى ، إنّا أهل بيت لا يموت منا أحد حتى يرى خَلَفه . ٥ بين شبيب وخالد ابن صفوان

وقال عبد الله بن الحسين لابنه محمد : يا بُنىّ احذر الجاهل وإن كان لك ناصحاً كما تحذر العاقل إذا كان لك عدوّا ؛ ويوشك الجاهل أن تُورِّطك مَشُورتُه فى بعض اغترارك فيسبق إليك مكر العاقل ؛ وإياك ومعاداة الرجال ، فإنك لا تَعْدَمَنّ منها مكرَ حَليم عاقل ، أو معاندة جاهل . ١٠ وصية عبد الله ابن الحسين

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه : لا مال أعْوَدُ من عقل ، ولا فقر أضرُّ من جهل . لعلى بن أبى طالب

ويقال : لا مروءة لمن لا عقل له .

وقال بعض الحكماء : لو استغنى أحدٌ عن الأدب لاستغنى عنه العاقل ، ولا ينتفع بالأدب مَن لا عقل له ، كما لا ينتفع بالرياضة إلا النجيب . ١٥ لبعض الحكماء

وكان يقال : بالعقل تُنال لذة الدنيا ، لأنّ العاقل لا يسعى إلا فى ثلاث : مزيّة لمعاش ، أو منفعة لمعاد ، أو لذة فى غير محرم .

ولبعضهم :

إذا أحببت أقواماً فلاصِقْ ﴿ بأهل العقل منهم والحياء
فإنّ العقل ليس له إذا ما ﴿ تفاضلتِ الفضائل من كِفاء ٢٠

لمحمد بن يزيد :

وأفضل قَسم الله للمرء عقله ﴿ وليس من الخيرات شىء يُقاربه
إذا أكمل الرحمنُ للمرء عقله ﴿ فقد كَمَلت أخلاقه ومآربه

يَعيش الفتى بالعقل فى الناس إنه ✿ على العقل يَجرى علمُه وتجاربه
ومَن كان غلّاباً بعقل ونَجدة ✿ فذو الجدّ فى أمر المعيشة غالِبه
فزَيْن الفتى فى الناس صحة عقله ✿ وإن كان محصوراً عليه مكاسبه
وشَين الفتى فى الناس قِلّةُ عقله ✿ وإن كَرُمت أعراقُه ومَناسبه

٥ ولبعضهم :

العقل يأمر بالعفاف وبالتّقى ✿ وإليه يأوى الحلم حين يؤول
فإن استطعت نخذ بفضلك فضلهُ ✿ إن العقول يُرى لها تفضيل

ولبعضهم :

إذا جُمّع الآفاتُ فالبخل شرُّها ✿ وشرٌّ من البخل المواعيد والمَطْلُ
١٠ ولا خير فى عقل إذا لم يكن غنًى ✿ ولا خير فى غِمد إذا لم يكن نَصْل
وإن كان للإنسان عقل فعقله ✿ هو النّصل والإنسان من بعده فَضل

ولبعضهم :

يُمثّل ذو العقل فى نَفسه ✿ مصائبَه قبل أن تَنْزلا
فإن نزلت بغتةً لم ترُعْهُ ✿ لِما كان فى نفسه مَثّلا
١٥ رأى الهمّ يُفضِى إلى آخرٍ ✿ فصيَّر آخرَه أوّلا
وذو الجهل يأمن أيّامه ✿ ويَنسى مصارع من قد خلا

الحكمة

النبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : ما أخلَصَ عبدٌ العمل لله أربعين يوماً إلا ظهرتْ ينابيعُ الحكمة من قلبه على لسانه .

٢٠ وقال عليه الصلاة والسلام : الحكمةُ ضالّةُ المؤمن ، يأخذها ممن سمعها ولا يبالى من أىّ وِعاءٍ خرجتْ .

وقال عليه الصلاة والسلام : لا تَضعوا الحكمةَ عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تَمنعوها أهلَها فتظلموهم .

للحكماء
وقال الحكماء : لا يَطلبُ الرجل حكمةً إلا بحكمةٍ عنده .

وقالوا : إذا وجدتم الحكمة مطروحة على السكك فخذوها .

في الحديث
وفي الحديث : خذوا الحكمة ولو من ألسنةِ المشركين .

لزياد
وقال زياد : أيها الناس ، لا يمنعْكم سوء ما تعلَمون منا أن تنتفعوا بأحسنِ
٥ ما تسمعون منا ؛ فإن الشاعر يقول :

اعمَلْ بِعِلْمِى وإنْ قَصَّرْتُ فى عملى ⁕ يَنْفَعْكَ قولى ولا يَضُرُرْكَ تقصِيرى

نوادر من الحكمة

لقس بن ساعدة
قيل لقسّ بن ساعدة : ما أفضل المعرفة ؟ قال : معرفةُ الرجلِ نفسَه .
قيل له : فما أفضلُ العلم ؟ قال : وُقوفُ المرءِ عند عِلمه . قيل له : فما أفضلُ
١٠ المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماءَ وجهه .

للحسن
وقال الحسن : التقديرُ نصفُ الكسْب ، والتُّؤدة نصفُ العقل ، وحسنُ طلب
الحاجةِ نصفُ العلم .

لبعضهم
وقالوا : لاعقلَ كالتدبير ، ولا وَرَعَ كالكف ، ولا حَسَبَ كحُسْنِ الخُلق ،
ولا غِنَى كرِضاً عن الله ، وأحقُّ ماصُبِر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل .

١٥ وقالوا : أفضل البِرّ الرحمة ، ورأس المودةِ الاسترسال ، ورأسُ العقوق
مكاتَمة الأدْنَيْن ، ورأسُ العقل الإصابةُ بالظن .

وقالوا : التفكّر نور والغفلةُ ظُلمة ، والجهالة ضلالة ، والعلمُ حياة ، والأول
سابق ، والآخرُ لاحق ، والسعيد من وُعِظ بغيره .

ابن الظرب وحممة في مجلس ملك حمير
حدث أبو حاتم قال : حدثنى أبو عُبيدة قال : حدثنى غير واحد من هَوازن
٢٠ من أُولى العلم ، وبعضُهم قد أدرك أبوه الجاهلية ـ قالوا : اجتمع عمرو بن الظَّرِب
العدوانى ، وحُمَمَةُ بن رافع الدَّوسى ـ ويزعم النُّسابُ أن ليلى بنت الظَّرب أم دوس ،
وزينب بنت الظربِ أمُّ ثقيف ـ عند ملك من ملوك حِمير ، فقال : تَسَاءَلا حتى
أسمع ما تقولان . فقال عمرو لحممة : أين تحبُّ أن تكون أياديك ؟ قال : عند

ذى الرَّثَّةِ العديم ، وعند ذى الخَلَّة الكريم ، والمُعْسِر الغريم ، والمُسْتَضْعَف المضيم . قال : مَن أحقُّ الناس بالمقْت ؟ قال : الفقيرُ المختال ، والضعيفُ الصَّوَّال ، والعيُّ القوَّال . قال : فمن أحقُّ الناس بالمنع ؟ قال : الحريصُ الكائد ، والمستميدُ الحاسد ، والمُلْحِف الواجد . قال : مَن أجدرُ الناس بالصنيعة ؟ قال : من إذا أُعطِيَ شَكَر ، وإذا مُنِعَ عَذَر ، وإذا مُطِلَ صبَر ، وإذا قَدُمَ العهدُ ذَكر . قال : مَن أكرمُ الناس عِشرة ؟ قال : مَن إذا قَرُبَ مَنَح ، وإذا بَعُدَ مَدَح وإذا ظُلِم صَفَح ، وإذا ضُويِقَ سَمَح . قال : مَن ألأَمُ الناس ؟ قال : مَن إذا سأل خَضَع ، وإذا سُئِل مَنَع ، وإذا مَلَك كَنَع ، ظاهرُه جَشَع ، وباطنه طَبَع . قال : فمَنْ أحلم[1] الناس ؟ قال : مَنْ عَفَا إذا قَدَر ، وأجَلَّ إذا انتصر ، ولم تُطْغِهِ عزةُ الظَّفَر : قال : فمن أحزَمُ الناس ؟ قال : من أخذ رقاب الأمور بيديه ، وجعل العواقبَ نُصب عينيه ، ونَبَذَ التهيُّب دَبْرَ أذُنيه . قال : فمن أخْرَقُ الناس ؟ قال : من ركب الخِطار ، واعتسف العِثار ، وأسرعَ فى البِدار قبل الاقتدار . قال : من أجْوَدُ الناس؟ قال : من بَذَل الموجود ، ولم يَأسَ على المعهود[2] . قال : مَن أبلغُ الناس ؟ قال : من جَلَّى المعنى المَزِيزَ باللفظ الوجيز ، وطَبَّق المِفصل قبل التحزيز . قال : من أنْعَمُ النـاسِ عيشاً ؟ قال : من تَحَلَّى بالعفاف ، ورضِيَ بالكَفاف ، وتجاوز مايخاف إلى ما لايخاف . قال : فمن أشْقَى النـاس ؟ قال : من حَسَد على النِّعَم ، وسَخِطَ على القِسَم ، واستَشْعَرَ النَّدم ، على فوت مالم يُحتَم[3] . قال : من أغنَى الناس ، قال : من استشعر اليأس ، وأظهرَ التجمُّلَ للناس ، واستكثر قليلَ النعم ، ولم يَسْخَط على القِسَم . قال : فمن أحكم النـاس ؟ قال : من صَمَتَ فادَّكَر ، ونظر فاعتبر ، ووُعِظ فازدَجَر . قال : من أجهل الناس ؟ قال : من رأى الخُرْقَ مَغْنَمًا ، والتجاوز مَغْرَمًا .

لأبى عبيد فى تفسير الغريب

وقال أبو عُبيدة : الخَلّة : الحاجة ، والخُلّة : الصداقة . والكائد : الذى يكفر

(١) فى بعض الأصول : « أجل » .
(٢) فى بعض الأصول : « المفقود » .
(٣) فى بعض الأصول : « ما انحتم » .

النعمة ، والكنود : الكفور . والمستميد : مثل المستمير ، وهو المستعطى ، ومنه اشتقاق المائدة لأنها تُمادُ . وكنع : تقبَّض ، يقال منه : تكنَّع جلدُه ، إذا تَقبَّض ، يريد أنه مُمسِكٌ بخيل . والجشع : أسوأ الحرص . والطَّبَع : الدَّنَس . والاعتساف : ركوب الطريق على غير هداية ، وركوبُ الأمر على غير معرفة .

٥ والمزيز : من قولهم : هذا أمزّ من هذا ، أى أفضل منه وأزيد . والمُطبِّق من السيوف : الذى يُصيب المفاصل لا يجاوزها .

لعمرو بن العاص — وقال عمرو بن العاص : ثلاث لا أناة فيهن : المُبادرة بالعمل الصالح ، ودفن الميت ، وتزويج الكُفء .

وقال : ثلاثة لا يُندَمُ على ما سَلَف إليهم : الله عز وجل فيما عُمل له ، والمولى

١٠ الشَّكور فيما أُسدِىَ إليه ، والأرض الكريمة فيما بُذِر فيها .

لبعضهم — وقالوا : ثلاثة لا بقاء لها : ظِلُّ الغمام ، وصُحبةُ الأشرار ، والثناء الكاذب .

وقالوا : ثلاثة لا تكون إلا فى ثلاثة . الغِنَى فى النفس ، والشرف فى التواضع ، والكرم فى التقوى .

وقالوا : ثلاثة لا تُعرف إلا فى ثلاثة : ذو البأس لا يُعرفُ إلا عند اللِّقاء ،

١٥ وذو الأمانة لا يُعرف إلا عند الأخذ والعطاء ، والإخوان لا يُعرَفون إلا عند النوائب .

وقالوا : مَن طَلَب ثلاثةً لم يسلم من ثلاثة : من طلب المال بالكيمياء لم يسلم من الإفلاس ؛ ومن طلب الدين بالفلسفة لم يَسلم من الزندقة ، ومن طلب الفقه بغرائب الحديث لم يسلم من الكذب ،

٢٠ وقالوا : عليكم بثلاث : جالِسوا الكبراء ، وخالِطوا الحكماء ، وسائلوا العلماء .

لعمرَ بن الخطاب — وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه : أخوَفُ ما أخاف عليكم : شُحٌّ مُطاع ، وهَوًى مُتَّبَع ، وإعجابُ المرء بنفسه .

للعرب والعجم — واجتمعت علماء العرب والعجم على أربع كلمات : لا تحمل على ظَنِّك ما لا تطيق ؛ ولا تعمل عملا لا ينفعك ، ولا تغترّ بامرأة ، ولا تَثق بمالٍ وإن كثُر .

للرياحى — وقال الرياحىّ فى خُطبته بالمِرْبد : يا بَنى رِياح ؛ لا تحقِروا صغيراً تأخذون عنه ، فإنى أخذتُ من الثعلب رَوَغانه ، ومن القِرد حكايته ، ومن السِّنَّوْر ضَرَعه ، ومن الكلب نصرتَه ، ومن ابن آوى حَذَره ؛ ولقد تعلمتُ من القمر سيْر الليل ، ومن الشمس ظهورَ الحين بعد الحِين .

لبعضهم — وقالوا : ابن آدم هو العالَمُ الكبير الذى جمع الله فيه العالَم كلَّه ، فكان فيه بسالةُ الليث ، وصبرُ الحمار ، وحِرص الخنزير ، وحذر الغراب ، وروغان الثعلب ، وضَرَع السِّنَّوْر ، وحكاية القرد ، وجبن الصِّفْرد . ٥

بعد مقتل بزرجمهر — ولما قتل كسرى بُزُرجمهر وُجد فى مِنطقته مكتوباً : إذا كان الغَدر فى الناس طباعا فالثقة بالناس عجز ، وإذا كان القدَر حقًّا فالحِرص باطل ، وإذا كان الموت راصداً فالطمأنينة حُمق . ١٠

لأبى عمرو بن العلاء — وقال أبو عمرو بن العَلاء : خذِ الخير من أهله . ودع الشر لأهله .

لعمر بن الخطاب — وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تَنهكوا وجه الأرض فإن شَحمتها فى وجهها .

وقال : بع الحيوان أحسَنَ ما يكون فى عَينك :

وقال : فرِّقوا بين المنايا ، واجعلوا من الرأس رأسين ، ولا تلبثوا بدار مَعجزة . ١٥

وقالوا : إذا قَدُمت المصيبة تركت التَّعزية ، وإذا قَدُم الإخاء سَمُجَ الثناء .

للهند — وفى كتاب للهند : يَنبغى للعاقل أن يَدَع التماس ما لا سبيل إليه ، وإلا عُدَّ جاهلاً ، كرجل أراد أن يُجرى السفن فى البرِّ والعَجَل فى البحر ، وذلك ما لا سبيل إليه . ٢٠

وقالوا : إحسانُ المسىء أن يكفَّ عنك أذاه ، وإساءةُ المحسن أن يَمنعك جَدواه .

للحسن البصرى — وقال الحسن البصرى : اقْدَعوا هذه النفوس فإنها طُلَعة ، وحادثوها بالذِّكر فإنها سريعة الدُّثور ؛ فإنكم إلا تَقْدعوها تَنزع بكم إلى شر غاية .

يقول : حادثوها بالحكمة كما يُحادَث السيف بالصِّقال ؛ فإنها سريعة الدُّثور : يريد الصدأ الذى يعرض للسيف . واقْدعوها : من قَدَعْت أنف الجمل ، إذا دفعتَه ، فإنها طُلَعة : يريد مُتطلّعة إلى الأشياء .

لأردشير

قال أردشير بن بابك : إنّ للآذان مَجّةً وللقلوب مَللا ؛ ففرّقوا بين الحكمتين يكنْ ذلك آستجماما .

البلاغة وصفتها

قيل لعمرو بن عُبيد : ما البلاغة ؟ قال : ما بلَّغك الجنّة وعَدَل بك عن النار . قال السائل : ليس هذا أريد . قال : فما بَصَّرَك مواضع رشدك ، وعواقبَ غيّك . قال : ليس هذا أريد . قال : من لم يُحْسن أن يَسْكت لم يُحْسن أن يَسمع ، ومن لم يُحْسن أن يسمع لم يُحسن أن يسأل ، ومن لم يحسن أن يسأل لم يحسن أن يقول . قال : ليس هذا أريد . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنا معشر النبيين بِكاء ـ أى قليلو الكلام ، وهو جمع بكِيء . وكانوا يكرهون أن يزيد منطِقُ الرجل على عقله ـ قال السائل : ليس هذا أريد . قال : فكأنك تريد تخيُّرَ الألفاظ فى حُسن إفهام ؟ قال : نعم . قال : إنك إن أردت تقرير حُجَّةِ الله فى عقول المكلَّفين وتخفيف المئونة على المستمعين ، وتزيين المعانى فى قلوب المستفهمين ، بالألفاظ الحسنة ، رغبةً فى سُرعة آستجابتهم ، ونَفْى الشواغل عن قلوبهم ، بالموعظة الناطقة عن الكتاب والسنة ، كنت قد أُوتيتَ فصل الخطاب .

لبعضهم

وقيلْ لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الوصل من الفصل .

وقيل لآخر : ما البلاغة ؟ قال : إيجاز الكلام ، وحذْفُ الفضول ، وتقريب البعيد .

وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال ألّا يُؤتَى القائل من سوء فهم السامع ، ولا يؤتَى السامع من سوء بيان القائل .

بين معاوية وصحار

وقال معاوية لصُحار العَبدىّ : ما البلاغة ؟ قال : أن تجيب فلا تبطئ ، وتصيب

فلا تُخطئ . ثم قال : أقِلْنى يا أمير المؤمنين . قال : قد أقلتك . قال : ألّا تُبطئ ولا تُخطئ .

لأبى حاتم

قال أبو حاتم : آستطال الكلامَ الأول فاستقال وتكلم بأوجز منه .

بين ابن صفوان ورجل يكثر القول

وسمع خالد بن صفوان رجلًا يتكلم ويُكثر ، فقال : آعلم رحمك الله أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان ، ولكنها بإصابة المعنى والقَصد إلى الحُجة فقال له : أبا صفوان ، ما مِن ذنب أعظم من آتفاق الصَّنعة .

وتكلم ربيعة الرأى يوماً فأكثر ، وإلى جَنبه أعرابىّ ، فآلتفت إليه فقال : ما تَعُدُّون البلاغة يا أعرابىّ ؟ قال : قلة الكلام وإيجاز الصواب . قال : فما تَعُدُّون العِىّ ؟ قال : ما كنتَ فيه منذ اليوم ، فكأنما أُلقِمَه حجراً .

ومن أمثالهم فى البلاغة قولهم : يُقِل الحَزَّ ويُطبِّق المِفْصل . وذلك أنهم شبهوا البليغ المُوجز الذى يُقِل الكلام ويُصيب الفصول والمعانى ، بالجزار الرفيق الذى يُقِلّ حَزَّ اللحم ويصيب مفاصله .

ومثله قولهم :

« يضع الهِناءَ مواضع النُّقْب »

أى لا يتكلم إلا فيما يجب فيه الكلام ، مثل الطالى الرفيق الذى يضع الهناء مواضع النُّقب . والهناء : القَطِران . والنُّقْب : الجَرَب .

وقولهم : قَرْطَسَ فلان فأصاب الثغرة ، وأصاب عيْنَ القرطاس . كل هذا مثل للمصيب فى كلامه الموجز فى لفظه .

للعتابى

قيل للعتابى : ما البلاغة ؟ قال : إظهار ما غَمَض من الحق ، وتصوير الباطل فى صورة الحق .

لأعرابى

وقيل لأعرابىّ : من أبلغ الناس ؟ قال : أسهلهم لفظا وأحسنهم بديهة .

وقيل لآخر : ما البلاغة ؟ قال : نَشر الكلام بمعانيه إذا قَصر ، وحُسن التأليف له إذا طال .

وقيل لآخر ما البلاغة ؟ فقال : قَرع الحجة ودنُوّ الحاجة .

وقيل لآخر ما البلاغة ؟ قال : الإيجاز فى غير عجز ، والإطناب فى غير خَطَل .

وقيل لغيره : ما البلاغة ؟ قال . إقلال فى إيجاز ، وصواب مع سرعة جواب .

قيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام .

وقيل لبعضهم : من أبلغ الناس ؟ قال : مَن ترك الفضول واقتصر على الإيجاز .

وكان يقال : رسول الرجل مكان رأيه ، وكتابه مكان عقله .

وقال جعفر بن محمد عليه السلام : سُمّى البليغ بليغاً لأنه يبلغ حاجته بأهون سعيه

وسُئل بعض الحكماء عن البلاغة فقال : من أخذ معانى كثيرة فأدّاها بألفاظ قليلة ، وأخذ معانى قليلة فولّد منها لفظا كثيرا ، فهو بليغ .

وقالوا : البلاغة ماحَسن من الشعر المنظوم نثره ، ومن الكلام المنثور نظمه .

وقالوا : البلاغة ما كان من الكلام حَسنا عند استماعه ، موجَزا عند بديهته .

وقيل : البلاغة لمحة دالّة على ما فى الضمير .

وقال بعضهم : إذا كفاك الإيجاز فالإكثار عِىّ ، وإنما يَحسن الإيجاز إذا كان هو البيان .

ولبعضهم :

خير الكلام قليلُ * على كثير دليلُ
والعِىُّ معنًى قَصير * يَحويه لفظٌ طويل

وقال بعض الكتاب : البلاغة معرفة الفصل من الوصل . وأحسن الكلام القَصد وإصابة المعنى .

قال الشاعر :

وإذا نطقت فلا تكن أشِراً * واقصد فخيرُ الناس مَن قَصدا

وقال آخر :

وما أحد يكون له مَقال * فيسلم من مَلام أو أثام

وقال :

الدهر ينقص تارة ويطول ٭ والمرء يصمت مرة ويقول
والقولُ مختلف إذا حصّلته ٭ بعضٌ يُرَدّ وبعضُه مقبول

وقال :

إذا وضح الصواب فلا تدعه ٭ فإنك كلما ذُقت الصوابا . . . ٥
... وجدتَ له على اللَّهَوات بَرْداً ٭ كبَرْد الماء حين صَفا وطابا

وقال آخر :

ليس شأن البليغ إرسالَه القو ٭ لَ بطُول الإسهاب والإكثار
إنمـــا شـأنه التلطف للمعـــنى بحُسن الإيراد والإصدار

وجوه البــــلاغة ١٠

البلاغة تكون على أربعة أوجه : تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة . وكل منها له حظ من البلاغة والبيان ، وموضع لايجوز فيه غيره .

ومنه قولهم : لكل مقام مقال ؛ ولكل كلام جواب ؛ ورب إشارةٍ أبلغُ من لفظ .

١٥ فأما الخط والإشارة فمفهومان عند الخاصة وأكثر العامة ؛ وأما الدلالة فكل شيء دلّك على شيء فقد أخبرك به ، كما قال الحكيم : أشهد أن السموات والأرض آياتٌ دالّاتٌ ، وشواهدُ قائمات ، كل يؤدّى عنك الحجة ، ويشهد لك بالرُّبوبية .

لبعضهم وقال الآخر : سل الأرض : مَنْ غَرَس أشجارَكَ ، وشقّ أنهارَك ، وجَنَى ثمارَك ؟ فإن لم تُجبْك إخباراً أجابتك اعتبارا .

٢٠ لبعض الشعراء وقال الشاعر :

لقد جئتُ أبغِى لِنفسى مُجيرًا ٭ فجئتُ الجبالَ وجئتُ البُحورا
فقـال لِىَ البحـــرُ إذ جئتُه ٭ فكـيف يُجيرُ ضريرٌ ضريرا

وقال آخر :

* نطقتْ عينُه بمـا فى الضمير *

لنصيب

وقال نصيب بن رباح :

فعاجوا فأثنَوْا بالذى أنتَ أهلُهُ * ولو سكتوا أثْنتْ عليك الحقائب

٥ يريد : لوسكتوا لأثْنت عليك حقائبُ الإبل التى يَحتقبها الرَّكْبُ مِن هِباتك وهذا الثناء إنمـا هو بالدلالة لا باللفظ .

لحبيب

وقال حبيب :

الدارُ ناطقة وليست تَنطِقُ * بِدُثُورِها أنَّ الجديدَ سيَخْلَقُ

وهذا فى قديم الشعر وحديثه وطارف الكلام وتليده أكثرُ من أن يُحيط به

١٠ وصف أو يأتى من ورائه نَعْت .

بين العتابى ورجل فى البلاغة

وقال رجل للعتّابى : ما البلاغة ؟ قال : كُل مَنْ بَلّغك حاجته ، وأفْهَمَك معناه بلا إعادة ولا حُبْسة ولا آستعانة ، فهو بليغ . قالوا : قد فهمنا الإعادة والحُبسة ، فمـا معنى الآستعانة ؟ قال : أن يقول عند مقاطع كلامه : آسمع منّى ، وآفهم عنى ؛ أو يَمسح عُثنونه ، أو يَفتل أصابعه ، أو يُكثر التفاتَه من غير

١٥ مُوجِب ، أو يتساعل من غير سُعْلة أو ينبهر فى كلامه .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

مَلِئٌ بِبُهْرٍ وآلتفاتٍ وسُعْلةٍ * ومَسْحَةِ عُثْنونٍ وفَتْلِ الأصابِعِ

وهذا كله من العِىّ .

لأبرويز

وقال أبرويز لكاتبه : آعلم أنّ دعائم المقالات أربع ، إن آلتُمِس لها خامسة

٢٠ لم توجد ، فإن نقصت منها واحدة لم تَتمّ ، وهى : سؤالك الشىء ، وسؤالك عن الشىء ، وأمرك بالشىء ، وإخبارك عن الشىء ؛ فإذا طلبت فأسجِح ، وإذا سألتَ فأوْضح ، وإذا أمرت فأحكِم ، وإذا أخبرتَ فحقِّق ، واجمع الكثير ممـا تريد فى القليل ممـا تقول . يريد الكلام الذى تقل حروفه وتكثر معانيه .

لربيعة الرأى — وقال ربيعة الرأى : إنى لأسمع الحديث عُطلا فأشنّفه وأقرّطه فيحسُن ، وما زدتُ فيه شيئاً ولا غيّرتُ له معنى .

لبعضهم — وقالوا : خير الكلام مالم يُحتَجْ بعده إلى كلام .

ليحيى — وقال يحيى : الكلام ذو فنون ، وخيره ماوفق له القائل ، وانتفع به السامع .

للحسن بن جعفر — وللحسن بن جعفر : ٥

عجبت لإدلال العييِّ بنفسه * وصَمْت الذى قد كان بالحق أعلما

وفى الصمت ستر للعيِّ وإنما * صحيفة لُبِّ المرء أن يتكلما

لأعرابى — وصف أعرابى بليغاً فقال : كأن الألسن ريضت فما تنعقد إلا على وُدّه ، ولا تنطق إلا ببيانه .

لأبى الوجيه — وصف أبو الوجيه بلاغة رجل فقال : كان والله يَشُول بلسانه شَوَلانَ البَروق ، ويتخلل به تخلل الحيّة . ١٠

وللعرب من مُوجَز اللفظ ولطيف المعنى فصول عجيبة ، وبدائع غريبة . وسنأتى على صدر منها إن شاء الله .

فصول من البلاغة

لقتيبة بن مسلم — قدم قُتيبة بن مُسلم خُراسان والياً عليها ، فقال : مَن كان فى يده شىء من مال عبد الله بن خازم فَلْينبِذْه ، ومَن كان فى فيه فليلفِظْه ، ومَن كان فى صدره فلينفُثْه . فعجب الناس من حُسْن ما فصّل . ١٥

لابن السمال — وقيل لابن السَّمال الأسدى أيام معاوية : كيف تركتَ الناس ؟ قال : تركتُهم بين مظلوم لا يَنتصف ، وظالمٍ لا ينتهى .

وقيل لشَبيب بن شَيبة عند باب الرشيد رحمه الله تعالى : كيف رأيتَ الناس ؟ قال : رأيتُ الداخل راجياً والخارج راضيا . ٢٠

وقال حسان بن ثابت فى عبد الله بن عباس :

إذا قال لَمْ يترُكْ مَقالا لِقائل * بِمُلْتَقَطاتٍ لا تَرَى بينَها فَصْلَا

كَفَى وشَفَى مافى النفوسِ فلم يدَعْ ۞ لِذِى إرْبَةٍ فى القولِ جِدًّا ولا هَزْلَا

الحسين بن على والفرزدق

ولقى الحسين بنُ علىّ رضوان الله عليهما الفرزدقَ فى مَسيره إلى العراق ؛ فسأله عن الناس ؛ فقال : القلوبُ معك ، والسيوفُ عليك ، والنصر فى السماء .

لمجاشع

وقال مجاشع النهشلى : الحق ثقيل ؛ فمَن بلغه اكتفى ، ومن جاوزه اعتدى .

لعلى

٥ وقيل لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام : كم بين المشرق والمغرب ؟ فقال مَسيرةُ يومٍ الشمس : قيل له : فكم بين السماء والأرض ؟ قال : مَسيرة ساعةٍ لدعوة مُستجابة .

لأعرابى

وقيل لأعرابى : كم بين موضع كذا إلى موضع كذا ؟ قال : بياضُ يوم وسواد ليلة .

المسيح عليه السلام

١٠ وشكا قوم إلى المسيح عليه السلام ذُنوبهم ، فقال : اتركوها تُغفَرْ لكم .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : قيمةُ كل إنسان ما يُحْسن .

لخالد بن يزيد

وقيل لخالد بن يزيد بن معاوية : ما أقربُ شىء ؟ قال : الأجل . قيل له : فما أبعدُ شىء ؟ قال : الأمل . قيل له : فما أوْحَشُ شىء ؟ قال : الميِّت . قيل له : فما آنَسُ شىء ؟ قال : الصاحب المُواتى .

لعمرو بن عبيد فى سارق

١٥ مرّ عمرو بن عُبيد بسارقٍ يُقطع ، فقال : سارقُ السريرةِ قَطع سارقَ العلانية .

وقيل للخليل بن أحمد : مالك تَرْوِى الشعرَ ولا تقوله ؟ قال : لأنى كالمِسَنّ : أشْحَذُ ولا أقْطَع .

لابن علفة

وقيل لعَقيل بن عُلَّفة : مالك لا تُطيل الهجاء ؟ قال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق .

خالد بن صفوان

٢٠ ومر خالد بن صفوان برجل صلَبه الخليفة ، فقال : أنبتَتْه الطاعة وحَصَدَتْه المعصية .

لأعرابى فى مصلوب

ومرّ أعرابىّ برجل صلبه السلطان ، فقال : مَن طَلَّق الدنيا فالآخرةُ صاحبتُه ، ومن فارق الحقّ فالجذْعُ راحِلَتُه .

النعمان وعدى ابن زيد

ومن النطق بالدلالة ما حدث به العباس بن الفرج الرّياشى قال : نزل النعمان ابن المُنذر ومعه عدىّ بن زيد العبادىّ فى ظل شجرة مُورقة ليلهوَ النعمان هناك ، فقال له عدى : أبيتَ اللعن ، أتدرى ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : ما تقول ؛ قال : تقول :

رُبَّ شَرْبٍ قد أناخوا حولنا * يَمزُجون الخمرَ بالماءِ الزُّلالْ ٥
ثم أضحَوْا عَصَفَ الدهرُ بهم * وكذاك الدهرُ حالٌ بعد حال

فتنغّص على النعمان ما هو فيه .

وقال ابن الأعرابى : قلت للفضل : ما الإيجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد .

خالد بن صفوان

وقال رجل لخالد بن صفوان : إنك لتُكْثِر . قال : أُكْثِر لضربين : أحدهما ١٠ فيما لا تغنى فيه القِلة ، والآخر لتمرُّسِ اللسان ، فإن حبسه يورث العقْلة .

وكان خالد بن صفوان يقول : لا تكون بليغاً حتى تُكلِّم أمتَك السوداء فى الليلة الظلماء فى الحاجة المُهِمَّة بما تكلم به فى نادى قومك .

وإنما اللسان عُضو إذا مرَّنته مَرَن ، وإذا تركته لَكِنَ[1] كاليد التى تخشنها بالممارسة ، والبدنِ الذى تقويه برفع الحجر وما أشبهه ، والرِّجل إذا ١٥ عُوِّدت المشىَ مشَت .

بين نوفل وامرأته

وكان نوفل بن مُساحق إذا دخل على امرأته صَمت ، فإذا خرج عنها تكلم . فقالت له : إذا كنتَ عندى سكتَّ ، وإذا كنتَ عند الناس تَنطِق ! قال : إنى أُجِلُّ عن دقيقِك وتَدِقِّين عن جليلى .

لشبيب فى ابن صفوان

وذكر شبيب بن شَيبة خالد بن صفوان فقال : ليس له صديقٌ فى السر ٢٠ ولا عدو فى العلانية .

وهذا كلام لا يَعرف قَدرَه إلا أهلُ صناعته .

(١) فى بعض الأصول : «كان» .

ووصف رجل آخر فقال : أتيناه فأخرج لسانه كأنه مِخراق لاعب .

بين المنصور ومعن بن زائدة

ودخل معنُ بن زائدة على المنصور يقارب خَطوه ، فقال المنصور : لقد كبرت سنك ؛ قال : في طاعتك ؛ قال : وإنك لجلد ؛ قال : على أعدائك ؛ قال : أرى فيك بقية ؛ قال : هي لك .

لمعاوية في ابن عباس

٥ وكان عبد الله بن العباس بليغا ، فقال فيه معاوية :

إذا قال لم يترك مقالًا ولم يقف * لعِيٍّ ولم يَثْنِ اللسان على هُجْرِ

يُصرِّف بالقول اللسانَ إذا انتحى * وينظر في أعطافه نظرَ الصَّقر

بين صعصعة ومعاوية

وتكلم صعصعة بن صوحان عند معاوية فعَرِق ، فقال له معاوية : بهرك القول ؟ قال : الجياد نضّاحة بالعرق .

لابن سيابة

١٠ وكتب ابن سَيَابة إلى عمرو بن بانة : إنّ الدهر قد كَلَح فجرح ، وطَمح فجمح ، وأفسد ما صلح ، فإن لم تُعن عليه فضَح .

ومدح رجل من طيئ كلامَ رجل فقال : هذا الكلامُ يُكتفى بأولاه ، ويُشتفى بأخراه .

ووصف أعرابيّ رجلا فقال : إنّ رفدك لنَجيح ، وإنّ خيرك لصريح ،

١٥ وإنّ منعك لَمريح .

لإياس بن معاوية

ودخل إياس بن معاوية الشام وهو غلام ، فقدّم خصما له إلى قاض لعبد الملك ، وكان خصمه شيخاً كبيرا . فقال له القاضي : أتقدّم شيخاً كبيرا ؟ فقال له إياس : الحق أكبر منه ؟ قال له : اسكت ؛ قال : فمن ينطق بحجتي ؟ قال : ما أظنك تقول حقا حتى تقوم ؛ قال : أشهد أن لا إله إلا الله . فقام القاضي

٢٠ فدخل على عبد الملك فأخبره بالخبر . فقال : اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشأم لا يُفسد عليَّ الناس .

بين ابن القرية وفتى من عبد القيس

ومن الأسجاع قول ابن القِرِّيَّة ، وقد دُعي لكلام فاحتبس القول عليه ، فقال : قد طال السَّمر ، وسقط القمر ، واشتدّ المطر فما انتظر . فأجابه فتًى من عبد القيس :

قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، فلينطق من نطق .

كتاب من عمرو بن مسعدة إلى المأمون

قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلتُ على المأمون وبيده كتاب لعمرو ابن مسعدة ، وهو يُصَعِّد فى ذُراه ، ويقوم مرة ويقعد أخرى ، ففعل ذلك مرارا ، ثم التفت إلىَّ فقال : أحسبك مفكرا فيما رأيت ؟ قلت : نعم ، وقى الله عز وجل أمير المؤمنين المكاره ، فقال : ليس بمكروه ، ولكن قرأت كلاما نظير خبر خبّرنى به الرشيد ، سمعتُه يقول : إن البلاغة لَتقاربٌ من المعنى البعيد وتباعُدٌ من حشو الكلام ، ودلالة بالقليل على الكثير . فلم أتوهّم أن هذا الكلام يستتبّ على هذه الصفة حتى قرأت هذا الكتاب ، فكان آستعطافا على الجند ، وهو :

« كتابى إلى أمير المؤمنين أيده الله ، ومن قِبلى من أجناده وقُوّاده فى الطاعة والانقياد على أفضل ما تكون عليه طاعة جند تأخّرت أرزاقهم وآختلت أحوالهم » .

فأمر بإعطائهم ثمانية أشهر .

ووقع جعفر البرمكى إلى كُتّابه : إن آستطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا .

بين جعفر البرمكى وأخيه الفضل

وأمره هارون الرشيد أن يعزل أخاه الفضل عن الخاتم ويأخذه إليه عزلا لطيفا فكتب إليه : قد رأى أمير المؤمنين أن ينقل خاتم خلافته من يمينك إلى شمالك .

فكتب إليه الفضل : ما آنتقلت عنى نعمة صارت إليك ولا خصّتك دونى .

من بلاغة جعفر

ووقّع جعفر فى رُقعة رجل تنَصّل إليه من ذنب : تقدمت لك طاعة ، وظهرت منك نصيحة ، كانت بينهما نَبوة ، ولن تغلب سيئة حسنتين .

من بلاغة يحيى

قال الفضل بن يحيى لأبيه : مالنا نُسدى إلى الناس المعروف فلا نرى من السرور فى وجوههم عند آنصرافهم ببّرنا ، مانراه فى وجوههم عند انصرافهم بِبر غيرنا ؟ فقال له يحيى : إن آمال الناس فينا أطول منها فى غيرنا ، وإنما يُسَرُّ الإنسان بما بلّغه أمله .

قيل ليحيى : ما الكرم ؟ قال مَلِك فى زىّ مسكين ؛ قيل : فما الفرعنة ؟ قال : مِسكين فى بطش عِفريت . قيل : فما الجود ؟ قال : عفو بعد قدرة .

من بلاغة المأمون

أُتى المأمون برجل قد وجب عليه الحدّ ، فقال وهو يُضرب : قتلتنى يا أمير المؤمنين ؛ قال الحقُّ قتلك ؛ قال : ارحمنى ؛ قال : لست أرحمُ بك ممن أوجب عليك الحد .

وسأل المأمون عبد الله بن طاهر فى شىء ، فأسرع فى ذلك ؛ فقال له المأمون : فإنّ الله عز وجل قد قطع عذر العَجُول بما مكّنه من التثبّت ، وأوجب الحُجة على القَلِق بما بصّره من فضل الأناة . قال : أتأذن لى يا أمير المؤمنين أن أكتبه ؟ قال : نعم ، فكتبه

بين المأمون وإبراهيم بن المهدى

قال إبراهيم بن المهدى : قال لى المأمون : أنت الخليفة الأسود ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، أنت مَننت على بالعفو ، وقد قال عبد بنى الحسحاس :

أشعار عبد بنى الحَسحاس قُمن له ٭ عند الفَخار مقام الأصل والورق
إن كنتُ عبداً فنفسى حُرة كرماً ٭ أو أسودَ الجلد إنى أبيضُ الخُلقَ

فقال المأمون : يا عم ، خَرجك الهزل إلى الجد ، ثم أنشأ يقول :

ليس يُزرى السوادُ بالرجل الشّهـم ولا بالفتى الأديب الأريب
إن يكن للسواد منك نَصيب ٭ فبياضُ الأَخلاق منك نصيبى

وقال المأمون : استُحسن من قول الحكماء : الجود بذل الموجود ، والبخل بطر بالمعبود عز وجل .

من بلاغة زبيدة

قالت أم جعفر زبيدة بنت جعفر للمأمون حين دخلت عليه بعد قتل ابنها : الحمد لله الذى ادخرك لى لمّا أثكلنى ولدى ، ما ثكلت ولداً كنتَ لى عوضاً منه . فلما خرجت قال المأمون لأحمد بن أبى خالد : ما ظننتُ أن نساءً جُبلن على مثل هذا الصبر .

بين أبى جعفر وعمر بن عبيد

وقال أبو جعفر لعمرو بن عُبيد : أعِنّى بأصحابك يا أبا عثمان . قال : ارفع عَلَمَ الحقّ يتبعْك أهلهُ .

آفات البلاغة

لأبى داود الإيادى

قال محمد بن منصور كاتب إبراهيم ، وكان شاعراً راوياً ، وطالباً للنحو علّامة ـ قال : سمعت أبا دُواد الإيادى وجرى شىء من ذكر الخطب وتمييز الكلام ، فقال : تلخيص المعانى رِفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق فى غير أهل البادية نَقص ، والنظر فى عيوب الناس عِىّ ، ومَسّ اللحية هُلْك ، والخروج مما بُنى عليه الكلام إسهاب . ٥

قال : وسمعتُه يقول : رأس الخطابة الطَّبع ، وعمودها الدرْبة [وجناحاها رواية الكلام][1] ، وحَليها الإعراب ، وبهاؤها تخيُّر اللفظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه .

وأنشدنى بيتاً فى خطباء إياد :

يُومون باللفظِ الخفِىّ[2] وتارةً ﴿ وحْى المُلاحِظِ خِيفَةَ الرُّقباء

للفضل فى الإيجاز

وقال ابن الأعرابى : قلت للفضل : ما الإيجاز عندك ؟ قال حَذف الفضول ، وتقريب البعيد .

بين ابن السماك وجارية له

وتكلم ابن السماك يوماً وجارية له تسمع : فلما دخل قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنَه لولا أنك تُكثِر تَرْدادَه ! قال : أُردِّده حتى يفهمَه من لم يفهمْه . قالت : إلى أن يَفهمَه من لم يَفهمْه يكون قد مَلَّه مَن فهمَه . ١٥

باب الحلم ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تعالى : ﴿ ولا تَسْتَوِى الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بالتى هى أَحْسَنُ فإذَا الَّذِى بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَداوَةٌ كأنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيم * وما يُلَقَّاها إلّا الَّذِينَ صَبَرُوا وما يُلَقَّاها إلّا ذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾ . ٢٠

بين عمرو بن العاص وبعضهم

وقال رجل لعمرو بن العاص : والله لأتفرَّغَنَّ لك . قال : هنالك وقعْتَ

(١) زيادة عن البيان والتبيين .

(٢) فى بعض الأصول : « يرمون بالخطب الطوال ... »

فى الشُّغل . قال : كأنك تهددنى ، والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشراً . قال : وأنت والله لئن قلتَ لى عشراً لم أقل لك واحدة .

بين أبى بكر وآخر — وقال رجل لأبى بكر رضى الله عنه : والله لأسُبَّنَّك سبًّا يَدْخُل القبر معك . قال : معك يَدخل لا معى .

لعمرو بن عبيد فى نيل السختيانى منه — ٥ وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك اليوم أبو أيوب السختيانى حتى رحمناك . قال : إياه فارحموا .

الشعبى وشاتم له — وشَتم رجل الشَّعبى ، فقال له : إن كنتَ صادقا فغَفَر الله لى ، وإن كنت كاذبا فغَفَر الله لك .

أبو ذر فى مثله — وشتم رجل أبا ذَرٍّ ، فقال : يا هذا ، لا تُغرِق فى شتمنا ودَعْ للصُّلح موضعاً ، ١٠ فإنا لا نكافئ من عَصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه :

المسيح عليه السلام وقوم من اليهود — ومَرّ المسيح بن مَريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود فقالوا له شرًّا ، فقال خيراً . فقيل له : إنهم يقولون شرّا وتقول لهم خيرا . فقال : كلٌّ واحدٍ يُنفِق مما عنده .

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

١٥ ثالَبنِى عمرو وثالبْتُه * فأُثِم المثلوبُ والثّالِبُ
قلت له خيْراً وقال الخَنَى * كلٌّ على صاحبه كاذِبُ

وقال آخر :

وذى رحِم قَلَّمْتُ أظْفارَ ضِغنه[1] * بحلمىَ عنه حين ليس له حِلم
إذا سُمْتُه وصْلَ القَرابة سامَنى * قطيعتَها تلك السَّفاهة والإثم
٢٠ فدارَيْتُه بالحِلم والمرءُ قادرٌ * على سهمِه ما كان فى كفِّه السهم

والنبى صلى الله عليه وسلم — عن النبى صلى الله عليه وسلم : ماتجرع عبد فى الدنيا جرعة أحبَّ إلى الله من جرعة غيظ ردّها بحلم ، أو جرعة مصيبة ردّها بصبر .

(١) فى بعض الأصول : « جهله » .

وكتب رجل إلى صديق له وبلغه أنه وَقَع فيه :

لئن ساءنى أنْ نِلْتَنِي بِمَسَاءة * لقد سَرَّنى أنى خَطَرْتُ ببالكا

لطاهر بن عبد العزيز

وأنشد طاهر بن عبد العزيز :

إذا ما خَليلِى أسا مَرَّةً * وقد كان مِن قَبْلِ ذا مُجْمِلا

تَحَمَّلْتُ ما كان من ذَنْبِه[1] * فلم يُفْسِدِ الآخِرُ الأوَّلا

صفة الحلم وما يصلح له

من حلم الأحنف

قيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟ قال : من قيس بن عاصم المِنقرى ؛ رأيته قاعداً بفناء داره ، مُحْتَبِياً بحمائل سيفه يُحدث قومه ، حتى أُتى برجلٍ مكتوفٍ ورجل مقتول ؛ فقيل له : هذا ابنُ أخيك قتل ابنك . فوالله ما حلَّ حَبْوَته ولا قَطَع كلامه . ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له : يابن أخى ، أثِمْت بربِّك ، ورَميت نفسَك بسهمك ، وقتلتَ ابنَ عمِّك . ثم قال لابن له آخر : قم يابُنَيَّ فوارِ أخاك ، وحُلَّ كِتافَ ابن عمك ، وسُقْ إلى أمه مائة ناقةٍ دِية ابنها فإنها غريبة . ثم أنشأ يقول :

إنى امرُؤٌ لا يَطَّبِي حَسَبِي[2] * دَنَسٌ يُهَجِّنُهُ ولا أَفْنُ

مِن مِنقَرٍ فى بيتِ مَكْرُمةٍ * والغُصنُ ينبُتُ حولَه الغُصْنُ

خُطباءُ حين يقولُ قائلُهم * بِيضُ الوجوهِ أَعِفَّةٌ لُسْنُ

لا يَفطنونَ لِعيْبِ جارِهِمُ * وهُمُ لحِفْظِ جِوارِهِ فطْنُ

وقال رجل للأحنف بن قيس : علِّمنى الحلم يا أبا بحر . قال : هو الذُّل يابن أخى ، أفتصبر عليه ؟

وقال الأحنف : لستُ حليما ولكنى أتحالَم .

وقيل له : مَن أحلم : أنت أم معاوية ؟ قال : تالله ما رأيت أجهلَ منكم ؛ إنّ

(١) فى بعض الأصول : « ذكرت المقدم من فعله » .

(٢) فى عيون الأخبار : « إنى امرؤ لاشائن حسبى » .

معاوية يَقدِر فيَحلم ، وأنا أحلم ولا أقدر ؛ فكيف أُقاس عليه أو أدانيه ؟

خالد بن صفوان في الأحنف

وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : بِمَ بلغ فيكم الأحنف ما بلغ ؟ قال : إن شئتَ أخبرتُك بخَلّة ، وإن شئتَ بخَلّتين ، وإن شئت بثلاث . قال : فما الخَلّة ؟ قال : كان أقوى الناس على نفسه . قال : فما الخَلّتان ؟ قال : كان مُوَقّى الشر ، مُلَقّى الخير . قال : فما الثلاث ؟ قال : كان لا يجهل ، ولا يَبغى ، ولا يبخل .

لقيس بن عاصم في الحلم

وقيل لقيس بن عاصم : ما الحلم ؟ قال : أن تَصِلَ مَنْ قطَعك ، وتُعطى من حَرمك ، وتعفوَ عمن ظلمك .

لبعضهم

وقالوا : ما قُرِن شيء إلى شيء أزين من حِلم إلى علم ، ومن عفو إلى قدرة .

للقمان في ثلاثة

وقال لقمان الحكيم : ثلاثة لاتعرفهم إلا في ثلاثة : لاتعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاعُ إلا عند الحرب ، ولا تعرف أخاك إلا إذا احتجتَ إليه .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

ليست الأحلامُ في حينِ الرضا * إنما الأحلامُ في حينِ الغضبْ

في الحديث

وفي الحديث : « أقربُ مايكون المرء مِن غضب اللهِ إذا غَضِب » .

للحسن

وقال الحسن : المؤمن حليم لايجهل وإن جُهِل عليه . وتلا قول الله عز وجل : ﴿ وإذا خاطَبَهُمُ الجاهلون قالوا سلاما ﴾ .

لمعاوية

وقال معاوية : إني لأستحي من ربي أن يكون ذنبٌ أعظمَ من عفوى ، أو جهل أكبرَ من حِلمى ، أو عورةٌ لا أواريها بسترى .

لمؤرق العجلى

وقال مؤرّق العِجْلى : ما تكلمت في الغضب بكلمة ندمت عليها في الرضا .

لابن أبي حبيب

وقال يزيد بن أبي حبيب : إنما غضبي في نَعْلَيّ ، فإذا سمعتُ ما أكره أخذتُهما ومضيت .

وقالوا : إذا غضِبَ الرجل فليستلقِ على قفاه ، وإذا عَيَّ فليراوح [1] رجليه .

---

(١) في بعض الأصول : « فليرفع » .

للأحنف — وقيل للأحنف : ما الحلم ؟ فقال : قولٌ إن لم يكن فعل ، وصمتٌ إن ضرَّ قول .

لعلى بن أبى طالب — وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : من لانت كلمتُه وَجبت محبتُه .

وقال : حِلمك على السفيه يُكثِّر أنصارَك عليه .

وقال الأحنف : من لم يَصبر على كلمة سمع كلمات .

٥ وقال : رُب غَيظ تجرعتُه مخافة ما هو أشدُّ منه . وأنشد :

رَضيتُ ببعض الذُّلِّ خوفَ جميعِه * كذلك بعض الشَّرِّ أهونُ من بعض

عمر بن عبد العزيز ورجل حاول إغضابه — وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز ما يكره ، فقال : لا عليك ، إنما أردتَ أن يستفزّنى الشيطان بعزة السلطان ، فأنال منك اليوم ما تنالُه منى غداً . آنصرِف إذا شئت .

١٠ لبعض الشعراء — وقال الشاعر فى هذا المعنى :

لن يُدرِك المجدَ أقوامٌ وأن كَرُموا * حتى يَذِلوا وإن عَزُّوا لأقوامِ

ويُشتَموا فترى الألوانَ كاسِفة * لا ذُلَّ عجز ولكن ذُلَّ أحلامِ

ولآخر :

إذا قيلتِ العوْراءُ أغْضى كأنه * ذليلٌ بلا ذُلٍّ ولو شاء لانْتَصَرْ

١٥ لكعب بن زهير — ومن أحسن بيت فى الحلم قول كعب بن زهير :

إذا أنت لم تُعْرِض عن الجهل والخنا * أصَبْتَ حليماً أو أصابك جاهلُ

وقال الأحنف : آفة الحلم الذُّل .

وقال : لا حِلم لمن لا سفيه له .

وقال : ما قلَّ سفهاءُ قومٍ إلا ذَلوا . وأنشد :

٢٠ لا بد لِلسُّودَدِ مِن رِماحِ * ومِن رجالٍ مُصلَتى السِّلاحِ

يُدافِعون دونَه بالرَّاحِ * ومِن سَفيه دائم النُّباحِ

النابغة الجعدى والرسول صلى الله عليه وسلم — وقال النابغة الجعدىّ :

ولا خيرَ فى حلم إذا لم تكن له * بوادِرُ تحمى صَفْوَهُ أن يُكدَّرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ٭ حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

ولما أنشد هذين البيتين للنبى صلى الله عليه وسلم ، قال : لا يَفْضض اللهُ فاك . فعاش مائة وسبعين سنة لم تَنفض له ثنيّة .

وقالوا : لا يَظهر الحلمُ إلا مع الانتصار ، كما لا يظهر العفو إلا مع الاقتدار .

٥ وقال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول : كان سنان بن أبى حارثة أحلمَ من فرْخ الطائر . قلت : وما حلمُ فرخ الطائر ؟ قال : إنه يخرج من بيضة فى رأس نِيق ، ولا يتحوّل حتى يتوفر ريشُه ويَقْوى على الطيران .

للأشنندانى

وللأشْنَنْدانىّ :

وفى اللين ضَعفٌ والشراسة هيبةٌ ٭ ومن لا يُهَبْ يُحْمَلْ على مَركب وَعْرِ

١٠ وَلَلْفَقرُ خيرٌ من غنى فى دناءة ٭ وَلَلْموت خيرٌ من حياة على صُغْرِ

وما كلَّ حينٍ ينفع الحلمُ أهلَه ٭ ولا كل حال يقبح الجهل بالصبر

وما بى على من لان لى من فظاظة ٭ ولكننى نظٌّ أبىٌّ على العسر

لآخر فى مدح الحلم

وقال آخر فى مدح الحلم :

إنى أرى الحلم محموداً عواقبُه ٭ والجهل أفنى من الأقوام أقواما

لسابق

١٥ ولسابق :

ألم ترَ أن الحلم زَيْنٌ مُسوِّدٌ ٭ لصاحبه والجهلُ للمرء شائنُ

فكن دافناً للجهل بالحلم تسترحْ ٭ من الجهل إن الحلم للجهل دافنُ

لبعض الشعراء

ولغيره :

ألا إن حلم المرء أكبر نسبة ٭ يسامى بها عند الفخار كريمُ

٢٠ فياربِّ هب لى منك حلماً فإننى ٭ أرى الحلم لم يندم عليه حليمُ

لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء : ما حَلا عندى أفضل من غيظ أتجرَّعه .

وقال بعضهم :

وفى الحلم رَدْعٌ للسفيه عن الأذى ٭ وفى الخُرق إغراء فلا تَكُ أخرقا

فتندمَ إذ لا تَنْفعنْك ندامةٌ ✽ كما ندم المغبون لما تفرّقا

لعلى عليه السلام

وقال علىٌّ عليه السلام : أول عوض الحليم عن حلمه أنّ الناس أنصاره على الجاهل .

لكسرى

سئل كسرى أنو شروان : ما قَدْرُ الحلم ؟ فقال : وكيف تعرف قدر ما لم ير كمالَه أحد .

٥

لخالد بن معمر عن أسباب حبه لعلى

وقال معاوية لخالد بن المُعَمَّر : كيف حبُّك لعلى بن أبي طالب عليه السلام ؟ قال : أحبه لثلاث خصال : على حِلمه إذا غضب ، وعلى صِدقه إذا قال ، وعلى وفائه إذا وعد .

ثلاث يكمل بها الإيمان

وكان يقال : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان : من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، ومن إذا رضى لم يخرجه رضاه إلى الظلم والباطل ، ومن إذا قدر لم يتناول ماليس له .

١٠

لعمر

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا سمعت الكلمة تؤذيك فطأْطئ لها حتى تتخطاك .

للحسن

وقال الحسن : إنما يعرف الحلم عند الغضب . فإذا لم تغضب لم تكن حليما . وقال الشاعر :

١٥

لبعض الشعراء

وليس يتمُّ الحلم للمرء راضياً ✽ إذا هو عند السخط لم يتحلَّم

كما لا يتم الجود للمرء موسراً ✽ إذا هو عند العسر لم يَتجشَّم

لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء : إن أفضل وادٍ تُرَى به الحلم ، فإذا لم تكن حليما فتحلَّمْ ؛ فقلَّما تشبَّه رجل بقوم إلا كان منهم .

٢٠

وقال بعضهم : الحلم عُدَّة على السفيه ، لأنك لا تقابل سفيهاً بالإعراض عنه والاستخفاف بفعله إلا أذللته .

ويقال : ليس الحليم من ظُلم فحلم حتى إذا قدر انتقم ، ولكن الحليم من ظُلم فحلم ثم قدر فعفا .

للأحنف

وللأحنف ، أو غيره :

ولربما ضحك الحليم من الأذى * وفؤاده من حَرِّه يتأوَّهُ
ولربما شَكَلَ الحليمُ لسانَه * حَذَرَ الجواب وإنه لَمُفَوَّهُ

لبعضهم

وقيل : ما آستَبَّ اثنان إلا غَلب ألأمُهما .

٥ وقال الأحنف : وجدت الحلم أنصر لى من الرجال .

وقال بعضهم : إياك وعزة الغضب ، فإنها تُصيِّرك إلى ذلّ الاعتذار .

وقيل : من حلم ساد ، ومن تفهَّم ازداد .

وقال الأحنف : ما نازعنى أحدٌ قطُّ إلا أخذتُ أمرى بإحدى ثلاث : إن كان فوقى عرفت قدره ، وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه ، وإن كان مثلى
١٠ تفضّلت عليه .

لبعض الشعراء

ولقد أحسن الذى أخذ هذا المعنى فنظمه فقال :

إذا كان دونى من بُلِيتُ بجهله * أبيت لنفسى أن تُقارِعَ بالجهل
وإن كان مثلى ثم جاء بزَلَّةٍ * هَوِيتُ لصفحى أن يضاف إلى العدل
وإن كنت أدنى منه قدراً ومنصبا * عرفت له حقَّ التقدُّم والفضل

لغيره

١٥ وفى مثله قال بعض الشعراء :

سألزِم نفسى الصفحَ عن كل مذنب * وإن كثرتْ منه إلىَّ الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة * شريفٌ ومشروف ومثلٌ مُقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف فضله * وأتبع فيه الحقَّ والحقُّ قائم
وأما الذى دونى فإن قال صنتُ عن * إجابته نفسى وإن لام لائم
٢٠ وأما الذى مثلى فإن زَلَّ أو هَفَا * تفضَّلتُ إن الفضل للعزِّ لازم

لأصرم بن قيس

ولأصْرَمَ بن قيس ، ويقال إنها لعلى عليه السلام :

أَصَمُّ عن الكَلِمِ المُحفِظاتِ * وأحلم والحلمُ بى أشبَهُ
وإنى لأترك جُلَّ الكلام * لئلا أجاب بما أكرهُ

إذا ما اجْتَرَرْتُ سِفاه السفيه ٭ علىّ فإنى أنا الأسفه
فلا تغترر برُوَاء الرجال ٭ وما زخرفوا لك أو موّهوا
فكم من فتى يُعجب الناظرين ٭ له ألْسُنٌ وله أوْجُهُ
ينام إذا حضر المكرماتِ ٭ وعند الدناءة يستنبه

للحسن بن رجاء ٥ وللحسن بن رجاء :

أحبُّ مكارم الأخلاق جهدى ٭ وأكره أن أعيب وأن أُعابا
وأصفح عن سِباب الناس حلماً ٭ وشرُّ الناس من يهوَى السِّبابا
ومن هاب الرجال تهيَّبُوه ٭ ومن حَقَر الرجالَ فلن يُهابا
ومن قَضَت الرجال له حقوقاً ٭ ولم يقض الحقوقَ فما أصابا

لمحمد بن على ١٠ وقال محمد بن على رضوان الله عنهما : من حَلُم وقَى عِرضه ، ومن جادت كفُّه حَسُن ثناؤه ، ومن أصلح ماله استغنى ، ومن احتمل المكروه كثرت محاسنُه ، ومن صبر حُمد أمره ، ومن كظم غيظه فشا إحسانُه ، ومن عفا عن الذنوب كثرت أياديه ، ومن اتقى الله كفاه ما أهمه .

بين على وكبير من الفرس وسأل أمير المؤمنين علىٌّ عليه السلام كبيراً من كبراء الفرس : أى شىء للوكم كان أحمدَ عندكم ؟ قال : كان لأردشير فضل السبق فى المملكة ، غير أن ١٥ أحمدَهم سيرة أنوشروان . قال : فأى أخلاقه كان أغلب عليه ؟ قال : الحلم والأناة . قال : هما توأمان ينتجهما علو الهمة .

لمحمود الوراق ولمحمود بن الحسن الوراق :

إنى وهبتُ لظالمى ظلمى ٭ وغفرت ذاك له على علم
٢٠ ورأيته أسدَى إلىَّ يداً ٭ لما أبان بجهله حلمى
رَجَعتْ إساءتُه عليه وإحسانى إلىَّ مُضاعَف الغُنْم
وغدوت ذا أجر ومَحْمَدَةٍ ٭ وغدا بكسب الظلم والإثم
وكأنما الإحسان كان له ٭ وأنا المسىء إليه فى الحكم

ما زال يظلمني وأرحمه * حتى رثيت له من الظلم

لمحمد بن زياد

ولمحمد بن زياد يصف حلماء :

تخالهم في الناس صُمًّا عن الخنا * وخُرْساً عن الفحشاء عند التهاجُرِ

ومَرْضَى إذا لُوقوا حياءً وعفّةً * وعند الحِفاظ كاللُّيوثِ الخوادر

٥ كأن لهم وصْماً يخافون عاره * وما ذاك إلا لاتّقاء المعاير

وله أيضاً :

وأرفع نفسي عن نفوس وربما * تذللت في إكرامها لنفوس

وإن رامني يوماً خسيسٌ بجهله * أبَى الله أن أرضى بعِرض خسيس

لوهب

وقال وهب : مكتوب في الإنجيل : لاينبغي لإمام أن يكون جائراً ومنه

١٠ يُلتمس العدل، ولا سفيها ومنه يُقتبس الحلم .

لبعض الشعراء

ولبعضهم :

وإذا استشارك من تَوَدُّ فقل له * أطع الحليم إذا الحليم نهاكا

واعلم بأنك لن تَسُود ولن ترى * سُبل الرشاد إذا أطعت هواكا

وقال آخر :

١٥ وكن معدناً للحلم واصفح عن الأذى * فإنك راءٍ ما عملت وسامعُ

وأَحْبِبْ إذا أحببتَ حبًّا مقارباً * فإنك لاتدرى متى أنت نازعُ

وأبغض إذا أبغضت غير مُباينٍ * فإنك لاتدرى متى أنت راجع

باب السودد

لعدى بن حاتم

قيل لعدى بن حاتم : ما السُّودد ؟ قال : السيدُ : الأحمق في ماله ، الذليل

٢٠ في عِرْضه، المطَّرِحُ لِحقده .

لقيس بن عاصم

وقيل لقيس بن عاصم : بِمَ سَوَّدَك قومُك ؟ قال : بكفّ الأذى ، وبَذْل

النَّدى ، ونصْر المولى .

للأحنف فى تسويد قومه له

وقال رجل للأحنف : بم سَوَّدك قومُك وما أنت بأشرفهم بيتاً ، ولا أصبحهم وجها ، ولا أحسنهم خُلقاً ؟ قال : بخلاف ما فيك يابن أخى . قال : وما ذاك ؟ قال : بتركى من أمرك ما لا يَعنينى كما عناك من أمرى ما لا يعنيك .

عمر ورجل

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرجل : من سَيِّدُ قومِك ؟ قال : أنا . قال : كذبت لو كنت كذلك لم تقُله .

أوس وحاتم بين يدى النعمان

وقال ابن الكلبى : قدم أوس بن حارثة بن لأْم الطائى ، وحاتم بن عبد الله الطائى ، على النعمان بن المنذر ، فقال لإياس بن قبيصة الطائى أيهما أفضل ؟ قال : أبيتَ اللعن أيها الملك ! إنى من أحدهما ، ولكن سَلْهما عن أنفسهما فإنهما يُخبرانك . فدخل عليه أوس ؛ فقال : أنت أفضل أم حاتم ؟ فقال : أبيتَ اللعن ! إنّ أدنى ولدِ حاتم أفضل منى ، ولو كنتُ أنا وولدى ومالى لحاتمٍ لأنهبَنا فى غداةٍ واحدة .

ثم دخل عليه حاتم ، فقال له : أنت أفضل أم أوس ؟ فقال : أبيتَ اللعن ! إنّ أدنى ولدِ لأوس أفضل منى . فقال النعمان : هـذا والله السودد . وأمر لكل منهما بمائة من الإبل .

عبد الملك وروح فى مالك بن مسمع

وسأل عبد الملك بن مروان روح بن زِنباع عن مالك بن مِسمع ، فقال : لو غَضِب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسأله واحدٌ منهم لم غضبت ؟ فقال عبد الملك هذا والله السودد .

أبو سفيان وجزائر ملك اليمن

وقال أبو حاتم عن العتبى : أهدى ملك اليمن سبعَ جزائر إلى مكة ، وأوصى أن يَنحرها أعزُّ قرشيٍّ بها ، فأتت وأبو سفيان عروس بهند . فقالت له هِند : ياهذا ، لا تَشغلك النساء عن هذه الأكْرُومة التى لعلك أن تَسْبِق إليها . فقال لها : ياهذه ، ذَرِى زوجَك وما اختار لنفسه . فوالله لا نَحرها أحدٌ إلا نحرته ! فكانت فى عُقُلها حتى خرج إليها بعد السابع فنحرها .

لهند فى ابنها معاوية

ونظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير ، فقال : إنى أظن أن هذا الغلام سيسود قومَه . فسمعته أُمه هِند ، فقالت : ثكلْتُه إذاً إن لم يَسُدْ إلا قومَه .

الهيثم بن عدى

وقال الهيثم بن عَدِىّ : كانوا يقولون : إذا كان الصبى سائل الغرة ، طويل الغُرْلة ، مُلتاث الإزرة ، فذلك الذى لا يُشَكّ فى سودده .

النعمان وضمرة

ودخل ضَمرة بن ضَمرة على النُّعمان بن المنذر ، وكانت به دَمامة شديدة ، فالتفت النُّعمان إلى أصحابه وقال : تسمعُ بالمعيدىّ خيْرٌ من أن تراه . فقال : أيها ٥ الملك ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإن قال قال ببيان ، وإن قاتل قاتل بجَنان . قال : صدقت ! وبحقٍّ سَوَّدَك قومُك .

عرابة الأوسى

وقيل لعَرابة الأَوسىّ : بم سَوَّدَك قومُك ؟ قال : بأربع خلال : أنخدع لهم فى مالى ، وأذِلُّ لهم فى عِرْضى ، ولا أحْقِر صغيرهم ، ولا أحْسُد كبيرهم .

وفى عرابة الأوسىّ يقول الشماخ بن ضِرار :

١٠ رأيتُ عَرابةَ الأوْسِىّ يسْمو * إلى الخيراتِ مُنقطِع القرين
إذا ما رايَة رُفِعَت لمجـد * تَلقَّاها عَـرابةُ باليمين

لبعضهم

وقالوا : يسود الرجل بأربعة أشياء : بالعقل ، والأدب ، والعلم ، والمال .

من حلم ابن نوفل

وكان سلم بن نوفل سيدَ بنى كنانة ، فوثب رجل على ابنه وابن أخيه فجرحهما ، فأُتى به . فقال له : ما أمَّنَك من انتقامى ؟ قال : فلِم سَوَّدْناك إذاً ، إلا أن تكظم ١٥ الغيظ وتحلُم عن الجاهل . وتحتمل المكروه . فخلَّى سبيله . فقال فيه الشاعر :

يُسَوَّدُ أقوامٌ وليسوا بِسادةٍ * بل السيدُ الصِّنْديدُ سَلْم بن نَوْفَل

بين ابن الكلبى والعنبرى فى السودد

وقال ابن الكلبى : قال لى خالد العنبرى[1] : ما تَعُدّون السُّودد ؟ قلتُ : أمّا فى الجاهلية فالرِّياسة ، وأما فى الإسلام فالولاية ، وخيرٌ من ذا وذلك التقوى . قال : صدقت . كان أبى يقول : لم يُدرِك الأوّلُ الشرفَ إلا بالعقل ، ولم يدرك ٢٠ الآخر إلا بما أدرك به الأول . قلت له : صدق أبوك ، وإنما ساد الأحنف ابن قيس بحلمه ، ومالك بن مِسمع بحبِّ العشيرة له ، وقتيبة بن مُسلم بدهائه ؛ وساد المهلَّبُ بهذه الخلال كلها .

(١) فى بعض الأصول : « القسرى » .

لابن نبهان — الأصمعى قال : قيل لأعرابى يقال له مُنتجع بن نبهان : ما السَّميدع ؟ قال : السيد الموطأ الأكناف .

عمر والعباس وأبو سفيان — وكان عمر بن الخطاب يُفرش له فراشٌ فى بيته فى وقت خلافته ، فلا يَجلس عليه أحدٌ إلا العباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن حَرب .

للنبي صلى الله عليه وسلم فى أبى سفيان — قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى سفيان : كل الصَّيْد فى جَوف الفَرا ؛ والفرا : الحمار الوحشى ، وهو مهموز ، وجمعه فِراء . ومعناه أنه فى الناس مثل الحمار الوحشى فى الوحش . ٥

رأى عمرو بن العاص فى أخيه هشام — ودخل عمرو بن العاص مكة ، فرأى قوماً من قريش قد تحلَّقوا حلْقة ، فلما رأوه رمَوا بأبصارهم إليه ، فعدل إليهم فقال : أحسبكم كُنتم فى شىء من ذِكرى . قالوا : أجل ، كنا نمـاثل بينك وبين أخيك هشام . أيكما أفضل . فقال عمرو : إن لهشامٍ علىّ أربعة : أُمه ابنة هشام بن المغيرة ، وأمّى من قد عرفتم . وكان أحبَّ الناس إلى أبيه منى ، وقد عرفتم معرفة الوالد بالولد . وأسلم قبلى . واستُشهد وبقيت . ١٠

لقيس بن عاصم يوصى بنيه — قال قيس بن عاصم لبنيه لما حضرته الوفاة : احفظوا عنى ، فلا أحدَ أنصحُ لكم منى ، إذا أنا متُّ فسوِّدوا كبارَكم ولا تسوِّدوا صغاركم فيحقر الناس كبارَكم . ١٥

للأحنف — وقال الأحنف بن قيس : السودد مع السواد .

وهذا المعنى يحتمل وجهين من التفسير : أحدهما أن يكون أراد بالسوادِ سوادَ الشعر ، يقول : من لم يَسُدْ مع الحداثة لم يَسُدْ مع الشيخوخة ؛ والوجه الآخر أن يكون أراد بالسواد سوادَ الناس ودَهماءَهم ، يقول : من لم يَطِرْ له اسمٌ على ألسنة العامة بالسُّودد لم ينفعه ما طار له فى الخاصة . ٢٠

لأبان بن مسلمة — وقال أبان بن مسلمة[1] :

ولسنا كقومٍ مُحْدَثين سيادةً * يُرى مالُها ولا تحسُّ فعالُها

---

(١) فى عيون الأخبار : « زبان بن سيار » .

مَساعيهمُ مقصورةٌ فى بيوتِهم * ومسعاتُنا ذُبيانُ طُرًّا عِيالُها

لابن عيينة بعد موت نظرائه

الهيثم بن عدىّ قال : لما انفرد سفيان بن عُيينة ومات نظراؤه من العلماء ، تكاثر الناس عليه ، فأنشد يقول :

خَلَتِ الدِّيارُ فَسُدْتُ غيرَ مُسَوَّدِ * ومن الشَّقاءِ تفرُّدى بالسُّوددِ

٥

سُوددالرجل بنفسه

للنبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : مَن أسرعَ به عملُهُ لم يُبطِئ به حَسَبُه ، ومَن أبطأ به عملُه لم يُسْرِع به نَسَبُه .

وقال قُسُّ بن ساعدة : من فاته حسبُ نفسه لم يَنفعه حسبُ أبيه .

وقالوا : إنما الناس بأبدانهم .

١٠ وقال الشاعر :

لبعض الشعراء

نفْسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصامَا * وعَلَّمَتْه الكَرَّ والإقداما

لابن معاوية

وقال عبد الله بن معاوية :

لَسْنا وإن كَرُمتْ أوائلُنا * يوماً على الأحساب نَتَّكِلُ

نَبْنِى كما كانت أوائلُنا * تَبنِى ونَفعَلُ مِثْلَ مافعلوا

لقس

١٥ وقال قُس بن ساعدة : لأقضِينَّ بين العرب بقضية لم يَقض بها أحد قبلى ولا يردّها أحدٌ بعدى : أيُّما رجل رَمَى رجلا بملامة دونها كرم فلا لوم عليه ، وأيما رجل ادّعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له .

لعائشة

وقالت عائشة رضى الله عنها : كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولَى به ، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به ، تُريد أن أولى الأمور بالإنسان خِصالُ نفسه ، ٢٠ وإن كان كريما وآباؤه لئام لم يَضُره ذلك ، وإن كان لئيما وآباؤه كرام لم ينفعه ذلك .

لعامر بن الطفيل

وقال عامر بن الطفيل العامرىّ :

وإنى وإن كنتُ ابنَ سيِّدِ عامرٍ * وفارِسها المشهورَ فى كل موكِبِ

فما سَوَّدَتْني عامِرٌ عن وِراثةٍ * أبَى اللهُ أن أسْمُو بجَدٍ ولا أبِ
ولكِنَّنى أحْمِى حِماها وأتَّقِى * أذاها وأرْمِى مَنْ رَماها بمَنكِبى

لرجل عند عبدالملك

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذَهَب فيه كلَّ مذهب . فأعجب عبدَ الملك ما سمع من كلامه ، فقال له : ابنُ مَن أنت ؟ قال : أنا ابنُ نفسى يا أمير المؤمنين ، التى بها توصلت إليك . قال : صدقت . ٥

لبعض الشعراء

فأخذ الشاعر هذا المعنى ، فقال :

مالِىَ عقلِى وهِمَّتى حَسَبِى * ما أنا مَوْلًى ولا أنا عربِى
إذا انْتَمَى مُنْتَمٍ إلى أحدٍ * فإننى مُنْتَمٍ إلى أدَبِى

وقال بعض المحدَثين :

رأيتُ رِجالَ بنى دالِقٍ * مُلوكًا بفضلِ تِجاراتِهمْ ١٠
وبَرْبَرْنا عندَ حِيطانِهمْ * يخوضونَ فى ذِكرِ أمواتِهِمْ
وما الناسُ إلا بأبدانِهمْ * وأحسابُهم فى حِرِآمّاتِهِمْ

المــــروءة

النبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا دينَ إلا بمروءة .

وقال ربيعة الرأى : المروءة ست خِصال : ثلاثة فى الحضَر ، وثلاثة فى السفر . ١٥ فأما التى فى السفر : فبَذْلُ الزاد ، وحُسن الخُلق ، ومداعبةُ الرفيق ، وأما التى فى الحضر : فتلاوةُ القرآن ، ولزومُ المساجد ، وعفافُ الفَرج .

لعمر بن الخطاب

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : المُروءة مروءتان : مروءةٌ ظاهرة ، ومُروءة باطنة . فالمُروءة الظاهرة الرياش ، والمروءة الباطنة العفاف .

معاوية ووفد قدم عليه

وقدم وَفْد على معاوية ، فقال لهم : ما تَعُدُّون المروءة ؟ قالوا : العفاف ٢٠ وإصلاح المعيشة . قال اسمع يا يزيد .

لأبى هريرة

وقيل لأبى هريرة : ما المروءة ؟ قال : تقوى الله وتَفَقُّدُ الضَّيعة .

وقيل للأحنف : ما المروءة ؟ قال : العفة والحرفة .

لابن عمر — وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : إنّا معشر قريش لا نعُدُّ الحلم والجود سوددا ، ونعُدُّ العفافَ وإصلاحَ المال مروءة .

للأحنف — وقال الأحنف : لا مُروءة لِكَذوب ، ولا سُودد لبخيل ، ولا ورَع لسيِّئ الخلق .

٥ للنبى صلى الله عليه وسلم — وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « تجاوزوا لذوى المُروءات عن عثراتهم ، فو الذى نفسى بيده ، إنّ أحدهم ليَعْـثُر وإن يَدَهُ لبيدِ الله » .

للعتبي عن ابيه — وقال العُتبي عن أبيه لا تتمّ مروءةُ الرجل إلا بخمس : أن يكون عالما صادقا عاقلا ذا بيان مستغنيا عن الناس .

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

١٠ وما المَرْءُ إلا حيثُ يَجْعَل نفْسَه ﴿ فى صالح الأخْلَاقِ نفْسَكَ فاجْعَلِ

لعبد الملك فى مصعب — وقيل لعبد الملك بن مروان : أكان مُصعب بن الزُّبير يشرب الطِّلاء؟ فقال : لو علم مُصعب أن الماء يُفسد مروءتَه ما شربه .

لبعضهم — وقالوا : من أخذ من الديك ثلاثة أشياء ، ومن الغراب ثلاثة أشياء ، تمّ بها أدبُه ومروءته : من أخذ من الديك سخاءه وشجاعته وغيرته . ومن الغراب بكورَه

١٥ لطلب الرزق وشِدَّةِ حذرِه وسَتْرَ سِفادِه .

طبقات الرجال

لخالد بن صفوان — قال خالد بن صفوان : الناس ثلاث طبقات : طبقة علماء ، وطبقةٌ خطباء ، وطبقة أدباء ، ورِجْرِجة بين ذلك ، يُغلون الأسعار ، ويُضيِّقون الأسواق ، ويكدرون المياه .

٢٠ للحسن — وقال الحسن : الرجال ثلاثة : فرجل كالغِذاء لا يُستَغْنَى عنه ، ورجل كالدواء لا يُحتاج إليه إلا حينا بعد حين ، ورجل كالدّاء لا يُحتاج إليه أبداً .

لمطرف — وقال مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير : الناس ثلاثة : ناس ، ونَسناس ، وناس غمسوا فى ماء الناس .

الخليل — وقال الخليل بن أحمد : الرجال أربعة : فرجل يَدْرِي ويَدْري أنه يدري ، فذلك عالم فسلوه ؛ ورجل يَدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك الناسى فذكِّروه ؛ ورجل لا يَدرى ويدرى أنه لا يَدرى ، فذلك الجاهل فعلِّموه : ورجل لا يدرى ولا يَدرى أنه لا يدرى ، فذلك الأحمقُ فارْفضوه .

٥

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

أليْسَ مِنَ البَلْوَى بأنَّكَ جاهِلٌ * وأنَّكَ لا تَدْرِي بأنَّكَ لا تَدْرِي

إذا كُنْتَ لا تَدْرِي ولسْتَ كَمَنْ دَرى * فكَيْفَ إذنْ تَدْرِي بأنَّكَ لا تَدْرى

ولآخر :

وما الدَّاء إلا أنْ تُعَلِّمَ جاهِلًا * ويَزْعُم جَهْلًا أنَّهُ منْكَ أعْلَمُ

١٠

لعلى — وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : الناس ثلاثة : عالم ربّانى ؛ ومتعلّم على سبيل نجاة ، ورَعاع هَمج يَميلون مع كل ريح .

الحكماء — وقالت الحكماء : الإخوان ثلاثة : فأخٌ يُخلص لك وُدَّه ، ويبذل لك رِفْده ويستفرغ فى مُهِمّك جُهْدَه ؛ وأخ ذُو نِيّة ، يقتصر بك على حسن نيته دون رِفْده ومَعونته ؛ وأخ يتملّق لك بلسانه ويتشاغل عنك بشانه ويُوسعك من كذبه وأيمانه .

١٥

لابن مسعود فى رجل مر به — وقال الشّعبي : مرّ رجلٌ بعبد الله بن مسعود ، فقال لأصحابه : هذا لا يَعلَمَ ، ولا يعْلَمَ أنه لا يعْلَمَ ، ولا يتَعَلَّم ممن يعْلَمَ .

للنبى صلى الله عليه سلم — وقال النبي صلى الله عليه وسلم : كُنْ عالماً أو مُتَعَلّماً ، ولا تكن الثالثة فتهْلك .

الغوغاء

٢٠

الغوغاء : الدَّبا . وهى صغار الجراد ، وشُبّه بها سوادُ الناس .

ابن عباس والغوغاء — وذُكر الغوغاء عند عبد الله بن عباس ، فقال : ما اجْتمعوا قط إلا ضرُّوا ، ولا افترقوا إلا نفعوا . قيل له : قد علِمْنا ما ضرُّ اجتماعِهم ، فما نفْعُ افتراقهم؟

قال : يذهب الحجّام إلى دُكانه ، والحدّادُ إلى أكياره ، وكلُّ صانع إلى صناعته .

لعمر بن الخطاب في قوم

ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى قوم يتبعون رجلا أُخِذ فى رِيبة ؛ فقال : لا مَرْحَباً بهذه الوجوه التى لا تُرى إلا فى شر .

وقال حبيب بن أوس الطائى :

٥ إنْ شِئْتَ أن يَسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلُّهُ * فأجِلْهُ فى هـذا السَّوادِ الأعْظَمِ

لدعبل

وقال دعبل :

ما أكثرَ النَّاس لا بَلْ ما أقلَّهُمُ * اللهُ يعـلمُ أنِّى لَمْ أقُلْ فَنَدَا

إنِّى لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أفْتَحُها * على كثيرٍ ولكنْ لا أرَى أحداً

الثقـــلاء

لعائشة

١٠ قالت عائشة رضى الله عنها : نزلتْ آية فى الثقلاء : ﴿ فإذا طَعِمْتُمْ فانْتَشِرُوا ولا مُسْتَأنِسين لِحَديث ﴾ .

الشعبى

وقال الشّعبى : من فاته ركعتا الفَجرِ فلْيَلْعَنْ الثُّقلاء .

وقيل لجالينوس : بِمَ صار الرجل الثّقيل أثقلَ من الحِملِ الثقيل ، فقال : لأنّ الرجل الثقيل إنما ثِقله على القلبِ دُونَ الجوارح ، والحِمل الثقيل يستعين ١٥ فيه القلبُ بالجوارح .

لسهل بن هارون

وقال سهل بن هارون : منْ ثَقُل عليك بنفسه ، وغَمّك بسُؤاله ، فأعِرْهُ أذُناً صَمّاء ، وعينا عمياء .

لأبى هريرة

وكان أبو هريرة إذا استثقل رجلا قال : اللهم اغْفِرْ له وأرِحْنا منه .

وكان الأعمش إذا حضر مجلسَه ثقيلٌ يقول :

٢٠ فَمَا الفِيلُ تحْمِلُه مَيْتاً * بأثْقلَ مِنْ بعْضِ جُلّاسِنا

أبو حنيفة والأعمش

وقال أبو حنيفة للأعمش وأتاه عائداً فى مرضه : لولا أن أُثْقِلَ عليك أبا محمدٍ لعُدتُك واللهِ فى كل يوم مرتين . فقال له الأعمش : والله يا بن أخى أنت ثقيل علىّ وأنتَ فى بيتك ، فكيف لو جئتَنى فى كل يوم مرتين .

لرجل فى ثقيل

وذكر رجل ثقيلا كان يجلس إليه ، فقال : والله إنى لأُبغض شِقّ الذى يليه إذا جلس إلىّ .

لبعضهم

ونقش رجل على خاتمه : أبرمتَ فقُمْ . فكان إذا جلس إليه ثقيل ناوله إياه وقال : اقرأ ماعلى هذا الخاتم .

حماد بن سلمة

وكان حماد بن سلمة إذا رأى من يستثقله قال : ﴿ربَّنا اكشِفْ عنَّا العذابَ إنَّا مؤمنون﴾ . ٥

لبشار فى أبى عمران

وقال بشار العُقيلى فى ثقيل يُكنى أبا عمران :

ربَّما يَثقُلُ الجليسُ وإن كا * ن خفيفاً فى كِفّةِ الميزانِ

ولقد قلتُ إذْ أظلَّ على القو * مِ ثقيلٌ يُربِى على ثَهْلانِ

كيف لاتحمِلُ الأمانةَ أرْضٌ * حَمَلتْ فوقَها أبا عمرانِ ١٠

ولآخر :

أنتَ ياهذا ثقيلٌ * وثقيل وثقيلُ

أنتَ فى المنظرِ إنسا * نٌ وفى الميزانِ فِيلُ

الحسن بن هانئ

وقال الحسن بن هانئ فى رجل ثقيل :

ثقيلٌ يُطالِعُنا مِن أمَمْ * إذا سَرَّهُ رغْمُ أنفى ألَمْ ١٥

أقولُ له إذْ بَدَا لا بَدا * ولا حَمَلَتْهُ إلينا قَدَمْ

فقَدْتُ خيالَكَ لا مِن عَمًى * وصوتَ كلامِكَ لا مِن صَمَمْ

وله فيه :

وما أظُنُّ القِلاصَ مُنْجِيَتِى * منكَ ولا الفُلْكَ أيها الرجلُ

ولو ركِبْتُ البُراقَ أدْرَكَنِى * مِنكَ على نأيِ دارِكَ الثِّقَلُ ٢٠

هل لَكَ فيما مَلَكْتُهُ ، هِبَةً * تأخُذُهُ جملةً وترتحِلُ

وله فيه :

يا مَن على الجُلَّاسِ كالفَتْق * كلامُكَ التخديش فى الحَلْقِ

هل لَكَ فى مالى وما قد حوَتْ * يدَاىَ مِن جِلٍّ ومِنْ دِقٍّ
تأخُذه منّى كذا فِدْيةً * واذهَبْ فى البُعدِ وفى السُّحقِ

وله فيه :

ألَا يا جبَلَ المَقْتِ الّـ * ـذى أرْسَى فما يَبرَحْ
لقد أكثرْتَ تفكيرى * فما أدْرى لِمَا تَصْلُحْ
فما تَصْلُحُ أن تُهجَى * ولا تصلُحُ أنْ تُمدَحْ

لتاجر أهدى جملا ثم نزل عليه

أهدى رجل من الثقلاء إلى رجل من الظرفاء جملا ، ثم نزل عليه حتى أبْرَمَه ، فقال فيه :

يا مُبْرِماً أهدَى جَمَلْ * خذْ وانصرِفْ ألْفَىْ جملْ
قال وما أوقارُها ؟ * قلتُ زَبيبٌ وعسلْ
قال ومَن يقودُها * قلتُ له ألفَا رجلْ
قال ومَن يسوقُها * قلتُ له ألفا بطلْ
قال وما لِباسُهم * قلت حُلِىٌّ وحُلَلْ
قال وما سِلاحُهم * قلت سُيوفٌ وأَسَلْ
قال عبيد لى إذن * قلت نعم ثم خوَلْ
قال بهذا فاكتُبوا * إذن عليكمْ لى سِجِلّ
قلت له ألْفَىْ سِجِلّ * فاضْمَنْ لنا أنْ ترْتحِلْ
قال وقد أضجَرْتُكم * قلت أَجَلْ ثم أجلْ
قال وقد أبرَمْتُكم * قلت له الأمرُ جَلَلْ
قال وقد أثقلتُكم * قلت له فوق الثِّقَلْ
قال فإنى راحِلٌ * قلت العجَلْ ثم العجَلْ
يا كَوْكبَ الشُّؤمِ ومَن * أرْبَى على نَحْسِ زُحَلْ
يا جبلًا مِن جبلٍ * فى جبلٍ فوق جَبَلْ

الحمدونى فى بغيض — وقال الحمدونى فى رجل بغيض مَقِيت .

أيا بنَ البغيضةِ وابنَ البغيض ٭ ومَنْ هو فى البُغْضِ لا يُلحَقُ
سألتُكَ باللهِ إلّا صَدَقْتَ ٭ وعِلْمِى بأنّكَ لا تَصْدُقُ
أتُبْغِضُ نفسكَ مِنْ بُغضِها ٭ وإلّا فأنتَ إذنْ أحْمَقُ

٥ وله فيه :

فى حريمِ النّاس إذ كُنْـ ٭ ـتَ مِنَ النّاسِ تَعَدُّ
ولقـدْ أُنبِئْتُ إبْلِيـ ٭ ـسُ إذا رآك يصُدُّ

لحبيب فى مثله — ولحبيب الطائى فى مثله ، أىْ فى رجل مَقيت :

يا مَنْ تبرّمَتِ الدُّنيـا بطَلْعَتِهِ ٭ كما تبرّمَتِ الأجفانُ بالرَّمَدِ
١٠ يمشى على الأرضِ مُختالًا فأحسَبُه ٭ لِبُغْضِ طلعتِه يمشى على كَبِدى
لو أنّ فى الأرضِ جزءًا من سماجتِه ٭ لم يَقدم الموتُ إشفاقًا على أحدِ

للحسن بن هانئ فى الفضل الرقاشى — وللحسن بن هانئ فى الفضل الرقاشى :

رأيتُ الرّقاشىّ فى موضعٍ ٭ وكانَ إلىّ بَغيضًا مَقيتَا
فقال اقْتَرِحْ بعضَ ما تَشْتَهى ٭ فقلتُ اقترحتُ عليكَ السُّكوتا

١٥ الشعبى — وأنشدنى الشعبى :

إنى بُليتُ بمَعشَرٍ ٭ نَوْكَى أخفُّهُمُ ثقيل
بُلْهٍ إذا جالَسْتُهم ٭ صَدِئتْ لقُرْبِهِمُ العُقول
لا يُفْهِمُونى قولَهم ٭ ويدِقُّ عنهم ما أقول
فهُمُ كثيرٌ بى كما ٭ أنّى بِقُرْبِهِمُ قليل

٢٠ من الكسائى إلى الرقاشى — وقال العتبى : كتب الكِسائىّ إلى الرقاشىّ :

شكوْتَ إلينا مجانِينَكم ٭ وأشكو إليك مجانينَنا
وأنشأتَ تَذْكُرُ قُذّارَكم ٭ فأنتِنْ وأقذِرْ بمَنْ عندَنا
فلولا السلامة كُنّا كهُم ٭ ولولا البَلاء لكانوا كَنا

لحبيب

وقال حبيب الطائى :

وصاحبٍ لى مَلِلْتُ صُحْبتَه * أفقدَنى اللهُ شخصَه عَجِلا
سَرَقتُ سِكّينهُ وخاتَمــه * أقْطَع ما بيننا فما فَعلا

وقال حبيب :

٥ يا مَن له فى وجهِه إذ بدا * كُنوزُ قارونَ منَ البُغض
لو فرَّ شىءٌ قَط مِن شَكلِه * فرَّ إذَنْ بعضُك من بعضِ
كوْنك فى صُلْبِ أبينا الذى * أهْبطَنا جمعاً إلى الأرض

لأبى زيد الأنصارى

وقال أبو حاتم : وأنشدنى أبو زيد الأنصارى النحوى صاحب النوادر :

وجهُ يَحي يدعو إلى البَصْقِ فيه * غيْرَ أنى أصونُ عنه بُصاقى

للعتبى

١٠ قال أبو حاتم : وأنشدنى العتبى :

له وجهٌ يَحِلُّ البصقُ فيه * ويَحْرُم أنْ يُلقى بالتّحيّةْ

قال : وأنشدنى :

قميصُ أبى أُميّةَ ، ماعلمْتم * وأوسخُ منه جلْدُ أبى أُميّةْ

التفــاؤل بالأسماء

عمر وظالم بن سراقة

١٥ سأل عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه رجلا أراد أن يستعين به على عمل ، عن اسمه واسم أبيه ؛ فقال : ظالم بن سُراقة . فقال : تَظلم أنت ويَسرق أبوك ! ولم يستعن به فى شىء .

بين عمر وآخر

وأقبل رجل إلى عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : ما آسمك ؟ فقال : شهاب ابن حُرْقة . قال : ممن ؟ قال : من أهل حَرَّةِ النـار . قال : وأين مسكنك ؟
٢٠ قال : بِذاتِ لظى . قال : آذهب فإن أهلك قد احترقوا . فكان كما قال عمر رضى الله عنه .

ولقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مسروق بن الأجدع ، فقال له من أنت ؟

قال : مسروق بن الأجدع . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الأجدع شيطان .

للنبي صلى الله عليه وسلم فى البريد

وروى سفيان عن هشام الدستوائى عن يحيى بن أبى كثير ، قال : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمرائه : لا تبردوا بريداً إلا حسن الوجه حسن الاسم .

الحجاج ورسول المهلب

ولما فرغ المهلب بن أبى صفرة من حرب الأزارقة . وجه بالفتح إلى الحجاج رجلا يقال له مالك بن بشير ؛ فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير . قال : مُلْكٌ وبشارة .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

وإذا تكون كريهةٌ فرّجتُها * أدعو بأسلمَ مرّةً ورَبَاحِ

يريد التطيُّر بأسلم ورباح ، للسلامة والرِّبح .

من تفاؤل الرسول صلى الله عليه وسلم

الرياشى عن الأصمعى قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، نزل على رجل من الأنصار ، فصاح الرجل بغلامَيه : يا سالم ، ويا يسار ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سَلِمَتْ لنا الدار فى يُسْر .

الرسول صلى الله عليه وسلم وحزن ابن أبى وهب

وقال سعيد بن المسيِّب بن حَزن بن أبى وهب المخزومى : قدم جَدِّى حَزْن بن أبى وهب على النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له : كيف اسْمُك ؟ قال : حَزْن ! قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل سهْل . قال : ما كنت لأدَع اسما سَمَّتْنى به أمى . قال سعيد : فإنا لنجد تلك الحزُونة فى أخلاقنا إلى اليوم .

العرب والغراب

وإنما تطَيَّرت العرب من الغراب للغرْبة ، إذكان آسمه مشتقا منها .

وقال أبو الشيص :

أشاقك والليل مُلْقِى الجِران * غرابٌ ينوحُ على غصنِ بانِ

وفى نَعَباتِ الغرابِ اغْترابٌ * وفى البان بين بعيد التّدانِى

ولآخر فى السَّفَرجل :

لشاعر فى السفرجل

أهدى إليه سَفَرْجلا فتطيَّرا * منه فظلَّ مفكِّراً مُسْتَعْبِرا

خوْف الفِراق لأنّ شَطْر هجائه * سَفرٌ وحقٌّ له بأنْ يتطيرا

ولآخر فى السَّوْسَن :

لآخر فى السوسن

٥ ياذا الذى أهدَى لنا السَّوْسَنا * ما كنتَ فى إهدائِه مُحْسنا

شَطْرُ اسمِه سوءٌ فقد سُؤْتنى * ياليت أنى لم أر السَّوْسَنا

ولآخر فى الأُتْرُجّ :

لشاعر فى الأترج

أهـدَى إليه حبيبُه أُتْرُجّةً * فبكى وأشفَقَ من عِيافَةِ زاجرِ

خاف التَّبدُّل والتَّلوُّن إنها * لوْنان باطِنها خلاف الظَّاهرِ

١٠ وقال الطائى فى الحَمام :

للطائى فى الحمام

هُنَّ الحَمامُ فإن كَسَرْتَ عِيافةً * من حائِهِنَّ فإنهُنَّ حِمَامُ

أشعب وقينة بالمدينة

وكان أشعب يختلف إلى قَينة بالمدينة ، فلما أراد الخروج سألها أن تعطيه خاتَمَ ذهبٍ فى يدها ليذكُرَها به . قالت : إنه ذَهَب ، وأخاف أن تَذْهَب ؛ ولكن [خُذْ] هذا العود ، فلعلك أن تعود .

١٥ باب الطـيرة

للنبى صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ثلاثةٌ لا يكاد يَسلم منهن أحد : الطِّيَرة ، والظنّ ، والحسد . قيل : فما المخرج منهن يارسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننتَ فلا تُحقِّق ، وإذا حَسَدْت فلا تَبْغ .

لأبى حاتم فى كلمات لغوية

وقال أبو حاتم : السانح ما وَلّاك مَيامنَه ، والبارحُ ما ولّاك مَياسِرَه ، والجابه ٢٠ ما استقبلك من تجاهك ، والقعيد الذى يأتيك من خلفك .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا عَدوى ولا طِيَرة .

وقال : ليس منا من تَطيّر .

وقال : إذا رأى أحدكم الطيرة فقال : اللهم لا طَيْرَ إلا طيرك ، ولا خير إلا خيْرك ، ولا إله غيرك ، لم تَضُرّه .

العرب والطيرة

وقد كانت العرب تتطير ، ويأتى ذلك فى أشعارهم ، وقال بعضهم :

وما صدَقتْكَ الطَّيْرَ يوم لقيتَنا * وما كان مَن دلّاك فينا بخابِرِ

لحسان

٥ وقال حسان رضى الله تعالى عنه :

ياليت شِعْرى وليت الطَّيْرُ تُخْبِرُنى * وما كان بين علىٍّ وابن عَفّانا

لَتَسْمَعَنّ وشيكا فى ديارهمُ * الله أكبر ياثارات عُثمانا

للحسن بن هانىء

وقال الحسن بن هانئ :

قام الأمير بأمرِ الله فى البشَرِ * واستَقبَل المُلك فى مُستقبل العُمُر

١٠ فالطير تخبرُنا والطير صادقةٌ * عن طِيب عيْش وعن طول مِنَ العُمُر

قتيبة وشىء من تطيره

وقال الشَّيبانى : لما قَدِم قُتيبة بن مُسلم والياً على خراسان ، قام خطيباً ، فسقطت المخصرة من يده ، فتطيّر به أهلُ خراسان ؛ فقال : أيها الناس ، ليس كما ظننتم ، ولكنه كما قال الشاعر :

فألقت عَصاهاواستَقرّت بهاالنّوى * كما قرّ عيْناً بالإيابِ المسافرُ

١٥ اتخاذ الإخوان وما يجب لهم

داود يوصى ابنه سليمان عليهما السلام

روى الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير أنّ داود قال لابنه سليمان ـ عليهما السلام : يا بُنىّ ، لا تستقل عدُوًّا واحداً ولا تستكثر ألف صديق ، ولا تستبدل بأخٍ قديم أخا مستحدثا ما أستقام لك .

فى الحديث

وفى الحديث المرفوع : المرء كثير بأخيه .

٢٠ وقال شبيب بن شيبة : إخوانُ الصفا خيرٌ من مكاسب الدنيا ، هم زينةٌ فى الرخاء ، وعُدّةٌ فى البلاء ، ومعونةٌ على الأعداء .

لابن الأعرابى

وأنشد ابن الأعرابى :

لعَمْرُكَ ما مالُ الفتى بذخيرةٍ * ولكنّ إخوانَ الصّفاء الذّخائرُ

للأحنف

وقال الأحنف بن قَيس : خير الإخوان ما إن استغنيت عنه لم يزدْك فى المودة ، وإن احتجت إليه لم يَنقُصك منها ، وإن كُوثِرت عَضَّدك ، وإن استرفدْت رَفَدَك . وأنشد :

أَخوك الذى إنْ تدعُه لِمُلمَّةٍ * يُجبْك وإن تَغضَب إلى السيْف يَغضَبِ

لبعض الشعراء

٥ ولآخر :

أخاك أخاك إنّ من لا أخا له * كساعٍ إلى الهيْجا بغيْرِ سلاحِ

وإنّ ابن عمِّ المرءِ فاعلم جناحُه * وهل يَنهض البازى بغير جَناحِ

فى الصديق

ومما يجب للصديق على الصديق النصيحةُ جهده ؛ فقد قالوا : صديقُ الرجل مِرْآته ، تُريه حسناتِه وسيآتِه .

١٠ وقالوا : الصديقُ من صَدقك ودَّه ، وبذل لك رِفدَه .

وقالوا : خير الإخوان من أقبل عليك إذا أدبر الزمان عنك .

وقال الشاعر (١) :

فإنَّ أوْلى الموالى أن تواليه * عندالسُّرور لَمنْواساكفىالحزَن

إنَّ الكرامإذا ماأسْهَلوا ذكروا * من كان يألفُهم فى المنزِل الخشِن

١٥ ولآخر :

الصبر من كرَم الطَّبيعهْ * والمَنُّ مفْسدة الصَّنِيعهْ

تَرْكُ التَّعهُّد للصديــق يكون داعيةَ القَطيعهْ

لابن المعذل فى الحسن بن إبراهيم

أنشد محمد بن يزيد المُبرد لعبد الصمد بن المُعذَّل فى الحسن بن إبراهيم :

يامن فَدَتْ نفسَه نفسىومنجُعلَت * له وِقاءً لما يَخشى وأخشاهُ

٢٠ أَبلغْ أخاك وإن شَطَّ المَزارُ به * أنى وإنْ كنتُ لا ألقاهُ ألقاهُ

وأنَّ طرْفىَ موصولٌ برؤْيتِه * وإنْ تباعَدَ عن مثْواىَ مثْواهُ

الله يعلم أنى لست أذكرُه * وكيف يذكرُهُ من ليس ينساهُ

(١) هو أبو تمام.

عدوا فهل حسن لم يحوهِ حَسَنٌ * وهل فتًى عَدَلتْ جدواهُ جَدواهُ
فالدهرُ يَفنَى ولا تَفنَى مكارمُهُ * والقَطرُ يُحصَى ولا تُحصَى عَطاياهُ

لبعض الولاة فى الأصدقاء

وقيل لبعض الوُلاة : كم صديقاً لك ؟ قال : لا أدرى ؛ الدنيا مُقبلة علىّ والناس كلهم أصدقائى ، وإنما أعرف ذلك إذا أدبرتْ عنى .

المنصور وشاعر يهنئه بالخلافة

٥ ولما صارت الخلافة إلى المنصور كتب إليه رجل من إخوانه كتاباً فيه هذه الأبيات :

إنّا بِطانتُكَ الأُلى * كنا نُكابِدُ ما تُكابِدْ
ونُرَى فنُعرَفُ بالعَدا * وةِ والبِعادِ لِمَن تُباعِد
ونَبيتُ مِن شَفَقٍ عليكَ رَبيئةً والليلُ هاجِد

١٠ فلما وصلت الأبيات إلى أبى جعفر وقّع على كل بيت منها : صدقت . ودعا به فألحقه بإخوانه .

معاتبة الصديق واستبقاء مودّته

للحكماء

قالت الحكماء : مما يجب للصديق على الصديق ، الإغضاء عن زلاته ، والتجاوزُ عن سيآته ، فإن رجع وأعتب وإلا عاتبتَه بلا إكثار ؛ فإن كثرةَ العتاب ١٥ مدرجة للقطيعة .

لعلى

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا تَقطع أخاك على آرتياب ، ولا تهجُره دون استعتاب .

لأبى الدرداء

وقال أبو الدرداء : مَن لك بأخيك كلّه ؟

وقالوا : أىُّ الرجالِ المهذّب ؟

لبشار

٢٠ وقال بشّار العُقيلى :

إذا أنتَ لم تَشرَبْ مِراراً على القَذَى * ظَمِئتَ ، وأىُّ الناسِ تصفو مشارِبُهْ

وقالوا : معاتبة الأخ خير من فقده .

وقال الشاعر : لبعض الشعراء

إذا ذهب العِتابُ فليس وُدٌّ * ويبقى الوُدُّ ما بَقِىَ العتابُ

ولمحمد [1] بن أبان : لابن أبان

إذا أنا لم أصبِرْ على الذَّنب من أخٍ * وكنتُ أُجازيه فأين التفاضُلُ

٥ إذا ما دهانى مفصلٌ فقطعته * بقيتُ ومالى للنهوض مفاصل

ولكنْ أداويه ، فإن صَحّ سَرّنى * وإنْ هو أعْيا كان فيه تحامُلُ

وقال الأحنف : مِن حقِّ الصديق أن يتحمل ثلاثا : ظلمَ الغضَب ، وظلم الدَّالَّة ، وظلم الهفوة . للأحنف

لعبد الله بن معاوية : لعبد الله بن معاوية

١٠ ولستُ بِبادى صاحبى بقطيعةٍ * ولستُ بِمُفْشٍ سِرَّهُ حين يغضَبُ

عليك بإخوانِ الثِّقاتِ فإنهم * قليلٌ فَصِلْهُمْ دون مَن كنتَ تَصْحَبُ

وما الخِدْنُ إلا مَن صفا لك وُدُّهُ * ومَن هو ذو نُصحٍ وأنت مُغَيَّبُ

فضل الصداقة على القرابة

قيل لبزرجمهر : مَن أحب إليك : أخوك أم صديقك ؟ فقال : ما أُحِب أخى ١٥ إلا إذا كان لى صديقا . لبزرجمهر

وقال أكثم بن صيفى : القرابة تحتاج إلى مودة ، والمودة لا تحتاج إلى قرابة . لأكثم

وقال عبد الله بن عباس : القرابة تُقْطَع والمعروف يُكْفَر ، وما رأيت كتقارُب القلوب .

وقالوا : إياكم ومَن تكرهه قلوبُكم ، فإن القلوب تُجازِى القلوب . لبعضهم

٢٠ وقال عبد الله بن طاهر الخراسانى :

أَمِيلُ مع الرِّفاقِ على ابنِ أُمّى * وأَحمِلُ للصَّدِيق على الشقيقِ

(١) فى بعض الأصول : « أحمد » .

وإن أَلْفَيْتَنى ملِكاً مُطاعاً * فإنك واجِدى عبْدَ الصديقِ
أُفرِّقُ بين معروفى ومَنِّى * وأَجْمَعُ بين مالى والحُقوق

حبيب — وقال حبيب الطائى :

ولقد سَبَرْتُ الناسَ ثم خَبَرْتُهم * وبَلَوْتُ ما وَصَلوا من الأسبابِ
فإذا القرابةُ لا تُقرِّبُ قاطِعاً * وإذا المودّةُ أقربُ الأنسابِ ٥

للمبرد — وللمبرِّد :

ما القُرْبُ إلا لمن صَحَّتْ مودّتُهُ * ولم يَخُنْكَ وليس القربُ للنَسَبِ
كم من قريبٍ دوِيِّ الصدر مُضطغِنٍ * ومن بعيدٍ سليمٍ غيرِ مقتربِ

الحكماء — وقالت الحكماء : رُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أُمّك .

وقالوا : القريب من قَرُبَ نفعُه . ١٠

وقالوا : رُبَّ بعيدٍ أقربُ من قريب .

لبعض الشعراء — وقال آخر :

رُبَّ غريبٍ ناصِحُ الجَيْبِ * وابنِ أبٍ مُتَّهَمُ الغيبِ

وقال آخر :

أخو ثقةٍ يُسَرُّ ببعضِ شأْنِى * وإن لم تُدْنِه منى قَرابَهْ ١٥
أَحَبُّ إلىّ من ألْفَىْ قريبٍ * تَبيتُ صدورُهم لى مُستَرابَهْ

وقال آخر :

فَصِلْ حِبالَ البعيدِ إنْ وَصَلَ الْـحبلَ وأَقْصِ القريبَ إن قطَعَهْ
قد يَجمعُ المالَ غيرُ آكِلِه * ويأْكُلُ المالَ غيرُ مَن جَمَعَهْ
فارضَ من الدهرِ ما أتاك به * مَن قَرَّ عيناً بعيشِه نَفَعَهْ ٢٠

وقال :

لكل ضِيقٍ[1] من الهُمومِ سَعَهْ * والليلُ والصبحُ لا بَقاءَ معهْ

(١) فى بعض الأصول : « لكل شىء ... »

لا تَحْقِرَنَّ الفقيرَ عَلَّكَ أنْ * تَرْكَعَ يوماً والدهرُ قد رَفَعَهْ

لابن هرمة

وقال ابن هرمة :

لِلّهِ دَرُّكَ من فتًى فَجَعتْ به * يومَ البَقيعِ حوادثُ الأيامِ

هَشٍّ إذا نزلَ الوفودُ ببابِهِ * سَهْلِ الحِجابِ مؤدَّبِ الخُدّامِ

٥ وإذا رأيتَ صديقَه وشقيقَه * لمْ تدرِ أيُّهما أخو الأرحامِ

التحبب إلى الناس

في الحديث

فى الحديث المرفوع : أَحَبُّ الناسِ إلى الله أكثرهم تَحَبُّباً إلى الناس .

وفيه أيضاً : إذا أحب اللهُ عبداً حبَّبه إلى الناس .

لابن عبدربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

١٠ وجهٌ عليه من الحياءِ سكينةٌ * ومحبّــةٌ تجرى مع الأنفاسِ

وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عَبْدَهُ * أَلْقَى عليــه محبّةً للنـاسِ

من عمر إلى ابن أبي وقاص

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص : إن الله إذا أحب عبداً حبَّبه إلى خَلْقه . فاعتبِر منزلتَك من الله بمنزلتك من الناس . واعلم أنّ مالك عند الله مثلُ ما للناس عندك .

أبو دهمان وابن مسلم

١٥ وقال أبو دُهمان لسعيد بن مسلم ، ووقف إلى بابه فحجبه حيناً ثم أذن له ، فمثل بين يديه وقال : إن هذا الأمر الذى صار إليك وفى يديك ، قد كان فى يَدَىْ غيرِك ، فأمسى والله حديثا ، إنْ خيراً فخير وإنْ شرًّا فشرٌّ . فتحبَّبْ إلى عباد الله بحُسْنِ البِشر ، وتسهيلِ الحجاب ، ولِينِ الجانب ؛ فإن حبَّ عبادِ الله موصولٌ بحب الله ، وبُغضَهم موصول ببغض الله ؛ لأنهم شُهداء الله على خلقه ، ورقباؤه

٢٠ على من اعْوَجَّ عن سبيله .

للجارود

وقال الجارود : سوء الخلق يُفسد العمل كما يُفسد الخلُّ العسل .

لمعاوية

وقيل لمعاوية : مَن أحب الناس إليك ؟ قال : مَن كانت له عندى يد صالحة .

قيل له : ثم من ؟ قال : من كانت لى عنده يد صالحة .

المبرد والخليل

وقال محمد بن يزيد النحوىّ : أتيت الخليل ، فوجدتُه جالساً على طُنفسة صغيرة ، فوسَّع لى وكرهتُ أن أُضيِّق عليه . فانقبضت ، فأخذ بعَضُدى وقرّبنى إلى نفسه ، وقال : إنه لايضيق سَمُّ الخِياط بمتحابّين ، ولا تَسَعُ الدنيا متباغِضَيْن .

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

صِلْ من هَوِيتَ وإنْ أبْدَى مُعاتَبة ۞ فأطيَبُ العيشِ وَصْلٌ بين إلْفَيْنِ ٥

واقْطَعْ حبائلَ خِدْنٍ لا تُلائِمُهُ ۞ فرُبّما ضاقتِ الدنيا بإثنَيْن

صفة المحبة

لابن طاهر يصف الحب للمأمون

أبو بكر الورّاق قال : سأل المأمونُ عبد الله بن طاهر ذا الرياستين عن الحب ، ماهو ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إذا تقادَحت جواهرُ النفوس المتقاطعة بوصل المشاكلة ، انبعثتْ منها لمحةُ نورٍ تستضىء بها بواطنُ الأعضاء ، فتتحرّك ١٠ لإشراقها طبائعُ الحياة ، فيتصوّر من ذلك خلق حاضر للنفس ، متصل بخواطرها ، يسمى الحب .

لحماد الراوية

وسئل حمّاد الراوية عن الحب ، ما هو ؟ قال : الحب شجرةٌ أصلها الفكر ، وعروقها الذكر ، وأغصانها السهَر ، وأوراقها الأسقام ، وثمرتها المنيّة .

لمعاذ بن سهل

وقال معاذ بن سهل : الحب أصعبُ مارُكِب ، وأسكَرُ ماشُرِب ، وأفظع مالُقِى ، ١٥ وأحلى ما اشْتُهِى ، وأوجَعُ ما بَطَن ، وأشهَى ما عَلَن .

وهو كما قال الشاعر :

ولِلحبِّ آفاتٌ إذا هى صَرَّحتْ ۞ تبَدَّتْ علاماتٌ لها غُرَرٌ صُفْرُ

فباطِنُهُ سُقْمٌ وظاهِرُهُ جَوًى ۞ وأوّلُهُ ذِكْرٌ وآخِرُهُ فِكْرُ

لبعضهم

وقالوا : لا يكنْ حبُّك كلَفاً ، ولا بُغْضُك سرَفا . ٢٠

وقال بشّار العُقيلى :

هل تعلَمِينَ وراء الحبِّ منزِلةً ۞ تُدْنِى إليكِ ، فإنّ الحبّ أقصانى

وقال غيره : لبعض الشعراء

أُحِبُّكِ حُبًّا لو تُحبِّين مثله ۞ أصابكِ مِن وجْدٍ علىَّ جُنونُ
لطيفاً مع الأحشاء أما نهارُهُ ۞ فدمْعٌ وأما ليــلُه فأَنينُ

مواصلتك لمن كان يواصل أباك

من حديث ابن أبي شيْبة عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا تَقطع من كان يُواصلُ أباك ، تُطفئْ بذلك نورَه ؛ فإن وُدَّك ودُّ أبيك . للنبي صلى الله عليه وسلم

وقال عبد الله بن مسعود : مِن برِّ الحيِّ بالميت ان يصل مَن كان يصل أباه . لابن مسعود

وقال أبو بكر : الحب والبغض يُتوارثان . لأبي بكر

ومن أمثالهم فى هذا المعنى : لا تَقْتَنِ من كلب سوءٍ جَرْواً . من أمثالهم

وقال الشاعر :

تَرجو الوليدَ وقد أعْياك والِدُه ۞ وما رجاؤك بعد الوالِدِ الولَدَا

واجتمع عند ملك من ملوك العرب تميم بن مُرّ وبكر بن وائل ؛ فوقعت بينهما منازعة ومفاخرة ، فقالا : أيها الملك ، أعطنا سَيفين نتجالد بهما بين يديك ، حتى تعلم أيُّنا أَجْلد . فأمر الملك فنحِت لهما سيفان من عودين ، فأعطاهما إياهما ، فجعلا يضطربان مليّا من النهار ؛ فقال بكر بن وائل : ابن مر وابن وائل عند ملك العرب

۞ لو كان سَيْفانا حَديداً قطعَا ۞

قال تميم بن مُر :

۞ أو نحِتَا من جَنْدَل تصدَّعا ۞

وحال الملك بينهما ، فقال تميم بن مر لبكر بن وائل :

۞ أُساجِلُكَ العداوة ما بَقِينا ۞

فقال له بكر :

۞ وإنْ مِتْنا نوَرِّثْها البَنينا ۞

فيقال إن عداوة بكر وتميم من أجل ذلك إلى اليوم .

عداوة تميم وبكر وشعر ابن حلزة

أبو زيد : قال أبو عبيدة . بُنى دُكّانٌ بسجستان ، بَنَتْهُ بكر بن وائل ، فهدمتْه تميم ؛ ثم بنتْه تميم فهدمته بكر ؛ فتواقعوا فى ذلك أربعاً وعشرين وقعة ، فقال ابن حِلِّزة اليَشْكرى فى ذلك :

٥

قرِّبى يا خــلِيُّ ويحكِ دِرْعِى * لَقِحَت حَرْبُنـا وحربُ تميم

إخوة قَرَّشوا الذُّنوبَ علينا * فى حديثٍ من دهرِهِمْ وقديم

طلبوا صُلحَنا ولَاتَ أوانٍ * إنَّ ما يَطلبون فوْق النُّجوم

الحســـد

لعلى

قال على رضى الله عنه : لا راحة لحسود ، ولا إخاء لِمَلول ، ولا مُحِبَّ لسيِّئِ الخُلُق .

١٠

للحسن

وقال الحسن : ما رأيت ظالماً أشبهَ بمظلوم من حاسد : نَفَسٌ دائم ، وحُزْن لازم ، وغمٌّ لا يَنْفَد .

للنبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : كاد الحسد يغلب القدر .

وقال معاوية : كلُّ الناس أقدِر أرْضيهم ، إلا حاسدَ نعمة ، فإنه لا يُرضيه إلا زوالها .

١٥

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

كلُّ العداوةِ قد تُرْجى إماتتُها * إلا عداوة مَن عاداك من حسدِ

لابن مسعود

وقال عبد الله بن مسعود : لا تُعادوا نِعَم الله ! قيل له ومن يُعادى نعم الله ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . يقول الله فى بعض الكتب : الحسود عدوٌّ نعمتى ، مُتسخِّط لقضائى ، غير راض بقسمتى .

٢٠

لبعضهم

ويقال : الحسد أول ذنبٍ عُصىَ الله به فى السماء ، وأول ذنب عصى الله به فى الأرض ؛ فأمّا فى السماء فَحَسَدُ إبليس لآدم ، وأمّا فى الأرض فَحَسَدُ قابيل هابيل .

وقال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى : ﴿ ربَّنا أرنا اللّذيْن أضلَّانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ . إنه أراد بالذى من الجن إبليس ، والذى من الإنس قابيل . وذلك أن إبليس أول من سَنّ الكفر ، وقابيل أول من سَنّ القتل ؛ وإنما كان أصل ذلك كله الحسد .

لأبى العتاهية

٥ ولأبى العتاهية :

يارَبِّ إنّ الناس لا يُنصِفوننى ٭ وكيف ولو أنصفْتُهم ظلمونى
وإن كان لِى شىءٌ تصدَّوْا لأخذه ٭ وإن جئتُ أبغى سَيْبَهم مَنعونى
وإن نالهمْ بَذْلى فلا شكر عندَهم ٭ وإنْ أنا لم أبذُلْ لهم شتَموُنى
وإنْ طرَقَتْنى نِقْمةٌ فرِحوا بها ٭ وإنْ صَحِبَتْنى نِعْمةٌ حسدونى
١٠ سأمنع قلبى أنْ يَحِنَّ إليهمُ ٭ وأحجُبُ عنهم ناظِرى وجُفونى

قيس بن زهير وغطفان

أبو عبيدة مَعمر بن المُثنَّى قال : مرّ قيس بن زهير ببلاد غطفان ، فرأى ثروة وعددا ، فكره ذلك ، فقيل له : أيسوءك ما يسُرُّ الناس ؟ قال : إنك لاتدرى أنّ مع النعمة والثروة التحاسد والتخاذل ، وأن مع القلة التحاشد والتناصر .

لبعضهم

قال : وكان يقال : ماأرى قومٌ قطُّ إلا تحاسدوا وتجادلوا .

١٥ وقال بعض الحكماء : ألزَمُ الناس كآبة أربعة : رجل حَديد ، ورجل حسود ، وخليط الأدباء وهو غير أديب ، وحكيم محقَّر لدى الأقوام .

لابن المبارك

على بن بِشر المَرْوَزِى قال : كتب إلىّ ابن المبارك هذه الأبيات :

كل العداوةِ قد تُرْجى إماتَتُها ٭ إلا عداوةَ مَن عاداك مِن حسدِ
فإنّ فى القلبِ منها عُقْدةً عُقِدتْ ٭ وليس يفتَحُها راقٍ إلى الأبد
٢٠ إلا الإله فإنْ يَرْحم تُحَلَّ به[1] ٭ وإنْ أباهُ فلا ترْجوه من أحدِ

سئل بعض الحكماء : أى أعدائك لا تحبّ أن يعود لك صديقا ؟ قال : الحاسد الذى لا يرده إلى مودّتى إلا زوال نعمتى .

---

(١) فى بعض الأصول : « يحللها » .

لسليمان التيمى — وقال سليمان التَّيمى : الحسد يُضعف اليقين ، ويُسهر العين ، ويُكثر الهمّ .

الأحنف بن قيس ، صلى على حارثة بن قُدامة السَّعدى ، فقال : رحمك الله ، كنت لا تَحسُد غنيا ، ولا تَحقِر فقيرا .

لبعضهم — وكان يقال : لا يوجد الحر حريصا ، ولا الكريم حسودا .

لبعض الحكماء — وقال بعض الحكماء : أجْهَدُ البلاء أن تَظْهر الخَلَّة ، وتطول المدة ، وتعجِزَ الحيلة ، ثم لا تَعْدَم صديقاً مولّياً ، وابن عم شامتاً ، وجاراً حاسدا ، ووليا قد تحوّل عدوا ، وزوجة مُختلعة[1] ، وجارية مستبيعة[2] ، وعبدا يحقرك وولدا ينتهرك ؛ فانظر أين موضع جَهدك فى الهرب .

لقرشى — لرجل من قريش :

حَسَدوا النِّعمة لمّا ظَهَرت * فرموْها بأباطيلِ الكَلِمْ
وإذا ما اللهُ أسدَى نِعمةً * لم يَضِرْها قوْل أعْداءِ النِّعم

لبعضهم — وقيل : إذا سرَّك أن تَسلم من الحاسد فعَمِّ عليه أمرَك .

لعائشة فى شعر تتمثل به — وكانت عائشة رضى الله عنها تتمثّل بهذين البيتين :

إذا ما الدهرُ جَرّ على أُناس * حوادِثَهُ أناخَ بآخرينا
فقل للشامِتين بنا أفيقوا * سيَلقَى الشامِتُون كما لقينا

ولبعضهم :

إياك والحسدَ الذى هو آفةٌ * فتَوقَّهُ وتَوَقَّ غِرّةَ مَنْ حسدْ
إنّ الحسود إذا أراك مَودّةً * بالقولِ فهْو لك العدُوُّ المجتهِدْ

إبليس ونوح — الليث بن سعد قال : بلغنى أن إبليس لقى نوحاً صلى الله عليه وسلم ، فقال له إبليس : اتق الحسدَ والشحّ ، فإنى حسدتُ آدم فخرجت من الجنّة ، وشَحّ آدم على شجرة واحدة مُنع منها حتى خرج من الجنة .

(١) مختلعة : تطلب الخلع والطلاق .
(٢) مستبيعة : تطلب أن تباع .

للحسن

وقال الحسن : أصول الشر وفروعه ستة : فالأصول الثلاثة : الحسد ، والحرص ، وحُب الدنيا ، والفروع كذلك : حُب الرياسة ، وحُب الثناء ، وحب الفخر .

وقال الحسن : يحسد أحدهم أخاه حتى يقع فى سريرته وما يعرف علانيته ، ويلومه على ما لا يعلمه منه ، ويتعلم منه فى الصداقة مايعيِّره به إذا كانت العداوة ؛ والله ما أرى هذا بمُسلم . ٥

لابن ذر

ابن أبى الدُّنيا قال : بلغنى عن عمر بن ذَرّ أنه قال : اللهم من أرادنا بشر فاكفِناه بأىِّ حُكْمَيك شئت ، إما بتوبة وإما براحة .

لابن عباس

قال ابن عباس : ماحسدتُ أحداً ماحسدتُ على هاتيْن الكلمتين .

وقال ابن عباس : لا تحقرنّ كلمة الحكمة أن تسمعها من الفاجر ؛ فإنمـا مثله كما قال الأول : رُبَّ رَميةٍ من غيرِ رام . ١٠

لحكماء

وقال بعض الحكماء : ما أحقَ للإيمـان ولا أهتكَ للستر من الحسد ، وذلك أنّ الحاسد مُعاند لحكم الله ، باغٍ على عباده ، عاتٍ على ربه ، يعتدّ نِعَم الله نِقَما ، ومَزِيدَهُ غِيَراً ، وعدْل قضائه حَيْفا ، للناس حال وله حال ، ليس يهدأ لَيله ، ولا ينام جشعُه ، ولا ينفعه عيشُه ، محتقِر لنعم الله عليه ، متسخِّط ماجرت به أقدارُه ، لا يبرُد غليله ، ولا تؤمَن غوائله ، إن سالَمْتَه وتَرَكَ ، وإن واصلتَه قَطَعك ، وإن صرَمْته سبقك . ١٥

ذُكر حاسد عند بعض الحكماء فقال : ياعجباً لرجل أسلكه الشيطان مهْوى الضلالة ، وأورده قُحَم الهَلكة ، فصار لنعم الله تعالى بالمِرصاد ، إن أنالها مَن أحبّ من عباده ، أشْعرَ قلبه الأسف على مالم يُقْدَر له ، وأغاره الكلفُ بمـا لم يكن لِيناله . ٢٠

لبعض الشعراء

أنشدنى فتى بالرملة :

اصْبِرْ على حسدِ الحَسودِ * فإنّ صَبرَكَ قاتِلُهْ
كالنارِ تأْكُلُ بعضَها * إن لم تجِــدْ ما تأكُلُهْ

عبدالملك والحجاج

وقال عبد الملك بن مروان للحجاج : إنه ليس من أحد إلا وهو يعرف عيبَ نفسه ، فصِف لى عيوبك . قال : أعفِنى يا أمير المؤمنين . قال : لستُ أفعل . قال : أنا لحوح ، لَدود ، حَقود ، حسود . قال : مافى إبليس شَرٌّ من هذا .

المنصوروسليمان ابن معاوية

وقال المنصور لسليمان بن معاوية المُهلَّبى : ما أسرع حسَدَ الناس إلى قومك ! ٥ فقال : يا أمير المؤمنين :

إنّ العَرانينَ تَلْقاها مُحَسَّدَةً * ولا ترَى لِلئامِ الناسِ حُسَّادَا

لابن سيار

وأنشد أبو موسى لنصر بن سيار :

إنى نشأْتُ وحُسَّادى ذَوُو عدد * ياذا المَعارج لا تنقُصْ لهم عددَا

إنْ يَحسُدونِى على حُسنِ البَلاءِ بهم * فمِثلُ حُسنِ بَلائى جَرَّ لى حسَدَا

لبعض الشعراء

١٠ وقال آخر :

إنْ يَحسُدونى فإنى غيرُ لائمِهم * قبلِى من الناسِ أهلُ الفضلِ قد حُسِدُوا

فدامَ لى ولهم ما بِى وما بِهِمُ * ومات أكثرُنا غيظاً بما يَجِدُ

وقال آخر :

إنّ الغرابَ وكان يمشى مِشيةً * فيما مضى من سالِف الأحوالِ

١٥ حسَدَ القَطاةَ فرامَ يمشى مَشْيَها * فأصابه ضربٌ من العُقّالِ

فأضلَّ مشيته وأخطأ مَشْيَها * فلذاك كنَّوه أبا مِرْقالِ

لحبيب

وقال حبيب الطائى :

وإذا أراد اللهُ نشْرَ فضيلةٍ * طُوِيتْ أتاح لها لِسانَ حَسودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ * ماكان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

لابن مناذر

٢٠ وقال محمد بن مناذر :

يا أيُّها العائبى وما بِىَ مِنْ * عيب ألا ترْعَوِى وتَزْدجِرُ

هل لك عندى وِتْرٌ فتطلُبَهُ * أم أنت مما أتيتَ مُعتذِرُ

إن يكُ قَسْمُ الإلهِ فضلَنى * وأنت صَلْدٌ ما فيكَ مُعتصَرُ

فالحمدُ والشكرُ والثناء له * وللحسودِ الترابُ والحجَرُ

فما الذى يَجتنِى جليسُكَ أو * يبدو له منكَ حين يَختبِرُ

اِقرأْ لنا سورةً تُذَكِّرُنا * فإنّ خيرَ المَواعِظِ السُّوَرُ

أَوْصِفْ لنا الحكمَ فى فرائضِنا * ما تستحِقُّ الانثى أو الذكَرُ

٥ أو آرْوِ فِقهاً تحيا القلوبُ بهِ * جاء به عن نبيِّنا الأثَرُ

أو من أحاديثِ جاهليَّتِنا * فإنها حِكْمةٌ ومُختَبَرُ [1]

أو آرْوِ عن فارسٍ لنا مثَلًا * فإنّ أمثالَها لنا عِبَرُ

فإن تكن قد جَهِلْتَ ذاك وذا * ففيكَ للناظرينَ معتبَرُ

فغنِّ صوتاً تُشْجَى القلوبُ [2] به * وبعضُ ما قد أتيتَ يُغتفَرُ

بصرى يحسده قومه

١٠ الأصمعى قال : كان رجل من أهل البصرة بَذِيًّا شِرِّيرا ، يؤذى جيرانه ويشتُم أعراضهم ؛ فأتاه رجل فوعظه فقال له : ما بال جيرانِك يشكونك ؟ قال : إنهم يحسدوننى ! قال له : على أىِّ شىء يحسدونك ؟ قال : على الصَّلْب ! قال : وكيف ذاك ؟ قال أقبِل معى . فأقبل معه إلى جيرانه ، فقعد مُتحازِناً ؛ فقالوا : مالَك ! قال : طرق الليلةَ كتابُ معاوية أن أُصْلَبَ أنا ومالك بن المنذر ، ١٥ وفلان ، وفلان . فذكر رجالا من أشراف أهل البصرة ؛ فوثبوا عليه وقالوا : يا عدوّ الله ! أنت تُصْلَبُ مع هؤلاء ولا كرامة لك ! فالتفت إلى الرجل فقال : أما تراهم قد حسدونى على الصَّلْب ؟ فكيف لو كان خيراً .

لأبى عاصم النبيل

وقيل لأبى عاصم النبيل : إن يحيى بن سعيد يحسُدك وربما قَرَّضك . فأنشأ يقول :

٢٠ فلستَ بحَىٍّ ولا ميِّت * إذا لم تُعادَ ولم تُحسَدِ

---

(١) فى بعض الأصول : «ومعتبر» .

(٢) فى بعض الأصول : «النفوس» .

محاسدة الأقارب

من عمر إلى أبى موسى

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : مُرْ ذوى القَرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا .

لأكثم

وقال أكثم بن صيفى : تباعدوا فى الديار تقاربوا فى المودّة .

لبعضهم

وقالوا : أزهدُ الناس فى عالِمٍ أهلُه . ٥

فرج بن سلام قال : وقف أُمية بن أبى الأسكر على ابن عم له فقال :

نشدتُكَ بالبيتِ الذى طاف حوله * رجالٌ بنَوْهُ من لُؤىِّ بنِ غالبِ

فإنكَ قد جَرّبتَنى فوجَدْتَنِى * أُعِينُكَ فى الجُلَّى وأَكفِيكَ جانِبى

وإن دَبَّ من قومٍ إليكَ عداوةٌ * عقارِبُهم دَبّت إليهم عقارِبى

قال : نعم ، كذلك أنت . قال : فما بال مِنبرك لا يزال إلىّ دسيساً ؟ قال : ١٠ لا أعود ! قال : قد رضيتُ وعفا الله عما سلف .

ليحيى بن سعيد

وقال يحيى بن سعيد : من أراد أن يَبين عملهُ ويظهر عِلْمه ، فليجلس فى غير مجلس رهطه .

وقالوا : الأقارب هم العقارب .

لابن مصعب فى غلبته على البرامكة

وقيل لعطاء بن مُصعب : كيف غلبت على البرامكة وكان عندهم من هو آدب ١٥ منك ؟ قال : كنت بعيد الدار منهم ، غريب الاسم ، عظيم الكِبر ، صغير الجرم ، كثير الالتواء ، فقرّبنى إليهم تباعُدى منهم ، ورغّبهم فىّ رغبتى عنهم ، وليس للقرباء طَرافة الغرباء .

بين خالد بن صفوان ورجل

وقال رجل لخالد بن صفوان : إنى أُحبك . قال : وما يَمنعك من ذلك ولست لك بجارٍ ولا أخ ولا ابن عم ؟ يريد أنّ الحسد موكّل بالأدنى فالأدنى . ٢٠

الشيبانى قال : خرج أبو العباس أمير المؤمنين متنزّهاً بالأنبار ، فأمعن فى نزهته وانتبذ من أصحابه ، فوافى خِباءً لأعرابى ؛ فقال له الأعرابى : ممن الرجل ؟ قال : من كنانة . قال : من أىّ كنانة ؟ قال : من أبغض كنانة إلى كنانة . قال :

فأنت إذاً من قريش ؟ قال : نعم . قال : فمِن أىّ قريش ؟ قال : من أبغض قريش إلى قريش . قال : فأنت إذاً من ولد عبد المطلب ؟ قال : نعم . قال : فمن أىّ ولد عبد المطلب أنت ؟ قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب . قال : فأنت إذاً أمير المؤمنين ! السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

٥ فاستحسن ما رأى منه وأمر له بجائزة .

لذى الأصبع

وقال ذو الإصبع العدْوانى :

لىَ ابن عمٍ على ما كان من خُلُق * مُحاسِدٌ لىَ أَقليه ويَقلينى
أَزْرَى بنا أننا شالتْ نَعامتُنا * فخالَنى دونَه أو خِلْتُه دونى
يا عمرو إلا تَدع شتْمى ومَنقصتى * أضرِبْك حتى تقول الهامةُ اسْقونى
١٠ ماذا علىَّ وإن كنتم ذوِى رَحِمِى * ألَّا أُحِبَّكم إنْ لم تُحِبونى
لا أسألُ الناس عما فى ضمائرِهم * ما فى ضميرى لهم مِن ذاك يَكفينى

لبعض الشعراء

وقال آخر :

مَهلاً بنى عمِّنا ، مهلاً مَوالينا * لا تَنبُشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا[1] أنْ تُهينونا ونُكرمَكم * وأن نَكفَّ الأذى عنكم وتُؤْذونا
١٥ الله يَعلم أنّا لا نُحبُّكمُ * ولا نلومُكمُ إنْ لم تُحبُّونا

وقال آخر :

ولقد سَبَرْتُ الناس ثم خَبَرْتُهم * ووصفت ما وصفوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تُقرِّب قاطعاً * وإذا المودة أقربُ الأنساب

المشاكلة ومعرفة الرجل لصاحبه

٢٠ قالوا : أقرب القرابة المشاكلة . وقالوا : الصاحب المناسب .

لأبى

وقال حبيب :

وقلت أخى ، قالوا أخٌ من قرابة ؟ * فقلت لهم إنّ الشكول أقارب

---

(١) فى بعض الأصول : « لا تجمعوا » .

وقال أيضاً :

ذو الودِّ منى وذو القُرْبى بمنزلة * وإخوتى أُسوةٌ عندى وإخوانى
عصابةٌ جاورتْ آدابُهم أدبى * فهم وإن فُرِّقوا فى الأرض جيرانى

وقال أيضاً :

إنْ تفترق نسباً يُؤَلِّفْ بيننا * أدبٌ أقمناه مُقامَ الوالدِ
أو تختلف فالوصلُ منا ماؤُه * عذْبٌ تحدَّرَ من غَمام واحدِ

ولآخر — وقال آخر :

إنَّ النفوس لأجنادٌ مُجندةٌ * بالإذْن من ربِّنا تجرى وتختلف
فما تعارفَ منها فهْو مُؤْتلِفٌ * وما تناكَر منها فهْو مختلف

للنبى صلى الله عليه وسلم — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأنفس أجنادٌ مجندة، وإنها لتتشامُّ فى الهوى كما تتشامُّ الخيل ؛ فما تعارف منها آئتلف ، وما تناكر منها آختلف .

وقال صلى الله عليه وسلم : الصاحب رقعةٌ فى الثوب ، فلينظر الإنسان بِمَ يرقع ثوبه .

وقال عليه الصلاة السلام : آمتحنوا الناس بإخوانهم .

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

فاعتبروا الأرض بأشباهها[1] * واعتبروا الصاحبَ بالصاحِب

لبعضهم — وقالوا : كل إلف إلى إلفه ينزِع .

وقال الشاعر :

والإلفُ يَنزِعُ نحو الآلفين كما * طيرُ السماء على أُلَّافِها تقعُ

لامرئ القيس — قال امرؤ القيس :

أجارتَنا إنا غريبان هاهنا * وكلُّ غريبٍ للغريبِ نَسيبُ

---

(1) فى بعض الأصول : « بسكانها » .

لبعض الشعراء

وقال آخر :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم * ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي

وقال آخر :

٥ اصحب ذوي الفضل وأهل الدين * فالمرء منسوب إلى القرين

سليمان عليه السلام وحديث النسر والقصر

أيوب عن سليمان قال : حدثنا أبان بن عيسى عن أبيه عن ابن القاسم ، قال : بينما سليمان بن داود عليهما السلام تحمله الريح إذ مر بنسر واقع على قصر ، فقال له : كم لك مذ وقعت هاهنا ؟ قال : سبعمائة سنة . قال : فمن بنى هذا القصر ؟ قال : لا أدري ، هكذا وجدته . ثم نظر فإذا فيه كتاب منقور بأبيات من شعر ، وهي:[1]

١٠ خرجنا من قرى اصطخر * إلى القصر فقلناه

فمن يسأل عن القصر * فمبنيا وجدناه

فلا تصحب أخا السوء * وإياك وإياه

فكم من جاهل أردى * حكيما حين آخاه

يقاس المرء بالمرء * إذا ما المرء ما شاه

١٥ وفي الناس من الناس * مقاييس وأشباه

وفي العين غنى للعين أن تنطق أفواه

السعاية والبغي

قال الله تعالى ذكره : ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ .

وقال عز وجل : ﴿ ... ثم بغي عليه لينصرنه الله ﴾ .

٢٠ وقال الشاعر : فلا تسبق إلى أحد ببغي * فإن البغي مصرعه وخيم

العتابي

وقال العتابي: بغيت فلم تقع إلا صريعا * كذاك البغي يصرع كل باغ

(١) وردت بعض هذه الأبيات في ثلاثة مواضع من عيون الأخبار منسوبة لأبي العتاهية ، ولم نجدها في ديوانه .

المأمون يوصى بعض ولده

وقال المأمون يوماً لبعض ولده : إياك أن تصغى لاستماع قول السُّعاة ، فإنه ماسَعَى رجل برجل إلا انحط من قدره عندى ما لا يتلافاه أبدا .

ووقّع فى رُقعةِ ساعٍ : سننظرُ أصدَقْتَ أم كنتَ من الكاذبين .

ووقّع فى رقعة رجل سعَى إليه ببعض عماله : قد سمعنا ماذكره الله عز وجل فى كتابه ، فانصرِفْ رحِمك الله .

٥

فكان إذا ذُكر عنده السعاة قال : ما ظَنُّكم بقوم يلعنهم الله على الصدق .

بلال ورجل سعى إليه

وسعى رجل إلى بلال بن أبى بُردة ، فقال له : انصرف حتى أكشف عما ذكرتَ . ثم كشف عن ذلك فإذا هو لغير رِشْدة ؛ فقال : أنا أبو عمرو ، ماكذَبْت ولا كُذِبت .

١٠

النبى صلى الله عليه وسلم

حدّثنى أبى عن جدى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الساعى لغير رِشْدة [1] » .

عبدالملك ورجل سعى إليه

وسأل رجل عبد الملك الخَلوة ، فقال لأصحابه : إذا شئتم فقوموا . فلما تهيّأ الرجل للكلام قال له : إياك أن تمدحنى ؛ فأنا أعْلَمُ بنفسى منك ؛ أو تكذِبَنى ، فإنه لا رأىَ لكَذُوب ؛ أو تسعى إلىّ بأحد . وإن شئتَ أقلْتُك . قال : أقِلْنى .

١٥

ودخل رجل على الوليد بن عبد الملك ، وهو والى دمشق لأبيه ، فقال : للأمير عندى نصيحة . فقال : إن كانت لنا فاذكرها ، وإن كانت لغيرنا فلا حاجة لنا فيها . قال : جارٌ لى عصَى وفَرّ من بَعْثِه . قال : أما أنت فتُخبِر أنك جارُ سُوء ؛ فإن شئت أرسلْنا معك ، فإن كنت صادقاً أقصيناك ، وإن كنت كاذبا عاقبْناك ، وإن شئت تاركناك . قال : تارِكْنى .

٢٠

من سير العجم

وفى سِيَرِ العجم : أنّ رجلا وَشَى برجل إلى الإسكندر ، فقال : أتحب أن نقبل منه عليك ومنكَ عليه ؟ قال : لا . قال : فكفّ عن الشرّ يكفّ عنك الشر .

---

(١) لغير رشدة : لغير أبيه الذى ينسب إليه .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

إذا الواشي بَغَى[١] يوماً صديقاً ٭ فلا تَدَعِ الصَّديقَ لقولِ واشِ

لذي الرياستين

وقال ذو الرياستين : قبول النميمة شرٌّ من النميمة ؛ لأن النميمة دلالة والقبول إجازة ، وليس مَن دَلّ على شيء كَمَنْ قَبِله وأجازه .

للمأمون في السعاة

٥ ذُكِر السُّعاة عند المأمون فقال : لو لم يكن في عيبهم إلا أنهم أصدقَ مايكونون أبغَضُ مايكونون إلى الله تعالى لكفاهم .

مصعب بن الزبير والأحنف

وعاتب مصعب بن الزبير الأحنف في شيء ، فأنكره ، فقال : أخبرَني الثقة . قال : كلا ، إنّ الثقة لا يُبَلِّغ .

وقد جعل الله السامع شريك القائل فقال : ﴿ سَمَّاعونَ للكذِبِ

١٠ أَكّالونَ للسُّحْتِ ﴾ .

لبعضهم

وقيل : حَسْبُكَ من شَرٍّ سَمَاعُه .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

لَعَمْرُكَ ما سَبَّ الأميرَ عدُوُّه ٭ ولكنّما سَبَّ الأميرَ المُبلِّغُ

وقال آخر :

١٥ لا تَقبَلَنَّ نَميمةً بُلِّغتَها ٭ وتَحَفَّظَنَّ من الذي أنْباكَها

لا تنقُشَنّ برِجلِ غيرِكَ شوْكةً ٭ فتَقِي برِجْلِكَ رِجْلَ مَنْ قدشاكَها

إنّ الذي أنْباكَ عنه نَميمةً ٭ سيدبُّ عنك بمِثلِها قد حاكَها

لدعبل

وقال دِعبل :

وقد قطع الواشونَ ماكان بينَنا ٭ ونحن إلى أن يوصلَ الحبلُ أحوجُ

٢٠ رأوْا عوْرةً فاستقبَلوها بألْبهم ٭ فلم يَنهَهم حِلم ولم يتحرَّجوا

وكانوا أُناساً كنتُ آمَنُ غَيبَهم ٭ فراحوا على ما لا نُحبُّ فأدْلَجوا

---

(١) في عيون الأخبار « لحى » .

الغيبـــة

النبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : إذا قلت فى الرجل مافيه فقد اغْتَبْتَهُ ، وإذا قلتَ ما ليس فيه فقد بَهَتَّه .

ابن سيرين وقوم نالوا منه

ومرّ محمد بن سيرين بقوم ، فقام إليه رجل منهم فقال : أبا بكر ، إنا قد نلنا منك فحلِّلنا فقال : إنى لا أُحِلُّ ما حَرَّم الله عليك ، فأما ما كان إلىّ فهو لك . ٥

رقبة بن مصقلة وبعض جلسائه

وكان رقبة بن مَصْقلة جالساً مع أصحابه ، فذكروا رجلاً بشيء ، فاطلع ذلك الرجل ، فقال له بعض أصحابه : ألا أُخبره بما قلنا فيه لئلا تكون غيبة ؟ قال : أَخْبِره حتى تكون نميمة .

قتيبة بن مسلم ورجل مغتاب

اغتاب رجل رجلا عند قتيبة بن مُسلم ، فقال له قتيبة : أمسِك عليكَ أيها الرجل ، فوالله لقد تَلمَّظْت بمضغةٍ طالما لَفَظها الكِرام . ١٠

ابن سيرين ورجل حسب أنه اغتابه

محمد بن مُسلم الطائفى قال : جاء رجل إلى ابن سيرين فقال له : بلغنى أنك نِلتَ منى . قال : نفسى أعزُّ علىَّ من ذلك .

بين بكر بن محمد ورجل فى مثله

وقال رجلٌ لبكر بن محمد بن عِصْمة[1] . بلغنى أنك تقع فىّ ؛ قال أنت إذاً علىّ أكرمُ من نفسى .

ابن أبى وقاص ورجل اغتاب طلحة والزبير

ووقع رجل فى طلحة والزبير عند سعد بن أبى وقّاص ، فقال له : اسكت ، فإنّ الذى بيننا لم يَبْلُغ دينَنا . ١٥

شريف ورجل عاب عليه

وعاب رجل رجلا عند بعض الأشراف ، فقال له : قد استدللتُ على كثرة عُيوبك بما تُكثر من عيوب الناس ؛ لأنّ طالب العيوب إنما يطلبها بقدر مافيه منها .. أما سمعتَ قول الشاعر :

لا تَهْتِكَنْ مِنْ مَساوى النّاسِ ما سَتَرُوا * فيَهْتِكَ اللهُ سِتْراً مِنْ مَساوِيكا ٢٠

واذْكُر محاسِنَ ما فيهِمْ إذا ذُكِرُوا * ولا تعِبْ أحداً مِنْهُم بما فيكا

(١) فى عيون الأخبار : « علقمة » .

لبعض الشعراء

وقال آخر :

لا تَنْهَ عن خُلقٍ وتأتِيَ مِثلهُ ٭ عارٌ عليْكَ إذا فعلْتَ عظِيمُ

ابْدَأْ بنفْسِكَ فانْهَهَا عن غَيِّها ٭ فإذا انْتَهت عنْهُ فأنْتَ حكِيمُ

لابن السماك

وقال محمد بن السماك : تَجَنَّبْ القول فى أخيك لخَلَّتين : أمّا واحدة فلعلك تعيبه بشيء هو فيك ، وأما الأخرى فإن يكن الله عافاك مما ابتلاه كان شُكرك الله فيه على العافية تعييراً لأخيك على البلاء .

لبعض الحكماء

وقيل لبعض الحكماء : فلان يَعيبك ! قال : إنما يَقرض الدرهمَ الوازِن .

لبزرجمهر

وقيل لبزرجمهر : هل تعلم أحداً لا عيبَ فيه ؟ قال : إن الذى لا عيب فيه لا يموت .

لعمرو بن عبيد

وقيل لعمرو بن عُبيد : لقد وقع فيك أيوبُ السَّختيانى حتى رحمناك . قال : إياه فارحموا .

لابن عباس

وقال ابن عباس : اذكر أخاك إذا غاب عنك بما تُحب أن يَذكرك به ، ودَعْ منه ما تحب أن يَدَعَ منك .

النبي صلى الله عليه وسلم وابن الحضرمى

وقدم العلاء بن الحضرمىّ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له : هل تَروى من الشعر شيئا ؟ قال : نعم . قال : فأنشدْنى . فأنشده :

تَحَبَّبْ ذوِى الأضغَانِ تَسْبِ نفوسَهُمْ ٭ تَحَبُّبكَ القُرْبَى فقَدْ تُرقَعُ النَّعلْ

وإن دَحَسوا[1] بالكُرْهِ فاعفُ تكرُّماً ٭ وإن غيَّبُوا عنْكَ الحديثَ فلا تَسَلْ

فإنَّ الَّذِى يُؤذيك مِنه سماعُهُ ٭ وإن الَّذِى قالوا وراءك لم يُقَلْ

فقال النبي عليه السلام : إن من الشعر لحكمة .

للحسن البصرى

وقال الحسن البصرىّ : لا غيبة فى ثلاثة : فاسق مجاهر بالفسق ، وإمامٍ جائر وصاحبِ بِدْعة لم يَدع بدعته .

(١) فى بعض الأصول : « حسدوا » .

من الكسائى إلى الرقاشى

وكتب الكسائىّ إلى الرقاشىّ :

تركتَ المسْجدَ الجامِـ ٭ ـعَ والتَّركُ لهُ ريبَهْ
فلا نافِـــلَةً تقْضِى ٭ ولا تقْضِى لمكْتُوبَهْ
وأخبـــارُكَ تأتينَا ٭ على الأعْلَامِ منْصُوبَهْ
فإن زِدْتَ مِنَ الغيبـ ٭ ـةِ زِدْنَاكَ مِنَ الغِيبهْ ٥

مداراة أهل الشر

للنبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبى عليه الصلاة والسلام : شرُّ الناس من اتّقاه الناسُ لِشرّه .

وقال عليه الصلاة والسلام : إذا لقيتَ اللئيم فخالفه ، وإذا لقيتَ الكريمَ فخالطه .

لأبى الدرداء

وقال أبو الدَّرداء : إنا لنكشر فى وجوه قوم وإن قلوبَنا لتلْعَنُهُمْ . ١٠

لابن شيبة فى ابن صفوان

وسئل شبيب بن شيبة عن خالد بن صفوان ، فقال : ليس له صديق فى السرّ ولا عدو فى العلانية .

للأحنف

وقال الأحنف . رُبَّ رجُل لا تغيبُ فوائدُه وإن غاب ، وآخرَ لا يَسلم منه جليسُه وإن احترس .

لابن هراسة

وقال كثير بن هَرَاسة : إن من الناس ناساً ينْقصُونك إذا زِدْتَهم ، وتهُون عندهم إذا خاصصتَهم ، ليس لرضاهم موضع تعرفه ، ولا لسخطهم موضع تحذره . فإذا عرفت أولئك بأعيانهم فابذُل لهم موضع المودّة ، واحرمهم موضع الخاصة ، يكُن ما بذلتَ لهم من المودَّة حائلا دون شرِّهم ، وما حرَمْتهم من الخاصة قاطعا لحرمتهم . ١٥

للعتبى

وأنشد العتبى : ٢٠

لى صديقٌ يَرى حُقوقِى عليْهِ ٭ نافلَاتٍ وحقَّه الدَّهرَ فرْضا
لو قطعْتُ البـــلاد طولًا إليْهِ ٭ ثمّ مِنْ بعْدِ طولِها سِرْتُ عرْضا
لرَأى ما فعَلْتُ غيرَ كثِيرٍ ٭ واشْتهى أنْ يَزِيدَ فى الأرْضِ أرْضا

وفى هذه الطبقة من الناس يقول دِعْبِل الخُزاعى : لدعبل

اسْقِهِمُ السّمَّ إن ظَفِرْت بِهِمْ ۞ وامْزُجْ لهم مِن لسانِك العَسَلا

كتب سهل بن هارون إلى موسى بن عمران فى أبى الهذيل العلّاف . لسهل فى العلاف

إنّ الضمير إذا سألتُك حاجةً ۞ لأبى الهُذَيْلِ خلافُ ما أُبْدِى

٥ فألِنْ له كنفاً ليحسُن ظنُّه ۞ فى غـــير منفعة ولا رِفْد

حَتَّى إذا طالتْ شقاوةُ جدِّهِ ۞ وعَنـــاؤُه فاْجْبَهْــهُ بالرَّدِّ

وقال صالح بن عبد القُدوس : لابن عبد القدوس

تجنبْ صديقَ السُّوءِ واصْرِمْ حِباله ۞ وإن لم تجِـــدْ عنهُ مَحيصاً فدارِهِ

ومن يطلُبِ المعْروفَ مِن غيْرِ أَهْلِهِ ۞ يجِدْهُ وراءَ البحرِ أَوْفِى قرارِهِ

١٠ ولله فى عرْضِ السَّمٰواتِ جنَّة ۞ ولكنَّها مَحْفُـــوفَةٌ بالمَكارِهِ

وقال آخر : لبعض الشعراء

بلاءٌ ليسَ يُشْبِهُهُ بلاءٌ ۞ عداوَةُ غيْرِ ذى حسَب ودِينِ

يُبيحُك منه عرْضاً لم يصُنْهُ ۞ ليَرْتع منْكَ فى عِرْضٍ مصونِ

عُرِض على أبى مُسلم صاحب الدعوة فرسٌ جواد ، فقال لقُواده : لماذا يصلحُ مثل هذا الفرس ؟ قالوا : إنا نغزو عليه العدو . قال : لا ، ولكن يركبه الرجل فيهرب عليه من جار السّوء . أبو مسلم وأصحابه فى جواد ١٥

ذمّ الزمان

قالت الحكماء : جُبِل الناس على ذمِّ زمانهم وقلة الرضا عن أهل عصرهم . للحكماء

فمنه قولهم : رضا الناس غاية لا تدرك .

٢٠ وقولهم : لا سبيل إلى السلام من ألسنة العامة .

وقولهم : الناس يُعيِّرون ولا يغفرون ، والله يغفر ولا يُعيِّر .

وفى الحديث : « لو أن المؤمن كالقِدح لقال الناس ليس ولولا . . . ! » فى الأثر

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

مَن لابَس الناسَ لم يَسْلَمْ من الناسِ * وضَرَّسوه بأنيــابٍ وأضراسِ

لعائشة فى لبيد — هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت : رحم الله لَبيدا ، كان يقول :

ذهب الذين يُعاشُ فى أكنافِهم * وبَقِيتُ فى خَلَفٍ كجِلْدِ الأجربِ

فكيف لو أبصر زماننا هذا ؟ ٥

قال عروة : ونحن نقول : رحم الله عائشة ، فكيف لو أدركتْ زماننا هذا .

لبعضهم فى معنى ماسبق — وكان بعضهم يقول : ذهب الناس وبقى النسناس ، فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟

دخل مسلم بن يزيد بن وهب على عبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك : أىّ زمان أدركتَ أفضَل ، وأىّ الملوك أكمل ؟ قال : أما الملوك فلم أر إلا حامداً أو ذامًّا ، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواما ، وكلهم يَذُمُّ زمانَه ، لأنه يُبْلِى جديدَهم ، ويُفرِّق عديدَهم ، ويُهْرِمُ صغيرَهم ، ويُهلك كبيرَهم . ١٠

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

أَيا دهرُ إن كنتَ عاديْتَنا * فما قد صنَعتَ بنا ما كَفاكا

جعلتَ الشِّرارَ علينا خِياراً * ووَلَّيتنا بعدَ وجهٍ قَفاكا

وقال آخر : ١٥

إذا كان الزمانُ زمانَ تَيْمٍ * وعُكْلٍ فالسلامُ على الزمانِ

زمانٌ صار فيه الصدرُ عَجْزاً * وصار الزُّجُّ قُدّامَ السِّنانِ

لعــــل زمانَنا سيعودُ يوما * كما عاد الزمانُ على بِطانِ

أبو مياس وقوم يذكرون الزمان — أبو جعفر الشيبانى قال : أتانا يوماً أبو مَيّاس الشاعر ونحن فى جماعة فقال : ما أنتم فيه وما تتذاكرون ؟ قلنا : نذكر الزمان وفساده . قال : كلا ، إنما الزمان وِعاء ، وما أُلقِى فيه من خير أو شرّ كان على حاله . ثم أنشأ يقول : ٢٠

أرى حُلَلًا تُصانُ على أُناسٍ * وأخلاقاً تُداس[1] فما تُصانُ

---

(١) فى بعض الأصول : « تدال » .

يقولون الزمانُ بهِ فسادٌ * وهم فَسَدوا وما فسد الزمانُ

أنشد فرج بن سلّام : لفرج بن سلام

هذا الزمانُ الذى كنّا نُحذِّره * فيما يُحدِّثُ كعبٌ وابن مسعودِ

إنْ دامَ ذا الدهرُ لم نَحزَنْ على أحدٍ * يموتُ مِنّا ولم نفرحْ بمولودِ

٥ وقال حبيب الطائى : لحبيب

لمْ أبْكِ فى زمنٍ لم أرْضَ خلّتَهُ * إلا بكيتُ عليه حين ينصرمُ

وقال آخر فى طاهر بن الحسين : لطاهر بن الحسين

إذا كانت الدنيا تُنالُ بطاهرٍ * تجنّبْتُ منها كلَّ ما فيه طاهِرُ

وأعرضتُ عنها عِفّةً وتكرُّمًا * وأرجأْتُها حتى تدورَ الدوائرُ

١٠ وقال مؤمن بن سعيد فى معقل الضبىّ وابن أخيه عثمان : لابن سعيد فى معقل وابن أخيه

لقد ذَلّت الدنيا وقد ذَلّ أهلُها * وقد مَلّها أهلُ النّدَى والتفضُّلِ

إذا كانت الدنيا تميل [1] بخيرِها * إلى مثلِ عثمانَ ومثلِ المُحوَّلِ

ففى آستِ آمِّ دُنيانا وفى آستِ آمِّ خيرِها * وفى آستِ آمِّ عثمانٍ وفى آستِ آمِّ معقلِ

وقال محمد بن مُناذر : لابن مناذر

١٥ يا طالبَ الأشعارِ والنحوِ * هذا زمانٌ فاسدُ الحَشْوِ

نهارُه أوْحَشُ من ليلِهِ * ونَشْوُهُ من أخبثِ النَّشْوِ

فدَعْ طِلابَ النحوِ لا تَبْغِهِ * ولا تَقُلْ شِعراً ولا ترْوِ

فما يجوزُ اليومَ إلا امْرُؤٌ * مُستحكِمُ العزفِ أو الشَّدْوِ

أوْ طِرْمِذانٌ قولُهُ كاذِبٌ * لا يفعَلُ الخيرَ ولا يَنْوِ

٢٠ ومن قولنا فى هذا المعنى : لابن عبد ربه

رجاءٌ دون أقربِهِ السَّحابُ * ووعد مِثل ما لَمَعَ السَّرابُ

ودَهْرٌ سادتِ العُبْدانُ فيه * وعاثَتْ فى جوانِبِه الذِّئابُ

(١) فى بعض الأصول : « تجرد » .

وأيامٌ خلَتْ من كلِّ خيْرٍ * ودُنيا قد توَزَّعَها الكلابُ

كلابٌ لو سألتَهُم تُرابا * لقالوا: عندَنا انقَطع التُّرابُ

تُعاقب من أساء القوْلَ فيهم * وإن يُحسِن فليس له ثوابُ

الجاحظ فى ذم الزمان

كتب عمرو بن بحر الجاحظ إلى بعض إخوانه فى ذم الزمان:

٥ بسم الله الرحمن الرحيم. حَفظك الله حِفظ من وفّقه للقناعة، وآستعمله بالطاعة كتبتُ إليك وحالى حال من كثُفَت غُمومُه، وأشكلت عليه أمورُه، وآشتبه عليه حالُ دهرِه، ومَخْرَج أمرِه، وقلّ عنده مَن يثق بوفائه، أو يحمد مَغَبّةَ إخائه، لاستحالة زمانِنا، وفسادِ أيامنا، ودولة أنذالنا، وقِدْماً كان مَن قَدّم الحياء على نفسه، وحكّم الصدق فى قوله، وآثر الحقّ فى أموره، ونَبَذ المشتبهات عليه من

١٠ شُئونه. تمت له السلامة، وفاز بوفور حظّ العافية، وحَمِد مَغَبّة مكروهِ العاقبة، فنظرْنا إذ حال عندنا حُكمُه، وتحولت دولته. فوجدنا الحياء متصلا بالحرمان، والصدق آفةً على المال، والقَصْد فى الطلب بترك آستعمال القِحَة وإخلاقِ العِرض من طريق التوكل دليلاً على سَخافة الرأى؛ إذ صارت الحُظوة الباسقة والنِّعمة السابغة فى لؤم النية[١]، وتناول[٢] الرِّزق من جهة محاشاة الوقار[٣]، وملابسة

١٥ مَعَرّة العار.

ثم نظرنا فى تعقُّب المتعقِّب لقولنا، والكاشِر لحجتنا، فأقمنا له عَلَما واضحا، وشاهدا قائما، ومنارا بيِّنا؛ إذ وجدنا مَن فيه السّفوليّة الواضحة، والمثالب الفاضحة، والكذب المبَرّح، والخُلف المصرّح، والجهالة المُفرطة، والركاكة المُستخَفّة، وضعف اليقين والاستيثاب، وسرعة الغضب والخفة[٤]، قد استكمل سروره،

٢٠ واعتدلت أمورُه، وفاز بالسهم الأغلب، والحظّ الأوفر، والقدر الرفيع،

---

(١) فى بعض الأصول: «المشيئة».
(٢) فى بعض الأصول: «وسناء».
(٣) فى بعض الأصول: «الرخاء».
(٤) فى بعض الأصول: «الجرأة».

والجواب[١] الطائع ، والأمر النافذ ، إن زَلّ قيل حَكَمَ ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هَذَى فى كلامه وهو يقظان قيل رؤيا صادقة فى سِنَة[٢] مباركة .

فهذه حُجتنا ـ أبقاك الله ـ على من زَعَم أن الجهل يَخفِض ، وأن الحق يضع ، وأن النَّوْكَ يُرْدِى وأن الكذب يَضُر ، وأن الخُلف يُزْرِى .

٥ ثم نظرنا فى الوفاء والأمانة ، والنُّبل والبراعة[٣] وحُسْن المذهب ، وكمال المروءة ، وسعة الصدر ، وقلة الغضب ، وكرم الطبيعة ، والفائق فى سعة علمه ، والحاكم على نفسه ، والغالب لهواه ؛ فوجدنا فلان بن فلان ، ثم وجدنا الزمان لم يُنْصِفْه من حقّه ، ولا قام له بوظائف فرضه ؛ ووجدنا فضائله القائمة له قاعدة به . فهذا دليل على أن الطَّلاح أجدى من الصَّلاح ، وأن الفضل قد مضى زمانه ،

١٠ وعَفَت آثارُه ، وصارت الدائرة عليه كما كانت الدائرة على ضده ؛ ووجدنا العقل يَشقى به قرينُه ، كما أنّ الجهل والحُمْقَ يحظى به خدينُه ووجدنا الشعر ناطقا على الزمان ، ومُعْرِبا عن الأيام ، حيث يقول :

تَحامَقْ مع الحَمْقى إذا ما لقِيتَهم ٭ ولاقِهِمُ بالجهلِ فِعْلَ أخى الجهلِ

وخَلِّطْ إذا لاقَيْتَ يوماً مُخلِّطاً ٭ يُخلِّط فى قولٍ صحيحٍ وفى هَزْلِ

١٥ فإنى رأيتُ المرءَ يَشقى بعقله ٭ كما كان قبل اليوم يَسعَدُ بالعقلِ

فبقيتُ أبقاك الله مثل من أصبح على أوْفاز ، ومن النُّقلة على جَهاز ، لا تَسُوغُ له نَعْمَة ولا يُطعم عينيه غَمْضة ، فى أهاويل يُباكِره مكروهُها وتُراوحه عقابيلها فلو أن الدعاء أُجيبَ والتضرُّع سُمع ، لكانت الهَدّة العُظمى ، والرجفة الكبرى ؛ فليت الذى يا أخى ما أستَبْطِئُه من النفخة ، ومِن فَجْأة الصيْحة ، قُضىَ فحان ،

٢٠ وأذن به فكان ؛ فوالله ما عُذِّبَت أمةٌ برجفةٍ ولا ريح ولا سَخْطة ، عذابَ عَينى برؤية المُغايظة المضنية[٤] ، والأخبار المُهلكة ، كأن الزمان توكل بعذابى ،

(١) فى بعض الأصول : « الجواز » .
(٢) فى بعض الأصول : « من نسمة » .
(٣) فى بعض الأصول : « والبلاغة » .
٢٥ (٤) فى بعض الأصول : « المدنية » .

أو أنتصب لإيلامى[1] ؛ فما عيْشُ مَن لا يُسَرّ بأخ شقيق ، ولا خِدن شفيق ، ولا يَصْطبح فى أول نهاره إلا برؤية من تُكره رؤيتُه ، ونَغْمة من تَغُمّه طلعته فبدّل الله لى ـ أى أخى ـ بالمسكن مَسْكنا ، وبالربع رَبْعا ! فقد طالت الغُمة ، وواطنت الكربة ، وادْلهمّت الظُّلمة ، وخمد السراج ، وتباطأ الانفراج ، والسلام .

فساد الإخوان

٥

لأبى الدرداء

قال أبو الدرداء : كان الناس وَرَقا لا شوْكَ فيه ، فصاروا شوكا لا وَرَق فيه .

لعروة بن الزبير

وقيل لعُروة بن الزُّبير : ألا تنتقل إلى المدينة ؟ قال : مابقى بالمدينة إلا حاسدٌ على نعمة ، أو شامتٌ بمصيبة .

للرياشى

الخشنى[2] ، قال : أنشدنى الرياشى :

١٠

إذا ذهَب التّكرّمُ والوَفاءُ ٭ وباد رجاله وبقى الغُثاءُ

وأسلمَنى الزّمان إلى رجالٍ ٭ كأمثالِ الذِّئابِ لها عُواءُ

صديق كلما استَغْنيْتُ عنهم ٭ وأعداءٌ إذا جهدَ البلاءُ

إذا ما جئتُهم يتدافعونى ٭ كأنى أجربٌ آذاه[3] داءُ

أقول ولا أُلامُ على مَقالٍ ٭ على الإخوان كلّهم العَفاءُ

١٥

للحكماء

وقالت الحكماء : لا شىء أضيَعُ من مودة مَن لا وفاء له ، واصطناع مَن لا شُكر عنده . والكريم يَوَدُّ الكريم عن لُقيَة واحدة ، واللئيمُ لا يَصِل أحداً إلا عن رغبة أو رهبة .

للهند

وفى كتاب للهند : إن الرجل السّوء لا يتغير عن طبعه ، كما أن الشجرة المرّة لو طليتَها بالعسل لم تُثمر إلا مُرًّا .

٢٠

---

(١) فى بعض الأصول : « لأيامى » .

(٢) الخشنى : محمد بن عبد السلام وفى بعض الأصول : « الحسنى » وهى تحريف .

(٣) فى بعض الأصول : « أعداه » .

لأبي العتاهية

وسمع رجل أبا العتاهية يُنشد :

فارمِ بطَرْفِك حيث شئـــت فلا ترى إلا بخيلا

وقال أيضاً فى هذا المعنى :

للهِ دَرُّ أبيك أىّ زمانِ * أصبحت فيه وأىّ أهلِ زمانِ

٥ كلٌّ يُوازنك المودّةَ جاهداً * يُعطِي ويأخذ منك بالميزانِ

فإذا رأى رُجحان حبّةِ خَرْدلٍ * مالت مودّته إلى الرُّجحان

وقال :

أرَى قوْماً وُجوهُهُم حِسانٌ * إذا كانت حوائجُهُم إلينـا

وإنْ كانت حوائجُنا إليهم * يُقبِّح حُسْنُ أوْجُهِهِم علينا

١٠ فإن مَنَع الأشحّةُ ما لديهم * فإنا سوف نمنع ما لدَيْنـا

وقال :

مَوالِينا إذا احتاجوا إلينا * وليس لنا احتياجٌ للمَوالى

للبكرى

للبكرى :

وخليلٍ لم أخُنْه ساعةً * فى دمِي كَفّيْه ظلماً قد غَمَسَ

١٥ كان فى سرِّى وجَهْرى ثِقَتى * لستُ عنه فى مُهِمّ أحْترِسْ

سَتَر البُغْض بألفاظ الهوى * وادّعى الوُدَّ بغشٍّ ودَلَسْ

إن رآنى قال لى خيْراً وإن * غِبْت عنه قال شرًّا ودَحَسْ

ثم لمّا أمكنتْه فرْصةٌ * حَمَل السيفَ على مجْرى النَّفَس

وأراد الرُّوح لكن خانه * قدَرٌ أيقظ مَن كان نَعسْ

للعتبى

٢٠ وأنشد العتبي :

إذا كنت تَغضَبُ من غيْر ذنبٍ * وتَعْتِب مِن غيْر جُرْمٍ عَلَيّا

طَلَبْت رضاك فإن عزّنى * عدَدْتُك ميْتاً وإن كنت حيّا

فلا تَعْجبَنّ بمـا فى يديْك * فأكثر منه الذى فى يدَيّا

لابن أبى حازم — وقال ابن أبى حازم :

وصاحبٍ كان لى وكنتُ لهُ * أشْفق مِنْ والدٍ علَى ولدِ
كنَّا كَساقٍ تسْعَى بِها قدمٌ * أوْ كذِراعٍ نِيطَتْ إلى عضدِ
حَتَّى إذا دانتِ الحوادثُ منْ * عظمى وحلَّ الزَّمانُ مِنْ عُقَدى
آزْوَرَّ[1] عنِّى وكان ينظُرُ مِنْ * طرْفى ويَرْمى بساعِدِى ويدِى

وقال :

وخِلٍّ كان يَخفِضُ لى جَناحا * أفاد غِنًى [2] فنابَذنى جِماحَا
فقلتُ له ولى نفسٌ عزُوفٌ * إذا حَمِيَتْ تقحَّمَت الرِّماحا
سأُبدلُ بالمطامِعِ فيكَ يأساً * وباليأْسِ اسْتراح مَنِ اسْتراحَا

لعبد الله بن معاوية — وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر : ١٠

وأنتَ أخى مالم تكُن لى حاجة * فإنْ عرضَتْ أيْقنْتُ أن لا أخا ليا
فلا زادَ[3] ما بيْنى وبينَكَ بعدَما * بلَوْتُكَ فى الحاجاتِ إلّا تَمادِيَا
كِلانا غنِىٌّ عن أخيه حياتَهُ * ونحنُ إذا مِتْنا أشدُّ تغانيَا
وعينُ الرِّضا عن كلِّ عيْب كليلَةٌ * كما أنّ عيْنَ السُّخط تُبْدِى المساويا

البحترى — وقال البحترى : ١٥

أُشَرِّقُ أم أُغرِّبُ يا سَعيدُ * وأَنْقُصُ من ذِمامى[4] أوْ أَزيد
عدَتْنى عن نصيبِينَ العوادِى * فبَخْتِى أَبْلَهٌ فيها بليدُ
وخلَّفنى الزَّمانُ على رجال * وُجوهُهُمُ وأيديهِمْ حديدُ
لهُمْ حُلَلٌ حَسُنَّ فهُنَّ بيض * وأخْلاقٌ سَمُجْنَ فهُنَّ سُودُ

٢٠

(١) فى بعض الأصول : « احول » .
(٢) فى بعض الأصول : « فودعنى » .
(٣) فى بعض الأصول : « فلا زال » .
(٤) فى بعض الأصول : « رباعى » .

ألا ليْتَ المقادِرَ لم تُقدَّرْ * ولم تكُنِ العطايا والجدُودُ

وقال ابن أبى حازم : لابن أبى حازم

وقالوا : لو مَدَحتَ فتًى كريماً * فقُلتُ وكيفَ لى بفتًى كريمِ !

بلَوْتُ ومَرَّ بى خمسُونَ حوْلا * وحسْبُكَ بالمُجرِّبِ مِنْ عَليمِ

٥ فلا أحدٌ يُعَدُّ ليوْمِ خيْرٍ * ولا أحدٌ يعودُ على عديمِ

وقال :

قد بلوتُ الناسَ طُرًا * لم أجد فى الناسِ حُرّا

صار حلْوُ الناسِ فى العيْـن إذا ما ذِيقَ مُرّا

وقال :

١٠ من سَلَا عنِّىَ أطلقتُ حِبالى مِن حِبالِهْ

أو أجَدَّ الوصلَ سارَعْتُ بجهدى فى فِصالِهْ

إنما أحذُو على فِعْلِ صديقى بمِثالِهْ

غيرَ مُستخذ إذا ازْوَرَّ كأنى من عِيالِهْ

لن يرانى أبداً أُعْظِمُ ذا مالٍ لمالِهْ

١٥ لا ولا أزْرَى بمَنْ يَعقِلُ عندى سوءُ حالِهْ

إنما أقضى على ذا * ك وهذا بفَعالِهْ

كيفما صرَّفنى الدهرُ فإنى من رجالِهْ

ومن قولنا فى هذا المعنى : لابن عبد ربه

أبا صالحٍ جاءتْ على الناسِ غَفلةٌ * على غفلةٍ ماتت بكلِّ كريمِ

٢٠ فليتَ الأُلَى بانوا [1] يُفادَوْن بالأُلَى * أقاموا ، فيُفدَى ظاعِنٌ بمُقيمِ

ويا ليتَها الكبرى فتُطْوَى سماؤنا * لها وتُمَدُّ الأرضُ مَدَّ أديمِ

فما الموتُ إلا عيشُ كلِّ مُبَخَّلٍ * وما العيشُ إلا موتُ كلِّ ذَميمِ

---

(١) فى بعض الأصول «كانوا».

وأعذَرُ ما أدمَى الجفونَ من البُكا * كريمٌ رأى الدنيا بكفِّ لئيم

ومثله فى هذا المعنى :

أبا صالح ، أين الكرامُ بأسرهم * أفِدْنى كريماً فالكريمُ رضاء
أحقًّا يقول الناسُ فى جودِ حاتمٍ * وإبن سِنانٍ [1] كان فيه سَخاء
عَذِيرِىَ مِن خَلقٍ تَخَلَّقَ منهمُ * غبــاء ولؤمٌ فاضِحٌ وجَفاء ٥
حِجارةُ بُخْلٍ ما تَجودُ وربما * تفَجَّرَ من صُمِّ الحجارةِ ماء
ولو أنّ موسى جاء يضربُ بالعصا * لَمَا انبَجستْ من ضربِهِ البخلاء
بَقاء لئامِ الناسِ موتٌ عليهمُ * كما أنّ موتَ الأكرمين بَقاء
عزيزٌ عليهم أن تَجودَ أكُفُّهم * عليهم من الله العزيز عَفاء

ومثله قولنا فى هذا المعنى : ١٠

ساقٍ تَرَنَّحَ يشــدو فوقَه ساقُ * كأنه لِحَنينِ الصوتِ مُشتاقُ
ياضيعةَ الشِّعرِ فى بُلْهٍ جرامِقةٍ * تشابَهتْ منهم فى اللُّؤمِ أخلاقُ
غُلَّتْ بأعنــاقهم أيدٍ مقفَّعةٌ * لا بُورِكتْ منهمُ أيدٍ وأعناقُ
كأنما بينهم فى منع سائلهم * وحبس نائلهم عهــدٌ وميثاق
كم سُقتهم بأماديحى وقُدْتُهمُ * نحو المعالى فما انقادوا ولا انساقوا ١٥
وإن نَبــا بىَ فى ساحاتهم وطنٌ * فالأرض واسعةٌ والنــاس أفراق
ماكنتُ أولَ ظمآنٍ بِمَهْمَهَةٍ * يغرُّه من سراب القفر رقراق
رزقٌ من الله أرضاهم وأسخطنى * واللهُ للأَنْوَكِ المعتــوهِ رزّاق
يا قابض الكف لا زالت مُقَبَّضة * فما أناملها للنــاس أرزاق
وغِبْ إذا شئتَ حتى لا تُرى أبداً * فما لفقدك فى الأحشاء إقلاق ٢٠
ولا إليك سبيلُ الجود شارعةٌ * ولا عليك لنور المجد إشراق

(١) يعنى هرم بن سنان ، وقطع همزة الوصل للشعر ؛ وفى بعض الأصول : « وإن سنانا » .

لم يكتنفنى رجاءٌ لا ولا أمل * إلا تكنَّفَهُ ذُلٌ وإملاق

شعر لمؤمل ابن سعيد

وقال مؤمِّل بن سعيد فى هذا المعنى :

إنما أزرَى بقدرى أننى * لستُ من نابهِ أهل البلدِ

ليس منهم غير ذى مَقلِيَة * لذوى الألباب أو ذى حسد

٥ يتحامونَ لقائى مثلَ ما * يتحامونَ لقاء الأسد

طلعتى أثقل فى أعينهم * وعلى أنفسهم من أُحد

لو رأونى وَسْط بحرٍ لم يكن * أحدٌ يأخذُ منهم بيدى

باب فى الكبر[1]

النبى صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : يقول الله تبارك وتعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء

١٠ ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما قصمته وأهنته .

وقال عليه السلام : لا يدخل حضرة القدس متكبر .

وقال : فضل الإزار فى النار . معناه : من سحب ذيله فى الخيلاء قاده ذلك إلى النار .

ابن الأهتم وهو يخطر فى المسجد

ونظر الحسن إلى عبد الله بن الأهتم يخطِر في المسجد ، فقال : انظروا إلى هذا : ليس منه عضوٌ إلا ولله عليه نعمة وللشيطان فيه لعنة .

لابن أبى وقاص يوصى أبنه

١٥ وقال سعد بن أبي وقّاص لأبنه : يا بُنَيّ ، إياك والكِبْر ، وليكنْ فيما تستعين به على تركه عِلمُك بالذى منه كنت ، والذى إليه تَصير . وكيف الكِبْر مع النُّطفة التى منها خُلِقْت ، والرَّحم التى منها قُذِفت ، والغِذاء الذى به غُذِيت .

لابن حيان

وقال يحيى بن حيَّان : الشريفُ إذا تقوَّى تواضع ، والوضيع إذا تقوَّى تكبَّر .

لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء : كيف يَستقر الكِبر فيمن خُلق من تراب ، وطُوى على

٢٠ القَذَر ، وجرَى مجْرى البول !

للحسن

وقال الحسن : عجباً لابن آدم ، كيف يتكبَّر وفيه تِسعُ سُموم كلها يُقْذَر[2]

(١) عنوان هذا الباب فى بعض الأصول : « من قاده الكبر إلى النار »

(٢) فى بعض الأصول : « يؤذى » .

وذكر الحسنُ المتكبرين فقال: يُلْوِى أحدهم يَنُص رقبته نصا ، ينفُض مِذْرَوَيْه ، ويضرب أَصْدَرَيْه ، يَمْلَخ فى الباطن مَلْخا ، يقول : ها أنا ذا فاعرفونى ! قد عَرفناك يا أحمق ! مقَتك اللهُ ومقتك الصالحون .

ابن حصن بباب عمر

ووقف عُيينة بن حِصْن بباب عمر بن الخطَّاب رضى الله عنه ، فقال: آستأذنوا لى على أمير المؤمنين وقولوا: هذا ابنُ الأخيار بالباب . فأذِن له ؛ فلما دخل عليه قال له : ٥
أنتَ ابنُ الأخيار؟ قال: نعم . قال له: بل أنت آبن الأشرار ، وأما آبن الأخيار فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

لابن ظبيان

وقيل لعُبيد الله بن ظبيان : كثَّر اللهُ فى العشيرة أمثالك . فقال : لقد سألتم اللهَ شططا .

رجل من بنى عبد الدار

وقيل لرجل من عبد الدَّار عظيم الكِبْر : ألا تأتى الخليفة . قال : أخشى ١٠
ألَّا يحمل الجِسْرُ شرَفى .

وقيل له : ألا تَلْبَس ؟ فإنّ البرد شديد . قال : حَسَبى يُدْفِئُنى .

للحجاج فى أربعة

قيل للحجاج : كيف وجدتَ منزلك بالعراق أيها الأمير ؟ قال : خيرَ منزل ، لو أدركتُ بها أربعةَ نفرٍ لتقربت إلى الله سبحانه وتعالى بدمائهم . قيل له : ومَن هم ؟
قال : مُقاتل بن مِسمع ، ولى سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال ، فلما قَدِم البصرةَ ١٥
بسط له الناسُ أرديتَهم فمشى عليها . فقال : لمثل هذا فليعمل العاملون . وعُبيد الله بن ظَبيان ، خطب خطبة أوْجَز فيها ، فناداه الناسُ من أعراض المسجد : كثَّر اللهُ فينا أمثالك . قال : لقد كلَّفتم ربَّكم شططا . ومَعبد بن زُرارة ، كان ذات يوم جالساً على طريق ؛ فمرّت به آمرأةٌ فقالت : يا عبد الله ، أين الطريق لمكان كذا ؟ فقال : لمثلى يقالُ
يا عبد الله ؟ ويلك ! . وأبو السَّمَّاك الحنفى ، أَضلَّ ناقته فقال : والله لئن لم يَرْدُد علىَّ ناقتى ، ٢٠
لا صلَّيتُ أبدا .

وقال ناقل الحديث : ونسِىَ الحجاجُ نفسه وهو خامس هؤلاء الأربعة ، بل هو أشدُّهم كِبرا ، وأعظمهم إلحادا ، حين كتب إلى عبد الملك فى عطسة عطسها فشمَّته أصحابُه وردّ عليهم : بلغنى ما كان من عطاس أمير المؤمنين وتشميت أصحابه له وردِّه عليهم ،

فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما .

وكتابه إليه : إنّ خليفة الرجل فى أهله أكرم عليه من رسوله إليهم ، وكذلك الخلفاء يا أمير المؤمنين أعلى منزلةً من المرسلين .

العتبى
ومحرز الباهلى

العتُبى قال : رأيت مُحرزاً مولى باهلة يطوف على بغلة بين الصفا والمروة ، ثم رأيته بعد ذلك على جسر بغداد راجلا ، فقلت له : أراجلٌ أنت فى مثل هذا الموضع ؟ ٥
قال : نعم ، إنى ركبت فى موضع يمشى الناس فيه ، فكان حقيقاً على الله أن يُرْجِلَنى فى موضع يركب الناس فيه .

وصية بعض
الحكماء لولده

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بنى ، عليك بالترحيب والبشر ، وإياك والتقطيب والكبر ؛ فإن الأحرار أحب إليهم أن يُلْقَوْا بما يحبون ويحرَموا من أن يُلقوْا بما يكرهون ويُعطوْا ؛ فانظر إلى خصلة غطت على مثل اللؤم فالزمها ، وانظر إلى خصلة ١٠
عفّت على مثل الكرم فاجتنبها . ألم تسمع إلى قول حاتم الطائى :

أُضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ٭ ويُخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القِرى ٭ ولكنّما وجه الكريم خصيب

لمحمود الوراق
فى ذم التيه والبخل

وقال محمود الوراق :

التِّيه مَفْسدة للدين منقصة ٭ للعقل مجلبة للذم والسُّخط ١٥
مَنْعُ العطاء وبَسْطُ الوجه أحسنُ من ٭ بذل العطاء بوجه غير منبسط

وقال أيضا :

بِشْرُ البخيل يكاد يُصلح بخله ٭ والتِّيه مفْسدة لكل جواد
ونقيصة تبقى على أيامه ٭ ومَسَبَّة فى الأهل والأولاد

لبعض الشعراء

٢٠ وقال آخر فى الكبر :

مع الأرض يا ابن الأرض فى الطيران ٭ أتأمل أن ترقى إلى الدَّبَران
فوالله ما أبصرتُ يوما محلّقا ٭ ولو حلّ بين الجَدْى والسرطان
حَماهُ مكانُ البُعد من أن تناله ٭ بسهم من البلوى يدُ الحَدَثان

التسامح مع النعمة والتذلل مع المصيبة

لبعضهم

قالوا : من عزَّ بإقبال الدهر ذل بإدباره .

وقالوا : من أبطره الغنى أذلَّه الفقر .

وقالوا : مَن ولِيَ ولاية يرى نفسَه أكبرَ منها لم يتغيَّر لها ، ومن ولىَ ولايةً يرى ولايتَه أكبر من نفسِه تغيَّر لها .

٥

ليحيى بن حيان

وقال يحيى بن حيَّان : الشريف إذا تقوَّى تواضع والوضيعُ إذا تقوَّى تكبر

لكسرى

وقال كسرى : احذروا صولةَ الكريم إذا جاع ، واللئيمِ إذا شبع .

من ابن الجهم إلى ابن الزيات

وكتب على بن الجهم إلى ابن الزيات :

أبا جعفر عَرِّجْ على خُلطائكا * وأقصِرْ قليلا من مَدَى غُلَوائكا

فإن كنتَ قد أُوتيتَ فى اليومِ رِفْعَةً * فإنَّ رَجائِى فى غدٍ كرَجائكا

١٠

لابن زرارة الكلابى

وقال عبد العزيز بن زُرارة الكلابىّ :

لقد عجبتْ منه اللَّيالى لأنه * صَبورٌ على عَضْلاءِ تلك البلابِلِ

إذا نالَ لم يفرحْ وليس لِنَكْبَةٍ * ألَمَّت به بالخاشعِ المُتَضائِلِ

للحسن بن هانئ

وقال الحسن بن هانئ :

ولقد حزِنْتُ فلم أمُتْ حَزَنًا[1] * ولقد فرِحْتُ فلم أمُت فرحا

١٥

وكتب عَقيل بن أبى طالب إلى أخيه علىّ بن أبى طالب عليه السلام يسأله عن حاله ، فكتب إليه علىّ رضى الله عنه :

فإن تسألْنِى كيف أنتَ فإنَّنى * جَليدٌ على عضِّ الزَّمانِ صَليبُ

عزيزٌ علىَّ أن تَرَى بِى كآبةٌ * فيفرحَ واشٍ أو يُساءَ حبيبُ

(١) فى بعض الأصول : ترحا .

باب فى التواضع

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : من تواضع لله رفعه الله .

قالت الحكماء : كلُّ نعمة يُحسَد عليها إلا التواضع .

وقال عبد الملك بن مروان ، رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم : أفضلُ الرجال

٥ مَن تواضع عن رفعة ، وزَهِد عن قُدرة ، وأنصف عن قوّة .

لابن السماك

وقالِ ابن السماك لعيسى بن موسى : تواضُعُك فى شرفك أكبر من شرفك .

من تواضع النجاشى

وأصبح النّجاشى يوماً جالسا على الأرض والتاج عليه ، فأعظمتْ بطارقَتُهُ ذلك وسألوه عن السبب الذى أوجبه ؛ فقال : وجدتُ فيما أنزل اللهُ على المسيح: إذا أنعمتُ على عبدى نعمةً فتواضع أتممتها عليه . وإنه وُلد لى هذه الليلة غلامٌ

١٠ فتواضعتُ شكرا لله .

عمر وامرأة من قريش

خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ويده على المُعَلَّى بن الجارود العبدى ، فلقيته امرأةٌ من قريش فقالت له : يا عمر ، فوقف لها . فقالت : كنا نعرفك مدّةً عُمَيْرا ، ثم صرت من بعد عُمَيْرٍ عُمَرَ ، ثم صرتَ من بعدِ عمر أميرَ المؤمنين . فاتق الله يا بن الخطاب وانظر فى أمور الناس ؛ فإنه من خاف الوعيدَ قرب عليه

١٥ البعيد ، ومن خاف الموت خَشِى الفوْت . فقال المعلى : إيهاً يا أمة الله ! لقد أبكيتِ أمير المؤمنين . فقال له عمر : اسكت . أتدرى من هذه ويحك ؟ هذه خَوْلة بنت حكيم التى سمع الله قولها من سمائه ، فَعُمَر أحْرَى أن يسمع قولها ويقتدىَ به .

لأبى عباد

وقال أبو عبّاد : ما جلس إلىَّ رجل قط إلا خُيِّل إلىّ أنى سأجلس إليه .

للحسن

٢٠ وسئل الحسن عن التواضع فقال : هو أن تخرج من بيتك فلا تلْقَى أحداً إلا رأيت له الفضلَ عليك .

بين بكر بن عبد الله ورجل سأله أن يعلمه التواضع

وقال رجل لبكر بن عبد الله : علّمنى التواضع . فقال : إذا رأيت من هو أكبر منك فقل : سبقنى إلى الإسلام والعمل الصالح ، فهو خير منى ؛ وإن رأيت أصغر منك فقل : سبقتُه إلى الذنوب والعمل السيئ ، فأنا شرٌّ منه .

لأبى العتاهية — وقال أبو العتاهية :

يا مَنْ تشَرَّف بالدُّنيا وزينَتِها ٭ ليس التَّشرُّفُ رفْعَ الطّين بالطّين
إذا أردْتَ شريفَ النّاسِ كلِّهمُ ٭ فانظُرْ إلى مَلِكٍ فى زِيِّ مِسكين
ذاكَ الذى عظُمت فى الناس همته ٭ وذاك يصلح للدنيا وللدين

الرفق والأناة

٥

للنبى صلى الله عليه وسلم — قال النبي صلى الله عليه وسلم : من أُوتِيَ حظَّه من الرفق فقد أُوتى حظَّه من خير الدنيا والآخرة .

للحكماء — وقالت الحكماء : يُدرَك بالرفق ما لا يُدرَك بالعُنف ، ألا ترى أن الماء على لينه يقطع الحجر على شِدّته .

١٠

شعر أشجع لجعفر — وقال أشجع بن عمرو السلمى لجعفر بن يحيى بن خالد :

ما كان يُدرَك بالرجال ولا ٭ بالمال ما أدركت بالرفق

للنابغة — وقال النابغة :

الرِّفقُ يُمنٌ والأناةُ سعادةٌ ٭ فاستأنِ فى رِفقٍ تُلاقِ نَجاحا

وقالوا : العجَل بريد الزَّلل .

أخذ القطامى التغلبيّ هذا المعنى فقال :

١٥

قد يُدرِكُ المُتأَنِّى بعضَ حاجَتِه ٭ وقد يكونُ مع المُستعجِلِ الزَّلَلُ

لعدى بن زيد — وقال عدىّ بن زيد :

قد يُدرِكُ المُبطِئُ من حظِّه ٭ والخيْرُ قد يسبِقُ جُهدَ الحرِيص

استراحة الرجل بمكنون سره إلى صديقه

للعرب — تقول العرب : أفضيتُ إليكَ بشقورى ، وأطلعتُك على عُجَرى وبُجَرى ، ولو كان فى جسدى بَرَصٌ ما كتمتُه .

٢٠

وقال الله تبارك وتعالى : (لِكُلِّ نبإٍ مُستَقر) .

الحكماء

وقالت الحكماء : لكل سِرٍّ مُسْتَوْدَع .

وقالوا : مُكاتَمَةُ الأذنين صريحُ العُقوق .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

وأَبْثَثْتُ عَمْرًا بَعضَ ما فى جَوانِحِى ＊ وجرّعتُه من مُرِّ ما أتجرّعُ

٥ ولا بُدّ مِنْ شكوَى إلى ذى حفيظة ＊ إذا جعلت أسرارُ نفسٍ تطلَّعُ

لحبيب

وقال حبيب :

شكَوْتُ وما الشّكوَى لِمثْلِيَ عادَة ＊ ولكِنْ تفيضُ النفسُ عِنْدَ امتِلَائِها

لأبى الحسن البصرى

وأنشد أبو الحسن محمد البصرىّ (١) :

لَعِبَ الهوى بِمَعالِمِى ورُسومى ＊ ودُفِنتُ حيًّا تحتَ رَدْمِ هُمومى

١٠ وشكوت همى حين ضِقْتُ ومَن شَكا ＊ همًّا يَضيقُ به فغيرُ مَلومِ

وقال آخر :

إذا لم أطِقْ صبراً رجَعتُ إلى الشكوى ＊ وناديْتُ تحت الليلِ يأساً مع النجوَى

وأمطرتُ صَحْنَ الخدّ غيثاً من البُكا ＊ على كَبِدٍ حَرَّى لَتَرْوَى فما تَرْوَى

الاستدلال باللحظ على الضمير

١٥ قالت الحكماء : العين باب القلب ؛ فما كان فى القلب ظهر فى العين .

لعثمان بن إبراهيم

أبو حاتم عن الأصمعى عن يونس بن مصعب عن عثمان بن إبراهيم ابن محمد ، قال :

إنى لأعرف فى العين إذا عرَفتْ ، وأعرف فيها إذا أنكرتْ ، وأعرف فيها إذا لم تَعرف ولم تُنكِر ؛ أما إذا عرَفتْ فتَخْواصّ ، وأما إذا أنكرتْ فتَجْحَظ

٢٠ وأما إذا لم تعرف ولم تنكر فتسجو .

---

(١) فى بعض الأصول : « المصرى » .

لصريع الغوانى — وقال صريع الغوانى :

جعلْنا عــلاماتِ المَودّةِ بينَنا * مصايدَ لَحْظٍ هُنَّ أخفَى من السِّحْرِ

فأعرفُ فيها الوصلَ فى لِينِ طرفِها * وأعرِفُ فيها الهَجْرَ فى النَّظَرِ الشَّزْرِ

للوراق — وقال محمود الوراق :

إنّ العيونَ على القلوبِ شواهِدٌ * فبَغيضُها لك بَيِّنٌ وحَبيبُهـا

وإذا تلاحظتِ العيونُ تفاوضتْ * وتحدّثت عما تُجِنُّ قلوبُهـا

يَنطِقْن والأفواه صامتةٌ فمـا * يَخفَى عليك بَرِيئُها ومُرِيبُها

لابن أبى حازم — وقال ابن أبى حازم :

خُذْ من العيشِ ما كَفَى * ومن الدهــرِ ما صَفا

عيْنُ مَن لا يُحِبُّ وَصْــلَكَ تُبْـدى لكَ الجَفا

لابن عبد ربه — ومن قولنا فى هذا المعنى :

صادقٌ[1] فى الحبِّ مكذوبُ * دَمْعُه للشوقِ مسكوبُ

كلُّ ما تطوِى جوانِحُه * فهْو فى العينينِ مكتوبُ

للحسن بن هانئ — وقال الحسن بن هانئ :

وإنى لِطيْرِ[2] العينِ بالعـينِ زاجِرٌ * فقـد كِدْتُ لا يَخفَى علىَّ ضميرُ

الاستدلال بالضمير على الضمير

لحكيم — كتب حكيم إلى حكيم : إذا أردتَ معرفةَ مالَكَ عندى فضع يدَك على صدرك ، فكما تجدُنى كذلك أجدُك .

لبعضهم — وقالوا : إياكم ومن تُبغضه قلوبُكم ، فإن القلوب تُجازى القلوب .

لذى الإصبع — وقال ذو الإصبع :

لا أسأَلُ الناسَ عما فى ضمائرِهم * مافى ضميرى لهم مِن ذاكَ يكفينى

(١) فى بعض الأصول : « صاحب » .

(٢) فى بعض الأصول : « لطرف » .

قال محمود الوراق :

لا تسألَنَّ المرءَ عما عنـــدَه ۞ واسْتَمْلِ مافى قلبِه من قلبِكا
إن كان بُغضاً كان عندك مثلُهُ ۞ أو كان حُبًّا فاز منك بحبِّكا

الإصابة بالظن

٥ قيـل لعمرو بن العاص : ما العقل ؟ قال : الإصابةُ بالظنّ ، ومعرفةُ ما يكون بمـا قد كان . لابن

وقال عمر بن الخطاب : من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه . لابن ا

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لله درّ ابن عباس ، إن كان لينظر إلى الغيب من سِتْرٍ رقيق . لم

١٠ وقال الشاعر : لبعض ال

وقلّما يَفْجأُ المكرُوهُ صاحبه ۞ حتى يَرى لوجوهِ الشرِّ أسبابا

وإنما ركّب الله العقل فى الإنسـان دون سـائر الحيوان ليستدلّ بالظاهر على الباطن ويفهم الكثير بالقليل .

ومن قولنا فى هذا المعنى : لابن عبد

يا غافلا ما يَرى إلّا محاسنَه ۞ ولو درَى ما رأى إلّا مَساويه
أنظرْ إلى باطنِ الدُّنيا فظاهِرُها ۞ كلُّ البهائم يَجرى طرفُها فيه

تقديم القرابة وتفضيل المعارف

قال الشَّيبانى : أولُ من آثر القرابةَ والأولياء عثمان بن عفان رضى الله عنه . للشيبانى ذ

وقال : كان عمر يمنع أقاربه ابتغاء وجه الله . ولا يُرى أفضل من عمر .

وقال لمـا آوى طريدَ النبى صلى الله عليه وسلم : ما نقم الناس على أن وصَل رَحِماً وقرّب عمًّا .

وقيل لمعاوية بن أبى سفيان : إن آذِنَك يُقدِّم معارفه وأصدقاءه فى الإذن

على أشراف الناس ووجوههم . فقال ويلكم ، إن المعرفة لتنفع فى الكلب العقور والجمل الصّئول ؛ فكيف فى رجلٍ حَسيب ذى كرم ودين .

زياد ورجل يدل بمكانة منه

وقال رجل لزياد : أصلح الله الأمير ، إن هذا يُدِلّ بمكانة يدّعيها منك . قال : نعم ، وأخبرُك ما ينفعه من ذلك ، إن كان الحقُّ له عليك أخذتك به أخذاً شديداً ، وإن كان عليه قضيتُه عنه . ٥

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

أقول لجارى إذ أتانِى مُخاصِما * يُدِلُّ بحقٍ أو يُدِلُّ بباطِلِ

إذا لم يَصِلْ خيْرِى وأنت مُجاوِرى * إليك فما شَرِّى إليك بواصِلِ

لعبدالله القسرى حين ولى قضاء البصرة

العتبى قال : ولِىَ عبد الله بن خالد بن عبد الله القسرى قضاء البصرة ، فكان يحابِى أهلَ مودّته ، فقيل له : أىّ رجلٍ أنت لولا أنك تُحابِى . قال : وما خير الصديق إذا لم يقطع لصديقه قطعة من دينه . ١٠

ابن شبرمة فى قضاء البصرة

وولى ابن شُبْرُمة قضاء البصرة وهو كاره ، فأحسن السيرة ، فلما عُزل اجتمع إليه أهل خاصته ومودته ، فقال لهم : والله لقد وَليت هذه الولايةَ وأنا كاره ، وعُزلت عنها وأنا كاره ، وما بى فى ذلك إلا مخافةُ أن يلِىَ هذه الوجوه مَن لا يعرف حقها . ثم تمثّل بقول الشاعر : ١٥

فما السّجنُ أبكانِى ولا القيْدُ شَفّنى * ولا أنّنى مِن خشْيةِ الموْتِ أجزَعُ

بلى إنّ أقواماً أخافُ عليهم * إذا مِتُّ أن يُعطوا الذى كنتُ أمنعُ

للعامة

وتقول العامة : محبة السلطان أردُّ عليك من شهودك .

وقال الشاعر :

إذا كان الأمير عليك خَصْما * فليس بقابِلٍ منك الشُّهودا ٢٠

لزياد

وقال زياد : أُحِبُّ الوِلايةَ لثلاث ، وأكرهها لثلاث : أُحبُّها لنفع الأولياء ، وضرّ الأعداء ، واسترخاص الأشياء . وأكرهها لروعة البريد ، وخوف العزل[1] ، وشماتة العدو .

(١) فى بعض النسخ : « وموت العزل » .

للحكماء ويقول الحكماء : أحقُّ من شاركك فى النعمة شركاؤك فى المصيبة .

أخذه الشاعر فقال :

وإنّ أولى الموالى أنْ تواسيَه ٭ عند السُّرور لمنْ واساك فى الحَزَن

إنّ الكِرام إذا ما أسهلوا ذكروا ٭ من كان يألفُهم فى المنزلِ الخشِنِ

٥ لحبيب وقال حبيب :

قَبّح الإلهُ عداوةً لا تُتّقى ٭ ومودّةً يُدْلَى بها لا تنفَعُ

فضل العشيرة

لعلى قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : عشيرة الرُّجل خيرٌ للرجل من الرجل للعشيرة ، إنْ كَفّ عنهم يدا واحدة كَفُّوا عنه أيدياً كثيرة ، مع مودتهم وحِفاظهم ١٠ ونصرتهم ، إن الرجل ليغضب للرجل لا يعرفه إلا بنسبه . وسأتلو عليكم فى ذلك آيات من كتاب الله تعالى ؛ قال الله عز وجل فيما حكاه عن لوط : ﴿ لو أنّ لى بكم قُوَّةً أو آوِى إلى رُكْن شديد ﴾ يعنى العشيرة ، ولم يكن لِلُوط عشيرة ، فوالذى نفسى بيده ما بَعَث الله نبيا من بعده إلا فى ثروةٍ من قومه ، ومَنَعةٍ من عشيرته . ثم ذكر شُعيبا إذ قال له قومه : ﴿ إنّا لنَراكَ فِينا ضَعِيفاً ولوْلا رَهْطُك ١٥ لَرَجَمْناكَ ﴾ وكان مكفوفا ، والله ماهابوا إلا عشيرته .

لبزرجمهر وقيل لبزرجمهر : ما تقول فى ابن العم ؟ قال : هو عدُوُّك وعدُوّ عدوّك .

الدَّين

للنبى صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الدَّيْنُ يَنقص ذا الحسَب .

٢٠ لعمر وقال عمر ألا إن الأسيفعَ [١] أسيفعَ جهينة رضى من دِينه وأمانته أن يقال سبق الحاج . ألا وإنه قد أدّان معرضا ، وأصبح قد رِين به ، فمن كان له عنده

(١) الأسيفع : رجل من جهينة كان يشترى الرواحل فيغالى بها ثم يسرع فيسبق الحاج فأفلس ، فرفع أمره إلى عمر .

شىء فليأتنا بالغداة نقسم ماله بين غرمائه ، ثم إياكم والدَّيْن ، فإن أوله هَمٌّ وآخرَه حُزن .

لمولى قضاعة — وقال مولى قُضاعة :

فلو كنتَ مَوْلى قيْس عَيْلان لم تجد * علىّ لإنسانٍ من الناس درهما
ولكننى مَوْلى قضاعة كلِّها * فلستُ أُبالى أن أدِين وتَغْرَما

٥

لبعض الشعراء — وقال آخر :

إذا ما قَضَيْت الديْن بالديْن لم يكن * قضاءً ولكن كان غُرْماً على غُرْمِ

لسفيان — وقال سفيان الثورى : الدَّيْنُ هَمٌّ بالليل وذُلٌّ بالنهار ، فإذا أراد الله أن يُذل عبدا جعله قلادةً فى عُنقه .

لابن الخطاب — ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا متقنّعا ، فقال له : كان لقمان الحكيم يقول : القناع رِيبة بالليل ذلٌّ بالنهار . فقال الرجل لقمان الحكيم لم يكن عليه دين .

١٠

للمقنع الكندى — وقال المقنّع الكندى :

يُعاتِبُنى فى الدَّيْن[1] قوْمى وإنما * تَدايَنْت فى أشياءَ تُكسِبُهُم حَمْدا
إذا أكلوا لحمى وفَرْتُ لحومَهُم * وإن هَدَموا مجدى بَنَيْتُ لهم مَجدا

١٥

مجانبة الخلف والكذب

للنبى صلى الله عليه وسلم — قال النبى صلى الله عليه وسلم : الكذبُ مُجانِبُ الإيمان .

وقالت الحكماء : ليس لكذّاب مروءة .

وقالوا : من عُرِف بالكذب لم يجُزْ صِدْقه .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا يجوز الكذب فى جدٍّ ولا هزل .

٢٠

وقال : لا يكون المؤمن كذابا .

وقال عبد الله بن عمر : خُلف الوعد ثلثُ النفاق .

(١) فى بعض الأصول « يعيبوننى فى الدين قومى » .

لحبيب فى عياش

وقال حبيب الطائى فى عياش :

يا أكثرَ الناس وعداً حَشْوُهُ خُلْفٌ * وأكثرَ الناس قولاً حَشْوُهُ كذِبُ

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

صحيفةٌ أُفنِيَت ليتٌ بهــا وعَسى * عُنوانها راحةُ الرّاجى إذا يَئسا

وعْدٌ له هاجسٌ فى القلبِ قد بَرِمَت * أحشاءُ صَدْرى به من طولِ ما احتبَسا

مَواعِـــدٌ غَرّنِى منها وميضُ سَنًا * حتى مَدَدْتُ إليها الكَفَّ مُقتبسا

فصادمتْ حجراً لو كنتَ تضرِبُهُ * من لؤمِهِ بعَصا موسى لما انْبَجَسا

كأنما صِيغَ من بُخْلٍ ومن كذبٍ * فكان ذاك له رُوحاً وذا نفَسا

التنزه عن استماع الخنا والقول به

اعلم أنّ السامع شريك القائل فى الشر ؛ قال الله : ﴿ سمّاعون للكذِب ﴾ .

عمرو بن عتبة والقصير فى رجل يشتم رجلا

وقال العتبى : حدثنى أبى عن سعد القصير [1] قال : نظر إلىّ عمرو بن عتبة ورجل يشتم رجلا بين يدى ؛ فقال لى : ويلك ! ـ وما قال لى « ويلك » قبلها ـ نَزِّهْ سَمْعَكَ عن استماع الخنا كما تُنَزِّهُ لسانك عن الكلام به ؛ فإن السامع شريك القائل ، وإنه عمد إلى شرّ ما فى وعائه فأفرغه فى وعائك ؛ ولو رُدّت كلمة جاهلٍ فى فيه لَسَعِدَ رادُّها كما شقِى قائلُها .

باب فى الغلوّ فى الدين

لابن ذر فى رجل مذنب

تُوُفِّى رجل فى عهد عمر بن ذَرّ ممن أسرف على نفسه فى الذنوب ، وجاوز فى الطُّغيان ، فتجافى [2] الناس عن جِنازته ، فحضرها عمر بن ذرّ وصلَّى عليه ، فلما أُدْلِى فى قبره قال : يرحمك الله أبا فلان ، صحبتَ عُمرك بالتوحيد ، وعفرت وجهك لله بالسجود ، فإن قالوا مذنب وذو خطايا ، فمن مِنا غيرُ مذنب وذى خطايا .

(١) فى الكامل : « القصر » . وفى بعض الأصول ونهاية الأرب : سعيد القصرى

(٢) فى بعض الأصول : فتحامى .

للنبي صلى الله عليه وسلم

ومن حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسَلين ، فقال : ﴿ يأَيُّها الرُّسُلُ كلوا من الطيباتِ واعملوا صالحًا﴾ وقال : ﴿يأَيُّها الذين آمنوا كلوا من طيباتِ مارزقناكم﴾ ثم ذَكَرَ الرجل يُرى أشعثَ أغبرَ يَمُد يديه إلى السماء يقول : ياربِّ ياربِّ ، ومطعمُه حرام ومشربُه حرام وملبسه حرام ؛ فأنى يُستجابُ له ؟ ٥

قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنّ الله بعثنى بالحنيفية السمحة ولم يبعثنى بالرَّهبانية المبتدَعة ، سُنّتى الصلاة والنوم ، والإفطار والصوم ؛ فمن رَغِب عن سُنّتى فليس منى .

وقال صلى الله عليه وسلم : إنّ هذا الدِّينَ متينٌ فأوْغِلْ فيه برفق ؛ فإنّ المُنبتَّ لا أرضاً قطَعَ ولا ظهراً أبْقى . ١٠

لعلى

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : خير هذه الأمة هنا النَّمَط الأوسط ، يَرْجع إليهم الغالى ويلحقُ بهم التالى .

لمطرف ينصح ابنه

وقال مُطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير لابنه ، وكان قد تعبّد : يا بُنىَّ ، إنّ الحسنة بين السيئتين ـ يعنى الدين : بين الإفراط والتقصير ـ وخيرُ الأمور أوسطها ، وشر السَّيْر الحَقْحَقة . ١٥

لسلمان الفارسى

وقال سلمان الفارسى : القصد والدَّوام ، وأنت الجوادُ السابق .

وقالوا : عامِلُ البِرِّ كآكِلِ الطعام : إن أكل منه قوتاً عَصَمَه ، وإن أسرف منه أبْشَمَه .

عن عيسى عليه السلام

وفى بعض الحديث : أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام لقى رجلا ، فقال له : ما تصنع ؟ قال : أتعبّد . قال : فمن يعود عليك ؟ قال : أخى . قال : هو أعبدُ منك . ٢٠

ونظير هذا أنّ رُفْقةً من الأشعرِيِّين كانوا فى سَفر ، فلما قدموا قالوا : ما رأينا يارسول الله بَعدَك أفضل من فلان ؛ كان يصوم النهار ، فإذا نزلنا قام

من الليل حتى نرتحل . قال : فمن كان يَمْهَنُ له ويَكفُلُه ؟ قالوا : كلنا . قال : كلكم أفضلُ منه .

الزهرى

وقيل للزهرى : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : إنه ماهو بتشعيث اللِّمّة ، ولا قَشَفِ الهيئة ، ولكنه ظَلَفُ النفس عن الشهوة .

محمد بن الحنفية

٥ علىّ بن عاصم عن أبى إسحاق عن الشيبانى قال : رأيت محمد بن الحنفية واقفاً بعرفات على بِرْذَوْن وعليه مُطْرفُ خَزّ أصفر .

ابن عباس

السُّدِّىّ عن ابن جُريج عن عثمان بن أبى سليمان أنّ ابن عباس كان يرتدى رداء بألف .

رسول الله صلى الله عليه وسلم

إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه ١٠ وسلم عليه ثوبان مصبوغان بالزعفران : رداءٌ وعمامة .

أيوب السختيانى

وقال معمر : رأيت قميص أيوب السختيانى يكاد يَمسُّ الأرض ، فسألته عن ذلك ، فقال : إن الشُّهرة كانت فيما مضى فى تذييل القميص وإنها اليوم فى تشميره .

برنس ابن سيرين

أبو حاتم عن الأصمعى : أن ابن عون اشترى بُرْنُسًا ، فمرّ على مُعاذة ١٥ العدَوِيّة ، فقالت : مِثْلُكَ يلْبُس هذا ؟ فذكرتُ ذلك لابن سيرين ، فقال : أفلا أخبرتَها أن تميما الدّارِىّ اشترى حُلّةً بألف يُصلّى فيها !

حماد وفرقد

قدم حمّاد بن سلمة البصرة ، فجاءه فرْقَدٌ السَّبَخِىُّ وعليه ثيابُ صوف ، فقال له حماد : دعْ عنكَ نصرانيّتَكَ هذه ! فقال له : لقد رأيتُنا ننظر إبراهيمَ فيخرج إلينا وعليه مُعَصْفَرة ، ونحن نرى أن المَيْتَة قد حلّت له .

قتيبة بن مسلم وابن واسع

٢٠ أبو الحسن المدائنى قال : دخل محمد بن واسع على قُتيبة بن مسلم والى خُراسان فى مِدْرعَةِ صوف ، فقال له : ما يَدْعُوك إلى لباس هذه ؟ فسكت ؛ فقال له قتيبة: أُكلِّمُك فلا تُجيبنى ؟ قال : أكرهُ أن أقول زُهْداً فأزكِّىَ نفسى ، أو أقول فقراً فأشكو ربى ؛ فما جوابك إلا السكوت .

لابن السماك

قال ابن السماك لأصحاب الصوف : والله لئن كان لباسكم وفْقاً لسرائركم لقد

أحببتم أن يطّلع الناس عليها ، وإن كان مخالفا لقد هلكتم .

القاسم وسالم

وكان القاسم بن محمد يلبس الخزّ وسالمُ بن عبد الله يلبس الصوف ويقعدان فى مسجد المدينة ؛ فلا يُنكر هذا على هذا ولا ذا على هذا .

ابن المنكدر

ودخل رجل على محمد بن المُنكدر فوجده قاعدا على حشايا مُضاعفة وجارية تغلّفه بالغالية ؛ فقال : رحمك الله ! جئت أسألك عن شىء وجدتك فيه - يريد التزيّن - قال : على هذا أدركتُ الناس .

٥

الأعمش وإمام

وصلى الأعمش فى مسجد قوم فأطال بهم الإمام ، فلما فرغ قال له : يا هذا ، لا تُطِل صلاتك ؛ فإنه يكون خلفك ذو الحاجة والكبير والضعيف . قال الإمام : وإنها لكبيرةٌ إلا على الخاشعين . فقال له الأعمش : أنا رسولُ الخاشعين إليك ، إنهم لا يحتاجون إلى هذا منك .

١٠

الربيع بن زياد وعلى فى عاصم

العتبى قال : أصابت الربيع بن زياد نُشّابة فى جبينه ، فكانت تنتقض عليه كل عام . فأتاه علىّ بن أبى طالب عائدا ، فقال : كيف تجدُك يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : أجدنى لو كان لا يَذْهَبُ ما بى إلا بذهاب بصرى لتمنيت ذهابه . قال : وما قيمة بصرك عندك ؟ قال : لو كانت لى الدنيا فديتُه بها . قال : لا جَرَم ، يُعطيك الله على قدر الدنيا ، لو كانت لكَ لأنفقتَها فى سبيل الله . إن الله يُعطى على قدر الألم والمصيبة ، وعنده بعدُ تضعيفٌ كثير .

١٥

قال له الربيع : يا أمير المؤمنين ، إنى لأشكو إليك عاصم بن زياد . قال : وماله ؟ قال : لبس العَباء ، وترك المُلاء ، وغمّ أهلَه ، وأحزن ولدَه . قال : علىّ عاصما . فلما أتاه ، عبَس فى وجهه ، وقال : ويلك يا عاصم ! أترى الله أباح لك اللذاتِ وهو يكره منك أخذك منها ؟ أنت أهونُ على الله من ذلك . أو ما سمعتهُ يقول : ﴿ مَرَجَ البَحْرَيْنِ يلتقِيانِ . بيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يبغِيانِ ﴾ حتى قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ والمَرْجانُ ﴾ . وتالله لَابتِذالُ نعم الله بالفِعال أحبُّ إلىّ من ابتذالها بالمقال ، وقد سمعتُه يقول : ﴿ وأمّا بِنِعْمَةِ ربِّك فحَدِّثْ ﴾ وقولَه : ﴿ قلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ التى أخْرَجَ لِعِبادِهِ والطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ .

٢٠

قال عاصم : فعـلامَ اقتصرتَ أنت يا أمير المؤمنين على لُبْس الخشن وأكْلِ الحشف ؟

قال : إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام ، لئلا يَشْنَعَ بالفقير فقره .

٥ قال : فما خرج حتى لبس المُلاء وترك العَباء .

النبي صلى الله عليه وسلم وعبد الله ابن عمرو وقد شكته زوجه

محمد بن حاطب الجُمحى قال : حدثنى من سمع عمرو بن شعيب ، وكنتُ سمعتُه أنا وأبى جميعا ، قال : حدثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن عبد الله بن مسعود ، قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أم عبد الله بن عَمْرو ابن العاص ، وكانت امرأته تَلْطِفُ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ١٠ كيف أنتِ يا أم عبد الله ؟ قالت : كيف أكون وعبدُالله بن عمرو رجلٌ قد تخلّى من الدنيا ! قال لها . كيف ذاك ؟ قالت : حرَم النوم فلا ينام ، ولا يفطر ، ولا يطْعَمُ اللحم ، ولا يؤدّى إلى أهله حقَّهم . قال : فأين هو ؟ قالت : خَرَج ويُوشك أن يَرْجع الساعة . قال : فإذا رجع فاحبسيه علىّ . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء عبد الله وأوشك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ١٥ الرَّجعة ، فقال : يا عبد الله بن عمرو ، ما هـذا الذى بلغنى عنك أنك لا تنام . قال : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : بلغنى أنك لا تنام ولا تفطر . قال : أردتُ بذلك الأمنَ من الفزَع الأكبر . قال : وبلغنى أنك لا تطعم اللحم . قال : أردت بذلك ما هو خيرٌ منه فى الجنة ! قال : وبلغنى أنك لا تؤدّى إلى أهلك حقَّهم . قال : أردتُ بذلك نساءً هُنّ خيرٌ منهن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبدالله ٢٠ ابن عمرو ، إن لك فى رسول الله أسوة حسنة : فرسول الله يصومُ ويُفطر ، ويأكل اللحم ، ويؤدّى إلى أهله حقوقهم . يا عبد الله بن عمرو ، إن لله عليك حقا ، وإن لبدنك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا . فقال : يا رسول الله ، ما تأمرنى أن أصوم ؟ خمسة أيام وأفطر يوماً ؟ قال : لا . قال : فأصوم أربعة وأفطر يوماً ؟ قال : لا . قال : فأصوم ثلاثة وأفطر يوما ؟ قال : لا . قال :

فيومين وأفطر يوما ؟ قال : لا . قال : فيوما ؟

قال : ذاك صيام أخى داود . يا عبد الله بن عمرو ؛ كيف بك إذا بقيت فى حُثالة من الناس قد مَرِجَتْ عهودُهم ومواثيقهم فكانوا هكذا ؟ وخالف بين أصابعه . قال : فما تأمرنى به يا رسول الله ؟ قال : تأخذ ما تعرفُ وتَدَع ما تنكر، وتعمل بخاصة نفسك ، وتدع الناس وعوام أمرِهم . قال : ثم أخذ بيده وجعل يمشى به حتى وضع يده فى يد أبيه ، وقال له : أطِعْ أباك . ٥

فلما كان يوم صِفّين قال له أبوه عمرو بن العاص : يا عبد الله ، اخرُجْ فقاتل . فقال : يا أبتاه ، أتأمرنى أن أخرج فأقاتل وقد سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعتُ وعهِدَ إلىّ ما عهد ؟ قال : أنشدك الله ، ألم يكنْ آخر ما قال لك أن أخذ بيدك فوضعها فى يدى وقال : أطع أباك ؟ قال : ١٠ اللهم بلى . قال : فإنى أعزم عليك فلتخرج فتقاتل ، قال : فخرج فقاتل متقلّدا بسيفين .

القول فى القدَر

محمد بن المنكدر — أتى قوم من أهل القدر محمدَ بن المنكدر ، فقالوا له : أنت الذى تقول إن الله يعذّب الخلق على ما قَدّرَ عليهم ؟ فصرف وجهه عنهم ولم يُجبهم ، ١٥ فقالوا له : أصلحك الله ! إن كنتَ لا تُجيبنا فلا تُخلِنا من بركة دعائك ، فقال : اللهم لا تُردْنا بعقوبتك ، ولا تمكرْ بنا فى حيلتك ، ولا تؤاخذنا بتقصيرنا عن رضاك ، قليل أعمالنا تقبّل ، وعظيمَ خطايانا تَغفِر ، أنت الله الذى لم يكن شىءٌ قبلك ، ولا يكون شىء بَعدك ، ولىّ الأشياء ، ترفع بالهدى من تشاء ، لا مَن أحسَنَ استغنى عن عَونك ، ولا مَن أساء غَلَبك ، ولا استبدّ شىء عن حكومتك ٢٠ وقدرتك ، لاملجأ إلا إليك ؛ فكيف لنا بالمغفرة وليست إلا فى يديك ؟ وكيف لنا بالرحمة وليست إلا عندك ؟ حفيظ لا يَنسى ، وقديمٌ لا يَبلَى ، حىٌّ لا يموت ؛ بك عَرَفناك ، وبك اهتدينا إليك ، ولولا أنت لم نَدْرِ ما أنت ، سبحانك وتعاليت .

فقال القوم : قد والله أخبر وما قصّر .

الحسن البصري

وقال : ذُكر القَدرُ فى مجلس الحسن البصرى ، فقال : إنّ الله خلق الخلق للابتلاء ، لم يُطيعوه بإكراه ، ولم يعصوه بغَلَبة ، لم يهملهم من الملك ، وهو القادر على ما أقدَرَهم عليه ، والمالكُ لما مَلَّكهم إياه ، فإن يأتمر العبادُ بطاعة الله لم يكن مثبّطا لهم . بل يزيدهم هُدى إلى هداهم ، وتقوى إلى تقواهم ؛ وإن يأتمروا بمَعصية الله كان الله قادراً على صَرفهم إن شاء ، وإن خَلَّى [1] بينهم وبين المعصيه فمن بعد إعذار وإنذار .

غيلان وربيعة

مروان بن موسى قال : حدثنا أبو ضَمْرة أنّ غَيلان قَدِم بكلمة قد صاغها حتى وقف على ربيعة ، فقال له : أنت الذى تزعُم أنّ الله أحبّ أن يُعصَى ؟ فقال له ربيعة : أنت الذى تزعم أن الله يُعصَى كَرْها ؟ فكأنما أَلقَمَه حَجرا .

طاووس وقتادة

قيل لطاووس : هذا قَتادة يُحب أن يأتيك . فقال : إن جاء لأقومن . قيل له : إنه فقيه . قال : إبليس أفقه منه . قال : ﴿ رَبِّ بما أَغْوَيتَنى ﴾ .

للشعبي فى قتادة

وقيل للشعبي : رأيت قتادة ؟ قال : نعم . رأيت كُناسة بين حَشَّيْن .

القَدَر هو العلم والكتاب والكلمة والإذْن والمشيئة .

لأعرابي فى القدر

قال الأصمعى : سألت أعرابيا فقلت له : ما فضل بنى فلان على بنى فلان ؟ قال : الكتاب ، يعنى القدَر .

وقال الله عز وجل : ﴿ إنَّا كلَّ شىْءٍ خَلَقْناهُ بقَدَر ﴾ . وقال : ﴿ كلٌّ فى كِتابٍ مُبين ﴾ . وقال : ﴿ ولقدْ سَبقَتْ كَلِمَتُنا لعِبادِنا المُرْسَلين ﴾ . يعنى القدر ، وقال : ﴿ ولوْلا كلمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّك لكانَ لِزاما ﴾ .

للخشنى فى الأعشى ولبيد

قال الخُشَنى أبو عبد الله محمد بن عبد السلام : شاعران من فحول الجاهلية ذهب أحدهما فى بيته مذهب العَدْلِيَّة والآخر ذَهَب مذهب الجَبْرِيّة ، فالذى ذهب مذهب العدلية فأعشى بكر حيث يقول :

استأْثَرَ اللهُ بالوفاء وبالـــعَدْلِ ووَلَّى المَلامَةَ الرجُلا

(١) فى بعض الأصول : « حال » .

والذى ذهب مذهب الجَبرية فلبيد بن ربيعة حيث يقول :

إنَّ تقوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ٭ وبإذْنِ الله رَيْثٌ وعَجَــلْ

مَن هَداه سُبلَ الخيْرِ آهتَدى ٭ ناعِمَ البال ومَن شاء أضلّ

لإياس بن معاوية — وقال إياس بن معاوية : كلمت الفِرَق كلَّها ببعض عقلى ، وكلمت القَدَرِىَّ بعقلى كلّه ، فقلت له : دُخولُك فيما ليس لك ظلم منك[1] ؟ قال : نعم . قلت : فإن الأمر كله لله . ٥

ومن قول الله عز وجل فى القدر : ﴿ قُلْ فلله الحُجَّةُ البالِغَـةُ فلوْ شاء لهدَاكُمْ أجْمَعِين ﴾ . وقال : ﴿ يَمُنُّونَ عليْكَ أنْ أسْلَموا قُلْ لا تَمُنُّوا علَىَّ إسْلامَكُمْ بلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَداكُمْ للإيمانِ إن كنتُمْ صادِقِين ﴾ .

لابن شهاب — ابن شِهاب قال : أنزل الله على نبيه آيةً فى القَدَرية : ﴿ الَّذينَ قالوا لإخْوانِهِم وقَعَدُوا لو أطاعونا ما قُتِلوا ٭ قلْ فادْرَءوا عن أنفسِكُمُ الموْتَ إنْ كنْتُمْ صادقين ﴾ . وقال ﴿ قُلْ لو كنتم فى بُيوتِكُمْ لبرَزَ الَّذين كُتِب عليهمُ القَتْلُ إلى مَضاجِعِهِم ﴾ . ١٠

لابن سيرين — وقال محمد بن سيرين : ما يُنكر القدرية أن يكون الله عَلِمَ من خلْقه عِلماً فكتبه عليهم . ١٥

بين على وقدرى — وقال رجل لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه : ما تقول فى القَدَر ؟ قال : ويحك ! أخبرنى عن رحمة الله ، أكانت قبل طاعة العباد ؟ قال : نعم قال علىٌّ : أسلَم صاحبُكم وقد كان كافراً . فقال الرجل له : أليس بالمشيئة الأولى التى أنشأنى بها أقوم وأقعد ، وأقبض وأبسط ؟ قال له على : إنك بَعد فى المشيئة أما إنى أسألك عن ثلاث ، فإن قلت فى واحدة منهن : لا ، كفرْت ؛ وإن قلت : نعم ، فأنت أنت . فمد القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول ؛ فقال له على : أخبِرْنى عنك ، أخَلقَك الله كما شئت أو كما شاء ؟ قال : بل كما شاء . قال : فخلقك الله لِمَا شئت ٢٠

(١) فى بعض الأصول : « منا » .

أو لما شاء ؟ قال : بل لما شاء . قال فيَوْم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء ؟
قال : بل بما شاء ، قال : قم فلا مشيئة لك .

هشام وغيلان والأوزاعى

قال هشام بن محمد السائب الكلْبي : كان هشام بن عبد الملك قد أنكر على غيلان التكلم فى القدَر ، وتقدّم إليه فى ذلك أشدَّ التقدم ، وقال له فى بعض ما توعَّده به من الكلام : ما أحسبك تنتهى حتى تنزل بك دعوة عمر بن عبد العزيز إذ احتجّ عليك فى المشيئة بقول الله عز وجل : ﴿ وما تَشاؤُنَ إلا أنْ يَشاء الله ﴾ فزعمت أنك لم تُلْقِ لها بالا . فقال عمر : اللهم إن كان كاذبا فاقطع يده ورجله ولسانَه ، واضربْ عُنُقه . فانْتَه أوْلى لك ، ودع عنك ماضرُّه إليك أقربُ من نفعه . فقال له غَيلان ، لحِينِه وشِقْوته : ابعث إلىّ يا أمير المؤمنين مَن يُكلمنى ويحتجُّ علىّ ، فإن أخذتْه حُجتى أمسكت عنى فلا سبيل لك إلىّ ، وإن أخذتْنى حجتُه فسألتك بالذى أكرمك بالخلافة إلا نَفَّذْت فىّ ما دعا به عمر علىّ . فغاظ قوله هشاماً . فبعث إلى الأوزاعى فحكى له ما قال لغيلان وما رَدَّ غيلان عليه ؛ فالتفت إليه الأوزاعى فقال له : أسألك عن خمس أو ثلاث ؟ فقال غَيلان : عن ثلاث . قال الأوزاعى : هل علمت أن الله أعان على ما حَرَّم ؟ قال غيلان : ما علمت وعظُمَتْ عنده . قال : فهل علمت أن الله قَضى على ما نَهى ؟ قال غيلان : هذه أعظم ، مالى بهذا من علم . قال : فهل علمت أن الله حال دون ما أمَر ؟ قال غيلان : حال دون ما أمَر ؟ ما علمت . قال الأوزاعى : هذا مرتاب[1] من أهل الزَّيغ . فأمر هشام بقطع يده ورجله ، ثم ألقى به فى الكُناسة . فاحْتَوَشَه الناس يعجبون من عظيم ما أنزل الله به من نِقْمته . ثم أقبل رجلٌ كان كثيراً ما يُنكر عليه التكلّم فى القدر ، فتخلل الناس حتى وصل إليه ، فقال : يا غيلان ، اذكر دُعاء عمر . فقال غيلان : أفلح إذاً هشام ، إن كان الذى نزل بى بدعاء عمر أو بقضاء سابق فإنه لا حَرج على هشام فيما أمر به فبلَغتْ كلمتُه هشاماً ، فأمر بقطع لسانه وضرْب عُنقه ، لتمام دعوة عمر . ثم التفت هشام إلى الأوزاعى

(١) فى بعض الأصول : « موات » .

وقال له قد قلت يا أبا عمرو ففسّر ، فقال : نعم ؛ قَضى على ما نَهى عنه : نهى آدم عن أكل الشجرة ، وقَضى عليه بأكلها . وحال دون ما أمر ، أمر إبليس بالسجود لآدم وحال بينه وبين ذلك . وأعان على ما حرّم ، حرّم الميتة وأعان المضطر على أكلها .

ابن أبى عروبة وقتادة

٥ الرياشيّ عن سعيد بن عامر عن جُويرية عن سعيد بن أبى عَروبة قال : لما سألت قتادة عن القدر فقال : رَأْيَ العرب تريد أم رأى العجم ؟ فقلت : بل رأى العرب . قال : فإنه لم يكن أحدٌ من العرب إلا وهو يُثبت القدر ، وأنشد :

ماكان قَطْعِى هولَ كلّ تنوفةٍ ٭ إلا كِتاباً قد خلا مسْطورَا

لأعرابى

وقال أعرابىّ : الناظر فى قدر الله كالناظر فى عين الشمس ، يعرف ضَوْءها ولا يَهْجم على حدودها . ١٠

لكعب بن زهير

وقال : كعب بن زُهير :

لو كنتُ أَعجبُ من شيءٍ لأعجبَنى ٭ سعْىُ الفتى وهْو مخبوءٌ له القدَرُ
يسعى الفتى لِأُمور ليس يُدركها ٭ فالنفس واحدةٌ والهمُّ مُنتشِرُ
والمرء ما عاش ممـــدودٌ له أملٌ ٭ لاتنتهى العيْنُ حتى ينتهى الأثرُ

لبعض الشعراء

وقال آخر : ١٥

والجِدُّ أنْهض بالفتى من عقلِه ٭ فانهَضْ بجِدٍّ فى الحوادثِ أوْ ذَرِ
ما أقربَ الأشياءَ حين يسوقُها ٭ قَدَر وأبعدَها إذا لم تُقدَر

بين النبى صلى الله عليه وسلم وقدرى

عبد الرحمن القصير[1] قال حدّثنا يونس بن بلال عن يزيد بن أبى حبيب أنّ رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يارسول الله ، أيُقدِّر الله علىّ الشرَّ ثم يعذّبنى عليه ؟ قال : نعم ، وأنت أظلم . ٢٠

وحدّثنى[2] أبو عبد الرحمن المقرى ، يرفعه إلى أبى هريرة ، عن عمر

(١) فى بعض الاصول : « عبد الرحمن بن القصير » .
(٢) فى بعض الاصول : « قال وحدثنى » .

ابن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تجالسوا أهل القدَر ولا تُفاتحوهم .

لابن مسعود

ومن حديث عبد الله بن مسعود ، قال : ما كان كفرٌ بعد نُبُوّةٍ قط إلا كان مفتاحَه التكذيب بالقدر .

أبو العتاهية وابن أشرس بين يدي المأمون

٥ ثمامة بن أشرس قال : دخل أبو العتاهية على المأمون لما قدم العراق ، فأمر له بمال وجعل يُحادثه ، فقال له يوما : ما في الناس أجهلُ من القدَرِيّة . فقال له المأمون : أنت بصناعتك أبْصَر ، فلا تتخطاها إلى غيرها . قال له : يا أمير المؤمنين ، اجمع بيني وبين من شئت منهم . فأرسل إليّ ، فدخلت عليه ، فقال لى : هذا يزعُم أنك وأصحابك لا حُجّةَ عندكم . قلت : فليسأل عما بدا له .
١٠ فحرّك أبو العتاهية يدَه وقال : من حرّك هذه ؟ قلت : مَن ناك أمّه ! فقال : يا أمير المؤمنين ، شتمني . قلت له : نَقضْتَ أصلَك يا ماصّ[1] بَظْر أمّه ! فضحك المأمون . فقلت له : يا جاهل ! تحرّك يدك ثم تقول : من حرّكها ؟ فإن كان الله حرّكها فلِم أشتمك ؛ وإن كنت أنت المحرِّكَ لها فهو قولي . قال له المأمون : عندك زيادة في المسألة .

الكندى

١٥ قال الكِندى في الفن التاسع من التوحيد : اعلم أنّ العالم كلَّه مَسُوسٌ بالقضاء والقدر ـ أعْني بالقضاء ـ ما قُسِم لكل معلول[2] بما هو أصلح وأحكم وأتقَن في بِنية الكل ، لأنه جل ثناؤه خلق وأبدع مضطرا ومختاراً بتمام القدرة ، فلما كان المختار غير تام[3] الحكمة ؛ لأنّ تمام الحكمة لمُبدع الكل ، كان لو أُطلق واختيارَه لآختار كثيراً مما فيه فسادُ الكل ، فقدّرَ جل ثناؤه بِنيةً للكل تقديراً مُحكَما ، فصيّر بعضَه
٢٠ سوانح لبعض ، يختار بإرادته ومشيئته غيرَ مقهور بما هو أصلح وأحكم في بنية الكل ؛ فتقدير هذه السوانح هو القدر . فبالقضاء والقدَر ساس جلّ ثناؤه جميعَ

(١) في بعض الأصول « ياعاض » .
(٢) في بعض الأصول : « مفعول » .
(٣) في بعض الأصول : « عن تمام » .

ما أبدع ، فهذه السياسة المحكمة المُتْقَنةُ التى لا يدخلها زلل ولا نقص . فاتضح أنّ كل معلول فيما قَسَم له ربُّه من الأحوال لا خارجٌ عنها ، وأنّ بعضَ ذلك بآضطرار وبعضَه بآختيار ، وأن المختار عن سوانح قدَرِه اختار ، وبإرادته لا بالكُرْهِ منه فعَل .

لأعرابى

سئل أعرابىّ عن القدر فقال : ذاك علم اختصمتْ فيه الظنون ، وكثُر فيه المختلفون ، والواجب علينا أن نردَّ ما أشكَلَ من حُكمه إلى ما سبق من علمه . ٥

مجوسى وقدرى

واصطحب مجوسىٌّ وقدَرِى فى سفر ، فقال القدَرىّ للمجوسى : مالك لا تُسلِم قال : إن أذِنَ اللهُ فى ذلك كان . قال : إنّ الله قد أذن ، إلا أن الشيطانَ لا يَدَعُك . قال : فأنا مع أقواهما .

هشام وقدرى

وقال رجل لهشام بن الحكم : أنت تزعم أنّ الله فى فضله وكرمه وعدله كلّفنا ما لا نُطِيقه ثم يعذّبنا عليه ؟ قال هشام : قد واللهِ فعَلَ ، ولكن لا نستطيع أن نتكلم . ١٠

عمرو بن عبيد وابن مسكين

اجتمع عمرو بن عُبيد مع الحارث بن مِسكين بمِنًى ، فقال له : إنّ مِثلى ومِثلَك لا يجتمعان فى مثل هذا الموضع فيفترقان من غير فائدة ؛ فإن شئتَ فقل ، وإن شئت فأنا أقول . قال له : قل . قال : هل تعلم أحداً أقْبَلَ للعذر من الله عز وجل ؟ قال : لا . قال : فهل تعلم عُذراً أبْيَنَ من عُذر مَن قال « لا أقدِر » فيما تعلم أنت أنه لا يقدِر عليه ؟ قال : فلِمَ لا يَقبل ، منْ لا أقبل للعذر منه ، عُذر مَن لا أَبْيَنُ من عُذره [1] ؟ فانقطع الحارث بن مسكين فلم يردّ شيئاً . ١٥

ردّ المأمون على الملحدين وأهل الأهواء ٢٠

بين المأمون وثنوى

قال المأمون للثنوى الذى تكلم عنده : أسألك عن حرفين لا أزيد عليهما : هل نَدِم مُسىءٌ قط على إساءته ؟ قال : بلى . قال : فالندم على الإساءة إساءة

(١) فى بعض الأصول : « فلم تقبل قول من لا أقبل للعذر منه عذراً ولا أبين من عذر » .

أم إحسان ؟ قال : بل إحسان . قال : فالذى نَدِم هو الذى أساء أم هو غيرُه ؟ قال : بل هو الذى أساء . قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشرّ قال : فإنى أقول : الذى نَدِمَ غيرُ الذى أساء . قال : فنَدِم على شىء كان منه أم على شىء كان من غيره . فسكت .

٥ وقال له أيضا : أخبرنى عن قولك باثنين ، هل يستطيع أحدهما أن يخلق خَلقاً لا يستعين فيه بصاحبه ؟ قال : نعم . قال : فما تصنع باثنين ؟ واحدٌ يَخلق كل شىء خير لك وأصحّ .

بينه وبين مرتد خراسان

وقال المأمون للمرتدّ الخراسانى الذى أسلم على يديه وحمَلَه معه إلى العراق فارتدّ عن الإسلام ، أخبِرْنى : ما الذى أوحشك مما كنت به آنِساً مِن ديننا ؟ ١٠ فوالله لَأنْ أستحْيِيك بحق أحبُّ إلىّ من أن أقتلَك بحق ، وقد صرتَ مُسلما بعد أن كنتَ كافرا ، ثم عدت كافرا بعد أن صرت مُسلما . فإن وجدتَ عندنا دواء لدائك تداويتَ به ، وإن أخطأك الشفاء ونبا عليك الدواء ،كنت قد أبْليْت العُذر فى نفسك ولم تُقصِّر فى الاجتهاد لها ، فإن قتلناك قتلناكَ فى الشريعة ، وترجع أنت فى نفسك إلى الاستبصار واليقين ولم تُفرِّط فى الدخول من باب ١٥ الحزم . قال المرتد : أوْحَشَنى منكم ما رأيتُ من الاختلاف فى دينكم . قال المأمون : لنا اختلافان : أحدهما كاختلافنا فى الأذان ، والتكبير فى الجنائز ، وصلاة العيدين والتشهد ، والتسليم من الصلاة ، ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفُتْيا ، وما أشبه ذلك ؛ وهذا ليس باختلاف ، وإنما هو تخيير وتوْسِعَة وتخفيف من السُّنَّة ؛ فمن أذَّنَ مثْنَى وأقام مثْنَى لم يأثمْ ، ومن ربّع لم يأثم . والاختلاف الآخر ٢٠ كنحو آختلافِنا فى تأويل الآية من كتاب الله ، وتأويلِ الحديث عن نبينا ، مع اجتماعنا على أصل التنزيل ، وآتفاقِنا على عيْن الخبر ؛ فإن كان إنما أوحشك هذا فينبغى أن يكون اللفظُ بجميع التوراة والإنجيل مُتَّفَقاً على تأويله كما يكون مُتَّفَقاً على تنزيله ، ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلافٌ فى شىء من التأويلات ولو شاء اللهُ أن يُنْزل كتبَه مُفسرة ، ويجعل كلام أنبيائه ورسله لا يُختَلفُ فى

تأويله لفعَل ؛ ولكنّا لم نجد شيئا من أمور الدين والدُّنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طول البحث والتّحصيل والنظر ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمِحَن ، وذهب التفاضل والتباين ، ولما عُرِف الحازمُ من العاجز ، ولا الجاهلُ من العالم ، وليس على هذا بُنيت الدنيا . قال المرتد : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن المسيح عبدُ الله ، وأن محمداً صادق ، وأنك أمير المؤمنين . ٥

بينه وبين على ابن موسى

وقال المأمون لعليّ بن موسى الرِّضا : بم تدَّعون هذا الأمر . قال : بقرابة عليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبقرابة فاطمة منه . فقال له المأمون : إن لم يكن ها هنا إلا القرابة فقد خلَف رسول الله صلى الله عليه وسلم مِن أهل بيته ، من كان أقربَ إليه من علي أو مَن فى مثل قُعْدده [1] ، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الحق بعد فاطمة للحَسَن والحُسين، ١٠ وليس لِعليّ فى هذا الأمر حقّ وهما حَيَّان ، فإذا كان الأمر كذلك فإن عليا قد ابتزَّهما حقَّهما وهما صحيحان ، واستولى على ما لا يَجبُ له .

فما أجابه عليّ بن موسى بشىء .

من واصل إلى ابن عبيد

كتب واصل بن عطاء الغزّال إلى عمرو بن عُبيد :

أما بعد ، فإن استلاب نعمة العبد بيد الله ، وتعجيل المعاقبة بيد الله ، ومهما ١٥ يكن ذلك فباستكمال الآثام ، والمجاورة للجدال الذى يحول بين المرء وقلبه ، وقد عرفتَ ما كان يُطعَنُ به عليك ويُنسب إليك ونحن بين ظهرانى الحسَن بن أبى الحسن رحمه الله ، لاستبشاع قُبح مذهبك، نحن ومن قد عرفتَهُ من جميع أصحابنا، ولُمّةِ إخواننا الحاملين الواعين عن الحسن ؛ فتلكم [2] لُمّةٍ وأوعياء [3] وحفَظة ، ما أدْمَثَ الطبائع ، وأرْزَنَ المجالس، وأبْين الزُّهد وأصدَق الألسنة ، اقتَدوا والله ٢٠ بمن مضى شهابهم ، وأخذوا بهديهم؟ عهدى والله بالحسن وعهدُهم أمسِ فى مسجد

---

(١) فى بعض الأصول : « قدره » ، والقعدد : قرب النسب .

(٢) فى بعض الأصول : « فبالله بل كم » .

(٣) فى بعض الأصول : « وأعيان » .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرق الأجنحة ، وآخرُ حديث حدّثنا إذْ ذكر الموت وهَوْلَ المطّلع ، فأسِف على نفسه واعترف بذنبه ، ثم التفت والله يَمنة ويسرة معتبرا باكيا ؛ فكأنى أنظر إليه يمسح مُرْفضّ العرَقِ عن جبينه ، ثم قال : اللهم إنى قد شددتُ وضينَ راحلتى ، وأخذتُ فى أُهْبَةِ سفرى إلى محل القبر وفرْش العفْر ، فلا تؤاخذْنى بمـا يَنْسُبُون إلىّ من بعْدى . اللهم إنى قد بلّغت ما بلَغنى ٥
عن رسولك ، وفسّرت من محكم تأويلك [1] ما قد صدّقه حديثُ نبيك ؛ ألا وإنى خائف عمْرا ! ألا وإنى خائف عَمرا ! شكايةً لك إلى ربّه جهراً ، وأنت عن يمين أبى حذيفة أقرَبنُا إليه ؛ وقد بلغنى كبيرُ ما حمّلتهُ نفْسك ، وقلّدْتهُ عُنقك ، من تفسير التنزيل ، وعبارة التأويل ؛ ثم نظرتُ فى كتبك ، وما أدّته [2] إلينا روايتك
١٠ من تنقيص المعانى ، وتفريق المبانى ، فدلّت شكايةُ الحسن عليك بالتحقيق بظهور ما ابتدعت ، وعظيمِ ما تحمّلت ؛ فلا يغررْك أى أخى تدبيرُ مَن حوْلك ، وتعظيمُهم طَوْلَك ، وخفضُهم أعيُنَهم عنك إجلالاً لك ، غدا والله تمضى الخُيلاء والتماخُر ، وتُجْزَى كلُّ نفس بمـا تسعى . ولم يكن كتابى إليك ، وتَجليى عليك ، إلا ليُذكِّرَك بحديث الحسن رحمه الله ، وهو آخِرُ حديث حدّثناه . فأدِّ المسموع وأنطق
١٥ بالمفروض ، ودع تأويلك الأحاديث على غير وجهها ؛ وكن من الله وجِلا . فكأنْ قد .

ما جاء فى ذم الحمق والجهل

النبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : الجاهل يظلم من خالطَه ، ويَعتدى على من هو دونه ، ويتطاول على مَن هو فوقه ، ويتكلّم بغير تمييز ، وإن رأى كريمة أعرض
٢٠ عنها ، وإنْ عَرَضتْ فتنَةٌ أرْدَتْهُ وتهوّر فيها .

لأبى الدرداء

وقال أبو الدّرداء : علامة الجاهل ثلاث : العُجْب ، وكثرةُ المنطـق ، وأنْ ينهى عن شىء ويأتيه .

(١) فى بعض الأصول : «كتابك» .
(٢) فى بعض الأصول : «أهدته» .

لأردشير — وقال أرْدشير: حسبكم دلالةً على عيب الجاهل أنّ كل الناس تنفر منه وتغضب من أن تُنسب إليه.

لبعضهم — وكان يقال: لا تغررك من الجاهل قرابةٌ ولا أُخوةٌ ولا إلف؛ فإنّ أحقّ الناس بتحريق النار أقربُهم منها.

٥ وقيل: خَصلتان تُقرِّبانك من الأحمق: كثرة الالتفات، وسُرعة الجواب.

وقيل: لا تصطحب الجاهل، فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك.

لبعض الشعراء — ولبعضهم:

لكلّ داءٍ دواءٌ يُستَطَبُّ بِهِ ... إلّا الحماقةَ أَعْيتْ مَن يُداويها

لأبى العتاهية — ولأبى العتاهية:

١٠ احذَرِ الأحمقَ أن[1] تصحَبهُ ... إنما الأحمقُ كالثَّوبِ الخلَقْ

كلما رقَّعتَهُ من جانبٍ ... زعزَعتهُ الرِّيحُ يوماً فانخرقْ

أو كصَدْعٍ فى زُجاجٍ فاحِشٍ ... هل ترى صَدْعَ زُجاجٍ يلتصقْ

فإذا عاتَبتهُ كىْ يَرْعوى ... زاد شرًّا وتمادَى فى الحُمُقْ

أصناف الإخوان

١٥ للعتابى — قال العتابى: الإخوان ثلاثة أصناف: فرْع بائن من أصله، وأصل متَّصل بفرعه، وفَرع ليس له أصل. فأما الفرع البائن من أصله، فإخاءٌ بُنِى على مودّة ثم انقطعت تُحفظ على ذمام الصُّحبة. وأما الأصل المتصل بفَرعه، فإخاءٌ أصله الكرم وأغصانه التقوى. وأما الفرع الذى لا أصل له، فالمُموَّهُ الظاهر الذى ليس له باطن.

٢٠ للنبى صلى الله عليه وسلم — وقال النبى صلى الله عليه وسلم: الصاحبُ رُقعةٌ فى قميصك فانظر بِمَ ترْقعُه.

(١) فى بعض الأصول: «لا».

لبعضهم

وقالوا : من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً ، ولعَدُوّه عدُوًّا.

وفد دِحية [(١)] الكلبي على عليّ رضى الله عنه ، فما زال يذكر معاوية ويُطْريه فى مجلسه ؛ فقال عليّ عليه السلام :

صديقُ عدوّى داخِلٌ فى عداوَتى * وإنى لِمَنْ ودَّ الصديقَ ودُودُ

٥ فلا تقرَبَنْ مِنّى وأنتَ صديقُه * فإنَّ الّذِى بيْنَ القُلوب بعيدُ

للعتابى

وفى هذا المعنى قول العتّابى :

تَوَدُّ عدوِّى ثم تزْعُمُ أننى * صديقُكَ إنّ الرأىَ عنك لعازِبُ

وليس أخى مَن وَدّنى رأْىَ عينِه * ولكنْ أخى مَن ودّنى وهْو غائبُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

١٠ ليس الصديقُ الذى إنْ زَلَّ صاحِبُهُ * يوما رأى الذَّنْبَ منه غيرَ مغفورِ

وإن أضاع له حَقًّا فعاتَبَهُ * فيه أتاه بتَزْويق المعاذيرِ

إنّ الصديقَ الذى ألقاه يَعْذِرُ لى * ما [(٢)] ليس صاحِبُهُ فيه بمعذورِ

وقال آخر :

كم من أخ لك لم يلِدْه أبوكا * وأخٍ أبوه أبوكَ قد يجفوكا

١٥ صافِ الكرامَ إذا أردتَ إخاءهم * واعلَمْ بأنّ أخا الحِفاظِ أخوكا

والناسُ ما استغنيْتَ كنتَ أخاهمُ * وإذا افتقرتَ إليهمُ رفَضُوكا

وقال بعضهم :

أخوكَ الذى إن قمْتَ بالسيفِ عامِداً * لِتضرِبَه لم يستغِشَّك فى الوُدِّ

ولوْ [(٣)] جئتَ تبغى كَفَّهُ لِتُبينَها * لَبادَرَ إشفاقا عليك من الرَّدِّ

٢٠ يَرى أنه فى الوُدِّ كانَ مقصِّراً * على أنه قد زادَ فيه على الجهدِ

---

(١) فى بعض الأصول : « دحيم » .

(٢) فى بعض الأصول : « تلقاه يعذر فيما » .

(٣) فى بعض الأصول : « إن جئت » .

وقال آخر :

إن كنتَ متّخذاً خليلَا * فتنَقَّ وانتقدِ الخليلا
مَن لم يكن لك مُنصِفاً * فى الوُدّ فابْغِ به بَديلَا
ولَقلّما تَلْقَى اللئيمَ عليك إلا مُستطيلا

٥ للعطوى وللعَطَوىّ :

صُنِ الوُدّ إلا عن الأكرمين * ومَن بمؤاخاتِهِ تَشْرُفُ
ولا تَغْتَرِرْ من ذوى خَلّة * بما مَوّهوا لك أو زَخرَفوا
فكم مِن أخٍ ظاهرٍ وُدُّه * ضمــيرُ مَودّتِه أجْيَف
إذا أنت عاتبْتَه فى الإخا * ءِ تُنكِرُ منه الذى تعرفُ

١٠ شعر ابن جرير إلى ابن مخلد وكتب العباس بن جرير إلى الحسن بن مخلد :

ارْعَ الإخاء أبا مُحمّــدَ للذى يَصْفو وَصُنْهُ
وإذا رأيتَ مُنافساً * فى نَيْل مَكْرُمَةٍ فكُنه
إنّ الصّديق هوَ الذى * يَرعاك حيث تَغيب عنه
وإذا كَشَفْت إخاءهُ * أحمدْتَ ما كشّفتَ عنه
١٥ مثل الحُسام إذا انْتضا * هُ أخو الحفيظة لم يخُنه
يسعى لمَا تسعى له * كَرَماً وإن لم تَسْتعِنه

لبعض الشعراء ولآخر :

خيْرُ إخوانِك المشارِكُ فى المُـــرّ وأين الشريكُ فى المُرّ أينا
الذى إن شَهدْتَ زادك فى البِــــرّ[1] وإن غِبْت كان أُذْناً وعَيْنا

٢٠ ولآخر :

ومن البلاء أخٌ جِنايتُه * عَلَقٌ بنا ولغيْرِنا سَلَبُه

---

(١) فى بعض الأصول : « إن شهدت فى الحضر السر » .

وقال آخر :

إذا رأيتُ انحرافاً من أخى ثقةٍ ٭ ضاقت علىَّ برحْب الأرض أوطانى
فإن صَددْتُ بوجهى كىْ أُكافئهُ ٭ فالعينُ غَضْبى وقلبى غيرُ غضبانِ

بين بعض الشعراء وابن بشار

وكتب بعضهم إلى محمد بن بشار :

٥ من لم يُرِدْك فلا تُرِدْ ٭ هُ وكن كمن لم تستفِدْهُ
باعِد أخاك لبُعْدِه ٭ وإذا دنا شبْراً فزِدْهُ
كم من أخٍ لك يابن بَشّارٍ وأُمُّك لم تَلِدْه
وأخى مُناسَبةٍ يسو ٭ ءك عيْبُه لم تفتقِدْه

وأجابه محمد بن بشار :

١٠ غَلِط الفتى فى قوله ٭ مَن لم يُرِدْك فلا تُرِدْه
مَن نافسَ الإخوانَ لم ٭ يُبْدِ العِتابَ ولم يُعِدْهُ
عاتِبْ أخاك إذا هَفا ٭ واعطِفْ بوُدِّك واستعِدْهُ
وإذا أتاك بعيْبِه ٭ واشٍ فقل لمْ تَعْتمِدْهُ

ومما يستجلب الإخاء والمودة ولين الكلمة

لعلى بن أبى طالب

١٥ قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : من لانَتْ كلمتُه وجبت محبتُه .

ويُنشَد :

«كيف أصبحت كيف أمسيت» مما ٭ يُنْبِت[1] الوُدَّ فى فُؤادِ الكريمِ

وعلى الصديق ألّا يلقَى صديقه إلا بما يُحب ، ولا يؤذى جليسَه فيما هو عنه بمعزل ، ولا يأتىَ بما يَعيب مثله ، ولا يَعيب ما يأتى شكلَه .

للمتوكل الليثى

٢٠ وقد قال المتوكل الّليثىّ :

لا تَنْهَ عن خُلُقٍ وتأتىَ مثلَه ٭ عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

(١) فى بعض الأصول : «يثبت»

لابن الخطاب — وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ثلاثٌ يُثبِتن لك الوُدَّ فى صدر أخيك : أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوَه بأحبِّ الأسماء إليه .

وقال : ليس شىء أبلَغَ فى خير ولا شرّ من صاحب .

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

إن كنتَ تبغى المرء[1] أوأصلَه * وشاهدا يُخبِرُ عن غائبِ ٥

فاعتبر الأرض بأشباهها[2] * واعتَبِرِ الصاحبَ بالصاحبِ

لعدى بن زيد :

عن المرء لا تَسألْ وأَبصِرْ قرينَه[3] * فكل قرين بالمُقارن يَقتدى

ولعمرو بن جَميل التَّغلبى :

سأصبرُ من صديق إنْ جَفانى * على كلِّ الأذى إلّا الهَوانا ١٠

فإنّ الحُرَّ يأنف فى خَلاءٍ * وإنْ حَضَر الجماعةَ أن يُهانا

بين مطيع وخاطب مودة — قال رجل لمُطيع بن إياس : جئتك خاطباً مودتك . فقال له : قد زوجتُك، على شرط أن تجعل صَداقَها ألّا تسمع فىّ مقالة الناس .

فى المثل — ويقال فى المثل : من لم يَزْدَرِدِ الريقَ لم يَستكثر من الصديق .

وما أحسن ما قال إبراهيم[4] بن عباس : ١٥

يا صديقى الذى بَذَلت لهُ الوُ * دَّ وأنزلتُه على أحشائى

إنّ عيناً أقْذيتَها لتراعيـك على ما بها منَ الأقذاءِ

ما بها حاجةٌ إليك ولكن * هىَ مَعقودَة بحبْلِ الوفاءِ

لابن أبى حازم — ولابن أبى حازم :

اِرْضَ منَ المرء فى مودّته * بما يُؤدّى إليك ظاهرُه ٢٠

(١) فى بعض الأصول : « الأمر » .
(٢) فى بعض الأصول : « بأسمائها » .
(٣) فى بعض الأصول : « لاتسأل وسل عن قرينه » .
(٤) فى بعض الأصول : « على » .

من يكشِفِ الناس لم يجد[1] أحدا * تَصحُّ منــه له[2] سَرائِرُهُ

يُوشِكُ ألّا تَتِمَّ وصل أخٍ * فى كلِّ زلّاتِه تُنــافِرُه

إنْ ساءنى صاحبى احتَمَلْت وإنْ * سَرَّ فإنى أخوهُ شاكِرُهُ

أَصفحُ عن ذنبِه وإن طَلَب الــعذر فإنى عليــه عاذِرُهُ

٥ ولغيره : لبعض الشعراء

إنى إذا أبطأتُ[3] عنك فلم أزل[4] * لِأحداثِ دهْر لايزال يعوقُ

لقد أصبحَت نفْسى عليك شفيقةً * ومِثلى على أهـــلِ الوفاءِ شفيقُ

أُسَرُّ بمــا فيــه سُرورُك إننى * جدير بمَكْنونِ الإخاءِ حقيقُ

عدوٌّ لِمَنْ عاديْتَ ســلْمٌ مُسالمٌ * لكلِّ امرئٍ يَهوى هَواك صديقُ

١٠ ولأبى عبد الله بن عُرْفة : لابن عرفة

هُمومُ رجالٍ فى أُمورٍ كثيرةٍ * وهَمِّى منَ الدُّنيا صديقٌ مُساعدُ

يكون كروحٍ بين جسميْنِ فُرِّقا * فجسماهُما جسمان والرُّوحُ واحدُ

وقال بعض الحكماء : الإخاء جوهرة رقيقة ، وهى مالم تُوقِّها وتَحرسها معرَّضةٌ للآفات . فَرُض الإخاء بالحِلْم له[5] حتى تصِل إلى قُرْبه ، وبالكظم حتى ١٥ يَعتذر إليك مَن ظَلمك ، وبالرِّضى حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير . لبعض الحكماء

ولمحمود الوراق : للوراق

لابِرَّ أعظمُ من مُساعدةٍ * فاشكرْ أخاك على مُساعدتهْ

وإذا هَفا فأَقِلْهُ هَفْوتَه * حتى يعود أخاً كعادته

٢٠ (١) فى بعض الأصول : « لايرى » .
(٢) فى بعض الأصول : « غدا » .
(٣) فى بعض الأصول : « لعمرى لئن » .
(٤) فى بعض الأصول : « فلم أزر » .
(٥) فى بعض الأصول : « فرض الأبى بالجداء له » .

فالصفحُ عنْ زلَلِ الصَّديقِ وإنْ ، أعْياكَ خيْرٌ من مُعاندتِهْ

لابن المعذل ولعبد الصمد بن المُعذَّل :

من لم يُرِدْكَ ولم تُرِدْه ، لم يَستفِدْك ولم تُفِدْهُ
قرِّبْ صديقَك ما نأَى ، وَزِدِ التَّقارُبَ واستَزِدْهُ
وإذا وَهَتْ أركانُ وُدٍّ من أخى ثقةٍ فشيِّدْهُ

باب من أخبار الخوارج

الخوارج وعلى ابن أبى طالب

لما خرجت الخوارج على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانوا من أصحابه ، وكان من أمر الحكمين ما كان واختداع عمرو لأبى موسى الأشعرى ، قالوا : لا حُكم إلا لله . فلما سمع علىٌّ رضى الله عنه نداءهم . قال : كلمةُ حقّ يُرادُ بها باطل ، وإنما مذهبهم ألّا يكونَ أميرٌ ، ولا بد من أمير بَرًّا كان أو فاجرا . وقالوا لعلىٍّ : شككتَ فى أمرك ، وحكّمت عدوّك فى نفسك . وخرجوا إلى حَرُوراء ، وخرج إليهم علىّ رضى الله عنه ، فخطبهم متوكّئاً على قوسه ، وقال :

هذا مقامٌ من فَلَجَ فيه فلج يوم القيامة [1] ، أنشدكم الله ، هل علمتم أن أحداً كان أكرهَ للحكومة منى ؟ قالوا : اللهم لا . قال : أفعلمتم أنكم أكرهتُمونى عليها حتى قبلتُها ؟ قالوا اللهم نعم . قال : فعَلَامَ خالفتُمونى ونابذْتمونى ؟ قالوا : إنا أتينا ذنباً عظيما فتُبنا إلى الله منه ، فتُب إلى الله منه . واستغفره نَعُدْ إليك . فقال على : إنى أستغفر الله من كل ذنب . فرجعوا معه وهم فى ستة آلاف . فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أنّ عليًّا رجع عن التحكيم وتاب منه ورآه ضلالا . فأتى الأشعثُ بن قيس عليّا رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدّثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا والإقامة عليها كفراً وتُبت . فخطب علىٌّ الناس فقال : من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذَب ، ومن رآها ضلالا فهو أضلّ منها . فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت ، فقيل لعلىّ : إنهم خارجون

(١) فى بعض النسخ : « من أفلح فيه أفلح يوم القيامة » . والفلج : النصر .

عليك . فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلونى ، وسيفعلون .

محاجة ابن عباس لهم

فوجّه إليهم عبد الله بن العباس ، فلما صار إليهم رحّبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباها قَرِحَتْ لطول السجود ، وأيديا كثَفِنات الإبل ، وعليهم قُمص مُرْحَضة ، وهم مشمِّرون . قالوا : ماجاء بك يابن عباس ؟ قال : جئتكم من عند صهرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، وأعلَمنا بربِّه وسنة نبيِّه ، ومن عند المهاجرين والأنصار : فقالوا : إنا أتينا عظيما حين حكَّمنا الرجال فى دين الله ؛ فإن تاب كما تُبنا ونَهض لمجاهدة عدوّنا رجعنا . فقال ابن عباس : نشدتكم الله إلا ما صدَقتم أنفسَكم ، أمَا علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال فى أرنب تساوى رُبع درهم تُصاد فى الحرم ، وفى شقاق رجل وامرأته ؟ فقالوا : اللهم نعم . قال : فأنشُدكم الله هل عَلمتم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحُديبية ؟ قالوا : نعم ، ولكن عليّا محا نفسَه من خِلافة المسلمين . قال ابن عباس : ليس ذلك يُزيلها عنه وقد محا رسول الله صلى الله عليه وسلم اسْمَه من النبوة ، وقال سُهيل [1] بن عمرو : لو علمت أنك رسولُ الله ماحاربتُك فقال للكاتب : اكتب « محمد بن عبد الله » . وقد أخذ علىٌّ على الحكمين ألّا يجورا ، وإن يجورا فعلىٌّ أولى من معاوية وغيره . قالوا : إنّ معاوية يدّعى مثل دعوى علىّ . قال : فأيهما رأيتموه أولى فولُّوه . قالوا : صدقت . قال ابن عباس : ومتى جار الحكمان فلا طاعة لهما ولا قبول لقولهما . فاتبعه منهم ألفان وبقى أربعة آلاف .

قتال على لهم

فصلى بهم صلواتِهم ابن الكواء وقال : متى كانت حرب فرئيسكم شبث بن رِبْعىّ الرِّياحى . فلم يزالوا على ذلك حتى اجتمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الرّاسبى ، فخرج بهم إلى النَّهروان ، فأوقع بهم علىّ ، فقتل منهم ألفين وثمانمائة ، وكانّ عددهم ستة آلاف . وكان منهم بالكوفة زُهاء ألفين ممن يُسِرُّ أمرَه ؛ فخرج منهم رجل بعد أن قال علىّ رضى الله عنه : ارجعوا وادفعوا إلينا قاتل عبد الله ابن خبّاب . قالوا : كلنا قتَله وشرَك فى دمه .

(١) فى بعض الأصول : « سهل » .

قتلهم ابن خباب

وذلك أنهم لما خرجوا إلى النهروان [١] لَقُوا مسلماً ونصرانيا ، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنَّصرانى خيرا ، وقالوا : احفظوا ذِمّة نبيكم . ولقوا عبد الله ابن خَبّاب ، وفى عنقه المصحف ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا : إنّ هذا الذى فى عُنقك يأمرنا بقتلك . فقال لهم : أحْيُوا ما أحيا القرآنُ ، وأميتوا ما أمات القرآن . قالوا : حدِّثنا عن أبيك . قال : حدثنى أبى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تكون فتنةٌ يموت فيها قلبُ الرجل كما يموتُ بدنُه ، يُمسى مؤمناً ويُصبح كافرا ، فكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل . قالوا : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى خيرا ؛ قالوا : فما تقول فى الحكومة والتحكيم ؟ قال : أقول إن عليا أعلمُ بالله منكم وأشدُّ توقّياً على دينه وأبعد بصيرة . قالوا : إنك لست تتبع الهدى ، بل الرجالَ على أسمائها . ثم قربوه إلى شاطئ البحر فذبحوه ، فامذقرّ [٢] دمه ـ أى جرى مستقيما على دقة ـ وساموا رجلا نصرانيا بنخلة . فقال : هى لكم هِبَة . قالوا : ما كنا نأخذها إلا بثمن . فقال : ما أعجب هذا ! أتقتلون مثلَ عبد الله بن خبّاب ولا تقبلون منا جَنَى نخلة إلا بثمن .

فرقهم

ثم افترقت الخوارج على أربعة أضرب : الإباضية ، أصحاب عبد الله بن إباض والصُّفرية واختلفوا فى تسميتهم [٣] . فقال قوم : سُمُّوا بابن الصَّفّار . وقال قوم : نَهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم . ومنهم البَيْهَسية : وهم أصحاب ابن بيهس . ومنهم الأزارقة ، أصحاب نافع بن الأزرق الحنفى ، وكانوا قبلُ على رأيٍ واحد لا يختلفون إلّا فى الشيء الشاذّ .

هم وابن الزبير

فبلغهم خروجُ مسلم بن عُقبة إلى المدينة وقتلُه أهل حَرّة ، وأنه مُقبل إلى مكة ، فقالوا : يجب علينا أن نمنع حَرَمَ الله منهم ونمتحن ابنَ الزبير ، فإن كان على

(١) فى بعض الأصول : « إليهم » .
(٢) فى بعض الأصول : « فاندفر » .
(٣) فى بعض الأصول : « فى نسبهم » .

رأينا تابعناه . فلما صاروا إلى ابن الزبير عَرَّفوه أنفسهم وما قدِمُوا له ، فأظهر لهم أنه على رأيهم ، حتى أتاهم مسلم بن عُقبة وأهل الشام ، فدافعوه إلى أن يأتى رأىُ يزيد بن معاوية ، ولم يتابعوا ابن الزبير ؛ ثم تناظروا فيما بينهم ، فقالوا : ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده ، فإن قدّم أبا بكر وعمر وبرئ من عثمان ٥ وعلىّ وكفّر أباه وطلحة بايعناه ؛ وإن تكن الأخرى ظهَر لنا ما عنده فتشاغلنا بما يُجْدِى علينا . فدخلوا على ابن الزبير وهو مُتَبَذِّل وأصحابه متفرّقون عنه ، فقالوا له : إنا جئناك لتُخبرنا رأيك ، فإن كنت على صواب بايعناك ، وإن كنت على خلافٍ دعوناك إلى الحق ؛ ما تقول فى الشيخين ؟ قال : خيراً ، قالوا : فما تقول فى عثمان الذى حَمَى الحِمَى ، وآوى الطريد ، وأظهر لأهل مصر شيئاً ١٠ وكتَبَ بخلافِه ، وأوطأ آل بنى مُعيط رقابَ الناس وآثرهُم بفىء المسلمين ؛ وفى الذى بعده الذى حكّمَ الرجالَ فى دين الله وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم ؛ وفى أبيك وصاحبِه وقد بايعا عليّا ، وهو إمام عادل مرضى لم يظْهَر منه كفر ، ثم نكثا بيعته وأخرجا عائشة تقاتل ، وقد أمرها الله وصواحبَها أن يقرْن فى فى بُيوتهن ، وكان لك فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة ؛ فإن أنت قبلت كلَّ ما نقول ١٥ لك الزُّلفى عند الله ، والنصرُ على أيدينا إن شاء الله ، ونسأل الله لك التوفيق ، وإن أبيتَ خذَلَكَ اللهُ وانتصر منك بأيدينا .

فقال ابن الزبير : إن الله أمر وله العزّة والقدرة فى مخاطبة أكفَر الكافرين وأعتَى العاتين بأرقَّ من هذا القول ؛ قال لموسى وأخيه صلى الله عليهما : ﴿ إذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى ، فقولَا لهُ قوْلًا ليِّناً لعَلَّهُ يتذَكَّرُ أوْ يَخْشَى ﴾ . وقال ٢٠ رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تُؤذوا الأحياء بسَبِّ الموتى . فنهى عن سَبِّ أبى جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدوُّ الله ورسوله ، والمقيمُ على الشرك ، والجادُّ فى محاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحاربُ له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ؛ وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذى سَمَّيتم فيه طلحة

وأبى أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس [1] ، وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى نسب أبى وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جلّ وعزّ قال للمؤمن فى أبويه : ﴿ وإنْ جاهَدَاكَ على أنْ تُشْرِكَ بِي ما ليسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فلا تُطِعْهُما وصاحِبْهُما فى الدُّنيا مَعْروفاً ﴾ وقال : ﴿ وقولُوا لِلنّاسِ حُسناً ﴾ . وهذا الذى دعوتم إليه أمرٌ له ما بعدَه ، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتّصريح ، ولعمرى إنّ ذلك أحْرَى بقطع الحجج ، وأوْضَحُ لمنهاج الحق ، وأوْلَى بأن يعرف كُلٌّ صاحبه من عدوّه . فرُوحوا إلىّ من عشيّتكم هذه أكشفْ لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى .

خطبة ابن الزبير فيهم

فلما كان العشى راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجْدةُ [2] ، قال : هذا خُروج منابذ لكم . فجلس على رفع من الأرض فحمدالله وأثنى عليه وصلى على نبيّه . ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسنَ ذكر ، ثم ذكر عثمان فى السنين الأوائل من خلافته ؛ ثم وصلهن بالسّنين التى أنكروا سيرتَه فيها فجعلها كالماضية ، وأخبر أنه آوى الحكم بن أبى العاصى بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحِمَى وما كان فيه من الصلاح ، وأنّ القوم استعتبوه من أمورٍ ما كان له أن يفعلها أولا مصيباً ثم أعتبهم بعد ذلك محسنا . وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه بعد أن ضَمِن لهم العُتْبى ثم كُتب ذلك الكتاب بقتلهم . فدَفعوا الكتاب إليه ، فحلف بالله أنه لم يكتبه ولم يأمر به ؛ وقد أمر الله عزّ وجلّ بقبول اليمين من ليس له مثلُ سابقته ، مع ما اجتمع له من صِهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومكانه من الإمامة ، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه ، وعثمانُ الرجل الذى لزمتْه يمينٌ لو حلف عليها حلف على حق ، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ حَلَف بالله فلْيَصْدُق ، ومن حلف بالله فلْيَقْبَل . وعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه .

(١) فى بعض الأصول : « المسلمين » .

(٢) نجدة : ابن عاصم الحنفى الخارجى .

وأنا وليُّ وليّه وعدوُّ عدوّه ، وأبى وصاحبه صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسولُ الله يقول عن الله عز وجل يوم أُحد لما قُطعت أصبعُ طلحة : سبقَتْه إلى الجنة . وقال : أوْجَبَ طلحة . وكان الصّديق إذا ذكر يوم أحد قال : ذلك يوم كله أو جُلّه لطلحة . والزبيرُ حوارِيُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوتُه ، وقد ذكر أنه فى الجنة . وقال عز وجل : ﴿ لقد رضِىَ آللهُ عَنِ المُؤْمنينَ إذْ يُبايعُونَكَ تحْتَ الشَّجَرة ﴾ . وما أخبَرنا بعدُ أنه سخط عليهم ؛ فإن يكن ما صنعوا حقًّا فأهلُ ذلك هُمْ ، وإن يكن زلّةً ففى عفو الله تمحيصُها ، وفيما وفّقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتموهما به فقد بدأتكم بأمّكم عائشة ، فإن أبَى آبٍ أن تكون له أمًّا ، نَبذ اسمَ الإيمان عنه ؛ وقد قال جلَّ ذكره : ﴿ النبىُّ أَوْلَى بالمُؤْمنينَ من أنفُسِهِمْ وأزواجُهُ أُمّهاتُهُمْ ﴾. فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا عنه .

كتاب ابن الأزرق إلى ابن الزبير

وكتب بعد ذلك نافعُ بن الأزرق إلى عبد الله بن الزُّبير يدعوه إلى أمره : أما بعد ، فإنى أحذّرك من الله : يوم تَجِدُ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ من خَيْر مُحْضَراً وما عَمِلَتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويُحذِّرُكم الله نفسَه ، فاتق الله ربَّك ولا تتَوَلَّ الظالمين ، فإن الله يقول : ﴿ ومنْ يتَوَلّهُمْ منكُمْ فإنه منْهُمْ ﴾ وقال : ﴿ لا يَتَّخِذِ المؤْمنونَ الكافرينَ أولياءَ مِنْ دونِ المؤْمنين ومَن يفْعَلْ ذلِك فليسَ مِن آللهِ فى شىءٍ ﴾ ، وقد حضرت عثمان يوم قُتل . فلعَمْرى لئن كان قُتل مظلوما لقد كفَر قاتِلوه وخاذِلوه ، ولئن كان قاتِلوه مهتدين ، وإنهم لمهتدون ، لقد كفَر من تَوَلّاه ونصره ولقد علمت أنّ أباك وطلحة وعليًّا كانوا أشدّ الناس عليه ، وكانوا فى أمره بين قاتل وخاذِل ، وأنت تتولى أباك وطلحة وعثمان ، فكيف ولايةُ قاتلٍ متعمّد ومقتولٍ فى دين واحد ؟ ولقد ولِىَ على بعده فنفَى الشُّبهات ، وأقام الحدود ، وأجرى الأحكام مجاريها ، وأعطى الأمور حقّها فيما عليه وله ، فبايعه أبوك وطلحة ، ثم خلعا بيعته ظالمين له ، وإن القول فيك وفيهما لكما قال آبن عباس رحمه الله : إن يكن علىٌّ فى وقت معصيتكم ومحاربتكم له كان

مؤمنا لقد كفرتم بقتال المؤمنين وأئمة العدل ، وائن كان كافراً كما زعمتم وفى الحكم جائراً لقد بُؤتم بغضب من الله لفِراركم من الزحف ، ولقد كنتَ له عدوًّا ، ولسيرته عائبا ، فكيف توليته بعد موته .

بين نجدة وابن الأزرق

وكتب نجدة . وكان من الصُّفرية القَعَدية . إلى نافع بن الأزرق لمّا بلغه عنه استعراضه للناس وقتلُه الأطفال ، واستحلالُه الأمانة : ٥

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف كالأخ البَرّ ، لا تأخذك فى الله لومةُ لائم ، ولا ترى معونةَ ظالم ؛ كذلك كنت أنت وأصحابك . أما تذكر قولك : لولا أنى أعلم أن للإمام العادل مثلَ أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين ، فلما شَرَيتَ نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبتَ من الحق فصَّه وركبتَ مُرّه ، تجرّد لك الشيطان فلم يكن أحدٌ أثقلَ وطأةً عليه منك ومن أصحابك ، فاستمالك واستغواك ، فغويتَ وأكفرْتَ الذين عَذَرهم اللهُ فى كتابه من قَعَدِ المسلمين وضَعَفَتِهم ، فقال جل ثناؤه ، وقوله الحق ووعده الصدق : ﴿ ليس على الضعفاءِ ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما يُنفِقون حرجٌ إذا نصحوا لِلهِ ورسولِهِ ﴾ ثم سمّاهم أحسنَ الأسماء فقال : ﴿ ما على المحسنينَ من سبيل ﴾ ثم استحللتَ قتل الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ، وقال جل ثناؤه : ﴿ ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ وقال فى القَعَد خيرا ، وفَضَّل اللهُ مَن جاهد عليهم ، ولا يدفع منزلةُ أكثرِ الناس عملا منزلةَ من هو دونه . إلا إذا اشتركا فى أصل . أوَ ما سمعت قوله تبارك وتعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أُولِى الضررِ والمجاهدون فى سبيل الله ﴾ فجعلهم الله من المؤمنين ، وفَضَّل عليهم المجاهدين بأعمالهم . ورأيتَ من رأيك أن لا تؤدِّى الأمانة إلى من يُخالفك ، والله يأمرك أن تؤدِّىَ الأماناتِ إلى أهلها . فاتق الله وانظر لنفسك ، واتق ﴿ يوماً لا يَجزى والدٌ عن ولدِه ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئا ﴾ فإن الله بالمرصاد ، وحُكمه العدْل . وقوله الفصل . والسلام .

جواب نافع

فكتب إليه نافع بن الأزرق :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فقد أتانى كتابك تَعِظُنى فيه وتذكرنى ، وتنصَحُ لى وتزجرنى ، وتصف ماكنت عليه من الحق ، وما كنت أُوثره من الصواب ؛ وأنا أسأل الله أن يجعلنى من الذين يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنَه ، وعِبْتَ علىّ مادِنْتُ به من إكفار القَعَد ، وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة . وسأفسّر لك لِمَ ذلك إن شاء الله : أما هؤلاء القَعد فليسوا كمن ذكرتَ ممن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين ، لايجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ؛ وهؤلاء قد فقهوا فى الدين ، وقرءوا القرآن ، والطريقُ لهم نَهج واضح . وقد عرفت ما يقول الله فيمن كان مثلهم ، إذ قال : ﴿ إنّ الذين تَتوفّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِى أنفُسِهِمْ قالوا فيمَ كنْتُمْ ﴾ قالوا كنا مُسْتَضْعَفِين فى الأرضِ ﴾ قالوا ألَمْ تَكُنْ أرضُ اللهِ واسِعَةً فتُهاجِروا فيها ﴾ . وقال ﴿ فَرِح المخلّفون بمَقْعَدِهم خِلافَ رسولِ الله ﴾ . وقال : ﴿ وجاء المُعَذِّرونَ من الأعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ . وقعد الذينَ كذَبوا اللهَ ورسولَه . سَيُصِيبُ الذينَ كفَرُوا مِنهُمْ عذابٌ أليمٌ ﴾ . فانظر إلى أسمائهم وسِماتهم[1] .

وأما أمر الأطفال فإن نبى الله نوحا عليه السلام كان أعرفَ بالله يا نجدةُ منى ومنك ، فقال : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ على الأرضِ منَ الكافرين دَيّارا ﴾ إنّك إنْ تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادَكَ ولا يَلِدُوا إلا فاجِراً كَفّارا ﴾ فسماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يُولدوا ؛ فكيف جاز ذلك فى قوم نوح ولا يجوز فى قومنا والله يقول : ﴿ أكفّارُكُمْ خيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أمْ لكُمْ براءَةٌ فى الزُّبُرِ ﴾ وهؤلاء كمشركى العرب ، لا تُقبل منهم جِزْية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلالُ الأمانات ممن خالفَنا فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم ، كما أحلَ لنا دماءهم ، فدماؤهم حلال طِلْق ، وأموالهم فَىْءٌ للمسلمين ، فاتق الله

(١) فى بعض الاصول : « فسماهم بالكفر » . مكان عبارة « فانظر إلى أسمائهم وسماتهم » .

وراجع نفسك ، فإنه لاعذر لك إلّا بالتوبة ، ولا يسعك خذلاُنا والقُعود دوننا ، وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقالتنا . والسلام على من أقرّ بالحق وعمل به .

مرداس وابن زياد

وكان مرداس أبو بلال من الخوارج ، وكان مستترا ، فلما رأى جِدّ[1] ابن زياد فى قتل الخوارج وحبسهم ، قال لأصحابه : إنه والله لا يسعُنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجرى علينا أحكامُهم مُجانبين للعدل ، مفارقين للعقل ؛ والله إنّ الصبر على هذا لعظيم ، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم ، ولكنا لا نَبتدئهم ، ولا نجرّد سيفا ، ولا نقاتل إلا من قاتَلَنا . فاجتمع أصحابه وهم ثلاثون رجلا ، فأرادوا أن يُولُّوا أمرهم حُرَيْثَ بن حَجْل[2] ، فأبى . فولّوا أمرهم مرداسا أبا بلال . فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رَبَاح الأنصاريّ ، وكان له صديقا ، فقال له : يا أخى ، أين تريد ؟ قال : أُريد أن أهرُب بدينى ودين أصحابى هؤلاء من أحكام الجَوَرَة والظلمة . فقال له : أعَلِمَ بكم أحد ؟ قال : لا . قال : فارجع . قال : أو تخاف علىّ مكروها ؟ قال : نعم وأن يُؤتَى بك . قال : فلا تَخَفْ ؛ فإنى لا أُجَرِّدُ سيفا ، ولا أُخيف أحداً ، ولا أُقاتل إلا من قاتلنى .

ثم مضى حتى نزل آسَك[3] وهو موضع دون خُراسان ، فمر به مال يُحمَل لابن زياد ، وقد بلغ أصحابه أربعين رجلا ، فحط ذلك المال ، وأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه ، وردّ الباقى على الرسل ، وقال : قولوا لصاحبكم إنما قَبضنا أعطياتنا . فقال بعضُ أصحابه : فعلامَ نَدَع الباقى ؟ فقال : إنهم يقسمون هذا الفىء كما يُقيمون الصلاة ، فلا نقاتلهم[4] .

شعر مرداس

ولأبى بلال مرداس هذا أشعار فى الخروج ؛ منها قوله :

أَبَعدَ ابن وهب ذى النّزاهة والتُّقى * ومَن خاض فى تلك الحروب المهالكا

(١) فى بعض الأصول : « حزم » .
(٢) فى بعض الأصول : « حريث بن حجر » . وما أثبتناه من الكامل .
(٣) فى بعض الأصول : « آبل » .
(٤) فى بعض الأصول : « فلا نقاتلهم مع الصلاة » .

أُحِبُّ بقاءً أو أُرَجِّى سَــلامةً * وقد قتلوا زَيْدَ بن حِصْنٍ ومالِكا
فيــاربِّ ســلِّمْ نيَّتى وبصيرتى * وهبْ لى البقا حتى ألاقى أولئكا

وقالوا إن رجلا من أصحاب زياد ، قال : خرجنا فى جيش نريد خراسان ، فمررنا بآسَك ، فإذا نحن بمرداس وأصحابه وهم أربعون رجلا ، فقال : أقاصدون لقتالنا أنتم ؟ قلنا : لا ، إنما نريد خراسان . قال : فأبلغوا مَن لقيتم أنا لم نخرج لنُفسد فى الأرض ولا لنروِّع أحدا ، ولكن هربنا من الضرر ، ولسنا نُقاتل إلا مَن يقاتلنا ؛ ولا نأخذ من الفىء إلا أعْطِياتنا . ثم قال : أنُدِب لنا أحد ؟ فقلنا : نعم ، أسلم بن زُرعة الكلابى . قال : فمتى تَرَوْنه يصل إلينا ؟ قلنا له : يوم كذا وكذا . فقال أبو بلال : حَسْبُنا الله ونعم الوكيل .

ونَدب عُبيد الله بن زياد أسلم بن زُرعة الكلابى ، ووجّهه إليهم فى ألفين ، فلما صار إليهم صاح به أبو بلال : اتّق الله يا أسلم فإنا لانريد قتالا ولا نحتجز مالا ، فما الذى تريد؟ قال : أريد أن أردّكم إلى آبن زياد . قال : إذاً يقتلنا . قال : وإن قتلكم . قال : أفتَشْركه فى دمائنا ؟ قال : نعم ، إنه مُحق وأنتم مُبطِلون . قال أبو بلال : وكيف هو مُحِق وهو فاجر يطيع الظَّلَمة ؟

ثم حملوا عليه حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه . فلما ورد على آبن زياد غضب عليه غضباً شديداً ، وقال : انهزمت وأنت فى ألفين عن أربعين رجلا ! قال له أسلم : والله لأنْ تَذُمّنى حيًّا أحبُّ إلىّ مِن أن تحمدنى ميتا . وكان إذا خرج إلى السوق ومر بالصبيان صاحوا به : أبو بلال : وراءك ! حتى شكا إلى آبن زياد ، فأمر الشرط أن يكفُّوا الناس عنه .

ردّ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه
على شوذب الخارجى

الهيثم بن عدىّ قال : أخبرنى عَوانة بن الحكم عن محمد بن الزُّبير قال : بَعثنى عمر بن عبد العزيز مع عَون بن عبد الله بن مَسعود إلى شوذب الخارجى وأصحابه ، إذ خرجوا بالجزيرة ، وكتب معنا كتابا إليهم . فقدمْنا عليهم ودفعْنا كتابه إليهم .

فبعثوا معنا رجلا من بنى شَيبان ورجلا فيه حبشية يقال له شَوذب ، فقدما معنا على عمر وهو بخُناصِرة[١] ، فصعدنا إليه ، وكان فى غرفة ومعه ابنه عبد الملك وحاجبه مزاحم ، فأخبرناه بمكان الخارجِيّيْن . فقال عمر : فتشوهما لا يكن معهما حديد ، وأدخلوهما . فلما دخلا قالا : السلام عليكم . ثم جلسا . فقال لهما عمر : أخبرانى : ما الذى أخرجكم عن حكمى هـذا وما نقَمْتم ؟ فتكلم الأسود منهما ، ٥ فقال : إنا والله مانقمنا عليك فى سيرتك وتحرّيك العدل والإحسان إلى من وُلّيت ولكنْ بيننا وبينك أمر إن أعطيْتَناه فنحن منك وأنت منا ، وإن مَنَعْتَناه فلست منا ولسنا منك . قال عمر : ما هو ؟ قال : رأيناك خالفت أهل بيتك وسميتها مظالم ، وسلكت غير طريقهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنْهُم وابْرَأ منهم ، فهذا الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرّق . ١٠

فتكلم عمر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنى قد علمت أو ظننت أنكم لم تخرجوا مَخْرَجَكم هذا لطلب الدنيا ومتاعِها ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلَها ، وإنى سائلكما عن أمر ، فبالله اَصْدُقانى فيه مبلغَ علمِكما . قالا : نعم . قال : أخبرانى عن أبى بكر وعمر ، أليسا من أسلافكما ومن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قالا : اللهم نعم . قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قُبض رسول الله صلى الله ١٥ عليه وسلم فارتدت العرب قاتلهم ، فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الذرارى ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبى بكر فردّ تلك السبايا إلى عشائرها ؟ قالا ، نعم . قال : فهل برئ عمر من أبى بكر أو تَبْرَءُون أنتم من واحد منهما ؟ قالا : لا . قال : فأخبرانى عن أهل النّهروان ، أليسوا من صالحى أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : نعم . قال : فهل تعلمون ٢٠ أن أهل الكوفة حين خرجوا كفّوا أيديهم ، فلم يسفكوا دما ، ولم يُخيفوا آمنا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مِسْعر بن فُديك استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله

---

(١) خناصرة : بلدة من أعمال حلب .

ابن خبّاب بن الأرتّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه وقتلوا جاريته ، ثم قتلوا النساء والأطفال ، حتى جعلوا يلقونهم فى قدور الأقط وهى تفور ؟ قالا : قد كان ذلك . قال : فهل برئ أهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالا : لا . قال : فهل تبرءون من إحدى الفئتين ؟ قالا : لا . قال : أفرأيتم الدين ، أليس هو واحداً أم الدين اثنان ؟ قالا : بل واحد . قال : فهل يسعكم منه شئ يُعجزُنى ؟ قالا : لا . قال : فكيف وَسِعَكم أن تولّيتم أبا بكر وعمر ، وتولى كلٌّ واحد منهما صاحبَه ، وتوليتم أهلَ الكوفة والبصرة ، وتولى بعضُهم بعضا ؛ وقد اختلفوا فى أعظم الأشياء : فى الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعنى إلا لعنُ أهل بيتى والتبرؤ منهم أوَ رأيت لَعْن أهل الذنوب فريضةً مفروضة لابد منها ؛ فإن كان ذلك فمتى عهدُك بلعنِ فرعون وقد قال : أنا ربكم الأعلى ؟ قال : ما أذكر أنى لعنتُه . قال : ويحك ! أيسعك ألّا تلعنَ فرعون وهو أخبثُ الخلق ، ولا يسعنى إلا أن ألعن أهل بيتى والبراءة منهم ؟ ويحكم ! إنكم قوم جهال ، أردتم أمراً فأخطأتموه ، فأنتم تَرُدُّون على الناس ما قَبِلَ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . بعثه الله إليهم وهم عَبَدَةُ أوثان ، فدعاهم إلى أن يخلعوا الأوثان ، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، فمن قال ذلك حَقَن بذلك دمه ، وأحرز ماله ، ووَجبتْ حُرمتُه ، وأمِن به عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أسوة المسلمين ، وكان حسابُه على الله . أفلستم تلقونَ مَن خلَع الأوثان ، ورفَض الأديان ، وشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، تستحِلون دمَه وماله ، ويُلعَن عندكم ، ومَن ترَك ذلك وأباه ، من اليهود والنصارى وأهل الأديان فتحرمونه دمَه ومالَه ويأمن عندكم ؟ فقال الأسود : ماسمعتُ كاليوم أحداً أبْيَنَ حجة ، ولا أقربَ مأخذا ، أما أنا فأشهد أنك على الحق ، وأنى برىء ممن برئ منك ! فقال عمر لصاحبه : يا أخا بنى شيبان ، ماتقول أنت ؟ قال : ما أحسنَ ما قلت ووصفت ! غير أنى لا أفتات على الناس بأمر حتى ألقاهم بما ذكرت وأنظرَ ماحُجَّتُهم . قال : أنت وذاك ! فأقام الحبشى مع عمر وأمر له بالعطاء ، فلم

يلبث أن مات ، ولحق الشيبانىُّ بأصحابه فقُتِل معهم بعد وفاة عمر

القول فى أصحاب الأهواء

رجل ذُكر عند النبي صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد

وذُكر رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكروا فضلَه، وشدةَ اجتهاده فى العبادة ، فبينما هم فى ذكره حتى طلع عليهم الرجل ؛ فقالوا : يارسول الله ، هو هذا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنى أرى بين عينيه سفعة من الشيطان ! فأقبل الرجل حتى وقف فسلّم عليهم ، فقال هل حدثتْك نفسُك إذ طلعتَ علينا أنه ليس فى القوم أحسنُ منك ؟ قال : نعم . ثم ذهب إلى المسجد يصفّ بين قدميه يصلى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أيكم يقوم إليه فيقتله ؟ فقال أبو بكر : أنا يا رسول الله . فقام إليه فوجده يصلى ، فهابه فانصرف . قال : ما صنعتَ ؟ قال : وجدتُه يصلى يا رسول الله فهِبْتُه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أيكمْ يقوم إليه فيقتله ؟ قال عمر : أنا يا رسول الله . فقام إليه فوجده يصلى ، فهابه فانصرف . فقال : يا رسول الله ، وجدتُه يصلى فهِبْتُه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم يقوم إليه فيقتله ؟ فقال علىّ : أنا يارسول الله . قال : أنت له إن أدركتَه . فقام إليه فوجده قد انصرف ؛ فقال النبي عليه الصلاة والسلام : هذا أولُ قرْنٍ يطلُع فى أمتى ، لو قتلتموه ما اختلف بعده اثنان : إنّ بنى إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين فرقة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة واحدة ، وهى الجماعة .

الرافضــــة

تسميتهم بذلك الاسم

وإنمـا قيل لهم رافضة لأنهم رفضوا أبا بكر وعمر ، ولم يرفضهما أحدٌ من أهل الأهواء غيرهم ، والشيعة دونهم ، وهم الذين يفضلون عليا على عثمان ويتولّون أبا بكر وعمر ، فأما الرافضة فلها غلوٌّ شديد فى علىّ ، ذهب بعضهم مذهبَ النصارى فى المسيح ، وهم السّبئية أصحاب عبد الله بن سبأ ، عليهم لعنة الله .

للسيد الحميري فيهم

وفيهم يقول السيد الحِمْيَرى :

قوم غلَوْا فى علىٍّ لا أبا لهم ، وأجشموا أنفساً فى حُبّه تَعَبَا

قالوا هو الله جلّ الله خالقُنا ، من أنْ يكونَ له ابنٌ أو يكونَ أبا

وقد أحرقهم على رضى الله عنه بالنار .

المغيرة بن سعد والأعمش

٥ ومن الروافض المُغيرة بن سعد مولى بجيلة ، قال الأعمش : دخلت على المغيرة ابن سعد فسألته عن فضائل علىّ ، فقال : إنك لا تحتملها ! قلت : بلى . فذكر آدم صلوات الله عليه ، فقال : علىٌّ خيرٌ منه ! ثم ذكر من دونه من الأنبياء ، فقال : علىٌّ خيرٌ منهم ! حتى انتهى إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : علىٌّ مثله . فقلت : كذبتَ عليك لعنة الله . قال : قد أعلمتك أنك لا تحتملها .

المنصورية

١٠ ومن الروافض مَن يزعم أن عليًّا رضى الله عنه فى السحاب ، فإذا أظلّتْ عليهم سحابة قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن ! وقد ذكرهم الشاعر فقال :

بَرِئتُ من الخوارجِ لستُ منهم ، من الغَزّالِ منهم وابنِ بابِ [1]

ومِن قومٍ إذا ذكروا عليًّا ، يَرُدّون السلامَ على السحاب

ولكنى أُحِبُّ بكلّ قلبى ، وأعلم أنَّ ذاكَ من الصواب

١٥ ... رسولَ اللهِ والصِّدّيقَ حقًّا ، به أرجو غداً حُسْنَ الثوابِ

وهؤلاء من الرافضة يقال لهم المنصورية ، وهم أصحاب أبى منصور الكِسْف . وإنما سمى الكِسْف لأنه كان يتأول فى قول الله عز وجل : ﴿ وإن يَرَوْا كِسفاً من السماء ساقطا يقولوا سحابٌ مركوم ﴾ فالكِسْف علىّ ، وهو السحاب .

المغيرة ومقتله

وكان المغيرة بن سعد من السبئية الذين أحرقهم علىّ رضى الله تعالى عنه بالنار ، ٢٠ وكان يقول : لو شاء علىّ لأحيى عاداً وثمودا وقروناً بعد ذلك كثيرا ، وخرج لخالد ابن عبد الله ، فقتله خالد وصلبه بواسط عند قنطرة العاشر .

كثير عزة

ومن الروافض كُثَيّر عزّة الشاعر ، ولما حضرته الوفاةُ ، دعا ابنة أخ له فقال :

(١) فى بعض الأصول : « وابن داب » ، والتصويب من الكامل .

يابنة أخى ، إن عمك كان يُحب هذا الرجل فأَحِبِّيه ـ يعنى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ـ فقالت : نصيحتُك ياعمّ مردودةٌ عليك ، أُحبه والله خلاف الحبّ الذى أحببتَه أنت . فقال لها : برئت منك . وأنشد يقول :

برئتُ إلى الإلهِ منَ ابن أرْوى ﷺ ومِن قوْل الخوارج أجمعينا
ومن عُمَر برئتُ ومن عَتِيق ﷺ غَـــداةَ دُعِى أمير المؤمنينا

ابن أروى : عثمان .

من رأيهم — والروافض كلها تُؤمن بالرّجعة ، وتقول : لا تقوم الساعة حتى يخرج المهدى وهو محمد بن على ، فيملؤها عدلا كما مُلئت جَورا ، ويُحيى لهم موتاهم فيرجعون إلى الدنيا ، ويكون الناس أمة واحدة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

ألا إنَّ الأئمةَ من قُرَيْشٍ ﷺ وُلَاة العـدْل أربعـةٌ سواء
علِى والثلاثة مِن بنيه ﷺ همُ الأسباطُ ليس بهم خَفاء
فسِبْطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبِرّ ﷺ وسِبط غيَّبته كَرْبلاء

أراد بالأسباط الثلاثة : الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وهو المهدى الذى يخرج فى آخر الزمان .

السيد الحميرى — ومن الروافض السيد الحميرى ، وكان يُلقَى له وسائد فى مجلس الكوفة يجلس عليها ، وكان يؤمن بالرَّجعة ، وفى ذلك يقول :

إذا ما المرء شابَ له قَذالٌ ﷺ وعلّلَه المواشط بالخِضاب
فقد ذَهَبت بَشاشتُه وأَوْدى ﷺ فقمْ بأبيك وابْك على الشبابِ
فليس بعـائدٍ ما فات منه ﷺ إلى أحدٍ إلى يوم المـآبِ
إلى يوْم يؤوب الناسُ فيه ﷺ إلى دنيـاهُمُ قبل الحسابِ
أَدِينُ بأن ذاك كذاك حقًّا ﷺ وما أنا فى النُّشور بذِى ارتيابِ
لأنَّ الله خَبَّر عن رجالٍ ﷺ حَيُوا من بَعد دَسٍ فى الترابِ

وقال يرثى أخاه :

يابن أُمى فدتْك نفسى ومالى * كنت رُكنى ومَفْزعى وجمالى
ولَعَمْرى لئن تركتُك[1] مَيْتاً * رهْن رَمْسٍ ضَنْك عليك مُهالِ
لَوَشيكا ألقاك حيًّا صحيحا * سامعا مُبْصراً على خيْر حالِ
٥ قد بُعِثْتم من القبور فأُبتم * بَعد مارَمَّتِ العظامُ البوالى
أو كسبعِين وافداً مع موسى * عايَنوا هائلا من الأهوالِ
حين راموا من خُبْثِهم رؤيةَ الله وأنَّى برؤيةِ المُتعالى
فرماهُمْ بصَعْقــةٍ أحرَقتْهم * ثم أحياهُمُ شــديدُ المِحالِ

المأمون ورجل من الحسبانية

دخل رجل من الحِسْبانية على المأمون ، فقال : لثُمامة بن أشرس : كلِّمه ، فقال
١٠ له : ما تقول ؟ وما مذهبك ؟ فقال : أقول إن الأشياء كلها على التوهُّم والحِسْبان ،
وإنما يُدرِك منها الناسُ على قَدْر عقولهم ، ولا حقَّ فى الحقيقة . فقام إليه ثمامة
فلطَمه لطمةً سَوّدت وجهَه . فقال : يا أمير المؤمنين ، يَفعل بى مثل هـذا فى
مجلسك ؟ فقال له ثُمامة : وما فعلت بك ؟ قال : لطمتَنى ، قال : ولعل إنما
دهنتك بالبان . ثم أنشأ يقول :

١٥ ولعـــلَّ آدم أُمُّنـا * والأبُ حَوّا فى الحسابْ
ولعـــلَّ ما أبْصَرْت من * بِيض الطُّيور هو الغرابْ
وعساك حين قعَدْت قُمْـــتَ وحين جئتَ هوَ الذَّهابْ
وعسى البنفسَجُ زَنْبقـا * وعسى البَهار هوَ السَّذابْ
وعساك تأكلُ من خرًا * ك وأنت تحسَبُه كبابْ

ابن عباس ورافضى

٢٠ ومن حديث ابن أبى شيبة أن عبد الله بن شدّاد قال : قال لى عبد الله بن عباس :
لأخبرنك بأعجب شىءٍ : قَرَع اليوم علىّ الباب رجلٌ لمّـا وضعت ثيابى للظهيرة ،
فقلت : ما أتى به فى مثل هـذا الحين إلا أمرٌ مُهم ، أدْخِلوه . فلما دخل قال :

---

(١) فى بعض الأصول : « لاتركنك » .

متى يُبْعث ذلك الرجل ؟ قلت : أى رجل ؟ قال : علىّ بن أبى طالب . قلت : لا يُبْعَث حتى يَبعث الله من فى القبور . قال : وإنك لتقول بقول هذه الجهلة ! قلت : أخرِجوه عنى لعنه الله .

الكيسانية — ومن الروافض : الكيسانية ، قلت : وهم أصحاب المختار بن أبى عبيد ، ويقولون إن اسمه كيسان . ٥

الحسينية — ومن الرافضة الحُسينية ، وهم أصحاب إبراهيم بن الأشتر ، وكانوا يطوفون بالليل فى أزقّة الكوفة وينادون : ياثارات الحسين . فقيل لهم الحسينية .

الغرابية — ومن الرافضة الغُرابية ، سميت بذلك لقولهم : علىٌّ أشبه بالنبى من الغراب بالغراب .

الزيدية — ومن الرافضة الزيدية ، وهم أصحاب زيد بن علىّ المقتول بخراسان ، وهم أقلُّ الرافضة غُلُوّا ، غير أنهم يرون الخروج مع كل من خرج . ١٠

الرافضة والشعبى — مالك بن معاوية قال : قال لى الشّعبي وذَكَرْنا الرافضة : يامالك ، لو أردت أن يُعطونى رقابَهم عبيداً وأن يملئوا بيتى ذهبا على أن أكْذِبَهم على علىٍّ كِذبةً واحدة لفعلوا ، ولكنى والله لا أكذب عليه أبداً ، يامالك ، إنى درست[1] الأهواء كلها ، فلم أرَ قوْماً أحمقَ من الرافضة ؛ فلو كانوا من الدواب لكانوا حميرا ، أو كانوا من الطير لكانوا رَخَما : ثم قال : أحذرك الأهواء المُضِلّة ، شرُّها الرافضة ، فإنها يهود هذه الأمة ، يُبغِضون الإسلام كما يُبغض اليهود النصرانية ، ولم يدخلوا فى الإسلام رغبةً ولا رهبة من الله ، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبَغْياً عليهم ، وقد حرّقهم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بالنار ، ونفاهم إلى البلدان ، منهم عبد الله بن سبأ ، نفاه إلى ساباط ؛ وعبد الله بن سباب ، نفاه إلى الجازر[2] وأبو الكروّس ؛ وذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود ، قالت اليهود : ١٥ ٢٠

(١) فى بعض الأصول : « دست » .

(٢) الجازر : قرية من نواحى النهروان . وفى بعض الأصول : « الحازر » .

لا يكون المُلْك إلا فى آل داود ، وقالت الرافضة : لا يكون الملك إلا فى آل على ابن أبى طالب . وقالت اليهود : لا يكون جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المَسيح المنتظر ، وينادِى منادٍ من السماء . وقالت الرافضة : لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج المهدى وينزل سببٌ من السماء . واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم ، وكذلك الرافضة . واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئا ، وكذا الرافضة . واليهود لا ترى على النساء عِدّة ، وكذلك الرافضة : واليهود تستحل دَمَ كلّ مسلم ، وكذلك الرافضة ، واليهود حرّفوا التوراة ، وكذلك الرافضة حرّفت القرآن واليهود تُبغض جبريل وتقول : هو عدوّنا من الملائكة ، وكذلك الرافضة تقول : غلط جبريل فى الوحى إلى محمد بترك على بن أبى طالب . واليهود لا تأكل لحم الجَزور ، وكذلك الرافضة . ولليهود والنصارى فضيلةٌ على الرافضة فى خصلتين : سئل اليهود : مَنْ خيرُ أهل مِلّتكم ؟ فقالوا : أصحاب موسى : وسئلت النصارى ، فقالوا : أصحاب عيسى . وسئلت الرافضة : من شر أهل ملتكم ؟ فقالوا : أصحاب مُحمد : أمَرَهم بالاستغفار لهم فشتموهم ، فالسيف مسلولٌ عليهم إلى يوم القيامة ، لا تثبُت لهم قدم ، ولا تقوم لهم راية ، ولا تجتمع لهم كلمة ، دعْوتهم مدحورة ، وكلمتهم مختلفة ، وجمعُهم مفرّق ، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله .

وذُكِرَت الرافضة يوما عند الشعبي فقال : لقد بَغّضوا إلينا حديث علىّ ابن أبى طالب .

وقال الشعبي : ما شبّهت تأويل الروافض فى القرآن إلا بتأويل رجل مضعوف من بنى مخزوم من أهل مكة ، وجدته قاعدا بفناء الكعبة . فقال : يا شعبى ماعندك فى تأويل هذا البيت ؟ فإن بنى تميم يغلطون فيه ، يزعمون أنه مما قيل فى رجل منهم ، وهو قول الشاعر :

بيْتاً زُرارةُ مُحْتبٍ بفنـائه ٭ ومُجاشِعٌ وأبو الفوارس نَهشل

فقلت له : وما عندك أنت فيه ؟ قال : البيت هو هذا البيت ـ وأشار بيده إلى الكعبة ـ وزرارة الحجر ، زرّر حول البيت . فقلت : فمجاشع ؟ قال : زمزم

جشِعَتْ بالماء . قلت : فأبو الفوارس ؟ قال : هو أبو قُبَيْس جبل مكة . قلت : فنهشل ؟ ففكر فيه طويلا ، ثم قال : أَصَبْتُه ، هو مصباح الكعبة ، طويلٌ أسوَدُ وهو النهشل .

قولهم فى الشيعة

الجاحظ

قال أبو عثمان بن بحر الجاحظ ، أخبرَنى رجل من رؤساء التجار قال : كان معنا فى السفينة شيخ شَرِس الأخلاق ، طويل الإطراق ، وكان إذا ذُكِر له الشيعة غضب واربدّ وجهه وزَوَى من حاجبيه ، فقلت له يوما : يرحمك الله ، ما الذى تكرهه من الشيعة ، فإنى رأيتك إذا ذُكروا غضبت وقبضت ؟ قال : ما أكره منهم إلا هذه الشِّين فى أول اسمهم ، فإنى لم أجدها قطُّ إلا فى كل شرٍّ وشؤم وشيطان وشغَب وشقاء وشَنار وشَرَر وشَيْن وشَوك وشكوى وشهوة وشَتم وشُح . ١٠ قال أبو عثمان : فما ثَبت لشيعىّ بعدها قائمة .

باب من كلام المتكلمين

دخل المُوبَذُ على هشام بن الحكم ، والموبذ هو عالم الفرس ، فقال له : ياهشام ، حول الدنيا شىء ؟ قال : لا . قال : فإن أخرجت يدى فثَمّ شىء يردُّها ؟ قال هشام : ليس ثَمّ شىء يردها ولا شىء تُخرج يدك فيه . قال : فكيف أعلم هذا ؟ ١٥ قال له : ياموبذ ، أنا وأنت على طرف الدنيا ، فقلت لك : ياموبذ ، إنى لا أرى شيئا . فقلت لى : ولم لا ترى ؟ فقلت ليس ها هنا ظلام يمنعنى . فقلت لى أنت : ياهشام ، إنى لا أرى شيئا . فقلت لك : ولم لا ترى ؟ قلت : ليس ضياء أنظر به . فهل تكافأت المِلّتان فى التناقض ؟ قال : نعم . قال : فإذا تكافأتا فى التناقض لم تتكافآ فى الإبطال أنْ ليس شىء ؟ فأشار الموبذ بيده أن أصبت . ٢٠

قال رجل لبعض ولاة بنى العباس : أنا أجعل هشام بن الحكم [1] أن يقول فى على رضى الله عنه إنه ظالم ؛ فقال : إن فعلت ذلك فلك كذا وكذا . ثم أحضر

(١) فى بعض الأصول : « هشام بن عبد الحكم » وهو تحريف .

هشام ، فقال له : نشدتك الله أبا محمد ، أما تعلم أن عليًّا نازع العباس عند أبي بكر ؟ قال : نعم . قال : فمن الظالمُ منهما ؟ فكرِه أن يقول العباس ، فيُواقع سخط الخليفة ، أو يقول عليّ ؛ فينقص أصلَه ، فقال : مامنهما ظالم ؟ قال : فكيف يتنازع اثنان فى شىء لا يكون أحدهما ظالما ؟ قال : قد تنازع الملَكان عند داود عليه السلام وما فيهما ظالم ، ولكن ليُنَبِّها داود على الخطيئة ، وكذلك هذان أرادا تنبيه أبى بكر من خطيئته ، فأسكت الرجل ، وأمر الخليفة لهشام بصِلة عظيمة .

دخل إبراهيم النَّظَّام على أبى الهذيل العلّاف ، وقد أسنّ وبعُد عهده بالمناظرة ، وإبراهيم حدَث السنّ . فقال : أخبرنى عن قراركم : أن يكون جوهراً مخافة أن يكون جسما ؛ فهل قررتم ألا يكون جوهراً مخافة أن يكون عَرَضا ، والعرض أضعف من الجوهر ؟ فبصق أبو الهذيل فى وجهه . فقال له إبراهيم : قبّحك الله من شيخ ، ما أضعف حجتك وأسفه حلمك .

قال : لقى جَهْمٌ رجلا من اليونانيين ؛ فقال له : هل لك أن تكلمنى وأكلمك عن معبودك هذا ، أرأيته قط ؟ قال : لا ؛ قال : فلمستَه ؟ قال : لا ؛ قال : فذُقته ؟ قال : لا ؛ قال : فمن أين عرفته وأنت لم تدركه بحِسٍّ من حواسّك الخمس وإنما عقلُك معبِّر عنها فلا يدرك إلا ما أوصلتْ إليه من جميع المعلومات ؟ قال : فتلجلج جهم ساعة ، ثم استدرك فعكس المسألة عليه فقال له : ما تُقرّ أن لك روحا ؟ قال : نعم ؛ قال : فهل رأيته أو ذقته أو سمعته أو شممته أو لمسته ؟ قال : لا ؛ قال : فكيف علمت أن لك روحا ؟ فأقرّ له اليونانى .

باب فى الحيـــاء

قال النبى صلى الله عليه وسلم : الحياء خيركله . الحياء شعبة من الإيمان . وقال عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى يحب الحيى الحليم المتعفف ، ويكره البذىء السَّئَّال الملحف .

وقال عَون بن عبد الله : الحياء والحِلم والصمت من الإيمان .

وقال ابن عمر : الحياء والإيمان مقرونان جميعا . فإذا رفع أحدهما ارتفع الآخر معه .

وقال : مكتوب فى التوراة : إذا لم تستح فاصنع ما تشاء . وقال : أحيوا الحياء بمجالسة من يُسْتَحْيا منه .

وذكر أعرابى رجلا حيًّا فقال : لاتراه الدهرَ إلا كأنه لاغنى به عنك ، وإن كنت إليه أحوج ، وإن أذنبتَ غفر وكأنه المذنب ، وإن أسأتَ إليه أحسن وكأنه المسىء .

لليلى الأخيلية :

فتًى هو أحيا من فتاة حَيِيّة * وأشجع من لَيث بخِفَّان خادِر

ولابن قيس أيضاً :

تخالهُمُ للحلم صُمًّا عن الخَنَا * وخُرْساً عن الفحشاء عند التهاجر

ومرضى إذا لوقُوا حياءً وعِفَّة * وعند الحِفاظ كالّليوث الخوادر

وقال الشعبي : تعاشر الناسُ فيما بينهم زماناً بالدين والتقوى ، ثم رُفع ذلك فتعاشروا بالحياء والتذمم ، ثم رُفع ذلك ، فما يتعاشر الناس إلا بالرغبة والرهبة . وسيجىء ماهو شرٌّ من ذلك .

وقيل : الحياء يزيد فى النُبل .

ولبعضهم :

فلا وأبيك ما فى العيش خير * ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وقال آخر :

إذا رُزق الفتى وجهاً وَقاحا * تقلّب فى الأمور كما يشاء

ولم يك للدواء ولا لشىء * تُعالجه به فيه غَناء

ورُبَّ قبيحة ما حال بينى * وبين رُكوبها إلا الحياء

وقال علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : قُرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان .

وقد قيل :

ارفع حياءك فيما جئتَ طالبَه ◦ إنّ الحياء مع الحرمان مقرون

وفى المثل : كثرة الحياء من التخنُّث .

قال الحسن : من استتر بالحياء لبس الجهل سرباله ، فقطّعوا سرابيل الحياء ، فإنه من رقّ وجهه رق علمه .

وصف رجلٌ الحياء عند الأحنف فقال : إنّ الحياء ليتم لمقدار من المقادير ، فما زاد على ذلك فسمه بما أحببت .

وقال بعضهم :

إنّ الحياء مع الحِرمانِ مقترنٌ ◦ كذاك قال أمير المؤمنين علِى

واعلم بأن من التخنيث أكثره ◦ فارفعه فى طلب الحاجات والأمل

وللشّمّاخ :

أُجامل أقواماً حياءً وقد أرى ◦ صـدورهم بادٍ علىَّ مِراضُها

ولابن أبى حازم :

وإنى ليثنينى عن الجهل والخَنا ◦ وعن شتم ذى القربى خلائق أربع :

حياءٌ ، وإسلام ، وتقوى ، وأننى ◦ كريم ومثلى قد يَضر ويَنفع

وقال آخر :

إذا حُرم المرء الحيـاء فإنه ◦ بكل قبيح كان منه جدير

له قِحة فى كل أمر وسرُّه ◦ مُباح وجدواه جفاً وغرور

يرى الشّتمَ مَدحاً والدناءة رِفعة ◦ وللسمع منه فى العِظات نُفور

فرجِّ الفتى ما دام حيًّا فإنه ◦ إلى خير حالات المُنيب يصير

باب جامع الآداب

آداب الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم

لابن عبد ربه قال أبو عمر أحمد بن محمد : أوّل ما نبدأ به : أدبُ النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أدبه صلى الله عليه وسلم لأمّته ، ثم الحكماء والعلماء .

٥ وقد أدّب الله نبيّه بأحسن الآداب كلها ، فقال له : ﴿ ولا تجعلْ يَدَكَ مغْلولةً إلى عُنُقِك ولا تبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فتقعُدَ ملوماً محْسُوراً ﴾ فنهاه عن التقتير كما نهاه عن التبذير ، وأمر بتوسّط الحالتين ؛ كما قال عز وجل : ﴿ والذين إذا أَنفقوا لمْ يُسْرِفوا ولمْ يقْتُروا وكان بيْنَ ذلك قَواماً ﴾ .

وقد جمع الله تبارك وتعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم جوامعَ الكلم فى كتابه
١٠ المُحْكَم ، ونظَم له مكارم الأخلاق كلها فى ثلاث كلمات ، فقال : ﴿ خُذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِض عنِ الجاهلين ﴾ ففى أخذِهِ العفوَ صلةُ من قطَعه ، والصفحُ عمّن ظلَمه ؛ وفى الأمر بالمعروف تقوى الله ، وغضُّ الطَّرْف عن المحارم ، وصونُ اللسان عن الكذب . وفى الإعراض عن الجاهلين تنزيهُ النفس عن مُماراة السفيه ومنازعةِ اللجوج .

١٥ ثم أمره تبارك وتعالى فيما أدبه ، باللين فى عريكته ، والرّفق بأُمّته ، فقال : ﴿ واخْفِضْ جَناحك لِمَنِ اتّبعكَ مِنَ المُؤْمنين ﴾ وقال : ﴿ ولو كُنْتَ فظًّا غليظ القلْبِ لانْفَضُوا منْ حوْلِكَ ﴾ وقال تبارك وتعالى : ولا تَسْتوى الحَسَنةُ ولا السّيئةُ ادْفع بالّتِى هىَ أحسنُ فإذا الذى بيْنَكَ وبينهُ عداوَةٌ كأنّهُ ولِىٌّ حَميمٌ ، وما يُلقّاها إلّا الذين صبرُوا وما يُلقّاها إلّا ذُو حظٍّ عظيم .

٢٠ فلما وعَى عن الله عز وجل وكملتْ فيه هذه الآداب ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ منْ أنْفُسِكم عزيزٌ عليهِ ما عنِتّم حريصٌ عليْكُمْ بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ . فإنْ تَوَلّوْا فقُلْ حسْبِيَ اللهُ لا إلهَ إلّا هوَ عليه توكّلْتُ وهو ربُّ العرشِ العظيم ﴾ .

باب آداب النبي صلى الله عليه وسلم لأمته

النبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما أدّب به أمّته وحضّها عليه من مكارم الأخلاق وجميل المعاشرة وإصلاح ذات البين وصلة الأرحام : أوْصانى ربّى بتسْعٍ وأنا أوصيكم بها ، أوصانى بالإخلاص فى السرّ والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصْد فى الغنى والفقر ، وأن أعفوَ عمّنْ ظلمَنى ، وأُعْطِىَ مَنْ حرَمنى ، وأصِل مَن قطَعنى ، وأن يكون صَمْتى فكراً ، ونُطقى ذكرا ، ونَظَرى عِبَرا .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : نهيتُكم عن قِيل وقالَ وإضاعةِ المالِ وكثرةِ السؤال .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : لا تقعدوا على ظهور الطرق ، فإن أبيْتُم فغُضُّوا الأبصار ، وأفشُوا السلام ، وآهْدوا الضالّ ، وأعينوا الضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم : أوْكُوا السّقاء ، وأكفِئُوا الإناء ، وأغلِقُوا الأبواب ، وأطفِئُوا المصباح ؛ فإن الشيطان لا يفتح غلقا ولا يحُلُّ وِكاء ولا يكشف الإناء .

وقال صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئُكم بشرِّ الناس ؟ قالوا : بَلَى يارسول الله قال : منْ أكل وحدهُ ، ومنَعَ رِفْدَهُ ، وجلَدَ عبدَهُ .

ثم قال : ألا أنبئكم بشرٍّ من ذلك ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : مَن يُبْغِضُ الناسَ ويُبغضونه .

وقال : حصّنوا أموالكم بالزكاة ، وداوُوا مرضاكم بالصّدقة ، واستقبلوا البلاء بالدعاء .

وقال : ما قلّ وكَفَى خيرٌ مما كثُر وألْهَى .

وقال : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعَى بذمّتهم أدناهم ، وهم يدٌ على مَن سواهُم .

وقال : اليَدُ العُليا خيرٌ من اليد السفلى وابدأ بمن تعُول .

وقال : لا تجن يمينُك على شمالِك . ولا يُلدَغ المؤمن من جُحر مرتين .

وقال : المرء كثيرٌ بأخيه .

وقال آفصلوا بين حديثكم بالاستغفار ، وآستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .

وقال : أفضل الأصحابِ من إذا ذَكرْت أعانكِ ، وإذا نسِيت ذكرك . ٥

وقال : لا يُؤَمّ ذو سلطان فى سلطانه ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه .

وقال صلى الله عليه وسلم : يقول ابن آدم : مالى مالى ! وإنما لهُ من ماله ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلَى ، أو وهَبَ فأمضَى .

وقال : ستحرصون على الإمارة ، فنِعْمَتِ المُرْضِعة وبِئست الفاطمة .

وقال : لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان . ١٠

وقال : لو تكاشفتم ما تدافنتم ، وما هَلك امرؤٌ عرف قدْره .

وقال : الناس كإبل مائةٍ لا تكاد تجد فيها راحلة . والناس كلهم سواء كأسنان المشْط .

وقال : رحِمَ الله عبداً قال خيراً فغَنِمَ ، أو سكتَ فسَلِم .

وقال : خير المال سِكّةٌ مأبورة ، ومُهْرة مأمورة . وخير المال عينٌ ساهرة لعين نائمة . ١٥

وقال فى إناث الخيل : بطونها كنز ، وظهورها حِرز .

وقال : ما أمْلقَ تاجرٌ صَدوق ، وما أَقْفرَ بيت فيه خلّ .

وقال : قيّدوا العلم بالكتابة .

وقال : زُرْغِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا . ٢٠

وقال : علّقْ سوْطَك حيثُ يَراه أهلُك .

باب فى آداب الحكماء والعلماء

منه فى فضيلة الأدب

لبعض الحكماء

أوصَى بعض الحكماء بنيه فقال : الأدب أكرم الجواهر طبيعة ، وأنفَسُها قيمة ، يَرفع الأحسابَ الوضيعة ، ويُفيدُ الرَّغائب الجليلة ، ويُعِزُّ بلا عشيرة ، ٥ ويُكثر الأنصار بغير رزية ؛ فالبسوه حُلّة ، وتزيّنوه حِلية ؛ يؤنسكم فى الوحْشَة، ويجمع لكم القلوب المختلفة .

لعلى

ومن كلام علىّ عليه السلام ، فيما يروى عنه أنه قال : من حَلُم ساد ، ومن ساد استفاد ، ومن استحيا حُرِم ، ومن هاب خاب ، ومن طلب الرياسة صبَر على السياسة ، ومن أبصر عيبَ نفسه عَمِى عن عيب غيره ، ومن سلّ سيف البغْى ١٠ قُتِل به ، ومن آحتفر لأخيه بئرا وقع فيها ، ومن نَسِى زلتَهُ آستعظم زلّة غيره ، ومن هَتَك حجاب غيره آنهتكتْ عوراتُ بيته ، ومن كابر فى الأُمور عطِب ، ومن آقتحم اللُّججَ غرق ، ومن أعجب برأيه ضلّ ، ومن آستغنى بعقله زلّ ، ومن تجبّر على الناس ذلّ ، ومن تعمّق فى العمل ملّ ، ومن صاحب الأنذال حُقِّرَ ، ومن جالس العلماء وقِّر ، ومن دخل مداخل السوء أُتهِم ، ومَن حَسُن خلُقُهُ ١٥ سهُلت له طُرُقهُ ، ومن حسُن كلامُه كانت الهيبة أمامه ، ومن خَشِى الله فاز ؛ ومن استقاد الجهل ترَك طريق العدل ، ومن عرَف أجله قصر أمله ، ثم أنشأ يقول :

إلبَسْ أخاكَ علَى عُيوبِهْ ۞ واسْتُر وغطِّ على ذُنوبِهْ
واصْبِر على بَهتِ السَّفيــهِ وللزَّمَانِ على خُطوبِهْ
٢٠ ودعِ الجوابَ تفضُّلا ۞ وَكِلِ الظَّلُومَ إلى حسيبِهْ

لشبيب

وقال شَبيب بن شَيبة : اطلبوا الأدب فإنه مادةُ العقل ، ودليلٌ على المروءة، وصاحبٌ فى الغُربة ، ومؤنسٌ فى الوحشة ، وحليةفى المجلس ،ويجمع لكم القلوب المختلفة .

لعبد الملك ينصح بنيه

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : عليكم بطلب الأدب ؛ فإنّكم إن احتجْتم

إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا .

لبعض الحكماء — وقال بعض الحكماء : اعلم أنّ جاها بالمال إنما يصحَبُك ما صَحِبَك المال ، وجاهاً بالأدب غيرُ زائل عنك .

لابن المقفع — وقال ابن المُقفّع : إذا أكرمك الناسُ لمالٍ أو لسلطانٍ فلا يُعجِبْك ذلك : فإن الكرامة تزول بزوالهما ، ولكن ليُعْجِبْك إذا أكرموك لِدينٍ أو أدب . ٥

للأحنف — وقال الأحنف بن قيس : رأس الأدب المنطق ، ولا خير فى قول إلا بفعل ولا فى مالٍ إلا بجود ، ولا فى صديق إلا بوفاء ، ولا فى فقهٍ إلا بِوَرَع ؛ ولا فى صِدق إلا بنيّة .

وقال مصقلة الزُّبيرى [1] : لا يستغنى الأديبُ عن ثلاثة واثنين : فأمّا الثلاثة: فالبلاغة والفصاحة وحسن العبارة . وأما الاثنان فالعلم بالأثر والحفظُ للخبر . ١٠

لبعضهم — وقالوا : الحسَبُ محتاجٌ إلى الأدب ، والمعرفة محتاجةٌ إلى التجربة .

لبزرجمهر — وقال بُزُرْجمهر : ما ورَّث الآباء الأبناء شيئا خيراً من الأدب لأنّ بالأدب يكسِبون المال وبالجهل يُتْلِفونه .

للفضيل بن عياض — وقال الفُضيل بن عِياض : رأسُ الأدب معرفة الرجل قَدْرَه .

وقالوا : حُسن الخلق خير قرين ، والأدب خير ميراث ، والتوفيق خير قائد . ١٥

لسفيان الثورى — وقال سُفيان الثَّورى : من عرف نفسه لم يَضِرْه ما قال الناس فيه .

أنوشروان والموبذ — وقال أنوشروان للموبَذ ، وهو العالم بالفارسية : ماكان أفضل الأشياء ؟ قال الطبيعة النقية تكتفى من الأدب بالرائحة ، ومن العِلم بالإشارة ؛ وكما يموت البَذر فى السّباخ ، كذلك تموت الحكمة بموت الطبيعة . قال له : صدقت ، ونحن لهذا قلّدْناك ما قلدناك . ٢٠

لأردشير — وقيل لأردشير : الأدب أغْلَبُ أم الطبيعة ؟ فقال : الأدب زيادةٌ فى العقل

(١) فى بعض الأصول : « مطلقة الزبيدى » .

ومنْبَهةٌ للرأى ، ومكْسَبة للصواب ؛ والطبيعة أمْلَك ، لأن بها الاعتقاد ونماء الفراسة وتمام الغذاء .

لبعض الحكماء — وقيل لبعض الحكماء : أىُّ شىء أعْوَن للعقل بعد الطبيعة المولودة ؟ قال : أدبٌ مكتَسَب .

٥ وقالوا : الأدب أدَبان : أدبُ الغريزة ، وهو الأصل ؛ وأدب الرواية ، وهو الفرع . ولا يتفرع شىء إلا عن أصله ، ولا يَنْمى الأصل إلا باتصال المادة .

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

ولم أرَ فرعاً طال إلا بأصله * ولم أر بدء العلم إلا تعلُّما

لحبيب — وقال حبيب :

١٠ وما السيفُ إلا زُبْرةٌ لو تركتَه * على الحالة[1] الأُولى لَمَا كان يَقطع

وقال آخر :

ما وَهَب الله لِامْرئ هِبَةً * أفْضلَ من عقلِهِ ومن أدبِهْ

هما حياةُ الفتَى فإنْ فُقِدا * فإنّ فَقْدَ الحياةِ أحسنُ بهْ

لابن عباس — وقال ابن عباس : كَفاك من عِلم الدين أن تعرف ما لا يسَعُك جهلُه ، وكفاك

١٥ من علم الأدب أن تَروِىَ الشاهد والمثال .

لابن قتيبة — قال ابن قتيبة : إذا أردت أن تكون أديباً فتفنّنْ فى العلوم .

وقالت الحكماء : إذا كان الرجل طاهر الأثواب ، كثير الآداب ، حَسَن المذهب ؛ تأدّب بأدبه وصلَح لصلاحه جميعُ أهلِه وولده .

قال الشاعر :

٢٠ رأيتُ صلاحَ المرء يُصلِح أهله * ويُفسِدُهم ربُّ الفسادِ إذا فَسَدْ

يُعظَّم فى الدنيا لفضل صَلاحِه * ويُحفظ بعدالموتِ فى الأهل والولَد

لديوجانس — وسئل ديُوجانس : أى الخصال أحْمَدُ عاقبة ؟ قال : الإيمان بالله عز وجل ،

(١) فى بعض الأصول : « الخلقة » .

وبرُّ الوالدين ، ومحبةُ العلماء ، وقَبول الأدب .

النبي صلى الله عليه وسلم

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من لا أدب له لا عقل له .

وقالوا : الأدب يَزيد العاقل فضلا ونباهة ، ويُفيده رقة وظرفا .

وفى رقة الأدب

العباس

قال أبو بكر بن أبى شيبة : قيل للعباس بن عبد المطلب ، أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو أكبر منى وأنا أَسَنُّ منه . ٥

أبو وائل وابن خثيم

وقيل لأبى وائل : أيكما أكبر ؛ أنت أم الربيع بن خُثيم[1] ؟ قال أنا أكبر منه سنا وهو أكبر منى عقلا .

أبان وطويس

وقال أبان بن عُثمان لطُوَيْس المُغنى : أنا أكبر أم أنت ؟ قال : جُعِلتُ فِداك ! لقد شهدت زِفاف أمّك المباركة . ١٠

لابن ذر فى ابنه

وقيل لعمر بن ذر : كيف بِرُّ ابنك بك ؟ قال : ما مشيْت نهاراً قطُّ إلا مشى خلفى ، ولا ليلا إلا مشى أمامى ولا رَقِىَ عِلّيّةً وأنا تحته .

الرسول صلى الله عليه وسلم والعباس

ومن حديث عائشة ، قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُبجّل أحداً تبجيلَه لعمّه العباس .

وكان عمر وعثمان إذا لقيا العباس نَزَلا إعظاماً له إذا كانا راكبين . ١٥

الرشيد وعبد الملك ابن صالح

الرياشى عن الأصمعى قال : قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح : أهذا منزلك .

وقد تقدم هذا الخبر فى الخبر الذى فيه مخاطبة الملوك ، وكذلك قول الحجاج للشعبى : كم عطاءك .

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى رقة الأدب : ٢٠

أدبٌ كمثل الماء لو أفرغْتَه ... يوماً لسالَ كما يسيل الماءُ

من أدب على ابن يحيى

أحمد بن أبى طاهر قال : قلت لعلى بن يحيى : ما رأيت أكمل أدبا منك !

---

(١) فى أكثر الأصول : « خيثم » ، وهو تحريف .

قال : كيف لو رأيت إسحاق بن إبراهيم ! فقلت ذلك لإسحاق بن إبراهيم ، فقال : كيف لو رأيت إبراهيم بن المهدى ! فقلت ذلك لإبراهيم ، فقال : كيف لو رأيت جعفر بن يحيى .

من روءة عمر بن عبد العزيز

وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز : قال لى رجاء بن حَيْوَة : ما رأيت أكرم أدباً ، ولا أكرم عِشْرَة من أبيك ؛ سَمَرْت عنده ليلة ، فبينا نحن كذلك إذ غَشِى المصباح ونام الغلام . فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد غَشِى المصباح ونام الغلام ، فلو أذِنْت لى أصلحتُه ! فقال : إنه ليس من مروءة الرجل أن يَستخدم ضيْفَه ، ثم حط رداءه عن منكبيه ، وقام إلى الدَّبَّة فصبّ من الزيت فى المصباح ، وأشخص الفَتيلة ، ثم رجع . وأخذ رداءه وقال : قمت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر .

عمر بن الخطاب ورجل أحدث صوتاً فى المسجد

العتبى عن أبيه قال : صوّت رجل عند عمر بن الخطاب فى المسجد . فلما كانت الصلاة قال عمر : عزمت على صاحب الصوت إلا قام فتوضأ . فلم يقم أحد . فقال جرير بن عبد الله : يا أمير المؤمنين ، اعزم علينا كلّنا أن نقوم فنتوضأ قال : صدَقت ! ولا علمتُك إلا سَيِّدا فى الجاهلية ، فقيهاً فى الإسلام ، قوموا فتوضئوا .

الشحام والحسن

الرياشى عن الأصمعى قال : حدثنى عثمان الشحّام ، قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد . قال : لبيك . قلت : أتقول لى لبيك ؟ قال : إنى أقولها لخادمى .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

يا حبّذا حين تمسى الرِّيح باردةً ٭ وادِى أُشَىّ وفتيانٌ به هُضُمُ
مُخَدَّمون ، كرامٌ فى مجالسهم ٭ وفى الرِّحال إذا رافقْتهم خدَمُ
وما أُصاحِبُ من قوْم فأذكُرهُمْ ٭ إلا يزيدُهُمُ حُبًّا إلىَّ هُمُ

الأدب فى الحديث والاستماع

للحكماء

وقالت الحكماء : رأس الأدب كلّه حُسنُ الفهم والتفهُّم ، والإصغاء للمتكلِّم .

للشعبي فى قوم — وذكر الشعبي قوماً فقال : مارأيت مثلهم أسدّ تناوبا فى مجلس ، ولا أحسن فهماً من محدّث .

وله فى عبدالملك — وقال الشعبي فيما يصف به عبد الملك بن مروان : والله ما علمتُه إلا آخذاً بثلاث ، تاركا لثلاث : آخذا بحسن الحديث إذا حدَّث ، وبحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وبأيسر المؤونة إذا خُولف ؛ تاركا لمجاوبة اللئيم ، ومماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج . ٥

لبعض الحكماء يوصى ابنه — وقال بعض الحكماء لابنه : يابنيّ ، تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الحديث ؛ وليعلم الناس أنك أحرص على أن تسمع منك على أن تقول ؛ فاحذر أن تُسرع فى القول فيما يجب عنه الرجوع بالفعل ، حتى يعلم الناس أنك على فعل ما لم تقل أقرب منك إلى قول ما لم تفعل . ١٠

لبعضهم — قالوا : من حُسن الأدب ألّا تغالب أحداً على كلامه ، وإذا سئل غيرُك فلا تجب عنه ، وإذا حدَّث بحديث فلا تُنازعه إياه ، ولا تقتحم عليه فيه ، ولا تُرِه أنك تعلمه ، وإذا كلمت صاحبك فأخذته حجتُك فحسِّن مخرج ذلك عليه ولا تُظهر الظفَر به ، وتعلم حُسن الاستماع ، كما تعلّم حسن الكلام .

للحسن البصرى — وقال الحسن البصرى : حدّثوا الناس ما أقبلوا عليكم بوجوههم . ١٥

لأبى عباد — وقال أبو عبّاد الكاتب : إذا أنكر المتكلم عين[1] السامع فليسأله عن مقاطع حديثه ، والسببِ الذى أجرى ذلك له ؛ فإن وجده يقف على الحق أتمّ له الحديث ، وإلا قطعه عنه وحَرمه مؤانسته ، وعرّفه ما فى سوء الاستماع من الفُسولة والحِرمان للفائدة .

الأدب فى المجالسة

٢٠

للنبى صلى الله عليه وسلم — ومن حديث أبى بكر بن أبى شيبة أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا يقم الرجل للرجل عن مجلسه ولكن ليوسّع له .

---

(١) فى بعض الأصول : « خبر » .

ابن عمر فيمن يقوم له

وكان عبد الله بن عمر إذا قام له الرجل عن مجلسه لم يجلس فيه . وقال : لا يقم أحد عن مجلسه ؛ ولكن أفسحوا يَفْسَحِ اللهُ لكم .

للنبي صلى الله عليه وسلم

أبو أمامة قال : خرج إلينا النبي صلى الله عليه وسلم فقمنا إليه ؛ فقال : لا تقوموا كما يقوم العجم لعظمائها . فما قام إليه أحد منا بعد ذلك .

٥ ومن حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن خرجتُ عليكم وأنتم جلوس فلا يقومن أحدٌ منكم فى وجهى ؛ وإن قمت فكما أنتم ، وإن جلست فكما أنتم . فإن ذلك خُلق من أخلاق المشركين .

وقال صلى الله عليه وسلم : الرجل أحق بصدر دابّته وصدر مجلسه وصدر فراشه . ومن قام عن مجلسه ورجع إليه فهو أحق به .

١٠ وقال صلى الله عليه وسلم : إذا جلس إليك أحدٌ فلا تقم حتى تستأذنه .

الحسن بن على وجالس له

وجلس رجل إلى الحسن بن علىّ ـ عليهما الرضوان ـ فقال له : إنك جلست إلينا ونحن نريد القيام ، أفتأذن ؟

لسعيد بن العاص

وقال سعيد بن العاص : مامددتُ رجلى قطُّ بين يدى جليس ، ولا قمتُ عن مجلسى حتى يقوم .

١٥ وقال إبراهيم النَّخعى : إذا دخل أحدكم بيتاً فليجلس حيث أجلسه أهلُه .

وطرح أبو قِلابة لرجل جلس إليه وسادة فردَّها ، فقال : أما سمعتَ الحديث : لا تردَّ على أخيك كرامتَه .

وقال على بن أبى طالب رضوان الله عليه : لا يأبى الكرامة إلا حمار .

وقال سعيد بن العاص : لجليسى علىَّ ثلاث : إذا دنا رحَّبت به ، وإذا جلس ٢٠ وسَّعت له ، وإذا حدث أقبلت عليه .

وقال : إنى لأكره[1] أن يَمر الذباب بجليسى مخافة أن يؤذيه .

معاوية والأحنف

الهيثم بن عدى عن عامر الشعبى قال : دخل الأحنف بن قيس على معاوية ؛

---

(١) فى بعض الأصول : « لأخاف » .

فأشار إليه إلى وسادة ، فلم يجلس عليها ؛ فقال له : ما منعك يا أحنف أن تجلس على الوسادة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن فيما أوصى به قيس بن عاصم ولده أن قال : لا تَغْشَ للسلطان حتى يَمَلَّك ولا تقطعه حتى يَنساك ، ولا تجلس له على فراش ولا وسادة ، وآجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين .

الحسن ٥ وقال الحسن : مجالسة الرجل من غير أن يُسأل عن آسمه وآسم أبيه ، مجالسةُ النوكى .

ابن شيبة وابو جعفر ولذلك قال شبيب بن شيبة لأبى جعفر ، ولقيه فى الطواف وهو لا يعرفه ، فأعجبه حسن هيئته وسمته : أصلحك الله ، إنى أحب المعرفة ، وأجلُّك عن المسألة . فقال : أنا فلان بن فلان .

لزياد ١٠ قال زياد : ما أتيت مجلساً قط إلا تركت منه مالو جلست فيه لكان لى ، وتَرْكُ مالى أحبُّ إلىّ من أخذ ما ليس لى .

وقال : إياك وصدور المجالس وإن صدَّرك صاحبُها ؛ فإنها مجالس قُلْعة .

الشعبي وقال الشعبي : لأنْ أُدْعَى من بُعْدٍ إلى قُربٍ أحبُّ إلىّ من أن أُقْصَى من قُرب إلى بُعد .

ابن طاهر وابو السمراء ١٥ وذكروا أنه كان يوما أبو السَّمراء عند عبد الله بن طاهر ، وعنده إسحاق ابن إبراهيم ، فاستدنى عبد الله إسحاق فناجاه بشيء ، وطالت النجوى بينهما . . . قال : فاعترتنى حيرة فيما بين القعود على ما هما عليه والقيام ، حتى انقطع ما بينهما وتنحى إسحاق إلى موقفه ، ونظر عبد الله إلىّ ، فقال : يا أبا السمراء :

إذا النجيَّان سَرَّا عنك أمرَهما * فانزحْ بسمعك تجهل ما يقولانِ

٢٠ ولا تُحمِّلْهما ثقلا لخوفهما * على تناجيهما بالمجلس الدَّانى

فما رأيت أكرم منه ولا أرفقَ أدبا ، تَرك مطالبتى فى هفوتى بحق الأمراء ، وأدّبنى أدب النظراء .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنما أحدكم مرآة أخيه ، فإذا رأى عليه أذًى

فليُمِطْه عنه ، وإذا أخذ أحدكم عن أخيه شيئا فليقل : لا بِكَ السوء ، وصَرَف الله عنك السوء .

لبعضهم — وقالوا : إذا آجتمعت حُرمتان أسقطت الصغرى الكبرى .

للمهلب — وقال المهلب بن أبى صفرة : العيش كله فى الجليس المُمْتع .

الأدب فى المماشاة

٥

هشام بين ابنه وابن أخيه — وجه هشام بن عبد الملك ابنَه على الصائفة ، ووجه معه آبن أخيه ، وأوصى كلَّ واحد منهما بصاحبه ، فلما قدِم عليه قال لآبن أخيه : كيف رأيت آبن عمِّك؟ فقال : إن شئت أجملت وإن شئت فسَّرت . قال : بل أجْمِلْ . قال : عرضت بيننا جادَّة فتركها كلُّ واحد منا لصاحبه ، فما ركبناها حتى رجعنا إليك .

١٠ المأمون وابن أكثم — وقال يحيى بن أكثم : ماشيت المأمون يوماً من الأيام فى بستان مؤنسة بنت المهدى ، فكنت من الجانب الذى يستره من الشمس فلما انتهى إلى آخره وأراد الرجوع . أردت أن أدور إلى الجانب الذى يستره من الشمس ، فقال : لا تفعل ، ولكن كن بحالك حتى أسترك كما سترتَنى ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو قدرتُ أن أقيَك حرَّ النار لفعلت ، فكيف الشمس ؟ فقال : ليس هذا من كرم الصُّحبة .

١٥ ومشى ساتراً لى من الشمس كما سترتُه .

ابن ذر وولده — وقيل لعمر بن ذَرّ : كيف برُّ ابنك بك ؟ قال : مامشيت نهاراً قط إلا مشى خلفى ، ولا ليلا إلا مشى أمامى ، ولا رقى سطحا وأنا تحته .

لزياد فى حارثة — وقيل لزياد : إنك تستخلص حارثة بن زيد وهو يواقع الشراب . فقال : وكيف لا أستخلصه وما سألته عن شىء قطُّ إلا وجدتُ عنده منه علماً ، ولا آستودعته سِرّا قط نضَيَّعَه ، ولا راكبنى قط فمَسَّت ركبتى ركبتُه .

٢٠

بين الهادى وابن يزيد فى سفر — محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز قال : خرجتُ مع موسى الهادى أمير المؤمنين من جُرجان ، فقال لى : إمّا أن تحملنى وإمّا أن أحملك ، فعلمت ما أراد ، فأنشدته أبيات ابن صِرْمة :

أُوصيكمُ بالله أوّلَ وَهْلةٍ ٭ وأحسابِكم والبِرِ بالله أوّلُ

وإن قومُكم سادوا فلا تحسدوهمُ * وإن كنتمُ أهلَ السِّيادة فاعدلوا
وإن أنتمُ أعْوَزْتمُ فتعفّفوا * وإن كان فضل المال فيكم فأفْضِلوا
وإن نزلتْ إحدى الدَّواهى بقومِكم * فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن طلبوا عُرفا فلا تحرموهُمُ * وما حملوكم فى المُلمات فاحملوا

قال : فأمر لى بعشرين ألف درهم . ٥

بين الهادى وابن سلم وعبد الله ابن مالك

وقيل إن سعيد بن سَلْم راكب موسى الهادى والحربةُ بيد عبد الله بن مالك ، وكانت الريحُ تَسفى التراب ، وعبد الله يلحظ موضع مسير موسى فيتكلف أن يسير على مُحاذاته ، وإذا حاذاه ناله ذلك التراب ، فلما طال ذلك عليه أقبل على سعيد ابن سلم فقال : أما ترى ما نَلْقَى من هذا الخائن ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصّر فى الاجتهاد ، ولكن حُرم التوفيق . ١٠

باب السلام والإذن

النبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : أطيبوا الكلام ، وأفشوا السلام ، وأطعموا الأيتام ، وصلُّوا بالليل والناس نِيام .

وقال صلى الله عليه وسلم : إنّ أبخل الناس الذى يبخل بالسلام .

وأتى رجلٌ النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : عليك السلام يا رسول الله . ١٥ فقال : لا تقل : عليك السلام ؛ فإنها تحية الموتى ، وقل : السلام عليك .

عمر بن عبد العزيز وجماعة سلموا عليه

وقال صاحب حرس عمر بن عبد العزيز : خرج عمر فى يوم عيد وعليه قميص كتّان وعمامة على قلنسوة لاطئة ، فقمتُ إليه وسلّمت عليه ، فقال : مه ، أنا واحد وأنتم جماعة ؛ السلام علىّ والردُّ عليكم . ثم سلّم ورَدَدْنا عليه ، ومشى فمشينا معه إلى المسجد . ٢٠

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : يُسلّم الماشى على القاعد ، والراكبُ على الراجل ، والكبير على الصغير .

ودخل رجل على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أبى يُقرئك السلام .

فقال : عليك وعلى أبيك السلام .

ابن مسعود وابن الخطاب والأسود

إبراهيم عن [1] الأسود قال : قال عبد الله بن مسعود : إذا لقيتَ عمر فاقرأ عليه السلام . قال : فلقيته فأقرأته السلام ، فقال : عليك وعليه السلام .

سليمان بن هشام وابن مهران

دخل ميمون بن مِهْران على سليمان بن هشام وهو والى الجزيرة ، فقال : السلام عليكم . فقال له سليمان : مامنعك أن تسلِّم بالإمْرة ؟ فقال : إنما يُسَلَّم على الوالى بالإمرة إذا كان عنده الناس .

الحسن وإبراهيم وابن مهران

أبو بكر بن أبى شَيبة قال : كان الحسن وإبراهيم وميمون بن مهران يكرهون أن يقول الرجل ، حياك الله . حتى يقول السلام .

وسئل عبد الله بن عمر عن الرجل يدخل المسجد أو البيت ليس فيه أحد ، قال : يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

النبي ومسلم عليه

ومر رجل بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يبول ، فسلّم عليه ، فلم يردّ عليه السلام .

وقال رجل لعائشة : كيف أصبحتِ ؟ قالت : بنعمة من الله .

وقال رجل لشُريح : كيف أصبحتَ ؟ قال : أصبحت طويلا أملى ، قصيراً أجلى ، سيِّئاً عملى .

بين سفيان وآخر فى مثله

وقيل لسفيان الثورى : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت فى دار حارَتْ فيها الأدِلّاء .

الرسول صلى الله عليه وسلم ومستأذن

واستأذن رجل من بنى عامر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت ، فقال : أَلِجُ ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه : اخرج إلى هذا فعلِّمه الاستئذان ، وقل له يقول : السلام عليكم ، أأدْخل ؟

جابر بن عبد الله قال : استأذنت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : من أنت ؟ فقلت : أنا . قال : أنا أنا !

(١) فى بعض الأصول : « إبراهيم بن الأسود » .

للنبى صلى الله عليه وسلم

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : الاستئذان ثلاثة ؛ فإن أُذِن لك وإلا فارجِعْ .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : الأُولى إذْن ، والثانية مؤامرة ، والثالثة عزيمة ؛ إما أن يأذنوا ، وإما أن يَرُدُّوا .

باب فى تأديب الصغير

للحكماء

قالت الحكماء : من أدب ولدَه صغيراً سُرَّ به كبيراً . ٥

وقالوا : أَطْبَعُ الطين ماكان رطبا ، وأَغْمَزُ العودِ ماكان لَدْناً .

وقالوا . من أدَّب ولده غَمَّ حاسدَه .

لابن عباس

وقال ابن عباس : من لم يجلس فى الصغر حيث يكره ، لم يجلس فى الكبر حيث يُحِبّ .

لبعض الشعراء

قال الشاعر : ١٠

إذا المرء أعيته المُروءةُ ناشِئاً ٭ فمطلبُها كهلًا عليه شديدُ

وقالوا : ما أشدّ فطامَ الكبير ، وأعْسَرَ رياضة الهرم .

قال الشاعر :

وتَرُوضُ عِرْسَك بعد ماهَرِمَت ٭ ومن العَناءِ رِياضةُ الهرِمِ

شريح يوصى معلم ولده

كتب شريح إلى معلم ولده : ١٥

تَرَكَ الصَّلاةَ لِأَكْلُب يسعى بها ٭ يَبغِى الهِراش مع الغُواة الرُّجسِ

فليأتينَّك غدوةً بصحيفة ٭ كُتبت له كصحيفة المتلمّس

فإذا أتاك فعَضّه بملامةٍ ٭ أوْعِظْه موْعظة الأديب الكيِّس

فإذا هَمَمْتَ بضربه فبِدِرَّةٍ ٭ وإذا بلَغت ثلاثةً لك فاحبِسِ

واعلم بأنّك ما أتيتَ فنفسُه ٭ مع ما يُجَرِّعُنى أعزُّ الأنفُس ٢٠

لابن عبد القدوس

وقال صالح بن عبد القُدّوس :

وإنَّ مَن أدَّبتَه فى الصِّبا ٭ كالعُود يُسقَى الماء فى غَرْسِه

حتى تراه مُـسـورقاً ناضراً * بعد الذى أبصرْت من يُبسِه
والشيخُ لا يَترُكُ أخلاقَه * حتى يوارَى فى ثرى رَمْسِه
إذا ارْعوَى عادَ له جهله * كذِى الضَّنَى عاد إلى نُكسِه
ما تَبلُغ الأعداءُ من جاهلٍ * ما يَبلُغ الجاهل من نفسِه

لعمرو بن عتبة يوصى معلم ولده

٥ وقال عمرو بن عُتبة لمعلِّم ولده : ليكن أولَ إصلاحِك لولدى إصلاحُك لنفسك ، فإنّ عيونهم معقودةٌ بعينك ، فالحَسَنُ عندهم ماصَنَعْت ، والقبيح عندهم ماتركت ؛ علِّمهم كتاب الله ولا تُكرهم عليه فيملُّوه[1] ، ولا تتركهم منه فيهجروه . روِّهم من الحديث أشْرَفَه ، ومن الشعر أعَفَّه ، ولا تَنْقلهم من علم إلى علم حتى يُحكموه ، فإنّ آزدحام الكلام فى الزّأب مَشْغَلَةٌ للفهم . وعلِّمهم ١٠ سُنَن الحكماء ، وجنِّبْهم محادثة النساء ، ولا تَتّكل على عُذر منى لك ، فقد آتكلت على كفايةٍ منك .

باب فى حب الولد

بين معاوية والأحنف فى الولد

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس ، فقال : يا أبا بَحر ، ما تقول فى الولد ؟ قال : ثِمار قلوبنا ، وعماد ظُهورنا ، ونحن له أرضٌ ذليلة ، وسماء ظليلة ، فإن ١٥ طلبوا فأعطِهم ، وإن غَضبوا فأرْضِهم ، يَمنحوك ودَّهم ، ويُحبوك جهدَهم ؛ ولا تكن عليهم ثقيلا فيملوا حياتك ، ويُحبّوا وفاتك . فقال : لله أنت يا أحنف . لقد دخلت علىّ وإنى لمملوء غضباً على يزيد ، فسللته من قلبى .

فلما خرج الأحنف من عنده بعث معاوية إلى يزيد بمائتى ألف درهم ومائتى ثوب . فبعث يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب ، ٢٠ شاطره إياها[2] .

عبد الله بن عمر وابن سالم

وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كل مذهب ، حتى لامه الناس

(١) فى بعض الأصول : « ولا تملهم فيه فيتركوه » .
(٢) فى بعض الأصول : « البعثة » .

فيه ، فقال :

يَلومونني فى سـالمٍ وألومُهم * وجِلدةُ بين العيْن والأنفِ سالِمُ

وقال : إنّ ابنى سالماً ليُحب الله حُبّا لو لم يَخَفْه لم يعصه .

ابن اليمان وولده

وكان يحيى بن اليمان يذهب بولده داود كل مذهب ؛ حتى قال يوما : أئمة الحديث أربعة : كان عبد الله ، ثم كان علقمة ، ثم كان إبراهيم ، ثم أنت ياداود . ٥

وقال : تزوجت أم داود ، فما كان عندنا شيء ألفّه فيه ، حتى اشتريت له كُسوة بدانِق .

لزيد بن على يوصى ابنه

وقال زيد بن على لابنه : يابنىّ ، إن الله لم يَرْضَكَ لى فأوصاك بى ، ورضينى لك فحذّرَنيك . واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم يدعه الحبُّ إلى التفريط ، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق . ١٠

فى الحديث

وفى الحديث المرفوع : ريح الولد من ريح الجنة .

وفيه أيضاً : الأولاد من ريحان الله .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما بُشِّر بفاطمة : ريحانةٌ أشُمُّها ورزقها على الله .

معاوية وابن العاص وعائشة بنت معاوية

١٥ ودخل عمرو بن العاص على معاوية وبين يديه بنته عائشة ، فقال : من هذه ؟ فقال : هذه تُفاحة القلب ! فقال له : انبُذها عنك ، فوالله إنهن ليَلِدْن الأعداء ، ويقرِّبْنَ البُعَداء ، ويورِّثْن الضغائن . قال : لا تقل ذاك ياعمرو ، فوالله مامَرّض المرضى ، ولا نَدَب الموتى ، ولا أعانَ على الأحزان مثلُهن . ورُبَّ ابنِ أُختٍ قد نَفَعَ خالَه .

لحطان

وقال حطّان بن المعلى الطائى : ٢٠

لولا بُنَيّاتٌ كزُغْبِ القَطَا * حُطِطْنَ من بعضٍ إلى بعضِ

لكانَ لى مُضطَرَبٌ واسِعٌ * فى الأرضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ

وإنمـا أولادُنا بيننـا * أكبادُنا تمشى على الأرضِ

لابن أبي بكرة

وقال عبيد الله بن أبي بكرة : موتُ الولد صَدْعٌ فى الكبد ، لا ينجبر آخِر الأبد .

عمر ورجل يحمل طفلا

ونظر عمر بن الخطاب إلى رجل يحمل طفلا على عنقه ، فقال : ماهذا منك ؟ قال : ابنى يا أمير المؤمنين ! قال أما إنه إن عاش فتَنَك ، وإن مات حزَنَك .

لفاطمة وهى ترقص الحسين

٥ وكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تُرَقِّص الحسين بن على رضى الله عنهما وتقول :

وَا بِأَبِى شِبْهُ النَّبى ٭ ليس شَبيهاً بِعَلِى

للزبير وهو يرقص عروة

وكان الزبير يرقص عروة ويقول :

أبْيَضُ من آلِ أبى عتيقِ ٭ مُبارَكٌ مِن وَلَدِ الصِّدِّيقِ

١٠ ٭ أَلَذُّهُ كما أَلَذُّ رِيقى ٭

لأعرابى وهو يرقص ولده

وقال أعرابىٌّ وهو يُرَقِّص ولده :

أُحِبُّهُ حُبَّ الشَّحيحِ مالَهْ ٭ قد كان ذاقَ الفقرَ ثم نالَهْ

٭ إذا يُريدُ بَذْلَهُ بَدَا لَهْ ٭

وقال آخر وهو يرقّص ولده :

١٥ أعرِف منه قلّة النُّعاس ٭ وخفّةً من رأسِه فى راسى

وكان رجل من طيئ يقطع الطريق ، فمات وترك بُنَيًّا رضيعا ، فجعلت أُمُّه ترقّصه وتقول :

ياليته قد قَطَع الطريقا ٭ ولم يرِدْ فى أمره رَفيقا

وقدأخافَ الفَجَّ والمَضيقا ٭ فقلّ أن كان به شفيقا

لعبد الملك فى الوليد

٢٠ وقال عبد الملك : أضرّ بنا فى الوليد حُبُّنا له فلم نؤدِّبه ، وكأن الوليد أدّبنا .

وقال هارون الرشيد لابنه المعتصم : ما فعل وصيفُك فلان ؟ قال : مات فاستراح من الكُتّاب . قال : وبلَغ منك الكتّاب هذا المبلغ . والله لاحَضَرْتَه أبداً . ووجهه إلى البادية فتعلم الفصاحة ، وكان أُمِّيا ، وهو المعروف بابن ماردة .

إبراهيم عليه السلام وملك الموت

وفى بعض الحديث أن إبراهيم خليل الرحمن كان من أغْيَرِ الناس، فلما حضرتْه الوفاة دخل عليه مَلَكُ الموت فى صورة رجلٍ أنكره ، فقال له : من أدخلك دارى ؟ قال : الذى أسكنك فيها منذ كذا وكذا سنة . قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ملَك الموت ، جئت لِقَبْض روحك . قال : أتاركى أنت حتى أودِّع ابنى إسحاق ؟ قال : نعم . فأرسل إلى إسحاق . فلما أتاه أخبره ، فتعلّق إسحاق بأبيه وجعل يتقطع عليه بكاء ، فخرج عنهما ملك الموت . وقال : يارب ، ذبيحُك إسحاق متعلق بخليلك ! فقال له الله : قل له إنى قد أمهلتُك . ففعل ، وانحل إسحاق عن أبيه ، ودخل إبراهيم بيتاً ينام فيه ؛ فقبض ملك الموت روحه وهو نائم .

باب الاعتضاد بالولد

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن عبده زكريا ودعائه إليه فى الولد : ﴿ وزكريّا إذْ نادى رَبّهُ ربِّ لا تَذَرْنِى فَرْداً وأنْتَ خيْرُ الْوَارِثين ﴾ .

وقال : ﴿ وإنّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِنْ ورائِى وكانتِ امْرَأتى عاقِراً فهَبْ لى مِنْ لدُنْكَ ولِيًّا يَرِثُنِى ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ .

والموالى هاهنا : بنو العم .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

من كان ذا عضَدٍ يُدْرِكْ ظلامتَه * إنّ الذليل الذى ليْسَت له عضُدُ
تَنْبُو يَداه إذا ما قل ناصِرُهُ * ويأنَفُ الضَيْمَ إن أثْرَى له عَدَدُ

لأبى براء

العتبي قال : لما أسن أبو براء عامر بن مالك وضعّفه بنو أخيه وخرّفوه ولم يكن له ولد يحميه ، أنشأ يقول :

دفعتُكمُ عنى وما دفْعُ راحةٍ * بشيء إذا لم تَستَعِنْ بالأنامِل
يُضَعّفُنى حلمى وكثرةُ جهلِكم * علىّ وأنى لا أصولُ بجاهِلِ

وقال آخر :

تعْدو الذِّئابُ على مَن لا كلاب له * وتتقى سَورة المستنفِر الحامى

باب فى التجارب والتأدب بالزمان

للحكماء

قالت الحكماء : كفى بالتجارب تأديبا ، وبتقلب الأيام عِظة .

وقالوا : كفى بالدهر مؤدِّبا وبالعقل مُرْشِدا .

لحبيب

وقال حبيب :

٥ أحاوَلْتَ إرْشادى فعقْلىَ مُرْشِدى ٭ أم اسْتَمْت تأديبى فدهْرى مُؤدِّبِى

لابن شكلة

وقال إبراهيم بن شَكْلة :

من لم يُؤدِّبْه والداهُ ٭ أدَّبَه الليْل والنهارُ

كم قد أذَلَّا كريمَ قوْمٍ ٭ ليس له منهما انتصارُ

من ذا يدُ الدهر لم تنلْه ٭ أو اطمأنَّت به الدِّيارُ

١٠ كلٌّ عن الحادِثاتِ مُغْضٍ ٭ وعنده للزمانِ ثارُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

وما أبْقَت لك الأيام عُذْراً ٭ وبالأيام يَتَّعِظُ اللبيبُ

وقالوا : كفى بالدهر مُخْبِرا بمـا مضى عمـا بقى .

وقالوا : كفى مُخبراً لذوى الألباب ما جرَّبوا .

لعيسى عليه السلام

١٥ وقالوا لعيسى ابن مريم عليهما السلام : مَن أدَّبك ؟ قال : ما أدّبنى أحد ؛ رأيت الجهل قبيحاً فاجتنبته .

باب فى صحبة الأيام بالموادعة

قالت الحكماء : اصحب الأيام بالموادعة ، ولا تسابق الدهر فتكبو .

وقال الشاعر :

٢٠ مَن سابق الدهر كبَا كَبْوَة ٭ لم يَسْتَقِلْها من خُطا الدهر

فاخطُ مع الدهر إذا ما خَطا ٭ واجْرِ مع الدهر كما يَجرى

لبشار — وقال بشار العقيلى :

أعاذِلُ إنّ العُسر سوْف يُفيقُ * وإنَّ يَساراً من غَدٍ لخليقُ
وما كنتُ إلّا كالزمانِ إذا صحا * صحوْتُ وإنْ ماقَ الزمانُ أموقُ

لبعض الشعراء — وقال آخر :

تَحامَقْ مع الحَمْقى إذا ما لقِيتَهم * ولاقِهِم بالجهل فعل ذوِى الجهلِ
وخَلِّطْ إذا لاقيْتَ يوْماً مُخلِّطاً * يُخلِّطُ فى قول صحيحٍ وفى هَزْلِ
فإنى رأيت المرء يَشقى بعقلهِ * كما كان قبل اليوم يَسعَد بالعقل

وقال الآخر :

إن المقاديرَ إذا ساعدتْ * ألحقَتِ العاجزَ بالحازمِ

وقال الآخر :

والسببُ المانعُ حظَّ العاقِلِ * هو الذى سَبَّب حظَّ الجاهِلِ

فى أمثالهم — ومن أمثالهم فى ذلك قولهم : تَطامَنْ لها تَخطُك .

لابن عبد ربه — ومن قولنا فى هذا المعنى :

تَطامنْ للزمانِ يَجُزْك عفواً * وإن قالوا ذليلٌ قُل ذليلُ

لحبيب — وقال حبيب :

وكانت لوْعةً ثم اطمأنّتْ * كذاك لكلِّ سائلةٍ قرارُ

وقال حبيب :

ماذا يُريك الدهرُ من هوانِه * ازْفِن لقرْدِ السُّوءِ فى زمانِه

ولآخر :

الدهرُ لا يبقى على حالة * لابد أن يُقبِل أو يُدبِرْ
فإن تَلقّاك بمكروهه * فاصبر فإن الدهرَ لا يَصبرْ

ولآخر :

اصبر لدهر نال منـــك فهكذا مضتِ الدُّهورُ

فرَحاً وحُــزنا مرةً * لا الحُزْنُ دام ولا السُّرور

ولآخر :

عفا الله عمن صيَّرَ الهمَّ واحداً * وأيقن أنَّ الدائراتِ تَدور
تروح لنا الدُّنيا بغير الذى غَدت * وتَحْدُثُ من بَعد الأمور أُمورُ
٥ وتَجرى الليالى باجتِماعٍ وفُرْقةٍ * وتطلُع فيها أنجُمٌ وتَغُورُ
وتطمع أن يبقى السُّرورُ لأهلِهِ * وهذا مُحالٌ أن يَدومَ سُرورُ

ولآخر :

سأنتظر[1] الأيامَ فيك لعلَّها * تعودُ إلى الوَصْلِ الذى هو أجملُ

باب التحفظ من المقالة القبيحة
١٠ وإن كانت باطلا

للحكماء

قالت الحكماء : إياك وما يُعتذَر منه .

وقالوا : من عَرَّض نفسه للتهم فلا يأمن من إساءة الظن .

وقالوا : حَسْبُك من شرٍّ سماعُه .

وقالوا : كفى بالقول عاراً وإن كان باطلا .

لبعض الشعراء

١٥ وقال الشاعر :

ومَنْ دَعا النـاسَ إلى ذَمِّهِ * ذَمُّوهُ بالحقِّ وبالبـاطِلِ
مَقالةُ السُّوءِ إلى أهْلِها * أسْرعُ مِن مُنْحدرٍ سائل

وقال آخر :

قد قيل ذلك إنْ حَقًّا وإنْ كَذِباً * فما اعتِذارُكَ من قولٍ إذا قيلا

لأرسطاطاليس ينصح الإسكندر

٢٠ وقال أرسطاطاليس للإسكندر : إن الناس إذا قدروا أن يقولوا قدروا أن يفعلوا ، فاحترس من أن يقولوا تسلمْ من أن يفعلوا .

(١) فى بعض الأصول : « أما تنظر » .

لامرئ القيس — وقال امرؤ القيس :

* وجرحُ اللِّسانِ كجرْحِ اليَـدِ *

للأخطل — وقال الأخطل :

* والقولُ يَنْفذُ ما لا تَنفُذُ الإبر *

للحمدونى — وقال يعقوب الحمدونى [1] : ٥

وقد يُرَجَّى لِجَرْحِ السيفِ بُرْءٌ * ولا بُرْءٌ لِمَا جَرَحَ اللِّسانُ

لبعض الشعراء — ولآخر :

قالوا ولو صَحَّ ما قالوا لَفُزْتُ به * مَنْ لى بتصديقِ ما قالوا وتكذيبى

باب الأدب فى تشميت العطاس

للنبى صلى الله عليه وسلم — ومن حديث أبى بكر بن أبى شَيبة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : ١٠ لا تشمِّت العاطس حتى يحمد الله ، فإن لم يحمده فلا تشمِّته .

وقال : إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمّتوه ، وإن لم يحمد الله فلا تُشمّتوه .

لعلى — وقال علىّ رضى الله عنه : يشمَّت العاطس إلى ثلاث ، فإن زاد فهو داءٌ يخرج من رأسه .

لابن عمر — عطس ابن عمر ، فقالوا له : يرحمك الله . فقال : يهديكم الله ويُصلح بالكم . ١٥

لعلى بن أبى طالب — وعطس علىّ بن أبى طالب فحمد الله ، فقيل له : يرحمك الله . فقال : يغفر الله لنا ولكم .

لعمر بن الخطاب — وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا عطس أحدكم فشمِّتوه ثلاثا ، فإن زاد فقولوا : إنك مَضنوك .

لبعضهم — وقال بعضهم : التشميت مرة واحدة . ٢٠

---

(١) فى بعض الأصول : « الحمدى » .

باب الإذن فى القبلة

في تقبيل يد النبي صلى الله عليه وسلم

عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عبد الله بن عمر ، قال : كنا نقبِّل يدَ النبي صلى الله عليه وسلم .

وكيع عن سفيان قال : قبَّل أبو عبيدة يدَ عمرَ بن الخطاب .

في تقبيل النبي صلى الله عليه وسلم لجعفر

ومن حديث الشَّعبي قال : لقى النبي صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبى طالب ، فالتزمه وقبَّل بين عينيه .

وقال إياس بن دَغْفل : رأيت أبا نَضرة يقبِّل خدّ الحسن .

في تقبيل يد على

الشَّيبانى عن أبى الحسن عن مصعب قال : رأيت رجلا دخل على علىّ بن الحسين رضى الله عنهما فى المسجد فقبَّل يده ووضعها على عينيه ، ولم يَنْهه .

العُتبي قال : دخل رجلٌ على هشام بن عبد الملك فقبَّل يده ، فقال : أُفٍّ له . إنّ العرب ماقبّلت الأيدى إلا هلوعا ولا قبلتها العجم إلا خضوعا .

في تقبيل يد المأمون

واستأذن رجل المأمونَ فى تقبيل يده ، فقال : إنّ القبلة من المؤمن ذِلّة ، ومن الذِّمىّ خديعة ؛ ولا حاجة بك أن تَذِلَّ ، ولا حاجة بنا أن نُخْدَع .

أبو دلامة والمهدى

واستأذن أبو دلامة المهدىّ فى تقبيل يده فمنعه ، فقال : ما منعتَنى شيئاً أيسرَ على عيالى فقداً من هذه .

الهجرى والمنصور

الأصمعى قال : دخل أبو بكر الهجرى على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نَغَضَ فمى ، وأنتم أهل بيتِ بركة ، فلو أذنت لى فقبَّلتُ رأسك لعلّ الله كان يُمسك على ما بقى من أسنانى . قال : اختر بينها وبين الجائزة . فقال : يا أمير المؤمنين، إن أهوَن علىّ من ذهاب دِرهم من الجائزة ألّا تبقى فى فمى حاكّة . فضحك المنصور وأمر له بجائزة .

لبعضهم

وقالوا : قبلة الإمام فى اليد ، وقبلة الأب فى الرأس ، وقبلة الأخ فى الخد ، وقبلة الأخت فى الصدر ، وقبلة الزوجة فى الفم .

باب الأدب فى العيادة

أبو عمرو بن العلاء وعائد

مرض أبو عمرو بن العلاء، فدخل عليه رجل من أصحابه، فقال له: أريد أن أساهرك الليلة. قال له: أنت معافًى وأنا مُبتلى، فالعافية لا تدَعُك أن تسهر، والبلاء لا يدَعُنى أن أنام. وأسأل الله أن يهبَ لأهل العافية الشكر، ولأهل البلاء الصبر.

عبدالعزيز بن مروان وكثير

ودخل كُثيّر عزّة على عبد العزيز بن مروان وهو مريض، فقال: لو أن سرورك لا يتمّ إلا بأن تسلم وأسقم لدعوتُ ربى أن يصرف ما بك إلىّ، ولكن أسأل الله لك أيها الأمير العافية، ولى فى كنفك النعمة. فضحك وأمر له بجائزة. فخرج وهو يقول:

ونعودُ سيّدَنا وسيّدَ غيرِنا * ليتَ التَّشكّى كان بالعُوّادِ
لو كان يقبلُ فِدْيةً لفَدَيْتُه * بالمصطفى مِن طارفى وتِلادِى

من أديب إلى عليل

وكتب رجل من أهل الأدب إلى عليل:

نُبِّئتُ أنّكَ مُعتلٌّ فقلتُ لهمْ * نفسِى الفِداءُ له مِنْ كُلِّ محذُورِ
ياليتَ عِلَّتَهُ بِي ثمَّ كان لهُ * أجرُ العليلِ وأنّى غيرُ مأجُورِ

لآخر فى مثله

وكتب آخر إلى عليل:

وقيْناك لو يُعطَى الهوَى فيكَ والمُنى * لكانَ بنا الشكْوى وكان لك الأجرُ

بين يحيى بن خالد وشاعر اعتل

وكان شاعر يختلف إلى يحيى بن خالد بن برمك ويمتدحه، فغاب عنه أياماً لعلةٍ عرضت له، فلم يفتقدْه يحيى ولم يسأل عنه؛ فلما أفاق الرجلُ من علّته كتب إليه:

أيهذا الأميرُ أكرَمك اللـ * ـهُ وأبقاك لى بقاءً طويلَا
أجَميلًا تراهُ أصلحكَ اللـ * ـهُ لِكَيْما أراهُ أيضاً جَمِيلَا
أنّى قد أقمْتُ عنكَ طويلًا * لا تُرى مُنْفِذاً إلىَّ رسُولا
ألِذَنْبٍ فما علِمْتُ سوَى الشُّكـ * ـرِ لِمَا قد أوْليْتَنِيه جزيلَا

أمْ مَلالًا فما عَلِمتُكَ لِلحا * فِظِ مِثْلِى على الزَّمان مَلُولَا
قد أتى اللهُ بالصَّلاحِ فما أنْـ * ـكرْتَ مِمَّا عهِدْتَ إلّا قليلَا
وأكلتُ الدُّرَّاجَ وهْوَ غذاءٌ * أفلتْ عِلّتى عليه أُفولَا
وَكأنِّى قدِمْتُ قَبْلَكَ آتِيـ * ـكَ غداً إنْ أجِدْ إليْك سبيلَا

٥ فكتب إليه الوزير يعتذر :

دفع اللهُ عنك نائبةَ الدهْـ * ـرِ وحاشاكَ أن تكون عليلا
أُشْهِدُ الله ما عَلِمتُ وماذا * لكَ مِنَ العُذْرِ جائزاً مقبولَا
ولَعلّى لو قدْ علِمْتُ لعاوَدْ * تُكَ شهْراً وكان ذاكَ قليلا
فاْجعلنّ لى إلى التَّعلُّقِ بالعُذْ * رِ سبيلا إن لمْ أجِدْ لى سبيلَا
١٠ فقديماً ماجاء ذوالفضْلِ بالفضْـ * ـلِ وما سامَحَ الخليلُ خليلَا

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر : من المعتصم إلى ابن طاهر

أعزِزْ علَىَّ بأنْ أراكَ عليلَا * أو أنْ يكونَ بكَ السَّقامُ نزيلَا
فوَددْت أنِّى مالِكٌ لِسلامَتى * فأُعيرَها لك بُكْرَةً وأصيلا
فتكونَ تبْقَى سالماً بسلامَتى * وأكونَ مِمَّا قد عراكَ بديلا
١٥ هٰذا أخٌ لكَ يشتَكى ما تشتَكى * وكذا الخليلُ إذا أحبَّ خليلَا

ابن صبيح ويحيى حين اعتل

ومرض يحيى بن خالد ، فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا دخل عليه يعوده وقف عند رأسه ودعا له ، ثم يخرج فيسأل الحاجبَ عن منامه وشرابه وطعامه ؛ فلما أفاق قال يحيى بن خالد : ما عادنى فى مرضى هذا إلا إسماعيل ابن صبيح .

٢٠ وقال الشاعر : لبعض الشعراء

عِيادةُ المرءِ يَومٌ بين يَوْمَيْن * وجِلسَةٌ لكَ مِثْلَ اللَّحظِ بالعَيْنِ
لا تُبْرِمنّ مريضاً فى مُساءلةٍ * يكْفيك مِنْ ذاك تسآلٌ بحرْفيْنِ

لبكر بن عبد الله فى قوم عادوه

وقال بكر بن عبد الله لقوم عادوه فى مرضه فأطالوا الجلوس عنده : المريض يُعادُ والصحيح يُزار .

لسفيان الثورى

وقال سُفيان الثورى : حُمقُ القرّاء أشدُّ على المرضى من أمراضهم : يجيئون فى غير وقت ويُطيلون الجلوس .

عمر بن عبد العزيز وعائد

ودخل رجل على عمر بن العزيز يعوده فى مرضه ، فسأله عن علّته ، فلما أخبره قال : مِن هذه العلة مات فلان ، ومات فلان . فقال له عمر : إذا عُدْتَ المرضى فلا تنعَ إليهم الموتى ، وإذا خرجتَ عنا فلا تعُدْ إلينا . ٥

لابن عباس

وقال ابن عباس : إذا دخلتم على الرجل وهو فى الموت فبشّروه ليلقى ربّه وهو حَسَنُ الظن ، ولقّنوه الشهادة ، ولا تُضجِروه .

للأعمش فى مرضه

ومرض الأعمش فأبرمه الناسُ بالسؤال عن حاله ، فكتب قصتَه فى كتاب وجعله عند رأسه ، فإذا سأله أحد قال : عندك القصة فى الكتاب فاقرأها . ١٠

لبعض الشعراء

ولبعضهم :

مرض الحبيب فعدتُهُ * فمرضتُ من حذرى عليه
وأتى إلىّ يعــودنى * فبرئتُ من نظرى إليه

بين محمد بن عبد الله وهو مريض وأخيه

ومرض محمد بن عبد الله بن طاهر ، فكتب إلى أخيه عبيد الله بن عبد الله : ١٥

إنى وجَدتُ على جَفا * ئِك من فَعالِكَ شاهدا
إنى اعتَلَلتُ فما فقَدْ * تُ سِوَى رسولِكَ عائدا
ولَوِ اعْتَلَلت فلم أجِـد * سبباً إليْك مُساعِداً
لاسْتَشعَرتْ عيْنى الكرَى * حتّى أعُـودك راقِدَا

فأجابه : ٢٠

كُحِلَتْ مُقْلتى بشوكِ القتاد * لم أذُق حرقةً لطعم الرُّقادِ
يا أخى الباذِلَ المَوَدّةِ والنّا * زِلَ من مُقْلتى مكان السّوادِ
منعَتْنى عليــكَ رِقّةُ قلبى * من دخولِى إليْك فى العُوّاد
لو بأُذْنى سَمِعتُ منكَ أنيناً * لتَفَرّى مع الأنينِ فُؤادى

ولمحمد بن يزيد : لمحمد بن يزيد

يا عليلًا أفديكَ من ألم العِلّة هل لى إلى اللقاء سبيلُ
إنْ يَحُلْ دونَك الحجابُ فما يُحـجَبُ عنى بِكَ الضَّنَى والعَويل

وأنشد محمد بن يزيد ، قال : أنشدنى أبو دُهمان لنفسه وقد دخل على بعض الأمراء يعوده : لأبي دهمان في عيادته لأمير

٥

بأنفسِنا لا بالطَّوارِفِ والتُّلْدِ ٭ نَقِيكَ الذى تُخفى من السُّقْمِ أو تُبْدِى
بِنا معشرَ العُوّادِ مابكَ من أذًى ٭ فإنْ أشفقوا مما أقولُ فبي وَحْدى

وكتب أبو تمام الطائى إلى مالك بن طوق فى شكاةٍ له : من أبي تمام إلى ابن طوق

كم لَوْعةٍ للنَّدَى وكم قلقٍ ٭ للحمدِ والمكرُماتِ من قَلَقِكْ
أَلْبَسَكَ اللهُ منه عافيـةً ٭ فى نومِكَ المعترِى وفى أرَقِكْ ١٠
تَخرجُ من جسمِكَ السَّقامَ كما ٭ أُخرِج ذَمُّ الفَعالِ مِن خُلُقِكْ

ودخل محمد بن عبد الله على المتوكل فى شكاة له يعوده ، فقال : لمحمد بن عبد الله حين دخل على المتوكل يعوده

اللهُ يَدْفع عن نفسِ الإمامِ لنا ٭ وكُلّنا للمَنايا دونهُ غرَضُ
فليتَ أنّ الذى يَعرُوهُ منْ مرض ٭ بالعائدين جميعاً لا به المرضُ
فبالإمامِ لنا من غيرنا عِوَضٌ ٭ وليس فى غيره منه لنا عِوَضُ ١٥
فما أُبَالى إذا ما نفسُه سَلِمَتْ ٭ لو بادَ كلُّ عِبادِ اللهِ وانقرَضوا

وقال آخر فى بعض الأمراء : لآخر فى بعض الأمراء

واعتَلّ فاعتلّتْ الدنيا لِعلّته ٭ واعتَلّ فاعتَلّ فيه البأسُ والكرم
لمّا استقلّ أثارَ المجدُ وانقشعتْ ٭ عنه الضَّمانة والأحزانُ والسَّقَمُ

٢٠ وبلغ قيساً مجنونَ بنى عامر أن ليلى بالعراق مريضة ، فقال : لمجنون بنى عامر فى ليلى

يقولون ليلَى بالعراقِ مريضةٌ ٭ فما لك تجفوها وأنت صديقُ
شفَى اللهُ مَرْضَى بالعراقِ فإننى ٭ على كلّ شاكٍ بالعراقِ شفيقُ

لمحمد بن عبد الله — ولمحمد بن عبد الله بن طاهر :

أَلْبَسَكَ اللهُ منه عافِيَةً * تُغنيكَ عن دعوتى وعن جَلَدِكْ
سُقْمُكَ ذا لا لِعلَّةٍ عَرَضَتْ * بل سُقْمُ عينيكَ رُدَّ فى جسدِكْ
فيامريض الجفون أحْيِ فتًى * قتلتَه بالجفون لا بيدك

لبعض الشعراء — وقال غيره :

يا أملى ، كيف أنت من أَلَمِكْ * وكيف ما تشتكيهِ من سَقَمِكْ
هذانِ يومانِ لى أَعُدُّهما * مُذْ لم تَلُحْ لى بُرُوقُ مُبْتَسِمِكْ
حَسدْتُ حُمَّاكَ حين قيل لها * بأنها قبَّلَتْكَ فوق فمِكْ

لسحيم — ولُسحيم عبد بنى الحَسحاس :

تَجمَّعْنَ شتَّى من ثلاثٍ وأربعٍ * وواحدةٍ حتى كَمُلْنَ ثمانيا
وأقبلنَ من أقصى الخيامِ يَعُدْنَنى * ألا إنما بعضُ العوائدِ دائيا

لابن الأحنف — وللعباس بن الأحنف :

قالت مَرِضْتُ فعُدْتُها فتبرّمتْ * وهى الصحيحة والمريضُ العائدُ
واللهِ لو قَسَتِ القلوبُ كقلبها * ما رَقَّ للولَدِ الضعيفِ الوالدُ

للواثق — وقال الواثق :

لا بِكَ السُّقْمُ ولكنْ كان بى * وبنفسى وبأُمّى وأبى
قيل لى إنك صُدِّعْتَ فما * خالَطَتْ سمعىَ حتى دِيرَ بى

لعلية بنت المهدى — وأنشد محمد بن يزيد المبرّد لعلية بنت المهدى :

تمارَضْتِ كى أَشْجَى ومابكِ عِلَّةٌ * تُريدين قتلى قد ظَفِرْتِ بذلكِ
وقولكِ للعُوَّاد كيف ترَوْنه * فقالوا قتيلا قلت أهْوَنُ هالكِ
لئن ساءنى أن نِلْتِنى بمساءةٍ * لقد سرَّنى أنى خَطَرْتُ ببالكِ

لابن عبد ربه — ومن قولنا فى هذا المعنى :

رُوحُ الندى بين أثوابِ العُلا وصِبُ * يَعْتَنُّ فى جَسَدِ المجدِ مَوْصوب

ما أنت وحدك مكسوٌّ شُحُوبَ ضَنى * بل كلنا بك مِن مُضْنًى ومَشْحوبِ
يا من عليه حِجابٌ من جلالته * وإن بدا لك يوماً غير محجوبِ
ألقَ عليك يداً للضُّرّ كاشفةً * كشَّافُ ضُرّ نَبيّ الله أيّوبِ

ومثله من قولنا :

٥ لا غَرْوَ إن نال منك السُّقْمُ والضررُ * قد تُكسَف الشمسُ لا بل يُخسَف القمرُ
يا غُــرَّة القمر الذاوى غَضارتُها * فِــدًى لنورك منى السمعُ والبصرُ
إن يُمْسِ جسمُك مدْعوكا بصالِيَة * فهكذا يُوعَكُ الضِّرْغامةُ الهَصِرُ
أنت الحُسامُ فإن تُفْلَل مَضاربُه * فقبلَه ما يُفَلُّ الصارمُ الذَّكَرُ
روح من المجدِ فى جُثمان مَكْرُمَةٍ * كأنما الصبحُ من خَــدَّيْه يَنفجرُ
١٠ لو غال مَجْــلودَه شئٌ سوى قدَرٍ * أكبَرْتُ ذاك ولكن غاله القدَرُ

ومن قولنا فى هذا المعنى :

لا غَرْوَ إن نال منك السُّقْمُ ما سَألا * قد يُكسَف البدرُ أحياناً إذا كَمَلا
ما تشتكى عِــلةً فى الدهر واحدةً * إلا اشتكى الجودُ من وَجدٍ بها عِللا

الادب فى الاعتناق

١٥ أبو بكر بن محمد قال : حدثنا سعيد بن إسحاق عن ابن يونس المدينى قال : كنت جالساً عند مالك بن أنس ، فإذا سفيان بن عيينة يستأذن بالباب ، فقال مالك : رجل صالح صاحب سُنَّة ، أدْخِلوه . فدخل فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فردّ السلام ، فقال : سلامٌ خاص وعام عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله . فقال مالك : وعليك السلام يا أبا محمد ورحمة الله . فصافحه مالك وقال : ٢٠ يا أبا محمد ، لولا أنها بدعة لعانقناك . فقال سفيان : قد عانق من هو خيرٌ منا ، رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال مالك : جعفراً ؟ قال : نعم . فقال مالك : ذاك حديث خاص يا أبا محمد ليس بعام . فقال سفيان : ما عمّ جعفرا يعمّنا وما خصه يخصنا إذا كنا صالحين ؛ أفتأذن لى أن أحدّث فى مجلسك ؟ قال : نعم

سفيان بن عيينة ومالك

يا أبا محمد . فقال : حدثنى عبد الله بن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عباس : أنه لما قدم جعفر من أرض الحبشة اعتنقه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبل بين عينيه وقال : جعفر أشبه الناس بى خَلْقا وخُلُقا .

باب الأدب فى إصلاح المعيشة

لبعضهم — قالوا : من أشبع أرضه عملا أشبعت بيته خُبزاً . ٥

وقالوا : يقول الثوب لصاحبه : أكرمْنى داخلا أُكرمْك خارجا .

لعائشة — وقالت عائشة : المَغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله .

عمر بن الخطاب — وقال عمر بن الخطاب : لا تنهكوا وجه الأرض فإن شحمها فى وجهها .

وقال : فرّقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين .

وقال : أملِكوا العجين فإنه أحد الرَّيعين .

لأبى بكر — وقال أبو بكر لغلام له كان يتجر بالثياب : إذا كان الثوب سابغا فانشره وأنت قائم ، وإذا كان قصيراً فانشره وأنت جالس ، وإنما البيع مِكاس .

لعبد الملك — وقال عبد الملك بن مروان : مَن كان فى يده شىء فلْيصلحْه ، فإنه فى زمان إن احتاج فيه فأول ما يبدل دينُه .

باب الأدب فى المؤاكلة

١٥

النبى صلى الله عليه وسلم — قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله .

بلال والجارود — محمد بن سلام الجمحى قال : قال بلال بن أبى بُردة . وهو أمير على البصرة ، للجارود بن أبى سَبرة الهذلى : أتحضُر طعام هذا الشيخ ؟ يعنى عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ؛ قال : نعم . قال : فصِفْه لى . قال : نأتيه فنجده مُنبطحاً ، يعنى نائماً ، فنجلس حتى يستيقظ ، فيأذن فنساقطه الحديث ، فإن حدّثناه أحسن الاستماع ؛ وإن حدثنا أحسن الحديث ، ثم يدعو بمائدته ، وقد تقدم إلى جواريه ٢٠

وأمهات أولاده ألّا تلفظ واحدة منهن إذا وضعت مائدة ، ثم يُقبِل خبّازه فيمثُل بين يديه قائماً ، فيقول له : ما عندك ؟ فيقول : عندى كذا وكذا . فيعدّد ما عنده . يريد بذلك أن يَحبس كلٌّ رجل نفسه وشهوته على ما يريد من الطعام . وتُقبل الألوان من هاهنا ومن هاهنا فتوضع على المائدة ، ثم يؤتى بثريدة شهباء من الفلفل رقطاء من الحِمّص ، ذات حفافين من العُراق ، فيأكل مُعْذِرا ، حتى إذا ظن أن القوم قد كادوا يمتلئون ، جَثا على ركبتيه ؛ ثم آستأنف الأكل معهم .

قال ابن أبى بُردة : لله دَرّ عبد الأعلى ، ما أربط جأشه على وقع الأضراس .

هشام وأعرابى حضر سفرته

وحضر أعرابى سُفرة هشام بن عبد الملك ؛ فبيناه يأكل معه إذ تعلقت شعرة فى لقمة الأعرابى ، فقال له هشام : عندك شعرة فى لقمتك يا أعرابى . فقال : وإنك لتلاحظنى ملاحظة من يرى الشعرة فى لقمتى ! والله لا أكلت عندك أبدا ، ثم خرج وهو يقول :

وللموْتُ خيْرٌ من زيارةِ باخلٍ ﴿ يُلاحِظُ أطراف الأكِيلِ على عَمْدِ

بين المنصور وأعرابى

محمد بن زيد قال : أكل قائد لأبى جعفر المنصور معه يوماً ، وكان على المائدة محمد المهدىُّ وصالحٌ ابناه ، فبينا الرجل يأكل من ثريدة بين أيديهم ، إذ سقط بعض الطعام من فيه فى الغَضارة ، فكأن المهدى وأخاه عافا الأكل معه ، فأخذ أبو جعفر الطعام الذى سقط من فم الرجل فأكله ، فالتفت إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ، أما الدنيا فهى أقلُّ وأيسر من أن أتركها لك ، والله لأترُكَن فى مرضاتك الدنيا والآخرة .

المنصور وهاشمى والربيع حاجبه

وحدّث إبراهيم بن السندى قال : كان فتى من بنى هاشم يدخل على المنصور كثيراً ، يسلم من بعيد وينصرف ، فأتاه يوماً فأدناه ، ثم دعاه إلى الغذاء . فقال : قد تغذّيت ! فأمهله الرّبيع حاجب المنصور حتى ظن أنه لم يفهم الخطيئة ، فلما انصرف وصار وراء الستر دفعه فى قفاه ، فلما رأى من الحاجب دَفْعَه فى قفاه ، شكا الفتى حالته وما ناله إلى عُمومته ، فأقبلوا من غدٍ إلى أبى جعفر ، وقالوا : إن الربيع نال من هذا الفتى كذا وكذا . فقال لهم أبو جعفر : إن الربيع لا يُقْدم على

مثل هـذا إلا وفى يده حُجة ، فإن شئتم أمسكنا عن ذلك وأغضينا ، وإن شئتم سألته وأسمعتُكم . قالوا : بل يَسأله أمير المؤمنين ونسمع . فدعاه فسأله ، فقال : إن هذا الفتى كان يأتى فيسلِّم وينصرف من بعيد؛ فلما كان أمس أدناه أمير المؤمنين حتى سلَّم من قُرب ؛ وتبذّل بين يديه ودعاه إلى غدائه ؛ فبلغ من جهله بحق المرتبة التى أحلّه فيها أن قال : قد تغديت . وإذا هو ليس عنده لِمَنْ أكل مع أمير المؤمنين وشاركه فى يده إلا سَدُّ خَلَّةِ الجوع ، ومثل هـذا لا يُقوِّمه القول دون الفعل . فسكت القوم وانصرفوا .

لبكر بن عبيد الله — وقال بكر بن عبيد الله : أحق الناس بلطمة مَن أتى طعاما لم يُدْعَ إليه ، وأحق الناس بلطمتين من يقول له صاحب البيت : اجلس هاهنا . فيقول : لا ، هاهنا ، وأحق الناس بثلاث لطمات من دُعِى إلى طعام فقال لصاحب المنزل : ادعُ ربة البيت تأكل معنا .

للجاحظ — وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : لا ينبغى للفتى أن يكون مُكحلا ؛ ولا مُقبِّباً ، ولا مُكوكباً ، ولا شُكامداً ، ولا حُرامدا ، ولا نُقامدا . ثم فسره فقال : أما المكحل ، فالذى يتعرق العظم حتى يدعه كأنه مكحلة عاج ، والمقبِّب ، فالذى يركّب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قبة ؛ والموكِّب ، الذى يبصق فى الطست وينخم فيها حتى يصير بصاقه كأنه الكواكب فى الطست : والحرامد ، الذى يأتى فى وقت الغداء والعشاء فيقول : ما تأكلون ؟ فيقولون من بغضه : سمًّا ! فيدخل يده ويقول : فى حرِ آمٍّ العيش بعدكم ؛ والشُّكامد . الذى يتبع اللقمة بأخرى قبل أن يُسيغها فيخنق ، كأنه ديك قد ابتلع فأرة ، والنقامد ، الذى يضع الطعام بين يديه ويأكل من بين يدى غيره .

غسل اليد — ومن الأدب : أن يبدأ صاحب الطعام بغسل يده قبل الطعام ، ثم يقول لجلسائه : من شاء منكم فليغسلْ . فإذا غسل بعد الطعام : فليقدِّمهم ويتأخر .

أدب الملوك

للعلماء — قال العلماء : لا يُؤَمّ ذو سلطان فى سلطانه ولا يُجلس على تكرمته إلا بإذنه .

لزياد

وقال زياد : لا يُسَلَّم على قادم بين يدى أمير المؤمنين .

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده زياد، فرحّب به معاوية ووسع له إلى جنبه ، وأقبل عليه يسائله ويحادثه وزياد ساكت ، فقال له ابن عباس : كيف حالك أبا المغيرة ، كأنك أردت أن تُحدث بيننا وبينك هِجرة ؟ فقال : لا ، ولكنه ٥ لا يُسَلَّم على قادم بين يدى أمير المؤمنين . قال ابن عباس : ما أدركتُ الناس إلا وهم يُسلمون على إخوانهم بين يدى أمرائهم . فقال له معاوية : كُفّ عنه يا بن عباس ، فإنك لا تشاء أن تغلِب إلا غلبْتَ .

لعبد الملك

الشيبانى قال : بصق ابن مروان فقصّر فى بصقته ، فوقعتْ فى طرف البساط فقام رجل من المجلس فمسحه بكمه ، فقال عبد الملك بن مروان : أربعة لا يُسْتَحَى ١٠ من خدمتهم : الإمام ، والعالم ، والوالد ، والضيف .

ليحيى بن خالد

وقال يحيى بن خالد : مُساءلةُ الملوك عن حالها من تحية النَّوْكى ، فإذا أردت أن تقول : كيف أصبح الأمير ، فقل : صَبّحَ اللهُ الأمير بالنعمة والكرامة . وإن كان عليلا فأردت أن تسأله عن حاله ، فقل : أنزل اللهُ على الأمير الشفاء والرحمة.

لبعضهم

وقالوا : إذا زادك الملك إكراماً فزده إعظاما ، وإذا جعلك عبدا فاجعله ربّا ١٥ ولا تُديمن النظر إليه ، ولا تُكثر من الدعاء له فى كل كلمة ولا تتغيّر له إذا سَخط ولا تغترّ به إذا رضى ، ولا تُلحِف فى مسألته .

وقالوا : الملوك لا تُسْأَل ولا تشمّت ، ولا تُكيّف .

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

إن الملُوك لا يُخاطَبُونا ٭ ولا إذا ملُّوا يُعاتَبونا

٢٠ وفى المقالِ لا يُنازَعُونا ٭ وفى العُطاسِ لا يُشمَّتُونا

وفى الخطابِ لا يُكَيَّفُونا ٭ يُثْنَى عليْهِمْ ويُبَجَّلُونا

فافْهَمْ وصاتِى لا تكن مَجْنونا

وقالوا : مِن تمام خدمة الملوك أن يُقرِّب الخادم إليه نعليه ، ولا يدعه يمشى

إليهما، ويجعل النعل اليمنى قُبالة الرجل اليمنى، واليُسرى قُبالة الرجل اليسرى؛ وإذا رأى متكأً يحتاج إلى إصلاح أصلحه، ولا ينتظر فيه أمره، ويتفقد الدواة قبل أن يأمره، وينفُض عنها الغبار إذا قرّبها إليه، وإن رأى بين يديه قِرطاسا قد تباعد عنه قرّبه إليه ووضعه بين يديه على كِسَره.

معاوية وأصحابه

وقال أصحابُ معاوية لمعاوية: إنا ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فأنت تكره أن تستخفَّنا فتأمرنا بالقيام، ونحن نكره أن نُثْقِلَ عليك فى الجلوس، فلو جَعلت لنا علامة نعرف بها ذلك؟ فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شئتم.

ليزيد فى مثله

وقيل مثل ذلك ليزيد بن معاوية، فقال: إذا قلت: على بركة الله.

وقيل مثل ذلك لعبد الملك بن مروان، فقال: إذا وضعت الخيزرانة.

أبو جعفر وشبيب

وما سمعتُ بألطف معنى، ولا أكمل أدباً، ولا أحسن مذهباً فى مساءلة الملوك من شبيب بن شيبة وقوله لأبى جعفر: أصلحك الله، إنى أحب المعرفة وأُجلك عن السؤال. فقال له: فلان بن فلان.

باب الكناية والتعريض

لعمر بن عبد العزيز

ومن أحسن الكناية اللطيفة عن المعنى الذى يقبح ظاهره: قيل لعمر ابن عبد العزيز، وقد نبت له حِبْنٌ تحت أُنثييه: أين نبت بك هذا الحبن؟ قال: بين الرانفة والصَّفْن.

لآخر

وقال آخر، ونبت به حِبَن فى أبْطه، أين نبت بك هذا الحِبن؟ قال: تحت مَنكبى.

وقد كنى الله تعالى فى كتابه عن الجماع بالملامَسة، وعن الحدث بالغائط فقال: ﴿ أو جاء أحد منكم مِنَ الغائطِ أو لامَسْتُمُ النِّساء ﴾ - والغائط: الفحص، وجمعه غيطان - ﴿ وقالُوا مالِ هٰذا الرَّسُولِ يأْكلُ الطَّعام ﴾ وإنما كَنَى به عن الحدَث. وقال تعالى: ﴿ واضْمُمْ يَدكَ إلى جَناحِك تَخْرُجْ بيضاء مِنْ غيْر سُوء ﴾ فكنى عن البرص.

النعمان والربيع

ودخل الربيع بن زياد على النعمان بن المنذر وبه وَضَحٌ ، فقال : ما هذا البياضُ بك ؟ فقال : سيف الله جلاه .

حارثة بن بدر وزياد

ودخل حارثة بن بدر على زياد وفى وجهه أثر ، فقال زياد : ما هذا الأثر الذى فى وجهك ؟ قال : ركبت فرسى الأشقر فجمح بى . فقال : أما إنك لو ركبت الأشهب لما فعل ذلك . فكنى حارثة بالأشقر عن النبيذ ، وكنى زياد بالأشهب عن اللبن .

معاوية والأحنف

وقال معاوية للأحنف بن قيس : أخبرنى عن قول الشاعر :

إذا ما مات مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ ۝ وسَرَّكَ أن يعيشَ فجئْ بزادِ

بخُبْزٍ أوْ بتَمْرٍ أو بِسَمْنٍ ۝ أوِ الشَّىءِ المُلفَّفِ فى البجادِ

تراهُ يطوف فى الآفاقِ حِرْصاً ۝ ليأكُلَ رأسَ لُقْمَان بن عادِ

ما هذا الشىء الملفف فى البجاد ؟ قال الأحنف : السخينة يا أمير المؤمنين . قال معاوية : واحدة بأخرى والبادى أظلم .

السخينة : طعام كانت تعمله قريش من دقيق ، وهو الحريرة ، فكانت تُسَبُّ به ؛ وفيه يقول حسان بن ثابت :

زَعَمت سخينَةُ أنْ ستَغْلِبُ ربَّها ۝ وليُغْلَبَنَّ مُغالبُ الغَـــلَّابِ

وقال آخر :

۝ تعشّوْا مِنْ حريرَتِهِمْ فنامُوا ۝

عثمان وعمرو بن العاص حين عزله عن مصر

ولما عزل عثمانُ بن عفان عمرَو بن العاص عن مصر وولّاها ابن أبى سرح دخل عمرو على عثمان وعليه جبة مَحْشُوَّة ، فقال له عثمان : ما حشو جُبتك يا عمرو؟ قال : أنا . قال : قد علمتُ أنك فيها . ثم قال له : يا عمرو ، أشعرْت أن اللّقاح درّت بعدَك ألبانُها ؟ فقال : لأنكم أعجفتم أولادها .

فكنّى عثمان عن خراج مصر باللّقاح ، وكنّى عمرو عن جور الوالى بعده وأنه حرم الرزق أهل العطاء ووفّره على السلطان ، بالإعجاف .

لشاعر يعرض بجعدة

وكان فى المدينة رجل يسمى جعدة ، يرجّل شعره ويتعرّض للنساء المغْزِبات ، فكتب رجل من الأنصار كان فى الغزو إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

أَلَا أَبْلِغْ أبا حَفْصٍ رسولًا * فِدًى لك من أخى ثِقةٍ إزارى

قَلائصنا هَداكَ اللهُ إنّا * شُغِلْنا عنكمُ زمنَ الحِصارِ

يُعقِّلُهنّ جعْدةُ شيظَمِىٌّ * وبئسَ مُعَقِّلُ الذَّوْدِ الظُّؤارِ ٥

فكنى بالقلائص عن النساء ، وعرّض برجل يقال له جعدة . فسأل عنه عمرُ فدُلَّ عليه ، فجزَّ شَعْرَه ونفاه عن المدينة .

عمر وامرأة فى الطواف

وسمع عمر بن الخطاب امرأةً فى الطواف تقول :

فمنهنّ مَن تُسْقَى بعَذْب مُبرَّدٍ * نُقاخٍ فتِلْكُمْ عند ذلك قَرَّتِ

ومنهنّ مَنْ تُسْقَى بأخضرَ آجِنٍ * أُجاجٍ ولولا خَشيةُ اللهِ فَرَّتِ ١٠

ففهم شكواها ، فبعث إلى زوجها فوجده متغيِّرَ الفم ، فخيَّره بين خمسمائة درهم وطلاقها . فاختار الدراهم ، فأعطاه وطلّقها .

زياد وشريف بصرى

ودخل على زيادٍ رجلٌ من أشراف البصرة ، فقال . أين مسكنك من البصرة ؟ قال : فى وسطها قال له : كم لك من الولد ؟ قال : تسعة . فلما خرج من عنده قيل له : إنه ليس كذلك فى كل ما سألته ، وليس له من الولد إلا واحد ، وهو ١٥ ساكن فى طرف البصرة . فلما عاد إليه سأله زياد عن ذلك ، فقال له : ما كذَبْتُك . لى تسعة من الولد ، قدّمْتُ منهم ثمانية فهُم لى ، وبقى معى واحد ، فلا أدرى ألِى يكونُ أم علىّ ؛ ومنزلى بين المدينة والجبّانة : فأنا بين الأحياء والأموات ، فمنزلى فى وسط البصرة . قال : صدقت .

الكناية يورّى بها عن الكذب والكفر ٢٠

بين الحجاج وابن جبير ومطرف

لما هزم الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وقَتل أصحابَه وأسَر بعضهم ، كتب إليه عبد الملك بن مروان أن يَعْرِض الأسرى على السيف ، فمن أقرّ منهم بالكفر خلّى سبيله ، ومن أبى يقتله . فأُتى منهم بعامر الشّعبى ، ومُطرِّف بن

عبد الله بن الشِّخير ، وسعيد بن جُبير . فأما الشعبي ومُطرِّف فذهبا إلى التعريض والكناية ولم يصرّحا بالكفر ، فقبل كلامَهما وعفا عنهما ؛ وأما سعيد بن جبير فأبى ذلك فقُتل .

وكان مما عَرّض به الشعبي فقال : أصلح الله الأمير ، نبا المنزل ، وأحزن بنا الجَناب ، واستحلَسْنا الخوف ، واكتحلنا السهر ، وخبطتنا فتنةٌ لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء . قال : صَدَق . والله ما برّوا بخروجهم علينا ولا قَوُوا ، خلّيا عنه . ثم قُدم إليه مطرِّف بن عبد الله ، فقال له الحجاج : أتقرّ على نفسك بالكفر ؟ قال : إنّ من شق العصا ، وسفك الدماء ، ونكث البيعة ، وأخاف المسلمين ، لجدير بالكفر . قال : خلّيا عنه . ثم قُدّم إليه سعيد بن جبير ؛ فقال له : أتُقرّ على نفسك بالكفر ؟ قال : ما كفرتُ بالله مذ آمنتُ به . قال : اضربوا عنقه .

الواثق وابن مسكين وابن نصر فى محنة القرآن

ولما وَلِيَ الواثقُ وأقعد للناس أحمد بن أبي دُوَاد للمحنة فى القرآن ودعا إليه الفقهاء ، أُتى فيهم بالحارث بن مسكين ، فقيل له : اشهدْ أن القرآن مخلوق ! قال : أشهد أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، هذه الأربعة مخلوقة . ومدّ أصابعه الأربع ؛ فعرّض بها وكنّى عن خلق القرآن وخلّص مهجتَه من القتل . وعجز أحمد بن نصر فقيه بغداد عن الكناية فأباها ، فقُتل وصُلب .

بين خليفة وناسك فى طعام

ودخل بعض النُّساك على بعض الخلفاء فدعاه إلى طعامه ، فقال : الصائم لا يأكل يا أمير المؤمنين ، وما أُزكّى نفسى ، بل الله يُزكّى من يشاء . وإنما كره طعامَه .

ابن عرباض والخوارج

الأصمعى عن عيسى بن عمر قال : بينما ابن عِرباض يمشى مقدّما بطنه ، إذ استقبلته الخوارج يجزّون الناس بسيوفهم ؛ فقال لهم : هل خرج إليكم فى اليهود شيء ؟ قالوا : لا . قال : فامضوا راشدين . فمضوا وتركوه .

الخوارج وشيطان الطاق

ولقى شيطان الطاق رجلا من الخوارج وبيده سيف ؛ فقال له الخارجى : والله لأقتلنّك أو تبرأ من علىّ . فقال : أنا من علىٍّ ومن عثمان

برىء يريد أنه من علىّ ، وبرىء من عثمان .

بين الوليد ورجل سماه

أبو بكر بن أبى شيبة قال : قال الوليد بن عقبة على المنبر بالكوفة : أقسم على مَنْ سمّانى أشْعَرَ بَرْكاً إلا قام . فقام إليه رجل من أهل الكوفة فقال له : ومَنْ هذا الذى يقوم إليك فيقول : أنا الذى سميتُك أشعر بركا ؟ وكان هو الذى سمّاه بذلك .

معاوية وابن صوحان فى لعن على

وقال معاوية لصعصعة بن صوحان : اصعد المنبر فآلعن عليّا . فامتنع من ذلك وقال : أو تعفينى ؟ قال : لا . فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : معاشرَ الناس ، إن معاوية أمرنى أن ألعن عليًّا ، فالعنوه لعنه الله .

الكناية عن الكذب فى طريق المدح

ابن الهيثم وغلام سكران

المدائنىّ قال : أُتِىَ العُريانُ بن الهيثم بغلام سكران ، فقال له : من أنت ؟ فقال :

أنا ابنُ الذى لا ينزلُ الدهرَ [1] قِدْرُهُ ۔ وإن نزَلتْ يوما فسوفَ تعودُ

تَرى الناسَ أفواجاً إلى ضوْءِ نارِهِ ۔ فمنهم قِيامٌ عندها وقُعودُ

فظنه ولداً لبعض الأشراف ، فأمر بتخليته ، فلما كُشف عنه قيل له : إنه ابن باقِلّانى .

عيسى بن موسى وابن شبرمة فى متهم

ودخل رجل على عيسى بن موسى وعنده ابن شبرمة القاضى ، فقال له : أتعرف هذا الرجل ؟ وكان رُمِىَ عنده بريبة ، فقال : إن له بيتاً وقَدَماً وشرفا . فخلّى سبيله . فلما انصرف ابنُ شُبرمة قال له أصحابُه : أكنت تعرف هذا الرجل ؟ قال : لا ، ولكنى عرفتُ أن له بيتاً يأوى إليه ، وقَدَماً يمشى عليها ، وشرفه أُذناه ومَنكباه .

خاطب لبائع سنانير

وخطب رجل لرجل إلى قوم ، فسألوه : ما حرفته ؟ فقال : نخاس الدوّاب . فزوّجوه ، فلما كشف عنه وجدوه يبيع السنانير ؛ فلما عنّفوه فى ذلك قال :

(١) فى بعض الأصول : « الارض » .

أَوَ ما السّنانير دوابّ ؟ ماكذبتكم فى شىء .

معلى وابن السرى فى مرضه

ودخل معلّى الطائى على ابن السّرىّ يعوده فى مرضه . فأنشده شعراً يقول فيه :

فأُقْسِم إن مَنّ الإلـهُ بِصِحَّةٍ ٭ ونالَ السَرِىُّ بنُ السَّرِىِّ شِفاء

٥ لأرتَحِلنّ العيسَ شهراً بحَجّةٍ ٭ وأُعتق شكراً سالماً وصَفاء [1]

فلما خرج من عنده قال له أصحابه : والله ما نعلم عبدك سالما ، ولا عبدك صفاء ، فمن أردت أن تُعتِق ؟ قال : هما هِرّتان عندى ، والحجّ فريضة واجبة ، فما علىّ فى قولى شىء إن شاء الله تعالى .

باب فى الكناية والتعريض فى طريق الدعابة

لابن سيرين فى رجل سئل عنه

١٠ سئل ابن سيرين عن رجل ، فقال : تُوفّى البارحة . فلما رأى جَزَع السائل قال : ﴿ اللهُ يتوفّى الأنفُس حِينَ مَوْتِها والتى لم تمُتْ فى منامِها ﴾ وإنما أردتُ بالوفاة النوم .

لشريح فى مرض زياد

ومرض زياد ، فدخل عليه شُريح القاضى يعوده ، فلما خرج بعث إليه مسروقُ بن الأجدع يسأله : كيف تركت الأمير ؟ قال : تركته يأمر وينهى . فقال

١٥ مسروق : إن شريحاً صاحب تعريض ، فاسألوه . فسألوه . قال : تركته يأمر بالوصية ، وينهى عن البكاء .

بين سنان النميرى وابن هبيرة

وكان سنان بن مكمِّل النُّميرى [2] يساير عمر بن هبيرة الفزارى يوماً على بغلة فقال له ابن هبيرة : غُضّ من عِنان بغلتك . فقال : إنها مكتوبة ، أصلح الله الأمير . أراد ابن هبيرة قول جرير :

٢٠ فغُضّ الطرْفَ إنك مِن نُميرٍ ٭ فلا كعباً بلغت ولا كلابا

---

(١) فى بعض الأصول : « ويعتق . . . وخفاء » .

(٢) فى نهاية الأرب : « أيوب بن ظبيان النميرى » .

وأراد سنان قول الشاعر :

لا تأمَنَنّ فزاريًّا خلوتَ به ٭ على قَلوصِك واكتُبْها بأسيارِ

نميرى وتميمى

ومر رجل من بنى نُمير برجل من بنى تميم على يده باز ، فقال التميمى للنُّميرى : هذا البازى ؟ قال له النّميرى : نعم ، وهو يصيد القطا . أراد التميمىُّ قول جرير :

أنا البازى المُطِلُّ على نُمَيرٍ ٭ أُتِحْتُ له من الجوِّ انصبابا

وأراد النميرى قول الطِّرِمّاح :

تميمٌ بطُرْقِ اللُّؤْم أهدَى منَ القَطا ٭ ولو سَلَكَت سُبْلَ المكارمِ ضلَّتِ

ابن يزيد الهلالى ومحاربى

ودخل رجل من محارب على عبد الله بن يزيد الهلالى وهو والى أرمينية ، وقريبٌ منه غدير فيه ضَفادع ، فقال عبد الله بن يزيد : ماتركتْنا شيوخ محارب نَنام الليلة ! فقال له المحاربى : أصلح الله الأمير ، أو تدرى لِمَ ذلك ؟ قال : ولِمَ ؟ قال : لأنها أضلت بُرْقُعاً لها . قال قبّحك الله ، وقبّح ماجئت به ، أراد ابن يزيد الهلالى قول الأخطل :

تَنِقُّ بلا شىء شُيوخُ مُحارِبٍ ٭ وماخِلْتُها كانت تَريشُ ولا تَبرِى

ضَفادعُ فى ظَلْماءِ ليْل تَجاوبَتْ ٭ فدلَّ عليها صوتُها حَيّةَ البحر

وأراد المحاربى قول الشاعر :

لكلِّ هِلاليٍّ من اللُّؤْمِ بُرْقُعٌ ٭ ولابن هلال بُرْقُعٌ وقميص

بين معاوية وعبد الرحمن ابن الحكم

وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم[1] : آستعرض لى هذين الفَرسين فقال : أحدهما أجش والآخر هَزيم . يعنى قول النّجاشى :

ونَجّى ابن هند سابِحٌ ذو غُلالةٍ ٭ أَجَشُّ هزيمٌ والرِّماحُ دَوانى

فقال معاوية : أما إنّ صاحبها على مافيه لا يشبّب بكنائنه . وكان عبد الرحمن يُرْمَى بكنّته .

---

(١) فى عيون الأخبار « عبد الرحمن بن حسان » .

زياد ومشير عليه في امرأة يتزوجها

وشاور زياد رجلا من ثقاته فى امرأة يتزوجها ، فقال : لا خير لك فيها ؛ إنى رأيت رجلا يُقبلها ، فتركه وخالفه إليها وتزوجها ، فلما بلغ زيادا خبره أرسل إليه وقال له : أما قلت لى إنك رأيت رجلا يقبلها ؟ قال : نعم ، رأيت أباها يقبلها .

عمر بن الخطاب وأعرابى

٥ وقال أعرابى لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، آحملنى وسُحيما على جمل . فقال : نشدتك الله يا أعرابى ، أسُحيم هذا زِق ؟ قال : نعم . ثم قال : من لم ينفعه ظَنُّه لم ينفعه يقينُه .

بين رجل ومودع له

وودّع رجلٌ رجلا كان يُبغضه ، فقال : آمض فى سِرّ من حفظ الله ، وحجاب من كلاءته . ففطن له الرجل ، فقال : رفع الله مكانك ، وشدّ ظهرك ، ١٠ وجعلك منظوراً إليك .

ابن أبى عتيق وزوج له

الشيبانى قال : كان ابن أبى عتيق صاحب هزل ولهو ، واسمه عبد الله بن محمد ابن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنهم وكانت له امرأة من أشراف قريش ، وكان لها فتيات يُغنِّين فى الأعراس والمآتم ، فأمرت جارية منهن أن تغنى بشعر لها قالته فى زوجها ، فتغنت الجارية وهو يسمع :

١٥ ذَهَب الإله بما تعيش به ❊ وقَمَرْتَ لُبّك أيّما قَمْر

أنفقْتَ مالَكَ غيرَ مُحْتشِم ❊ فى كلِّ زانِيَة وفى الخَمْرِ

فقال للجارية : لمن هذا الشعر ؟ قالت : لمولاتى . فأخذ قرطاسا فكتبه وخرج به ، فإذا هو بعبد الله بن عمر بن الخطاب ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، قِف قليلا أكلّمْك . فوقف عبد الله بن عمر ، قال : ما ترى فيمن هجانى بهذا الشعر ؟ وأنشد ٢٠ البيتين . قال : أرى أن تعفو وتصفح . قال : أما والله لئن لقيتُه لأنيكنّه ! فأخذ ابن عمر ينكّله ويزجره ، وقال : قبّحك الله ! ثم لقيه بعد ذلك بأيام ، فلما أبصره ابن عمر أعرض عنه بوجهه ، فاستقبله ابن أبى عتيق فقال له : سألتُك بالقبر ومن فيه إلا سمعت منى حرفين . فولاه قفاه وأنصت له ، قال : علمت أبا عبد الرحمن أنى لقيت قائل ذلك الشعر ونِكْتُه . فصُعق عبد الله ولُبِط به فلما رأى

ما نزل به دنا من أذنه وقال : أصلحك الله ، إنها امرأتى . فقام ابن عمر وقبّل ما بين عينيه .

باب فى الصمت

داود عليه السلام ولقمان الحكيم

كان لقمان الحكيم يجلس إلى داود صلى الله عليه وسلم مقتبساً ، وكان عبداً أسود ، فوجده وهو يعمل درعا من حديد ، فعجب منه ، ولم ير دِرْعا قبل ذلك ، فلم يسأله لقمان عما يعمل ، ولم يخبره داود ، حتى تمت الدرع بعد سنة ، فقاسها داود على نفسه ، وقال : زرْد طافا ليوم قِرافا . تفسيره : درع حصينة ليوم قتال ؛ فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله . ٥

لأبى عبيد الله الكاتب

وقال أبو عبيد الله كاتب المهدىّ : كن على آلتماس الحظ بالسكوت أحرص منك على آلتماسه بالكلام ؛ إن البلاء موكّل بالمنطق . ١٠

لأبى الدرداء

وقال أبو الدَّرداء : أنصِف أُذنيك من فيك ، فإنما جُعل لك أُذنان آثنتان وفمٌ واحد لتسمع أكثر مما تقول .

معاوية والأحنف

ابن عَوْف عن الحسن ، قال : جلسوا عند مُعاوية فتكلموا وسكت الأحنف فقال معاوية : مالك لا تتكلم أبا بَحر ، قال : أخافك إن صَدَقتُ وأخافُ الله إن كذبت . ١٥

للمهلب

وقال المهلّب بن أبى صُفرة : لَأنْ أرى لعقل الرجل فضلا على لسانه أحبُّ إلىّ من أن أرى للسانه فضلا على عقله .

لسالم بن عبد الملك

وقال سالم بن عبد الملك : فضل العقل على اللسان مروءة ، وفضل اللسان على العقل هُجْنة .

لبعضهم

وقالوا : من ضاق صدره آتسع لسانه ، ومن كثُر كلامه كثر سَقَطه ومن ساء خلقُه قل صديقُه . ٢٠

لهرم بن حيان

وقال هَرِم بن حيّان : صاحب الكلام بين منزلتين : إن قصّر فيه خُصِم ، وإن أغرق فيه أثم .

لشبيب — وقال شَبيب بن شَيبة : من سمع الكلمة يكرهها فسكت عنها انقطع ضَرُّها عنه .

وقال أكثم بن صَيفى : مَقتل الرجل بين فكَّيْه .

لجعفر بن محمد — وقال جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم :

يموتُ الفتى من عَثرة بلسانه ۞ وليس يموت المرء من عَثرة الرِّجل

٥ فعَثرتُه مِن فيه ترمِى برأسِه ۞ وعَثرته بالرِّجلِ تَبرا على مَهْلِ

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

الحلْمُ زَيْنٌ والسُّكوتُ سَلامةٌ ۞ فإذا نَطقْت فلا تكن مِكثارَا

ما إنْ نَدِمْت على سُكوتى مَرَّة ۞ إلا نَدِمْت على الكلام مِرارَا

للحسن بن هانىء — وقال الحسن بن هانئ :

١٠ خَلِّ جَنْبَيْك لِرَامى ۞ وامض عنى بسلام

مُتْ بداءِ الصَّمْتِ خيرٌ ۞ لك من داءِ الكلام

رُبَّ لفظ ساق آجا ۞ لَ فِئام وفِئام

إنما السالمُ من أَلْجَـمَ فاهُ بلجامِ

لبعض الحكماء — وقال بعض الحكماء : حظّى من الصمت لى ، ونفعُه مقصورٌ علىّ وحظى من

١٥ الكلام لغيرى ، ووباله راجع علىّ .

وقالوا : إذا أعجبك الكلام فاصمُت .

عمر بن عبد العزيز وسائل فى الكلام — وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : متى أتكلم ؟ قال : إذا اشتهيت أن تَصْمُت .
قال : فمتى أصمُت ؟ قال : إذا اشتهيت أن تتكلم .

للنبى صلى الله عليه وسلم — وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما أُعطِىَ العبد شرًّا من طلاقةِ اللسان .

٢٠ وسمع عبد الله بن الأهتم رجلا يتكلم فيُخطئ ، فقال : بكلامك رُزقَ الصمتُ المحبة .



باب فى المنطق

فى فضل النطق

قال الذين فضّلوا المنطق : إنما بُعِثت الأنبياء بالكلام ولم يُبْعَثوا بالسكوت ؛ وبالكلام وُصِف فضلُ الصمت ولم يوصف القولُ بالصمت ؛ وبالكلام يؤمَرُ بالمعروف ويُنْهَى عن المنكر ويعظَّم الله ويُسبَّح بحمده . والبيان من الكلام هو الذى منَّ اللهُ به على عباده فقال : ﴿ خَلَقَ الإنسانَ عَلَّمَهُ البَيان ﴾ . والعلم كله لا يؤدِّيه إلى أوعية القلوب إلا اللسان ؛ فنفع المنطقِ عامٌّ لقائله وسامعه ، ونفع الصمتِ خاصٌّ لفاعله .

وأعْدَلُ شيء قيل فى الصمت والمنطق ، قولُهم : الكلام فى الخير كُلُّه أفضل من الصمت ، والصمتُ فى الشر كُلُّه أفضل من الكلام .

لابن المبارك

وقال عبد الله بن المبارك صاحب الرَّقائق يرثى مالك بن أنس المدنى :

صَمُوتٌ إذا ماالصَّمْتُ زَيَّنَ أهلَهُ * وفَتَّاقُ أبكارِ الكلامِ المُخَتَّمِ
وَعَى ماوَعَى القرآنُ من كلِّ حِكمة * ونِيطَتْ له الآداب باللحمِ والدَّمِ

لابن الخطاب

وقال عمر بن الخطاب : ترك الحركة غَفْلة .

وقال بكر بن عبد الله المُزنى : الصمت حُبْسة [1] .

لبعضهم

وقالوا : الصمت نوم ، والكلام يقظة .

وقالوا : ماشيء ثنى إلا قصُر ، إلا الكلام فإنه كلما ثُنى طال .

وقال الشاعر :

الصمت شيمته فإن * أبدى مقالا كان فَصلا
أبدى السكوتَ فإن تكلّـم لم يدع فى القول فضلا

باب فى الفصاحة

لابن سيرين

محمد بن سيرين قال : ما رأيت على امرأة أجمل من شحم ، ولا رأيت على رجل أجملَ من فصاحة .

(١) فى بعض الأصول : « خرسة » .

وقال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن نبيه موسى صلى الله عليه وسلم واستيحاشه لعدم الفصاحة: ﴿ وأخي هٰرون هُوَ أفصحُ منّي لِساناً فأرْسِلْهُ معِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُني ﴾ .

آفات المنطق

ابن السماك وجارية له

٥ تكلم ابن السماك يوما وجارية له تسمع كلامه ، فلما دخل قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تردّده . قال : أردّده ليفهمه من لم يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه يملّه من فهمه .

معاوية وجلساؤه

الأصمعى قال : قال معاوية يوما لجلسائه : أيّ الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط : يا أمير المؤمنين ، قوم قد ارتفعوا عن رُتّة العراق ، وتياسروا عن ١٠ كشكشة بكر ، وتيامنوا عن شِنْشِنة تَغْلب ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طُمْطمانية حِمْير . قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين ، قريش . قال صدقت ! فمن أنت ؟ قال : من جَرْم . قال الأصمعى : جَرم فُصحاء الناس .

وهذا الحديث قد وقع فى فضائل قريش ؛ وهذا كان موضعه فذكرناه [1] .

قال أبو العباس محمد بن يزيد النَّحوى : التمتمة فى المنطق : التردّد فى التاء . ١٥ والعُقلة : هى التواء اللسان عند إرادة الكلام . والحُبْسه : تعذر الكلام عند إرادته . واللّفف : إدخال حرف فى حرف . والطمطمة : أن يكون الكلام مُشْبِهاً لكلام العجم . واللُّكنة : أن تعترض عند الكلام اللغةُ الأعجمية ـ وسنفسر هذا حرفاً حرفا وما قيل فيه إن شاء الله ـ واللُّثغة أن يُعْدَل بحرف إلى حرف . والغنّة : أن يُشْرَب الحرفُ صوتَ الخيشوم ؛ والخُنة ، أشد منها . والترخيم : ٢٠ حذف الكلام . والفأفأة : التردّد فى الفاء ؛ يقال : رجل فأفاء ، تقديره فاعال : ونظيره من الكلام ، ساباط ، وخاتام ؛ وقال الراجز :

يا مَيُّ ذاتَ الجورَبِ المُنْشقِّ ۝ أخذتِ خاتامي بغــيرِ حقِّ

---

(١) فى بعض الأصول : « فأعدناه » .

وقال آخر :

ليس بفأفاءٍ ولا تمتامِ ۞ ولا مُحِبٍّ سقَطَ الكلامِ

والرُّتة ، كالرُّتَج : تمنُّع أول الكلام ، فإذا جاء منه شيء اتصل به . والغمغمة : أن تسمع الصوت ولا تبين لك تقطيعُ الحروف .

وأما الرُّتة فإنها تكون غريزية . وقال الراجز : ٥

۞ يا أيُّها المُخلِّطُ الأرَتُّ ۞

ويقال إنها تكثر فى الأشراف . وأما الغمغمة . فإنها قد تكون من الكلام وغيره ، لأنها صوت من لا يفهَم تقطيع حروفه . قال عنترة :

وصاحب ناديته فغمغما ۞ يريد لبَّيك وما تكلَّما

قد صار من خوف الكلام أعجما ١٠

وأما كشكشة تميم : فإن بنى عمرو بن تميم إذا ذَكَرَتْ كافَ المؤنث فوقفتْ عليها أبدلت منها شِينا ، لقُرب الشين من الكاف فى المخرج ، وقال راجزهم :

هـلْ لَكِ أن تنتفِعى وأَنْفَعَشْ ۞ وتُدْخِلِى الذى معى فى ألذْ مَعَشْ

وأما كسكسة بكر فقوم منهم يُبدلون من الكاف سيناً كما فعل التميميون فى الشين . وأما طُمطمانية حمير ففيها يقول عنترة : ١٥

تأوِى له قُلُص النَّعامِ كما أوَتْ ۞ حِزَقٌ يمانِيَةٌ لأعجمَ طِمطِمِ

وكان صُهيب أبو يَحيى رحمه الله يَرتضخ لكنة رومية .

صهيب — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صُهيب سابقُ الروم .

ابن زياد — وكان عبيد الله بن زياد يرتضخ لُكنة فارسية من قِبَلِ زوج أمه شِيرَوَيْه الأسوارىّ . ٢٠

زياد والأعجم — وكان زياد الأعجم ، وهو رجل من عبد القيس ، يرتضخ لكنة أعجمية ، وأنشد المهلَّب فى مدحه إياه :

فَتى زادَهُ السُّلْطانُ فى الحمد رَغْبَةً ۞ إذا غَيَّرَ السُّلْطانُ كلَّ خليلِ

يريد : السلطان ؛ وذلك أن بين التاء والطاء نسبا ، لأن التاء من مخرج الطاء . وأما الغُنة فتُستحسن من الجارية الحديثة السن . قال ابن الرقاع فى الظبية :

تُزجى أغنَّ كأنَّ إبرَةَ رَوْقِهِ * قلَمٌ أصابَ من الدَّواةِ مِدَادَها

٥ وقال ابن المُقفع : إذا كَثُر تقليب اللسان رقّت حواشيه ولانت عَذَبته . — لابن المقفع

وقال العتّابى : إذا حُبس اللسان من الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف . — للعتابى

وقال الراجز : — لراجز

كأنّ فيــه لَفَفاً إذا نطَقْ * من طُولِ تَحبيسٍ وهَمّ وأَرَقْ

باب فى الإعراب واللحن

١٠ أبو عبيدة قال : مر الشعبي بقوم من الموالى يتذاكرون النحو ، فقال لهم : لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده . — الشعبي وقوم من الموالى

قال أبو عبيدة : ليته سمع لحن صفوان وخالد بن صفوان وخاقان والفتح ابن خاقان والوليد بن عبد الملك .

وقال عبد الملك بن مروان : اللحن فى الكلام أقبح من التَّفتيق فى الثوب ، — لعبد الملك

١٥ والجدريّ فى الوجه .

وقيل له لقد عَجِل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ، قال : شيّبنى ارتقاء المنابر وتوقُّع اللحن .

وقال الحجاج لابن يَعْمَر : أتسمعنى أَلحَنُ ؟ قال : ألَا ربما سبقك لسانُك ببعضه فى آن وآن . قال : فإذا كان ذلك فعرِّفنى . — الحجاج وابن يعمر

٢٠ وقال المأمون لأبى على المعروف بأبى يعلى المِنقرىّ : بلغنى أنك أُمّىّ ، وأنك لا تُقيم الشعر ، وأنك تلحن فى كلامك . فقال : يا أمير المؤمنين ، أمّا اللحن فربما سبقنى لسانى بالشىء منه ، وأما الأمّية وكسر الشعر فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أُميا وكان لا يُنشد الشعر . قال المأمون : سألتك عن ثلاث عيوب فيك فزدتنى — للمأمون والمنقرى

عيبا رابعا، وهو الجهل. يا جاهل، إن ذلك فى النبى صلى الله عليه وسلم فضيلة، وفيك وفى أمثالك نقيصة، وإنما مُنع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم لنفى الظِّنَّة عنه، لا لعيب فى الشعر والكتاب، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿ وما كنت تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ ﴾.

لعبد الملك

٥ وقال عبد الملك بن مروان: الإعراب جمال للوضيع، واللحن هُجنة على الشريف.

وقال: تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض.

الحسن ورجل يصف إماما

وقال رجل للحسن: إن لنا إماماً يلحن. قال: أميطوه.

وقال الشاعر:

١٠ النحوُ يَبْسُط من لسانِ الألكَنِ ◦ والمرءُ تُكرِمُه إذا لم يَلحَنِ
فإذا طَلَبْت من العلوم أجلّها ◦ فأَجَلُّها منها مُقيمُ الألسُنِ

وقال آخر:

الشِّعرُ صعبٌ وطويل سُلَّمُهْ ◦ إذا ارْتَقى فيه الذى لا يعلمهْ
زَلَّتْ به إلى الحَضِيضِ قَدمُهْ ◦ يُريد أن يُعْرِبَه فيُعْجِمُهْ

الحسن ورجل يلحن

١٥ وقال رجل للحسن: يا أبو سعيد، فقال: أحسب أن الدوانيق شغلتْك عن أن تقول يا أبا سعيد.

من لحن الوليد

وكان عمر بن عبد العزيز جالسا عند الوليد بن عبد الملك، وكان الوليد لَحّانا، فقال: يا غلام، ادع لى صالح. فقال الغلام: يا صالحا. قال له الوليد: أنقص ألفا. فقال عمر: وأنت يا أمير المؤمنين فزِدْ ألفا.

ودخل على الوليد بن عبد الملك رجلٌ من أشراف قريش، فقال له الوليد: من خَتَنَك؟ قال له: فلان اليهودى. فقال: ما تقول؟ ويحك! قال: لعلك إنما تسأل عن خَتَنِى يا أمير المؤمنين، هو فلان بن فلان.

وقال عبد الملك بن مروان: أضرَّ بنا فى الوليد حبُّنا له فلم نلْزِمْهُ البادية.

وقد يستثقل الإعراب فى بعض المواضع كما يُستخف اللحن فى بعضها .

لابن أسماء

وقال مالك بن أسماء بن خارجة الفزارى :

مَنطِقٌ بارعٌ ويَلحَنُ أحيا * نًا وخيرُ الكلام ما كان لحنا

وذلك أنه من حكى نادرة مُضحكة ، وأراد أن يوفى حروفَها حظَّها من الإعراب ، طَمس حُسنَها وأخرجها عن مقدارها ؛ ألا ترى أن مُزبِّدا المدينى أكل طعاماً فكَظّه وقيل له : ألا تقىء ؟ فقال : وما أقىء ، خبزٌ نقى ولحمٌ طرى ! مرتى طالق ، لو وجدت هذا قيئاً لأكلتُه .

ابن هبيرة وابن عمر

قال : وكذلك يُستقبح الإعراب فى غير موضعه ، كما استُقْبح من عيسى ابن عمر إذ قال وابن هُبيرة يضربه بالسياط ، والله إن كانت إلا أُثَيَاباً فى أُسَيْفا ، قبضها عشّاروك .

وحكى عن بعض المُعربين للحن أنّ جارية له غنّته :

إذا ما سمعْتُ اللومَ فيها رفضْتُه * فيَدخُلُ من أُذْنٍ ويَخرُجِ من أُخرى

فقال لها : مِن أُخرَى يا فاعلة ، أمَا علّمْتُك أنّ (مِنْ) تَخفض ؟

شريح ولحانه

وقال رجل لشريح : ما تقول فى رجل تُوفِّى وترك أبا وأخيه ؟ فقال له : أباه وأخاه . فقال : كم لأباه وأخاه ؟ قال : لأبيه وأخيه . قال : أنت علّمتنى ، فما أصنع ؟

بعض الشعراء ومستدرك عليه

وقال بعض الشعراء . وأدرك عليه رجل من المتفصّحين ، يقال له حفص ، لحناً فى شعره ، وكان حفص به آختلاف فى عينه وتشويه فى وجهه ، فقال فيه .

لقد كان فى عينَيْك يا حفصُ شاغلٌ * وأنْفٍ كثيل الطَّود[1] عما تَتبَّعُ

تَتبّعُ لحناً من كلامٍ مُرقّشٍ * وخَلْقُك مَبنِىٌّ من اللحنِ أجمعُ

فعينُك إقواءٌ وأنفك مُكْفأٌ * ووجهُك إيطاءٌ فما فيك مَرْقعُ

(١) فى بعض الأصول : « العود » .

باب فى اللحن والتصحيف

أبو حنيفة

وكان أبو حنيفة لحانا ، على أنه كان فى الفُتْيا ولُطفِ النظر واحد زمانِه .

وسأله رجل يوما فقال له : ما تقول فى رجل تناول صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله ، أتُقيده به ؟ قال : لا ، ولو ضربه بأبا قُبَيْس .

بشر المريسى

وكان بشر المَرِيسىّ يقول لجلسائه : قَضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهَنَؤُها . فسمع قاسم التّمار قوماً يَضحكون ، فقال : هذا كما قال الشاعر :

إنّ سُلَيْمَى واللهُ يَكْلَؤُها ۞ ضَنَّتْ بشىء ما كان يَرْزَؤُها

وبِشرُ المَرِيسى رأسٌ فى الرأى ، وقاسم التمار متقدم فى أصحاب الكلام ؛ واحتجاجه لبشر أعجب من لحن بشر .

ابن شبية وإسحاق بن عيسى

ودخل شَبيب بن شَيبة على إسحاق بن عيسى يُعزيه عن طفل أُصيب به ؛ فقال فى بعض كلامه : أصلح الله الأمير ، إنّ الطفل لا يزال مُحْبَنْطِيا على باب الجنة يقول : لا أدخل حتى يدخل أبواى . قال إسحاق بن عيسى : سبحان الله ! ماذا جئت به ؟ إنما هو محبنطى ؛ أما سمعت قول الراجز :

إنى إذا أنشدْت لا أحْبَنْطِى ۞ ولا أُحِب كَثْرة التمَطِّى

قال شبيب : أَلِى يُقال مثل هذا وما بين لابَتَيْها أعلمُ منى بها ! فقال له إسحاق : وهذه أيضا ، أللبصرة لابتان يالُكَع ! فأبان بتقريعه عوارَه فأخجله ، فسكت .

قوله : المحبنطى : الممتنع امتناع طلب لا امتناع إباء[1] ، وهو بالطاء غير معجمة ، ورواه شبيب بالظاء المعجمة . وقوله « ما بين لابَتَيْها » خطأ ؛ إذ ليس للبصرة لابتان ، وإنما اللابة للمدينة والكوفة . واللابة : الحَرَّة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود .

(١) فى بعض الأصول : « الممتنع فى ظلال » .

نوادر الكلام

يقال ماء نُقاخ ، للماء العذب . وماء فُرات ، وهو أعذب العذب . وماء قُعاع وهو شديد الملوحة . وماء حُراق ، وهو الذى يحرق من ملوحته . وماء شروب ، وهو دون العذب قليلا . وماء مسُوس ، وهو دون الشروب . وماء شَرِيب ، ٥ وهو دون العذب .

الضبي والأصمعى

اجتمع المفضّل الضّبي وعبد الملك بن قُريب الأصمعى ، فأنشد المفضل :

* تُصِمتُ بالماء تَوْلَباً جَذَعا *

فقال الأصمعى : تولبا جَدِعا . والجدِع السيئ الغذاء . فضجّ المفضل وأكثر . فقال له الأصمعى : لو نفخت فى الشَّبُّور ما نفعك . تكلم بكلام النَّمل وأصِب .

لابن أبى حفصة فى رواة الشعر

١٠ وقال مروان بن أبى حفصة فى قوم من رُواة الشعر لا يعلمون ماهو ، على كثرة استكثارهم من روايته :

زَوامِلُ للأشعارِ لا عِلْمَ عندهم * بِجَيِّدِها إلا كعِلْمِ الأباعِرِ

لَعَمْرُكَ ما يَدرى البعيرُ إذا غَدا * بأَوْساقِهِ أَوْراحَ ما فى الغَرائِرِ

باب نوادر من النحو

للخليل

١٥ قال الخليل بن أحمد : أنشدنى أعرابى :

وإن كِلاباً هذه عَشْرُ أَبْطُنٍ * وأنتَ برىءٌ من قَبائِلها العَشْرِ

قال : فجعلت أعجب من قوله « عشر أبطن » فلما رأى عجبى قال : أليس هكذا قول الآخر :

وكان مِجَنِّى دون مَن كنتُ أَتَّقِى * ثلاثَ شُخوصٍ كاعِبانِ ومُعْصِرُ

أبو زيد والخليل

٢٠ وقال أبو زيد : قلت للخليل : لِمَ قالوا فى تصغير واصِل : أُوَيْصِل ، ولم يقولوا وُوَيْصل ؟ قال : كرهوا أن يشبّه كلامهم بنبيح الكلاب .

لأبى الأسود

وقال أبو الأسود الدؤلى : مِن العرب من يقول : لولاى لكان كذا وكذا .

وقال الشاعر :

وكم مَوْطِنٍ لولاىَ طِحْتَ كما هَوَى * بأَجْرامِه مِن قُنَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِى

وكذلك « لولا أنتم ، ولولاكم » : ابتداء وخبرُه محذوف .

لأبى زيد وقال أبو زيد : وراء وقُدّام لا يُصْرَفان لأنهما مؤنثان ؛ وتصغير قُدّام قُدَيْدِمَة ، وتصغير وراء وُرَيْئة ؛ وقُدّام خمسة أحرف ، لأن الدال مشدّدة ، ٥ فأسقطوا الألف لأنها زائدة ، ولئلا يُصغَّر اسمٌ على خمسة أحرف .

لأبى حاتم أبو حاتم قال : يقال أُمٌّ بيِّنةُ الأمومة ، وعمٌّ بيِّنُ العمومة . ويقال : مأموم ، إذا شُجّ أم رأسه [1] . ورجل مَمُوم . إذا أصابه المُوم .

للمازنى وقال المازنى : يقال فى حسب الرجل أُرْفة [2] ووَصْمة وأُبْنة ؛ وكذلك يقال للعصا إذا كان فيها عيب . ١٠

ويقال : قَذِيتْ عينُه ، إذا أصابها الرمد .

وقد يقال فى التقديم والتأخير مثلُ قول الشاعر :

شَرَّ يَوْمَيْها وأَخْزاهُ لها * رَكِبتْ هِنْدٌ بِحِدْجٍ جَمَلا

يريد : ركبت هند بحدج جملا فى شرّ يوميها ، نُصب لأنه ظرف .

وقد يسمّى الشىء باسم الشىء إذا جاوره ؛ قال الفرزدق : ١٥

أَخَذْنا بآفاقِ السماءِ عليكُمُ * لنا قَمَراها والنجومُ الطوالِعُ

قوله : لنا قمراها ، يريد الشمس والقمر .

وكذلك قول الناس العمرين : أبى بكر وعمر .

للرياشى الرياشى : يقال : أخذ قِضَّتَها وكُعْبَتَها ، إذا أخذ عذرتها .

لأبى عبيدة قال أبو عبيدة : المَعيون : الذى له منظر ولا مَخْبَر . والمعين : الذى قد ٢٠ أصيب بالعين . والمعين : الماء الظاهر

---

(١) فى بعض الأصول : « مأمومة » .

(٢) فى بعض الأصول : « أصاة » .

أبو عمرو وابن عمر

أبو عبيدة قال: سمعت رؤبة يقول: أنا رَيِّق، يريد على الرِّيق.

الأصمعي قال: لقي أبو عمرو بن العلاء عيسى بن عمر؛ فقال له: كيف رَحْلُك؟ قال: ماتزداد إلا مَثالة. قال: فما هذه المَعْيوراء التي تركض؟ يريد: ماهذه الحمير التي تَركب؟

٥ يقال: معيوراء، ومشيوخاء، ومعْبوداء.

للأصمعي

قال الأصمعي: إنما يقال: آقرأ عليه السلام؛ وأنشد:

آقرأْ على عَصْرِ الشبابِ تحيَّةً * وإذا لَقِيتَ دَداً فقَطْني مِنْ دَدِ

للفرزدق

وقال الفرزدق:

وما سَبقَ القَيْسِيُّ مِن ضَعْفِ عقلِه * ولكن طَفَتْ عَلْماءِ قُلْفَةُ خالِدِ

١٠ أراد: على الماء، فحذف. وهذا آخر كتاب سيبويه.

لبعض الوراقين

وقال بعض الوراقين:

رأيتُ يا حمّادُ في الصيْدِ * أرانِباً تؤخذُ بالأيدي

إنّ ذَوِي النّحوِ لهم أنفسٌ * معروفةٌ بالمكرِ والكيْدِ

يَضرِبُ عبدُ الله زيداً وما * يُريدُ عبد الله من زيدِ

لأبي زيد الأنصاري

١٥ وأنشد أبو زيد الأنصاري:

يا قُرْطُ قُرْطَ حُيَيٍّ لا أبا لكُمُ * يا قُرْطُ إني عليكم خائفٌ حَذِرُ

قُلتم له آهْجُ تَمِيما لا أبا لكُمُ * في فَمِ قائلِ هذا التُّرْبُ والحَجَرُ

فإنّ بيتَ تَميمٍ ذو سَمِعْت به * بيتٌ به رأسَتْ(١) في عِزّها مُضَرُ

«ذو» هنا في مكان «الذي» لايتغير عن حاله في جميع الإعراب؛ وهذه

٢٠ لغة طيِّئ، تجعل «ذو» في مكان «الذي».

للحسن بن هانئ

وقال الحسن بن هانئ:

حُبُّ المدامةِ ذُو سمِعْتَ به * لم يُبْقِ فِيَّ لغيرِها فَضْلَا

(١) في الكامل: «فيه تنمت وأرست».

وبعض العرب يقول : « لا أباك » فى مكان « لا أبا لك » مضافا ؛ ولذلك ثبتت الألف ، ولو كانت غيرَ مُعربة لقلت « لا أبَ لك » بغير ألف .
وليس فى الإضافة شىء يشبه هذا ، لأنه حال بين المضاف والمضاف إليه .

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

أبِالموْتِ الَّذِى لابُدَّ أنِّى * مُلاقٍ لا أباكِ تُخَوِّفِينِى ! ٥

وقال آخر :

وقد مات شَمّاخٌ ومات مُزَرِّدٌ * وأىُّ كريمٍ لا أَباكَ مُخَلَّدُ

لابن مالك العقيلى — وأنشد الفراء لابن مالك العُقيلى :

إذا أنا لمْ أُومنْ عليك ولمْ يَكُنْ * لِقاؤُك إلّا مِنْ ورَاءُ وراءُ

هذا مثل قولهم : بَيْنَ بيْنَ . ١٠

للوراق — وقال محمود الوراق :

مَزَجَ الصُّدُودُ وصالهـ * ـنَّ فكانَ أمْرًا بيْنَ بَيْن

للفرزدق — وقال الفرزدق :

وإذا الرِّجالُ رأَوْا يَزِيد رأيتَهُمْ * خُضُعَ الرِّقابِ نواكِسَ الأبصار

للمبرد — قال أبو العباس محمد بن يزيد النحوى : فى هذا البيت شىء مُستطرف عند أهل النحو . وذلك أنه جَمَع «فاعِل» على «فواعل» وإذا كان هذا ، لم يكن بين المذكر والمؤنث فرق ؛ لأنك تقول : ضاربةٌ وضوارب ، ولا يقال فى المذكر فواعل إلا فى موضعين ، وذلك قولُهم فوارس وهوالك ، ولكنه اضطُرّ فى الشعر فأخرجَه عن الأصل ، ولولا الضرورة ما جاز له . ١٥

لدماذ — وقال أبو غسان رفيع بن سَلَمة تلميذ أبى عُبيدة المعروف بدَماذ ، يخاطب أبا عثمان النحوى المازنىّ : ٢٠

تفَكَّرْتُ فى النَّحْـوِ حَتَّى مَلِلْـتُ * وأتعَبْتُ نفْسِى لهُ والبدنْ

وأتعبتُ بكرا وأصحابَهُ * بطولِ المسائِلِ فى كُلِّ فن
سِوى أنَّ باباً عليهِ العفَا * ءُ لِلفاءِ يا ليتَهُ لمْ يَكُنْ
فكنْتُ بظَاهِرِهِ عالِماً * وكنتُ بباطِنِه ذا فطِنْ
وللواوِ بابٌ إلى جنبِهِ * مِنَ المَقْتِ أحسَنُهُ قد لُعِنْ
٥ إذا قُلت هاتوا لماذا يُقا * لُ لستُ بآتيكَ أو تأتِيَنّ
أجيبُوا : لِمَا قيلَ هذا كذا * على النَّصْبِ قالوا لإضمار أنْ
وما إن رأيت لهـا موضعا * فأعرف ما قيل إلا بأن
فقد خفت يا بكر من طول ما * أفكر فى أمر «أنْ» أن أجَن

باب فى الغريب والتقعيب

١٠ أبوعلقمة وأعين الطبيب — دخل أبو علقمة على أعْيَنَ الطبيب ، فقال : أصلحك الله ، أكلتُ من لحوم هذه الجوازل ، فَطَسِئْتُ طَسْأَة[1] ، فأصابنى وجع بين الوابلة ودأية العُنق ، فلم يزل ينمو ويربو حتى خالط الخِلْب[2] والشراسيف ؛ فهل عندك دواء ؟ قال نعم : خُذ خَرْبقا وسَلْفقاً وشِبْرِقا فزهْزقه وزقزقه واغسله بماء ذوب واشربه . فقال له أبو علقمة : لم أفهمْك . فقال : ما أفهمتُك إلا كما أفهمتَنى !

١٥ وقال له مرة أخرى : إنى أجد معمعة وقرقرة . فقال : أما المعمعة فلا أعرفها ، وأما القرقرة فضُراط لم ينْضَج .

أبو الأسود وأبو علقمة — وقال أبو الأسود الدؤلى لأبى علْقمة : ما حالُ ابنِك ؟ قال : أخذَتْهُ الْحُمّى فطبختْه طبخا ، ورضختْه رضخا ، وفتختْه فتخا ، فتركته فرْخاً . قال : فما فعلت زوجتُه التى كانت تُشارُّهُ وتُهارُّهُ وتُمارُّهُ وتُزارُّه ؟ قال : طلَّقها فتزوجت بعده
٢٠ فَحَظِيَتْ وبظِيَتْ . قال : فما بظيت ؟ فقال له : حرفٌ من الغريب لم يبلغك .

---

(١) طسئ : تخم
(٢) الخلب : حجاب بين القلب وسواد البطن .

فقال : يا بن أخى ، كل حرف لا يعرفه عمك فاستره كما تستر السَّنَّوْرُ خُرْأَها .

أبو علقمة وحجام

ودعا أبو علقمة بحجام يحجمه ، فقال له : أنْقِ غسلَ المحاجم ، واشدد قضُب الملازم ، وأرهف ظُبات المَشارط ، وأسرع الوضع ، وعجل النزع ؛ وليكن شرطك وخزا ، ومصك نهزا ، ولا تَرُدّن آتيا ، ولا تُكرهن آبيا . ٥

فوضع الحجّام محاجمه فى جونته ومضى عنه .

أبو المكنون وأعرابى

وسمع أعرابى أبا المكنون النحويّ فى حلقته وهو يقول فى دعاء الاستسقاء : اللهم ربَّنا وإلهنا ومولانا ، فصلِّ على محمد نبينا ، اللهم ومن أراد بنا سوءا فأحِط ذلك السوء به كإحاطة القلائد بأعناق الولائد ، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السِّجِّيل على أصحاب الفيل ؛ اللهم اسقنا غَيْثاً مُغيثاً مَرِيئاً مَرِيعا مُجلجلا مُسحنفرا ١٠ هَزِجاً ، سحًّا سَفوحا ، طبَقاً غَدَقاً مثعنجرا نافعاً لعامّتنا وغير ضار لخاصتنا . فقال الأعرابى : يا خليفةَ نوح ، هذا الطوفانُ وربِّ الكعبة ، دعْنى حتى آوىَ إلى جبل يعصمنى من الماء .

وسمعه مرة أخرى يقول فى يوم برد : إن هذا يوم بلّة عَصبصب ، بارد هِلَّوف . فارتعد الأعرابى وقال : والله هذا مما يزيدنى بردا . ١٥

أبو بكر المنكور وحنش

وخطب أبو بكر المنكور فأغرب فى خُطبته وتقعّر فى كلامه ؛ وعند أصل المنبر رجل من أهل الكوفة يقال له حَنَش ؛ فقال لرجل إلى جنبه : إنى لأبغض الخطيبَ يكون فصيحا بليغاً متقعِّرا . وسمعه أبو بكر المنكور الخطيب . فقال له : ما أحوجك يا حَنَش إلى مُدَحْرَج مفتول لين الجلاد لَدن المَهزّة عظيم الثمرة [1] ، تؤخذ به من مَغرِز العنق إلى عَجْب الذنب ، فتعلى فتكثُر له رقصاتك من غير جذل . ٢٠

حبيب

وقال حبيب الطائى :

فما لكَ بالغريبِ يدٌ ولكنْ ٭ تعاطيكَ الغريبَ مِنَ الغريبِ

---

(١) ثمرة السوط : طرفه .

أمَا لو أنَّ جهْلَكَ عادَ عِلماً ٭ إذاً لرَسَخْتَ فى عِلْمِ الغُيُوبِ

لابن عبد ربه

ومن قولنا نمدح رجلاً باستسهال اللفظ وحسن الكلام :

قوْلٌ كأنَّ فريده ٭ سِحْر على ذِهْنِ اللّبيبْ

لا يشْمَئِزُّ على اللِّسَانِ ٭ ولا يَشِذُّ عن القُلُوب

٥ لمْ يغْلُ فى شَنِع اللُّغا ٭ تِ ولا تَوَحَّشَ بالغريبْ

سيْفٌ تقَلَّدَ مِثْلَه ٭ عطْفَ القضيبِ على القضيبْ

هٰذا تُجَذ بِهِ الرِّقا ٭ بُ وذا تُجَذُّ بِهِ الخُطُوبْ

باب فى تكليف الرجل ما ليس من طبعه

لبعضهم

قالوا ليس الفِقه بالتفقُّه ؛ ولا الفصاحة بالتفصُّح ؛ لأنه لا يزيد متزيِّد

١٠ فى كلامه إلا لنقص يجده فى نفسه ، ومما آتفقت عليه العربُ والعجم قولهم : الطبعُ أملك :

لحفص بن النعمان

وقال حَفْص بن النُّعمان : المرء يَصنع نفسَه ، فمتى ما تبلُهُ ينزِع إلى العِرْق .

وقال العَرْجِيّ :

يا أيُّها المُتَحلِّى غير شِيمَتِهِ ٭ ومِنْ شَمائِلِهِ التَّبْديلُ والمَلَقُ

١٥ آرجِعْ إلى خُلْقِكَ[1] المعروفِ دِيْدَنُهُ ٭ إنَّ التخلُّقَ يأتى دُونَهُ الخُلُقُ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

ومن يبتدِع ما ليْسَ مِنْ خيم[2] نفسه ٭ يَدَعْهُ ويَغْلِبْهُ على النَّفسِ خيمُها

وقال آخر :

كُلُ امْرِئٍ راجِعٌ يوماً لِشِيمَتِهِ ٭ وإنْ تَخَلَّقَ أخلاقاً إلى حين

للخريمى

٢٠ وقال الخُرَيمى :

يُلامُ أبو الفَضْلِ فى جُودِهِ ٭ وهل يَمْلِكُ البحرُ ألّا يفيضا

(١) فى بعض الأصول : « خيمك

(٢) فى بعض الأصول : « سوس » .

لبعض الشعراء

وقال آخر :

ولائمة لامتكَ يا فيضُ فى النَّدى * فقلتُ لها هل يقدَحُ اللومُ فى البحرِ

أرادت لتَثْنِي الفيضَ عن عادة الندى[1] * ومن ذا الذى يثنِي السحابَ عن القطرِ

لحبيب

وقال حبيب :

تعوَّدَ بسطَ الكفِّ حتى لوَ انَّه * ثناها لقبْضٍ لم تجبْه أنامـلُهْ ٥

وقال آخر :

وقفَّع أطرافَهُمْ قبضُها * فإن طلبوا بسطها تنكسِر

لبعضهم

وقالوا : إن ملكا من ملوك فارس كان له وزير حازم مجرّب ، فكان يُصدر عن رأيه ويتعرّف اليُمْنَ فى مشورته ، ثم إنه هلك ذلك الملك وقام بعده ولد له ، مُعجب بنفسه مُستبد برأيه فلم يُنزل ذلك الوزير منزلته ولا اهتبل رأيه ١٠ ومشورته ؛ فقيل له : إن أباك كان لا يقطع أمرا دونه . فقال : كان يغلط فيه ، وسأمتحنه بنفسى . فأرسل إليه فقال له : أيُّهما أغلبُ على الرجل : الأدبُ أو الطبيعة ؟ فقال له الوزير : الطبيعة أغلبُ ، لأنها أصلٌ والأدبُ فرع ، وكلُّ فرع يرجع إلى أصله . فدعا الملك بِسُفرته ، فلما وضعت أقبلت سنانيرُ بأيديها الشمع فوقفت حول السفرة ، فقال للوزير : اعتبر خطأك وضَعْفَ ١٥ مذهبك ؛ متى كان أبو هذه السنانير شمّاعا ؟ فسكت عنه الوزير وقال : أمهلنى فى الجواب إلى الليلة المقبلة . فقال : ذلك لك . فخرج الوزير فدعا بغلام له ، فقال : التمس لى فأرا واربطه فى خيط وجئنى به . فأتاه به الغلام ، فعقده فى سَبَنِيَّة وطرحه فى كُمِّه ، ثم راح من الغد إلى الملك ، فلما حضرت سُفرته أقبلت السنانير بالشمع حتى حَفَّت بها ، فحلّ الوزير الفأرَ من سبنيَّته ثم ألقاه إليها ؛ ٢٠ فاستبقت السنانير إليه ورمت بالشمع ، حتى كاد البيت يضطرم عليهم نارا فقال الوزير : كيف رأيت غَلبةَ الطبع على الأدب ورجوعَ الفرع إلى أصلِه ؟ قال : صدقت ، ورجع إلى ما كان أبوه عليه معه .

(١) فى بعض الأصول : « عن عاده له » .

فإنما مدار كل شيء على طبعه، والتكلف مذموم من كل وجه. قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد: «وما أنا من المتكلفين».

وقالوا: من تطبّع بغير طبعه نزعته العادة حتى تردّه إلى طبعه، كما أن الماء إذا أسخنته وتركتَه ساعة عاد إلى طبعه من البرودة، والشجرة المرة لو طليتَها بالعسل لا تثمر إلا مُرًّا. ٥

باب في ترك المشاراة والمماراة

رسول الله صلى الله عليه وسلم والسائب

دخل السائب بن صيفي على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أتعرفني يا رسول الله؟ قال: وكيف لا أعرف شريكي في الجاهلية الذي كان لا يشاري ولا يماري؟

لابن المقفع

وقال ابن المقفع: المشاراة والمماراة يفسدان الصداقة القديمة ويحُلان العقدةَ الوثيقة؛ وأيسر ما فيهما أنهما ذريعة إلى المنافسة والمغالبة. ١٠

لابن أبي ليلى

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: لا تمار أخاك، فإما أن تُغضبه وإما أن تَكذبه.

وقال الشاعر:

فإياكَ إياكَ المِــــراءَ فإنه ... إلى السَّبِّ دعَّاءٌ وللصَّرْمِ جالبُ

لابن عباس

وقال عبد الله بن عباس: لا تُمار فقيهاً ولا سفيها، فإنّ الفقيه يغلبك والسفيه يؤذيك. ١٥

للنبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: سِبابُ المؤمنْ فسوق، وقتاله كفر.

باب في سوء الأدب

النبي صلى الله عليه وسلم وعروة بن مسعود

دخل عُروة بن مسعود الثقفي على النبي صلى الله عليه وسلم: فجعل يحدّثه ويشير بيده إليه حتى تمس لحيته، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده السيف، فقال له: اقبضْ يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا ترجعَ إليك! فقبض يده عُروة. ٢٠

وعروة هذا عظيمُ القريتين الذى قالت فيه قريش ﴿ لوْلا نُزِّل هذا القُرْآنُ على رجُلٍ منَ القَرْيتَيْنِ عظيم ﴾ ويقال : إنه الوليد بن المغيرة المخزومى .

النبى صلى الله عليه وسلم ووفد تميم

ولما قدم وفد تميم على النبى صلى الله عليه وسلم ناداه رجل منهم من وراء الجدار : يا محمد ، أخرج إلينا . فأنزل الله تعالى : ﴿ إنّ الذِينَ يُنادُونكَ منْ ورَاءِ الحُجرَاتِ أكْثرُهُم لا يعْقِلون ﴾ وفى قراءة ابن مسعود : ﴿ بنو تميم أكثرهم لا يعقلون ﴾ وأنزل الله فى ذلك : ﴿ لا تجْعلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بيْنكُمْ كدُعاءِ بعْضِكُمْ بعْضاً ﴾ . ٥

أبو بكر وبائع ثوب

ونظر أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى رجل يبيع ثوباً ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ قال : لا عافاك الله ! قال . لقد علمتم لو تعلمون ؛ قل : لا ، وعافاك الله . ١٠

الحسن فى دم

وخطب الحسن فى دم ، فأجابه صاحب الدم فقال : قد وضعت ذلك الدمَ لله ولوجوهكم . قال له الحسن : ألا قلت : قد وضعت ذلك الدمَ لله خالصا ؟

لأعرابى فى سيىء أدب

وذكر أعرابى رجلا بسوء الأدب فقال : إن حدثته سابقَك إلى ذلك الحديث وإن تركته أخذ فى التُّرَّهات .

المهدى وبعض الرواة

ودخل بعضُ الرواة على المهدى ، فقال له : أنشدْنى قولَ زهير : ١٥

* لِمن الديارُ بقُنّةِ الحِجْرِ *

فأنشدها حتى أتى على آخرها . فقال له المهدى : ذهب والله من كان يقول هذا . فقال له : كما ذهب والله من كان يقال فيه ، فاسْتَجْهلَهُ واستَحْمَقه .

المأمون وقطرب

ولما رفع قُطربُ النحوىّ كتابه فى القرآن إلى المأمون ، أمر له بجائزة وأذن له ، فلما دخل عليه قال : قد كانت عِدَةُ أمير المؤمنين أرفع من جائزته ، فغضب المأمون وهمّ به ، فقال له سهل بن هارون : يا أمير المؤمنين ، إنه لم يقل بذات نفسه ، وإنما غلب عليه الحصَر ؛ ألا تراه كيف يرشح جبينُه ويكسِر أصابعهُ ! فسكن غضبُ المأمون واستجهله واستحمقه . ٢٠

المأمون والؤلؤى

وكان الحسن اللؤلؤى ليلة عند المأمون بالرَّقَّة وهو يسامره ، إذ نعس المأمون والحسن يحدِّثه ، فقال له : نعستَ يا أمير المؤمنين فانتبهْ! فقال : سُوقى وربِّ الكعبة ! يا غلام ، خذ بيده .

هشام وابو النجم

ودخل أبو النجم على هشام بن عبد الملك بأُرجوزته التى أوَّلها :

٥ * الحمدُ للهِ الوَهُوبِ المُجزِلِ *

وهى من أجود شعره ؛ فلما أتى على قوله :

* والشمسُ فى الجوِّ كعيْنِ الأحْولِ

غضب هشام ، وكان أحول ، فأمر بصفْعِ قفاه وإخراجه .

يزيد بن عبد الملك وكثير

ودخل كُثيِّر عزّةَ على يزيد بن عبد الملك ، فبينا هو يحدّثه إذ قال : يا أمير المؤمنين ،

١٠ ما معنى قول الشمَّاخ :

إذا الأرْطَى توسَّد أَبْرَدَيْهِ * خُدودُ جوازِئَ بالرَّملِ عِينِ

فقال يزيد : وماذا على أمير المؤمنين ألَّا يعرف ما قال هذا الأعرابى الجلف مثلُك ؟ واستحمقه وأمر بإخراجه .

عبد العزيز بن مروان وكثير

ودخل كُثيِّر عزة على عبد العزيز بن مروان فأنشده مدحته التى يقول فيها :

١٥ وأنتَ فلا تُفقَدْ ولا زال منكُمُ * إمامٌ يُحَيَّا فى حجابٍ مُسَدَّنِ

أَشَمُّ من الغادينَ فى كلِّ حُلَّةٍ * يَميسُونَ فى صِبْغٍ من العَصْبِ مُتْقَنِ

لهم أُزُرٌ حُمْـــرُ الحواشى يُطَوْنَها * بأقدامِهم فى الحَضْرمىِّ المُلَسَّنِ

فاستحسنها وقال له : سل حاجتك ! فقال : تُوليِنى مكان ابن رُمَّانة كاتبِك . فقال له : ويلك ! ذا كاتب وأنت شاعر ! فكيف تقوم مقامه وتسدّ مَسَدَّه ؟ فلما

٢٠ خرج من عنده ندِم وقال :

عجِبتُ لأخذِى خُطَّةَ العجْز بعدما * تبيَّن من عبد العزيز قَبولُها

لئِن عاد لى عبـــدُ العزيز بمثلِها * وأمكننى منها إذاً لا أَقولُها

[فهل أنتَ إن راجعْتُك القولَ مرَّةً * بأحسنَ منها عائدٌ فمُنيلُها؟]

معاوية والأحنف وابن الأشعث

ووقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية ، فأذن للأحنف ثم لمحمد بن الأشعث ، فأسرع محمد فى مشيته حتى دخل قبل الأحنف ، فلما رآه معاوية قال له : والله إنى ما أذنتُ له قبلَك وأنا أريد أن تدخل قبله ، وإنّا كما نلى أموركم كذلك نلى أدبَكم ، ولا تَزيّدَ مُتَزيّدٌ فى أمره إلا لنقص يجده فى نفسه .

لعبد الملك

وقال عبد الملك بن مروان : ثلاثة لا ينبغى للعاقل أن يَستخفَّ بهم : العلماء ، والسلطان ، والإخوان ؛ فمن آستخف بالعلماء أفسد دينَه ، ومن آستخف بالسلطان أفسد دُنياه ، ومن آستخف بالإخوان أفسد مُروءته .

بين عمر بن عبدالعزيز وأبى الزناد كاتبه

وقال أبو الزناد : كنتُ كاتباً لعمر بن عبدالعزيز ، فكان يكتب إلى عبد الحميد عامله على المدينة فى المظالم ، فيراجعُه فيها ؛ فكتب إليه : إنه يُخيَّل إلىَّ أنى لو كتبتُ إليك أن تُعطى رجلاً شاة ، لكتبتَ إلىَّ : أضأناً أم معزا ؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتَ إلىَّ : أذكراً أم أنثى ؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتَ : أصغيراً أم كبيرا ! فإذا كتبتُ إليك فى مظلمة فلا تراجعْنى فيها .

أبو جعفر وابن قتيبة

وكتب أبو جعفر إلى سلم بن قتيبة ، يأمره بهدم دُورِ مَن خرج مع إبراهيم ابن عبد الله وعقْر نخلهم . فكتب إليه : بأى ذلك نبدأ ، بالدُّور أو بالنخل ؟ فكتب إليه أبو جعفر : إنى لو أمرتك بإفساد تمرهم ، لكتبت [إلىَّ] : بأى ذلك نبدأ ، بالصَّيْحانىّ أم بالبَرْنىّ . وعَزله وولى محمد بن سليمان .

ولمحمود الورّاق :

كم قد رأيت مساءةً ... من حيث تطمع أو تُسَرّا
ولربما طلب الفتى ... لأخيه منفعة فضَرّا

عدى وشريح القاضى

ودخل عدى بن أرطاة على شريح القاضى ، فقال له : أين أنت أصلحك الله ؟ قال : بينك وبين الحائط ، قال : اسمع منى ، قال : قل نسمع ، قال : إنى رجل من أهل الشام ، قال : مكان سحيق ، قال : وتزوّجت عندكم ، قال : بالرفاء والبنين ، قال : ووُلد لى غلام ، قال : ليَهْنِك الفارس ، قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها ، قال : الشرط أملك ، قال : فاحكم الآن بيننا ،

قال : قد فعلت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك .

أراد شريح إقراره على نفسه بالشرط ؛ فكان شُريح صاحب تعريض عويص .

شريك وإسماعيل

ودخل شريك بن عبد الله على اسماعيل وهو يتبخر بعود ؛ فقال للخادم : جئنا بعود لأبي عبد الله . فجاء بِبَربط ، فقال اسماعيل : اكسره . وقال لشريك : أخذوا البارحة فى الحرس رجلا ومعه هذا البربط .

لبعض الشعراء

وقال بعض الشعراء فى عِيِّ الخادم :

ومتى أدْعها بكأسٍ من المـا ء أتتْنى بصَحفةٍ وزَبيبِ

لحبيب فى بنى تغلب

وقال حبيب فى بنى تغلب من أهل الجزيرة يَصفهم بالجفاء وقلّة الأدب مع كرم النفوس :

لا رقّةُ الحَضَر[1] اللَّطيف غَذَتْهمُ وتَباعَدوا عن فِطنة الأعراب

فإذا كشَفْتَهمُ وجدتَ لديهمُ كرم النُّفوس وقلّة الآداب

للشعبى مع جليس

وكان فتى يُجالس الشعبى ، وكان كثير الصمت ، فالتفت إلى الشعبى ، فقال له : إنى لأجد فى قفاى حِكّة ، أفتأمرنى بالحجامة ؟ فقال الشعبى : الحمد لله الذى حوّلنا من الفقه إلى الحجامة .

ابن الخصيب ومتظلم

قال : وأتى أحمد بن الخصيب بعض المتظلمين يوما ، فأخرج رجله من الركاب فركله بها . فقال فيه الشاعر :

قل للخليفة : يابنَ عم محمد اشْكُل وزيرك إنه ركّال

شريف مع وكيل تاجر

وبعث رجل من التجار وكيلا له إلى رجل من الأشراف يقتضيه مالاً عليه ، فرجع إليه مضروبا ؛ فقال له : ويلك ! مالك ؟ قال : سَبَّك ، فسببتُه ، فضربنى ـ قال : وما قال لك ؟ قال : قال أدخِل أيْرَ الحمار فى حِر أمِّ مَن أرسلك ! قال : دعنى من افترائه

(١) فى الأصل : الحصر .

علىّ وسبّه لى ، وأخبرنى كيف جعلتَ أنت لأير الحمار من الحرمة مالم تجعله لحر أمّ من أرسلك ؟ هلا قلتَ : أير الحمار فى هن أمّ من أرسلك .

باب فى تحنك الفتى

لعمر بن الخطاب — قيل لعمر بن الخطاب : إن فلاناً لا يعرف الشّر . قال : ذلك أحرى أن يَقع فيه .

٥

لسفيان الثورى — وقال سفيان الثورى : مَن لم يحسن أن يتفتّى لم يُحسن أن يَتقرّا .

لعمرو بن العاص — وقال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، وإنما العاقل الذى يعرف خيرَ الشّرّين .

لبعض الشعراء — ومثل ذلك قول الشاعر :

رضيت ببعض الذُّلّ خوف جميعِهِ ☆ كذلك بعضُ الشرّ أهونُ من بعضِ

للمغيرة فى عمر ابن الخطاب — وسئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب ، قال : كان والله له فضل يَمنعه من أن يَخدع ، وعقل يمنعه من أن يَنخدع .

لإياس — وقال إياس : لستُ بخَب والخَبّ لا يَخدعنى .

وتجادل ابن سيرين والحسن ، وكان الحسن يرى كلّ مسلم جائز الشهادة حتى يَظهر عليه سَقْطة أو يجرّحه المشهود عليه ، وكان إياس لا يرى ذلك ؛ فأقبل رجل إلى الحسن فقال : يا أبا سعيد ! إنّ إياساً ردّ شهادتى . فقام معه الحسنُ إليه فقال : يا أبا واثلة ، لِم رددتَ شهادةَ هذا المسْلم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَن صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو المسلم ، له ما لَنا وعليه ما علينا . فقال له إياس : يا أبا سعيد يقول الله تعالى ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ من الشهداء﴾ وهذا ممّا لا نَرضاه .

١٥

عامر بن عبد الله وسرقة عطائه — وكان عامر بن عبد الله بن الزبير فى غاية الفضل والدين ، وكان لا يعرف الشر ، فبينا هو جالس فى المسجد إذ أُتى بعطائه ، فقام إلى منزله فنَسِيه ، فلما صار إلى بيته ذكره ، فقال لخادمه : اذهب إلى المسجد فأْتنى بعطائى . فقال له :

٢٠

وأين نجده ؟ قال : سبحان الله ! أو بقي أحدٌ يأخذ ما ليس له .

لأبي أيوب

وقال أبو أيوب : من أصحابي مَن أرتجي بركة دعائه ولا أقبلُ شهادتَه .

لعمر بن عبد العزيز في فاطمة

وذكرت فاطمة بنتُ الحسين عليهما السلام عند عمر بن عبد العزيز ، وكان لها معظِّما ، فقيل : إنها لا تعرف الشر . فقال عمر : عَدمُ معرفتها بالشر جَنَّبها الشر .

٥

مما يستحسن ويكره

وكانوا يستحسنون الحُنْكة للفتى والصَّبْوةَ للحدث ، ويكرهون الشيب قبل أوانه ، ويشبّهون ذلك بيبوس الثمرة قبل نُضجها ، وإنّ ذلك لا يكون إلا من ضرر فيها .

فأنفع الإخوان مجلسا ، وأكرمُهم عِشرة ، وأشدهم حِذقا ، وأنبهُهم نفسا ، من لم يكن بالشاطر المتفتّك ، ولا الزاهد المتنسِّك ، ولا الماجن المتطرِّف ، ولا العابد المتقشف . ولكن كما قال الشاعر :

١٠

ياهندُ هل لكِ في شيخٍ فتًى أبداً * وقد يكونُ شبابٌ غير فِتيانِ

لبعض الشعراء

وقال آخر :

وفتًى وهْوَ قد أنافَ على الخمْـــسينَ يَلقاكَ في ثِيابِ غلام

١٥

وقال آخر :

فللنُسكِ مِنّي جانِبٌ لاأُضيعُهُ * ولِلّهْوِ مِنّي والبَطالةِ جانِبُ

لحبيب

وقال حبيب :

كَهْلُ الأناةِ فتى الشَّذاة إذا غَدا * للرَّوْعِ كان القَشعَمَ الغِطْريفا

لابن عبد ربه

ومن قولنا في هذا المعنى :

٢٠

إذا جالَسَ الفِتيانَ أَلفيْتَه فتًى * وجالَسَ كَهْلَ الناسِ أَلفيتَه كَهْلَا

لابن حطان

ونظيره قول ابن حِطّان :

يوماً يَمانٍ إذا لاقيتُ ذا يَمَنٍ * وإنْ لَقيت مَعَدِّيًّا فعَدْنانِ

وقول عِمران بن حطّان هذا يحتمل غير هذا المعنى ، إلا أن هذا أقرب

إليه وأشبه به ، لأنه أراد أنه مع اليمانى يمانى ، ومع العدنانى عدنانى ، فيحتمل أن ذلك لخوف منه أو مساعدة : وكل ذلك داخل فى باب الحُنكة والحِذق والتجربة .

لبعضهم
وقالوا : اصحب البَرّ لتتأسّى به ، والفاجرَ لتتحنّك به .

وقالوا ، من لم يصحب البَرّ والفاجر ولم يؤدبه الرخاء والشدة ، ولم يخرج من الظل إلى الشمس مرة ، فلا ترْجُه .

ومن هذا قولهم : حَلَب فلانٌ الدهر أشطرَه ، وشرب أفاويقَه . إذا فَهِم خيرَه وشرَّه ، فإذا نزل به الغِنى عرفه ولم يُبطره ، وإذا نزل به البلاء صبر له ولم يُنكره .

لهدبة العذرى
وقال هدبة العُذرىّ :

ولستُ بمفْراحٍ إذا الدهرُ سرّنى ＊ ولا جازعٍ من صرفِه المُتقلب
ولا أتمنى الشرَّ والشرُّ تاركى ＊ ولكن متى أُحمَلْ على الشرِّ أركبِ

لعبد العزيز ابن زرارة
وقال عبد العزيز بن زرارة فى هذا المعنى :

قد عشت فى الدهرِ أطواراً على طُرُقٍ ＊ شتى فصادفتُ منهُ اللين والفظَعا
كُلاًّ عرفتُ فلا النّعماء تُبْطِرُنى ＊ ولا تخشّعتُ من لأوائِه جزعا
لا يَملأ الأمر صدرى قبلَ وقعتِه ＊ ولا أضيقُ به ذرعاً إذا وقعا

لبعض الشعراء
وقال آخر :

فإن تهدموا بالغدر دارى [1] فإنها ＊ تُراثُ كريمٍ لا يخافُ العواقبا
إذا همّ ألقى بينَ عينيهِ عزمَهُ ＊ وأضرب عن ذِكرِ العواقب جانبَا
ولم يستشِر فى أمرِهِ غيرَ نفسه ＊ ولم يرض إلا قائمَ السيفِ صاحبا
سأغسلُ عنى العار بالسيف جالباً ＊ علىّ قضاء الله ما كان جالبا

لهند فى معاوية
وسئلت هند عن معاوية ، فقالت : والله لو جُمعت قريش من أقطارها ثم رُمِى

(١) فى بعض الأصول : « عليكم بدارى فاهدموها »

به فى وسطها لخرج من أىّ أعراضها شاء.

لبعض الشعراء

وهذا نظير قول الشاعر :

بَرئتُ إلى الرحمٰنِ من كلّ صاحبٍ ٭ أُصاحبهُ إلا عراكَ بن نائلِ

وعلمى به بيْن السّماطين أنَّهُ ٭ سينْجو بحقٍ أو سينجو بباطلِ

٥ وقال آخر :

لئن كنتُ محتاجاً إلى الحلمِ إننى ٭ الى الجهلِ فى بعضِ الأحايينِ أحوجُ

وما كنتُ أرضى الجهلَ خِدْناً وصاحباً ٭ ولـكنّنى أرضى به حين أُحْرَجُ

فإن قال قومٌ إنّ فيه سماجةً ٭ فقد صدَقُوا ، والذُّلُّ بالحــر أسمجُ

ولى فرسٌ للحلم بالحــلمِ ملجمٌ ٭ ولى فرسٌ للجهلِ بالجهلِ مُسْرَجُ

١٠ فمَنْ شاء تقويمى فإنى مُقوَّمٌ ٭ ومَن شاء تعويجى فإنى مُعوَّجُ

لمعاوية فى الغامدى

وقال معاوية فى سفيان بن عوف الغامدى : هذا الذى لا يُكَفْكَفُ من عَجلة ، ولا يُدْفَع فى ظهره من بطء ، ولا يُضرب على الأمور ضرب الجمل الثَّفَال .

للحسن بن هانىء

وقال الحسن بن هانئ :

١٥ مَنْ للجِذَاعِ إذا الميْدانُ ماطَلَها ٭ بشأو[1] مُطَّلِعِ الغايات قد قَرِحا

مَن لا يُفصفص منه البؤسُ أنْمُلَهُ ٭ ولا يُصعّد أطراف الرُّبى فرَحا

لجرير

وقال جرير :

وابن الّلبونِ إذا مالُزّ فى قَرَنٍ ٭ لم يَستطعْ صَوْلةَ البُزْلِ القَناعيس

باب فى الرجل النفاع الضرار

لبعضهم

٢٠ يقال : إنه لَخَرّاج ولّاج ، وأنه لَحُوَّلٌ قُلَّب ؛ إذا كان متصرفا فى أموره نَفاعاً لأوليائه ، ضرّاراً لأعدائه . وإذا كان على غير ذلك قيل : ما يُحْلى ولا يُمِرّ

(١) فى بعض الأصول : «بكل»

ولا يُعَدّ فى العير ولا فى النَّفير ، وما فيه خيرٌ يُرجَى ولا شرٌّ يُتَّقى .

وقال بعضهم : لا يَرضى العاقل أن يكون إلا إماما فى الخير أو الشر .

لبعض الشعراء وقال الشاعر :

إذا أنت لم تنفعْ فضُرَّ فإنما ٭ يُرَجَّى الفتى كَيْما يَضُرَّ ويَنفعا

٥ لحبيب وقال حبيب :

ولمْ أرَ نفعاً عند من ليس ضائراً ٭ ولمْ أرَ ضرًّا عند من ليس يَنفعُ

لأعرابى وسمع أعرابى رجلا يقول : ما أتى فلان بيوم خير قط . فقال : إن لا يكن أتى بيوم خيرٍ فقد أتى بيوم شر .

وقال الشاعر :

١٠ وما فعَلت بنو ذبْيان خيْراً ٭ ولا فعلت بنو ذُبْيان شَرّا

وقال آخر :

قَبحَ الإله عداوةً لا تُتَّقى ٭ وقَرابةً يُدلَى بها لا تَنفع

بين متفاخرين وفخر رجل فقال : أبى الذى قَتَل الملوك وغَصب المنابر ، وفعل وفعل ! فقال له رجل : لكنه أُسِر وقُتل وصُلب . فقال : دَعْنى من أَسْره وقتْله وصلْبه ؛

١٥ أبوك حَدَّث نفسه بشىء من هذا قط ؟

لشاعر فى ذم قومه وقال رجل[1] يذم قومه ، وأغارت بنو شيبان على إبله فاستنجدهم فلم ينجدوه ، وكان فيهم ضعف ، فقال فيهم :

لو كنتُ من مازنٍ لم تَسْتَبِحْ إبِلى ٭ بنو اللقيطة مِن ذُهْل بن شَيْبانا

إذاً لقام بنصْرى مَعشرٌ خُشُنٌ ٭ عند الحفيظةِ إنْ ذو لُوثةٍ لانا

٢٠ لا يَسألون أخاهم حين يَندُبُهم ٭ فى النّائبات على ما قال بُرهانا

قومٌ إذا الشَّرُّ أبْدى ناجذَيْه لهم ٭ طاروا إليه زَرافات ووِحْدانا

لكنّ قومى وإن كانوا ذوِى عَددٍ ٭ ليسوا من الشّرِّ فى شىء وإن هانا

(١) هو قريط بن أنيف ، شاعر من بلعنبر .

يَجْزون من ظلم أهل الظلم مغفرة * ومن إساءة أهل السوء إحسانا

كأنّ ربَّك لم يَخْــلُق لخشْيَتِه * سواهمُ من جميع الناس إنسانا

فليت لى بهمُ قوما إذا ركبوا * شنّوا الإغارة فُرسانا وركبانا

ولم يرد بهذا أنه وصفهم بالحلم ولا بالخشية لله ؛ وإنما أراد به الذلّ والعجز ؛

٥ كما قال النجاشى فى رهط تميم بن مقبل : للنجاشى فى ذم تميم

قبيلته لا يَخفِرُون بذمة * ولا يَظلِمون الناسَ حبةَ خردلِ

ولا يردون الماء إلا عشيَّة * إذا صَدَر الوُرّادُ عن كلّ مَنهل

وكل من نفع فى شىء فقد ضَرّ فى شىء .

وكذلك قول أشجع بن عمرو : لأشجع

١٠ يَصطادُ أعناقا بمُنْصُلِه * ويفكُّ أعناقا من الرقّ

وقال الحسن بن هانئ : للحسن بن هانئ

يرجو ويخشى حالتَيْك الوَرى * كأنك الجنّـــة والنّارُ

ومن قولنا فى هذا المعنى : لابن عبد ربه

من يُرتجى غيْرُك أو يتّقى * وفى يديْك الجودُ والباسُ

١٥ ماعشْتَ عاش الناسُ فى نِعمةٍ * وإن تَمُتْ مات بك الناسُ

وقال آخر : لبعض الشعراء

وليس فتى الفِتيانِ من راح واغتدى * لشُرْب صَبوح أو لشربِ غبوقِ

ولكن فتى الفِتيانِ من راح واغتدى * لضَرّ عـــدو أو لنفعِ صـــديق

باب فى طلب الرغائب

٢٠ واحتمال المغارم[1]

فى كتاب للهند : من لم يركب الأهوال لم يَنل الرغائب ، ومن ترك الأمر للهند

(١) فى بعض الأصول : « الرغائب » .

الذى لعله أن ينال منه حاجته ، مخافةَ ما لعله يُوَقّاه ، فليس ببالغ جسيما : وإنّ الرجل ذا المروءة ليكون خامل الذّكر خافض المنزلة ، فتأبى مروءته إلا أن يستعلى ويرتفع كالشُّعلة من النار التى يصونها صاحبها وتأبى إلا آرتفاعا ، وذو الفضل لا يخفى فضلُه وإن أخفاه ، كالمسك الذى يُختم عليه ثم لا يَمنع ذلك ريحَه من التّذكّى والظهور .

٥

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

خُتِمَت فارةُ مِسْكٍ * فأَبت إلّا التــذكّى
ليس يَخفَى فضلُ ذى الفضــلِ بزُورٍ أو بإفكِ
والذى بَرَز فى الفضــلِ غَنِىٌّ عن مُزَكّ
ربما غُمَّ هــلالُ الــفِطرِ فى ليلةِ شكِّ
ثم جَلَّى وجهَه النُّو * رُ فجَــلَّى كلَّ حَلْكِ
إنّ ظَهرَ اليمِّ لا تَرْ * كَبُه من غيرِ فُلْكِ
ونظـامَ الدرِّ لا تَعــقِدُه من غيرِ سِلْكِ
ليس يصفو الذهبُ الإبْــريزُ إلّا بعد سَبْكِ
هذه جمــلة أمثا * ل فمَنْ شاء فيَحْكى
أبطلَت كلَّ يمــانىّ وشامىّ ومكّى
ليس ذا مِن صَوْغ عيــنِىٍّ ولا مِن نَسْج عكّى

١٠

١٥

لبعضهم

وقالوا لا ينبغى للعاقل أن يكون إلا فى إحدى منزلتين : إما فى الغاية من طلب الدنيا ، وإما فى الغاية من تَركها . ولا ينبغى له أن يُرى إلا فى مكانين : إما مع الملوك مُكرَماً ، وإما مع العُبّاد مُتَبتِّلا . ولا يُعَدُّ الغُرْمُ غُرْما إذا ساق غُنْما ، ولا الغُنْمُ غُنما إذا ساق غُرْما .

٢٠

معاوية وعسكر على يوم صفين

ونظر معاوية إلى عسكر علىّ رضى الله عنه يوم صِفين ، فقال : من طلب عظيما خاطر بعظيمته . وأشار إلى رأسه .

لحبيب

وقال حبيب الطائى :

أعاذِلَتِى ما أخشَنَ الليلَ مركَباً ﴿ وأخشنُ منه فى المُلمَّاتِ راكبُهْ

ذَرِينى وأهوالَ الزمانِ أُقاسِها ﴿ فأهوالُه العُظمى تليها رَغائبُهْ

لكعب بن زهير

وقال كعب بن زهير :

٥ وليس لمن لم يَركَبِ الهَوْلَ بُغْيَةٌ ﴿ وليس لرَحْلٍ حَطَّهُ الله حاملُ

إذا أنت لم تُعْرِض عن الجهل والخَنا ﴿ أصَبت حليما أو أصابك جاهلُ

للشماخ

وقال الشمّاخ :

فتًى ليس بالرّاضى بأدنى معيشةٍ ﴿ ولا فى بيوتِ الحىِّ بالمُتَولِّجِ

١٠ فتى يَملأُ الشِّيزَى ويُروِى سنانَه ﴿ ويَضربُ فى رأسِ الكَمِىِّ المُدجَّجِ

لامرئ القيس

وقال امرؤ القيس :

فلوْ أنَّ ما أسعَى لِأدْنَى معيشة ﴿ كفانى ولم أطْلُبْ قليلٌ من المالِ

ولكنَّما أسعَى لِمَجْدٍ مؤثَّلٍ ﴿ وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالى

لبعض الشعراء

وقال آخر :

١٥ لولا شَماتةُ أعداءٍ ذَوِى حسَدٍ ﴿ أو أنْ أنالَ بنفعى مَن يُرجّينى

لَمَا خطَبْتُ من الدنيا مطالِبَها ﴿ ولا بَذلتُ لها عِرْضى ولا دِينى

لكنْ منافسةُ الأعداءِ تحمِلُنى ﴿ على أمورٍ أراها سوفَ تُرْدِينى

وكيف لا كيف أنْ أرضَى بمنزلةٍ ﴿ لا دِينَ عندى ولا دُنيا تُواتينى

الحطيئة يهجو الزبرقان

وقال الحطيئة فى هجائه الزِّبرقانَ بن بدر :

٢٠ دَعِ المكارمَ لا تَرحَل لبُغْيَتِها ﴿ واقعُد فإنكَ أنت الطاعِمُ الكاسى

فاستعدى عليه عمرَ بن الخطاب وأسمعه الشعر ، فقال : ما أرى بما قال بأسا . قال : والله يا أمير المؤمنين ماهُجيت ببيت قَطّ أشدّ منه . فأرسل إلى حسان فسأله : هل هجاه ؟ فقال : ماهجاه ، ولكنه سَلَح عليه .

لشاعر محدث وقد أخذ هذا المعنى من الحطيئة بعض المحدثين . فقال :

إنى وَجدتُ من المكارمِ حَسْبَكم ٭ أَنْ تَلبَسوا خَزَّ الثياب وتَشبَعوا

فإذا تُذُوكِرَتِ المكارمُ مرةً ٭ فى مجلس أنتم به فتقنَّعوا

لبعضهم وقالوا : مَن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب ، ومَن طلب العظائم خاطر بعظيمته . ٥

ليزيد بن عبد الملك فى رأس ابن المهلب وقال يزيد بن عبد الملك ، لما أُتى برأس يزيد بن المهلب ، فنال منه بعضُ جلسائه ، فقال : إن يزيد ركب عظيما ، وطلب جسيما ، ومات كريما .

لبعض الشعراء وقال بعض الشعراء :

لا تَقنَعَنَّ ومطلبٌ لك مُمكِنٌ ٭ فإذا تضايقتِ المطالِبُ فاقنَعِ

ومما جُبل عليه الحرُّ الكريم ألّا يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشىء مما انبسط له ، أملاً فيما هو أسْنَى منه درجة وأرفعُ منزلة ؛ ولذلك قال عمر ابن عبد العزيز لدُكين الراجز : إنّ لى نفساً توّاقة ؛ فإذا بلغك أنى صرتُ إلى أشرف من منزلتى هذه ؛ فبعينٍ ما أرَينَّك . قال له ذلك وهو عامل المدينة لسليمان ابن عبد الملك . فلما صارت إليه الخلافة قدم عليه دُكين . فقال له : أنا كما أعلمتك أنّ لى نفساً توّاقة ؛ وأنّ نفسى تاقت إلى أشرفْ منازل الدنيا فلما بلغتُها وجدتُها تتوق إلى أشرف منازل الآخرة . ١٠ ١٥

ومن الشاهد لهذا المعنى ، أنّ موسى صلوات الله عليه لما كلمه اللهُ تكليما ، سأله النظرَ إليه . إذ كان ذلك لو وصل إليه أشرفَ من المنزلة التى نالها ، فانبسط أمله إلى ما لاسبيل إليه ، ليُستدل بذلك أنّ الحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة إذا رأى ما هو أشرفُ منها . ٢٠

لابن عبد ربه ومن قولنا فى هذا المعنى :

والحُرُّ لا يَكتفى من نيْلِ مكرُمةٍ ٭ حتى يَرومَ التى من دونِها العطبُ

يَسعَى به أملٌ من دونِه أجلٌ ٭ إنْ كفَّهُ رَهَبٌ يستدْعِه رَغَبُ

لِذاكَ ما سالَ موسى ربَّه أَرِنِى * أنظُرْ إليك وفى تسآله عَجَبُ
يَبغِى التزيُّدَ فيما نالَ من كرمٍ * وهو النجىُّ لديْه الوحىُ والكتبُ

تأبط شرا — وقال تأبّط شرًّا فى ابن عم له يصفه بركوب الأهوال وبذل الأموال :

وإنى لُمْهدٍ من ثنائى فقاصِدٌ * به لابنِ عمِّ الصِّدْقِ شُمسِ بن مالكِ
٥ أَهُــزُّ به فى نَدْوَةِ الحىِّ عِطفَه * كما هَزَّ عِطْفِى بالهِجانِ الأوارِكِ
قليـــل التشكِّى للمُهمّ يُصيبُه * كثيرُ النَّوَى شتّى الهوى والمسالك
يظل بمَوْماةٍ ويُمسى بغــيرها * وحِيداً ويعرَوْرِى ظهورَ المهالك
ويَسْبِقُ وَفْدَ الريحِ مِن حيث ينتحِى * بمُنخرِقٍ من شدِّه المُتدارك
إذا خاط عينيه كرَى النومِ لم يزل * له كالِئٌ من قلبِ شيْحانَ فاتِكِ
١٠ ويجعـــلُ عينيه رَبِيئةَ قلبِـــه * إلى سَلّةٍ من جفن أخْلَقَ صائك
إذا هــزَّه فى عَظْمِ قِرْنٍ تهلّلت * نَواجِذُ أفواهِ المنايا الضَّواحك

وقال غيره من الشعراء [بل هى له أيضا] :

إذا المرء لم يَحْتَلْ وقد جَدَّ جِدُّه * أضاع وقاسَى أمْرَهُ وهْوَ مُدْبِرُ
ولكنْ أخو الحَزْمِ الذى ليس نازلا * به الأمْرُ إلا وهْوَ للقصدِ مُبْصِرُ
١٥ فذاك قريعُ الدهرِ ماعاش حُوَّلٌ * إذا سُدَّ منه مِنْخَرٌ جاش مِنْخَرُ

باب الحركة والسكون

فى الأثر — قال وهب بن منبه : مكتوب فى التوراة : ابنَ آدم ؛ خُلِقْتَ من الحركة للحركة ، فتحرّكْ وأنا معك .

وفى بعض الكتب : ابنَ آدم ؛ آمدد يدك إلى باب من العمل أفتحْ لك باباً
٢٠ من الرزق .

عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة — وشاور عُتبة بن ربيعة أخاه شيبة بن ربيعة فى النُّجعة ؛ وقال : إنى قد أجدبتُ ، ومن أجدبَ انتجع . فذهبت مثلا . قال له شيبة : ليس من العز أن تتعرض للذل فذهبت مثلا . فقال عتبة : لن يفرس الليث الطَّلا وهو رابض . فذهبت مثلا .

حبيب — أخذه حبيب فقال :

أرادَ بأن يَحْوِى الغِنى وهْوَ وادِعٌ * ولَن يفرِسَ اللَّيثُ الطَّلا وهْوَ رابِضُ

لأعشى بكر — وقيل لأعشى بكر : إلى كم هذه النُّجعة والاغتراب ؟ أما ترضى بالخفض والدعة ؟ فقال : لو دامت الشمس عليكم لمللتموها : أخذه حبيب فقال :

٥ وطولُ مُقامِ المرْءِ فى الحىِّ مُخلِقٌ * لدِيباجَتَيْه فاغتَرِبْ تتجدَّدِ

فإنى رأيتُ الشَّمسَ زِيدتْ محبَّة * إلى الناسِ أن ليسَت عليهِمْ بسرمَدِ

للشافعى — قال أبو سعيد أحمد بن عبد الله المكىّ : سمعتُ الشافعى يقول : قلت بيتين من الشعر . وأنشدنا :

إنى أرى نفْسِى تَشُوقُ إلى مِصْرِ * ومن دونِها خوْضُ المهامِهِ والقفْرِ

١٠ فواللهِ ما أدرى إلى الخفْضِ والغنَى * أُقادُ إليها أم أُقادُ إلى قبْرِى

فدخل مصر فمات .

موسى عليه السلام — وقال موسى بن عمران عليه السلام : لا تذموا السفر ، فإنى أدركت فيه ما لم يدركه أحد . يريد أن الله عز وجل كلّمه فيه تكليما .

للمأمون — وقال المأمون : لا شىء ألذُّ من سفر فى كفاية ، لأنك فى كل يوم تحلّ محلة

١٥ لم تحلها ، وتعاشر قوما لم تعاشرهم .

لبعض الشعراء — وقال الشاعر :

لا يَمنعنَّكَ خَفضُ العيشِ فى دعةٍ * مِن أن تبدِّل أوطاناً بأوطانِ

تلقَى بكلِّ بلادٍ إن حلَلْت بها * أهلاً بأهل وإخواناً بإخوانِ

مع أن المُقام بالمَقام الواحد يُورث الملالة .

٢٠ للنبى صلى الله عليه وسلم — وقال النبي صلى الله عليه وسلم : زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا .

وقالت الحكماء : لا تنال الراحة إلا بالتَّعب ، ولا تُدرك الدّعةُ إلا بالنَّصب .

وقال حبيب :

بصُرْتَ بالرَّاحةِ العُظمَى فلم تَرَها * تُنالُ إلّا على جَسْرٍ مِن التَّعبِ

وقال أيضاً :

على أنى لمْ أحْوِ وفْرًا مُجَمَّعاً ٭ ففُزْتُ به إلا بشَمْلٍ مُبدَّدِ
ولمْ تُعطِنِي الأيام نوماً مُسَكَّنًا ٭ ألذُّ بِهِ إلا بنومٍ مُشَرَّدِ

وقال أيضا :

٥ وركْبٍ كأطرافِ الأسِنَّةِ عرَّسُوا ٭ على مِثلها والليلُ تسطُو غياهِبُهْ
لأمرٍ عليهِمْ أن تتِمّ صُدورُه ٭ وليس عليهِمْ أن تتِمَّ عواقِبُهْ

وبعد فهل يجوز فى وهم أو يتمثل فى عقل أو يصحّ فى قياس ، أن يُحْصَد زرعٌ بغير بذر ، أو تجنى ثمرة بغير غرس ، أو يُورِى زَنْدٌ بغير قدْح ، أو يُثْمر مالٌ بغير طالب ؟

١٠ ولهذا قال الخليل بن أحمد : لا تصلُ إلى ما تحتاج إليه إلا بالوقوف على ما لا تحتاج إليه ، فقال له أبو شمر المتكلّم : فقد احتجت إذاً إلى ما لا تحتاج إليه ، إذ كنت لا تصل إلى ما تحتاج إليه إلا به . قال الخليل : ويحك ! وهل يقطع السيفُ الحسامُ إلا بالضرب ، أو يجرى الجواد إلا بالرَّكض ، أوهل تُنال نهايةٌ إلا بالسعى إليها والإيضاع نحوها . وقد يكون الإكداء مع الكد ، والخيبة ١٥ مع الهيبة .

الخليل وأبو شمر

لبعض الشعراء

وقال الشاعر :

وما زلتُ أقطعُ عرضَ البلادِ ٭ مِن المشرقَيْن إلى المغرِبَيْنِ
وأدَّرِعُ الخوفَ تحت الرَّجاءِ ٭ وأستَصْحِبُ الجدْىَ والفرْقدَيْنِ
وأطوِى وأنشُرُ ثوبَ الهُمومِ ٭ إلى أن رجعْتُ بِخُفَّىْ حُنيْنِ
٢٠ إلى أن أكونَ على حالةٍ ٭ مُقِلًّا من المالِ صِفْرَ اليدَيْنِ
فقيرَ الصَّديق غنِيَّ العدُوّ ٭ قليلَ الجداء عن الوالِدَيْنِ

ومثل هذا قليل فى كثير ، وإنما يحكم بالأعمّ والأغلب ، والنُّجْحُ مع الطلب والحرمانُ للعجز أصْحَب .

حبيب

وقد شرح حبيب هذا المعنى فقال :

همُّ الفتى فى الأرضِ أغصانُ الغِنى ٭ غُرِست وليست كُلَّ حينٍ تورقُ

الحمدونى

وقال إسماعيل بن إبراهيم الحمدونى فى المطالب :

لكِ ألحاظٌ مراضٌ ودلٌّ ٭ غيرَ أنَّ الطَّرف عنها أكَلّْ

وأرى خدَّيكِ وردًا نضيرًا ٭ قد جاده من دمع عينىّ[1] طَلّْ

٥

عذبَةُ الألفاظِ لو لم يَشِنْها ٭ كرُّ تفنيدٍ بسمعى يُضَلّ[2]

إنَّ عزّى التى أنفت بى ٭ عن سِواها كُثْرُها لىَ قُلّْ

ظَلْتُ فى أفياء ظِلّكِ حتى ٭ ظلَّ فوقى للسالف ظل

إن أولى منكِ بى لمَرامٌ ٭ لا يَحُلُّ الهولُ حيثُ يحلّْ

ما مُقامى وحُسامى قاطعٌ ٭ وسِنانى صارمٌ ما يُفلّْ

١٠

سنانى مِثلُ روْضةِ حزنٍ ٭ أضحكَتْها ديمةٌ تستهلّْ

ودليلى بينَ فكّىَّ يعلو ٭ كُلَّ صعْبٍ ريِّضٍ فيذِلّْ

نَهلاً من خمْرَةِ العجز[3] أُسقى ٭ نَهلا من بعدِهِ لىَ علّْ

إن يكُنْ قُربُكِ عندى جليلًا ٭ فأقلُّ الحزمِ منهُ أجلّ

أقعيدًا للقعيدَةِ إلفًا ٭ كُلُّ إلفٍ بى لِعُدمِى مُخِلّْ

١٥

ويْكِ ليس اللّيثُ لِلّيث يُضحِى ٭ مُخرجًا مِن غِيلِه وهْوَ كلّ

فاترُكى عتْباً ولوْماً دَعِى ٭ وعلى الإقتارِ عينُكِ سَجْلُ

هو سيفٌ غِمدُهُ بُردتاهُ ٭ يلتضيهِ الحزمُ حينَ يُسلّْ

لا يشُكُّ السّمعُ حين يَراه ٭ أنه بالبيد سِمْعٌ أزلّْ

بين ثوبيْهِ أخو عزماتٍ ٭ يتّقيها الحادثُ المُصمَئِلّْ

٢٠

---

(١) فى بعض الأصول «قد جلاه من دموعى».

(٢) فى بعض الأصول : «يظل».

(٣) فى بعض الأصول : «الفخر»

ليس تنبو بي رجال وبيدٌ * إنْ تنابى منزلٌ ومحل
فأقلى بعض عذلٍ مقيلٍ * لا يرى صرف الزمان يقلّ
إنّ وخد العيش إثمار رزقٍ * يجتنيها المسهب المشمعلّ
لا تفلّ حدّ عزمي بلوم * إنّني للعزم والدهر خِلّ
٥ فالفتى من ليس يرعى حماه * طمعاً يوما له مستزلّ
من إذا خطبٌ أظلّ عليه * فله صبرٌ عليه مُظِلّ
يصحب الليل الوليد إلى أن * يهرم الليل وما إن يملّ
ويرى السير قد يُلجلج منه * مُضغةً لكنّها لا تصِلّ
شمّرت أثوابه تحت ليلٍ * ثوبُه ضافٍ عليه رفلّ
١٠ سأضيع النوم كيما تريني * ومُضيعي مُعظِمٌ لي مُجِلّ
فابتناء العزّ هدم المهارى * وانحلال العُدم سيرٌ وحِلّ

باب التماس الرزق وما يعود

على الأهل والولد

للنبي صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم : العائدُ على أهله وولده كالمجاهد المرابط
١٥ في سبيل الله .

وقال صلى الله عليه وسلم : اليدُ العليا خير من اليدِ السفلى ، وابدأ بمن تعول .

لعمر بن الخطاب

وقال عمر بن الخطاب : لا يقعدُ أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وإن الله تعالى إنما يرزق
٢٠ الناسَ بعضهم من بعض . وتلا قول الله جل وعلا ﴿ فإذا قُضيَتِ الصلاةُ فانتشِرُوا في الأرضِ وابتغُوا مِن فضلِ اللهِ واذكُروا اللهَ كثيرا لعلَّكُمْ تفلحُون ﴾ .

للشافعى وقال محمد بن إدريس الشافعىّ : آحرصْ على ما ينفعُك ، ودع كلامَ الناس ، فإنه لا سبيلَ إلى السلامة من ألسنة العامة .

لمالك بن دينار ومثله قول مالك بن دينار : مَن عرف نفسه لم يَضره ما قال الناس فيه .

لابن سلام طاهر بن عبد العزيز : أخبرنا على بن عبد العزيز قال : أنشدنا أبو عبيد القاسم ابن سلّام : ٥

لا يَنقص الكاملَ من كمالِه ؞ ما ساق من خيرٍ إلى عِيالِه

وقال عمر بن الخطاب : يا معشر القُرّاء ، التمسوا الرزق ولا تكونوا عالةً على الناس .

لابن صيفى وقال أكثم بن صيفى : من ضيَّع زاده آتكل على زاد غيره .

للنبى صلى الله عليه وسلم وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : خيركم من لم يَدَع آخرتَه لدنياه ولا دُنياه لآخرته . ١٠

وقال عمرو بن العاص : آعمل لدنياك عَمَل من يعيش أبدا ، وآعمل لآخرتك عمل من يموت غدا .

للنبى صلى الله عليه وسلم فى متعبد وذُكر رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد فى العبادة والقوة على العمل ، وقالوا : صحبناه فى سفر ، فما رأينا بَعدك يا رسول الله أعبد منه ، كان لا ينفتل من صلاة ، ولا يُفطر من صيام . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فمن كان يَمُونُه ويقوم به ؟ قالوا : كُلنا . قال كُلُّكم أعبدُ منه . ١٥

للمسيح عليه السلام فى مثله ومر المسيح برجل من بنى إسرائيل يتعبَّد ، فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبَّد . قال : ومن يقوم بك ؟ قال : أخى . قال : أخوك أعبد منك .

وقد جعل الله طلب الرزق مفروضا [1] على الخلق كله : من الإنس ، والجنّ ، والطير ، والهوام ؛ منهم بتعليم ، ومنهم بإلهام ؛ وأهل التحصيل والنظر من الناس يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرّز ، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه ، من السؤال والاتكال والخِلابة والاحتيال . ٢٠

(١) فى بعض الأصول : « مقصورا » .

باب فضل المال

قال الله تعالى ﴿ المالُ والبَنونَ زينة الحياةِ الدنيا والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربّك ثواباً وخيرٌ أمَلا ﴾ .

للنبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم للمُجاشعي : إن كان لك مال فلك حسب ، وإن كان لك خُلق فلك مروءة ، وإن كان لك دِين فلك كرم .

لعمر بن الخطاب

وقال عمر بن الخطاب : حسَب الرجل مالُه ، وكرَمه دِينه ، ومروءته خُلقه .

وفي كتاب الأدب للجاحظ : اعلم أن تَثمير المال آلةٌ للمكارم ، وعونٌ على الدِّين ، وتأليف للإخوان ؛ وأن من فقَد المال قلّت الرغبة إليه والرهبة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس به : فاجهد جهدك كله في أن تكون القلوب معلّقة منك برغبة أو رهبة في دينٍ أو دنيا .

لحكيم ينصح ابنه

وقال حكيم لابنه : يا بنيّ ، عليك بطلب المال ؛ فلو لم يكن فيه إلا أنه عزٌّ في قلبك وذل في قلب عدوّك لكفى .

لابن عباس

وقال عبد الله بن عبّاس : الدنيا العافية . والشباب الصحة ، والمروءة الصبر ، والكرم التقوى ، والحسب المال .

لابن عبادة

وكان سعد بن عُبادة يقول : اللهم ارزقني جدا ومجداً ، فإنه لا مَجْد إلا بفعال ، ولا فِعال إلا بمال .

للحكماء

وقالت الحكماء : لا خير فيمن لا يجمع المال يصون به عِرضه ، ويحمى به مروءتَه ، ويصل به رحِمَه .

لابن عوف

وقال عبد الرحمن بن عوف : ياحبذا المال أصون به عرضى وأتقرّب به إلى ربى .

وقال سفيان الثورى : المال سلاح المؤمن فى هذا الزمان .

للنبي صلى الله عليه وسلم

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : نِعم العونُ على طاعة الله الغِنَى . ونعم السُّلَّم إلى طاعة الله الغنى ، وتلا ﴿ ولو أنهمْ أقامُوا التَّوراةَ والإنجيل وما أُنزلَ إليهم

من ربِّهم لأكلوا مِن فوقِهم ومن تحتِ أرجلِهم ﴾ وقوله ﴿ استغفِروا ربَّكم إنه كان غفَّاراً ، يُرسِلِ السماء عليكم مِدْراراً ويُمدِدْكم بأموالٍ وبنينَ ﴾ .

خالد يوصى ابنه — وقال خالد بن صفوان لابنه : يا بنى ، أوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسكت بهما : درهمَك لمعاشك ، ودِينك لمعادك .

لعروة بن الورد — وقال عروة بن الورد :

ذرِينى للغِنَى أسعى فإنى ٭ رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ
وأحقرُهُمْ وأهونُهمْ عليهم ٭ وإن أمسَى له كَرَمٌ وخِيرُ
يُباعدُه القريبُ وتَزدريهِ ٭ حليلتُه وينهرُه الصغير
وتَلْقَى ذا الغنَى وله جلالٌ ٭ يكاد فؤادُ صاحبِه يطير
قليلٌ ذنبُه والذنبُ جمٌّ ٭ ولكن للغنِى ربٌّ غفور

لبعض الشعراء — وقال آخر :

سأَكسِبُ مالاً أو أموتُ ببلدةٍ ٭ يَقِلُّ بها قَطْرُ الدُّموعِ على قبرى

وقال آخر :

سأُعمِلُ نَصَّ العِيس حتى يَكُفَّنى ٭ غِنَى المالِ يوما أو غِنَى الحدَثانِ
فلَلموتُ خيرٌ من حياةٍ يُرى لها ٭ على المرءِ بالإقْلالِ وَسْمُ هَوَان
إذا قال لم يُسمَعْ لِحُسْنِ مقالهِ ٭ وإن لم يقل قالوا عديمُ بيانِ
كأنَّ الغنَى فى أهله بُورِكَ الغنَى ٭ بغير لسانٍ ناطقٌ بلسانِ

لابن عياش — الرياشى قال : أنشدنا أبو بكر بن عيَّاش :

حيْرانَ يعلمُ أن المالَ ساقَ له ٭ ما لم يَسُقْهُ له دِينٌ ولا خُلقُ
لولا ثلاثون ألفاً سُقْتُها بِدَراً[1] ٭ إلى ثلاثين ألفاً ضاقتِ الطُّرُقُ
فمَن يكن عن كرام الناس يسألُنى ٭ فأكرمُ الناس من كانت له وَرِق

(١) فى بعض الأصول « بطرا » .

وقال آخر : لبعض الشعراء

أَجَلَّكَ قومٌ حين صرتَ إلى الغنَى * وكلُّ غنِيٍّ فى العُيونِ جليلُ
ولو كنتَ ذا فقر ولم تُوتَ ثروةً * ذَلَلْتَ لديهم والفقيرُ ذليلُ

وقال محمود الورّاق : للوراق

٥ أرى كلَّ ذى مالٍ يُبَرُّ لمالهِ * وإن كان لا أصلٌ هُناك ولا فضلُ
فشرِّفْ ذَوى الأموال حيثُ لقِيتَهم * فقولُهُمُ قولٌ وفعلُهم فعلُ

وأنشد أبو مُحَلِّم لرجل من وَلد طَلِبة بن قيس بن عاصم :

وكنتُ إذا خاصمتُ خَصْما كَبَبْتُه * على الوجه حتى خاصمتْنى الدراهمُ
فلما تنازعْنا الخُصومةَ غُلِّبتْ * علىَّ وقالوا قمْ فإنكَ ظالم

١٠ وأنشدنى الرياشى : للرياشى

لم يبقَ من طلبِ الغنَى * إلا التعرض للحُتوفْ
فلأَقذفنَّ بمُهجتى * بين الأسنَّة والسُّيوف
ولأَطلبَنَّ ولو رأيتُ الموتَ يلمعُ فى الصُّفوف

وكان لأحيحة بن الجلاح بالزَّوراء ثلثمائة ناضح ، فدخل بستانا له ، فمرَّ بتمرة فلقطها فعُوتب فى ذلك ، فقال : تمرةٌ إلى تمرةٍ تمراتٌ ، وجمل إلى جمل ذَوْد . لأحيحة

١٥ ثم أنشأ يقول :

إنى مقيمٌ على الزَّوْراء أعمُرها * إنّ الكريمَ على[1] الإخوان ذو المالِ
فلا يغُرَّنْك ذو قربَى وذو نسبٍ * من ابن عمٍّ ومن عم ومن خال
كلُّ النداءِ إذا ناديتُ يَخذُلُنى * إلا ندائِى إذا ناديتُ يا مالى

٢٠ ومن قولنا فى هذا المعنى : لابن عبد ربه

دعنى أصن حُرَّ وجهى عن إذالتهِ * وإن تغرّبتُ عن أهلى وعن ولدى
قالوا نأيتَ عن الإخوان قلتُ لهم * مالى أخٌ غيرُ ما تطوى عليه يدى

(١) فى بعض الأصول : « إن الحبيب إلى » .

كان الرماحس بن حفصة بن قيس وابن عم له يُدعى ربيعة بن الورد يسكنان الأردن . وكان ربيعة بن الورد موسرا ، والرُّماحس معسراً كثيراً ما يشكو إليه الحاجة ، ويعطف عليه ربيعة بعض العطف ، فلما أكثر عليه كتب إليه :

إذا المـــرء لم يطلُب معاشاً لنفسه * شكا الفقرَ أو لام الصديقَ فأكثرا
وصار على الأدنَيْنَ كَلاًّ وأوشكت * صِلات ذوى القُربى له أن تنكّرا ٥
فسِرْ فى بلاد الله وٱلتمس الغِـــنى * تَعِش ذا يَسار أو تموت فتُعذَرا
فما طالبُ الحاجات من حيث تُبتغى * من المـال إلا مَن أجدّ وشمّرا
ولا تَرْض من عيش بدونٍ ولا تَنَم * وكيف ينـام الليـلَ من كان مُعسرا

وقال بعض الحكماء : المـال يوقِّر الدَّنِىّ ، والفقر يُذل السَّنِى . وأنشد :

أرى ذا الغنى فى الناس يَسعون حوله * فإن قال قولًا تابعوه وصدّقوا ١٠
فذلك دأبُ النـاس ما كان ذا غنًى * فإن زال عنـه المـال يوماً تفرّقوا

وأنشد :

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها * فحيثما انقلبت يوماً به انقلبوا
يعظّمون أخا الدنيا فإن وثبت * يوما عليه بمـا لا يشتهى وثبوا

صنوف المـال ١٥

معاوية وابن صوحان

قال معاوية لصعصعة بن صُوحان : إنما أنت هاتف بلسانك ، لا تنظر فى أَوَدِ الكلام ولا فى استقامته ؛ فإن كنتَ تنظر فى ذلك فأخبرنى عن أفضل المـال .

فقال : والله يا أمير المؤمنين ، إنى لأَدَعُ الكلام حتى يختمرَ فى صدرى ، فما أُرْهِفُ به ولا أتلهّق فيه حتى أُقيمَ أَوَدَه ، وأحرِّر مَتْنَه ، وإن أفضلَ المـالِ لَبُرَّةٌ سمراء فى تربة غَبراء ؛ أو نعجةٌ صفراء فى روضة خضراء ؛ أو عينٌ خَرّارة فى أرضٍ خَوّارة . قال معاوية : لله أنت ، فأين الذهب والفضة . قال : حجران يصطكّان ، إن أقبلت عليهما نفدا ، وإن تركتهما لم يزيدا . ٢٠

لأعرابية

وقيل لأعرابية : ماتقولين فى مائة من المعز ؟ قالت : قُنًى . قيل لها : فمائة

من الضأن ؟ قالت غِنى . قيل لها : فماذا من الإبل ؟ قالت : مُنًى .

لعبد الله بن الحسن

وقال عبد الله بن الحسن : غَلّةُ الدور مسألة ، وغلة النّخل كفاف ، وغلة الحب مِلك .

للنبي صلى الله عليه وسلم

وفى الحديث : أفضلُ أموالكم : فرسٌ فى بطنها فرس يَتْبعها فرس ، وعينٌ ٥ ساهرة لعينٍ نائمة .

لبعض العراقيين

وأنشد فرج بن سلام لبعض العراقيين :

ولقد أقولُ لحاجبٍ نُصْحاً له * خَلِّ العُروضَ وبِعْ لنا أرْضا
إنى رأيتُ الأرضَ يَبْقَى نفعُها * والمالَ يأكُلُ بعضُه بعضا
واحذَرْ أُناساً يُظهِرون محبّةً * وعُيونُهم وقلوبُهم مَرْضَى
١٠ حتى إذا أمكنتْهم من فُرصةٍ * تركوا الخداعَ وأظهَروا البَغْضا

تدبير المال

لبعضهم

قالوا : لا مال لأخرق ، ولا عَيْلة على مُصلح ، وخير المال ما أطعمك لا ما أطعمتَه .

لصاحب كليلة ودمنة

وقال صاحب كليلة ودمنة : لينفق ذو المال ماله فى ثلاثة مواضع : فى الصدقة ١٥ إن أراد الآخرة ؛ وفى مُصانعة السلطان إن أراد الذكر ؛ وفى النساء إن أراد نعيم العيش .

وقال : إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة ؛ فأما الثلاثة التى يَطلب : فالسَّعة فى المعيشة ، والمنزلة فى الناس ، والزاد إلى الآخرة ، وأما الرابعة التى تُدرَك بها هذه الثلاثة : فاكتساب المال من أحسن وجوهه ، وحسن ٢٠ القيام عليه ، ثم التّثمير له ، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويُرضى الأهل والإخوان ويعود فى الآخرة نفعه . فإن أضاع شيئا من هذه الأربعة لم يدرك شيئا من هذه الثلاثة . إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به ؛ وإن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه يوشك أن يفنى ويبقى بلا مال ، وإن هو أنفقه

ولم يُثمِّرْه لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة النفاد . كالكحل الذى إنما يؤخذ منه على المِيل مثل الغبار ، ثم هو مع ذلك سريعٌ نفاده . وإن هو اكتسب وأصلح وثَمَّر ولم ينفق الأموال فى أبوابها ؛ كان بمنزلة الفقير الذى لا مال له ، ثم لايمنع ذلك ماله من أن يفارقه،ويذهب حيث لامنفعة فيه ؛ كحابس الماء فى الموضع الذى تنصبّ فيه المياه ، إن لم يخرج منه بقَدر مايدخل فيه ؛ مَصَل وسال من نواحيه ، فيذهب الماء ضياعا . ٥

وهذا نظير قول الله تعالى : ﴿ والذين إذا أَنفقوا لم يُسرِفوا ولمْ يَقْتُرُوا وكان بيْنَ ذلك قَوَاما ﴾ . وقوله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ ولا تَجعَل يَدَكَ مَغْلولةً إلى عُنُقِك ولا تَبسُطْها كلَّ البَسْطِ فتقْعُد ملوما محسورا ﴾ .

ابن عباس ورجل فى يده درهم — ونظر عبد الله بن عباس إلى درهم بيد رجل ، فقال له : إنه ليس لك حتى يخرج من يدك . يريد أنه لا ينتفع به حتى يُنفقه ويستفيد غيره مكانه . ١٠

الحطيئة — قال الحطيئة :

مُفيدٌ ومِتْلافٌ إذا ماسألتَه ٭ تَهلَّل واْهتزَّ اهتِزازَ المُهنَّدِ

لمسلم — وقال مسلم بن الوليد :

لا يَعرِفُ المالَ إلاريثَ يُنفِقُه ٭ أو يومَ يَجمعُه للنَّهْبِ والبَدَد ١٥

لبعض الشعراء — وقال آخر :

٭ مُهْلِكُ مالٍ ومُفيد مالِ ٭

لسفيان الثورى — وقال سُفيان الثورى : من كان فى يده شىء فليُصلِحه ؛ فإنه فى زمان إن آحتاج فيه ، فأول مايبذله دينه .

للمتلمس — وقال المتلمِّس : ٢٠

وحَبْسُ المالِ أيسرُ من بُغاه ٭ وضَرْبٌ فى البلاد بغير زادِ

وإصــــلاحُ القليلِ يزيدُ فيه ٭ ولا يبقى الكثيرُ مع الفسادِ

سعد القصير قال : ولّانى عُتبة أمواله بالحجاز ، فلما ودّعته قال لى : ياسعد ،

تعاهد صغير مالى فيكثر ، ولا تُضيِّع كثيره فيصغر ؛ فإنه ليس يَشغلنى كثير مالى عن إصلاح قليله ، ولا يمنعُنى قليل ما فى يدى عن الصبر على كثير ما ينوبُنى . قال : فقدمت المدينة ، فحدثت بها رجالات قريش ففرقوا بها الكتب على الوكلاء .

٥

الإقلال

لأرسطاطاليس

قال أرسطاطاليس : الغِنَى فى الغربةِ وطنٌ والمُقِل فى أهله غريبٌ .

لبعض الشعراء

أخذه الشاعر فقال :

لعَمْرُك ما الغريبُ بِذى التَّنائى * ولكنّ المُقِلَّ هو الغريبُ

إذا ما المرء أعْوز ضاق ذرْعاً * بحاجتِـــه وأبعدَه القريبُ

١٠ وقال إبراهيم الشيبانى : رأيت فى جدار من جُدر بيت المقدس بيتين مكتوبين بالذهب :

فكلُّ مُقِلٍّ حين يغدو لحاجةٍ * إلى كلّ من يَلقى من الناس مُذنِبُ

وكان بنو عمى يقولون مرحباً * فلما رأوْنى مُقْتِراً مات مَرْحبُ

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

١٥ أعاذل قد آلمتِ وَيْكِ فَلُومى * وما بلغ الإشراكُ ذنبُ عديمِ

لقد أسقَطت حقّى عليك صَبابتى * كما أسقط الإفلاسُ حقّ غَريمِ

وأعذرُ ما أدْمَى الجُفون من البكا * كريمٌ رأى الدُّنيا بكفِّ لئيمِ

أرى كلَّ فدْلٍ قد تَبجّح فى الغنى * وذو الطرْف لا تَلْقاه غير عديمِ

للحسن بن هانئ

وقال الحسن بن هانئ :

٢٠ الحمد لله ليس لى نَشَبٌ * خفّ ظهرى ومَلّنى ولَدِى

من نَظَرَت عينُه إلىّ فقد * أحاط علماً بما حوَتْه يدى

أبو الشمقمق

وكان أبو الشَّمقمق الشاعر أديباً طريفاً محارَفاً صُعلوكا متبرِّماً ، قد لزم بيته فى أطمار مسحوقة ، وكان إذا استفتح عليه أحد بابه خرج ، فنظر من فُرج الباب ،

فإن أعجبه الواقف فتح له ، وإلّا سكت عنه ، فأقبل إليه بعض إخوانه فدخل عليه ، فلما رأى سوء حاله ، قال له : أبشر أبا الشمقمق ، فإنا روينا فى بعض الحديث أن العارين فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة . قال : إن كان والله ما تقول حقا لأكونن بزّازاً يوم القيامة ، ثم أنشأ يقول .

أنا فى حالٍ تعالى الله ربى أىَّ حالِ ٥
ولقد أهزلتُ حتى * تحتَ الشمسُ خيالى
من رأى شيئاً مُحالاً * فأنا عينُ المُحالِ
ليس لى شىءٌ إذا قيـل لِمَنْ ذا قلت ذا لى
ولقد أفلستُ حتى * حلَّ أكلى لعيالى
فى حِرامّ الناس طُرًّا * من نساءٍ ورجالِ ١٠
لو أرى فى الناس حُرًّا * لم أكن فى ذا المثالِ

وقال أيضاً :

أتُرانى أرى من الدهرِ يوماً * لِىَ فيه مَطِيَّةٌ غيرُ رِجلى
كلما كنت فى جَميعٍ فقالوا * قرِّبوا للرَّحيلِ قرَّبتُ نعلى
حيثُما كنت لا أُخلِّفُ رَحْلاً * مَن رآنى فقد رآنى ورَحْلِى ١٥

وقال أيضاً :

لو قد رأيت سريرى كنتَ تَرحمنى * الله يعـلم مالى فيه تلبيس
واللهُ يعـلم مالى فيه شابِكةٌ * إلّا الحصيرةُ والأطْمار والدّيسُ

وقال أيضاً :

بَرَزْتُ من المنازلِ والقِبابِ * فلم يَعسُر على أحدٍ حِجابى ٢٠
فمنزلىَ الفضاء وسقفُ بيْتى * سماء الله أو قِطَعُ السَّحابِ
فأنت إذا أردتَ دخلتَ بيْتى * علىَّ مُسلِّماً من غير بابِ
لأنى لم أجـد مِصْراعَ بابٍ * يكون من السَّحاب إلى التُّرابِ

ولا انشقَّ الثرَى عن عُودِ تَختٍ ٭ أُؤَمِّلُ أن أشُــدَّ به ثيابى
ولا خِفْتُ الإباقَ على عبيدى ٭ ولا خِفْتُ الهلاكَ على دوابِى
ولا حاسَــبْتُ يوما قَهْرَماناً ٭ مُحاســبةً فأغلَطَ فى حسـابى
وفى ذا راحــةٌ وفَراغُ بالٍ ٭ فدأْبُ الدهرِ ذا أبداً ودابى

للهند

٥ وفى كتاب للهند : ماالتَّبع والإخوان والأهل والأصدقاء والأعوان والحشم إلا مع المـال ، وماأرى المروءة يظهرها إلاالمـال ، ولا الرأى والقوة إلا المـال ، ووجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العُدم ، فيبقى مقصِّراً عما أراد ، كالمـاء الذى يبقى فى الأودية من مطر الصيف ، فلا يجرى إلى بحر ولانهر ، بل يبقى مكانه حتى تَنْشفه الأرض ؛ ووجدت من لاإخوان له لاأهل له .
١٠ ومن لاولد له لاذِكْر له ، ومن لاعقل له لادنيا له ولاآخرة له ، ومن لا مال له لا شيء له ؛ لأن الرجل إذا آفتقر رَفضه إخوانُه وقطعه ذو رحمه ، وربمـا اضطرته الحاجة لنفسه وعياله إلى التمـاس الرزق بمـا يُغرّر فيـه بدينه ودنياه ، فإذا هو قد خَسِر الدنيا والآخرة ، فلا شيء أشد من الفقر ، والشجرة النابتة على الطريق المـأكولة من كل جانب أمثل حالاً من الفقير المحتاج إلى ما فى أيدى
١٥ الناس . والفقر داعٍ صاحبه إلى مَقت النـاس ، ومُتْلف للعقل والمروءة ، ومُذهب للعلم والأدب ، ومعدن للتهمة [1] ، ومجمع للبلايا ؛ ووجدت الرجل إذا آفتقر أساء به الظنّ من كان له مؤتمنا ، وليس من خَصلة هى للغنىّ مدح وزين إلا وهى للفقير ذمّ وشَين ؛ فإن كان شجاعاً قيـل أهوج ، وإن كان جواداً قيـل مُفسد ، وإن كان حليما قيـل ضعيف ، وإن كان وقوراً قيـل
٢٠ بليد ؛ وإن كان صَمِيتاً قيل عَيِيّ ، وإن كان بليغاً قيل مِهذار ؛ فالموتُ أهونُ من الفقر الذى يضطرّ صاحبه إلى المسألة ، ولا سيما مسألة اللئام ؛ فإنّ الكريم لو كُلِّف أن يدخل يده فى فم تنّين ويُخرج منه سمًّا فيبتلعه ، كان أخفَّ عليه من مسألة البخيل اللئيم .

---

(١) فى بعض الأصول : « للنميمة » .

الســــؤال

للنبي صلى الله عليه وسلم — قال النبي صلى الله عليه وسلم : لأن يأخذ أحدكم أحبُله فيحتطب بها على ظهره أهونُ عليه من أن يأتى رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله ، أعطاه أو منعه .

لبعضهم — وقالوا : من فتح على نفسه باباً من السؤال ، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر . ٥

لأكثم — وقال أكثمُ بن صيفى : كل سؤال وإن قل أكثر من كل نوال وإن جلّ .

على وسائل بعرفات — ورأى على بن أبى طالب كرم الله وجهه رجلا يسأل بعرفات فقنّعه بالسوط ، وقال : ويلك ! فى مثل هذا اليوم تسأل أحداً غير الله .

لابن عباس — وقال عبد الله بن عباس : المساكين لا يعودون مريضا ، ولا يشهدون جنازة ، ولا يحضُرون جمعة ، وإذا آجتمع الناس فى أعيادهم ومساجدهم يسألون الله من فضله ، آجتمعوا يسألون الناس ما فى أيديهم . ١٠

للنعمان بن المنذر — وقال النعمان بن المنذر : من سأل فوق حقه استحق الحرمان ، ومن ألحف فى مسألته استحق المطل . والرفقُ يُمْنٌ ، والخُرْقُ شُؤْمٌ ، وخير السخاء ما وافق الحاجة ، وخير العفو مع القدرة .

لشريح — وقال شريح : من سأل حاجة فقد عَرّض نفسه على الرق ، فإن قضاها المسئول منه آستعبده بها ، وإن ردّه عنها رجع كلاهما ذليلا ، هذا بذلّ البخل ، وذاك بذلّ الردّ . ١٥

لحبيب — وقال حبيب :

ذلُّ السؤالِ شَجىً فى الحلْقِ معترِضٌ * مِن دونِه شَرَقٌ من خلفِه جرَضُ
ما ماءُ كفِّكَ إن جادتْ وإن بَخِلتْ * من ماءِ وجهى إن أفنيته عِوَضُ ٢٠

سائل بمسجد الكوفة — الخشنى قال : قال أبو غسّان : أخبرنى أبو زيد قال : سأل سائل بمسجد الكوفة وقت الظهر فلم يُعطَ شيئا ، فقال : اللهم إنك بحاجتى عالمٌ لا تُعلَّم ، أنت الذى لا يُعوِزك نائل ، ولا يُحفِيك سائل ، ولا يبلغ مدحَك قائل ؛ أسألك

صبراً جميلا ، وفرجاً قريبا ، وبصراً بالهدى ، وقوة فيما تُحب وتَرضى . فتبادروا إليه يعطونه . فقال : والله لا رَزَأْتُكم الليلة شيئاً وقد رفعت حاجتى إلى الله . ثم خرج وهو يقول :

ما نالَ باذِلُ وجهِه بسؤالِه ⁂ عِوَضاً ولو نالَ الغِنَى بسؤالِ

٥ وإذا النَّوالُ مع السؤالِ وزَنْتَه ⁂ رَجَحَ السؤالُ وشال كلُّ نَوال

لمسلم

وقال مسلم بن الوليد :

سل الناسَ إنى سائلُ اللهِ وحدَهُ ⁂ وصائنٌ عِرضى عن فلانٍ وعن فُلَا

لابن الأبرص

وقال عبيد بن الأبرص :

مَن سأل الناسَ يَحرِموه ⁂ وسـائلُ اللهِ لا يَخيب

لابن أبى حازم

١٠ وقال ابن أبى حازم :

لَطَىُّ يومٍ وليلتـينِ ⁂ ولُبْس ثوبينِ باليـيْنِ

أهْونُ من مِنَّةٍ لقومٍ ⁂ أغُضُّ منها جفونَ عينى

إنى وإن كنتُ ذا عِيالٍ ⁂ قليلَ مالٍ كثيرَ دَيْن

لأَحْمَدُ اللهَ حين صارتْ ⁂ حوائجى بينَـه وبينى

لابن عبد ربه

١٥ ومن قولنا فى هذا المعنى :

سؤالُ النـاسِ مِفتاحٌ عتيـدٌ ⁂ لبابِ الفقرِ فاتلفْ بالسؤالِ

للنبى صلى الله عليه وسلم

وروى أشعب الطماع عن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يحشر الله عز وجل يوم القيامة قوما عارية وجوههم قد أذهب حياءها كثرةُ السؤال .

٢٠ سؤال السائل من السائل

ابن أبى حفصة وأبو الشمقمق

مدح أبو الشمقمق مروان بن أبى حفصة . فقال له أبو الشمقمق : أنت شاعر وأنا شاعر ، وغايتنا كلنا السؤال .

لأعرابى

وذكر أعرابى رجلا بالسؤال ، فقال : إنه أسألُ من ذى عَصَوَيْن .

لحبيب وقال حبيب :

لم يخلُقِ الرحمنُ أحمقَ لِحْيةٍ * من سائلٍ يَرجو الغِنى من سائلِ

الأصمعى وابن عمر الأصمعى عن عيسى بن عمر النحوى قال : قدمتُ من سفر فدخل علىّ ذو الرمة الشاعر ، فعرضت لأن أُعطِيَهُ شيئاً ، فقال : كلا ، أنا وأنت نأخذ ولا نعطى .

الشيب

لقيس بن عاصم قال قيس بن عاصم : الشيبُ خطام المنية .

وقال غيره : الشيبُ نذيرُ الموت .

للنميرى وقال النميرى : الشيب عنوانُ الكِبَر .

للمعتمر وقال المُعتمر بن سليمان : الشيبُ موتُ الشَّعَر ، وموت الشَّعر علّةٌ لِمَوت البشر .

لأعرابى وقال أعرابى : كنت أنكِر البيضاء فصرت أُنكِر السوداء ، فيا خيرَ مبدولٍ ويا شرَّ بَدلٍ .

للنبى صلى الله عليه وسلم وقيل للنبى صلى الله عليه وسلم : عَجِل عليك الشيبُ يا رسول الله ! قال : شيَّبَتْنى هُودٌ وأخواتُها .

لعبد الملك وقيل لعبد الملك بن مروان : عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ! قال : شيَّبنى ارتقاء المنابر وتَوقُّع اللَّحن .

لبعض الشعراء وقيل لرجل من الشعراء : عجل عليك الشيب . فقال : وكيف لا يعجل وأنا أعصُر قلبى فى عملٍ لا يُرجى ثوابه ، ولا يؤمن عقابه .

لحبيب وقال حبيب الطائى :

غدا الشيبُ مُختطًّا بفوْدىَّ خُطّةً * طريقُ الرَّدى منها إلى النفسِ مهْيَعُ

هو الزَّوْرُ يُجفى والمُعاشرُ يُجتوَى * وذو الإلفِ يُقلى والجديدُ يُرقَّعُ

له منظر فى العيْن أبيضُ ناصع * ولكنَّه فى القلبِ أسودُ أسفعُ

للوراق

وقال محمود الوراق :

بكيْتُ لقُربِ الأجل ٭ وبُعدِ فوات الأملْ
ووافِدِ شيْبٍ طرا ٭ بعُقبِ شبابٍ رحلْ
شبابٌ كأن لم يكن ٭ وشيْبٌ كأن لم يزلْ
٥ طواكَ بشيرُ البَقا ٭ وجاء بشيرُ الأجلْ

وقال أيضاً :

لا تطلُبَنَّ أثراً بعيْنْ ٭ فالشَّيب إحدى الميتتيْنْ
أبدَى مقابِح كلِّ شيْنْ ٭ ومحا محاسِنَ كلِّ زيْن
فإذا رأيتَ الغانيا ٭ تِ رأينَ منك غُراب بيْنْ
١٠ ولرُبما نافسْنَ فيـ ٭ ـك وكُنّ طوعاً لليديْنْ
أيامَ عمَّـك الشَّبا ٭ بُ وأنت سهلُ العارضيْنْ
حتى إذا نزلَ المشيـ ٭ ـبُ وصِرت بين عِمامتيْنْ
سوْداء حالِكةٍ وبيْـ ٭ ـضاء المناشِرِ كاللُّجيْنْ
مَزَج الصُّدودُ وِصا ٭ لَهُنّ فكُنّ أمراً بيْنَ بيْنْ
١٥ وصبَرْن ما صبَرَ السَّوا ٭ دُ على مُصانعةٍ ودَيْن
حتى إذا شَمِل المشيـ ٭ ـبُ فجازَ قُطْرَ الحاجبيْنْ
فقَيْنَ شَرَّ قَفِيَّـةٍ ٭ وأخذْن منكَ الأطيَبيْنْ
فاقْنِ الحياء وسلِّ نفْـ ٭ ـسك أو فنادِ الفرْقديْنْ
ولئِنْ أصابتْك الخطو ٭ بُ بكُلِّ مكروهٍ وشَيْنْ
٢٠ فلقد أمِنْتَ بأن يُصيـ ٭ ـبكَ ناظر أبداً بعيْنْ

لحبيب

وقال حبيب الطائى :

نظرَتْ إلىّ بعينِ من لم يعدِلِ ٭ لمّا تمكَّن حُبُّها من مقتَلِي
لمّا رأت وضح المشيبِ بلِمَّتى ٭ صدّتْ صُدودَ مُجانبٍ مُتحمِّلِ

فجعلتُ أطلبُ وصْلها بتلطفٍ * والشيْبُ يغمِزُها بألّا تفعلِى

لبعض الشعراء وقال آخر :

صدّت أُمامةُ لمّا جِئتُ زائِرها * عنى بِمطروفةٍ إنسانُها غرِقُ

وراعها الشيْبُ فى رأسى فقلتُ لها * كذاكَ يصْفرُّ بعد الخُضْرَةِ الورقُ

٥ لابن أمية وقال محمد بن أمية :

رأينَ الغوانى الشَّيْبَ لاح بعارضِى * فأعرَضْنَ عنى بالخدودِ النَّواضرِ

وكُنّ إذا أبصرْنَنِي أو سمِعْن بى * دنَوْنَ فرقَّعنَ الكُوَى بالمحاجِر

للعلوى وقال العلوى :

عيَّرتْنى بِشيْبِ رأسى نوارُ * يا بْنةَ العمِّ ليس فى الشيْبِ عارُ

١٠ إنما العارُ فى الفِرار منَ الزّحْـ * ـفِ إذا قيل أيْن أيْنَ الفِرارُ

لابن عبد ربه ومن قولنا فى الشيب :

بدا وضحُ المشيبِ على عِذارى * وهل ليل يكونُ بلا نهارِ

شريْتُ سواد ذا بِبياضِ هٰذا * فبدَّلتُ العِمامة بالخِمارِ

وألبسَنى النُّهى ثوباً جديداً * وجرّدنِى مِنَ الثّوب المعارِ

١٥ وما بِعْتُ الهوى بيْعاً بشرطٍ * ولا آستثْنيْتُ فيهِ بالخِيارِ

ومن قولنا فيه :

قالوا شبابُك قد ولّى فقلتُ لهم * هل من جديدٍ على كرِّ الجديدَيْنِ

صِلْ مَنْ هويْتَ وإن أبدى مُعاتبةً * فأطيبُ العيْش وصْلٌ بين إلْفيْن

واقطعْ حبائلَ خِدْنٍ لا تُلائِمُهُ * فرُبما ضاقتِ الدُّنيا على آثنيْنِ

٢٠ ومن قولنا فيه :

جار المشيبُ على رأسى فغيَّره * لما رأى عندنا الحُكامَ قد جاروا

كأنما جُنَّ ليلٌ فى مفارِقِهِ * فاعتاقهُ من بياضِ الصُّبحِ إسفارُ

ومن قولنا فيه :

سوادُ المرء تُنفِدُه الليالى * وإن كانت تصيرُ إلى نَفادِ
فأسوَدُهُ يعودُ إلى بياضٍ * وأبيضُهُ يعودُ إلى سوادِ

ومن قولنا أيضا :

٥ أطلالُ لهوِك قد أقوَت مغانيها * لم يبْق من عهدِها إلا أثافيها
هذِى المفارقُ قد قامت شواهِدُها * على فنائكَ والدُّنيا تُزكّيها
الشَّيْبُ سُفْتِجةٌ فيها مُعنْونةٌ * لم يبق لِلمَوتِ إلّا أن يُسَجِّيها

ومن قولنا أيضاً :

نجومٌ فى المفارقِ ما تغورُ * ولا يجرى بها فلكٌ يدورُ
١٠ كأنَّ سواد لِمَّتِه ظلامٌ * أغار مِنَ المشيبِ عليه نورُ
ألا إنَّ القتيرَ وعيدُ صدقٍ * لنا لو كان يزجرنا القتيرُ
نذيرُ الموتِ أرسلَهُ إلينا * فكذَّبنا بمَا جاء النَّذِير
وقلنا للنُّفوسِ لعلَّ عُمْراً * يطولُ بنا وأطوَلُه قصيرُ
متى كذَبتْ مواعدُها وخانتْ * فأوَّلُها وآخِرُها غُرورُ
١٥ لقد كاد السُّلُوُّ يُميتُ شوقى * ولكِن قلَّما فُطِم الكبيرُ
كأنى لم أرُق بل لمُ يَرُقْنى * شُموسٌ فى الأكِلّة أو بُدُورُ
ولم ألقَ المُنى فى ظِلِّ لهْوٍ * بِأقمارٍ سحائبُها السُّتورُ

ولآخر :

والشَّيب تَنْغيص الصِّبا * فاقض اللبانة فى الشباب

٢٠ وقال ابن عباس : الدنيا الصحة والشباب .

ولبعضهم :

فى كل يوم أرى بيضاء قد طلعت * كأنما طلعت فى ناظر البصر
لئن قصصتُكِ بالمقراض عن نَظَرى * لما قصصتك عن همِّى ولا فكرى .

ولابن المعتز :

جاء المشيب فما تعست به ٭ ومضى الشباب فما بكاى عليه

وقال أيضاً :

ماذا تريدين من جهلى وقد غبرت ٭ سِنُو شبابى وهذا الشيب قد وَخطا
أُرقع الشعرة البيضاء ملتقطا ٭ فيصبح الشيب للسوداء ملتقطا
وسوف لا شك يُعيينى فأتركه ٭ فطالما أُعمِل المقراض والمُشُطا

الشباب والصحة

لابن العلاء قال أبو عمرو بن العلاء : ما بكتِ العربُ شيئاً ما بكت على الشباب وما بلغتْ به ما يستحقه .

للأصمعى وقال الأصمعى : أحسن أنماط الشعر المراثى والبكاء على الشباب :

وقيل لكثيّر عزة : مالك لا تقول الشعر ؟ قال : ذهب الشباب فما أطرب ، ومات عبد العزيز فما أرغب .

لابن عباس وقال عبد الله بن عباس : الدنيا العافية ، والشباب الصحة .

الوراق وقال محمود الورّاق :

أليس عجيباً بأن الفتى ٭ يُصاب ببعض الذى فى يديه
فمِن بينِ باكٍ له مُوجَعٍ ٭ وبين مُعزٍّ مُغِـذٍّ إليه
ويسلبُه الشيب شرخَ الشباب ٭ فليس يُعـزّيه خلق عليه

لابن أبى حازم وقال ابن أبى حازم :

ولّى الشّباب فخلِّ الدمعَ ينهملُ ٭ فقْدُ الشباب بفقد الروح متصلُ
لا تُكذَبَنَّ فما الدنيا بأجمعها ٭ من الشباب بيومٍ واحد بَدل

لجرير وقال جرير :

ولّى الشباب حميـدةً أيامُه ٭ لو كان ذلك يُشترى أو يرجع

وقال صريع الغوانى : لصريع الغوانى

واهاً لأيّام الصِّبا وزمانِهِ ٭ لو كان أسعفَ بالمُقام قليلا

سَل عيش دهرٍ قد مضت أيامُه ٭ هل يستطيع إلى الرجوع سبيلا

وقال الحسن بن هانئ : للحسن بن هانئ

٥ وأرانى إذ ذاك فى طاعة الجهـ ٭ ـل وفوقى من الصِّبا إمْراء

ترْبَ عيشٍ لرَيْطَتِي فضْل ذيلٍ ٭ ولرأسى ذُؤابَةٌ فَـرْعاء

بقِناع من الشباب جديدٍ ٭ لم ترقِّعه بالخضاب النساء

قبل أن يلبَس المشيب عِذارىّ ٭ وتَبلى عمامتى السوداء

وقال أعرابى : لأعرابى

١٠ لله أيام الشباب وعصرُه ٭ لا يُستعار جديدُه فيُعارُ

ما كان أقصر ليله ونهاره ٭ وكذاك أيام السرور قِصار

ومن قولنا فى الشباب : لابن عبد ربه

ولّى الشباب وكنتَ تسكنُ ظلَّه ٭ فانظر لنفسك أىَّ ظل تَسكنُ

ونَهى المشيب عن الصِّبا لو أنه ٭ يُدلِى بحجّته إلى مَن يَلقنُ

١٥ ومن قولنا فيه :

قالوا شبابُك قد مضتْ أيامُه ٭ بالعيش قلتُ وقد مضت أيامى

لله أيةُ نعمةٍ كان الصبا ٭ لو أنهـا وُصلتْ بطول دوامِ

حَسَرَ المشيب قناعه عن وجهه ٭ وصحا العواذل بعد طول مَلام

فكأنّ ذاك العيش ظلُّ غَمامَة ٭ وكأنّ ذاك اللهو طيفُ مَنام

٢٠ ومن قولنا فيه :

ولو شئت راهنت الصبابة والهوى ٭ وأجريت فى اللذات من مئتين

وأسبلت من ثوب الشباب، وللصبا ٭ علىّ رداء مُعْلَم الطرفين

لبعض الشعراء وقال آخر :

إنّ شرخ الشباب والشَّعَر الأسـودَ ما لم يُعاصَ كان جُنونَا

وقال آخر :

قالت عهدْتُك مجنوناً فقلت لها ٭ إن الشباب جُنون بُرؤه الكِبَرُ

لابن عبد ربه ومن قولنا فى الشباب : ٥

كنتُ إلف الصبا فودَّعَنى ٭ وَداعَ مَن بانَ غير مُنصرِفِ

أيامَ لهوى كظلِّ إسْحِلة ٭ وإذ شبابى كروضة أُنُف

ومن قولنا فى الشباب :

شبابى كيف صرتُ إلى نَفاد ٭ وبُدِّلتُ البياضَ من السوادِ

وما أبقى الحوادث منك إلا ٭ كما أبقت من القمر الدّآدى ١٠

فراقُك عرَّف الأحزان قلبِى ٭ وفرَّق بين جَفْنى والرُّقاد

فيا لِنعيم عيشٍ قد توَلَّى ٭ ويا لِغليل حُزن مُستفاد

كأنى منك لم أرْبَع برَبْع ٭ ولم أرْتَدْ به أحلى مَراد

سَقى ذاكَ الثَّرَى وبْلُ الثُّرَيّا ٭ وغادَى نَبْته صوْب الغوادى

فكم لى من غليلٍ فيه خافٍ ٭ وكم لى من عويل فيه بادى ١٥

زمانٌ كان فيه الرُّشد غَيًّا ٭ وكان الغَىُّ فيه من الرَّشاد

يُقبِّلنى بِدَلٍّ من قَبولٍ ٭ ويُسعدنى بوصْلٍ من سُعاد

وأُجْنبُه فيُعطينى قِياداً ٭ ويَجْنُبُنى فأُعطيه قِيادى

الخضاب

للنبى صلى الله عليه وسلم قال النبى صلى الله عليه وسلم : غيِّروا هذا الشَّيبَ . وجنبوه السواد . ٢٠

وكان أبو بكر يخضب بالحناء والكَتم .

وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجاريته : قومى اخضِبى رأسى ولحيتى . فقالت :

دعنى ، قد عييتُ مما أرقّعك . فقال مالك بن أسماء :

عيّرتنى خَلَقاً أبليتِ جدتَهُ ٭ وهل رأيتِ جديداً لم يَعُدْ خَلَقا

معاوية وأبو الأسود

ودخل أبو الأسود الدؤلى على معاوية وقد خضب ؛ فقال : لقد أصبحت يا أبا الأسود جميلاً ؛ فلو علّقت تميمة . فأنشأ أبو الأسود يقول :

٥ أفنى الشباب الذى فارقتُ بهجتَه ٭ مَرُّ الجَديدين من آتٍ ومُنطلِقِ

لم يُبقيا لىَ من طولِ اختلافِهما ٭ شيئاً يُخاف عليه لذْعةُ الحَدَق

وذكر عن الأصمعى قال : بلغنى عن بعض العرب فصاحة ، فأتيته فوجدته يخضب ، فقال : يابن أخى ، ما الذى أقصدك إلىَّ ؟ قلت : الاستئناس بك والاستماع من حديثك . قال : يابن أخى ، قصدتنى وأنا أخضب ، والخضاب

١٠ من مقدمات الضعف ، ولطالما فزّعت الوحوش ، وقدت الجيوش ، وروّيت السيف ، وقريت الضيف ، وحميت الجار ، وأبيت العار ، وشربت الراح ، وجالست الملاح ، وعاديت القروم ، وعلوت الخصوم ؛ واليوم يا بن أخى الكبر وضعف البصر تركا من بعد الصَّفو الكدر . وأنشأ يقول :

شيب نُعلّله كيما نُسَرُّ به ٭ كهيئة الثوب مطويًّا على خِرق

١٥ فكنت كالغصن يرتاح الفؤاد به ٭ فصرت عوداً بلا ماء ولا ورق

صبراً على الدهر إن الدهر ذو غِيَرٍ ٭ وأهله منه بين الصفو والرَّنق

معاوية وابن جعفر

ودخل معاوية على ابن جعفر يعوده ؛ فوجده مُفيقاً وعنده جارية فى حجرها عود ؛ فقال : ما هذا يابن جعفر ؟ فقال : هذه جارية أرويها رقيق الشّعر فتزيده حُسناً بحُسن نغمتها . قال : فلتقل . فحركت عودها وغنت ! وكان

٢٠ معاوية قد خضب :

أليس عندك شكرٌ للتى جَعلتْ ٭ ما ابيضّ من قادِمات الرِّيش كالحُممِ

وجدّدتْ منك ما قد كان أخلَقَهُ ٭ ريْبُ الزمان وصرف الدهر والقِدم

فحرّك معاوية رجله ؛ فقال له ابن جعفر : لِمَ حرّكت رجلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : كل كريم طروب .

للوراق

وقال محمود الوراق فى الخضاب :

للضيفِ أن يُقرَى ويُعرَفَ حقُّهُ * والشيْبُ ضيفُكَ فاْقرِه بخضابِ

وافَى بأكذَبِ شاهدٍ ولربّما * وافَى المَشيبُ بشاهدٍ كذّاب

فانسخ شهادتَه عليكَ بخَضْبِه * تَنفِ الظنونَ به عن المُرتابِ

فإذا دَنا وقتُ المشيبِ فخلّهِ * والشيبَ يذهبُ فيه كلَّ ذَهاب

لبعض الشعراء

وقال آخر :

وقائـلةٍ تقول : وقد رأتنى * أُرَقِّعُ عارِضَىّ من القَتير

عليك الخِطْرَ علّك أن تُدنّى * إلى بيضٍ ترائبُهن حُور

فقلت لها المشيبُ نذيرُ عمرى * ولستُ مسوّداً وجهَ النذير

وقال غيره :

إنّ شيئاً صلاحُه بخضاب * لَعَذابٌ موكّلٌ بعذاب

فوَحقِّ الشبابِ لولا هوى البيـض وأن تَشمئزّ نفسُ الكَعاب

لأرَحْتُ الخدّين مِن وَضَرِ الخِطْـرِ وآذنتَ بانقضاءِ الشباب

وقال غيره :

بَكَرتْ تحسِّنُ لى سَوادَ خِضابى * لكأنّ ذاك يُعيدُنى لشبابى

وإذا أديمُ الوجه أخلقَه البِلى * لم يُنتفَعْ فيه بحُسْنِ خضاب

ماذا ترى يُجدِى عليك سوادُه * وخِلافُ ما يُرضيكَ تحت ثيابى

ما الشيْبُ عندى والخِضابُ لواصِفٍ * إلا كشمسٍ جُلّلتْ بسَحاب

تَخفَى قليلا ثم يَقشعُها الصَّبا * فيصيرُ ما سُتِرتْ به لِذَهاب

لابن عبد ربه

ومن قولنا فى هذا المعنى :

أَصَمَّ فى الغَوايةِ أَمْ أَنابا * وشيْبُ الرأسِ قد أنضَى الشّبابا

إذا نَصَلَ الخضابُ بكى عليه ٭ ويضحكُ كلما وصل[1] الخضابا

كأنَّ حمامةً بيضاء ظلَّتْ ٭ تُقاتِلُ فى مَفارِقه غُـــرابا

فضــــيلة الشيب

النبى صلى الله عليه وسلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : مَن شابَ شيْبةً فى الإسلامِ كانت له نوراً يومَ القيامة .

٥

وقال ابن أبى شيبة : نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن نَتْفِ الشيْبِ وقال : هو نورُ المؤمِنِ .

لبعضهم

وقالوا : أول من رأى الشيبَ إبراهيمُ خليلُ الرحمن ، فقال : يا ربِّ ، ماهذا ؟ قال له : هذا الوَقارُ . قال : رَبِّ زِدْنِى وَقاراً .

١٠

لأبى نواس

وقال أبو نُوَاس :

يقولون فى الشَّيْب الوَقارُ لأهلِهِ ٭ وشَيْبى بحمْـــدِ الله غيرُ وَقارِ

لبعض الشعراء

وقال غيره :

يقولون هل بَعد الثّلاثين مَلْعبٌ ٭ فقلتُ وهل قبل الثّلاثين ملعبُ

لقد جَلَّ قدرُ الشَّيْب إن كان كلما ٭ بَدتْ شَيْبةٌ يَعْرَى من اللّهو مَركَبُ

١٥

أبو دلف والمأمون

دخل أبو دُلَف على المأمون ، وعنده جارية [له] ، وقد ترك الخضاب أبو دلف ، فغمز المأمون الجارية ، فقالت له : شِبْت أبا دلف ، إنا لله وإنا إليه راجعون لا عليك ! فسكت أبو دلف ، فقال له المأمون : أجبها أبا دلف . فأطرق ساعة ، ثم رفع رأسه . فقال :

تهزّأتْ أنْ رأت شيْبى فقلت لها ٭ لا تهزئى مَن يَطُل عُمْرٌ به يَشِبِ

٢٠

شَيْبُ الرِّجال لهم زَيْنٌ ومكرُمةٌ ٭ وشيْبُكُنّ لكُنّ الويْلُ فاكتئبى

فينا لكُنّ وإن شيْبٌ بدا أَرَبٌ ٭ وليس فيكنّ بعد الشَّيْبِ من أَرَبِ

(١) فى بعض الأصول : « نصل » .

للوراق وقال محمود الوراق :

وعائبٍ عابنى بشَيْبٍ * لمْ يَعْدُ لمّا ألمّ وقتَهْ

فقلت للعائبى بشَيْبى * ياعائبَ الشَّيْبِ لا بَلَغْتَهْ

أنشدنى أبو عبد الله الإسكندرانى، معلم الإخوة :

ومما زاد فى طول اكتئابى * طلائع شيبتين ألمّتا بى ٥

فأما شيبة ففزعت منها * إلى المقراض من حب التصابى

وأما شيبة فعفوت عنها * لتشهد بالبراء من الخضاب !

لابن مناذر وقال محمد بن مناذر :

لا سلامٌ على الشّباب ولا حيّا الإلهُ الشّبابَ من معهودِ

قد لبستُ الجديد من كلّ شىء * فوَجدْتُ الشّباب شرّ جديدِ ١٠

صاحبٌ مايزال يدعو إلى العيب وما مَن دعا له برشيدِ

ولنعْم المُنيبُ والوازِعُ الشَّيْبُ ونعم المُفادُ للمستفيدِ

كبرت السنّ

لأعرابى قيل لأعرابى قد أخذته كَبرة السن : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت تُقيّدنى الشعرة وأعْثُر بالبعرة ؛ قد أقام الدهر صَعَرى بعد أن أقمت صَعَرَه . ١٥

لبعضهم وقال آخر : لقد كنت أُنكِر البيضاء ، فصرت أُنكر السوداء ، فياخير مبدول ويا شرّ بدَلٍ .

معاوية والمستوغر ودخل المستوغر بن ربيعة على معاوية بن أبى سفيان وهو ابن ثلثمائة سنة ؛ فقال : كيف تجدك يامستوغر ؟ فقال : أجدنى يا أمير المؤمنين قد لان منى ماكنت أحب أن يشتد ، واشتد منى ماكنت أحب أن يلين ، وابيض منى ماكنت أحب ٢٠ أن يسود ، واسود منى ماكنت أحب أن يبيض . ثم أنشأ يقول :

سَلْنى أُنَبِّئْك بآيات الكِبَرْ * نوْمُ العشاءِ وسُعالٌ بالسَّحرْ

وقلّةُ النّوم إذا الليل اعتكرْ * وقلة الطُّعْم إذا الزّادُ حضرْ

وسرعةُ الطرْف وتَخْميجُ النظرْ ٭ وتَركُكَ الحسناء فى قُبْل الطهُرْ
والناسُ يَبْلوْن كما يَبْلى الشَّجرْ

لأعرابى

وقال أعرابى :

أشكو إليك وجَعاً بركْبتى ٭ وهَدَجاناً لم يكن فى مِشيتى
٥ كهدجانِ الرَألِ خَلْف الهَيْقَت

لبعض الشعراء

وقال آخر :

وللكبير رثيات أربعُ ٭ الرُكبتانِ والنَّسا والأخدَعُ

لجرير

وقال جرير :

تحنُّ العِظامُ الرّاجفاتُ من البِلى ٭ وليس لداءِ الركْبتيْن طبيب

لأعرابى فى امرأة

١٠ وقال أعرابى فى امرأة :

يا بِكْر حوّاء من الأولاد ٭ وأقدم العالَمِ فى البلاد
عُمْرُك ممدودٌ إلى التَنادِ ٭ فحدِّثينا بحديث عادِ
ومُبْتدا فِرعوْن ذى الأوتادِ ٭ وكيف جاء السيْلُ بالأطوادِ

وقال آخر :

١٥ إذا عاش الفتَى سبعين عاماً ٭ فقد ذَهَب المَسَرّة والفتاء

نصر بن دهمان

كان فى غطفان نصر بن دُهمان ؛ قاد غطفان وسادها حتى خَرِف وعُمِّر تسعين ومائة سنة ، حتى اسود شعره ونبتت أضراسه وعاد شابا ؛ فلا يعرف فى العرب أعجوبة مثله .

لابن مناذر

وقال محمد بن مُناذر فى رجل من المُعمَّرين :

٢٠ إنّ مُعاذَ بن مُسلِمٍ رجُل ٭ قد ضَجّ من طولِ عُمْرِه الأبدُ
قد شاب رأْسُ الزمان واكتَهل الدهـر ٭ وأثوابُ عُمْرِه جُددُ
يا نَسرَ لقمانَ كم تعيش وكم ٭ تَسْحب ذَيْلَ الحياةِ يا لبدُ
قد أصبَحت دار آدم خَرِبت ٭ وأنت فيها كأنك الوتِدُ

تَسْــأَلُ غِرْبانَها إذا حَجَلتْ ٭ كيف يكون الصُّداع والرَمَدْ

عبد الملك والشعبى

ودخل الشعبي على عبد الملك بن مروان ، فوجده قد كبا مُهتما ، فقال : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال : يا شعبي ؛ ذكرتُ قول زهير :

كأنى وقد جاوزتُ سبعين حِجّةً ٭ خَلعْت بها عنى عِذار لجامى

رمَتْنى بناتُ الدهرِ من حيث لا أرى ٭ فكيف بمَنْ يُرمَى وليس برامِ ٥

فــلو أننى أُرمَى بنَبْلٍ رأيْتُها ٭ ولكننى أُرمَى بغيْرِ سِهــامِ

على الراحتَين تارة وعلى العَصا ٭ أَنُوءُ ثلاثاً بعدهن قيــامى

قال له الشعبي : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة ، وقد بلغ سبعين سنة :

كأنى وقد جاوزتُ سبعين حِجّةً ٭ خَلعْت بها عن مَنكِبَىَّ رِدائيا ١٠

فلما بلغ سبعاً وسبعين سنة قال :

باتتْ تَشكى إلىّ النفْسُ مُجْهِشةً ٭ وقد حمَلْتُك سبعاً بعد سبعينا

فإنْ تُزادِى ثلاثاً تَبْلُغى أَمَلاً ٭ وفى الثلاثِ وفاءٌ للثمانينــا

فلما بلغ مائة سنة قال :

ولقد سئمْتُ من الحياة وطولِها ٭ وسؤالِ هذا الخلق كيْف لبِيدَ ١٥

فلما بلغ مائة سنة وعشراً قال :

أليس فى مائة قد عاشَها رجُلٌ ٭ وفى تكامُل عشْرٍ بعدها عُمُرُ

فلما بلغ ثلاثين ومائة وقد حضرته الوفاة قال :

تَمنى ابْنتاىَ أن يعيش أبوهما ٭ وهل أنا إلّا من ربيعةَ أو مُضَرْ

فقوما فقولا بالذى تعلَمــانِه ٭ ولا تَخْمِشا وجهاً ولا تَحْلِقا شعَرْ ٢٠

وقولا هو المرء الذى لاصديقَهُ ٭ أضاع ولا خان الخليلَ ولا غَدَرْ

إلى الحوْلِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ٭ ومن يَبْكِ حوْلا كاملا فقد اعتذرْ

قال الشعبي : فلقد رأيت السرور فى وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها .

لبيد

وقال لبيد أيضاً :

أليس ورائى إن تراخت منيّتى * لزوم العصا تُحنى عليها الأصابعُ
أُخبّرُ أخبار القرونِ التى مضت * أدبُّ كأنى كلما قمتُ راكعُ
فأصبحتُ مثل السيف أخلق جفنَه * تقادُمُ عهد القين[1] والنّصل قاطعُ

في الزبور

٥ ويقال : مكتوب فى الزبور : من بلغ السبعين اشتكى من غير علة .

للنبطى

وقال محمد بن حسان النبطى : لا تسأل نفسك العام ما أعطتك فى العام الماضى .

وقال معاوية لما أسنّ : ما من شىء كنت أستلذه وأنا شاب فأجده اليوم كما أجده ، إلا اللبن والحديث الحسن .

لضرار

عاش ضرار بن عمرو حتى وُلدَ له ثلاثة عشر ذكرا ، فقال : من سرّه بنوه ١٠ ساءته نفسه .

لابن أبى فنن

وقال ابن أبى فَنَنٍ :

مَن عاشَ أخلقتِ الأيامُ جِدّتَهُ * وخانه ثِقتـاه السمعُ والبصر
قالت عَهِدْتُكَ مجنوناً فقلتُ لها * إنّ الشبابَ جنونٌ بُرْؤه الكِبَر

لأبى عبيدة

قال أبو عبيدة : قيل لشيخ : ما بقى منك ؟ قال : يَسبقنى مَن أمامى ، ١٥ ويُدْركنى مَن خلفى ، وأذْكُرُ القديم ، وأنسى الحديث ، وأنعُس فى الملاء ، وأسهر فى الخلا ، وإذا قمتُ قرُبَتِ الأرض منى ، وإذا قعدتُ تباعدتْ عنى .

لحميد

وقال حُميد بن ثور الهلالى :

أرى بصرى قد رابنى بعد صِحّةٍ * وحسبُك داءً أنْ تَصِحّ وتَسْلَما

لبعض الشعراء

وقال آخر :

٢٠ كانت قَناتِى لا تَلينُ لغامزٍ * فألانها الإصباحُ والإمساءُ
ودعوتُ ربى بالسلامةِ جاهِداً * لِيُصحّنى فإذا السلامة داءُ

---

(١) فى بعض الأصول : « الجفن » .

لأبى العتاهية وقال أبو العتاهية ، ويروى للقطامى :

* أسْرعَ فى نقصِ آمرِئٍ تمامُه *

وقالت الحكماء [1] : مازاد شىءٌ إلا نقصَ ، ولا قام إلا شَخَص .

لبعض المحدثين وقال بعض المحدثين :

ألست ترى أن الزمان طوانى * وبدَّل عقلى كله وبرانى

تَحَيَّفَنى عضواً فعضواً فلم يدعْ * سوى آسمى صحيحاً وحدهُ ولسانى

ولو كانت الأسماء يدخُلُها البِلَى * إذاً بَلِىَ آسمى لآمتدادِ زمانى

وما لِىَ لا أبْلَى لسبعين حِجَّةً * وسبعٍ أتتْ من دونِها سَنَتان

إذا عنَّ لى شىءٌ تخيَّلَ دونَه * شبيهُ ضَبابٍ أوْ شبيهُ دُخان

للغزال وقال الغزّال :

أصبحت واللهِ محموداً على أمَدِ * من الحياةِ قصيرٍ غيرِ ممتدِّ

حتى بقيتُ بحمدِ اللهِ فى خلَفٍ * كأنى بينهم من وحشةٍ وحدى

وما أُفارِقُ يوماً مَن أُفارِقُه * إلا حَسِبْتُ فِراقى آخِرَ العهد

لبعض الشعراء وقال آخر :

يا مَن لشيخٍ قد تخدَّدَ لَحْمُه * أفْنى ثلاثَ عمائمٍ ألْوانا

سوداءَ حالِكةً وسَحْقَ مُفَوَّفٍ * وأجدَّ لوناً بعد ذاك هِجانا

قصَرَ الليالى خطوَهُ فتدانَىٰ * وحَنيْنَ قائمَ صُلْبِه فتحانى

صَحِبَ الزمانَ على اختلافِ فنونِه * فأراه منه شِدَّةً ولَيانا

والموتُ يأتى بعدَ ذلك كلِّه * وكأنما يعنى بذاك سِوانا

وقال سفيان الثورى فى مدح كبره :

إنى وإن كان مسَّنى كِبَرٌ * على ما قد ترين من كِبَرى

أعرف من قبل أن تفارقنى * موقعَ سهمى والسهم فى الوتر

(١) فى بعض الأصول : « الخنساء » .

من صحب من ليس من نظرائه لخصال فيه

حارثة الغدانى وزياد

كان حارثة بن بدر الغُدانى فارسَ بنى تميم ، وكان شاعراً أديباً ظريفا ، وكان يُعاقر الشراب ويَصْحَب زيادا ، فقيل لزياد : إنك تَصْحَب هذا الرجل وليس من شاكلتك . إنه يُعاقر الشراب . فقال : كيف لا أصحبه ولم أسأله عن شىء قط إلا وجدتُ عنده منه علما ، ولا مَشى أمامى فاضطرنى أن أُنادِيَهُ ، ولا مشى خلفى فاضطرنى أن ألتفتَ إليه ، ولا راكبنى فمسّت رُكبتى رُكبتَه . فلما هلك زياد قال فيه حارثة بن بدر :

أبا المُغـيرةِ والدنيا مغرِّرةٌ * وإنّ من غَرّتِ الدنيا لمغرورُ
قد كان عندك للمعروفِ معرفة * وكان عندك للتنكير تنكير
لو خلَّدَ الخيرُ والإسلامُ ذا قدمٍ * إذاً لخـلَّدَكَ الإسلامُ والخيرُ

وتمام هذه الأبيات قد وقعت فى الكتاب الذى أفردناه للمراثى .

وكان زياد لايداعَب أحدٌ فى مجلسه ولا يُضحَك ، فاختصم إليه بنو راسب وبنو الطفاوة فى غلام أثبته هؤلاء وهؤلاء ، فتحيّر زياد فى الحكم ، فقال له حارثة ابن بدر : عندى أكرم الله الأمير فى هذا الغلام أمر ، إن أذن لى الأمير تكلمت به فيه . قال : وما عندك فيه ؟ قال : أرى أن يُلقى فى دجلة ، فإن رسب فهو لبنى راسب ، وإن طفا فهو لبنى الطفاوة ! فتبسم زياد وأخذ نعليه ودخل ، ثم خرج فقال لحارثة : ماحملك على الدعابة فى مجلسى ؟ قال : طيبةٌ حضرتنى ، أصلح الله الأمير خِفت أن تفوتنى ، قال : لا تَعُد إلى مثلها .

ابن زياد وحارثة وأبو الأسود

ولما ولى عبيد الله بن زياد بعد موت أبيه ، اطّرح حارثةَ بن بدر وجفاه ، فقال له حارثة : مالك لا تنزلنى المنزلة التى كان ينزلنى أبوك ؟ أتدّعى أنك أفضل منه أو أعقل ؟ قال له : إنّ أبى كان برَع فى الفضل بروعا لا تضره صحبةُ مثلك . وأنا حـدَث أخشى أن تُحرِقنى بنارك ؛ فإن شئت فاترك الشراب وتكون أولَ داخلٍ وآخرَ خارجٍ . قال : والله ماتركته لله فكيف أتركه لك ؟ قال :

فتخير بلدا أُوَلِّيكَهُ . فاختار سُرَّقَ من أرض العراق ، فولاه إياها . فكتب إليه أبو الأسود الدؤلى وكان صديقا له :

أَحارِ بن بدرٍ قد وليت ولايَةً ٭ فكن جُرَذًا فيها تخونُ وتسرقُ
وباهِ تميماً بالغِنى ، إنَّ للغِنَى ٭ لساناً به المرءُ الهيوبةُ ينطِقُ
وما الناسُ إلّا اثنانِ إما مُكذِّبٌ ٭ يقولُ بما يَهوَى وإمّا مُصدِّقُ ٥
يقولون أقوالًا ولا يُحكِمونها ٭ فإن قيل يوما حقِّقُوا لم يُحقِّقُوا
فدعْ عنك ماقالوا ولا تكترِث بهم ٭ فحظُّك من مالِ العراقَيْنِ سُرَّقُ

فوقّع فى أسفل كتابه : لا بُعْدَ عليك الرشد .

ابن الوليد البجلى وابن بيض

وكان ابن الوليد البجلى ، وهو ابن أخت خالد بن عبد الله القسرى ، ولى أصبهان ، وكان رجلا متسمِّتا متصلحا ، فقدم عليه حمزة بن بيض بن عوف فى صحبته ، فقيل له : إن حمزة لا يصحب مثلك ؛ لأنه صاحب كلاب ولهو . فبعث إليه ثلاثة آلاف درهم وأمره بالانصراف . فقال فيه : ١٠

يا بن الوليدِ المُرتجى سيبُه ٭ ومن يُجلِّى الحدثَ الحالِكا
سبيلُ معروفِكَ منّى على ٭ بالٍ فما بالى على بالِكا
حشْوُ قميصى شاعرٌ مُفْلِقٌ ٭ والجودُ أمسى حشوَ سِرْبالِكا ١٥
يلومُك النّاسُ على صُحْبتِى ٭ والمِسْكُ قد يستصحِبُ الرّامِكا
إن كنتَ لا تصحَبُ إلا فتًى ٭ مثلَكَ لن تُوتَى بأمثالِكا
هبْنِى أمرَءًا جئتُ أُريدُ الهُدى ٭ فجُدْ على جهلى بإسلامِكا

قال له : صدقت ! وقرّبه وحسُنت عنده منزلتُه .

عبد الرحمن بن الحكم وبعض ندمائه

وكان عبد الرحمن بن الحكم الأمير قد عتب على ندمائه ، فأمر نصرا الفتى بإسقاطهم من ديوان عطائه ولم يستبدل بهم ؛ فلما كان بعد أيام استوحش لهم ، فقال لنصر : قد استوحشنا لأصحابنا أولئك ! فقال له نصر : قد نالهم من سخط الأمير ما فيه أدبٌ لهم ؛ فإن رأى أن يرسلَ فيهم أرسلتُ . قال : أَرْسِلْ . فأقبل ٢٠

القوم وعليهم كآبة السخط ، فأخذوا مجالسهم ولم ينشرحوا ولا خاضوا فيما كانوا يخوضون فيه ، فقال الأمير لنصر : ما يمنع هؤلاء من الانشراح ؟ قال : عليهم أبقى الله الأمير وجْمة السخط الذى نالهم ، قال قل لهم : قد عفونا فلينشرحوا . قال : فقام عبد الرحمن بن الشمر الشاعر المتنجم ، فجثا بين يديه ، ثم أنشده شعراً له أقذع فيه على بعض أصحابه إلا أنه ختمه ببيتين بديمين ، وهما :

فيارحمة الله فى خَلقِهِ * ومَن جودُهُ أبدًا يَسكبُ
لئِن عِفتَ صُحْبَةَ أهلِ الذُّنوبِ * لقلَّ مِنَ الناسِ مَنْ تصحبُ

للنابغة

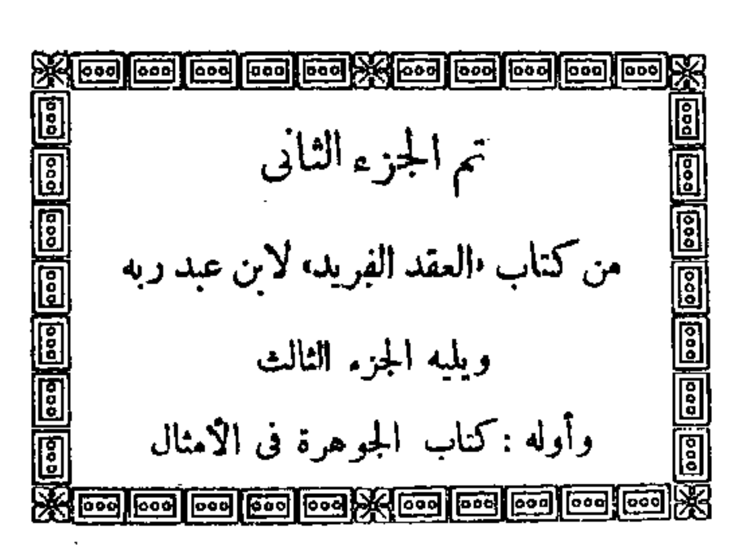
وأحسن ما قيل فى هذا المعنى قول النابغة :

ولستُ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ * على شعَثٍ أىُّ الرِّجال المُهذَّبُ ؟

قولهم فى القرآن

المريسى وأبو يحيى

كتب المريسىّ إلى أبى يحيى منصور بن محمد : آكتب : القرآن خالق أو مخلوق؟ فكتب إليه : عافانا الله وإياك من كل فتنة ، وجعلنا وإياك من أهل السنة ، وممن لايرغب بنفسه عن الجماعة ، فإنه إن تفعل فأعظِمْ بها مِنَّة ، وإن لا تفعل فهى الهلكة ، ونحن نقول : إن الكلام فى القرآن بدعة ، يتكلف المُجيب ماليس عليه ، ويتعاطى السائل ما ليس له ، وما نعلم خالقاً إلا الله ، وما سوى الله فمخلوق ؛ والقرآن كلام الله ، فانته بنفسك إلى أسمائه التى سماه الله بها فتكون من المهتدين ، ولا تُسَمِّ القرآن باسمٍ من عندك فتكون من الضالِّين . جعلَنا الله وإياك من الذين يَخْشَوْنَ ربهم بالغيب وهم من الساعة مُشْفِقونَ .

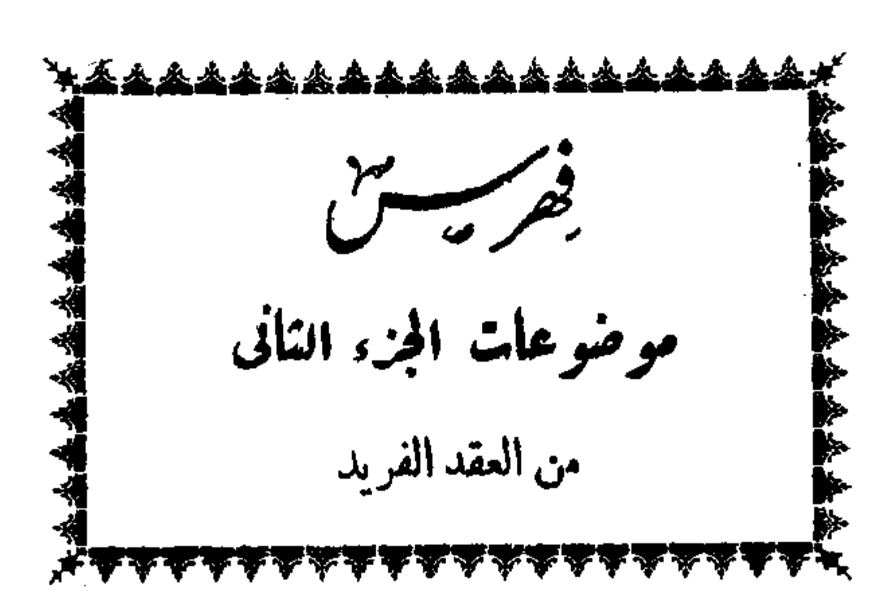


تم الجزء الثانى

من كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه

ويليه الجزء الثالث

وأوله : كتاب الجوهرة فى الأمثال



فهرس

موضوعات الجزء الثانى

من العقد الفريد

صفحة

صفحة

تم الفهرس

